يصدرها
حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

روبرت هتشنز

BELLA DONNA

بيلاّ دونّا

أشهر قصة عالمية تجري وقائعها في مصر!

لمؤلف "حديقة الله"

روبرت هيتشنز

بيلاّ دُونّا

BELLA DONNA

BY

ROBERT HICHENS

٢٠٠ صفحة
الثمن ١٠ قروش

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية
يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الرابع والعشرون

بيلادونا

تأليف : روبرت هيتشنز
ترجمة : شمس الدين الغريانى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن واحد وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة أجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية . وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر والثانى والعشرون ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل) .

قصة عن مصر

قرأها العالم كله .. ما عدا مصر !

عزيزى القارىء ..

◆ فى العدد العاشر من « كتابى » قدمت لك تلخيصا لقصة « حديقة الله » ، التى كتبها « روبرت هيتشنز » عام ١٩٠٥ فى اطار من جو بلاد (الجزائر) ذات السحر الشرقى الرائع .. وذكرت لك فى مقدمة ذلك التلخيص ان قصص « هيتشنز » تتميز على وجه العموم بطابع الجو « الشرقى » الغامض الذى يخلب لب الغربيين منذ أقدم العصور حتى اليوم ! .. وقد أشرت فى تلك المقدمة اشارة « خاطفة » الى ان للمؤلف قصة أخرى لا تقل فى روعتها – ان لم تزد – عن « حديقة الله » ، هى قصة « بيللا دونا » ، التى تجرى وقائعها فى مصر !

واذا كنت قد قرأت قصة محاكمة السيدة « مرجريت فهمى » ، قاتلة المرحوم على فهمى كامل ، التى نشرتها لك فى ذلك العدد ذاته من « كتابى » ، فلعلك تذكر عبارة وردت خلالها على لسان محامى المتهمة « سير مارشال هول » فى مرافعته البليغة ، وقد جاء فيها قوله يخاطب المحلفين : « انكم تذكرون جميعا ولا شك تلك القصة الخلابة التى كتبها « روبرت هيتشنز » وأطلق عليها « بيللا دونا » ، وتذكرون المنظر الختامى فيها ، الذى تخرج فيه المرأة من أبواب الحديقة الى الليل الحالك فى صحراء مصر .. » .. ثم قارن المحامى البارع بين ذلك المنظر من القصة ، وموقف بطلتها ، وبين موقف موكلته المتهمة فى الجناية الكبرى ..

ولا شك ان اشارة المحامى ذائع الصيت فى مرافعته التى تحدث عنها العالم وقتئذ ، الى قصة « بيللا دونا » ، بهذه اللهجة وهذه العبارات – بعد صدور القصة بأربعة عشر عاما ! – لتدل على مبلغ الرواج والشهرة اللذين أحرزتهما القصة ، والمكانة التى بلغتها فى المحافل الأدبية وعند الرأى العام ، بحيث توسم المحامى فى المحلفين جميعا أن يكونوا قد قرأوها ، وعلق بأذهانهم ذلك المشهد الأخير منها الذى تحدث عنه !

القصة التى جلبت لمصر طوفانا من السائحات الحالمات بالحب !

◆ وقد ولد المؤلف « روبرت سمايث هيتشنز » فى بلدة (سبلد هرست) بانجلترا فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٦٤ .. وبعد ان أنفق سنوات فى دراسة الموسيقى – استعدادا لاحترافها – ألفى نفسه ميالا الى الانسياق فى اتجاه آخر ، هو الصحافة ! .. وقد كتب أولى قصصه الطويلة فى سن السابعة عشرة . وفى سن التاسعة والعشرين كتب قصته الثانية ، الساخرة ، « القرنفلة

الخضراء » ٠٠ ثم أعقبتها قصته الثالثة « نداء الدم » ٠٠ وفى سن الحادية والأربعين أصدر « حديقة الله » ، (التى أخرجت بعد ذلك فى شريط سينمائى ملون مثلته « جريتا جاربو » مع « شارل بواييه ») ٠٠ وفى سن الخامسة والأربعين أصدر « هيتشنز » قصته هذه « بيللا دونا » ، التى أقدم لك ترجمتها « الكاملة » فيما يلى ٠

وقد أحدث صدور هذه القصة ـ فى عام ١٩٠٩ ـ ضجة كبرى جعلت اسم مصر يتردد خلال السنوات التالية على كل لسان ٠٠ فتقاطر السائحون لزيارتها ، من كافة أقطار العالم ، بحيث صارت هذه الزيارة « موضة » العصر التى يتنافس عليها القادرون ، ونساء الطبقة المترفة اللواتى يحلمن بعاشق أسمر من طراز « البارودى » ـ بطل القصة ـ يتداعين بين ذراعيه القويتين ، تحت سماء مصر المرصعة بالنجوم !

٠٠ ولعل من العجيب أن ينقضى على صدور هذه القصة العالمية ـ الوحيدة من نوعها ، التى تصور مصر ومعالمها فى مئات الصفحات ! ـ ينقضى عليها نحو نصف قرن ، تترجم خلاله الى كثير من اللغات ، ويقرأها الناس فى كثير من أقطار العالم ٠٠ ولا تحرم منها غير لغة وأهل البلد الذى كرست لوصفه ، والذى تجرى وقائعها على أرضه ٠٠ وأعنى بهذا البلد : مصر ! ٠٠ لذلك تعتز « مطبوعات كتابى » بأن أتيحت لها اليوم فرصة نفض أكفان النسيان عن القصة ، وتقديمها لقراء العربية ، فى مصر وجاراتها الشقيقة ، لأول مرة فيما أعلم ٠٠

لا ينبغى أن نسلك مسلك النعامة !

◆ بقيت كلمة لابد منها : فانك ستلحظ فى سياق القصة بعض «وخزات» تمس الشعور القومى فينا ـ نحن المصريين ، والشرقيين عامة ـ على ان هذه الوخزات فى رأيى أدعى الى أن تترجم وتنشر فى بلادنا كما هى ، اذ لن يجدينا أن نخفيها عن أنفسنا ، فى الوقت الذى يقرأها فيه الناس فى شتى أركان الأرض، والا كنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال كى لا يراها الغير !٠٠ بل ان هذه الوخزات تفتح أعيننا على حقائق هامة : فهى توضح لنا كيف يرانا أهل الغرب ، وبأى أسلوب يكتبون عنا ، وبأى منطق يفكرون فينا ، وبأى منظار من التحامل الواضح ينظرون الينا ٠٠ وهى كلها حقائق ينبغى أن نتدبرها جيدا ، ونعد لكل سلاح منها ، السلاح الذى يفله !

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

بيلادونّا

للروائى الكبير "روبرت هيتشنز" مؤلف "حديقة الله"

تتضمن هذه الطبعة الترجمة الكاملة الأمينة للقصة كما كتبها مؤلفها ، دون اى تصرف أو اختصار لأى سطر او لفظ فيها !

المترجم

الفصل الاول

◆ **شق** الدكتور « ماير ايزاكسون » طريقه فى الحياة بشكل لا يتاح الا ليهودى عصرى يقيم فى لندن ، وبسرعة تثير العجب والحيرة . فقد لاح أنه اندفع الى قمة النجاح اندفاع الرصاصة الى الهدف .. وبعد أن كان خامل الصيت ، اذا به بغتة فى ذروة المجد والشهرة . وما قدر لأحد أن يشهد خطواته نحو هذه الغاية ، وانما أصبح اسمه فجأة على كل لسان .. واذا كل انسان يتحدث عنه ، ويفيض فى الكلام عن حالات الشفاء التى تمت على يديه ، وينصح كل انسان غيره أن يذهب لزيارته ! .. **ولسبب خفى أخذ اسمه – وهو اسم لا ينساه المرء اذا ما سمعه مرة – ينفذ الى الأحاديث التى تدور فى «الصالونات» الراقية بلندن ، فاذا بالنساء السليمات الصحة – ممن لم يزرنه من قبل – يتوعكن فجأة ، ويشعرن بالحاجة الى مشورة طبية عاجلة !** .. وأصبح السؤال الدائم على الأفواه : « أين يقيم ؟ .. فى هارلى ستريت طبعا؟ » . ولكنه لم يكن يقيم فى شارع (هارلى) ، فما هو بالذى يغمر اسمه فى ذلك الخضم من اللافتات النحاسية لزملائه الأطباء ..

ومن ثم كان السائلون يدهشون ويصابون بما يشبه خيبة الأمل عندما كانوا يسمعون انه يقيم فى ميدان (كليفلاند) بحى (سان جيمس) ، حيث تقع داره المنعزلة ، المؤثثة بأفخر الرياش

وحلقت الشائعات بجناحيها تذيع انه موفور الثراء ، لا يمارس الطب الا لأن ملكاته الذهنية كانت تحبب اليه هواية دراسة الأمراض ، وانه أوتى موهبة خارقة فى تشخيص العلل ، لا يملك أن يغفل استخدامها ، كما ان به شغفا ونهما الى الدراسة الانسانية ٠٠ ومن ذا الذى تواتيه الفرص لدراسة الانسان مثل ما تواتى الطبيب والقس ؟!٠٠ وكان المرضى الذين استشاروه يتحدثون ـ فى حرارة ! ـ عن عينيه النفاذتين ، وعن قوة ملاحظته ، وعن الأثر البالغ الذى تتركه فى النفس شخصيته الجارفة ٠٠ وأصبح التعليق الشائع عن الدكتور ماير ايزاكسون أنه « **فريد لا يماثله أحد قط !** » ، فكانت هذه العبارة أعظم اطراء تداولته الأفواه فى لندن ٠٠ مدينة الببغاوات والقرود !

وكانت سنه موضع جدل ، وكذلك كان أصله ! ولقد قدر الناس أنه فى « نحو الأربعين » ، وهى سن مأمونة رزينة ، تتيح له من الشباب ما يبشر بآمال غير محدودة ، وما يوحى برجاء كبير فيما ينتظر أن يأتيه من جلائل الأعمال ٠٠ كما أنها تتيح له من النضوج ما يجعل النتائج التى أحرزها رائعة مدهشة ، ان لم تكن فذة خارقة ٠٠ أجل ، لا بد أنه فى « نحو الأربعين » ! ٠٠ **وأصله ؟!٠٠ ان اسم «ماير» يذكر السامع بألمانيا ، أما «ايزاكسون» فيذكر المغرقين فى الخيال باسرائيل الضائعة !٠٠ وقد قال بعض الناس عنه انه « يبدو كما لو كان قادما من الشرق » ، فعقب أحد السفهاء على ذلك بقوله « شرق لندن » ! (وهو الحى الذى يقطنه الفقراء وحثالة القوم فى العاصمة الانجليزية)**

ولعله كان فى طبيب ميدان (كليفلاند) مايوحى بهذا أو ذاك ٠٠ فمن المحقق انك لو سرت موغلا فى (بريك لين) ـأو الدروب الضيقة المؤدية اليه ـ فى شرق لندن (ايست اند) ، لالتقيت برجال من طرازه : متوسطى الطول ، نحاف الأبدان، ذوى شعر كثيف مجعد ، وشفاه مقوسة ، وأنوف واسعة ، ووجنات بارزة العظام ، وعيون سوداء يروعك منها بريقها الوحشى ٠٠ رجال تدرك لأول وهلة أنهم ليسوا من الانجليز فى شيء !٠٠ ولقد كان الدكتور ماير ايزاكسون شبيها بهؤلاء الرجال ، ومع ذلك فقد كان فيه شيء يبعده عنهم كل البعد ٠٠ كان ذا حيوية غزيرة دافقة ـ تكاد تزيد على المألوف اذا ما اختلط بالانجليز ـ ولكنه لم يكن يبدو قط جشعا ،أو نهما ينشد فريسة !٠٠ وقد يتصور المرء أن هذا الرجل خليق بأن يأتى أمرا غير عادى أو شاذا ، ولكن المرء لا يتصور البتة أنه يقوى على ارتكاب أية خسة أو دناءة ٠ بل لقد كان ينبعث من عينيه أحيانا بريق ينم عن سمو خلقى من النادر أن تجده فيمن يقيمون فى (بريك لين) أو حواليه ٠٠ وكانت يداه النحيلتان العصبيتان ، سمراوين ، تذكرانك بأيدى علاة القوم من المصريين ! ٠٠ وكان ـ مثل الكثيرين من بنى جنسه ـ فنانا بطبعه ، يجرى مع الدماء فى عروقه حب غريزى لأسمى ما وصل اليه الانسان من الابداع فى الخلق ، فكان شديد الاهتمام بالجميل من الأشياء ، قادرا على التمييز بين الغث والسمين ، لا يروقه ما يأتى فى المرتبة الثانية وانما يشتد حماسه وتقديره لما يكون فى المرتبة الأولى من التحف٠٠ وماكان يمل قط من ادمان النظر الى الصور الجميلة والتماثيل العظيمة والزجاج النفيس القديم والنقوش الدقيقة والجواهر الثمينة ، كما كان بطبعه شديد التأثر ببدائع فن البناء والعمارة ٠ أما الموسيقى فقد كان شغوفا بها الى حد التطرف شأن الكثيرين من اليهود

ويقال عن رجال اليهود ان بهم دائما بعضا من صفات الأنوثة الحقة ، لا التأنث أو التشبه بالنساء ٠٠ وقد كان لدى الدكتور ماير ايزاكسون شىء من ذلك ، اذ كان كالنساء فى سرعة البديهة وصدق الالهام ، وفى حرارة الميل نحو الشىء أو النفور منه !٠٠ وكان يفهم النساء بغريزته كما يفهمن بعضهن بعضا ، وكثيرا ماكان يعرف الشىء عنهن دون أن يدرى كيف عرفه ٠٠ ومن حسن الحظ أن مثل هذه المقدرة على فهم النساء كانت نادرة بين الرجال ، ومن ثم كان الدكتور «ماير ايزاكسون» يسير فى الضياء ، حيث كان معظم الرجال يتخبطون فى الظلمات ! ولكنه لم يكن متزوجا ٠٠ وقد يرى الكثيرون ان العزوبة تنقص من قدر الطبيب ، وتقف فى سبيل مستقبله ٠٠ الا أن الدكتور «ماير ايزاكسون» لم يجد الأمر كذلك بالنسبة اليه ، فمع أنه لم يكن اخصائيا فى الأمراض العصبية ، الا ان حجرة الانتظار بعيادته كانت ملأى دواما بالمرضى الى درجة ما كانت لتدع مجالا لمزيد ، لو انه كان متزوجا ٠٠ بل لعلها كانت اذ ذاك تغدو أقل ازدحاما !٠٠ وماكان الطبيب ليحفل بالتفكير فى عزوبته أو زواجه ٠٠ كل الذى كان يدريه هو أنه أصبح ـ على حين غرة ـ « موضة » اليوم فى لندن ، وظل محتفظا بهذه المكانة ! ٠٠ كذلك لم يكن فى طباعه غرابة أو شذوذ يستهوى النساء ٠٠ فهو لم يبهر مجتمعهن بغلظة مفتعلة ، ولا فتن هذا المجتمع برقة سخيفة مصطنعة ، وانما كان يظهر دائما بمظهر طبيعى ، ويبدو ذكيا ، يقظا ، بالغ الاهتمام بالشخص الذى يجالسه ٠ ومن المحقق انه كان رجلا اجتماعيا ٠٠ فكثيرا ما كان يرى فى صالات الموسيقى ، ودار الأوبرا ، ومآدب العشاء ، وحفلات الاستقبال ، بل انه كان يغشى أحيانا حفلات الرقص الكبيرة ٠٠ كما كان يمتطى جواده ـ فى الصباح المبكر ـ فى جولة بالمتنزه ، ويقيم مأدبة عشاء كل أسبوع فى ميدان (كليفلاند)

.. وكان الناس يحبون الذهاب الى منزله ، وتلبية دعواته ، ليقينهم من أنهم لن يسأموا ولن يضجروا ، ولن يتناولوا طعاما مسموما !.. ولم يكن الرجال أقل تقديرا له من النساء ، على الرغم مما كانوا يجدونه فيه من آثار (بريكلين) وشرق لندن!.. **فان استقامته ، ومهارته ، وطيبته البادية للعيان ، كانت لا تلبث ان تقضى على ماكان يثيره مظهره لدى الانجليز ، المفطورين على النفور من الأجانب !.. ولم يكن يبغضه أحد الا أن يكون من أعداء اليهود الألداء !**

وعلى هذا النحو استقرت حياة الدكتور ماير ايزاكسون ، كأطيب ما تستقر حياة انسان ، حتى حسبه الكثيرون واحدا من السعداء فى هذا العالم !

* * *

◆ **وفى** صباح يوم من شهر يونيو، يمم الطبيب شطر ميدان كليفلاند عائدا من نزهته الصباحية ، وحيدا لا يرافقه أحد .. وكان الجواد الأدهم النشيط الذى امتطاه ، والذى لم يكن يقل فى حيويته الدافقة عن صاحبه ، قد دار دورته ركضا فى متعرجات المتنزه ، ثم مضى يسير خببا نحو قصر (باكنجهام) وهو يتشمم الهواء الراكد بخياشيمه الحساسة ..وكانت النذر توحى بأن اليوم سيكون حارا ، مما بعث فى نفس الطبيب ميلا الى التلبد والكسل . وأحس فجأة بوطأة العمل عليه واسترقاقه اياه ، اذ انه لن يلبث ان يصل الى ميدان كليفلاند ـ بعد دقائق ـ فلا يكاد يستحم ويتناول قدحا من القهوة ويلقى نظرة سريعة على صحيفتى «التايمس» و «الديلى ميل» ، حتى يبدأ زحف الموكب الذى يظل حتى المساء متلاحقا على عيادته ! .. وتنهد الطبيب ثم جذب عنان جواده ليبطىء فى سيره ، اذ كان فى ذلك اليوم نافرا كل النفور من الالتقاء بهذا الموكب من المرضى ، رغم انه كان يجلب اليه نفعا جديدا

فى كل يوم !

وكان الطبيب ـ بوجه عام ـ رجلا حاد الذكاء . ولم تكن به حاجة الى التظاهر بالحرارة والاهتمام ، فهما صفتان أصيلتان فيه . وكان يهوى البحث والاستقصاء ، فوجد فى مهنته ما يمكنه من اشباع هوايته . وكان قاصدوه ـ بصفة عامة ـ من علية القوم ، فكان خادمه اليهودى يدخلهم عليه واحدا بعد الآخر ، كلا بدوره ، خليطا من الناس أحاطت بهم شباك الحياة المدنية الحديثة .. فكان الطبيب يحب أن ينفرد بهم فى حجرته الهادئة ، فينقب فى كل منهم عن الروابط الخفية التى تجمع بين الجسد والعقل فى الانسان ، ويرقب قوة جذب الروح للجسد أو الجسد للروح .. ولكنه كان فى ذلك اليوم راغبا عن العمل .. وكان فى أعماق نفسه شىء ما ، يخفيه عادة نشاطه المتدفق .. شىء يجعله يتوق الى الجلوس فى الشمس المشرقة ليسبح فى الخيال ساعات متتابعة ، تاركا الأقدار جميعا تمضى فى هدوء ، أو بغير اكتراث ، بين يدى الله !.. وكان يقول لنفسه : « **سوف أحصل على أجازة يوما ما .. أجازة طويلة ! وسأمضى بعيدا عن هنا .. الى الأرض التى أحس حقا انها وطنى .. الى حيث أشعر اننى فى مكانى الطبيعى !** » .. وفيما كان يفكر فى ذلك ، رفع عينيه ، فاستقرت أنظاره على جدران القصر الملكى الداكنة ، وعلى الأسوار المذهبة التى تفصل القصر عن الطريق العام، والحراس الذين كانوا يقومون بنوبتهم ، نضرى الوجوه ، مرهفى الحس واليقظة ، وهم يتطلعون الى لندن بتلك العيون الهادئة .. البريطانية !.. وعاد يردد فى نفسه : «فى مكانى الطبيعى!». وعندئذ انبعثت الابتسامة الى عينيه وشفتيه معا ، وبدا له انه يرى لندن كما لو كانت مسرحية هائلة .. أو مشهدا يستطيع أى طالب صغير أن يستوعبه فى لمحة واحدة !

ترى هل كان الكسل هو مايتوق اليه حقا ؟.. لقد تبدلت

رغبته فجأة ، دون أن يدرى لهذا التبدل سببا ، فاذا به يجد فى نفسه رغبة فى ان يخوض أحداثا جساما ، رهيبة ، مروعة .. أحداثا غير مألوفة ، تحوى من العنف ما يرفع الرجل المنغمس فيها فوق مستوى سائر الرجال !.. لقد استيقظ العنصر الأجنبى فى نفسه ، وربما أيقظه من غفوته هذا الهواء الساكن الى حد لم يعهده من قبل ، فاذا لندن تبدو له مدينة تافهة .. مدينة لا يمكن فيها لرجل من طرازه أن يسبح فى الخيال أو يركن الى العمل بكل ما فيه من تخاذل ، أو بكل ما فيه من قوة ونشاط !.. **وراح يتخيل ـ كما يفعل الأطفال الأذكياء أحيانا ـ بلدا بعيدا نائيا من تلك البلدان التى تنتشر فيها أساطير الحب طياتها اللامعة ، حيث يمكن أن يجد الحافز الذى يحتاج اليه لبعث قواه الكامنة جميعا الى ممارسة أقصى نشاطها .. تلك القوى التى يحس ان استخدامها كفيل بأن يكمل حياته !**

وضغط على جنبى جواده بركبتيه ، ففهم الحيوان رغبته ، وانطلق يركض حثيثا .. ومر سريعا أمام حديقة قصر (ستافورد) ، ثم استدار الى اليسار أمام قصر (سان جيمس) ، ثم قصر (مارلبرو) ، وما لبث أن بلغ باب منزله .. وفيما كان يمضى الى الداخل ، قال لخادمه : « أرجو أن تحضر لى المفكرة والقهوة بعد عشرين دقيقة يا هنرى ! »

* * *

◆ **وبعد** نصف ساعة ، كان يجلس فى مقعد مريح فى حجرة جلوس بالطابق العلوى ، يرشف قهوته ، وقد استقرت الصحف بالقرب منه ، لم تمس .. وعلى ركبته كانت المفكرة مفتوحة ، تحوى أسماء المرضى الذين كان على موعد معهم فى ذلك اليوم .. وأخذ يتطلع الى الأسماء ، عسى ان يجد بينها واحدا يثير اهتمامه !.. كان مريضه الأول رجلا يمر بعيادته

كلما كان فى طريقه الى حى المال والأعمال ·· وتلت ذلك أسماء ثلاث نساء ، ثم اسم غلام كان قادما مع أمه ، وهى سيدة ذات عقل قلق مضطرب ·· وكان الطبيب قد تلقى منها أكداسا من الخطابات !·· وبهذا ينتهى عمله فى فترة الصباح · وقلب صفحة أخرى من المفكرة ليرى مواعيده فى فترة بعد الظهر ·· ثم أخذ يتلوها مغمغما : « الساعة الثانية ، مسز ليزير · الثانية والنصف ، مس منديس · الثالثة ، أسقف جريستون · الثالثة والنصف ، ليدى كارل · الرابعة ، مدام دى ليس · الرابعة والنصف ، مسز هارنجباى · الخامسة ، سير هنرى جريب · الخامسة والنصف ، مسز تشبستو » ·· وكان هذا آخر اسماء المرضى بقائمة اليوم ، فقد كان عمل الدكتور ماير ايزاكسون ينتهى فى السادسة ، أو هكذا كان يفترض ، ولو انه غالبا ما كان يمنح بعض مرضاه أكثر من نصف الساعة المقرر ، فكان بذلك يطيل من ساعات عمله ·· ولكنه ماكان يقبل فى منزله أحدا يأتى لاستشارة طبية بعدالمريض الذى يحدد له الساعة الخامسة والنصف ·· ومن ثم فقد كانت مسز تشبستو آخر المرضى الذين كان عليه أن يفحصهم فى ذلك اليوم ··

وجلس ساكنا برهة ، والمفكرة مفتوحة فوق ركبته ، وهو ينظر الى اسمها ·· كان اسما معروفا له حق المعرفة ·· اسما ذائع الصيت فى دنيا الناطقين بالانجليزية عامة ·· فقد كانت مسز تشبستو احدى روائع الحسن والجمال ، ولكنها كانت توشك على الأفول · وبعد اذ طال يوم مجدها وأمعن فى الطول ، أصبح يبدو وقد جنحت شمسه للمغيب ، وخبا ضياؤه ·· كانت قد جاوزت الأربعين ، وان زعمت انها فى الثامنة والثلاثين ·· اجل ، كانت فوق الأربعين حقا !·· ويقول البعض ان الطيبة والصلاح يحفظان على النساء نضرتهن ·· وقد جربت مسز تشبستو قدرا عظيما من

وسائل الاحتفاظ بنضارتها ، الا أنها أغفلت هذه الوسيلة !٠٠ وكانت الخطوة بين البذخ والتقشف هي الخطوة الوحيدة التي لم تتخذها قط فى حياتها ، رغم انها اتخذت كثيرا من الخطوات التى كان بعضها ـ لسوء الحظ ـ غير موفق ٠٠ وكانت فتاة طيبة المنبت ، تنحدر من والدين أرستقراطيين ، ولكنهما كانا مفلسين مبذرين ٠٠ فأما والدها « أفرارد بيج » ـ وهو أحد أبناء اللورد تشيام ـ فقد اتخذ لنفسه مقرا مختارا فى محكمة التفاليس ! ٠٠ وأما والدتها ، فكانت بالمثل شديدة الاسراف فى المال ، تقول كلما جاء ذكره : « اننا نرزق المال لننفقه ، لا لندخره ونكتنزه ! » ٠٠ لذلك كان اكتنازها المال من القلة بحيث اضطر زوجها الى نشر اعلان فى الصحف الكبرى يقرر فيه انه لن يكون مسئولا عن ديونها !٠٠ وكان قد انقضى عهد طويل مذ كان مسئولا عن ديونه هو ، ومع ذلك فقد نم هذا الاعلان عن شىء من الكرامة والاعتزاز ، شأن الرجل الأمين الذى يعلن فى صراحة عن حقيقة مركزه !

والأرجح أن حياة مسز تشبستو تأثرت بمتاعب والديها المالية ٠٠ فقد تعلمت منذ الصغر ان تفزع من الفقر ، وعرفت كيف يباع أثاث المرء وفاء لديونه ، مرتين ، قبل أن تبلغ العشرين من عمرها٠ ولعل ذلك هو الذى أدى بها الى أن تختار ان تبيع نفسها فيما بعد !٠٠ ومهما يكن من أمر فانها لم تكد تبلغ الحادية والعشرين من عمرها ، حتى «بيعت» الى مستر « وود هاوس تشبستو » ، وهو تاجر خمور ثرى ، لم تكن تشعر نحوه بأى ميل أو هوى ٠٠ ونالت بوصفها مسز تشبستو شهرة ذائعة فى المجتمع اللندنى ، كاحدى ربات الجمال البارع ، وأطلق الناس عليها اسم « بيلا دونا » ٠٠ أى « ست الحسن» ! ٠٠ ونشرت صورها ، وكثرت الكتابة عنها ، ولهج بذكرها علية القوم ، حتى ذاع صيتها فى أنحاء العالم كما يمكن أن تذيع شهرة امرأة لا فضل لها ولا ميزة سوى الجمال والحسن ،

دون عمل مجيد تأتيه !

وما لبثت ان غدت بطلة قضية طلاق كبرى .. **فقد نسى مستر تشبستو ان من الواجبات المحتومة للزوج العصرى ان يغمض عينه عن النزوات العارضة لزوجة محبوبة تنال اعجاب الناس عامة ، فأذاع فجأة بعض الحقائق البشعة ، وبذلك دمر سمعة مسز تشبستو تدميرا ، وربح قضية الطلاق ، كما قضى له بتعويض جسيم من رجل متزوج من رجال المجتمع المعروفين .. واضطرت زوجة الرجل الى طلب الطلاق منه بدورها . وهكذا قضى على مسز تشبستو اجتماعيا ، قضاء مبرما !**

وعندئذ بدأت المرحلة الجديدة فى حياتها .. مرحلة تختلف كل الاختلاف عما سبقها . ولم تكن اذ ذاك قد جاوزت السادسة والعشرين من عمرها ، كما انها كانت فى ذروة جمالها وبهائها .. واعتقد الناس جميعا ان الرجل الذى كان سببا فى دمارها لن يلبث ان يتزوج منها بأسرع وقت ممكن . ولكنه لسوء الحظ قضى نحبه قبل أن يصبح الحكم نهائيا .. وهكذا أودعت مسز تشبستو مستقبلها بين يدى الأقدار ، التى قلبت لها ظهر المجن ، فاذا بها – وهى فى أوج شهرتها وذروة جمالها وميعة صباها وشبابها – قد دمرت حياتها وتركت وحيدة ، مضطرة الى ان تدبر لنفسها وسائل العيش فى هذا العالم . واذ ذاك برزت بين صفاتها وأخلاقها خلة غير حميدة .. فقد راحت تذكى حبها للمال ، ورغبتها الجياشة فى المادى من الأشياء !.. ولم يظهر هذا الجشع الا بعد ان غدت فقيرة وحيدة .. ولعله كان كامنا فى نفسها دوآما ، ولكنها كانت تخفيه .. أما وقد أصبحت فى غير حاجة الى اخفاء نهمها وجشعها ، فانها أظهرتهما وراحت ترتب حياتها لاشباعهما وارضائهما !

ولقد استطاعت اشباعهما حقا ! أو انها – على الأقل – قضت سنين عدة تهدىء من سورتهما . واحتفظت بشهرتها الذائعة ، مع فارق واحد : هو أنها غدت مسز تشبستو ذات

السمعة المريبة ! ولم يكن لها ولد تصون سمعتها من أجله ، كما ان أباها كان قد قضى نحبه ، وذهبت أمها لتعيش فى بروكسل مع بعض أقربائها الأجانب ٠٠ ولم تعد مسز تشبستو تبالى بأقربائها الانجليز ، بعد اذ انقلبوا جميعا ضدها منذ فضيحة الطلاق ٠ وارتدت دروعها الفولاذية كاملة ، شأنها فى ذلك شأن كل امرأة تحدق بها المتاعب ، ومضت تتحدى أولئك الذين ناصبوها العداء ٠٠ لقد فشلت فى حياتها الأولى، ولكنها أشد ما تكون عزما على النجاح فى حياتها الجديدة !٠٠
والحق انها لقيت نجاحا عظيما لفترة غير قصيرة ، كان الرجال خلالها يتهاوون عند قدميها ويتفانون فى اشباع رغباتها ٠٠ وانطلقت تعيش كما خيل اليها أنها تهوى أن تعيش : فى بذخ ورفاهية ! وكانت تنال أكثر مما تناله معظم النساء الصالحات، فكانت تجد فى ذلك لذة لا تعدلها لذة !٠٠ وعلى الرغم من حبها الشره للمال ، فان صفات والديها كانت تتغلب عليها ، فاذا بها مسرفة غاية الاسراف ، كما كان والداها من قبل ٠٠ بل ان حبها للمال كان مرده الى حبها للانفاق ، لا الاكتناز ٠ وقد ظلت سنين عدة تبعثره يمنة ويسرة بكلتا يديها ، حتى اذا شارفت الأربعين ، بدأت نضرة جمالها تميل نحو الذبول ٠٠ ولما كانت امرأة ذائعة الصيت ، فقد كان عليها ان تحتمل مصير أولئك الذين يظلون طويلا حديث المجتمع ٠٠ أما الرجال فكانوا يقولون عنها : « مسز تشبستو ؟٠٠ أوه ! لقد طال العهد بها كثيرا ، ولا بد انها الآن فوق الخمسين ! »٠٠ وأما النساء ـ وعلى الأخص الصالحات منهن ـ فكن يؤكدن انها أقرب الى الستين !

وكما يحدث فى مثل حالها عادة ، جنح الطيف الوردى فجأة الى الانحسار عن حياتها ، وأخذت الظلال القاتمة تزحف عليها رويدا ! وصارت ترى فى المجتمعات فى صحبة شبان صغار ، بل غلمان على الأغلب !٠٠ وبدأ الناس يسخرون منها كلما تحدثوا عنها ، فكان يقال انها لم تعد فى حالة طيبة

كما كانت من قبل ، وان أحد أصحاب الملايين المزعومين قد زج بها فى بعض المضاربات الفاشلة ، ثم لم ير من الضرورى ان يسدد لها خسائرها ٠ وانتقلت من منزلها فى (بارك لين) الى مسكن فى (فيكتوريا ستريت) ، ثم الى مسكن صغير فى (كنسنجتون) ٠٠ وما لبثت ان تخلت عن هذا واتخذت لها مسكنا بسيطا فى الريف ، كانت تذهب اليه وتعود منه الى المدينة بسيارتها ٠٠ وسرعان ماسئمت هذه الطريقة فعادت لتعيش فى أحد فنادق لندن ٠٠ وباعت يختها ، كما باعت قدرا من الماس كانت تقتنيه ٠ ومضى الناس يقولون : « مسز تشبستو ؟ اوه ! لا بد انها الآن فوق الخمسين ! » ٠٠ وما من شك فى انها كانت تواجه وقتا عصيبا ٠٠ ومع كل شهر يمر عليها ، كانت الوحدة تحملق فى وجهها ، وتمضى تتفرس فى عينيها بنظرات باردة جامدة حتى تحس كأن دوارا قد أوشك أن يحل بها ، وأن قوة خفية تنومها تنويما مغناطيسيا ٠٠ وبدأ الكلل يزحف على نفسها ، والتبلد يسرى فى كيانها !

وحلت الأربعون، فالحادية والأربعون، ثم الثانية والأربعون ٠٠ واذ ذاك ، وفى ذات صباح من أيام شهر يونيو ، جلس الدكتور ماير ايزاكسون يرشف قهوته ، وهو ينظر الى اسمها وقد كتب أمام الساعة الخامسة والنصف فى المفكرة الخاصة بمرضاه !

الفصل الثانى

◆ **لم يكن الدكتور ماير ايزاكسون يعرف مسز تشبستو شخصيا ، ولكنه كان يراها اتفاقا فى ساعة العشاء فى بعض المطاعم الفاخرة ، أو فى بعض الأمسيات وهى تمتطى صهوة جوادها فى المتنزه ٠ فلما أخذ يتأمل اسمها فى مفكرته ، تبين انه لم يرها فى الواقع منذ مدة طويلة ، لعلها تناهز العامين ٠٠ وكان قد سمع بالشائعات التى ذاعت عن تدهور حالتها ، ولكنه لم يعرها أذنا**

واعية ، اذ لم تكن مسز تشبستو تثير فى نفسه اهتماما خاصا ٠ ومع ذلك فانه – عند ما طوى مفكرته فى ذلك الصباح ، ونهض من مجلسه ليمضى الى عمله – أحس فى نفسه برغبة قوية فى ان يسمع الساعة تدق النصف بعد الخامسة ، وان يرى هنرى وهو يفتح الباب ليقود مسز تشبستو الى حجرة الاستشارة ٠٠ فان امرأة عاشت عيشتها واكتسبت شهرتها – أو سوء سمعتها ! – خليقة بأن تثير الاهتمام !٠٠ واخذت تراوده الرغبة فى تعجل سير الزمن ، كلما مضى النهار متثاقلا ٠٠ حتى اذا ما فحص السير هنرى جريب – المريض قبل الاخير – أثبت فى قائمة اليوم انه كهل مريض بالوهم ، يعتبر صورة جديدة لبطل قصة موليير المعروفة (المريض بالوهم) ، بطىء الحركة مضطرب الحديث دائب الشكوى ٠٠ وقاوم الطبيب نفسه ليكبح الرغبة التى استبدت به فى ان يكتب له وصفة (روشتة) سريعة ببعض الحبوب المقوية ، ثم يقوده الى الباب المفضى الى طريق قصر مارلبرو ! ودقت الساعة معلنة النصف بعد الخامسة ، وما زال السير هنرى يشرح الأعراض العجيبة التى كانت تقض مضجعه : الطنين الذى يملأ رأسه ، والتقلصات التى تصيب أطرافه بغتة ، والدبيب الذى يحسه عند جذور شعره كأنه حشرات ذات سيقان مثلجة تمرح وترتع هناك !٠٠ وكانت عيناه تتألقان فى حرارة وحمية – شأن العليل القلق – وهو يجالس الرجل الذى يدفع له أجرا ليصغى الى شكواه ويعنى بعلاج اسبابها !

ولكن مسز تشبستو ؟ ترى هل حضرت ؟ اتراها تجلس الآن فى الحجرة المجاورة ، تقلب أنظارها بغير اهتمام فى أحدث الكتب الموجودة امامها ؟

واستطرد السير هنرى قائلا ، وهو يرفع اصبعه الى اعلى : « وان أعجب ظاهرة فى حالتى ، هى ذلك العرق البارد الذى ٠٠٠ » ، فقاطعه الطبيب قائلا : « ان نصيحتى لك هى ان ٠٠٠ »

– ولكنى لم اشرح لك بعد شيئا عن العرق البارد الذى ٠٠٠

– هذه نصيحتى لك يا سير هنرى : لا تفكر فى نفسك البتة ! وعليك بالمشى ساعة قبل الافطار يوميا ، واقصر طعامك على وجبتين فى اليوم ، فى الصباح والمساء ٠٠٠ وينبغى ان تنام ثمانى ساعات كل ليلة على الأقل ، وان تترك التسكع فى النادى ، وتشغل نفسك بالعمل من أجل الآخرين ما امكنك ذلك ! ففى اعتقادى ان هذا خير دواء مقو لك ٠ ولست أرى بعد ذلك سببا لكى لا تعيش حتى المائة !

– أنا ؟٠٠ اعيش حتى المائة ؟!

– ولم لا ؟ ليس بك من شىء سوى ما يصوره لك الوهم

– لا شىء ؟٠٠ اتقول انه ليس بى من شىء ؟

– لقد فحصتك ، وهذا رأيى

فتورد وجه المريض من فرط الحنق لهذه « الاهانة » الصارخة ، وقال :

« لقد جئتك لتخبرنى عما بى ٠٠٠ »

– ويسرنى أن أخبرك بأنه ليس بك من شىء ٠٠ فى جسمك !

– هل تعنى بهذا التلميح أن عقلى هو المريض ؟!

– كلا ، ولكنك لا تفسح له مجال التفكير ٠٠ فانت لا تفكر الا فى نفسك فحسب ، وهذا لا يكفى البتة !

فانبعث السير هنرى قائما ، ودس اصبعا مرتعدة فى جيب صديريته وهو يقول : « احسبنى مدينا لك ب ٠٠٠ »

– لا شىء ٠٠ ولكنك اذا عنيت بوضع شىء فى الصندوق الموجود على المنضدة فى الردهة ، فانك بهذا تعين رجلا فقيرا على الذهاب الى شاطىء البحر لتبديل الهواء بعد الجراحة التى اجريت له ، وستجد فى ذلك خير دواء فى العالم !

وفيما كان الباب يغلق وراء ظهر رجل جرحت كرامته فانقلب عدوا مبينا ، كان الطبيب يغمغم قائلا لنفسه : « والآن ، الى مسز تشبستو » ٠٠ وجلس ساكنا دقيقة أو اثنتين ، وهو يتوقع ان يرى الباب يفتح من جديد ويبدو فى فراغه شبح امراة ، كما تبدو الصورة فى اطار ٠ ولكن احدا لم يدخل ، فبدا يتململ فى مجلسه ، اذ انه لم يعتد من قبل ان يبقى فى انتظار مرضاه ، على الرغم من انه كان كثيرا ما يبقيهم فى انتظاره ٠٠ وكان زر الجرس قريبا من يده فمسه بأصبعه ، وسرعان ما ظهر خادمه للتو ، فقال وهو يخرج ساعته من جيبه : « ان مسز تشبستو على موعد فى الخامسة والنصف ، والساعة الآن السادسة الا عشر دقائق تقريبا ٠٠ الم تأت بعد ؟ »

– كلا يا سيدى ٠٠ وقد حضر شخصان أو ثلاثة على غير موعد ٠٠٠

– ولكنك رددتهم على اعقابهم طبعا ؟٠٠ خيرا فعلت ٠ حسنا ٠٠ اننى لن ابقى اكثر من ذلك !

ونهض عن مقعده ، فقال الخادم : « واذا حضرت مسز تشبستو يا سيدى ؟ »

– افهمها اننى انتظرتها حتى السادسة الا عشر دقائق ، وعندئذ ٠٠٠

ولم يتم عبارته ، اذ انبعث جرس الباب يدوى فى حدة ٠٠ فسأله الخادم : « اذا كانت مسز تشبستو هى القادمة ، فهل اسمح لها بالدخول يا سيدى ؟»٠٠ وتردد الطبيب ، ولكن تردده لم يتجاوز ثانية واحدة ، قال بعدها : « نعم » ٠ ثم جلس ثانية الى مكتبه ٠٠ لقد ظل فى ذلك اليوم يتلهف على وصول آخر مرضاه ، ولكن احتجازه على هذا النحو آثار غيظه ، لا سيما وان المريضة وصلت فى اللحظة التى فارقه فيها اقباله على العمل ، بعد اذ حسب ان متاعب يومه قد انتهت ٠٠ فلماذا لم تحضر فى الميعاد ؟٠٠ وراح يدق بأصابعه الرفيعة على المكتب فى صبر نافد ، وقد قطب حاجبيه الكثيفين فوق عينيه البراقتين ٠٠ ولكنه ما ان احس بحركة الباب حتى استعادت أساريره هدوءها ٠ وعندما

دلفت الى الحجرة امرأة مديدة القامة ، وقف أمام مقعده وهو يبتسم فى رصانة .. وبادرت المرأة قائلة : « أخشى أن أكون قد تأخرت ! » . وبينما كان هنرى يغلق الباب ، قال الطبيب : « لقد تأخرت عشرين دقيقة »

– انى لجد آسفة !

بيد ان نبرات صوتها المتراخية كانت تنفى صدق كلماتها ، فشعر الطبيب – فى غمرة انشغاله – باحساس طفيف من العداء !.. وقال : « ارجو أن تجلسى هنا وتخبرينى عما جئت لاستشارتى من أجله » .. فجلست مسز تشبستو فى المقعد الذى أشار اليه .. وكانت حركاتها بطيئة متكاسلة ، تاتيها فى استرخاء شأن الشخص المعتد بنفسه ، الذى لا يجد ما يشغله .. مما أوحى الى الرجل الذى كان يرقبها بامعان ، بما كان يملأ حياتها من ساعات الفراغ .. لكم تختلف هذه الساعات عن ساعاته هو .. الحافلة بالعمل !

* * *

◆ واستقرت فى مقعدها ، واسندت ظهرها ، وقد وضعت احدى يديها على مقبض مظلة كانت تحملها ، بينما أراحت الاخرى على مسند المقعد . وكان

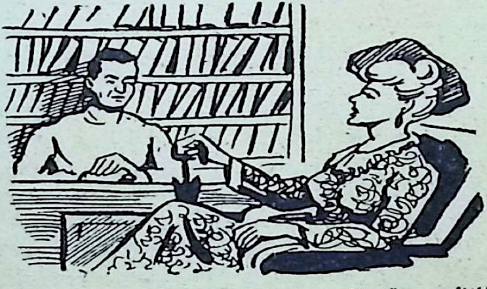

طولها ملفتا للنظر ، وقد زاد من ابرازه دقة خصرها وصغر رأسها البديع التكوين ، الذى استقر فوق جيد طويل رائع الجمال .. كان تكوينها كله يوحى بطيب منبتها وعلو اصلها .. فان أشد النساء حسنا من بنات الشعب ما كانت لتصاغ على هذا النحو !.. واذ تبين الدكتور ايزاكسون هذه الحقيقة ، شعر فجاة بأن من العسير أن يجمع بين المرأة الجالسة امامه وبين ما اشتهر عنها من مسلك شائن .. ولا ريب أن جسما كهذا ، ينطق برفعة أصله ، خليق بان يأوى قدرا كبيرا من الكبرياء والترفع !.. ولكن خاطره اتجه الى الشبان الصغار

الذين كانت مسز تشبستو ترى معهم ٠٠ أكان ذلك ممكنا حقا ؟

والتقت عيناها بعينيه ، فرأى فى وجهها تناقضا غامضا مع المعنى الذى يوحى به شكلها الخارجى ٠٠ أجل ، كان ذلك ممكنا حقا !٠٠ ومن عجب انه قبل ان يجد وقتا ليحدث نفسه بذلك ، الفى اسارير مسز تشبستو قد تبدلت بغتة وأضحت أكثر انطباقا على المعانى السامية التى كان جسمها يوحى بها ! فقال فى نفسه : « يا لها من امراة بارعة ! »

وفى حركة سريعة جلس فى مقعده ، منتصب الظهر ، يقظا ، دافق الحيوية ٠٠ وكان ضيقه قد تلاشى مع التعب الذى كابده فى عمله اليومى ، وبدأ الاهتمام يسرى فى عروقه ، اذ أدرك ان يومه لن ينتهى بسخف ممل ٠٠ ولم يكن الحدس الذى داخله ـ عندما جلس يتصفح مفكرة مواعيده فى الصباح ـ مجانبا للصواب فى التفكير ٠٠ وقال : « لقد جئت تستشيريننى فى ٠٠ ؟ » ٠ فقالت مسز تشبستو ، فى هدوء عجيب : « لست موقنة ان بى مرضا ! »

ـ نرجو ان يكون الأمر كذلك !

ـ اترانى أبدو مريضة ؟

ـ هل لك أن تستديرى قليلا نحو الضوء ؟

فلبثت ساكنة بلا حراك برهة ، ثم ضحكت وهى تقول : « لقد اعتدت ان أقول دائما ان المرء اذا جلس الى طبيب ـ بوصفه طبيبا ـ فلا ينبغى له قط ان ينظر اليه كرجل ! ولكن ٠٠٠ »

ـ ارجو الا تفكرى فى شخصى كرجل !

ـ من سوء الحظ ان فيك شيئا يمنعنى البتة من ان اعتبرك مجرد آلة !٠٠ ولكن لا بأس !

وتحولت نحو الضوء ، وهى ترفع خمارها الشفاف وتميل نحوه ، ثم استطردت : « اترانى ابدو مريضة ؟ » ٠٠ فراح يحدق النظر اليها متفحصا فى امعان شديد لا يخلو من القسوة ٠٠ وبدا له وجهها ـ فى الضوء الساطع الذى كان يتدفق عليهما من النافذة الكبيرة التى جلسا الى جوارها ـ محتفظا بعناصر الجمال التى طالما تحدث الناس عنها وسمع العالم بها : كان وجه مسز تشبستو ـ كرأسها ـ صغيرا فاتنا ٠٠ ولم تكن ملامحها اغريقية خالصة ، ولكنها كانت تذكر المرء بكل ما هو اغريقى ، وبالمنظر الجانبى للتماثيل المرمرية التى ترى فى المتاحف الهادئة !٠٠ وان من الأشياء ما يثير مرآها فى القلوب ـ ذات الحساسية المرهفة ـ ذلك الحنين الغريب ، الذى يكاد يكون مؤلما ، نحو حياة سامية بكل ما فيها من جمال ومثالية فى العيش والحب وبلوغ الآمال٠٠ وما يثير ، فى أعماق النفس الخفية ، ذلك الخيال الذى يغفو أحيانا ولكنه يظل ـ فى الواقع ـ زاخرا بالحياة ٠٠ هكذا كانت مسز تشبستو !٠٠ فان استدارة وجهها ، والجبين المنخفض الذى لاح كأنما صنعته يد مثال بارع ، وذلك الشعر

المتماوج الذى كان يحيط به ـ ولو انه ، وا أسفاه ، شعر مصبوغ فى براعة واتقان ـ كل هذه المعالم كانت تنطوى على فتنة جارفة ، وترسل فى صمت دعواتها المثيرة وكأنها تهتف : « هل من مجيب ؟! »

كانت خطوط وجهها أشبه بقسمات ربة الغابة عند الاغريق ، عندما تنظر الى وجهها وقد ظللته غشاوة رقيقة من الخضرة فى غابة سحرية .. أو قسمات وجه حورية البحر وهى تسبح فى بحيرة خفية فى ضوء القمر الساطع .. مع فارق واحد ، فان ربة الاغريق لم تكن تصبغ شفتيها بهذا الطلاء القرمزى القانى !.. وما كانت حورية البحر لترسم تحت عينيها الضاحكتين هذه الظلال الداكنة ، أو تخط فوقهما الخطين الفنيين الرفيعين !.. كما ان ذلك الكلال الذى بدا حول هاتين الوجنتين وعند ركنى هذا الفم ، ما كان ليوحى بدنيا مبكرة ، ولا بالحوريات والآلهة فى ربيع الخليقة ، وانما كان يوحى بحياة تثير الألم فى نفس رجل الأخلاق ، وتبعث اليأس فى نفس عابد الأصنام التقى !.. كان يناقض المثالية فى وجه مسز تشبستو ـ بما يشبه التحدى ـ شىء ما فى كيانها .. شىء من العسير ان نعينه على وجه التحديد !.. لعله كان فى تلك الغضون الخفيفة على جانبى عينيها الواسعتين ، الزرقاوين ، اللتين ما زال بريقهما يخطف الأبصار .. أو فى ذلك البروز الواضح فى عظام وجنتيها .. أو فى هذا الارتخاء الطفيف لشفتيها ، الذى ينم عن مزيج من العاطفة الجياشة والشراسة الكامنة .. كذلك كان فيها شىء ما ينم عن الصلابة !

وكانت النضرة قد فارقت وجهها ، ولكن ذلك لم يكن بسبب السن .. فكم من نسوة تقدمت بهن السن نحو الشيخوخة ، ولكن وجوههن ظلت ـ مع ذلك ـ تحتفظ بنضرة وجوه الفتيات ، يزينها ذلك السحر العطرى المنبعث من الحياة الطاهرة .. وما من شك فى ان مسز تشبستو لم تكن تبدو متقدمة فى السن ، ومع ذلك فانها كانت تبدو خلوا من الشباب ومن تلك الطلاوة التى زانتها يوما وهى عذراء !.. لم تكن مسز تشبستو تبدو شابة ، أو عجوزا ، أو نصفا ، على وجه التحديد .. ولكنها كانت امرأة سلكت الكثير من التجارب فى سلسلة حياتها . ومع ذلك فقد كانت ـ فى بعض صورها ـ تثير التفكير ، بل الرغبة فى أشياء مثالية .. أشياء بعيدة غاية البعد عن كل ما هو خسيس ، أو قبيح ، أو حيوانى ، أو بشع !.. وكانت لمحة الكبرياء أو الاعتزاز بالنفس ـ التى رآها الدكتور ايزاكسون تولد على محياها كأنها الجواب على فكرته السيئة عنها ! ـ ما برحت مرتسمة على ذلك الوجه الذى كان يستقبل الضوء .. وأدرك الطبيب ان فى تلك المرأة كثيرا من قوة الارادة ، وربما الكثير من الدهاء والمكر .. وانها فوق هذا وذاك ، أستاذة بارعة فى قراءة أفكار الرجال !

وبعد دقيقة من الصمت ، انبعثت تقول : « حسنا .. ما الذى انتهيت اليه ؟ » .. وكان صوتها على قدر عظيم من الجاذبية .. لم يكن ناعما رخيما ،

ولكنه كان ينطوى على رخاوة ملؤها الاغراء ٠٠ كان صوتا ينبىء عن مخلوقة تجمع بين الحرارة والتراخى ٠٠ مخلوقة قد تترك أشياء كثيرة للحظ والمصادفة ، ولكنها لا تلبث أن تنقض فى لحظة واحدة على ما تلقيه المصادفة فى طريقها ، فتمسك به فى قبضتها القوية وتظل متشبثة به طالما شاءت !

وأجاب الطبيب : « أرجو أن تحدثينى عن الأعراض التى تحسينها » ٠ فقالت : « ولكن خبرنى اولا ٠٠ هل ترانى أبدو مريضة ؟ » ٠٠ وحدجته ـ اذ قالت ذلك ـ بنظرات ثابتة غريبة ٠٠ وما ان التقت عينا الطبيب بعينيها حتى ومضت فى ذهنه فكرة خاطفة كومضة البرق ، جعلته يتساءل فى أعماق نفسه : « ترى ماهو السبب الحقيقى الذى دفع هذه المرأة الى الحضور الى ؟ » ٠٠ فقد خيل اليه ان بوسعه ان يستشف دافعا خفيا كان يتوارى فى أغوار عقلها الذكى ، وان يلمح من هذا الدافع بارقا سريعا قبل أن يغوص ثانية فى اطواء الغموض الشامل ٠٠ ومن ثم راح يقول فى بطء : « ان بعضا من الامراض تترك طابعا لا يخطئه الفهم فى وجوه أولئك الذين يقاسونها »

ـ وهل تبينت واحدا منها فى وجهى ؟

ـ كلا ٠٠

وتحركت قليلا ، كأنما تسوى نفسها فى وضع أكثر راحة لها فى مقعدها ، فسألها وهو يمد يده نحوها : « أتحبين ان اريحك من هذه المظلة ؟ »

ـ لا ، شكرا ٠٠ فانى أحب أن أظل ممسكة بها ٠٠

ـ أخشى انك ينبغى أن تخبرينى بالأعراض التى تحسين بها !

ـ اننى أشعر بتوعك عام ٠٠

ـ أهو توعك جسمانى ؟

فأجابت فيما يشبه الحدة : « ولم لا ؟ » ٠٠ ولكنها ما لبثت ان ابتسمت ، وكأنها ترثى لما بدر منها من حدة ، وأردفت تقول : « ليس بوسعى القول بأنى اعانى ألما جسمانيا محددا ٠٠ ولكن المرء مع ذلك يمكنه أن يحس بأنه ليس على ما يرام ! »

ـ لعل جهازك العصبى غير منتظم ؟

ـ أحسبك تستقبل كل يوم كثيرا من النساء الحمقاوات اللواتى يجأرن بالشكوى ، دون ان يكون بهن ظل من المرض ؟

ـ ما ينبغى ان تسألينى ان انتقد مرضاى ٠٠ ثم ان النساء لسن وحدهن اللواتى يبلغن من الحمق هذا المبلغ !

وكان يفكر فى السير هنرى جريب بالوصفة التى اشار عليه بها ٠٠ واستطرد قائلا : « يحسن ان افحصك أولا ، وبعدئذ يمكننى ان اخبرك بالمزيد عن حالتك » ٠٠ وفيما كان يتكلم ، أحس كما لو كانت هى التى تفحصه ! وما حدث له قط من قبل ان أحس بهذا الشعور العجيب مع أحد مرضاه ٠ وقالت المرأة:

« آه ، كلا ٠٠ لست أود ان تفحصنى ، فانى أعلم أن قلبى ورئتى وما الى ذلك كلها سليمة بما فيه الكفاية ! »

– مهما يكن من أمر فدعينى أتحسس نبضك ٠٠

– و ترى لسانى ؟٠٠ أليس كذلك ؟

واستضحكت ٠٠ ولكنها نزعت قفازها ومدت اليه يدها ، فوضع اصابعه فوق رسغها ، وراح ينظر الى ساعته ٠٠ كانت بشرتها رطبة ناعمة ، ونبضها يخفق فى قوة وانتظام ٠٠ وانبعثت منها خلال أصابعه – فى تلك اللمسة الرفيقة – رسالة تنبىء عن قوة العزيمة ، وضبط النفس ، والصلابة ، بل والميل الى القتال !٠٠ وكان وهو يتحسس نبضها قد ادرك ما فى طبيعتها من تحد للحياة ٠٠ وما لبث ان ترك يدها وهو يقول : « ان نبضك سليم تماما » ٠ وخيل اليه انه فى خلال تلك الفترة القصيرة ، التى لمس فيها جسمها ، قد علم الكثير عنها !

وهى ؟٠٠ ترى ماذا يكون مدى ما عرفته عنه ؟٠٠ والفى نفسه يتساءل بطريقة لا تليق بطبيب ، اذ اندفع يقول : « مسز تشبستو ٠٠ شد ما اود ان تتفضلى فتخبرينى عما دفعك الى الحضور الى هنا اليوم ٠ اذا كنت لا تحسين بمرض ، فما حاجتك الى طبيب تضيعين وقتك معه ؟ اننى على يقين من انك لست بالمرأة التى تجرى بحثا وراء ما تملكه حقا ! »

– هل تعنى الصحة ؟ ولكننى فى الواقع لا احس بنفسى كما اعتدت ان أكون من قبل ٠٠ لقد كنت فيما مضى امرأة شديدة القوة ، بل كنت من القوة بحيث كنت أشعر أننى بمنجاة من التعاسة ٠٠ التعاسة الحقة !٠٠ واحسب ان شوبنهاور كان على حق ، فان المرء فى عنفوان صحته يسمو فوق ما يدعونه بالخطوب ٠٠ ولقد لقيت كما تعلم الكثير منها !

فتساءل : « أحقا ؟ » ٠٠ وأجابت : «انك لتعلم ذلك ولابد!» ٠ فقال :«أجل»

– وما كنت فى الواقع أهتم لها أو اكترث بها كثيرا ٠٠ وحتى عندما اصبت بما أحسب ان بعض كرام الناس كانوا يدعونه « دمارى » ، أى ما جرى بعد طلاقى ، فاننى ظللت قادرة على الاستمتاع بالحياة وما فيها من مباهج ٠٠ من طعام وشراب ، وسياحة ، ورحلات على اليخوت ، وركوب الخيل ، وقيادة السيارات ، وغشيان المسارح ، والمقامرة ٠٠٠ كل هذه الأشياء وما اليها ٠ فالناس الذين يسىء المجتمع الحكم عليهم ، أو يرثى لحالهم ، غالبا ما يقضون اوقاتا سعيدة هانئة ، كما تعلم !

– أجل ٠٠ وبالمثل فان اولئك الذين يحسدهم المجتمع غالبا ما يكونون تعساء أشقياء !

– تماما ٠ ولكنى فى الآونة الأخيرة بدأت أحس بأننى ٠٠٠ حسنا ٠٠ بان حالتى قد تغيرت

ـ من اية ناحية بالضبط ؟

ـ لقد انتابنى الشعور بأن صحتى لم تعد من القوة بحيث تقينى ما يمكن أن أدعوه بالسأم ٠٠

فقال وقد بدأ يهتم : « نعم ؟! » ٠ فأجابت مستطردة : « أو على الأصح الهبوط ٠٠ بل هى الكآبة فى الواقع ! ٠٠ والآن ، فانى لا أريد ، بل اننى ـ بكل بساطة ـ لن أكون ضحية لهذا الهبوط ، كما يحدث للكثير من النساء ! ٠٠ أليس فى وسعك أن تدرك كيف تعانى النساء ـ اى الكثيرات منهن ـ شر هذا الهبوط فى أعماق نفوسهن عندما يبدأن يدركن أنهن لن يبقين الى الأبد فى عنفوان الشباب ؟ »

ـ اننى أدرك ذلك تماما

ـ اننى لن أكون ضحية هذا الهبوط ، فانه يقضى على هيئة الانسان ويدمر قواه ٠٠ وأنا الآن فى الثامنة والثلاثين !

والتقت عيناها الزرقاوان الواسعتان بعينى الطبيب فى ثبات ، فتساءل : « نعم ؟ » ٠ ولكنها لم تحفل بتساؤله ، بل استطردت : « وذلك لا يعد شيئا مذكورا فى انجلترا الآن ٠٠ ففى انجلترا ، اذا كانت المرأة فى صحة كاملة ، فانها تظل تبدو ساحرة جذابة حتى تبلغ الخمسين على الاقل ، وربما بعد ذلك ٠٠ ولكن ، لكى يبدو المرء شابا ، بينما العمر يتقدم به ، لا بد له من ان يحس بالشباب ٠٠ وأنا الآن لم أعد أشعر بالشباب ، كما انى على يقين من ان الشعور بالشباب يتوقف على صحة البدن ٠٠ ولا بد ان المتصوفين، وأولئك الذين يؤمنون بالتناسخ ، أو الارتفاع الى السماء ، أو خلود الروح، وكذلك أصحاب المثل العليا ٠٠٠ كل أولئك سوف يصيحون فى وجهى بأننى مخلوقة مادية وضيعة !٠٠ ولكنك طبيب ، وتدرك سلطان البدن ٠٠ ألست على حق فيما أقول ؟٠٠ أليس كل ما يشعر به المرء ينشأ عن خلايا جسمه ، أو كيفما شئت أن تسميها ؟٠٠ أليس ذلك كله ترجيعا للحن الذى تردده ذرات الانسان ؟ »

ـ لا ريب ان حالة البدن تؤثر فى حالة العقل !

فهتفت : « تالله ما اشد حذرك ! » ٠٠ وتلاعبت على شفتيها القانيتين ابتسامة لا تخلو من الازدراء ، ثم استطردت : « والواقع انك ينبغى أن تكون على خلاف دائم مع القساوسة ، وعلماء الدين المسيحى ، وكل أولئك الهوائيين والذين يخدعون انفسهم فيضعون الروح فوق المادة ، أو يزعمون ان الروح مستقلة عن المادة !٠٠ ولقد كنت اقرأ اخيرا عن الأبحاث التى تجرى فى علم الطب النفسى بواسطة اجهزة التنفس وغيرها من الأجهزة الكهربائية الحديثة » ٠٠ وتوقفت بغتة كأنما تستدرك انسياقها فى الحديث ، ثم قالت : « ولكن هذا خارج عن الموضوع ٠٠ وقد بينت لك ما اعنيه ، وما اعتقده ،

وهو ان الصحة تتغلب على كل شىء تقريبا »

- يبدو انك شديدة الاقتناع ، بل شديدة التعلق ، بمذهب المادية !

- وأنت ؟

- اننى اعتقد انه لا يزال فى الانسان - رغم ما يكشف عنه العلم يوما بعد يوم - خفايا وأسرار بالغة العمق مستغلقة على الفهم ..

- وهل هذا يشمل النساء ايضا ؟

- يا الهى ! نعم بلا ريب . ولكن فلنعد الى حالتك ..

فنظرت الى ساعة يدها ، وهى تقول : « آه !.. ان عملك اليومى ينتهى فى ... »

- فى الساعة السادسة ، كقاعدة عامة

- لا ينبغى اذن أن احجزك طويلا ، والحقيقة هى هذه : اننى أفقد شيئا فشيئا الشعور بمتعة الحياة .. ولأننى أفقد استمتاعى بها ، فانى أفقد معها سيطرتى على الحياة .. لقد بدأت أشعر بالكلال ، والكآبة ، بل الخوف والتوجس احيانا !

- من أى شىء ؟

- أحسبنى أخشى من الكهولة ، والنهاية المحتومة لكل الأشياء الجميلة !

- وتريدين أن أصف لك شيئا يشفى هذه الكآبة ؟

- ولم لا ؟.. ولأى شىء وجد الطبيب اذن ؟! اننى ما زلت اقول لك اننى على يقين من ان هذه الأحاسيس عندى منشؤها حالة جسمانية !

- وهل تظنين ان من المحال ان تكون ناشئة عن حالة روحية ؟

- تماما .. فأنا اعتقد ان كل شىء سوف ينتهى فى اليوم الذى يموت المرء فيه .. وأنا واثقة من ذلك ثقتى بأننى امرأة !.. ومتى كانت هذه عقيدتى ، فانى أرى من الأهمية القصوى ان أستمتع بأيامى طالما كنت فى هذه الدنيا !

قال : « هذا طبيعى » .. فأردفت : « والآن ، فان استمتاع المرأة بالحياة يتوقف على قوة نفوذها وسيطرتها على الآخرين ، كما ان هذه القوة تتوقف على استمرار ثقتها فى نفسها .. وطالما كانت تحس بصحتها كاملة ، فهى تشعر بأنها فى عنفوان الشباب .. وطالما كانت تحس بالشباب ، ففى وسعها ان توحى للآخرين بأنها ما زالت شابة .. مع الاستعانة بقدر ضئيل من الفن ! وما دامت قادرة على الايحاء بهذا الشعور - وأنا أتكلم طبعا عن المرأة التى يمكن ان يقال عنها انها على درجة من الجاذبية - فهى بخير وعافية ، ومن ثم فسوف تزداد ثقتها بنفسها ، وتستمتع بأيامها !.. والآن يا دكتور ايزاكسون ، تذكر اننى أعتبر ان كل ما يقال عن الأمور الشخصية لطبيب فى مثل مكانتك .. كل ما أخبرتك به اليوم .. سر لا يفشى ! »

ـ لا ريب فى ذلك ..

ـ لقد شعرت أخيرا أن ثقتى بنفسى قد .. حسنا .. قد تزعزعت ! وانى اعزو ذلك الى بعض الخلل فى صحتى ، ولهـذا جئت اليك اليوم ، وعليك أن تكتشف ما قد يكون فى حالتى الجسمانية من نقص ..

ـ حسنا جدا .. ولكن يتبغى ان تدعينى أفحصك ، كما ينبغى ان ألقى عليك بعض الأسئلة الطبية البحتة ، التى يجب أن تجيبى عليها فى صدق وصراحة ..

قالت : « على رسلك يا سيدى ! » .. ثم وضعت مظلتها على الأرض بجانبها واستطردت تقول : « اننى لا أومن بالمداورة .. مع طبيب ! »

الفصل الثالث

◆ **غادرت** مسز تشبستو منزل ميدان (كليفلاند) والساعة تدق السابعة ، فاستقلت احدى سيارات الأجرة ، التى سرعان ما اختفت بها وسط الدوامة التى تجتاح شارع (سان جيمس)، بينما صعد الدكتور ماير ايزاكسون الى حجرة نومه ليرتاح قليلا ويرتدى ثياب العشاء !.. وكانت ثيابه قد أعدت فى عناية ، فسمح لخادمه بالانصراف . وماكاد الرجل يمضى لشأنه حتى خلع الطبيب سترته وصديريه ، ونزع ياقته ورباط رقبته، ثم جلس فى مقعد ذى مسندين ـ بجانب النافذة المفتوحة ـ

وأسند رأسه الى وسادة صغيرة ، وأغمض عينيه ، ثم أطلق عضلاته كلها لتسترخى ٠٠ وكان يفعل ذلك زهاء عشر دقائق أو ربع ساعة ، فى مثل هذا الوقت أحيانا ــ وفى غيره أحيانا أخرى ــ من كل يوم ٠٠ وبينما تسترخى عضلاته على حريتها ، كان يترك عقله يسترخى هو الآخر ، فينبذ كل تفكير ، بجهد من قوة الارادة ٠ وكان كثيرا ما يفعل ذلك ، حتى أصبح يفعله عادة دون مشقة ٠٠ ومع أنه لم يكن ينام اثناء النهار قط ، الا انه كان يفيق من هذه الراحة منتعشا وكأنه قضى ساعتين نائما !٠٠ أما اليوم ، فمع أنه استطاع السيطرة على جسمه ، الا أن عقله كان عنيدا ، فلم يستطع أن يقصى عنه تلك الأفكار القلقة ٠٠ بل لقد خيل اليه ــ فى الواقع ــ ان جميع حواسه قد تركزت فى هذا العقل ، بينما كان يجلس بلا حراك ، وقد بدا كالجثة الهامدة ، وامتدت ساقاه أمامه ، وتخاذلت ذراعاه وتدلى فكه ٠٠ **فقد كانت مريضته الأخيرة تصارع رغبته فى الراحة الكاملة ، وتتحدى ارادته ٠٠ ثم تقهرها !**

فقد قال لها ، بعد أن فرغ من فحصها ، ومن الأسئلة التى ألقاها عليها : «ليس بك من شىء ! » ٠٠ وهى عبارة عادية ، ولكنه أحس ــ وهو ينطق بها ــ بشىء يهتف فى قرارة نفسه : « يالك من كاذب ! »٠٠ صحيح ان المرأة لم تكن تعانى أى مرض جسمانى ، ولكن قوله لها « ليس بك من شىء ! » ، كان بمثابة الادلاء لها بأكذوبة صارخة ٠ ومن ثم فانه سرعان ما اردف مفسرا : « مما يمكن للطبيب أن يعالجه ! »

وخيل اليه ــ فى استرخاءته تلك ــ ان بوسعه ان يتمثل وجهها كما بدا له للحظة وجيزة بعد ان قال ذلك ٠٠ كان شعرها البديع مصبوغا بلون عجيب ٠٠ فقد كان بطبيعته ذا لون خفيف الدكنة ، ولكن الصبغة أحالته الى لون باهت ، لا هو بالفضى ولا هو بالذهبى ، مما اضفى على وجهها شحوبا عجيبا لم يكن من الجمال فى شىء وان ادى الى ابراز ما كان لعينيها من تألق

وهاج وسط الظلال التى رسمت حولهما ، وتحت الحاجبين المخضوبين ٠٠ وكان الفضل فى هذا المظهر للفنان الذى أحسن اداء مهمته ! وبدا واضحا ان مسز تشبستو كانت تعول كثيرا على سحر هذا الشحوب الغريب ، الذى كاد ينم عن فقر فى الدم ، والذى كان يبرز العينين والشفتين والحاجبين حتى تجتذب الأنظار وتثير الانتباه وتستأثر به ٠٠ **فقد كان فى هذا الشحوب ، وفى هذا البياض الهادىء ، ما يحرك العواطف ويثير الشجن ـ فى نفس المتأمل الذى ينقصه الذكاء المتقد ! ـ وما يساعد على استكمال الأثر الذى يكون وجه المرأة الجميل قد بدأ يحدثه فى نفس المتأمل !**

وما كان أشبه ذلك الوجه بعلامة استفهام بديعة ، عندما فرغ الدكتور ماير ايزاكسون من كلامه ٠٠ وسرعان ما انفلت السؤال خلال الشفتين القرمزيتين : « ألا يوجد مطلقا نوع من التوعك الجسدى يوحى بمثل هذه الكآبة ؟٠٠ لعلك ترى اننى أتكلم عن حالة طبية ! » ٠٠ فأجاب : « كلا ، البتة ٠٠ بل انك غير مصابة بداء النقرس ، مع ان ثلاثة ارباع مرضاى ــ على الأقل ــ يشكون من هذا الداء الى حد ما ! » ٠٠ فقطبت مسز تشبستو حاجبيها ، وقالت : « اذن ، فبماذا تنصحنى ؟ ٠٠ أأذهب الى أحد القساوسة ؟ أم ترى من واجبى أن أذهب الى أحد الفلاسفة ؟ أم تنصح لى بزيارة معبد من معابد العلوم المسيحية ؟٠٠ لعلك ترى ان جرعة من « علم اللاهوت الحديث » قد تفيدنى كل الفائدة ؟ »٠٠ وكانت تتكلم فى تهكم وسخرية ، ومع ذلك فقد شعر الدكتور أيزاكسون بأنه يسمع صوتا بعيدا خافتا وراء هذا التهكم ، ينم عن يأس الشخص المادى الذى يرى ــ فى لحظات معينة ــ جميع مسارب الأمل مسدودة فى وجهه ، فى غير شفقة أو رحمة ٠٠ ومن ثم راح ينظر الى مسز تشبستو ، وفى عينيه بارق من الرثاء والاشفاق ، وهو يجيب: « وكيف لى ان أنصحك ؟ »

ـ نعم ٠٠ كيف يمكن لك ذلك حقا ؟٠٠ ومع هذا، وهنا موضع العجب ، فانك تبدو كما لو كنت تستطيع ذلك !

ـ اذا كنت حقيقة تؤمنين بالمادية ، وتنكرين وجود الخالق ٠٠

ـ انني كذلك تماما !

ـ حسنا ، فلن يجديك اذن ان أنصح لك بالذهاب الى أحد القساوسة أو زيارة أحد المعابد المسيحية !٠٠ كل ما أستطيع ان أقوله لك هو ان شكواك لا ترجع الى علة من علل البدن !

ـ أهى اذن من علل الروح ؟٠٠ هذا أمر مزعج ، فانني فى الواقع لا أومن بالروح ، وانما أومن أشد الايمان بالجسد !

ـ شد ما أعجب مما تعنينه تماما عندما تقولين انك لا تؤمنين بالروح ؟

ـ أعنى أننى لا أومن بأنه يوجد فى البشر شىء يمكن أن يعيش مالم يكن الجسد على قيد الحياة ٠٠ شىء لا يموت فى الوقت الذى يموت فيه الجسد ٠٠ وما من شك في وجود ذلك الشىء الذى نسميه «ملكة العقل» ، او الموهبة العقلية ٠٠ ذلك الشىء الذى يميل وينفر ، ويحب ويبغض ، وما الى ذلك ٠٠

ـ وهلا يمكن لهذا الشىء ان يحس بالانقباض من الكوارث؟!

ـ اننى لم أقل اننى لقيت شيئا من الكوارث !

ـ كذلك انا لم أقل شيئا من ذلك ٠٠ فلنضع الأمر بصيغة أخرى : ألا يمكن لهذا الشىء ان يحس بالانقباض ؟

ـ الى حد ما ، بلا شك !٠٠ ولكنك متى حفظت بدنك فى صحة كاملة ، فانك تغدو بلا ريب محصنا ضد الانقباض الشامل ٠٠ وأنا اعتقد انك محصن تماما !٠٠ ودعنى أقل لك فى صراحة يا دكتور ايزاكسون اننى لا أحسبك مصيبا ٠٠ فانى واثقة من أن شيئا فى جسمى ليس على ما يرام ٠٠ لا بد ان يكون هناك ضغط على جزء ما ، أو اضطراب خفى فى الأعصاب ٠٠ هناك بلا ريب خلل جوهرى فى جسمى !

ـ جربى طبيبا آخر !٠٠ جربى اخصائيا فى الأعصاب ،

أو منوما مغناطيسيا اذا شئت ٠٠ اذهبى الى «هينتون موريس» او «سكالينجر» أو «باول برنهام» ٠٠ أما أنا فأخشى ان أكون عاجزا عن معونتك !

فقالت : « هذا ما يبدو لى ! » ٠٠ ثم نهضت فى بطء ، وما زالت حركاتها متكاسلة متراخية ، ولكنها دواما مليئة بالفتنة والسحر المنبعثين من شخصيتها الفذة ٠ واستطردت تقول : « تذكر أننى حدثتك فى صراحة تامة بصفتك طبيبا »

ـ اننى أنسى كل ما أسمعه فى هذه الحجرة عندما أغادرها !

فتساءلت فى لهجة متراخية : « أحقا ؟! » ٠ فأجاب فى اقتضاب : « مهما يكن من أمر فاننى أنسى ان أتحدث عنه »٠٠ واذ ذاك قالت : « اذن ، فالى اللقاء ! »

* * *

◆ **وخلفته** وهو يحس احساسا مبهما بأنها تعانى ذلك القنوط الذى ينشأ عن الجشع ، والمادية الحادة التى لا يمكن أن تتصور ـ حتى فى العقل الباطن ـ وجود آمال أخرى غير الآمال المادية البحتة !٠٠ ولكن ، ما الذى يمكن لامرأة مثلها ان تتطلع اليه فى تلك الحقبة من حياتها ؟

ذلك ما شغل فكر الدكتور أيزاكسون بعد انصرافها ٠٠ وكان قد ظل مسترخيا فى مقعده بلا حراك ، بعد أن تخلى عن محاولة السيطرة على عقله ٠٠ لقد أدرك ان عقله لن يسترخى اليوم مع أطرافه وعضلاته ، ومن ثم لم يعد يشتهى تلك الراحة التى اعتادها ، وفضل عليها أن يمعن فى التفكير فى ٠٠ مسز تشبسنو !٠٠ لقد كان لهذه المرأة تأثير بالغ القوة فيه !٠٠ واخذ يستعيد ذكرى تلك النظرة التى لاحت فى عينيها عندما كانت تقول انها فى الثامنة والثلاثين من العمر ٠٠ لقد خيل اليه انها بتلك النظرة انما كانت تأمره بأن يصدقها ! ولكنه لم يصدقها ، مع انه لم تكن لديه أقل فكرة عما يمكن ان يكون

عمرها الحقيقى ٠٠ كان يعلم فقط أنهـا ليست فى الثامنة والثلاثين !٠٠ **وكم كانت شديدة الاصرار على ان لا تتألم ولا تحزن ، وعلى أن تمضى فى حياتها ـ تلك الحياة الوحيدة فى اعتقادها ! ـ خلوا من الهموم والكروب ٠٠ ومع ذلك فانها كانت تقاسى هذا الألم !** وكان بوسعه ان يحدس السبب ، فما كان ذلك عسيرا عليه ٠٠ انها الآن فى مفترق الطرق ، وقد ولت عنها أيام العز والبهجة ، وغاضت عنها سيول العيش الهنىء ، دون ان يكون لديها ما تتعلق به او تحتمى فيه ، وهى المرأة البارعة الأريبة !

ولكن لماذا كان يحسبها بارعة ذكية ؟٠٠ لقد سأل نفسه هذا السؤال ، لأنه لم يكن بالرجل الذى يشهد لامرىء بالبراعة اعتباطا ، فضلا عن ان مسز تشبستو لم تقل شيئا ينم عن ذكاء وقاد !٠٠ ولقد كانت فى اعتناقها للمادية قصيرة النظر، ان لم تكن عمياء ٠٠ كما أنها قد لوثت حياتها وجعلت منها خليطا من المهانة والضعة !٠٠ ومع ذلك كله فقد كان يعلم علم اليقين انها امرأة بارعة ٠٠ ثم انها كانت صريحة معه غاية الصراحة ، فلماذا كانت صريحة الى هذا الحد ؟

وسأل نفسه عن ذلك اكثر من مرة ، بل ان عقله كان مليئا بالأسئلة فى ذلك اليوم ٠٠ وهى اسئلة لم يكن فى وسعه ان يجد لها جوابا للتو !٠٠ ولكنه كان يحس بأن مسز تشبستو كانت ، فى كل ماقالته له ، منساقة نحو هدف معين واضح المعالم ٠ **ولقد تركت فى نفسه أثرا بأنها امرأة ذات أهداف ، وذات مكر ودهاء ، فلم يستطع التخلص من اقتناعه بأنها حين سعت الى التعرف به ، انما كان يحركها سبب خفى دفين ٠٠ سبب لا علاقة له البتة بصحتها !٠٠ ولقد آمن بأنهـا كانت صادقة الرغبة فى معونته كطبيب ، ولكن ما من ريب فى ان ذلك لم يكن غرضها الوحيد من القدوم الى ميدان (كليفلاند)٠٠**

ودقت الساعة الموضوعة على المدفأة مؤذنة بانتهاء الوقت

المحدد لراحته ، فأغلق فمه دفعة واحدة ، وشد عضلاته فى قوة ، واندفع قائما عن مقعده ٠ وبعد عشر دقائق كان يحظى بحمام بارد ٠٠ وبعد نصف ساعة كان قد ارتدى ثياب العشاء، ومضى يهبط الدرج فى خطوات خفيفة سريعة شأن الرجل الذى يستمتع بصحة طيبة وروح مرحة وثابة ، وقد تلاشى عنه ذلك الانقباض العارض الذى ألم به اثر زيارة مريضته الأخيرة ، وغدا فى حال تتيح له الاستمتاع بسهرته ، بعد هذا العناء !

* * *

◆ **وكان** مدعوا الى العشاء فى (تشارلس ستريت) بميدان (بيركلى) ، على مائدة الليدى سومرسون ، وهى أرملة مضيافة على الدوام لأنها لم تكن تطيق الوحدة ! وكانت فى تلك الليلة قد أقامت مأدبة حافلة ، فلما دلف الدكتور أيزاكسون الى القاعة الكبيرة بالطابق الأرضى ، حيث كانت الليدى سومرسون تستقبل ضيوفها قبل العشاء ، وجدها ترتدى ثوبا أسود مشربا بالحمرة ، وقد رجلت شعرها الذى وخطه الشيب ، وراحت تدير الحديث بين جمع من الشخصيات المبرزة الهامة ، التى كان معظمها بعيد العهد ببواكير الشباب ٠٠ ولكنها كانت من المكانة والجاه بحيث لم تعد تبالى بالعمر الذى بلغته ٠ وكانت الليلة ليلة الأربعاء ، وقد اتخذ الحديث طابعا سياسيا ٠٠ غير أنه كان بين الرجال اثنان من العسكريين ، وبين النساء حسناء معروفة ، قليلة الاكتراث بأحاديث السياسة ، شديدة الاهتمام بالحديث الطلى والثرثرة المسلية !٠٠ وكانت تعد احدى ربات الجمال اللواتى يبسطن نفوذهن فى العاصمة ، بفضل ما جبلت عليه لندن من الوفاء الغريزى لحسانها ــ من ناحية ــ ولأنهن من ناحية أخرى يمتزن بسعة الأفق والميل الى المرح ، والبعد عن الغرور والادعاء ٠٠ وكان اسم هذه الحسناء مسز درنجهام ، وعمرها نحو الثامنة والأربعين ٠٠ ولم تكن تضع شيئا من الطلاء على وجهها ، ولا تحاول أن تبدو أصغر من حقيقتها ٠٠

كما انها كانت ـ بنشاطها وحيويتها ، وخلوها من الغضون والتجاعيد ، وبعدها عن الزهو والغرور ـ لا تمنع أحدا أو تشجعه على التفكير فى حقيقة سنها ، وانما كانت تجذب الناس بجمال صورتها وخفة روحها وحبها للحياة واستعدادها للاستمتاع بالساعة الراهنة !

وكان الدكتور أيزاكسون يعرفها جيدا ٠ واذ راح يهزيدها مصافحا ، سرح فكره الى مسز تشبستو ، ومذهب «المادية» الذى تعتنقه ٠٠ لقد كانت هذه المرأة ـ مسز درنجهام ـ تعرف على وجه التحقيق كيف تستمتع بأطيب مافى الحياة من أشياء ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تحظى بما يصرفها عن الأنانية والأثرة ٠٠ كان لها زوجها وأطفالها ، وأتباعها ، وأعمال البر التى كانت تساهم فيها ٠٠ كانت قد غرست جذورا عميقة فى تربة الانسانية الخصبة التى تؤتى ثمارها !٠٠ **أما مثيلات مسز تشبستو ـ من النساء ـ فلا يغرسن اية جذور فى أية تربة !٠٠ أفيكون غريبا بعد ذلك أن يتعرضن للأيام ـ والليالى ـ التي يسرى فيها الكلال الى أرواحهن ؟ وهل يكون غريبا بعد ذلك أن يسم هذا الكلال جمالهن بميسمه المدمر ؟!**

وفتح الباب ليفسح الطريق أمام آخر المدعوين الى المأدبة ٠٠ وكان هذا المدعو رجلا طويل القامة عريض المنكبين ، أبيض اللون ، ذا شعر أشقر قصير مفروق عند الوسط ، ورأس جميل التكوين ، وأنف مستقيم غير مدبب ، وذقن بارزة ولكنها لا تنم عن العناد ، وفم شديد الحساسية ، وعينين زرقاوين واسعتين تفيضان بالاخلاص والحماس ، يعلوهما حاجبان أشقران يبدوان دائما وكأنهما نسقا بالفرشاة لتوهما ٠٠ وكان يزين شفته العليا بشارب صغير كث ٠٠ كما كانت جبهته ووجنتاه تبدو وقد لوحتها الشمس بسمرة خفيفة ٠ وكان فى السادسة والثلاثين ، ولكنه يبدو أصغر من ذلك بكثير ، بسبب بياضه الناصع ٠٠ أما جسمه فكان قوى العضلات ، منتصب

القوام ، معتدل الظهر ، نحيل الخصر ٠٠ وكانت يداه قويتين ، سمراوين ، كبيرتى الأُصابع فى غير غلظة ٠ أما وجهه فكانت تكسوه اشراقة خاصة من الاستقامة والبهاء ، تذكر المرء بالأقاليم الشمالية وكل ما يمت الى الشمال بصلة : بريق النجوم فوق الثلوج ، وقمم الجبال الباردة وقد مسحتها رياح نقية طاهرة ، وشذى غابات الصنوبر العذب !٠٠ كان الرجل ـ فى هيئته وتكوينه ومظهره ـ أشبه بأحد أبطال الأساطير الشماليين ٠٠ ولكن من المحقق انه كان بطلا من الشمال أقام فى الآونة الأخيرة فى بلاد الجنوب ، وارتاح الى اقامته فيها !

وما ان رأت الليدى سومرسون القادم الجديد حتى اندفعت نحوه تعاتبه على تأخيره ، ثم قدمته الى السيدة التى كان عليه ان يرافقها الى المائدة ٠ وما لبثت ان اندفعت ـ كالمحمومة ـ فى نشاط ورشاقة تشير الى ضيوفها بأن يتقدموا الى قاعة المائدة التى فتح بابها فى تلك اللحظة ، اذ تولى خادمان نشيطان سحب المصراعين المنزلقين اللذين كانا يفصلان القاعة عن الحجرة التى استقبلت فيها السيدة ضيوفها ٠ وغمغمت مسز درنجهام تقول لزميلها الدكتور أيزاكسون ـ وهما يتخذان مجلسيهما الى المائدة الطويلة : « ان مضيفتنا لا تستطيع اخفاء مشاعرها! من هذا الرجل الذى كانت تعنفه بهذه الحرارة ؟٠٠ اننى أذكر وجهه تماما » ٠٠ فقال : « انه واحد من خيرة الرجال فى العالم! ٠٠ انه نيجل أرماين ٠٠ لم أره الا الليلة منذ أكتوبر الماضى ، اذ كان فى الخارج ٠٠ فى مصر ! » ٠٠ وفى تلك اللحظة التقت عيناه بعينى الرجل ذى البشرة الناصعة البياض ، فتعانقت نظراتهما فى ود وصداقة ، بينما قالت مسز درنجهام :

ـ اننى أذكره طبعا ، فهو يبدو كالفارس التائه ٠٠ وكذلك كان أبوه هارويتش المسكين! لقد اعتدت ان أمثل مع هارويتش فى أيام الشباب وعدم المبالاة المبكرة ، فى قصر برنهام ، ولكن المرء لا يرى نيجل الآن الا نادرا ، ولا أحسب انه كان يوما

من الأيام مولعا حقا بلندن ، ومباهج الحياة ٠٠ ولكن هارويتش كان على النقيض بلا ريب ، ومع ذلك فقد كانت تلوح فى وجهه لمحة من الشعور بالغربة والنفور من آلدنيويات ! وقد اعتدت ان أقول ان له عينى قطيطة صغيرة ٠٠ يا للمسكين ! شد ما كان يثق فى النساء !

ـ وهلا تثقين أنت فى النساء ؟

ـ النساء كجنس ؟٠٠ كلا !٠٠ ولو اننى أثق فى القليلات منهن لأشخاصهن ٠٠ أما هارويتش فكان يثق فى النساء لأنهن نساء ، وهذا دائما خطأ جسيم ! كان يثق فيهن كما يثق الكاثوليكى المتدين فى القديسين ٠٠ وتالله لقد لقى جزاءه على ذلك !

ـ هل تعنين بعد أن ماتت والدة نيجل ؟٠٠ أتقصدين تلك السيدة ٠ ترى ما اسمها ؟ مسز ٠٠ مسز ألستروذر ؟

ـ نعم ٠٠ مسز الستروذر !٠٠ لقد كانت تعامل هارويتش معاملة شنيعة ٠٠ وما كانت لتتزوج منه قط ـ ولو كانت طليقة ـ لأنه كان يضايقها ٠٠ ولكنه كان يعبدها ، وقد ظل حتى النهاية يعتقد ان زوجها كان يسىء معاملتها ، وهذه فكرة سخيفة ، اذ ان « بول ألستروذر » لم يكن يعد روحه او ماله ملكا له دونها ٠٠ وهاهو ذا نيجل أرماين قد ورث نظرة أبيه للحياة ، فهو كذلك قد خلق عظيم الثقة بالنساء !

وتمهلت لحظة ، ثم أردفت تقول : « وما أسعد المرأة التى يوليها نيجل ثقته ! »

فقالت الليدى أوريان ـ وكانت تجلس الى جانب الطبيب من الناحية الأخرى ، وسمعت طرفا من الحديث : « حدثنى عن مستر ارماين هذا يا دكتور ايزاكسون ، فأنت تعلم اننى أقيم على الدوام فى منزلى الريفى ، فى (كونتى كلير) ، ومن ثم فأنا أشد جهلا بالعالم من زهرة البنفسج ! من هو على وجه التحديد ؟ »

ـ انه الأخ الأصغر لهارويتش ، والوريث التالى للقب ..

ـ ذلك اللورد هارويتش الواسع الثراء ، الذى ربحت جياده كثيرا فى حلبات السباق ، والذى تزوج من « زوى موليجان » .. تلك الأمريكية التى وفدت من شيكاغو ، منذ اكثر من عشر سنوات ؟

ـ نعم ، ولكنهما لم ينجبا أطفالا البتة .. كما أن هارويتش قد أفسد صحته ودمرها تدميرا بحيث أصبح نيجل موقنا من انه سوف يرثه ، ولكنى أحسب ان لديه ما يكفيه كشخص أعزب .. فقد تركت له والدته عند موتها ثروتها كلها ..

وتساءلت : « وماذا يفعل الآن ؟ » .. فقال الطبيب :«لقد كان فى الجيش ، ثم استقال من وظيفته عندما تسلم ممتلكاته » .. ومرة اخرى ، سألته الليدى اوريان : « ولماذا ؟ » ، فأجاب : « لكى يعنى بمزارعيه ، فان لديه آراء جليلة عن واجب المالك نحو مستأجرى ضياعه »

ـ آه ! ان لمزارعى أوريان آمالا مشرقة عن واجباته نحوهم!

ـ هذا شىء متعب ولا ريب ! وقد عاش أرماين فى الريف ، ومضى يقوم بسلسلة من التجارب فى كرم بالغ : أنشأ لمزارعيه بيوتا نموذجية ، وأقام ساحات للتدريب على الرماية ، وشيد لهم مكتبات وملاعب وحمامات للسباحة .. والواقع انه كان ينفق ماله ببذخ لا مثيل له !

ـ وهل أضناهم عرفان الجميل ؟!

ـ لم يبلغ شكرهم له هذا الحد !.. وقد أثارت بعض خطط أرماين ، لاسعاد الناس ، الكثير من المعارضة فى الواقع !.. وفى النهاية نشب خلاف جسيم على بعض حقوق المرور ، وكان المزارعون هم المخطئين ، فعافت نفس أرماين أفعالهم ، وبلغ به الالم من محاولتهم سلبه ما يملكه ـ وهو الذى أغدق عليهم خيراته ـ الى الحد الذى جعله يؤجر مزارعه فلا يذهب اليها بعد

ذلك البتة !

ـ هذه طبائع العامة من البشر ! انهم يتجاهلون المكتبات والنوادى التى تنشأ لهم فى القرى ، وترتفع عقائرهم بالصياح بما يزعمونه حقا فى تسلق الأسوار أو المرور فى طريق موحل ضيق يؤدى من لا شىء الى غير مكان معين !

ـ ولكنها رغبة الكواكب فى اضاءة أجنحة الفراش !

ـ أتشبه الانسانية بالكواكب ؟

ـ أحسب ان فيها ما فى هذه من البريق والاشتعال ٠٠ ألا تظنين ذلك ؟

ـ من المؤكد ان مستر أرماين يبدو على قدر كبير من هذه الصفة !٠٠ فما أشد الحماس الذى يبدو فى نظراته !٠٠ كيف يمكن أن يسىء الى مزارعيه ؟

ـ لعل ذلك راجع الى فرط حماسه ، وأمانيه العظيمة ، ومثاليته ٠٠ ولعله كان يحير مزارعيه بفعاله ، وينشد فيهم الكمال والوفاء بالشكل الذى يصوره له خياله !٠٠ كما ان له آراء عظيمة عن الاستقامة والنزاهة ، وحقوق الأفراد ، وأشياء أخرى كثيرة قلما تشغل بال الرجل العادى

فقالت مسز درنجهام : « لا تقل لى انه انقلب مخادعا لئيما بعد ذلك ٠٠ فان الخداع دليل على سوء المنبت ، وقد كانت أسرة هارويتش على الدوام من أرفع الأسر النبيلة »

ـ لست أعتقد أن الخداع كان من صفات أرماين ٠٠ ولكنى أعلم انه رجل يعيش فى خيال مثله العليا : فهو يعتبر صور «وات» الرمزية أعظم شىء انتج فى عالم الفن منذ ان خلد «بوتتشيللى» الطهر بريشته !٠٠ وفى الموسيقى الحديثة نجده لا يفضل أحدا بعد «الجار» ٠٠وفى الأدب الحديث«تولستوى»٠ **فهو يحب أصحاب المثل العليا ، حتى ولو كانت هذه المثل تختلف عن مثله هو !٠٠ ولست اقول انه فنان ، فالواقع انه ليس كذلك ، وليس شعاره «الفن من أجل الفن» وانما هو**

« الفن من أجل الانسان »

ـ انه انسانى النزعة اذن ؟

ـ ومؤمن عظيم الايمان !

ـ بالانسان ؟

ـ بالخير الذى يوجد فى الانسان !٠٠ وغالبا ما يخطر لى انه فى أعماق عقله أو قلبه يعتقد ان الايمان بشىء يخلق هذا الشىء خلقا !

وهنا تساءلت السيدة : « هل تعنى بذلك انك اذا ما آمنت بصدق انسان جعلت منه رجلا صادقا ؟ » ٠٠ فأجاب : «نعم »

وهتفت الليدى اوريان : «اواه يادكتور ايزاكسون ، شد ما أود ان تقدم مستر أرماين الى زوجى ، وتجعله يؤمن بأن زوجى رجل شحيح وليس مبذرا سفيها !٠٠ انه بذلك يرحم الأسرة رحمة واسعة ، ويجعل من المحتمل ان نستطيع فك الرهن الذى يكاد القصر أن يذهب بسببه ! » ٠٠ وهكذا تحول الحديث الى ناحية فكهة ، وانتهى بين ضحكات رنانة ٠٠ ولكن مسز درنجهام لم تلبث ان عادت الى الحديث عن نيجل أرماين قبيل انتهاء العشاء ، فسألت : « وما الذى يفعله مستر أرماين الآن ؟ »

ـ لقد ذهب الى مصر بعد ان أجر مزارعه ، واشترى أرضا هناك ، فى الفيوم على ما أظن ، حيث يقضى شطرا كبيرا من الوقت ٠٠ وأظنه يقوم بتجارب واسعة النطاق فى الزراعة

ـ وهل تراه يؤمن بصدق المكارى العادى ونزاهته ؟

ـ لا علم لى بذلك ٠٠ ولكن ينبغى أن أقول اننى سمعته يشيد بمزايا الأعراب !

* * *

◆ **وفى** تلك اللحظة نهضت الليدى سومرسون عن مقعدها بغتة ـ على طريقتها السريعة المعهودة ـ وما هى الا هنيهة حتى

كان الرجال وحدهم هم الجلوس الى المائدة ·· وماكاد المصراعان المتحركان يغلقان وراء ظهر الليدى سومرسون النشيطة ، حتى تحرك الرجال فى مقاعدهم ، وهم يهمون بتنظيم صفوفهم ·· وعندئذ نهض نيجل ارماين من مقعده عند الطرف الأقصى للمائدة الطويلة ، ومضى قدما نحو ماير أيزاكسون ، وصافحه فى حرارة وهو يقول : « شد ما يسرنى أن ألقاك ثانية يا أيزاكسون ! » ·· فشد الطبيب على يد صديقه فى قوة

وما لبثا ان جلسا جنبا الى جنب ، على حين مضى سائر الرجال يتحدثون وقد أشعلوا لفائفهم ·· وقال الطبيب متسائلا : « هل عدت من الخارج للتو ؟ » ·· فأجاب ارماين : « لقد عدت منذ أسبوع » · فقال الطبيب معاتبا : « كل هذه المدة ؟ وأين تقيم ؟ » · وكان الجواب : « فى فندق سافوى » ، فهتف الطبيب : « فى سافوى ؟» ·· واذ ذاك قال صاحبه متسائلا : « وهل يدهشك هذا ؟ »

واستقرت عينا الطبيب البراقتان على أرماين فى نظرات تفيض بالحب والعجب معا ، ثم قال : « ان أى فندق فاخر يعد مكانا غير ملائم لك ! فأنا أستطيع أن أراك على ثلوج الألب ، أو فى مستنقعات أراضيك فى اتشنجهام ، بل حتى فى ·· ما اسم ذلك المكان ؟ » ·· فقال ارماين : «سنورس آ» ·· واذ ذاك استطرد الطبيب : « أما سافوى ، وريتز ، وكارلتون ، فلا ! ·· ان هذه التفاهات المموهة بالذهب ليست بالاطارالذى يناسبك البتة ! » ·· فقال ارماين : « بل اننى جد سعيد فى سافوى !»

وفيما كان يقول ذلك ، تحولت نظراته بعيدا عن ماير ايزاكسون ــ عبر المائدة ــ الى الجدار المقابل له ، حيث علقت نسخة كبيرة من صورة «وات» المعروفة باسم «التقدم» ، فراح يتفرس فيها وقد سرى فى وجهه هدوء غريب ، وكأنه نسى ــ للحظة ــ المكان الذى كان يوجد فيه ، والناس المحيطين به !

.. وكان ماير أيزاكسون يرقبه فى اهتمام ، وكأنه ركز حواسه جميعا عليه .. لقد كان يوجد فى هذا الرجل شيء ما - بل لقد كان فيه دائما شيء ما - يثير في الطبيب شعورا من الحنان نحوه والاعجاب به ، ممتزجين بالرثاء له ، بل وبالخوف الغامض مما قد يصيبه !.. وكثيرا ما فكر الطبيب فى ان النفس التي اوتيت مثل هذه الطبيعة لا بد وأن يقدر عليها أن تقاسى الألم فى عالم ، اذا كان يضم حقا بعض الذين يعتزون بالمثل العليا ويكدحون فى سبيل الرقى ، فانه ينطوى على غالبية تدين بالشره والنهم الى اشباع شهوات الجسد ، وقلما تصغى الى ذلك النداء الخافت الذى ينبعث من الالهامات البعيدة التى تتحدث أحيانا - مهما يبلغ صوتها من الخفوت - الى اهل الأرض جميعا !.. وأخيرا تنهد أرماين وقال :

- ما أبهى هذه التحفة الفنية !.. أتعرف الصورة الأصلية؟

- لقد رأيتها يوما ما فى متحف كومبتون

- التقدم .. الارتقاء .. المضى قدما الى الامام ، وعلى الدوام، بقوة لا تقاوم ، سواء أكنت ترى هذا التقدم وتحسه ، أم لا ! .. ياله من شيء جليل مجيد !

- أما زلت متفائلا دواما ؟

- انني أومن بانتصار الخير ، وكلما مضى يوم ازددت ايمانا بذلك .. بانتصار الخير في العالم وفى الفرد على السواء ! كذلك كلما ازداد عدد المؤمنين - المؤمنين الصادقى الايمان - بهذا الانتصار ، ازداد اليقين فى بلوغ هذه الغاية ، بخطى ثابتة الأقدام ، وفى يسر وسهولة ! ان فى وسعك أن تساهم فى ذلك يا أيزاكسون !

- بالايمان ؟!

- نعم .. هذا هو طريق مساهمتك فى انتصار الخير . ولكن يا الهى !.. ما أقل الناس الذين يسلكون هذا الطريق !.. ان الشك والريبة من أكبر العوامل المدمرة فى العالم ! انك اذا

ارتبت في رجل ، فانما تكاد بذلك ترغمه على تحقيق ريبتك ٠٠ واذا شككت في امرأة ، فانما تدفعها بذلك دفعة قوية نحو الخداع والمخاتلة ٠٠ ولشد ما أمقت أن أسمع الرجال يقولون انهم لا يثقون فى النساء !

ـ ان النساء يقلن ذلك أيضا !

ـ انها خيانة الجنس !٠٠ أمر يستحق الازدراء والاحتقار ! ٠٠ ان اللواتى يقلن ذلك خائنات لمعسكرهن !

فتساءل الطبيب : « انك تقدر المصادفة ٠٠ أليس كذلك ؟»

٠٠ فأجاب ارماين : « فوق كل شيء ! »

ـ هب ان بعض النساء لا يثقن بنساء أخريات ، بحق وعن يقين ، فهل تريد منهن ان يزعمن العكس ؟

ـ بوسعهن أن يصمتن ، وان يحاولن كبت هذا الشعور التافه المدمر !

وظل برهة لا يقول شيئا ، ثم نظر الى ماير ايزاكسون واستطرد قائلا : « هل تنوى الذهاب الى مكان ما بعد ان تخرج من هنا ؟ » ٠٠ فأجاب الطبيب : « لقد قبلت تذكرة فى مسرح شزهام ٠٠ لماذا ؟ » ٠ فتساءل صاحبه : « وهل لا بد من ذهابك الى هناك ؟ » ٠٠ واذ أجاب ماير قائلا : «كلا» ، قال ارماين : « اذن تعال نتناول العشاء معا فى سافوى » ٠٠فهتف الطبيب فى لطف : « العشاء ؟ ٠٠ يا عزيزى أرماين : انك تعلم اننا معشر الأطباء ننصح مرضانا ـ فى هذه الأيام ـ ونعظهم بحق ، بالاقلال من الطعام والشراب ٠٠ وأنا لا أستطيع ان أتناول أى طعام حتى الصباح ، بعد أن أعود من نزهتى على ظهر جوادى »

ـ ولكنك تستطيع الجلوس الى مائدة للعشاء فيما أظن ؟

ـ آه ، نعم !٠٠ بوسعى أن أفعل ذلك !

ـ تعال واجلس الى مائدتى اذن ٠٠ لنخرج من هنا معا

ـ بكل تأكيد

ـ وسوف ترى ان كان (سافوى) يعد مكانا غير ملائم لى !

الفصل الرابع

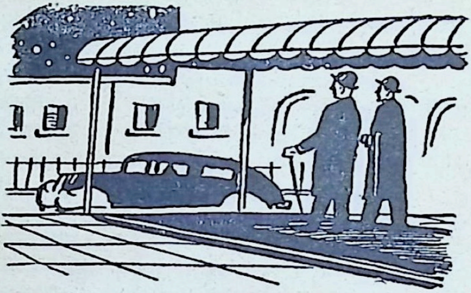

◆ كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة الا ربعا من تلك الليلة ، عندما هبط ماير ايزاكسون ونيجل آرماين الدرج المغطى بالسجاد حتى حافة الطريق، امام باب قصر الليدى سومرسون ، واستقلا سيارة الطبيب الخفيفة ٠٠ وما ان بدات المسير ، فى غير ضجة او جلبة ، حتى قال الطبيب : « رأيتك تتبادل حديثا طويلا مع مسز درنجهام فى قاعة الاستقبال ! » ٠٠ فاجاب ارماين فى اقتضاب : « اجل » ٠ ثم اخلد الى الصمت ، وقد اضطجع الى الوراء فى الركن الذى كان يشغله ٠٠ وبعد برهة استطرد الطبيب يقول : « اننى اميل اليها »٠ فتساءل صاحبه : « احقا ؟ » ٠ فقال ماير : « ما اظنك تحبها ؟! » ٠٠ وهنا تساءل إرماين : « ما الذى يدعوك الى هذا القول ؟٠٠ لماذا تقوله ؟ » ٠فاجاب: « لأننى اشعر به ٠٠ وقد استنتجته من لهجتك عندما قلت : « اجل ! »

فمال ارماين الى الأمام قليلا وهو يتساءل : « الا ترى انها امراة تحب ان تغتاب الناس وتذكرهم بالسوء ؟ » ٠٠ فهتف الطبيب : « مسز درنجهام ؟ ٠٠ اننى بالتاكيد لا اراها كذلك » ٠٠ ولكن صاحبه قال : « بل انها واحدة من اللائى يكفرن بالنساء ، واللائى كنت تتحدث عنهن بعد العشاء ٠٠واحدة من الخائنات لمعسكر النساء ! اننى اعجب لماذا لا تتحد النساء ويقفن صفا واحدا ؟ » ٠٠ فقال الطبيب : « انهن يفعلن ذلك احيانا » ٠٠ فعقب ارماين قائلا : « نعم ٠٠ انهن يفعلن ذلك عندما يردن ان ينهشن سمعة احداهن ! انهن يتحدن سويا كلما كان لديهن عمل من اعمال الهدم والتدمير ! ولكن هل يتحدن حقا عندما يكون هناك عمل من اعمال الانشاء والتعمير ؟ » ٠ فتساءل

الطبيب : « هل تعنى عندما يراد الاشادة بسمعة احد الناس ؟ »

وراح ارماين يعبث بشاربه ·· وكان فى وسع ماير ايزاكسون ان يرى عينيه تتالقان فى انفعال ، فى ضوء العربة الخافت ، فما لبث ان استطرديقول: « اذا كنت تعنى ذلك ، فانى أميل الى القول بانه يجب على كل منا ان يشيد سمعته بنفسه وبمفرده او بنفسها وبمفردها » ·· فقال ارماين : « ولكننا فى حاجة الى المعونة فى كل ما نريد بناءه تقريبا ·· وما اقل ما نحصل عليها ! » ·· وهنا ساله الطبيب : « هل كانت مسز درنجهام تنال بصفة خاصة من امراة معينة فى هذه الليلة ؟ » ·· فاجاب : « أجل ·· لقد فعلت ذلك ! » ·· وعاد ايزاكسون يتساءل : « هل لك ان تخبرنى عمن تكون تلك المراة ؟ » ·· وكان الجواب : « انها مسز تشبستو ! »

وعندئذ قال ايزاكسون فى تمهل : « هل كنتما تتحدثان عن مسز تشبستو؟ ·· مسز تشبستو الشهيرة ؟ » ·· فقال ارماين : «شهيرة ؟! لست اقرك على ان مسز تشبستو امراة شهيرة ! فهى ليست كاتبة او مطربة او رسامة او ممثلة ·· وهى لا تعمل شيئا مما يجوز ان اسمع به ، ومن ثم فلا يمكن أن اصف مثل هذه المراة بالشهيرة ! وقد اجرؤ على القول بان اسمها معروف لعدد من الناس ، ولكننا فى زمن الثرثرة ، ولا ريب فى ان ··· »

ولم يتم عبارته · ففى تلك اللحظة كانت السيارة تدرج على الرصيف المغطى بالمطاط امام فندق سافوى وتقف امام المدخل ·· وفيما كان ماير ايزاكسون يهبط منها ويدلف الى بهو الفندق ، تذكر فجاة ان الخطاب الذى بعثت به اليه مسز تشبستو ــ تساله موعدا لاستشارته ــ كان يحمل اسم « فندق سافوى » ·· اذن ، فقد كانت تقيم فى الفندق حين ارسلته ·· اتراها لا تزال مقيمة فيه للآن ؟·· انه لم يسمع نيجل ارماين يتحدث عنها قط ، ولكن تلك اللمحة من الغريزة النسوية ــ التى كانت فى أعماقه ــ سرعان ما ربطت بين كلمات ارماين « بل اننى جد سعيد فى سافوى ! » ودعوته اياه لتناول العشاء هناك ، وبين ذلك الحديث عن « مسز تشبستو » الذى رواه له صديقه منذ لحظات ! لقد كان ارماين يعرف مسز تشبستو اذن ! وسوف يقابلانها الليلة فى مطعم الفندق ·· فقد شعر ماير ايزاكسون بانه كان واثقا من ذلك كل الثقة !

* * *

◆ وتركا معطفيهما فى حجرة الثياب ، ومضيا يشقان طريقهما نحو المطعم، الذى كاد ــ اذ ذاك ــ ان يكون خاليا · وتقدم رئيس الخدم نحو ارماين وهو ينحنى مبتسما ، ثم قادهما نحو مائدة فى احد الأركان · ورأى ماير ايزاكسون ان المائدة معدة لشخصين ، فاستبدت به الدهشة ، ولكنه لم يقل شيئا ·

وجلس مع زميله .. ثم قال : « اننى لا استطيع حقا ان اتناول العشاء يا ارماين .. فلا تطلب لى طعاما ! » .. فقال صديقه : « خذ على الأقل قليلا من الحساء وكاسا من الشمبانيا » .. ومضى – دون ان ينتظر جوابا – يملى اوامره على الخادم .. ثم قال : « لقد كان بوسعنا ان نجلس فى البهو ، ولكن المكان هنا اكثر تسلية .. وتذكر اننى لم احضر الى لندن – ولم اشهد المجتمع اللندنى – منذ اكثر من ثمانية شهور .. ولا بد ان يلتقى المرء باصدقائه ومعارفه القدامى فى مثل هذه الأماكن »

وفتح ماير ايزاكسون فمه ليقول ان بوسع ارماين ان يجد فرصة افسح مدى للالتقاء باصدقائه خلال الموسم ، اذا هو ارتاد الحفلات التى تقام فى المنازل الخاصة .. فقد بدا اهل امريكا يتدفقون على العاصمة الانجليزية ، مختلطين باهل الريف الانجليزى الذين يقدمون لقضاء ايام قليلة ، وبفيض من ممثلى امم الارض جميعا .. ولكنه لم ير فى هذا الخليط من الناس احدا يعرفه ، كما ان ارماين لم يعرف احدا من الموجودين كذلك ، ومن ثم فقد اغلق شفتيه دون ان يقول شيئا . وايقن ان لارماين غرضا معينا من الحضور الى « سافوى » فى تلك الليلة ، ومن احضاره معه .. ولأمر ما كان صديقه يحاول اخفاء هذا الغرض ، ولكنه لن يلبث ان يتكشف له سريعا ، وما عليه الا ان ينتظر دقائق معدودات فيعرف حقيقة ذلك تماما !

واحضر احد السقاة الحساء والشمبانيا ، فقال الطبيب : « لو ان واحدا من مرضاى الذين احرم عليهم تناول العشاء رآنى الآن .. ولو كان بوسعهم ان يتكهنوا باننى قادم للتو من مادبة عشاء طويلة !.. اننى يا ارماين اقدم تضحية ثقيلة على مذبح الصداقة ! » .. فقال صديقه : « ولكنك لم تر احدا من مرضاك فيما ارجو ؟ » . فاجاب الطبيب : « كلا .. لم ار منهم احدا بعد! »

وفى هذه اللحظة ، بل قبل ان تفارق الكلمات شفتيه ، راى مسز تشبستو على بعد قليل منهما ، وهى تدلف الى قاعة الطعام قادمة من ناحية الباب .. وتطلع ليرى رفيقها ، ولكنه تبين لدهشته ان احدا لم يكن يتبعها .. وسارت تجتاز القاعة منتصبة القامة ، دون ان تتلفت يمنة او يسرة ، يتقدمها رئيس الخدم . ومرت بالقرب من ارماين والطبيب ، حتى بلغت مائدة صغيرة اقيمت فى زاوية بجوار الحاجز ، غير بعيدة عنهما ، فجلست وقد اولتهما جانبا من وجهها .. وما لبثت ان قالت بضع كلمات لرئيس الخدم ، فاصدر اوامره لأحد السقاة ، ثم انصرف مهرولا ، بينما جلست مسز تشبستو ساكنة فى مقعدها لاتحير حراكا ، وقد غضت بصرها ، ووضعت مروحتها المصنوعة من الوشى المطرز الى جانب السكاكين والأكواب التى انعكست عليها الأنوار الكهربائية ، ثم اراحت يدها فوقها فى خفة . وكانت تلبس ثوبا اسود اللون ، وترتدى قفازين

ناصعى البياض ، بينما وضعت فى شعرها الباهت المصبوغ مشطا مرصعا بفصوص من الماس

ومن حيث جلس الصديقان ، كان وجهها ذو الشحوب العجيب ــ حتى كأنه قد خلا من اللون ــ يبدو رقيقا طاهرا الى حد غير مالوف .. وكان ثمة شىء يثير الاشفاق ويحرك الشجن فى ذلك البياض الناصع ، وفى السكينة الشاملة التى احاطت بهذه المراة وهى تجلس وحدها دون رفيق أو أنيس .. وكان كثير من الناس يتفرسون فيها ، ويتهامسون عنها ، وقد بدت الدهشة على أساريرهم حين رأوها وحيدة ! على انها كانت تبدو غافلة تماما عن انها موضع اهتمامهم .. وكان فى « تغافلها » هذا بساطة عجيبة ، كتلك التى كانت تشيع فى مظهرها كله ، فتجعلها تبدو من قرب كأنها فتاة صغيرة !

وقال رجل ــ كان يجلس الى المائدة المجاورة لمائدة ارماين ــ لرفيق له عملاق متورد الوجه من رجال المال : « ها هى ذى مسز تشبستو ! يا الهى ! انها وحيدة ليس معها أحد البتة ! » ، فاجابه الآخر : « أحسب انها لم تستطع ان تلتقط حتى طالبا من كلية ساندهيرست الليلة ! وشد ما اعجب لماذا تاتى على الاطلاق ما دامت لم تتمكن من جذب رفيق لها .. الا ما اشد صفاقتها !» .. ثم خفضا من صوتيهما وقد مال كل منهما على الآخر ، فرفع ارماين كأس الشمبانيا الذى كان أمامه الى فمه ، وأخذ يرشف منه ، ثم وضعه ثانية ، وقال للطبيب : « اذا رأيت أيا من مرضاك فقل انها غلطتى ، وسوف احمل اللوم عنك .. ولكن من المحقق انك لست مضطرا الى اتباع جميع وصفاتك ! » .. وكان صوته أجوف ، وفيه شرود ، كما لو كان يتكلم لمجرد تغطية ما الم به من انفعال صمم على اخفائه . وأجاب الطبيب : « كلا .. ولكن ينبغى ان أكون مثالا للعيش المعقول فيما اعتقد »

وأخذا يتكلمان بضع دقائق عن الصحة ، فى عبارات شبه رسمية وتكلف عجيب ، شأن الناس اذا شعروا بأن هناك من ينصت اليهم ويترقب مايقولون ، أو شأن الناس الذين يحسون انهم يصغون الى أنفسهم !.. وفى مرة أو اثنتين كان الدكتور ايزاكسون يختلس النظر الى مسز تشبستو ، التى كانت تتناول طعامها فى بطء وفتور دون ان ترفع عينيها .. وكان يبدو انها لم تره ولم تر أرماين ، بل الحق أنها كانت تبدو وكأنها لم تكن ترى احدا قط .. كانت غافلة عن كل مايحيط بها !.. ووجد الطبيب نفسه وقد أحس بالاشفاق عليها والرثاء لحالها ، ومالبث ان راح ينكر هذا الشعور ، وينكر انها تستحق أى عطف أو رثاء ! وكان يشاطر الكثيرين غيره عجبهم من انفرادها ووحدتها ، فهى اذ تتناول العشاء وحدها فى مكان عام ، انما تعلن عن فشلها فى الحياة التى اختارتها لنفسها ، وعن هجران الرجال لها .. فلماذا تفعل ذلك ؟ لم يكن وقتئذ قادرا على ان يحدس السبب ، ولو انه ادركه فيما بعد .. وكتم دهشته

فلم يبدها لرفيقه ، وقد توقع فى بادىء الأمر ان يلحق بها شخص ما قد تاخر قليلا .. ولكن احدا لم يات !

* * *

◆ ووهن الحديث بين ارماين وبين الطبيب .. وما لبث الأول ان قال : « بودى ان اقدمك الى احد الناس الليلة » .. فهتف الطبيب : « ماذا ؟ ترى من يكون ؟ » . وكان يلقى على صديقه هذا السؤال ، وهو يعلم الجواب حق العلم .. وقد أجاب الصديق بالفعل : « مسز تشبستو » ، فكاد الطبيب ان يخبره بانه كان يعرفها حقا ، لولا ان استطرد ارماين قائلا : « لقد كنت اتكلم معها عنك ، فاخبرتنى بانها لم تقابلك قط » ، فصاح متسائلا: «ومتى كان ذلك ؟ » .. وكان الجواب : « منذ أربعة ايام .. عندما قدمت اليها وتحدثت معها للمرة الأولى !»

ولم ينبس الطبيب بحرف زهاء دقيقة ، ثم قال : « لكم يسرنى ان تقدمنى اليها » .. ومع انه كان يتوخى الصدق مع اصدقائه الى ابعد الحدود ، الا انه كان على الدوام كتوما فى كل ما يتعلق بمهنته .. ولم يكن يدرى ما اذا كانت مسز تشبستو تود ان يجعل استشارتها اياه فى امر صحتها موضوعا للحديث ، ولذلك لم يذكر شيئا عنها .. ومادام ارماين كان يعلم ــ منذ اربعة ايام فقط ــ انه ومسز تشبستو غريبان لا يعرف احدهما الآخر ، فقد اضطر الطبيب الى اغفال ذكر هذه الزيارة، تاركا صديقه تحت تاثير الاعتقاد بانهما مازالا غريبين !

ومضى ارماين قائلا : « انها تقيم فى هذا الفندق ، وهى جالسة هنا الآن .. ولكنك ولا ريب تعرفها بمجرد النظر ؟ » .. فاجاب : « آه ! نعم ! لقد رايتها مرارا » .. وعاد صديقه يقول : « احسبك ستميل اليها ، اذا انت استطعت ان تنقى ذهنك من اى تحامل سابق ضدها » .. فتساءل : « ولماذا تحسبنى اتحامل على مسز تشبستو ؟ » .. فاجاب ارماين : « هذا شان الناس الآن .. ما من احد يقول عنها كلمة طيبة ، وانما يستوى النساء والرجال فى ذكرها بالسوء !»

ومن نبرات صوت أرماين ، تبين ماير ايزاكسون ان هذه الحقيقة قد جعلت ارماين نفسه متحاملا على الناس من اجل مسز تشبستو .. فهناك رجال يولدون للدفاع عن القضايا الخاسرة ، ويميلون بغريزتهم نحو اولئك الذين يتحول عنهم الآخرون ، مدفوعين الى ذلك بشهامة خفية تعمى بصائرهم ، أو بعاطفة من الشفقة الانسانية تسيطر على قلوبهم وتلقى ظلا على بريق ملكاتهم العقلية .. وكان «نيجل ارماين» من هؤلاء الرجال ، كما كان ماير ايزاكسون يعلم عنه ذلك .. ومن ثم لم تستبد به الدهشة وهو يصغى الى ارماين وقد تابع حديثه : « انهم لا يرون من الأمور سوى ظاهرها ، فيحكمون بما يرون .. واحسب انه

ينبغى للمرء الا يسىء الظن بهم ، ولكن من العسير احيانا الا يسىء المرء الظن بالقسوة نفسها ، وبخاصة عندما تكون القسوة موجهة ضد احدى النساء ٠٠ وفى هذه الليلة بالذات راحت مسز درنجهام ـ وانت تقول انها من فضليات النساء ٠٠ » ، فقاطعه الطبيب قائلا : « وانها لكذلك حقا ! »

ـ حسنا ٠٠ لقد راحت تقول لى : « اننى لا اشعر بذرة من الشفقة نحو مثيلات مسز تشبستو ، فلا تذكرها لى يا مستر ارماين ! » ٠٠ ياله من اعتراف، يا ايزاكسون !

ووجد الطبيب نفسه يساله : « وهل ذكرت لك مبررات رايها ؟ » ٠ فاجاب : « آه ! نعم ! لقد حاولت ان تفعل ، فقالت الشىء المعهود » ٠٠ فقال ايزاكسون مستوضحا : « وما هو ؟ » ٠٠ واجاب ارماين : « لقد قالت ان مسز تشبستو قد باعت نفسها للشيطان ، جسدا وروحا ، فى سبيل المادة ٠٠ وانها مثال المراة الجشعة ! »

ـ وهل بينت لك ما تعنيه تماما بـ « مثال المراة الجشعة » ؟

ـ نعم ٠٠ واشهد انها كانت واضحة فيما تكلمت به !٠٠ قالت عنها انها المراة المتجردة من المثل العليا ، الخالية من كل احساس بالحنين الى « البيت » ، بكل مافى «البيت» من معان: الرجل الواحد ، والأطفال ، وراحة الضمير التى تنبع من الايثار، وراحة البدن فى العمل من أجل الآخرين!٠٠ المراة التى تخون السمعة الطيبة لجنس النساء اذ تركز كل اهتمامها فى نفسها، والتى لاتمتد رغباتها الا لاشباع نزواتها الرخيصة ، بالاسراف الجنونى ، وانفاق المال فى اقتناء الثياب والحلى واليخوت والمنازل والسيارات وكل ما يثير العجب والاعجاب عند ذوى العقول المنحرفة !

ـ ان مثل هؤلاء النساء موجودات حقا !

ـ ربما كان الأمر كذلك ، ولكن ياعزيزى ايزاكسون ٠٠ يكفى ان ينظر المرء الى مسز تشبستو نظرة خالية من التحامل ، اذا سمحت لى بهذا التعبير ، ليرى انها لا يمكن ان تكون واحدة من هاته النساء !٠٠ وحتى اذا لم أكن قد تحدثت معها قط ، فسوف ادرك للتو انها ولا بد من ذوات المثل العليا ، بل انها لا يمكن ان تكون متجردة منها ، مهما يكن من امر حياتها الآن او فى الماضى ٠ سيماؤهم على وجوههم !٠٠ والسيماء لا تكذب البتة ٠٠ انظر الى قسمات هذا الوجه ، افلا ترى ما اعنيه ؟

وراح الاثنان يحدقان فى المراة المنفردة برهة ، قبل ان يقول الطبيب : «مامن شك فى ان فى وجه مسز تشبستو جمالا معينا »

ـ اننى لا اتكلم عن الجمال ، وانما اتكلم عن المثالية ٠٠ عن الطهر والنقاء !٠٠ افلا ترى ما اعنيه ؟٠٠ والآن ، كن عادلا !

فقال الطبيب : « نعم ٠٠ اننى أراه !» ٠ واذ ذاك تنهد ارماين بارتياح عميق، بينما تابع الطبيب كلامه : « ولكن هذه اللمحة ، فيما اعتقد ، ليست الا وليدة

تكوين قسمات الوجه والطريقة التى ينمو بها الشعر ؟٠٠ افتعنى ان تقول انك تستطيع الحكم على امراة من ذلك اكثر مما تحكم بافعالها فى الحياة ؟ »

– كلا ٠٠ ولكنى اقول انك اذا درست حياة امراة لها مثل هذا الوجه ٠٠ حياتها الحقيقية ٠٠ فسوف تتبين بلا ريب انها لم تكن خالية من الاعمال التى تتوقعها منها ٠٠ الأعمال التى تؤيد تلك اللمحة من المثالية التى يستطيع كل انسان أن يراها !٠٠ ثم ما الذى تعرفه مسز درنجهام حقا عن مسز تشبستو ؟ انها لا تعرفها معرفة شخصية البتة ، وقد اعترفت لى بذلك ٠٠ بل انها لم تتحدث اليها قط ، ولا تريد ان تفعل !

– اعترف ان ذلك لا يدهشنى !

وكانت فى صوته نبرة جافة واضحة ، لم تفت ارماين ، فقال : « ارى انك لا تقل تحاملا ! » ٠ وبدت فى صوته مسحة من الضيق والكدر ، وهو يستطرد قائلا : « ولست اعلم السبب فى ذلك على وجه التحديد ، ولكنى كنت دائما انظر اليك كواحد من اكثر الناس الذين التقيت بهم بعدا عن التحيز ، ومن اوسعهم افقا وانضجهم عقلا ، ياايزاكسون ٠٠ لا كواحد من اولئك الذين يجدون من واجبهم دائما أن ينبحوا مع كلاب الصيد ! »

– ان المسالة تتمثل فى : ماهو التحامل ؟٠٠ ان الحقائق الراهنة فى حياة انسان معين هى الواقع ، ولا يمكن ان تترك المرء بعيدا عن التاثر بالواقع تماما، سواء ضد صاحب هذه الحياة او معه ٠٠ فلو اننى رايت رجلا يضرب كلبا لأنه لعق يده ، لاستنتجت انه رجل قاس ٠٠ فهل كنت تقول عنى اننى ضيق الأفق اذ ذاك ؟٠٠ واذا لم يحكم المرء على الرجال والنساء بفعالهم ، فباى شىء يمكنه أن يحكم عليهم اذن ؟ لعلك قائل « ينبغى لك ان لا تحكم عليهم البتة » ، ولكن من المستحيل الا تكون للمرء آراء فى الناس ٠ وفى كل مرة يكون لك راى فى شخص ما ، فانك تكون قد اصدرت عليه حكما خفيا ٠٠ اليس كذلك ؟

– اعتقد ان للشعور دخلا فى هذا الأمر ٠٠ فغالبا ما ينشا لدى المرء احساس داخلى مباشر قبل ان يعرف شيئا عن حقائق حياة فرد معين ٠٠ ومن المحتمل ان تكذب هذه الحقائق ذلك الشعور ، ولكن هل هذا خطا ؟٠٠ احسب انه لايكون كذلك غالبا ٠٠ واذكر اننى سمعت ذات مرة امراة بارعة الذكاء تقول عن رجل كانت تعرفه حق المعرفة : « انهم يتهمونه بكذا وكذا من الأفعال ٠٠ ولكننى لو رأيته يرتكب هذا العمل لما صدقت انه ياتيه فعلا»!٠٠قد تقول ان هذاسخف، ولكن هل هو سخف حقا ؟٠٠ الا يمكن ان يختفى الانسان الحقيقى وراء مظهر زائف ؟٠٠ الا يوجد غالبا هذا المظهر الزائف ، كانه القناع يخفى الوجه ؟٠٠ وهلا ياتى الانسان الزائف اعمالا يستنكرها الانسان الحقيقى ؟٠٠ اننى افضل ان احكم – فى الغالب – بقلبى لا بعينى يا ايزاكسون ٠٠ نعم ، اننى افضل ذلك ! والمراة التى رويت لك قصتها انما قالت شيئا جميلا عند ما قالت ذلك ٠

ومع ان كل من سمعها راح يضحك منها ، فانها لم تكن سخيفة البتة !٠٠ اذ عند ما ينشأ لدى المرء ما يسميه احساسا داخليا ، فان قلبه هو الذى يتكلم ، وهو الذى يقول « هذه هى الحقيقة » !٠٠ وانا اعتقد ان القلب يعرف ما هى الحقيقة ، دون حاجة الى اعمال ذهن او تفكير !

ـ وماذا تقول اذا شعر شخصان باحساسين متناقضين كل التناقض ازاء شخص واحد ؟٠٠ ماذا يكون الامر اذن ؟ ان هذا يحدث احيانا كما تعلم

فقال ارماين وهو ينظر ناحية مسز تشبستو : « لست أعتقد أن من الممكن ان ينشأ لدينا ـ أنت وأنا ـ احساسان متناقضان تماما ازاء شخص واحد ٠٠ وهذا يكفينى ، ولن أشغل نفسى الليلة بسائر أهل العالم ! »

ـ الا تظن ان القلوب قد تكون خرقاء كالرؤوس ؟! اننى أعتقد ذلك ، واحسب ان الناس قد تكون لهم « قلوب مضطربة » ، كما تكون لهم « عقول مضطربة »!

واذ كان الطبيب يقول ذلك ، خطر له فجاة انه انما كان يصدر حكما ضد صديقه ٠٠ ضد ذلك الرجل الذى اعجب به ، واحبه !٠٠ اما ارماين فقد قال : « اننى دائما أصدق قلبى ، ولكنى غالبا ما أسىء الظن بعقلى !٠٠ الا تريد المزيد من الشمبانيا ؟ » ٠ فقال ايزاكسون : « لا ٠٠ شكرا لك ! » ٠ واذ ذاك تساءل ارماين : « مارأيك فى ان ننضم الى مسز تشبستو ؟ لا ريب فى انها شديدة السأم لتناولها العشاء بمفردها ٠٠ سوف نذهب لنتبادل الحديث معها ، فاذا لم تدعنا للجلوس ، فلنمض الى البهو لندخن »

ولم يكن فى صوت ماير ايزاكسون ـ اذ قال : «حسنا» ـ ما ينم عن تحمسه لهذا الراى او عن نفوره منه ٠٠ ولو ان شيئا من ذلك بدا ، لما فطن اليه ارماين ، اذ كان اذا عنى بأمر ، لا يكاد يرى غير هذا الأمر بالذات !

وما لبث ان دفع الحساب ، واجزل العطاء للساقى ، ثم نهض من مجلسه قائلا : « هلم بنا ٠٠ وسوف اقدمك اليها » ٠٠ ثم وضع يده لحظة فوق ذراع صديقه ، واستطرد يقول فى صوت خفيض : « جرد فكرك من التحامل يا ايزاكسون ، فانت من الطيبة والذكاء بحيث لا يمكن ان تكون من زمرة المتحاملين ٠٠ واجعل احساسك الأول هو الاحساس الصادق ! » ٠٠ وفيما كان الطبيب يمضى مع صديقه نحو مائدة مسز تشبستو ، لم يشأ ان يخبره بان احساسه الأول حيال هذه المراة كان قد نشأ من قبل ، فى حجرة الاستشارة بميدان كليفلاند !

الفصل الخامس

◆ « مسز تشبستو » !

وأجفلت مسز تشبستو قليلا اذ سمعت نداء نيجل أرماين ،

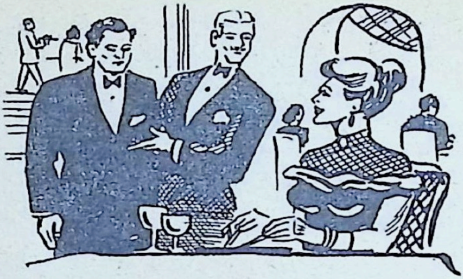

كشخص يفيق بغتة من حلم كان مستغرقا فيه ، ورفعت عينيها نحوه ثم ابتسمت قائلة : « أهذا أنت ؟ ·· انني وحدى كما ترى ، ولكننى كنت جائعة ، فاضطررت الى مواجهة الجماهير !» ·· فقال : « أود أن أقدم لك أحد أصدقائى ، فهل تسمحين لى بذلك ؟ » ·· وهتفت المرأة : « بالتأكيد ! »

واذ ذاك تنحى أرماين قليلا ، فتقدم دكتور ايزاكسون حتى وقف بجانب مسز تشبستو ··

ـ الدكتور ماير ايزاكسون ·· مسز تشبستو

ولم يدر الطبيب هل كان يتوقع أن تظهر مسز تشبستو معرفتها به ، أو انه كان يشعر سلفا بما حدث فعلا : الانحناء الخفيف وغمغمتها : « يسرنى أن ألقاك ! » ، ولكن الذى كان يدريه هو أنه لم يدهش حقا لمعاملتها اياه كشخص غريب عنها تماما ، وأنه سر كل السرور اذ لم يذكر لأرماين شيئا عن زيارتها لميدان (كليفلاند) ·· ومضت مسز تشبستو تقول لأمارين : « هلا جلستما لنتبادل الحديث قليلا· انني وحيدة، وقد قتلنى السأم ! » ·· فقال أرماين : « هل تسمحين ؟ » ·· ثم جذب أحد المقاعد ، على حين قالت مسز تشبستو : « تعال بجانبى من الناحية الأخرى يا دكتور ايزاكسون ·· لقد سمعت الكثير عنك ، فقد أحسنت علاج معظم أعدائى ! »

ولم يكن ثمة أقل أثر للتصنع فى لهجتها ومسلكها ، كما لم يبد ظل من الضيق والتبرم فى نظرتها ، فلم يتمالك الطبيب نفسه ـ وهو يجلس بجانبها ـ من الاعجاب ببراعتها الفائقة فى الخداع ، كما كان يعجب أحيانا ببراعة بعض شهيرات الممثلات الفرنسيات فى أداء أدوارهن على المسرح ! ومالبث ان قال : « اذن ، فلا ريب فى انك تكرهينني ؟ » ٠٠ فقالت : « ولماذا ؟٠٠ اذا كنت لا أكرههم هم ! » ٠ فهتف أرماين : « أفلا تكرهين اعداءك ؟ »

ـ كلا ! وهذه من نواحي الضعف عندى !٠٠ اننى مااستطعت ذلك قط ، ولن أستطيعه البتة ، فثمة شيء أخرق فى قرارة نفسى لا يفتأ يتلمس المعاذير للناس ، مهما يكونوا ومهما يفعلوا ، ودائما ما أقول لنفسى : « انهم لا يفهمون ٠٠ ولو انهم علموا حقا جميع الظروف التى تحيط بى لما أبغضونى ، بل لعلهم كانوا يرثون لحالى ! » ٠٠ وهذه حماقة منى ، بل خطأ ذريع !٠٠ هكذا أعلم حق العلم ، فان مثل هذه المشاعر تقف سدا منيعا فى طريق النجاح ، لأنها تمنع المرء من العمل فى سبيل الدفاع عن نفسه ٠٠ واذا لم يعمل المرء من أجل نفسه فان أحدا لن يعمل من أجله !

فقال أرماين : « ما أظن هذا صحيحا ! » ٠٠ فقالت : « آه ! بل انه صحيح كل الصحة ٠٠ فأنت اذا كنت ميالا الى الشجار ، محبا للانتقام ، حسبك الناس جسورا مقداما ، ووجدوا أنفسهم يقفون فى صفك ٠٠ أما اذا كنت سهل الصفح والمغفرة ، فلن يصفح الناس عنك أو يغفروا لك بسهولة ! » ٠٠ فقال : « اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا تغيرين خططك ؟ » ٠٠ ونظر الى ايزاكسون ، ففهم الطبيب أنه كان يحاول أن يثبت له ما كان يعتقده من خلق هذه المرأة ٠٠

وأجابت مسز تشبستو: «لسبب بسيط، هو أننى لا أستطيع! ٠٠ فأنا كما خلقت، وليس بوسعى ان أغير ما بنفسى، كما انه ليس

بوسعي أن أعمل على نقيض ما يوحى به ذلك الصوت الخافت الذى يهتف فى أعماق نفسى !٠٠ والواقع اننى كثيرا ما أحاول ـ اذ اننى لا أزعم لنفسى البتة انى منزهة الى هذا الحد ! ـ ولكنى وجدتنى عاجزة عن الاستمرار فى المحاولة ٠٠ وأنا أعلم ان ذلك ضعف كبير ، وأعلم ان العالم سوف يهزأ بى ويضحك منى ، ولكن ٠٠ ماذا تريد ؟ ان بعضا منا عبيد لأرواحه ! » ٠٠ وبدت العبارة الأخيرة وكأنها أفلتت منها دون وعى ، اذ انبعثت فى اخلاص عميق٠٠ ولكنها سرعان ما أضافت ، كما لو كانت تأسف على اذاعة سر دفين لها : « لابد انك تظننى امرأة بلهاء يا دكتور ايزاكسون ؟! »

وتساءل الطبيب : «ولماذا يا مسز تشبستو ؟» ٠٠ فأجابت : « لهذا الذى قلته ٠٠ فانك طبعا تعتقد اننا عبيد لأجسادنا ! » ٠٠ ولم يتمالك أن قال فى لهجة ذات معنى : « الحق اننى لا أراك بلهاء ! » ٠٠ وهنا قال أرماين : « ان ايزاكسون ليس طبيبا عاديا ، وليست بك حاجة الى أن تخشيه » ٠٠ فقالت : « ما أحسبنى أخشى أحدا ، ولكن المرء لا يود أن يجعل من نفسه أضحوكة ٠٠ وانى لواثقة من اننى غالبا ما أكون حمقاء عندما أبخس الجسد حقه الى هذا الحد ! » ٠٠ ثم أردفت وهى تبتسم : « أى حديث هذا ! ٠٠ ولكننى عندما كنت وحيدة وسط هؤلاء الناس ، رحت أفكر فى شتى النواحى ٠٠ فالمرء اذا جلس بمفرده بين جمع من الناس ، لم يملك نفسه من الاستغراق فى التفكير ٠٠ و فى رأيى أن ذلك يحرك المخ وينشطه ! وهكذا كنت أفكر فى كثير من توافه الامور وأنا أتناول الطعام بمفردى » ٠٠ ونظرت الى الرجلين نظرة اعتذار ، وما لبثت أن هزت كتفيها قائلة : « المرأة فى التفكير ! »

ودنا أرماين بمقعده منها قليلا ، فى حركة جعلت الدكتور ايزاكسون يتبين فجأة مدى تلك القوة التى كانت لا تزال كامنة

فى هذه المرأة ٠٠ القوة التى كانت تجعلها تسيطر على نوع معين من الرجال ٠٠ وقال ارماين مكملا عبارتها : « والرجل فى التدبير ! » ، بينما كان الطبيب يقول فى نفسه : « والمرأة أيضا فى التدبير ٠٠ بل انها أفضل تدبيرا من الرجل ! »

وثار اعجابه من جديد بجرأة مسز تشبستو الطاغية ، وبتحديها الكامل الخفى لشخصه ٠٠ بينما أردف أرماين قائلا فى لهفة : « وما الذى كنت تفكرين فيه ؟ ٠٠ لقد لاحظت كيف كنت مشغولة البال ، حتى وأنت تدلفين الى القاعة ! » ٠٠ فهتفت : « ألاحظت ذلك ؟ ٠٠ لقد كنت أفكر فى حديث تبادلته هذا المساء » ٠٠ والتفتت نحو ماير أيزاكسون فى تراخ وتمهل ، وهى تستطرد : « ومن عجب انه كان مع طبيب ! »

فقال ماير وهو يحدق فى وجهها مباشرة : « أحقا ؟ » ٠٠ فأجابت : « أجل » ، ثم أشاحت بوجهها ، وعادت تتحدث الى ارماين قائلة : «لقد ذهبت بعد الظهر الى أحد الأطباء ، يا مستر ارماين ، لأستشيره بشأن صديقة لى حل بها المرض واستبد بها العناء ، فتبادلت واياه أعجب حديث عن الروح والجسد ٠٠ كان أشبه بصراع بيننا ٠٠ وانى واثقة من انه حسبنى مثال المرأة الحمقاء ! »

ـ لماذا ؟

ـ لأننى فيما أظن قد نحوت بموضوعنا منحى عاطفيا ،وأنت تعلم أننا معشر النساء نميل دائما الى الناحية العاطفية ! ٠٠ أما طبيبى هذا فكان ذا آراء علمية بحتة ، ملحدا الى حد يبعث على الهلع ! وكان رأيه اننى متعلقة بالأوهام الى درجة السخف !

ـ وماذا كان رأيك فيه ؟

ـ أخشى أن يكون رأيى فيه انه مادى صرف ! فقد ظل يعالج الجسد حتى لم يعد بوسعه أن يؤمن بشىء غير الجسد وحده !٠٠ كان يرجع كل شىء الى الجسد ، وكل انفعال أو عاطفة ، فى

رأيه ، مبعثها اهتزاز عصب معين فى خلية صغيرة في تلك المادة الرمادية التي يتكون منها المخ ! ٠٠ وأحسبه يعتقد ان الحب مهما اشتد أواره ، يمكن عــلاجه بجراحة ! ٠٠ أما أن تكون للانسان روح خالدة ، فذلك ٠٠ حسنا ، لقد جرؤت ، لأنني بطبيعتى لا أخاف شيئا أو أحدا ، على أن أذكر له مجرد احتمال ان يكون لى شيء كهذا ٠٠ ولكننى أسفت حقا فيما بعد !

ـ هلا أخبرتنا بالسبب ؟

ـ لأن هذا القول جلب علي وابلا من الازدراء ومن المجادلات ٠٠ أما الازدراء فلم أبال به كثيرا ، ولكن المجــادلات هى التى أضجرتنى !

ـ وهل أقنعتك ؟

ـ واها لك يا مستر ارماين ٠ هل عرفت امرأة يقنعهــا الجدال ؟

فضحك قائلا : « وهل ما تزالين تؤمنين بأن لك روحا خالدة لا تفنى ؟ »

فهتفت : « أكثر من أى وقت مضى ! » ٠٠وراحت تضحك بدورها ، ولكن الضحكة سرعان ما ماتت على شفتيها بغتة ، واكتسى وجهها سمة من الجد والصرامة وهى تقول : « **اننى لن أدع أحدا ـ أى أحد ـ ينتزع منى شيئا من معتقداتى !** » ٠٠ وكانت نبرات صوتها قاسية ، عنيفة فى ضراوتها الفجائية ، ولكنها ما لبثت أن تبدلت تماما عندما استطردت : « لابد لى من قدح من القهوة ، فاننى أنام نوما سيئا ،ولذلك أحب أن أتناول القهوة ٠٠ خالف تعرف كما يقولون ! ٠٠ ثلاثة أقــداح من القهوة الثقيلة أيها الساقى ! »

فقال ماير أيزاكسون : « لا تحسبى لى حسابا »

ولكنها قالت : « يجب أن تقبل هذه المرة ، فانى أكره أن أفعل شيئا وحدى ٠٠ لن تجد البهجة فى شيء ما لم يكن معك من يشاطرك اياه ! » ٠٠ ورمقت ارماين وهى تستطرد قائلة :

« هذا على الأقل ما تعتقده كل امرأة ! »

ـ ما أكثر النساء التعسات فى هذا العالم !

ـ نعم ٠٠ اللواتى يعشن فى عزلة ! فما من رجل يمكنه البتة أن يدرك مدى بؤسهن !

وران الصمت برهة ، اذ كان فى صوت مسز تشبستو عندما نطقت بالعبارة الأخيرة شىء يفرض الصمت فرضا ٠٠ وللمرة الأولى منذ وجوده معها في تلك الليلة ، شعر ماير ايزاكسون انه قد لمح بارقة من حقيقة نفسها ، وانه قد اقترب من أعماق شعورها !

* * *

• وأتى الساقى بالقهوة ، بينما استطردت مسز تشبستو ضاحكة :

ـ حتى الطعام لا تجد المرأة فيه أى لذة اذا تناولته وحدها ! وقبل أن تحضرا الليلة لترثيا لحالى ، شعرت بأننى كنت خليقة بأن أكون أوفر سعادة لو اننى تناولت طعاما بسيطا فى حجرتى ، ولكنى الآن أحس بالمرح والابتهاج ! ٠٠ أليست القهوة جيدة هنا ؟

ولاحت عليها فجأة دلائل المرح والسرور ، كأنما تفتحت أزاهير السعادة فى قرارة نفسها ، ثم نظرت الى الطبيب وهى تتابع كلامها : « لا بأس من قضائك ليلة مسهدة واحدة ، يا دكتور ايزاكسون ! ٠٠ انك قمت بعمل من أعمال الخير ، اذ أدخلت البهجة على نفس بشرية كانت تعانى الكثير وهى تندب حظها فى الحياة ٠٠ فان الحديث الذى تبادلته مع ذلك الطبيب سبب لى انقباضا مروعا ، رغم اننى حاولت ان أقنع نفسى بأن لا أصدق كلمة واحدة مما قاله لى ! »

وكان ماير ايزاكسون يرشف قهوته فى صمت ، دون أن يقول شيئا ٠٠ بينما انبعث ارماين يقول فى حمية : « **اننى أعتقد ان من أبشع الشرور التى يمكن أن يرتكبها انسان فى**

هذا العالم ، هو ان يحاول انتزاع عقيدة صالحة مريحة من نفس المؤمن بها » .. وعندئذ تكلم الطبيب ، فخاطبه قائلا : « أفتؤثر أن تدع الناس وشأنهم اذا رأيتهم يترددون فى الخطأ ؟ .. هب ــ مثلا ــ انك ترى أحد الناس .. أحد أصدقائك ، يثق فى شخص تعلم حق العلم انه لا يستحق هذه الثقة .. ألا تبذل أى جهد لانارة السبيل أمامه ؟ »

وكان يتكلم فى هدوء بالغ ، بل فى قلة اكتراث ، فراحت مسز تشبستو تتفرس فيه بعينيها الزرقاوين الواسعتين ، وقد غفلت عن قهوتها .. بينما قال ارماين : « ربما فعلت .. ولكنك تعرف نظريتى » . فقال ماير ايزاكسون : « آه ! حقا ! » . وابتسم ، بينما كانت مسز تشبستو تنقل أنظارها بينهما فى سرعة . وما لبثت أن قالت : « أية نظرية ؟.. لا تجعلانى أشعر بأنى دخيلة بينكما ! »

ــ أن مستر ارماين يظن .. هل تسمح لى يا ارماين ؟

فهتف هذا : «بلا شك» .. واذ ذاك استرسل الطبيب قائلا : « **انه يظن أن الايمان بطيبة الناس ونقاء سريرتهم يساعدهم على أن ينقلبوا طيبين أنقياء ، بحيث يمكن أن نجعل من الشرير انسانا فاضلا بمجرد الثقة فيه ، وهى ثقة ربما وضعت فى بادىء الأمر فى غير موضعها !** » .. فبادرت مسز تشبستو قائلة : « ان مستر ارماين .. » ، وأمسكت لحظة ، ثم أردفت تقول فى رقة : « **مما يؤسف له ان العالم ليس مليئا بأمثال مستر ارماين** » .. وتورد وجه ارماين ، كأنه غلام غرير ، بينما استطردت المرأة قائلة : « ليت طبيبى هذا كان يعرفك يا مستر ارماين .. فانك اذا كنت تبنى وتخلق بايمانك ، فانه ــ فيما أعتقد ــ يهدم ويدمر بكفرانه ! » .. وفيما كانت تنطق بكلماتها الأخيرة ، التقت عيناها بعينى ماير ايزاكسون ، فرأى فيهما ، أو خيل اليه انه يرى فيهما ، **تحديا مليئا بالوعيد** !

وبدأت أضواء القاعة تخفت رويدا رويدا ، فهبت مسز

تشبستو قائمة وهى تقول : « لسوف يطردوننا من هنا ، فلنسبقهم الى الانصراف من تلقاء أنفسنا ٠٠ **وانه لأمر مروع أن يطرد الانسان من مكان ما ، فذلك يجعلنى أشعر بنفسى أشبه بحواء فى اللحظة الحاسمة من رسالتها السامية ! »**

و مضت أمامهما نحو الباب ٠٠ وفيما كانت تمر بين الموائد ، راح كل رجل ، وكل امرأة ، يدير رأسه ليحدق فيها كما يحدق الأطفال فى ملهاة تثيرهم ! ٠٠ وكانت تبدو غافلة تماما عن الاهتمام الذى أثارته ، ولكنها عندما وقفت تودع الصديقين فى البهو ، قالت : « أليس الناس مزعجين أحيانا ؟ انهم يبدون وكأنهم يظنون المرء ٠٠ » ، وسكتت ، ثم تنهدت قائلة : « يا لى من بلهاء ! طابت ليلتكما ، وشكرا لكما على الحضور ، فقد نالنى من ذلك خير عظيم ! » ٠٠ فقال ارماين فيما يشبه الهمس ، وهو يمسك بيدها فى راحته : « لا تبالى بهؤلاء الوحوش ، ولا تفكرى فيهم ، بل فكرى فى ٠٠ الآخرين ! »

فتطلعت اليه فى صمت ، ثم أومأت برأسها ، ومضت فى هدوء !

وما أن انصرفت مسز تشبستو ، حتى قال ماير ايزاكسون لصديقه : « حسنا ، طابت ليلتك يا ارماين ٠٠ اننى سعيد لعودتك من الخارج ، وأرجو أن نلتقى كثيرا »

ـ لا تذهب الآن ٠٠ تعال الى حجرتى لندخن قليلا !

ـ من الأفضل ألا أفعل ، اذ ينبغى أن أستيقظ مبكرا ، فقد اعتدت التريض على جوادى فى السابعة والنصف

ـ سوف أركب معك اذن

فتساءل الطبيب : « غدا ؟ » ٠ واذ أجابه صديقه : « أجل » ، قال : « ولكن هل اقتنيت جيادا ؟ » ، فأجابه : « كلا ، وانما سأستأجر واحدا من سيموندس ٠٠ ولكن لا تنتظرنى ، بل ابحث عنى عند نادى التجديف ٠ والآن ، طابت ليلتك أيها الصديق القديم ! »

وظلت أيديهما متماسكة لحظة ، عندما استطرد ارماين : « ألم أكن على حق ؟ » . فتساءل الطبيب فى عجب : « على حق ؟ »

ـ بشأنها .. بشأن مسز تشبستو ؟ **ربما كانت قد سيقت رغم أنفها بين يدى الشيطان ! ولكن ألا ترى .. ألا تشعر بالخير المستقر في أعماقها ، والذى يناضل فى قوة ، ويتوق الى فرصة تتيح له ان يظهر ويبرز ، وان يمسك بأعنة حياتها فيقودها الى الهدوء والسعادة والاستقرار ؟!** اننى أرثى لهذه المرأة يا ايزاكسون ! شد ما أرثى لها !

فقال ايزاكسون وهو يشدد الضغط على كلماته : « لك أن ترثى لها اذا شئت .. أما أنا .. »

ولكنه تردد برهة ، اذ رأى فى وجه صديقه شيئا جعله يكف عن المضى فى كلامه .. شيئا أنبأه بأن من الحكمة الا يمضى فى الحديث الى أبعد من ذلك ، فان المعارضة تعمى بصيرة بعض الطبائع ، وتدفعها الى الأمام .. ومثل هذه الطبائع ينبغى أن لا تواجه بالمعارضة ، ومن ثم فانه استأنف كلامه قائلا : « وأنا أيضا أشفق عليها حقا .. يا للمرأة المسكينة ! »

وكان صادقا فيما قاله ، ولكن اشفاقه لم يكن من ذلك النوع الذى يقترن بالحب !

* * *

◆ **كانت** القهوة الثقيلة ـ التى استطاعت مسز تشبستو أن تغرى ماير ايزاكسون على تناولها ـ سببا فى أن ظل مسهدا فى تلك الليلة .. كانت أشبه بجرعة منكرة نفت النوم عن عينيه ، وعمرت الليل بحشد من الأفكار المتدافعة ، فلم يلبث الطبيب أن كف عن محاولة اجتلاب النعاس ، واستسلم لهذا الحشد فى غبطة يشوبها شىء من الحنق ! .. فلقد كان ـ بعد ظهر ذلك اليوم ـ فى حيرة خفية ازاء مسز تشبستو ، وكان يتساءل فى عجب عن السبب المستتر الذى حدا بها الى أن تطلب لقاءه في

عيادته . أما بعد ذلك الحديث ، الذى دار فى الليل ، فقد بات موقنا من هذا السبب . وما لم يكن مخطئا .. ما لم يكن قد أساء فهم هذه المرأة تماما ، فهى انما توشك أن تقوم بمغامرة جريئة عجيبة : **لقد رأت نيجل ارماين ، وقرأت طبيعة نفسه الغريبة ، كما ينبغى أن تقرأ ، فأدركت ان فى أعماقه رجلا لا يشبه سائر الرجال .. رجلا كان مولعا ـ بفطرته ـ بأن يسير فى عكس اتجاه التيار ، وأن يتحول بطبعه نحو ما يتحول معظم الرجال عنه ! .. رأت فيه رجلا جبل على احتضان القضايا الخاسرة .. وقد كانت حياتها قضية خاسرة ، ومن ثم كان نيجل فرصتها السانحة !** ولقد حدثها منذ أيام أربعة عن ماير ايزاكسون ، وكان فى وسع الطبيب أن يحدس ذلك الحديث ، اذ كان يدرك تحمس صديقه له ..

والمرأة الذكية تغريها الكوارث على أن تسىء الظن بالناس ، ومن ثم فانها لم تشأ أن تأخذ حديث نيجل على علاته ، ودفعتها الغريزة النسوية الى أن تستطلع شخصية الطبيب كما يرتاد المرء بلدا غريبا سمع عنه الكثير .. لذلك كان شعور الطبيب صادقا حين خيل اليه ـ وهو يجلس الى مسز تشبستو فى ميدان (كليفلاند) ـ ان المريضة هى التى كانت تفحصه . فقد قرأت أفكاره فى سهولة ودقة ، ثم راحت تعامله على ضوء ما اكتشفت ـ بهذه السرعة المدهشة ـ من معرفة به ، فكشفت له عن دخيلتها ، وأظهرته على حقيقة نفسها .. لماذا ؟ .. لتخرس فمه فى المستقبل ! **فانها اذ أفشت له أسرارها ، صورتها فى صورة أعراض من المرض صارحته بها بوصفه طبيبا .. أنبأته بحقيقة نفسها في غرفة الاستشارة بعيادته ، حتى لا يستطيع أن يفضى بتلك الحقيقة للغير ، ولنيجل ارماين بالذات !..** ولقد أدهش الطبيب اعتدادها الكامل بمقدرتها على قراءة نفوس الناس ، بل وأثار اعجابه . فقد كان فى هذا الاعتداد ميل الى القوة والجرأة ! كذلك كان ينظر اليها من الناحية الفنية فيقدرها كل التقدير ..

وها هى ذى قد أظهرته ـ فى لقائهما بالمطعم فى تلك الليلة ـ على مزيد من جرأتها البالغة !

وراح ـ فى حلكة الليل ـ يتمثل وجهها الناصع البياض ، ووميض عينيها اللتين زادهما تألقا ما رسم تحتهما من ظلال ، بينما كانت تروى لنيجل تلك السلسلة من الأكاذيب عن الحديث الذى دار بينها وبين الطبيب ، بعد أن قلبت الأوضاع ووضعت نفسها فى مكان الطبيب ، ووضعته فى مكانها ! لقد كانت تستمتع بما فعلته ·· كانت تستمتع به فى قرارة نفسها ، وبذلك اضطرت الطبيب الى أن يرقص على أنغام مزاميرها ، فألفى نفسه مسوقا الى مسايرتها فى الخداع ، بل والى تأييدها ! ·· وأدرك ماير ايزاكسون اذ ذاك السبب فى جلوسها وحيدة الى مائدة العشاء ، وفى حديثها عن سوء حظها فى الحياة ، وهجران الرجال اياها ·· كانت تفعل ذلك لتطرق المعدن النادر الذى اكتشفته فى قرارة ارماين ·· وكانت بارعة ـ فى ذلك ـ كل البراعة · ولكنها بعملها أحرقت سفنها وقطعت على نفسها خط الرجعة !

وقطب ماير ايزاكسون حاجبيه فى الظلام ·· ان امرأة من طراز مسز تشبستو لا تحرق سفنها هباء ، فالى أى مدى يبلغ ما كانت تتوقع أن تفيده من هذه التضحية بكبريائها الزائفة ، وهى كبرياء تكاد تكون أعز من الحياة عند امرأة من طرازها ؟! ·· ان لذلك مقابلا ·· فماذا يمكن أن يكون هذا المقابل ؟

وفيما كان يرقد مستيقظا ، والليل يمشى متمهلا صوب الفجر ، أحس بالخوف يملأ قلبه على صديقه نيجل ارماين !

الفصل السادس

◆ **كانت حجرة استقبال مسز تشبستو ـ بفندق سافوى ـ مزخرفة باللونين الوردى والأخضر الفاقعين ، وهو ما كان يلائم خطتها الحالية بالنسبة**

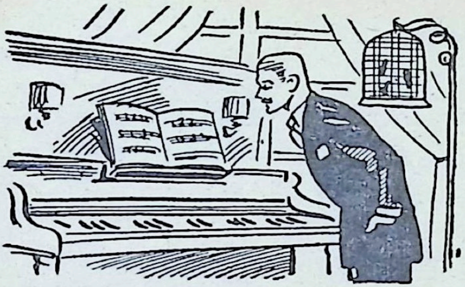

للألوان ! وكان فيها معزف صغير من الخشب الاحمر ، وضعت عليه نسخة من « حلم جيرونتيوس » ـ من تاليف « الجار » ـ وقد فتحت عند هذه الكلمات : « امضى فى رحلتك ايتها الروح التقية ٠٠ اذهبى من هذا العالم ! » ٠٠ وفى ارجاء مختلفة من الحجرة ، تناثرت مجلات وصحف متباينة : كتاب « القرن التاسع عشر وما يليه » ، ومجلة تصدر كل ثلاثة اشهر ، و « التايمس » ٠٠ وكتب عديدة مثل « فاوست » ، لجيته ، و « الموجز فى الآثار المصرية » ، لماسبيرو ، و « الرفيق فى الدراسات اليونانية » ، و « قوى كالموت » ، لجى دى موباسان ، و « انتصار الموت » ، لدانونزيو ، و « الحرف القرمزى » لهوثورن ٠٠ كما كانت توجد نسخة من « مقالات ايمرسون » ٠٠ وفى سلة صغيرة تحت المكتب ، كان العدد الاخير من « وينينج بوست » ممزقا فى عناية ! ٠٠ واستقرت فى احدى الزهريات بضع ورود وردية اللون ، بينماكانت بعض عصافير الكناريا تغرد فى قفصها

وكان الأثاث قد نسق بيد بارعة ، بحيث فقدت الحجرة شيئا من نظامها كحجرة فى فندق فاخر !٠٠ وكانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها ، تفضى الى الشرفة المطلة على جسر نهر (التيمس) ، بينما اخذ يهب من ناحية النهر نسيم رقيق يحرك الستائر الهفهافة ، ذات اللونين الأبيض والأخضر ، التى كانت تحيط النوافذ باطار بديع ٠٠ والى هذه الحجرة الانيقة التى شاعت منها بهجة هادئة ، اقتيد نيجل ارماين فى الساعة الخامسة والنصف تماما ٠٠ قاده اليها احد الخدم ، ثم تركه ليبلغ نبا مقدمه الى مسز تشبستو

وما ان اغلق الباب وراء الخادم الألمانى ، حتى وقف نيجل يقلب الطرف حواليه ٠٠ كانت هذه هى زيارته الاولى لمسز تشبستو ، فراح يحاول ان يستشف معالم شخصيتها خلال هذه الحجرة التى كانت تعيش فيها ٠ وخيل

اليه انها تبدو اكثر اناقة من حجرة فى فندق ، على الرغم من انه لم يتبين ـ كما كان ايزاكسون خليقا بان يتبين للتو ـ ان الأثاث قد نسق ببراعة فائقة !.. وهامت عيناه فى جولة سريعة فى أنحاء الحجرة .. لا صور ولا لوحات ، ولا وشى ولا تطريز .. بعض الوسائد المتناثرة .. طيور .. بضع ورود جميلة.. كتب قليلة فاخرة التجليد .. النوافذ مفتوحة لتدع الهواء يتدفق الى داخل الحجرة .. واخيرا ، معزف مفتوح

ومضى نحو المعزف ، وانحنى فوقه متاملا ، فاستقبلته تلك العبارة : «امضى فى رحلتك ايتها الروح التقية .. اذهبى من هذا العالم ! » .. اذن فهى تحب « حلم جيرونتيوس » ؟ .. ذلك التعبير الموسيقى الدقيق عن حيرة الروح وشعورها بالاغتراب !.. ولم يتذكر انه حدثها عن حبه لهذه القطعة !.. ووقف برهة يحدق النظر الى « النوتة » الموسيقية .. وكان النسيم يهب من النهر السحيق فيحرك الستائر فى حفيف رقيق ، والطيور تغرد حينا بعد حين ، غير ان نيجل لم يكن يسمع هذا التغريد او ذلك الحفيف ، وانما خيل اليه انه يسمع صوت القس وهو يقف الى جوار المحتضر .. وكان وهو ينظر الى سطور « النوتة » التى تحمل أنغام اللحن ، حيث كان القس يامر روح المحتضر بان تعود الى خالقها ، يخال انه كان ينصت الى اللحن كما انصت اليه من قبل ، عندما عزفته فرقة موسيقية كبيرة .. وداخله شعور برهبة الموت .. وجماله رغم ذلك !

وما لبث ان اجفل بغتة ! كان قد انطلق فى الفضاء مع الروح ، ولكنه فطن فجاة الى انه كان مقيدا بجسده الى الارض .. الم يسمع حفيف ثوب يعلن عن مقدم صاحبته ؟.. ونظر صوب الباب الثانى للحجرة .. الباب الذى كان من المحتمل انه يؤدى الى حجرة نوم ، ولكنه كان مغلقا . وقد ظل مغلقا ..فسار قليلا مبتعدا عن المعزف . ترى ما هى الكتب التى كانت تولع بقراءتها ؟.. ايمرسون الذى كان يبشر بالتفاؤل فى قفازات الملاكمة ؟! ماسبيرو ؟ انها اذن معنية بالشئون المصرية ؟ « فأوست » ؟ .. موباسان ودانونزيو وهوثورن.. « الحرف القرمزى » ؟.. وامسك بالكتاب الاخير ، وكان صغيرا مجلدا بغلاف أبيض ! .. لقد عرف هذا الكتاب مرة ، اذ قرأه منذ عهد بعيد .. اما الآن ، فقد راح يلقى نظرة عاجلة على صفحاته .. هستر برين وآرثر ديمزديك .. وتذكر القصة فجاة .. خطيئة الجسد ، والحرف القرمزى الذى وسم الخطيئة على صدر المراة ، بينما مضى الرجل بمنجاة من العقاب !

وها هى مسز تشبستو تقتنى الكتاب ، فى غلاف أبيض !

* * *

◆ « اتراك تحكم على شخصيتى من الكتب التى اقراها ؟ » .

انبعث الصوت ينطق بهذه الكلمات من ورائه ، دافئا ، رقيقا ٠٠ وكانت المراة قد دخلت الحجرة ، ووقفت ملاصقة له ، فى ثوب أبيض وقبعة سوداء ، وقد امسكت فى يدها بمظلة بيضاء ٠٠ وكانت تبدو فى وضح النهار اشد شحوبا منها فى الليل ٠٠ وكان شعرها الفاقع اللامع مغطى بخمار رفيع احتفظت به مسدلا على وجهها وهى تحيى نيجل ٠٠ واستبقى يدها فى يده لحظة ـ بعد ان صافحها ـ وهو يقول : « انه ليس حكما ، بل مجرد استنتاج ٠٠ او لعله حدس وتخمين ! »

ـ أيها ؟ « الحرف القرمزى » ؟ لقد حصلت عليه فى العام الماضى وقراته ٠٠ فلما فرغت من قراءته أرسلته ليجلد فى غلاف أبيض !

وسالها : « ولم ذاك ؟ » ٠٠ فقالت ـ مقتبسة احدى عبارات تلك القصة : « على الرغم من أن خطاياك ستكون فى لون قرمزى ٠٠٠ » ٠ وظل نيجل صامتا، وهو يرمقها بأنظاره ، فاستطردت تقول : « هيا نتناول الشاى ! »

ومضت فى مشيتها البطيئة المتراخية ـ التى لاحظها ايزاكسون ـ نحو المدفاة ، حيث ضغطت الجرس الكهربائى ، ثم جلست على أريكة بجوار قفص العصافير وقد اولت الضوء ظهرها ٠٠ واذ كان نيجل يدنو ليجلس بالقرب منها ، أردفت قائلة : « انك ـ ولا ريب ـ مشغول بالدعوات والمواعيد ،فمعظم الناس كذلك فى هذا الوقت من العام ٠ وينبغى أن يحمد المرء حسن طالعه اذا استطاع أن ينال خمس دقائق من وقت أى امرىء آخر ، فى هذه الايام ٠٠ وانى لأذكر ذلك العهد البعيد ، عندما كنت واحدة من « المشغولين » ٠٠ فقد اعتدت ان اتلقى شكر العبد لسيده عن كل دقيقة كنت اتصدق بها ! آه ! شد ما تتبدل الامور ! »

ولم تتنهد ، وانما ضحكت ! ولم تدع له الفرصة لأن يقول لها شيئا ، بل تابعت القول : « وأى كتبى الاخرى رأيت ؟ »

ـ ارى ان لديك كتاب ماسبيرو

ـ آه ! ولكننى لم ابتعه الا لأننى التقيت بك ٠٠ وقد استولى على عقلى بما أورده عن مصر التى لم أرها البتة رغم اننى طفت بيختى بارجاء العالم ٠ وقد جفا النوم عينى بعد ان افترقنا فى الليلة الماضية ، فجلست هنا ورحت اطالع فى كتاب ماسبيرو وافكر فى حياتك المصرية ! ٠٠ لم اقصد ان اكون متطفلة ٠٠ ولكن لابد للمرء من أن يشغل نفسه بشىء ما !

فهتف : « متطفلة ؟! » ٠٠ فاجابت وفى نبرات صوتها المتراخى لون من الاعتذار : « ذلك لأن الناس اصبحوا ٠٠ غريبى الأطوار ! وانى لأذكر وقتا كان فيه الكثيرون منهم مشغوفين ـ الى حد الجنون ـ بعكس ما يستهويهم اليوم ٠٠ فكانوا يعتبرون تفكيرى فيهم شرفا وتكريما لهم ! ولكننى لم اكن اذ ذاك قد بلغت الثامنة والثلاثين ، وكنت من نجوم المجتمع »

واقبل الساقى الألمانى يحمل معدات الشاى ، فما كاد يفرغ من تنظيمها وينصرف لشانه حتى قال نيجل فى شىء من التهيب والاحجام : « كم اعجب لأنك لا تعيشين فى الريف ! » .. فقالت : « اننى افهم ما تعنيه ، ولكنك تخطىء الظن .. فالانسان اشد شعورا بالوحشة هناك » .. وقدمت اليه قدح الشاى فى رقة ، وفى حركتها ما يوحى بالحرص على راحته ، وبشعورها بالسعادة فى خدمته ، ثم استطردت : « سوف تجد القس مضطربا وزوجته فى فزع مروع .. و « السيدة » زوجة الطبيب تحاول – رغم لهفتها الى نقود المريض – أن تمنع زوجها من العناية به وهو على فراش الموت .. اما سيد المقاطعة فهو ، برغم الرغبة المتاججة فى اعماقه ، رجل محترم ، بطبيعة الحال ! وهو دعامة الآداب العامة فى المقاطعة ، كما ان زوجته « دعامتان » معا ! .. والجيران فى مجموعهم يستجيبون للشعور العام ، فلا يلبث المرء أن يجد نفسه « مغروسا » وحده كقمر منفرد تحيط به هالة من النار المضطرمة ! .. لقد خبرت هذه الحياة يا صديقى العزيز .. وصدقنى أن (مصر) أو (اوماها) أو اى مكان آخر افضل منها بكثير .. آه ! انك لا تاكل شيئا . خذ واحدة من هذه الكعكات الصغيرة ، فانها طيبة المذاق حقا ، وقد امرت باعدادها خصيصا لك ومن أجل وليمتنا الصغيرة ! »

وقدمت له الطبق وهى تبتسم ، بينما كان نيجل يهتف فى قوة وحرارة لا تتفقان البتة مع نبراتها الناعمة الضاحكة : « اننى اعتقد ان (مصر) افضل بكثير ! لماذا لا تذهبين الى هناك ؟ لماذا لا تجربين الحياة الطليقة الحرة ؟ »

– اعيش بين القبائل كما تفعل الليدى هيسترستانهوب فى لبنان ؟! اخشى أن لا أستطيع البتة ان أعود نفسى لبس العمامة ! .. وفضلا عن ذلك فان مصر الآن قد أصابت حظا وافرا من المدنية ، واصبح كل انسان يذهب اليها .. وسوف يقاطعنى الجميع على طول نهر النيل !

وازعجته صراحتها القاسية ، بل آلمته واكربته ! .. وخيل اليه لحظة انه يستشف ما تعانيه من زهد فى العيش ، بينما واصلت حديثها وقد تجرد صوتها من نعومته وتراخيه : « انك محق ، ولكن كيف يتسنى للمرء ان يكون حذرا حريصا فى حديثه حتى لا يؤلم الآخرين ؟ .. لقد كنت دائما ، حتى فى ايام شبابى الباكر ، أكره التظاهر والادعاء .. والنساء عادة متصنعات بطبيعتهن ، وهن حكيمات فى ذلك ، ولكننى لم اكن حكيمة قط ! ولو اننى كنت على شىء من الحكمة لما تركتك تدرك ما فى موقفى من وحشة وسخف وهوان ! » .. ثم استدارت فجأة ، بحيث انصب ضوء النافذة عليها ، ورفعت خمارها فوق حافة قبعتها ، وتابعت القول : « .. ولما اتحت لك ان ترى وجهى وقد ارتسمت عليه جميع صنوف الشقاء والأحزان .. ولكنى لم اكن أجيد التصنع وانا فى الثامنة عشرة ، ولا ازال بعيدة عن أن احذقه وانا فى الثامنة والثلاثين .. ولا

عجب ان كان كثير من الرجال ـ من الطراز الذى تلقاه فى ناديك الخاص ، او فى (مارلبورو) ، او فى نادى العزاب ، او نادى الرحالة ـ يلقبوننى ب « المراة البلهاء » ! .. والواقع اننى امراة بلهاء .. حمارة صغيرة .. صغيرة جدا ! »

وذابت الصرامة من صوتها وهى تنطق بهذه الكلمات الأخيرة ، وعادت تبتسم من جديد .. وتحرك راسها كانما تتفكه بتوكيد الصفة التى اطلقتها على نفسها.. وعندئذ لاحت اشبه بفتاة غريرة ! .. واستطردت تقول : « ولكن صفة « الصغيرة » تنطبق على عقليتى فقط ، لا على جسدى .. ام لعل الأصوب ان اقول انها تنطبق على روحى بدلا من جسدى ؟ »

ـ كلا .. فان « الصغيرة » صفة خاطئة لروحك !

فبدا التاثر على وجه مسز تشبستو ، ثم تحولت عن الضوء ثانية ، ولكن بعد ان راى نيجل انها قد تاثرت لكلماته ! .. ولاح عليها انها كانت تبذل جهدا فى تغيير مجرى الحديث ، وهى تقول : « هل رايت صديقك الدكتور ايزاكسون اليوم ؟ .. اننى اميل الى هذا الرجل ، على الرغم من انى امقت اليهود عادة ، بسبب جشعهم وحبهم المفرط للمال .. اننى اميل اليه حقا ، واشعر ـ على نحو ما ـ انه قد مال الى بدوره فى الليلة السالفة .. كانما قد خالجه شعور من العطف حيالى ! »

ـ ان ايزاكسون رجل عظيم .. ولكنى لم اره ثانية ، اذ دعى الى خارج المدينة لعلاج حالة عاجلة .. وقد كنا على موعد للنزهة على ظهور الجياد هذا الصباح ، ولكنه بعث الى يخطرنى باستحالة ذلك .. وعلمت انه ذهب الى الريف

ـ وهل تطول غيبته ؟

ـ لست ادرى .. وارجو الا يكون الأمر كذلك ، اذ اننى فى اشد الحاجة اليه ..

ـ احقا ؟

ـ اعنى اننا متوافقان فى كثير من الأمور .. والأرواح المتآلفة نادرة الآن !

ـ لا ريب فى ان لك جيشا من الأصدقاء ، فانك رجل الرجال !

ـ لست ادرى .. ولكن ما هو رجل الرجال ؟

ـ انه الرجل من طرازك !

فقال وهو يدنو بمقعده قليلا منها : « ورجل النساء ؟ » .. فاجابت : « من كان رجلا للرجال فهو كذلك رجل للنساء ! »

ـ لقد قلت انك لا تعرفين التصنع والادعاء .. افلا تعرفين الاطراء والمداهنة ؟

ـ قد استطيع أن أتصنع الى هذا الحد ، بل اننى افعل ذلك احيانا .. ولكن لماذا أحاول أن اداهنك ؟ .. لست اعتقد انك تحفل بذلك قيد شعرة ، فانت تحب الحقيقة الرقيقة .. ومنذا الذى لا يحبها ؟ .. وانا لم ازد على ان قلت

لك الحقيقة !

ـ شد ما اود ان اقول لك بدورى بعض الحقائق الرقيقة ..

ـ اخشى الا تجد ، انت او غيرك ، الكثير مما يقال من ذلك ! .. ومع هذا فانى اذهب الى القول بانه يوجد من هذه الحقائق واحدة او اثنتان ، لأننى اعتقد ان فى كل شخص منا قدرا من الخير المتاصل فى اعماق نفسه .. قدرا ضئيلا - قد لا يرى تقريبا .. شعلة صغيرة ، ولكن اى مقدار من الماء لا يكفى ـ مهما تكن وفرته ـ لاطفائها !

ـ اعلم ذلك !

ـ آه ! ولكن هذه الشعلة الصغيرة من الخير المتاصل تحتاج الى من يتعهدها بالاعزاز ، والرعاية ، والعطف ، فى كل وقت !

وتناولت قدحه فى عجلة ، وبدات تصب له فيه مزيدا من الشاى ، كمن الخجلة الاندفاع فى ابداء شعوره ، فهو يحاول ان يغطى موقفه بان يشتغل باى شىء .. وما لبثت ان قالت فى نبرة مختلفة ، وفى صوت ملء بالفتور والبروه ، هو الصوت الظاهر البراءة للغانية المدربة : « احضر الدكتور ايزاكسون لزيارتى يوما ما ، اذا رغب فى الحضور »

واحس نيجل بان المراة الحقيقية قد طفت فوق السطح لحظة ، ثم ما لبثت ان غاصت ثانية الى اعماق مسز تشبستو التى بدت وكانها خجلى من تلك المراة الحقيقية ! وود لو يقول لها ذلك ، وان يقول لها « لا تخجلى ، ودعينى ارى المراة الحقيقية .. المراة الطيبة الخيرة .. انها المراة التى ابحث عنها عندما اكون قريبا منك » .. ولكنه لم يجرؤ على توجيه هذه اللطمة لحيائها وتحفظها، فقال فى هدوء : « ساحضر ايزاكسون .. فانى اريده على ان يعرفك على حقيقتك. لماذا تبتسمين ؟ »

فقالت : « ولكن .. ولكنى لا ابتسم ! » .. ولم تكن تبتسم حقا .. واذ راى دهشتها ورصانتها الهادئتين ، عجب من انه خيل اليه ذلك .. بينما استطردت هى تقول : « ينبغى ان اخبرك انه على الرغم من ارتياحى الى الدكتور ايزاكسون فلست اعتقد انه يماثلك .. لست اعتقد انه عالم نفسى ! »

فقال نيجل فى دهشة حقيقية بالغة : « وهل تعتقديننى عالما نفسيا ؟ »

ـ نعم ، وسوف اخبرك بالسبب اذا وعدتنى بالا تغضب !

ـ ارجوك .. ارجوك ان تقولى ؟

ـ فى رايى ان المرء يمكنه ان يقرا اخلاق الغير بعينى قلبه ، بمثل ما يقراها بعينى عقله وبصيرته .. اما انت فتستخدم العيون الأربعة فى قراءتك ! .. ولكنى لست واثقة من ان الدكتور ايزاكسون يفعل مثلك !

ـ لماذا سالتنى الا اغضب ؟ .. احسبك كنت تعنين شيئا آخر ثم عدلت عنه .. وانك لعلى حق فيما اردت قوله ، فان ايزاكسون رجل متوقد الذكاء ،

فى حين اننى لست كذلك .. ولكنه اوتى من حساسية القلب مثل ما اوتيت ، وان فاتنى فيما اوتى من العقل .. وكلما ازداد كل من العقل والقلب قوة ، كان فى هذا الخير كل الخير للرجل !

ـ ولكن العقل .. آه ! ان له ميلا جارفا الى ان يظلل القلب بسحابة كثيفة وان يخذله .. وهو كلما ازداد قوة اشتد طغيانا وجبروتا ! .. اما انت فاحسبك بين بين ، فالقوتان تتعادلان عندك .. فكن قنوعا ، ولا تدع عقلك قط يصيح فى طلب المزيد ، والا اجبرت قلبك على ان ينال اقل القليل !

ـ انك تحسنين الظن بى اكثر مما استحق .. اكثر مما استحق بكثير !

فانحنت الى الأمام فوق منضدة الشاى وراحت تتفرس فيه عن كثب ، بتلك النظرة الفاحصة الغريبة التى تبدر من المرء عندما يركز تفكيره فى امر من الأمور ، فلا يكاد يفطن الى ما يفعله .. وقالت : « أترانى افعل ذلك حقا ؟ ».. وشعر كانها تحاول ان تنتزع قلبه منه لترى كيف يخفق ! وعادت تردد : « هل افعل ذلك حقا ؟ »

* * *

◆ وما لبثت ان ارخت عضلاتها المتوترة ، واسندت ظهرها الى الخلف وقد تركت يدها تهوى الى جانبها ، بعد ان كانت تتشبث بحافة المنضدة .. ثم استطردت قائلة : « لعل الأمر كذلك .. فمن المحقق اننى احسن الراى فيك ، واخشى اننى غالبا ما اسىء الظن بالرجال .. ومع ذلك فاننى احاول ان اكون عادلة ، وان لا اضع القلنسوة السوداء وحدها على راسى (١) بسبب تجاربى السابقة السيئة الطالع ! .. فهناك رجال ظرفاء .. ولكن هناك ايضا رجالا كالوحوش الكاسرة .. ولا ريب انك تعرف ذلك ، ولو انى اشك فى ان رجلا يستطيع ان يعرف ما اذا كان اى رجل آخر طيبا ام شريرا .. وانما ينبغى ان يكون المرء امراة حتى يحسن الحكم على الرجل .. الرجل .. وحشا كان ام ملاكا ! »

فقال : « لعلك على صواب » .. وكان يتكلم فيما يشبه الاقتناع ، اذ كان طوال الوقت الذى قضاه معها يشعر باحساس غريب ، غير مالوف ، يوحى اليه بانها كانت تفهمه على حقيقته ، وان افضل ما فيه كان يمتدح عن حق ، ويقدر اعظم تقدير ! وقد بعث هذا الشعور الدفء الى عقله وقلبه ، كما تبعث الخمر المعتقة الدفء فى الجسد ! .. وما لبث ان قال : « اننى واثق انك على صواب » ثم وضع قدحه على المنضدة .. وتولته فجاة الرغبة فى الانصراف ، وفى

---

(١) يرتدى القضاة فى انجلترا قلنسوة سوداء كلما هموا باصدار حكم بالاعدام

الانفراد بنفسه ! ورأى الستائر تتحرك فى رفق عند النوافذ ، وسمع الأصوات الخافتة البعيدة الصادرة عن حركة المرور فى المدينة • وراح يفكر فى النهر ، وفى الغروب ، وفى السفن المتارجحة على صفحات الأمواج وهى تجرى بدفع المد و الجزر ، وفى مئات الدوامات التى تملأ النهر ! •• كانت الأفكار تتلاطم فى راسه ، والأحاسيس تتجاذب فى قلبه ، تماما كهذه الدوامات ! •• ألم يكن تيار الزمن يدفعها قدما ، صوب بحار الحركة والعمل الفسيحة ؟ •• وشعر بقلبه فجاة وقد غزاه حنين نحو الفضاء الشاسع •• حنين كان قوام حياته ، ولو انه كان يغفو قليلا فيستقر فى دعة •• حنين نحو الفضاء الشاسع المترامى على مدى البصر ، كذلك الذى يحسه البدوى فى الصحراء التى يحبها وينتمى اليها •• حنين نحو الآفاق الواسعة فى العاطفة ، وفى العمل ، فان السعة اليق شىء بالرجال : السعة فى التفكير ، والسعة فى العيش ! •• ان المكان الطبيعى للرجل ، ليس فى حجرة استقبال العالم ، وانما فى صحراء العالم ، بواحاتها البديعة !

ومع ذلك فها هو ذا فى حجرة استقبال •• وهو فى هذه اللحظة يحس بحنين قوى الى الخروج منها ، ولكنه يتوق ايضا الى ان ياخذ هذه المراة من يدها ويجذبها الى الخارج معه •• وذكر كيف ان الشاعر « براوننج » أحب امراة كانت ترقد دواما فى حجرة كالقبو ، وقد برح بها المرض حتى انها لم تكن تملك ان ترى ضوء الشمس او ان تتنفس هواء الدنيا الطلق ، وكيف ان الشاعر حملها من هذه الحجرة الى قمم جبال (الابنين) •• فان مجرد التفكير فى تغيير حياة انسان على هذا النحو كان اشبه بصيحة فرح عالية !

- ماذا هنالك ؟

هتفت مسز تشبستو بهذه العبارة ، وقد دهشت لهذا البهاء الذى شع فجاة من وجه نيجل •• كانت ترى امامها - للمرة الأولى - رجلا لا تستطيع قراءة افكاره ، ولكنه كان رجلا يروق لها مظهره الجسمانى ، ويضطرها الى الاعجاب به •• وقد بدا رائع البهاء تحت تاثير سلطان داخلى ، كرياضى نصف عار يملأ رئتيه فى بطء ، ويشدد الضغط بقبضتيه ، ويصلب عضلاته كلها •• وعادت تسال : « ماذا هنالك ؟ »

ولكنه لم يجب •• وما كان فى وسعه ان يخبرها ، فنهض لينصرف • وفيما كان يمر امام « البيانو » ، نظر ثانية نحو النوتة الموسيقية للحن « حلم جيرونتيوس » •• ثم سالها : « امولعة انت بهذا ؟ » ، فهتفت : « ماذا ؟ آه •• جيرونتيوس ! » •• وتركت نظراتها تستقر برهة قصيرة فوق وجهه ، ثم اردفت : « اننى احبه ، فهو يحملنى بعيدا ، كما تحمل الروح على اجنحة الملائكة •• « لقد اعطيت هذا الطفل من الصلصال » •• هل تذكر ؟ » ، فلم يزد على ان قال : « نعم »

ثم ودعها وهم بالانصراف ٠٠ وكان آخر ما وقعت عليه انظاره فى حجرتها كتاب « الحرف القرمزى » بغلافه الأبيض ، وقد استقر فوق منضدتها ٠٠ ونقل نظراته من الكتاب اليها ، قبل أن يخطو الى الخارج ويغلق الباب خلفه ٠ وما كاد يستدير فى الممر ، حتى رأى فتاة فرنسية أنيقة الهندام ، كانت عيناها شديدتى الاحمرار ، مما نم جليا على انها ظلت تبكى بمرارة فترة طويلة ٠٠ وكانت تحمل على ذراعها ثوبا نسائيا ، وتهم بدخول الغرفة التى تتصل بحجرة استقبال مسز تشبستو ، فغمغم نيجل يقول لنفسه : « يا للفتاة المسكينة ! ترى ما الذى دهاها ؟ » ٠ ومضى يجتاز الدهليز ، وينحرف يسارا ، ثم يهبط الدرج ويشق طريقه نحو شاطىء (التيمس)

اما مسز تشبستو فقد ظلت - بعد أن اغلق الباب خلفه - واقفة مكانها بالقرب من المعزف لحظة تنتظر ، كمن يتوقع عودة ضيف راحل ٠٠ ولكن نيجل لم يعد ثانية ليقول كلمة اخيرة نسى ان يقولها قبل انصرافه ٠٠ فلما ايقنت انه لن يعود ، مضت الى المعزف وجلست امامه ، ولعبت على الأوتار موقعة انغام القس وهو يطرد الروح خارج الجسد ٠٠ ولكنها لم تعزفها الا لحظة قصيرة ، ما لبثت بعدها ان تناولت النوتة الموسيقية وطوحت بها الى الأرض بعيدا عنها ، ثم بدأت تعزف لحنا راقصا اسبانيا ، ينبض بالاشتهاء ، ويفيض بالاغراء ، ويزخر بحرارة الجسد ، بقدر ما كان لحن « الجار » يزخر بنقاء الروح ٠ وراحت تؤدى اللحن فى براعة فائقة ، مثلما تؤدى الرقصة فتاة من اشبيلية تتدفق الدماء الحارة فى عروقها ! وما ان اوشكت أن تنتهى من اللحن ، حتى كفت عن العزف دفعة واحدة ، اذ طرق سمعها صوت فى الحجرة المجاورة ، فصاحت منادية : « هنرييت ! » ٠٠ ولكنها لم تسمع جوابا ، فعادت تهتف : « هنرييت ! »

وعندئذ فتح باب حجرة النوم ، وبدت خلاله الفتاة الفرنسية ذات العينين الحمراوين ٠٠ فبادرتها مسز تشبستو متسائلة : « لماذا لا تجيبين عندما اناديك ؟ منذ كم من الوقت وانت هناك ؟ » ٠٠ فاجابت الفتاة فى صوت خفيض : « منذ دقيقة او اثنتين يا سيدتى » ٠ وعادت مسز تشبستو تسالها : « وهل قابلت احدا فى الممر ؟ » ٠ فاجابت الفتاة : « نعم يا سيدتى ٠٠ رايت سيدا ٠٠ »

- هل كان خارجا من هنا ؟

- نعم يا سيدتى !

فسالتها : « وهل رآك ؟ » ، فاجابت : « بلا شك يا سيدتى » ٠ ولكن مسز تشبستو كانت تبحث عن نقطة معينة ، فعادت تسالها : « اعنى ٠٠ هل لاحظ حالتك ؟ » ، فقالت الفتاة : « اعتقد ذلك يا سيدتى » ٠٠ ولم تقنع السيدة بهذا الجواب ، فسالتها من جديد : « وهل شاهدك تدخلين حجرتى ٠٠ بهاتين العينين ؟ » ٠ واذ أجابت الفتاة : « نعم يا سيدتى » ، عبست مسز تشبستو حتى ظهرت

التجاعيد فى جبينها ، فاذا بوجهها ينقلب فجاة صلبا قاسيا .. وبدت عجوزا انهكها الهرم ، وصاحت فى عنف : « يا للسماء ! لقد اتيت افظع حماقة ياتيها انسان ! اخرجى .. اخرجى من هنا ! »

فانسحبت الوصيفة على عجل ، وهى تغلق الباب بينهما .. على حين غمغمت مسز تشبستو فى حنق بالغ : « يا لك من حمقاء ! » .. فقد كانت تعرف قيمة الأثر الأخير الذى يبقى عالقا فى ذاكرة المرء !

وخرجت الى الشرفة تطل – من عل – على شاطىء النهر ، وترقب فى تراخ جمهرة المتنزهين والمارة الذين يزخر بهم .. ولم تكن تدرى ان نيجل بينهم ، يمشى وئيدا بجوار النهر ، وهو يرقب غروب الشمس ، ويفكر فى الشاعر « براونج » ، وفى المرأة التى انتزعها الحب من الحجرة الشبيهة بالقبور ورفعها الى قمم الجبال !

الفصل السابع

◆ **كان** نيجل ارماين شديد العناية بعمله والاستغراق فيه .. كان من ذلك النوع الذى يسميه الناس « فذا » ! ولكنه مع ذلك كان اجتماعيا بطبعه ، وثيق الاتصال بالدنيا . فكان على علم باتجاهات الرأى العام وميوله ، وكان يدرك بجلاء كيف كان العالم ينظر الى الأفعال التى لا تتمشى مع ما اصطلح عليه الناس . ولم يكن عدم اكتراثه بهذه الحقيقة – أحيانا – دليلا على انه لم يكن يدركها .. فهو لم يكن بالمواطن الجاهل ، ومن ثم فانه حين

تعرف الى مسز تشبستو ، لم يصدر فى تعرفه عن نقص فى الخبرة بآراء الناس واتجاهاتهم ، بل كان يدرك بجلاء كيف ينظر ابن لندن العادى ـ الرجل الذى يلقاه فى المنتديات فى رانلى وهيرلينجهام ـ الى أية صداقة تجمع بينه وبين مسز تشبستو .. كان يعرف ان رأيهم سيكون مصوغا فى عبارة من هذا القبيل : « لقد استطاعت مسز تشبستو أن تقتنص ارماين المسكين ! »

ولكن هل كان وهذه المرأة صديقين ؟ بل هل يمكن أن يكونا صديقين يوما من الأيام ؟ .. لقد التقى نيجل بمسز تشبستو مصادفة فى بهو فندق سافوى . وكان اذ ذاك بصحبة خبير بشئون السباق لا تجمعه به سوى معرفة سطحية ، وقد صادف إن كان هذا يعرف مسز تشبستو معرفة وثيقة ، فقدم كلا منهما للآخر فى غير اهتمام ، ثم أسرع منصرفا « ليسوى أموره مع مكتب المراهنات الذى يعامله » .. وهكذا بدأ تعارفهما عارضا فجا ، بلا مقدمات أو قصد ، فكيف يراد له أن يستمر ؟.. أو: أترى من المحتمل أن يستمر ؟

وكان نيجل رجلا قويا وفى عنفوان شبابه .. الا انه لم يكن قديسا ! وقد بدأ يعجب من أمره .. كما ان ايزاكسون ـ الذى كان قد عاد الى المدينة فى تلك الأثناء ـ بدأ يعجب من أمره كذلك ! .. فقد كان الطبيب جم المشاغل خلال ذلك الموسم الاجتماعى ، اذ كان كثير من الأمريكيين والأجانب يقبلون على استشارته . وقد ظل متشبثا بالقاعدة التى وضعها لنفسه ، فلم يكن يقبل مريضا يطرق بابه بعد الساعة الخامسة والنصف، ولكنه قلما كان ينتهى من عمله قبل الساعة السابعة . ولم يعد يرى نيجل كثيرا ، لأنه لم يكن يملك أن يرى أحدا الا لماما .. على انه صادفه أكثر من مرة ، وسمع الأحاديث التى تدور عنه، أكثر من مرة كذلك ! .. ومن خلال ما سمع ـ وبالهام من

غريزته ـ استطاع أن يتبين موقفه مع مسز تشبستو ٠٠ وكان نيجل يتوق الى أن يكون صريحا مع ايزاكسون ، ولكنه ـ مع ذلك ـ لم يخبره الا بالقليل ، بدافع من التحفظ الغريب لعل المرأة هى التى أوحت اليه به فى دهاء وخبث ! ٠٠ ولكن أناسا آخرين أخبروا ايزاكسون بالكثير ، خلال تلميحاتهم الشريرة وضحكاتهم التى تشبه ضحكات الأبالسة !

ومن ثم استخلص الطبيب النتيجة : **فقد كان يدرك منذ البداية الأولى ان التعارف بين هذه المرأة ـ التى قضى عليها المجتمع بالدمار والتى ولى عنها الشباب وان ظلت رغم ذلك ساحرة تخلب الألباب ! ـ وبين هذا الشاب المتدفق حيوية وحماسا ، لن يكون أمرا هينا عارضا ، لأن المرأة أرادت له غير ذلك ٠٠ ولعل جموح الصفات المتأصلة فى أعماق نيجل أراد له غير ذلك أيضا ، دون أن يفطن الشاب ٠ فان التحمس أشبه بالسوط الذى يثير الجياد فتندفع بسرعة جنونية ، ولا يعود فى وسع أحد ـ ولا القوة الهائلة التى أطلقتها ـ أن يكبح جماحها !**

٠٠ فالى أين كان نيجل ماضيا على وجه التحقيق ؟

كان الرجال فى الأندية يقولون فى ابتسام وسخرية انه ماض نحو علاقة آثمة ! ٠٠ بل قالوا أكثر من ذلك ، قالوا ان هذه العلاقة حدثت وأصبحت حقيقة واقعة ، وكانوا يعجبون من أن يرتضى رجل مثل ارماين لنفسه « نهاية سيئة » !! ٠٠ ولكن ايزاكسون كان يعلم ما فى هذه الأحاديث من باطل ٠٠ فلم تكن ثمة علاقة بعد ، ولكن هل تنشأ هذه العلاقة يوما من الأيام ؟ ٠٠ وهل عقدت مسز تشبستو عزمها على أن تنشأ هذه العلاقة ، أو أن نيتها كانت تتجه ـ منذ البداية ـ الى أمر آخر ؟

ولم يكن ايزاكسون يعرف ماضى نيجل تفصيلا ، ولكنه كان يتصوره ـ من وجهة نظره كرجل ـ نقيا الى حد غير معهود ٠٠ وان لم يذهب الى انه كان قديسا ٠٠ وكانت عينا الطبيب

الحادثتان قد قرأتا طبيعة نيجل المتأججة ، ومن ثم فانه لم يخطىء فهمه وادراك حاله ٠٠ كان لابد لنيجل من أن يتزوج ٠ واذا كان لم يقدم على الزواج حتى الآن ، فما ذلك الا لأحزان ألمت به فى مستهل شبابه ، بعد أن ماتت الفتاة التى كان يحبها ! ولم يكن ايزاكسون يعرف ذلك ، فكان يعجب أحيانا ويتساءل عن السر فى ان امرأة لم توفق الى اقتناص هذه النفس المفعمة بالطموح والعاطفة ، والزاخرة بكل تلك الصفات الكفيلة باسعاد النساء الصالحات ! أما اذا قدر لمسز تشبستو أن تقتنصها ، فان سخرية الحياة تكون قد بلغت الذروة ! ٠٠ **ولكن ، هل كان فى وسع هذه المرأة أن تكسب حب نيجل ، كما استطاعت أن تكسب شفقته وشهامته ؟ وهل تستطيع أن توقظ أحاسيس الجسد فى هذا الرجل كما استطاعت أن توقظ نفسه ، وأن تصل خلال الجسد والنفس الى روحه ؟**

ثم ماذا بعد ؟ ٠٠ لقد تعرض اخلاص ايزاكسون الى امتحان أليم فى تلك الفترة من جراء صداقته ٠٠ ورغم انه كان غريب الأطوار ، مليئا بما جبلت عليه النفوس المرهفة الحس من عزوف عن الانسياق وراء الجماهير ، فانه سلك نفسه فى صفوف الجماهير ضد نيجل فى موضوع مسز تشبستو ٠٠ ومع ذلك فقد ظل نيجل ينشد فيه حليفا له ، ورفيقا لروحه ٠٠ ولم يكن صريحا فى ذلك ، وانما كان دائم التلميح له فى مقابلاتهما العارضة القصيرة ٠٠ كان لسان حال نيجل يقول : « أنت وأنا فقط ، فليست للعالم قيمة لدى ! » ٠٠ كانت تعتمل فى أعماقه بواعث الشفقة والشهامة ونبل المشاعر وسمو الروح ، ولكن كان هناك عناد نفسه وحبها للنضال كذلك ٠٠ كان فى نيجل شىء ما يحب دائما أن يسند ظهره الى الجدار تاهبا للنضال !٠٠ وكان يريد أن يضع ايزاكسون فى عين الموقف الحافل بالنضال تجاه التيارات المتعارضة الجارفة ! الا ان هذه التيارات كانت فى الجانب نفسه الذى يقف الطبيب فيه ! ٠٠ والواقع ان

ايزاكسون لم يأسف على قلة ساعات الفراغ المتاحة له ، لأنه لم يكن يعرف أى مسلك يستطيع أن يسلكه ٠ فقد كان سر المهنة يقف حائلا دون اخبار نيجل بما قالته مسز تشبستو عن نفسها ٠٠ أما ما كان يقوله الآخرون عنها ، فانه لم يكن كافيا لأن يثير نيجل ضدها ، بل انه ربما جعله أكثر انعطافا نحوها !

ولم تكن العلاقة بين مسز تشبستو ونيجل قد تجاوزت ـ حتى ذاك الوقت ـ حدود التعارف ٠ ولكن ، ها قد حانت اللحظة التى بدأ فيها نيجل يحس بأنه يريد منها ما هو أكثر من مجرد التعارف ، وبسبب هذه الرغبة الدافعة نحو المزيد ، بدأ يسائل نفسه عما اذا كان ينبغى له أن يقنع بالقليل !! ٠٠ وربما أوحت له خبرته بالدنيا ، أو لم توح له ، بأن الصداقة المطلقة من القيود ، الخالية من العراقيل ، مع مسز تشبستو ، أمر عسير ، اللهم الا من الناحية النظرية فقط ٠٠ وقد علمته التجارب ان الصعاب قد لا يمكن تخطيها أو التغلب عليها حتى لمن كان فى مثل حماسته وشجاعته ! فهل كانا صديقين ؟ وهل يمكن أن يكونا صديقين فى يوم من الأيام ؟!

وكان ثمة صوت يجيب فى أعماقه وهو يسائل نفسه هذا السؤال : «كلا !» ٠٠ فان النساء اللواتى يسلكن فى الحياة مسلكا معينا ، يفقدن القدرة على الصداقة اذا كن قد ملكنها فى يوم من الأيام ، لأن الحوادث تكون قد علمتهن ماقد تعلمه الغريزة للكثير من النساء ، من تقدير الناحية البدنية للرجل تقديرا يفوق ما هى عليه بالفعل !٠٠ ومثل هاته النساء تبرز نظرتهن هذه فى كلامهن ونظراتهن وأفعالهن ، وفى اختلاف نبراتهن ، وفى كل هذه الأشياء التى لا يمكن تعريفها أو تحديدها ، ولكنها تخلق الجو الخاص بالشخص !٠٠ وهذه النظرة تحرك عواطف الرجال ، فتخجلهم وتهيجهم فى وقت واحد ٠٠ وهى تعمل عملها فى الآله والوحش ـ الكامنين فى

نفس الرجل - على السواء .. فاذا بالآله الخجول والوحش الطروب يصبحان معا فى حالة لا تعرف الصداقة ولاتستسيغها! **.. ولقد كانت لدى مسز تشبستو هذه النظرة الغريزية للمهمة التى خلق الرجل من أجلها ، فلم تستطع رغم مواهبها الدفينة - كممثلة بارعة - ان تخفيها تماما !**

وانتهى نيجل أخيرا الى حالة من الحيرة والتشكك أنذرته بأنه يجب أن يقرر أمرا ، فلا يتريث أكثر مما تريث ، وانما عليه ان يقطع فى الأمر نهائيا ، وان يقرر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه .. اذ انه لم يكن بالرجل الذى يستطيع العيش مع التردد على وفاق ، بل كان يمقته حقا ، ويرى فيه مظهرا من مظاهر الضعف .. أجل ، كان لا بد لهذا النضال بينه وبين نفسه من ان ينتهى على أى وجه !

* * *

◆ **وكان** شهر يوليو قد حل ، وأوشك الموسم أن ينتهى سريعا .. وصلة نيجل بمسز تشبستو .. هل ينبغى ان تنتهى هى الأخرى ؟ .. انها قد تبلغ نهايتها على وجه طبيعى عادى ، فسوف يرحل عما قريب .. سيذهب الى اسكتلندا للاشتراك فى موسم الصيد . وهى ؟ ترى أين تزمع الذهاب ؟ لقد جعله هذا السؤال يمعن فى التفكير ، كما اعتاد ان يفعل فى هذه الأيام الأخيرة .. التفكير فى عزلتها ووحدتها ، وهى حالة كانت لا تفتأ تلح عليه وتغلو فى الظهور وتأكيد تأثيرها على نفسه ، أما مسز تشبستو فلم يكن يبدو عليها أنها تفكر فى حالتها هذه ، ولا هى كانت تتحدث عنها البتة .. فقد كانت أوفر ذكاء وأعظم دهاء من أن تفعل ذلك !.. ولكن هذه العزلة كانت تبدو واضحة كل الوضوح بطريقة أو أخرى ، على غير انتظار ، وعن غير عمد : كان اذا قام بزيارتها قلما وجدها فى الخارج ، واذا كانت بالفندق فانها كانت دائما وحدها .. وكانت

تستقبله فى بعض الأحيان وهى ترتدى القبعة وتقول انها عائدة للتو من الخارج .. وفى أحيان أخرى ، كانت تزعم ـ اذا ماهم بفراقها ـ انها تعتزم الخروج .. وبهذا وفقت فى تثبيت الشعور الذى خلقته فى نفسه من أنها امرأة تعيش فى عزلة تامة ، بلا مواعيد ، وبلا أصدقاء ـ كما هو ظاهر ـ تقضى أيام الصيف الطويلة فى وحدة مروعة ، وتعزف عادة لحن «جيرونتيوس» على المعزف الصغير المصنوع من الخشب الأحمر، أو تقرأ «الحرف القرمزى» أو غيره من الكتب العميقة الرصينة ! .. ولم يكن يرى فى مسلكها أى تصنع ظاهر ! والواقع انها كانت تبدى له فى بعض الأحيان استياء خفيفا ـ يكاد يصل الى حد الاستحياء ـ من فراغها ، وعدم دعوتها الى الحفلات والمجتمعات ، على هذا النحو .. ولقد ارتاب نيجل أكثر من مرة فى أنها انما كانت تكذب عليه ـ وتلك فى نظره كذبة بيضاء ! ـ كلما أخبرته عن العشاء الذى تناولته مع « بعض الناس » أو الاشتراك فى سهرة للعب الورق .. فقد لاحظ ـ عندما كانت تخبره بشىء من هذا القبيل ـ ان ذلك كان يحدث اثر ملاحظة عابرة ، أو ايماءة خفيفة ، أو حادث طفيف يوحى باشفاقه عليها !.. وكان قد استشف ، من أعمالها ، تلك الكبرياء التى تحرك فى نفس المرأة ، الرفيعة المنبت ، الرغبة فى اخفاء مركزها التعس أو الاقتصاد فى اظهاره الى أقل الحدود !.. **وكان يعتقد انها كانت ـ بقدر بعدها عن تعمد اثارة شفقته ـ تتعمد بكل مافى وسعها ان تتحاشى هذه الشفقة ! .. وهذا الاعتقاد ـ الذى كان له من الظواهر ما يبرره ـ زاد شفقته حدة ، وجعله يمضى فى شعوره شوطا بعيدا .. وهكذا وصل معها الى ماكانت ترمى اليه وتنشده !**

وكان يدير فى ذهنه حوارا بين رجل المجتمع العادى ـ الذى كان يعتقد انه يؤدى دوره ـ وبين الرجل ذى النخوة والشهامة، المندفع بغير وعى وراء عواطفه ، فيدعهما يبحثان الموضوع

ويناقشانه . وقد حدث فى مرة او اثنتين ان راح يقول ويلح فى القول ، بأن امرأة كمسز تشبستو ، اشتهرت بجمالها عن حق ، وبأشياء أخرى - تختلف عن ذلك كل الاختلاف - افتراء وتشهيرا .. مثل هذه المرأة اذا اعتزمت الخداع - ولا شك ان رجل المجتمع يعتبر مثل هذه المرأة على عهد مقيم مع الخداع - فانها تحاول ان تضاعف فتنتها ، فتظهر بمظهر المرأة التى يتقرب اليها الرجال ويشتهونها ويحتفون بها ويجرون وراءها .. هكذا تفعل دائما المرأة التى من هذا الطراز .. ولكنها لا تحب قط ان يعرف الناس عنها انها غدت مهجورة غير مشتهاة ، لأن الرجال يرغبون عادة فيمن يشتهيها غيرهم من ابناء جنسهم ، اذ منذا الذى يرغب فيمن هى غير مشتهاة !.. لذلك فان مسلك مسز تشبستو - حين مكنت نيجل من ان يشهد وحدتها ويتحقق من انفضاض الرجال عنها ، بمثل تلك السذاجة ! - اوحى الى الشاب بأنها تكاد تعتبر حمقاء ، جاهلة بطباع المجتمع ! وهكذا اقتنع الجانب الذى يمثل رجل المجتمع من شخصيته ، بينما أحنى الجانب - الذى يمثل الرجل المندفع المتحمس - رأسه !.. ولقد أخطأ نيجل فى الحكم على دهاء مسز تشبستو بمقاييس ذكائه المتقد ، فان هذا الذكاء بالذات خانه فى هذا الصدد .. اذ ان ماقدره نيجل - على ضوء خبرته بالمجتمع - مصيرا محتوما لامرأة كهذه ، بدا لمسز تشبستو، على ضوء خبرتها هى بالمجتمع ، مصيرا لا بد من تفاديه . ذلك لأنها نادرا ما كانت تسلك الطريق الواضح فى الخداع ، كما ادرك ايزاكسون منذ اللحظة الأولى التى عرفها فيها .. وانما كانت تستهوى الناس بأن تفترض فيهم الحذق والفطنة ، وكانت ترى ان من الأصوب - فى الوقت ذاته - ألا تكون أكثر دهاء من دهائهم فحسب ، بل أشد ذكاء من ذكائهم !

وهكذا بثت الاشفاق فى نفس نيجل ، فنما هذا الشعور وترعرع ، حتى اذا حان الوقت لكى « يبت فى الأمر » ، أحس

بأن مسز تشبستو ستشعر بالوحشة لغيابه – اذا ما انتهى الموسم – لا بوصفه شخصا اصطفته لنفسها وأحست نحوه بميل خاص ، ولكن ٠٠ لمجرد انه بذر العنصر الانسانى فى حياة قاحلة موحشة ! ٠٠ وعندما تحدث – فى آخر لقاء لهما – عن نهاية الموسم الاجتماعى ، وما سيتبع ذلك من رحيل عن العاصمة ، قالت فى عبارات مبهمة : « آه ، نعم ٠٠ طبعا » ٠٠ فسألها : « والى اين تزمعين الذهاب ؟ » ٠ فظلت صامتة فى جلستها برهة ٠ واذ ذاك خيل اليه أن بوسعه أن يتبع خطوات تفكيرها ٠٠ فأيقن أنها تتدبر الأمر ، لترى ما اذا كانت تكذب عليه فتحدثه عن برنامج بهيج تبتكره من وحى الساعة لتخدعه ٠٠ ومنذ داخله هذا اليقين ، راح ينظر اليها وفى عينيه دعوة ملحة الى أن تخبره بالحقيقة ٠٠ بل لقد ظن انها استجابت لدعوته هذه ، عندما قالت فى النهاية : « ليست لدى أية خطة معينة ، وأحسبنى سأبقى هنا فى هدوء ! » ٠٠ وهكذا لم تدع له الفرصة ليدعوها لمرافقته ، ثم غيرت مجرى الحديث فى الحال الى بعض الموضوعات الأخرى ، فظن ان الكبرياء قد عادت تنهشها من جديد !

نعم ٠٠ لسوف تشعر بوحشة لغيابه ٠٠ اذ لا بد من أن تفتقد اى امرىء ساقته المصادفة الى ان يبدد عنها وحدتها وعزلتها ٠٠ لكم عجب فى نفسه لهذه العزلة الكاملة الشاملة ٠ ولقد عاد يعجب لها – وهو يفكر فى تلك المرأة – فان لكل امرىء أصدقاءه ، والمقربين اليه ، سواء أكانوا يروقون له أم يضجرونه !٠٠ فمن هم أصدقاؤها ؟٠٠ ان النساء المعروفات قد «قاطعنها» منذ زمن بعيد بطبيعة الحال ٠٠ ولكن كانت توجد نساء أخريات فى لندن بجانب اولئك المعروفات ٠٠ كانت هناك البوهيميات اللامعات ٠٠ وكانت هناك نساء بارعات ينتمين الى المجتمع الراقى ، ولكن لهن فى الحياة «نهجا خاصا» ، فهن يدرسن فى دقة تامة الأصدقاء الذين يصطفينهم او الذين

يروقون لهن ويجتذبونهن ! .. كما ان لهن اصدقاء مخلصين أوفياء فى أوقات الشدة وتقلبات الحظ .. فأين اصدقاء مسز تشبستو الأوفياء ؟.. لم يجرؤ على ان يسألها عنهم !

وعادت به الذاكرة الى زيارته الأولى لها ، لا فى حنين عاطفى سخيف ، وانما فى اهتمام هادىء : الحجرة الخالية المطلة على النهر ، المعزف المفتوح وعليه النوتة الموسيقية ، الورود القليلة والكتب .. تذكر اذ ذاك « الحرف القرمزى » بغلافها الأبيض .. واستشهاد مسز تشبستو بآية من الانجيل لتفسير اختيارها لهذا اللون لتجليد القصة ! لقد توقفت اذ ذاك عن متابعة الحديث بغتة ، فلعل ذلك كان من جراء شعورها المفاجىء بانطباق الآية عليها !.. وعندما جلسا الى الشاى — يومذاك — قالت عن الحلوى التى كانت لذيذة حقا : « لقد أمرت باعدادها خصيصا لك ومن أجل وليمتنا الصغيرة » .. كانت فى كلماتها بساطة عظيمة ، وكذلك فى صوتها وهى تنطق بها .. لقد كانت فى عزلتها ووحدتها ترى فى قدح من الشاى تشربه معه «وليمة» ! .. وأخذ يتصورها وهى تجلس وحيدة فى هذه الحجرة فى شهر أغسطس ، بينما المدينة قد اقفرت اذ لفحها الحر بنيرانه وهجرها نصف سكانها .. ترى كيف يمكن ان تقضى هذه الأيام ؟

وراح يقارن بين حياته وحياتها .. أو على الأصح الحياة التى كان يخال انها حياتها .. لم يحدث له قط من قبل ان أدرك ما كان فى حياته من بهجة وبريق ، بل من تألق يخطف الابصار .. ما كان فيها من التنوع والتبدل ، والنشاط المتعدد الوجوه ، والعمل الشاق ، والعرق المتصبب مع عماله السمر في السهول الرملية عند حافة (الفيوم) .. ثم ما كان فيها من نشاط رياضى ، وصداقات ، وساعات مليئة بالنشاط ، وأخرى يسودها الهدوء .. لكم كانت ذكراها حبيبة الى قلبه ، لندرتها !.. انها حياة طيبة ، بل هى حياة

جليلة حقا ! .. انه الآن فى لندن ، وعما قريب سيصبح فى اسكتلندا .. ثم يحل آخر الخريف ، فالقطار ، فمنظر البحر ، فصفير الباخرة ، فضجيج الآلات .. وبعد ذلك مصر !.. الشتاء ذو الشمس المشرقة ، وأناشيد العمال ، وابتسامات الفلاحين .. واستصلاح الصحراء واعدادها للزراعة !.. أجل ، استصلاح الصحراء !

* * *

◆ **وكان** نيجل وحيدا بحجرته فى فندق سافوى ، وقد شاب فودا الليل .. كان يرتدى بيجامته ، ويدخن سيجارا بجانب النافذة المفتوحة . ونظر الى السجادة الحمراء التى استقرت فوقها قدماه فى الخفين الاحمرين ، وعندئذ تبين فجأة جمال ما كان يفعله فى الفيوم .. انه لم يفكر فى ذلك حقا من قبل على هذا النحو .. لم يفكر فيما يفعله من استصلاح الصحراء .. أما الآن وهذه الصور تطوف بذهنه، فقد سرت فى عروقه نشوة السرور ، وخفق قلبه وراح يتطلع فى حنين وحب الى الشتاء !.. **ولكن شتاءها هى .. ترى كيف يمكن أن يكون ؟.. ما أعظم الفارق الذى يمكن ان تحدثه فى حياة امرىء وحيد منعزل ، عاطفة صادقة ، مؤمنة ، ملهمة ؟ .. عاطفة واحدة فقط ، ففى ذلك الكفاية .. فاذا بالصحراء الرملية تغدو ناضرة !**

وتمثل حقول القصب وهى تتماوج ، وعيدان الذرة الطويلة وهى تتمايل مترنحة تحت هبات النسيم ، فى بقاع لم يكن فيها من قبل سوى الرمال القفراء . وما لبث ان أحس بوجنتيه اللتين لوحتهما الشمس تضطرمان وقد سرت فيهما الدماء الحارة !.. النجاح ! التقدم .. لكم يجب ان يفكر فيه مليا ، وفى تلك اللوحة الرائعة التى رسم فيها « وات » التقدم بألوان قدسية وضاءة .. تلك اللوحة التى كانت غرامه الاكبر

٠٠ كانت لمسة من لمسات العبقرية الخالدة ! ٠٠ فان على كل امرىء ان يؤدى نصيبه من الواجب ٠٠ أجل ، على كل انسان ان يقوم بنصيبه فى مضمار التقدم !٠٠ ترى كم من الناس فى هذا الفندق العظيم كانوا يعملون عن علم ويقين فى سبيل هذه الغاية ؟!

وثار الانفعال فى أعماق نفسه ، فراح يفكر فى الصفوف تلو الصفوف من الغرف المرقومة فى هذا المبنى الشامخ ، وفى كل منها ــ وراء كل رقم من أرقامها ــ عقل خلق ليفكر ،وقلب ليحس ، وروح لتتوثب وتطمح ، وجسد ليعمل ويكد ٠٠ ووراء رقم حجرته ، كان هو نفسه موجودا ، فما الذى كان يعمله ؟ وما الذى ينبغى أن يعمله ؟٠٠ وما عتم أن نهض من مجلسه ، وأخذ يسير فى أرجاء الحجرة ، ولما يزل يدخن سيجاره ٠٠ وضايقه احتكاك خفيه بالسجادة ، فطوح بهما بعيدا ومضى يسير بقدميه السمراوين حافيتين ٠٠ لقد كان غالبا ما يمشى حافيا فى الفيوم كعماله سواء بسواء !٠٠

ما الذى ينبغى أن يعمله ليؤدى نصيبه فى الدوران البطىء لعجلة التقدم الجبارة ؟٠٠ يجب ان لا يكون واحدا من الذين يتشدقون بالكلام ويهذون فى الحديث عن جلائل الأمور ، ثم لا يفعلون شيئا البتة فى سبيل اخراجها الى حيز الوجود !٠٠ انه يحتقر الذين يملأون الدنيا بعاصفة من الكلام ، ولا يعملون شيئا على الاطلاق ٠٠ انه لن يكون واحدا منهم ! ٠٠

انه حين جلس ــ فى هذه الليلة ــ « لينهى هذا النضال بينه وبين نفسه » ، كان يفعل ذلك من أجل ذاته هو ٠٠ كان أنانيا ، اذ انصرف جل تفكيره الى نفسه ، وان كان قد أشرك فى هذا التفكير شخصا آخر ٠٠ ولكن الرجال فى ساعات وحدتهم وانفرادهم لا يفكرون عادة الا فى أنفسهم !٠٠ ولم يكن نيجل أنانيا بطبيعته ، ومن ثم فانه سرعان ما نسى نفسه تقريبا ، وراح يفكر فى مسز تشبستو أكثر مما كان يفكر

فى نفسه .. وأخذ يفكر فيها من جديد على أساس صلتها بدوران عجلة التقدم الجبارة . وبعد آن كان يفكر فيها وحدها على هذا الاساس ـ فى البداية ـ تحول يفكر فيها وفى نفسه معا !

ومن العسير حقا ان يقوم المرء وحده بعمل ما .. عمل يستحق الأداء والتقدير .. وهذا ما خطر لنيجل فراح يمعن التفكير فيه .. لا بد دائما من بعض الدخلاء ـ الدخلاء المشكورين ـ الذين يتقدمون للمساعدة بوعى أو بغير وعى منهم ! ان الرجل يضع كتفه الى العجلة ليحركها ، فيرى أمامه كتف رجل آخر ، وعندئذ يستمد من هذا المنظر مزيدا من الشجاعة والجلد !.. وحمله تفكيره فى النشاط الدؤوب على أن يفكر فى السكون المطلق الذى يلازم مسز تشبستو . لقد رآها جالسة .. دائما جالسة فى حجرتها ، بينما الحياة تتدفق فى الخارج . ورأى وجهها الشاحب .. أما ان وجهها قد اكتسى هذا الشحوب البديع بفضل الصنعة والفن ، فذلك ما لم يخطر له على بال ! وقفز به الفكر الى مسز براوننج ـ زوجة الشاعر ـ وقمم الجبال التى ردت اليها الحياة !

* * *

◆ **ماذا** تراه فاعلا ؟.. وأخذ يبذل جهدا عقليا خارقا لكى « يسيطر على نفسه » ، وهو ما كان يمكن ان يعبر به عن هذا النضال .. وكان عليه بعدذلك ان يفكر فى الامر .. على انه ينبغى ان يخفف من حماسته ، ويهدىء من فورته ، ويتخذ جادة التعقل حتى يمكنه ان يتدبر الامر ويحسب له كل حساب !

وفكر فى الفتاة التى أحبها منذ عهد بعيد ، وقدر لها ان تموت .. انه منذ وفاتها قد أقصى الحب عن قلبه . وكانت تلم به ـ بين الحين والحين ـ صورة عابرة للحب .. شبح باهت

للحب الحقيقى ! فمن العسير على رجل قوى ، فى عنفوان شبابه وزهرة أيام حياته ، ألا يكون له شأن بالحب أو شبحه ! ولكن ايزاكسون كان على حق فيما حدسه ، فقد كانت حياة نيجل أكثر نقاء وأوفر طهارة من حياة معظم الرجال ٠ وكثيرا ما كان النضال ينشب بينه وبين نفسه ، وبينه وبين ميوله ورغباته الطبيعية ، نتيجة تقديره للحب ، وسمو هذه العاطفة فى نظره ٠٠ ولكنه لم يكن يخرج دائما من هذا النضال منتصرا٠٠ على ان ذلك النضال نفسه كان قد « فتل » عضلات ارادته وقواها ، كما ان كل « سقطة » كانت تجعله يرى ذلك الحزن، بل لعله الرعب ، المرتسم على شبح الحب الحقيقى ، بمزيد من الوضوح !

ولقد ظلت مسز تشبستو سنين عديدة ترعى ذلك الشبح، وتعيش معه ، اذا صح ما كان يقال عنها ٠٠ **وما كان نيجل ليخدع نفسه فى هذا الصدد ، اذ انه لم يكن بالذى تسوقه عواطفه الى أن يرفع العاهر الى مقام الملائكة ، كما يفعل الغلمان عادة ! ٠٠ لاشك فى ان مسز تشبستو سلكت مسلكا معيبا فى حياتها ، وبطريقة ربما كانت تبعث على الاشمئزاز بقدر ما كانت تبعث على الاشفاق والرثاء !٠٠ ولكنها كانت تطوى جوانحها على رقة شعور وكبرياء ناشئة عن عراقة الأصل ، وعلى تحفظ غريب كذلك ٠ وكانت لا تزال تحتفظ بذوق يجعلها تحب الاشياء الجميلة الرائعة ، وتعنى بالاشياء التى تمتاز بالطابع الروحى** ! وتذكر زيارته الاولى لها : البيانو المفتوح ، و « امضى فى رحلتك أيتها الروح التقية » ، و «الحرف القرمزى »٠٠ واستشهادها بآيات الانجيل !٠٠ ترى ما الذى كانت تفكر فيه وهى تعزف لحن « الجار » ذا الانغام السماوية المتجردة من الدنيوية الى حد عجيب ؟ أو وهى تقرأ كتاب هوثورن المثير للشجون ؟٠٠ كانت ـ ولا بد ـ تلجأ الى الفن كمنفذ للفرار من الحياة ، على غرار ما يفعله الكثيرون ٠٠ولكنها

لم تكن تفر الى الدنس أو العربدة ، ولا الى صالونات اللهو أو الأوكار التى تهتك فيها الاسرار ، وانما كان فرارها صوب الفضاء الفسيح ، مع « الملاك » ـ فى « حلم جيرونتيوس » ـ والى الغابة مع « هيستر » و « بيرل » الصغيرة فى « الحرف القرمزى »

فلماذا لا يمكن لهما ان يظلا صديقين ؟ ٠٠ وتكلم جسده مجيبا عن هذا السؤال ٠ واذا به ينحى على نفسه باللائمة من جراء هذا الجواب ! ٠٠ ونقم ـ فى تلك اللحظة ـ على نفسه ، وسخط عليها ، ولعنها ! وما لعنها لانه كان سقيم الفكر ، وانما لعنها لانه كان سليم العقل ، ولانه أدرك ان الميول الخبيثة ـ التى تجلت فى ذلك الجواب ـ انما أثارتها معرفته بماضى مسز تشبستو ٠٠ وكانت فى هذا حيوانية لابد من القضاء عليها ٠٠ يجب ان تطمس فلا تبين آثارها ، اذ انه ما كان ليرضى لنفسه أن يكون من ذلك الطراز من الرجال ٠٠ ولكنه أحس مع ذلك بأنه من ذلك الطراز بالفعل الى درجة تجعل صداقته لمسز تشبستو متعذرة ، ان لم تكن مستحيلة ! ٠٠ ولو أن الحب هو الذى قاده الى هذه الميول ، فانه ـ وهو الذى لا يزعم العصمة لنفسه ـ كان خليقا بأن يقدرها وان يعتبرها أمرا طبيعيا خالصا من كل شائبة ٠٠ ولكنه لم يكن يحب مسز تشبستو ، ولن يقدر له آن يحب ـ ذلك الحب الحقيقى ـ مرة أخرى بعد فتاته التى ماتت ! ٠٠ لقد ظل يردد هذا لنفسه سنوات ، وكان يؤمن بصدقه ٠ وحتى لو انه استطاع أن يجدد فى نفسه هذه القوة الغريبة ـ قوة الحب ـ فلن يكون بوسعه ان يحب امرأة غير طاهرة ٠٠ لقد كان موقنا من ذلك ٠٠ وكان كلما فكر فى الامر ، قارن بين الفتاة الميتة ومسز تشبستو ٠ **أما الليلة ، فقد تعذر عليه ان يتمثل فى ذاكرته بجلاء صورة الفتاة الميتة ووجهها ونظراتها ، بينما كان بوسعه أن يتصور فى مخيلته شكل مسز تشبستو كاملا ، اذ كان قد رآها فى ذلك اليوم بالذات ٠٠ أما الفتاة التى أحبها ،**

فقد ماتت منذ سنوات عديدة ، وأصبحت فى ذاكرته رمزا للطهر والجمال أكثر منها كائنا بشريا !

وما كان من المحتمل أن تجد مسز تشبستو – فى حالها هذه – رجلا يحبها باخلاص .. ولكن ، لم لا ؟ .. وتحول نيجل فجأة فراح يحاسب نفسه ، كما اعتاد ان يفعل كلما وجد انه ينساق مع الرأى العام لجمهرة الرجال .. أجل ، لم لا ؟.. **ان الكتف التي تدفع عجلة التقدم هى دائما كتف الحب .. حب فكرة معينة ، حب امرأة ، حب الانسانية ، حب العمل ، حب الله !..** لسوف يضحك – كل الرجال الذين كان يعرفهم ، أو جلهم – لمجرد التفكير فى ان مسز تشبستو قد تجد من يخلص لها الحب ، ولكن ضحكهم ينبغى ان لا يكون ذا أثر على روح أو قلب ملىء بالرجولة !

وأحس بشىء من الحنق عليها لما كانت تأخذ نفسها به من وحدة وجمود كانا يؤلمان شهامته ، ويصفعان عاطفة الاشفاق فى نفسه .. لو انه استطاع أن يتصورها وقد نفضت الجمود عن نفسها ورحلت – هى الاخرى – عن لندن لتطوف بسويسرا أو ايطاليا أو أى مكان جميل آخر ، لارتاح باله واطمأن . ولكنه كان يتمثلها دائما جالسة فى تلك الحجرة ، وحيدة ، مهجورة ، تعزف على « البيانو » وتقرأ الكتب ، دون أمل فى ان تحظى بأنيس ، أو ان تبدل من جو حياتها .. والواقع ان مسز تشبستو أتقنت القيام بدورها ، واستطاعت أن تطبع على مخيلة نيجل صورة لنفسها محفوفة بالوحدة والعزلة !

* * *

◆ **وكان** لا يزال يذرع الحجرة بقدميه الحافيتين .. ولكن سيجاره كان قد انطفأ وان ظل بين شفتيه .. وكان الوقت متأخرا ، وقد دنا الهزيع الاخير من الليل . وسمع نيجل ساعة بعيدة تدق الثانية بعد منتصف الليل ، وما كاد ينتهى طنينها

وطنين ساعات أخرى فى مواضع قريبة أو بعيدة فى المدينة ، حتى انبعثت فى أعماقه تلك الافكار التى يوحى بها الليل الى رجل شاب فى عنفوان قوته : اذا لم يكن من المستطاع ان تقوم بينه وبين مسز تشبستو صلة من الصداقة ، أفلا يمكن ان يكون بالنسبة اليها .. ذلك الشىء الآخر ؟!

ورفع يده الى شفتيه فانتزع السيجار من بينهما وطوح به من النافذة فى عنف .. وكان هذا العنف البدنى صدى لما كان يعانيه من صراع عقلى ! .. انها قد تسمح بشىء كهذا ، فهى « كثيرا » ما أنشأت ـ اذا صدق نصف ما يقال عنها ـ مثل هذه الصلة مع رجال آخرين ، ولكنه لا يريد ان يصدق «كثيرا» هذه ! .. انه يريد ان يصور الامور على نحو جد مختلف : فليس من ريب فى انها أقامت مثل هذه الصلة مع بعض الرجال ـ لعلهم كانوا اثنين أو ثلاثة وان كانت الشائعات الفاضحة قد ضاعفت من عددهم !ـ فيما مضى من حياتها .. فهل تراها ترضى باقامة مثل هذه الصلة بينها وبينه اذا ما سألها ذلك ؟! وهل تراه يسألها ذلك يوما من الايام ؟!

وألقى بنفسه ثانية على مقعده الكبير ذى المسندين ، وراح يحدق فى قدميه العاريتين وقد استقرتا على الارض ثابتتين راسختين . **ولكنه لم ير قدميه ، وانما كان يرى ذلك «الشبح» البشع .. شبح الحب المسخ ! ذلك الطيف الفظيع ، الملعون ، المدمر .. ذلك الدعى الذى يذهب فى الزيف الى أبعد الحدود ! .. لقد ظلت تعيش مع الشبح حتى غدا وجهها شاحبا باهتا كالاشباح !** .. لقد كان فى لوحة « التقدم » ـ التى شغف بها نيجل ـ وهج هائل ، واشراق متألق يشع فى الفضاء حتى الأفق البعيد .. ومن الجهد الصادق لادارة عجلة التقدم ، يستطيع الرجل ان يبعث تألقا فى وجنتى المرأة .. تألق الغبطة ، لا تألق العار ! .. أما السكوت على « نهاية سيئة » ـ وهنا استخدم نيجل فى تفكيره الاصطلاح الذى يطلقه

الساخرون فى المنتديات على المرأة التى تفقد مكانتها وسحرها !

ــ فأمر لا يمكن ان يطاق !

وتلاشى الشبح فجأة ، فعاد نيجل يرى قدميه السمراوين فى وضوح ، واذا مرآهما يبعث للتو فى ذهنه التفكير فى الشمس ، وفى العمل ، وفى الحياة الطيبة ، الحقيقية ، المليئة بالوهج والضياء !٠٠ لا ، لا ٠٠ انه لن يرتضى لنفسه ان يتجه بذهنه الى شىء من هذه الافكار الوضيعة الحيوانية ، التى لايطيقها ولا يحتملها ! وذهبت عنه فكرة الصداقة ــ التى خطرت له ــ الى غير رجعة ، واذ ذاك تنفس تنفسا طويلا عميقا ، وطوح بذراعيه الى أعلى حتى تهاوت أكمام منامته (بيجامته) فبلغت كتفيه ، مسفرة عن الساعدين السمراوين القويين ، فراح يحملق فيهما ، مثلما كان ينظر الى قدميه ، ويتحسسهما ويربت عليهما ، وقد أطربه ما فى الصحة الكاملة من رواء ٠٠ ولكن صحة العقل والقلب وسلامتهما أمر ضرورى لاستكمال صحة البدن وسلامته !٠٠ وأحس فجأة بنفسه قويا ٠٠ أحس بأنه أوتى من القوة ما يكفى لاكثر من واحد ، كما ينبغى ان يكون الرجل حقا ٠٠ قويا لنفسه ولأنثاه ، لتلك التى تخصه بحبها ونفسها ، وتثق فيه وتعتمد عليه ، وتمحو من مخيلتها جميع الرجال الآخرين من أجله وحده ، شأن المرأة الوفية !

هل قضى عليه اذن بهذه الوحدة الابدية ، بسبب الفتاة التى قضت نحبها منذ تلك السنين العديدة ؟٠٠ لقد كانت حياته جدباء قاحلة ، مفعمة بالوحدة ، شأن كل حياة خلت من الحب ، مهما يبلغ من تألقها وازدحامها بالنشاط والعمل الدائب ٠٠ لقد أدرك ذلك ، فخطر له خاطر كان فى حد ذاته طبيعيا ومتسما بالاثرة فى الوقت نفسه ، وهو : أى بهاء لا بد ان يجده الرجل فى ان يكون وحده أثيرا بحب امرأة ٠٠ **وما أعظم الحب الذى يمكن ان توليه امرأة ، هجرها الرجال وتخلى عنها العالم ، للرجل الذى يأتى اليها ــ كالفارس فى**

الغابة ! ـ فيحملها بعيدا ، ويمزج حياتها بحياته ، ويعيد اليها كرامتها وعزة نفسها ومكانتها بين النساء ٠٠ وفوق كل شيء : ذلك الشعور الذى تحله المرأة من نفسها فى أعز موضع بين المشاعر الاخرى ٠٠ شعورها بأن « هناك من يبتغينى »٠٠ انه ولا بد أمر بديع ان يجد المرء نفسه محبوبا كما سوف تحبه مثل هذه المرأة !٠٠ وفى تلك الليلة سارت مروءته ـ التى كانت تدفعه بوحى الغريزة الى العناية بالاشياء المهجورة ـ جنبا الى جنب مع أنانية الرجل الابدية وأثرته الخالدة ، وهو يتخيل مسز تشبستو ـ للمرة الاولى ـ وقد تزوجت ثانية من رجل لا يعنى البتة برأى العالم ، أو انه يعنى به كثيرا الى القدر الذى يلذ له معه ان يتحداه ويهزأ به ! ترى كيف تصبح فى غمرة الحب المنطلق دون تحفظ ؟

وعندئذ بدأ يتساءل عن كنه ذلك الجزء من طبيعتها المخصص للحب ، المكرس له ! ٠٠ لقد كانت معه دائما آية فى البساطة، وكانت تبدو معه غاية فى الصراحة ، غير انه يحس الآن انها كانت فى بساطتها وصراحتها دائمة التحفظ والحذر ، الى درجة تكاد تعد غريبة من مثل هذه المرأة !٠٠ ولعل تحفظها ذلك كان ردا منها على افراطه فى اظهار الاحترام نحوها ٠٠ فقد كان ـ مراعاة لمركزها الدقيق ـ يبدى لها من ضروب الاحترام أكثر مما كان يبدى للنساء الاخريات ، متبعا فى ذلك وحيا من طبيعته التى فطر عليها ٠٠ فكيف يمكن ان تبدو اذا ما تجردت من التحفظ ، فى غمار حب عظيم ؟

وهكذا اضطرمت النار فى احشاء نيجل وبدأت تتاجج فى ضراوة ، فراح يحس ـ عن وعى ويقين ـ بسحر هذه المرأة وفتنتها ٠٠ وما من ريب فى انه كان دائما أسير هذا السحر الى حد ما ٠ ولقد أدرك ايزاكسون ذلك ـ فى تلك الليلة ـ عندما رأى نيجل يقرب مقعده من مقعدها على مائدة العشاء فى سافوى ٠٠ ولكن نيجل كان أسير هذا السحر دون ان يقول

لنفسه قط : « لقد وقعت فى الأسر » ! ٠٠ بل انه لم يعترف قط بأنه وقع فى هذا الأسر ، ومن ثم أثار ادراكه المباغت لتأثير سحرها عليه ، انفعاله الى حد كبير ٠٠ فهل قدر عليه ، بعد تلك الحقبة الطويلة من السنين ، أن تنتابه ثانية تلك الحمى القوية ، ونحو امرأة شد ما تختلف عن تلك التى أحبها فى المرة الاولى ؟! لقد كانت هذه تقف فى شبابها الطاهر الغض عند طرف تلك السلسلة من الاعوام ، فهل تقف مسز تشبستو حقا عند الطرف الآخر ؟

وخيل اليه انه يرى الاثنتين ، وقد راحت كل منهما تتطلع الى الاخرى خلال هذا الفراغ الذى أقامه الزمن ، فانقبضت أساريره لحظة ٠٠ ولكنه كان قد تغير أثناء اجتيازه ذلك الفراغ ٠٠ كان فى ذلك الحين ـ حين غرامه الاول ـ صبيا قلقا متقد الرغبة فى غمرة شبابه المتوثب !٠٠ **أما الآن فقد غدا رجلا شديد البأس ٠٠ وفى خلال الفترة التى فصلت بين الصبى والرجل ، ترعرع حبه القوى للانسانية ، وعاطفته الجياشة نحو تقدم الخير الكامن فى كل مكان مثلما يكمن التبر فى الارض التى تحوى عروق الذهب !٠٠** ولعل هذه العاطفة لم توهب له الا ليستطيع ان يجمع بين الحبين : حبه لخير الآخرين ، وحبه لتلك المرأة !٠٠ وخيل اليه عندئذ ان أسارير المرأتين قد لانت وسادتها طمأنينة ٠٠ آن مثل هذا الحب الجامع قد يتوج حياته بهالة من البهاء والسمو !

كان نيجل يفكر فى ذلك فى حماسه المشبوب الذى فطر عليه ، والذى كثيرا ما كان يضعه فى معزل عن سائر الرجال ٠٠ وكان يرى انه اذا ما عاش فى ظل هذه الهالة من البهاء والسمو ، فما أعظم قدرته على تحدى الرأى العام ٠٠ سوف يكون لضحكات الرأى العام وقع الموسيقى فى مسمعه ، ولكلمات السخرية تأثير يثير ابتسامه ٠٠ ومع ذلك فقد كان ينبغى ان يفكر ٠٠ وان يطيل التفكير !

وانبعث قافزا من مقعده ، وراح يجذب كمى منامته ويثنيهما حتى بلغا كتفيه ، ثم انثنى الى النافذة يتطلع الى الليل البهيم ، وقد تعرى ساعداه ، وأسند وجنتيه الملتهبتين الى راحتيه !

الفصل الثامن

◆ كانت مسز تشبستو قد قالت لنيجل : « احضر الدكتور ايزاكسون لزيارتى ، اذا رغب فى الحضور » .. ولكن الطبيب لم يذهب اليها قط ، بالرغم من ان نيجل اخبره بما قالت ، وردده عليه اكثر من مرة . وكان يتحاشى هذه الزيارة متعمدا ، دون ان يبدى انه قصد الى تحاشيها .. فقد كان نيجل يعلم تمام العلم ان صديقه لم يكن يحظى بساعة فراغ واحدة اثناء النهار .. وكان بوسعه ان يذهب فى احد ايام الآحاد ، ولكنه للمصادفة - او هكذا تعمد ان يبدو الأمر - كان يقضى ايام الآحاد بعيدا عن المدينة .. وكان يردد لنفسه: « ماجدوى ذهابى ؟ » .. كانت لديه تلك الكراهية التى يستشعرها ذوو النفوس الحساسة نحو التدخل فى شئون الآخرين ، فضلا عن شعوره الغريزى بانه قد يفقد صداقة نيجل اذا هو حاول ان يؤدى دور الصديق كما ينبغى .. فقد يصطدم بعد نظره وصدق بصيرته بتحمس نيجل واندفاعه العاطفى .. كما قد يبدو ادراكه الرزين بطبائع البشر والدنيا ، قسوة جامدة بالنسبة لكرم نيجل وتهافته فى الاشفاق !.. وكان ايزاكسون يشعر - فوق كل هذا - بنفور شخصى قوى نحو مسز تشبستو .. نفور كاد ان يكون ملموسا ، اذ ان الجزء اليهودى من نفسه أدرك تمام الادراك ذلك الجزء الجشع من نفس تلك المراة !.. ولقد كان يكره يهوديته فى الوقت الذى كان يعترف بها فى اعماق نفسه ! على انه نادرا ما اظهر هذه الكراهية - ولو على سبيل الرياء - كما انه نادرا ما اظهرها بطريقة فظة فجة كما يفعل كثيرون من ذوى الدم اليهودى فى عدائهم للعنصر السامى ! .. ولكن هذه اليهودية ظلت تنبض بالحياة فى اعماقه ، وكانت فى صراع مستمر مع شعور كان يكمن فى الناحية الفنية من فطرته .. شعور «عالمى» يتضاءل بجواره الشعور العنصرى !.. وكانت الأمجاد الفنية والروائع تذكى هذا الشعور بالعالم فى نفسه ، فكان يرى فى حبه للفن اسمى مظاهر هذا الشعور

واذا كانت عقلية ايزاكسون اللماحة قد جمعت بينه وبين نيجل ، فان يهوديته جمعت بينه وبين مسز تشبستو ، بشكل آخر ، اذ كان هناك ثمة رابطة من التنافر ، ورابطة أخرى من التعاطف .. وكان ايزاكسون يدرك ان التنافر - مثله فى ذلك مثل التعاطف - خليق بان يربط بينه وبين مسز تشبستو ،

ومن ثم فان غريزته راحت تحمله على ان يتحاشاها حتى لا يدع مجالا لهذا الارتباط .. ولكن الظروف التى تعاقبت جعلته يوقن ان الذى يخاف شيئا لا يلبث ان يفاجأ به !

.. كان موسم النشاط الاجتماعى ينصرم بسرعة موشكا على نهايته ، عندما اقبل نيجل – فى ساعة جد متاخرة من احدى الليالى – الى المنزل القائم بميدان (كليفلاند) .. وكان ايزاكسون قد عاد لتوه بعد ان تناول العشاء فى الخارج ، عندما دوى رنين جرس الباب ، فخشى ان يكون الطارق قد جاء ليدعوه الى عمل من اعمال مهنته .. وما لبث ان تنفس الصعداء عندما جاء خادم – أثقل النعاس جفونه – يساله ان كان يود ان يستقبل مستر ارماين .. والتقيا فى حجرة صغيرة بالطابق الأعلى ، اعتاد ايزاكسون ان يجلس فيها بالليل .. وكانت وثيرة الأثاث ، ولكنها كانت ثقيلة الجو بعض الشىء ، تحف بجدرانها ارفف محملة بالكتب . وعندما ولجها نيجل مسرعا – وعلى ذراعه معطف خفيف ، وفى يده قبعة رخوة – كانت الساعة على المدفأة تدق الواحدة !.. وبادره نيجل قائلا : « لقد لمحتك للتو فى شارع سان جيمس ، مستقلا سيارتك ، ولولا ذلك ما أتيت فى هذا الوقت المتاخر .. هل كنت تتاهب لأن تاوى الى الفراش ؟ اصدقنى القول ! »

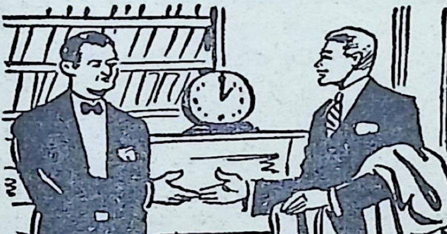

– لا احسبنى كنت ذاهبا للفراش الآن ، اذ اننى تناولت العشاء فى الخارج، ولا بد لى من ان اقرأ شيئا .. افهذا اذن سبب احتفاظك بمعطفك ؟

فقال نيجل : « لأظهر الدليل على حسن نيتى ! حسنا ! » .. ووضع معطفه وقبعته على أحد المقاعد ، بينما ساله الطبيب : « هلا تناولت شيئا من الشراب؟» فاجاب الشاب : « كلا .. شكرا » ، ثم اتخذ مجلسه فى أحد المقاعد الكبيرة المريحة ، وقال : « اننى راحل غدا ولم اركَ الا قليلا يا ايزاكسون ! » ..

فقال الطبيب : « أتراك ارتويت من المجتمع ؟ » .. وكان الجواب : « أكثر من الكفاية ! »

وكان ايزاكسون يجلس الى منضدة عليها عدد من الكتب ، فكان بين الحين والآخر يمس واحدا منها باحدى أصابعه الطويلة السمراء ، ويرفع غلافه ثم يتركه يسقط ثانية فى حركة آلية .. وما لبث ان تساءل : « هل ستعود فى الخريف ؟ » . فاجاب نيجل : « لبضعة ايام فقط ـ اثناء مرورى بلندن ـ فى طريق عودتى الى مصر ! » .. فهتف الطبيب : « شد ما اغبطك ! اننى اغبطك حقا ! » .. فقد خطر له ـ وهو يتأمل بياض نيجل الناصع ويقارنه بسمرة بشرته هو ـ انه هو الذى يجب أن يذهب الى حيث تسطع الشمس حامية ، فى حين يبقى نيجل فى البلاد ذات الضوء الشاحب الباهت .. ولعل خاطرا مماثلا طرا على ذهن نيجل ، اذ قال : « جدير بك ان تذهب الى هناك يوما ما .. سوف تكون فى مكانك الطبيعى هناك ! ألم تذهب اليها قط ؟ » .. فاجاب : « مطلقا .. وكثيرا ما تمنيت أن أذهب » . وهنا تساءل نيجل : « ولماذا لا تفعل ؟ » .. وكان عقل أيزاكسون يسأله هذا السؤال بالذات . وأجابته يهوديته بأنه كان يكسب مالا وفيرا فى لندن ، وان كل يوم يقضيه خارج لندن يفقده مبلغا جسيما !.. واستطرد نيجل معقبا على سؤاله : « يجب ان تنال اجازة يوما من الأيام وتذهب لترى مصر » .. فتساءل ايزاكسون : « اتقصد .. هذا الشتاء ؟ »

وامتدت أصابعه ترفع غلاف احد الكتب ، ثم تسقطه ، بينما تطلعت عيناه السوداوان ، المتألقتان ، الفياضتان بذكاء عارم ، الى نيجل لحظة ، ثم لم تلبثا ان تحولتا عنه ، بينما استدرك الطبيب فى هدوء : « ليس فى هذا الشتاء » .. وهتف نيجل : « ولكن .. لم لا يكون هذا الشتاء ؟ » . وكان فى لهجته اضطراب خفيف .. واجاب ايزاكسون : « لا أستطيع الابتعاد عن هنا الآن ، فلدى عمل كثير .. هل انت ذاهب الى الفيوم ؟ »

وكان نيجل يحدق فى السجادة الشرقية التى كانت تغطى ارض الحجرة ، بينما استقرت يداه القويتان على مسندى المقعد ـ وراحتاهما الى اسفل ـ وراحتا تضغطانهما بشدة .. واجاب : « أجل ، ساذهب الى هناك » .. فقال الطبيب: « وهل ستعيش فى الخيام ؟.. لقد التقيت ليلة امس برجل يعرفك ، وهو ضابط بالجيش المصرى فى اجازة الآن .. اسمه فريكر .. وقد اخبرنى بانك استصلحت قدرا كبيرا من أرض الصحراء ! » .. فقال الشاب : « لشد ماارجو ان استصلح ما يفوق طاقتى بكثير .. فهو عمل طيب » .. فاردف الطبيب متسائلا : « وعمل شاق ؟ » .. وهتف نيجل : « شاق جدا .. وهذا سبب حبى له ! »

ـ اعلم ذلك .. انه حب الانسان لترويض النفس الأبية !

ـ اهو كذلك ؟.. لا احسبنى ابالى كثيرا بما يستحثنى نحو شىء معين ، ولكننى اصارحك يا ايزاكسون بانه يخيل الى احيانا ان لك بصيرة نفاذة عجيبة تتغلغل فى صميم الأمور .. ان لك بعد نظر عجيبا ، خارقا !

ومال الى الأمام وهو يستطرد : « على ان هذا لا يسوؤنى منك أنت بالذات ! » ، فقال ايزاكسون : « اننى لا أملك ان أقرك ، ولكن لماذا يسوؤك ذلك فى اى شخص آخر ؟ » .. فاجاب نيجل – وهو ينقل فى اجابته بعض كلمات مسز تشبستو ، وان لم يكن ايزاكسون على علم بهذا الاقتباس : « أليس العقل ميالا الى ان يسيطر على القلب وان يتغلب عليه ؟ أولا تدفعه قوته الى الطغيان والجبروت فى كثير من الأحيان ؟ » . فاجاب الطبيب : « يجب ان يدع المرء لكل منهما الفرص ! » .. وابتسم لما كان فى عبارته من سخرية لم تكن تروق له ، ولكنها وجدت ارتياحا من نيجل ، اذ قال : « أجل ، وأعتقد انك ممن يفعلون ذلك ، وهذا هو السبب فى .. ولكن لنعد الى ماكنا نقوله .. انك ذو بصيرة نفاذة الى الأمور ، فهلا ترى وأنت تعيش عادة هنا فى لندن ، ان الرجال والنساء الذين يعيشون فى جماعات مزدحمة ينحرفون غالبا عن جادة الحق والرحمة ؟.. ألا ترى انهم اذ يعيشون محتشدين ، كل وراء زميله كالجندى فى كتيبته عندما يذهب معها الى المعركة .. ألا ترى انهم اذ يعيشون هكذا كثيرا ما ينقلبون غلاظ الأكباد ، قساة .. بل انهم غالبا ما يصبحون اقرب الى الوحوش فى تعطشها للدماء ؟ »

فظل ايزاكسون لحظة ساكنا لا يريم . وما لبث ان اجاب اخيرا : « ربما كانوا كذلك احيانا » .. فمضى نيجل فى استجوابه : « وهلا ترى أنهم عندئذ يتطلبون بعض الضحايا والقرابين ؟ » . فتساءل الطبيب بدوره : « أتعنى قرابين بشرية ؟ » . فلما اجابه الآخر : « نعم » ، قال : « ربما .. احيانا » .. وهنا ألقى نيجل بالسؤال الذى كان يدخره : « لماذا لم تذهب قط لزيارة مسز تشبستو ؟ »

وبدأت الأصابع السمراء تعبث بأغلفة الكتب من جديد ، تترك واحدا لتمسك بآخر ، ولكن فى تؤدة ورقة .. ثم قال ايزاكسون : « اننى لا اجد من الوقت ما يكفى لكى أزور احدا ، عدا مرضاى ، والناس الذين التقى بهم فى المجتمعات » .. فظل صاحبه ماضيا نحو هدفه : « ومن الطبيعى انك لا تلتقى البتة بمسز تشبستو فى المجتمعات ؟ » .. فأجاب الطبيب فى تردد : « حسنا .. كلا ! ان أحدا لا يراها ! »

– انها كانت تود ان تحظى بزيارة منك .. ثم انها وحيدة تماما !

– أهى كذلك ؟

– هل تنوى البقاء طويلا فى لندن ؟

– ربما مكثت الى الثانى عشر أو الخامس عشر من اغسطس

فقال نيجل : « انها ستبقى هنا كذلك » .. وهتف الطبيب فى دهشة : « مسز تشبستو ؟ .. فى أيام الحر اللافح ؟ » .. فقال صديقه : « لا يبدو عليها انها فكرت فى مكان معين تذهب اليه ! » .. واكتفى ايزاكسون بان هتف : « آه ! » ، ثم فتح أحد الكتب بغير قصد ووضع يده على احدى الصفحات . وتصادف ان كان الكتاب عن السموم وعلاجها ، فراح يتحسس الصفحة فى حركة آلية وقد ترك يده عليها .. ومالبث نيجل ان قال : «ماأحسبك يا ايزاكسون متعطشا الى الدماء ؟ » ، فأجاب الطبيب : « أرجو أن لا أكون كذلك .. بل أعتقد أننى لست كذلك !»

– وأعتقد أنك تمقت ذلك كما أمقته ، تمقته وتشمئز منه ، من أعماق نفسك! ولكنى كثيرا ما أحسست بأنك مستقل فى تفكيرك ، دون أن تحفل كثيرا بأفكار الناس ! . ولقد أتيت اليك الليلة لأودعك ولأسألك أن تذهب – اذا وجدت من وقتك متسعا – لزيارة .. مسز تشبستو ، بين الحين والآخر .. وانى لأعلم انها ستقدر زيارتك لها أعظم تقدير ، فالواقع انها فى وحدة مقيتة حقا !.. واذا أنت ذهبت فلن تجد فى زيارتها ما يضجرك .. فهى امرأة ذكية بارعة ، تهتم بالأشياء التى تهتم انت بها .. هل لك ان «تطل» عليها من وقت لآخر ؟

فرفع أيزاكسون يده من فوق الكتاب ، وقال : « سأزورها » . وعندئذ هتف نيجل : « ما أطيب هذا ؟ » .. فتساءل الطبيب : « ولكن أواثق انت أنها راغبة فى ذلك ؟» ، فأجاب نيجل فى حرارة : « كل الثقة .. فهكذا قالت لى !» .. وكان فى سذاجة هذا الجواب ما جعل عقل ايزاكسون يبتسم ، وشيئا آخر فى اعماقه يئن ويتأوه !

واستطرد نيجل : « اننى مضطر للرحيل الى الريف .. اذ يجب ان أرى أخى هارويتش ، وزوى – زوجة أخى – وأختى المتزوجة ، كما تعلم .. » . وقفزت الى عينيه فجأة نظرة زاخرة بالألم ، ثم مالبث ان نهض وقد اشتدت النظرة ، وقال : « طابت ليلتك يا ايزاكسون .. أيها الصديق الحميم ! » .. وأمسك بيد ايزاكسون يشد عليها فى عزم .. وكانت قبضته دافئة قوية . وعاد يقول : « طابت ليلتك .. كم أحب أن أشعر باننى أعرف رجلا واحدا لا يتأثر باقوال الناس وانما يكون رأيه لنفسه بنفسه كما تفعل أنت .. فأنا أعرف هذا فيك .. وداعا ! »

وكانت النظرات المليئة بالألم قد تلاشت ، ولاحت عيناه الصافيتان تتألقان فى قوة وعزم .. وقال ايزاكسون « وداعا ! »

واذ انصرف نيجل ، وقف أيزاكسون بجانب المدفأة زهاء خمس دقائق ساكنا بلا حراك ، وقد استغرق فى التفكير .. ولكن دقات الساعة الصغيرة نبهته من استغراقته ، فرفع رأسه وتلفت حواليه ، وكان على وشك أن يطفىء النور عند ما حانت منه نظرة الى الكتاب المفتوح على المنضدة ، فمضى ليغلق

دفتيه ، واذا عيناه تقعان على هذه السطور :

« يجب ألا ننسى قط ان « الديجيتالين » من المواد التى لا تكون سامة الا اذا تكرر تناولها ، فالجرعة التى لا تحدث ضررا اذا ما أخذت مرة ، تغدو قاتلة اذا كثر تكرر تناولها . وهذه من الخواص التى تشترك فيها كل السموم التى تؤثر على القلب »

وظل واقفا يحملق فى الصفحة المفتوحة أمامه : « وهذه من الخواص التى تشترك فيها كل السموم التى تؤثر على القلب » !

وهز رأسه وكأنه يوافق على ذلك ، ثم أطبق الكتاب فى بطء واطفأ النور !

* * *

◆ فى يوم عطلة البنوك من شهر اغسطس — وهو من اقطع ايام السنة فى لندن — انطلق الدكتور ايزاكسون ليزور مسز تشبستو . وكانت لندن ترزح تحت حر مرهق ، فلم يكن فى شوارعها سوى فئة قليلة من المشاة والمركبات .. وهنا وهناك ، كنت ترى جماعات صغيرة من الناس فى ثياب عجيبة شاذة ، يحملقون فى المدينة بعيون جاحظة ونظرات جوفاء .. وكان أهالى لندن قد نزحوا الى الريف ، يسرحون ابصارهم فى الحقول والغابات .. وبدا رجال البوليس خاملين متبلدين ، كأن أحدا من الناس لن يرتكب بعد اليوم جريمة ، وكأنهم أحيطوا علما بذلك !.. وكانت قطع صغيرة من الورق تتطاير على غير هدى فوق أجنحة نسمات خفيفة حارة ، تثور فى هبات متباعدة ، ولا تلبث ان تخبو سريعا .. ووقف شيخ ذو رأس عجيب الصلع ، يتطلع خلال نافذة أحد المنتديات . وما لبث ان راح يحك أنفه فى حيرة ، وهو يرد بصره الى الغرفة — التى كان يقف فيها — ثم يعاود التطلع خلال النافذة من جديد ! وكان صوت ارغن ينبعث مرددا لحن «مانولا» الذى ظل سنين عديدة فى اطواء الصمت !

لقد كانت لندن فى اشد أيام الصيف كآبة ، فهل من المحتمل ان تكون مسز تشبستو باقية فيها ؟ ولم يلبث ايزاكسون ان عرف الجواب .. فما ان ولج بهو فندق سافوى — حيث كان حراس الأبواب الضخام الأجسام يغفون تحت وطاة الوحدة — حتى علم أنها كانت فى الفندق .. واذن ، فلا مفر هناك !.. ومضى نحو المصعد ، ثم تبع احد الخدم الى باب حجرتها ، وقرع الخادم الباب ، فلم يتلق جوابا .. وعاد يطرقه من جديد بأشد من ذى قبل ، بينما كان أيزاكسون يقف خلفه منتظرا .. وما لبث ان سمع صوت من الداخل ينادى : « ادخل ! » .. ففتح الخادم الباب وهتف : « الدكتور ماير ايزاكسون! »

ومن المحتمل ان مسز تشبستو كانت جالسة فى شرفتها ، اذ انها كانت تقف فى فراغ احد أبواب الشرفة — عندما دخل ايزاكسون الحجرة — أمام مكتب صغير

كانت ادراجه فى مواجهة ذلك الباب .. وكان ثمة مقعد ذو مسندين فى الشرفة خلفها .. وهتفت تقول وفى صوتها رنة من الدهشة : « الدكتور ماير ايزاكسون ؟!» .. حتى اذا خرج الخادم وأغلق الباب ، استانفت تقول : « ما اعجب هذا ! » ، فسألها الطبيب : « ولكن .. لماذا يا مسز تشبستو ؟» وتناول يدها ثم اطلقها بعد أن صافحها .. وعاد الى ذاكرته - اذ لمسها - ذلك اليوم الذى أمسك فيه برسغها فى حجرة الاستشارة بعيادته .. كان الاحساس الذى بعثته فيه اذ ذاك هو عين الذى بعثته فيه الآن .. او لعله كان اشد واقوى فى هذه المرة !

- لماذا ؟!.. لأن اليوم من أيام الأعياد !.. كما أنك لا تزورنى البتة . وبهذه المناسبة ، انها لبراعة فائقة منك ان تحدس اننى موجودة فى مثل هذا اليوم الذى يجمع الناس على السفر فيه ..

قال : « هكذا ترين ان الرجال - هم الآخرون - لهم الهامهم !».. فقالت : « أو لم اعرف ذلك ، بعد الذى قاسيته ؟ ولكننى اليوم لا املك الا ان ابارك الهام الرجل ! اين تحب أن تجلس ؟ » . وقال مجيبا : « اينما شئت » . فاجلسته على الأريكة قائلة : « هنا ، اذن » ، ثم جلست على مقعد فى مواجهة الضوء .. وكانت عارية الراس لا ترتدى قبعة .. وساءل ايزاكسون نفسه عما تراها كانت تفعله طوال يومها ذاك ، وفيم كان بقاؤها فى لندن .. اما ان لها غرضا معينا من وراء ذلك ، فأمر ادركه كما تدرك المراة ان الثوب الذى ترتديه امراة أخرى ، من ثياب العام الماضى !.. وعندما التقت اعينهما احس بعنف النفور الذى كان يكتمه ، ومع ذلك فقد ادرك ان مسز تشبستو اصبحت تبدو أقل شحوبا وأصغر سنا واوفر جمالا مما كانت عليه فى آخر مرة جمعت بينهما! وكانت ترتدى ثيابا بسيطة غاية البساطة .. وخيل اليه ان لون شعرها قد تغير، وانه غدا ازهى مما كان ، ولكنه لم يكن واثقا من ذلك .. ومع ذلك فقد كان موقنا من ان نوعا من الحرارة قد سرى فى كيانها كله ، وكانه كان يشع من الأمل .. الأمل الذى بدا - من مظهرها القاسى الجاف البارد ، يوم زارته فى عيادته - انها كانت مجردة منه !

والمراة تعيش فى افكار الرجال الذين حولها ! وقد عاشت مسز تشبستو - فى تلك اللحظة - فى فكر ايزاكسون ، بصورة بدت اصغر سنا ، واقل شحوبا ، واوفر جمالا .. ولاح له ان زهوها وخيلاءها قد استيقظا بعد سبات ، وان تفكيره فيها قد زاد من قيمتها فجاة فى نظر نفسها ، وجعلها تعتقد انها قادرة على استمالته .. مع أنها ماحاولت قط أن تستميله فى المرة الأولى التى قابلته فيها .. ولكنه رآها - فى هذه المرة - تمضى الى عدة سلاحها لتنتقى منها السلاح المناسب الذى تطعنه به ، ومن ثم فقد بدا يفهم لماذا اختارت ان تجلس فى مواجهة الضوء فى هدوء وثقة .. ومن المحال ان يستطيع رجل مثل نيجل ان

يفهم مسز تشبستو الى القدر الذى يستطيعه الدكتور ماير أيزاكسون ٠٠ حتى اذا كان نيجل قد أحبها ، واذا كان ايزاكسون قد تعلم كيف يمقتها !٠٠ ولكن أيزاكسون لم يكن يمقتها فى هذه اللحظة ، وانما كاد يمقت فى نفسه تلك البصيرة التى أرشدته الى حقيقتها ٠٠ تلك القدرة على الاستشفاف التى كان يحملها فى أعماقه ، والتى طبقها عليها بنجاح عظيم !٠٠ وانبعثت تقول : « ترى ما الذى استبقاك فى هذه المدينة المقفرة يا دكتور أيزاكسون ؟ لقد حسبت اننى وحيدة تماما فيها ! » ٠ فقال : « لايزال بالمدينة من يظنون انهم مرضى » ٠ فتساءلت : « وهلا زلت تقول لهم انهم ليسوا مرضى ؟ » ٠ فاجاب : « ان هذا يتوقف على ظروفهم !»

ـ أعتقد انك اعتنقت هذه الفكرة القائلة بأن ما من أحد يعانى مرضا حقيقيا، كطريقة للعلاج ! على انه من المحقق ان فيها شيئا من الصحة ٠٠ فانا نفسى كنت أتصور انى مريضة ، حتى قلت لى اننى على ما يرام ٠ ومنذ ذلك اليوم حدث لى شىء ما ، أحسب أنه تأثيرك على ٠٠ ويبدو انه جعلنى فى خير حال بالفعل ٠٠ واعتقد اننى أثق فيك ٠٠ كطبيب !

ـ لماذا تفسدين كل شىء بهذا التحفظ الذى اختتمت به عبارتك ؟!

ـ آه ! ولكن مهنتك هى التى تحدد شخصيتك !

ـ هل تظنين اننى أغرقت انسانيتى فى بحر من الطموح ؟

ـ حسنا ٠٠ ها أنت ذا فى المدينة فى هذا القيظ الفظيع يوم العطلة !

ـ انما انا فى المدينة ، لكى احضر لزيارتك !

فهتفت : « وهل كنت واثقا الى هذا الحد من وجودى فى يوم كهذا ؟ » ٠٠ ثم رمقته بنظرة ملؤها السخرية والتهكم ، وهى تردف : « ولكن ، الا ترى ـ بصراحة ـ ان حب العلم يسيطر فى نفسك على كل عاطفة أخرى ؟٠٠ حب العلم ، وما يدره العلم عليك ؟ »٠ وهكذا مست نقطة الضعف فيه بيد ثابتة واثقة ٠٠ فقد كان لديه حب الكسب ، وكان بوساطة علمه ـ كطبيب ـ يكسب الكثير !٠٠ وأجاب : « ما اظنك تتوقعين منى ان أصرح بأن أى شىء يمكن ان يسيطر على ٠٠ فالرجل قلما يعترف بعبوديته حتى لنفسه ، اذا كان رجلا حقا» ٠٠ واذ ذاك قالت : «آه ! انك رجل حقا ، ولكن فيك شيئا من غرائز النساء !»٠ فلم يضطرب ، ولكنه سألها : « كيف عرفت ذلك ؟ » ٠ وكان جوابها : « لست أعرفه ٠٠ وانما أنا أحسه » ٠ فقال : « ان الاحساس هو المعرفة لدى المرأة !»٠ وكان تعليقها ان سألته : « وماهى المعرفة لدى الرجل ؟ »

ـ وهل تظن المرأة ان الرجل يعرف شيئا ؟

ـ من الرجال من أوتوا معرفة ٠٠ الرجال الخطرون ، مثلك !

ـ وفى أى شىء ترينني خطرا ؟

ـ لو أخبرتك لازددت خطورة ! اننى أكون حمقاء اذا انا ارشدتك الى

سلاحك !

ـ ولكنك لست فى حاجة الى من يرشدك الى سلاحك !

ولعل هذا القول منه كان اغراقا فى الصراحة الى حد القحة ، ولكنه شعر بانها لن تنظر اليه على هذا النحو ٠٠ وفى ذلك كان يمتدح بحق حسن ذوقها ، او انعدام الذوق عندها ! ٠٠ فانها لم تكن تبتغى فى الواقع ، من اى رجل ، رقة ولا توقيرا ٠٠ وقد يكون نيجل معذورا اذا ركع « للعذراء » ذات الوجه الشاحب ، اما هو ـ ايزاكسون ـ فكان موقنا من أنه يخاطب امرأة حاذقة جردتها الأيام من اسلحتها ٠ ولقد اعتاد في اتصالاته بالناس ان يرتاد شخصياتهم ، ولكنه لم يعتد ان يتعرف على شخصيته هو ، وان يتصل بها كما يفعل الانسان اذا ماتحدث الى نفسه فى حجرة مظلمة !

وابتسمت قائلة : « من النساء فئة قليلة تحتاج الى الارشاد ٠٠ اذا كان لديها سلاح ! » ٠٠ فسألها : « وهل تخلو احداهن من سلاح ؟ » ٠ وكان جوابها : « اجل ٠٠ هناك امرأة من هذا النوع » ٠٠ فقال فى فضول : «ترى من تكون؟»، فاجابت : « انها المرأة المفرطة فى الطيبة والصلاح ! »

وظل صامتا برهة ، وقد الجم لسانه ما لمسه من ضراوة تحديها ٠٠ وهى ضراوة اندفعت فجاة من اعماقها اندفاع السيف اذا انتزع من غمده ٠٠ وقال اخيرا : « اننى لا اعترف بذلك يا مسز تشبستو » ٠٠ وبدا فى تلك اللحظة كالرجل الذى يخاطب نفسه فى الظلام ، كما كان شان نيجل فى أكثر الأحيان ٠٠ وقالت المرأة : « طبعا لا ، فما من رجل يعترف بذلك » ٠ فسألها : « ولم لا ؟ » ٠٠ فكان جوابها : « لأن الرجال قلما يذكرون ـ حتى فيما بينهم وبين انفسهم ـ الأسلحة التى تقهرهم ٠ ولكن النساء يعرفن ما هى تلك الأسلحة »

ـ النساء اللائى على غرار مدام مارنيف ٠٠ اما امثال البارونة هيلو ، فلا !

ـ ان امثال البارونة هيلو لا يعتد بهن !

ـ اهى حقا براعة منك ان تشملى الرجال عامة بحكمك ؟ ٠٠ الا تفرقين بيننا البتة؟

وكان يتكلم دون اى امتعاض ٠٠ بل انه لم يشعر بشىء من ذلك حقا ٠ واجابت المرأة : « اننى افرق بينهم ٠٠ فى بعض الأحيان فقط ، وليس دائما ! ٠٠ فهناك حقائق عامة تنطبق على الرجال جميعا مهما يكن اختلاف الواحد عن الآخر ٠٠ وهناك اشياء معينة يشعر بها الرجال جميعا ، ويشعرون بها بشكل واحد » ٠٠ فقال متسائلا : « اينطبق هذا على نيجل آرماين وانا مثلا ؟ » ٠٠ وهنا لاح فى عينيها اللامعتين بريق خاطف ٠٠ اتراه كان وميض خبث ؟ ٠٠ ثم قالت : « اجل ٠٠ حتى مستر ارماين وانت ! »

ـ اننى لن اسالك ما هى هذه الأشياء

ـ لعل ذلك الشطر النسائى من نفسك قد انباك بها !

وتمهلت لحظة قبل ان تنطق بكلمة «النسائى» ، فاحس بأن الكلمة التى جالت

بخاطرها ، والتى ارادت ان تستخدمها هى : « اليهودى » ·· ومع انه كان يكره فيها معرفتها الوثيقة به ، لأنه كان يكرهها هى بالذات ، فان تلك المعرفة من جانبها أثارت الناحية العقلية فيه ، وبثت فيها نشاطا استعذبه · وقد احست المرأة باستمتاعه ذاك ، فضاعف ذلك من شعورها بقدرتها ·· وكان الحديث يجرى بينهما فى يسر وسهولة · وسرعان ما اكتشف ما سبق له ان حدسه الى حدما : ذلك انها كانت امضى ذكاء واوفر حذقا مما كان يظنها ·· ولكن عقليتها كانت تبدو له صلبة كالبرونز · وكما يعكس البرونز الأضواء ، كانت عقليتها تعكس الأضواء الباردة المنبعثة من طبيعتها ·· وبالرغم من تعميمها الآراء التى ذكرتها على جميع الرجال ـ بما فى ذلك الاعتراف الضمنى بايمانها وثقتها العميقة فى الاسلحة الجسمانية ـ فانها عرفت كيف تنتقى افضل أسلحتها ملاءمة لأيزاكسون · وكان عقله مسوقا الى الاعتراف بذلك ·· وفى هذا ايضا تجلت الحلقة التى تربط بينهما ! ·· فلما نهض اخيرا لينصرف ، قالت : « احسبك ستغادر لندن عما قريب ؟»

ـ اننى اتوقع ان أرحل فى الخامس عشر ·· وهل ستمكثين انت ؟

ـ اخشى ان يكون الامر كذلك ·· وربما تساءلت عما افعله هنا ؟

فاجاب بصراحة : «اجل» · واذ ذاك قالت : « اننى اقضى وقتا طويلا فى شرفتى ·· وقد كنت فيها عندما قدمت انت » · وتحركت قليلا نحو الشرفة وهى تستطرد قائلة : « الا تحب ان تشهد المنظر الذى اعيش فيه ؟ » ·· فاطاع قائلا : «شكرا» ·· وفيما كان يتبعها ـ خلال باب الشرفة المفتوح ـ فطن فجاة الى مدى ما اوتيت هذه المراة من فتنة جسدية طاغية ·· كانت حركاتها كلها تنطق بذلك ، وكانها ميزات اختصت هى بها ·· كانت هذه الحركات اشبه بجزء لا يتجزأ من شخصية معينة ·· شخصيتها هى ! كان لها ما لومضات العيون من تعبيرات ذات طابع فردى ·· ثم ، الم يكن فى خلقها ، وفى هذه الشخصية الفردية ، شىء ما ، يمتزج بكراهيته لها ، فيسحره ويفتنه ؟!

وجه الى نفسه هذا السؤال بينما كان يقف بالقرب منها فى الشرفة ·· وهب عليه ثانية قيظ لندن بهوائه الثقيل ، حتى فى هذا الارتفاع عن سطح الأرض ·· وكانت الشمس ساطعة متالقة ، والهواء ساكنا ساخنا ، والمنظر فسيحا مكشوفا ·· ومع ذلك فقد احس ايزاكسون بوحشة غريبة ، كوحشة المناطق الحارة ، خيل اليه انها اشد وطاة وثقلا على النفس من وحشة الشتاء ·· وقال : « وهل تقضين الكثير من وقتك هنا ؟ » ، فاجابت : « شطرا كبيرا منه ، اذ اجلس هنا وأنصرف الى مطالعة احد الكتب ·· افلا يستهويك هذا ؟ »

وانثنت تحول عينيها المتالقتين الواسعتين عن نظراته فى بطء ، وتتطلع من عل الى النهر ·· بينما قال : « انه يروق لى ·· ولكن لندن في يوم كهذا تبدو

مقفرة موحشة الى حد مخيف ٠٠ انك تحسين ذلك ولا ريب ! » ٠٠ فردت عليه قائلة : « لا ٠٠ لست اشعر بمثل هذه الأشياء فى هذا الصيف ! » ٠٠ وتبدلت نبرات صوتها وهى تنطق بهذه الكلمات ، فسرت فيه نغمة جديدة ، هى نغمة الانتصار ٠٠ او هكذا خيل الى ايزاكسون !٠٠ كانت الحرارة التى سرت فيها ـ كانها حرارة الأمل ـ قد شدت ازرها وبدلت كيانها ومظهرها معا !٠٠وعادت تقول فى هدوء ، وفى صوتها رعدة خفيفة : « ان للمرء موارده النابعة من اعماق نفسه ! »

واستدارت نحوه من جديد ٠٠ وبدا قوامها الفارع ـ وكانت اطول منه بنحو ثلاث بوصات على الأقل ـ جميلا فى وقفتها المعتدة المزهوة ، فى غير ابتذال ، والتى نمت عن رباطة الجاش ٠ وكانت يداها النحيلتان الدقيقتان تمسكان بسياج الشرفة فيما يشبه التشبث ، بينما انثنى عنقها الطويل فى حركة رقيقة عندما ادارت رأسها صوبه ٠٠ ولم يفت عينيه شيء مما تركه الزمن لها من جمال وحسن ، فقد كانت له عينان تزنان الأمور بميزانها الصحيح ٠٠ وعادت المرأة تقول : « اظننت ان ليست لى موارد نفسية ؟ » ٠٠ وهنا قرر فجاة ان يتحدث اليها بمزيد من الوضوح ، اذ كانت ـ حتى تلك اللحظة ـ قد احاطت حديثهما بسياج من التظاهر والادعاء ، ولكن عينيها كانتا تنظران اليه فى تحد واستفزاز، فلم يملك الا ان يرد على تحديها قائلا : « او نسيت مقدار ما اعرفه عنك ؟ »

ـ هل تعنى ٠٠ ماتقوله الشائعات عنى ؟

ـ اننى اعنى ما قلته لى عن نفسك ٠٠

ـ متى كان ذلك ؟ آه ! تقصد ما دار فى عيادتك ؟ وهل تصدق كل ماتقوله المرأة لك ؟

وافتر ثغرها عن ابتسامة ساخرة ، بينما كان يقول : « بل اننى اصدق كل ما قلته لى فى ذلك اليوم ـ فى عيادتى ـ كما انكر كل الانكار ما قلته لى ولمستر ارماين فى الليلة نفسها ، عندما التقينا بك وانت تتناولين عشاءك !» ٠فسالته : « وعلام تستند فى هذا الانكار وذلك التصديق ؟ » ٠٠واجاب : « هبى اننى اعتمد على غريزتى » ٠٠ فقالت : « فى هذه الحال اجيبك بان لك ان تصدقها بكل مافى وسعك ٠٠ ولكن لا تتوقع ان يصدقها كل امرىء بالمثل » ٠٠ ودوت كلماتها الأخيرة كوعيد ضاحك ، فقال فى هدوء : « ولماذا اهتم بان يصدقها الآخرون؟» ٠٠ فاجابت فى ابتسامة رقيقة : « اننى ادع لغريزتك ان تنبئك عن ذلك ياعزيزى الدكتور »

ـ حسنا ٠٠ لقد آن لى أن اودعك ٠٠ ان اتركك لمواردك النابعة من اعماق نفسك ٠٠ ولكنك لم تخبرينى ماهى ؟

فتساءلت : « ألا تستطيع أن تحدسها ؟ » ٠ وكان جوابه : « احسبها موارد روحية ! » ٠٠ فقالت : « لقد اصبت ٠٠ ايها الرجل الذكى ! »٠٠ ولذ ذاك

قال : « واين انجيلك المادى الذى كنت تعظينني – فى قوة وحرارة – بما جاء فى تعاليمه عن المقامرة ، ورحلات اليخوت ، والسباق ، وقيادة السيارات ، وارتياد المسارح ، والطعام والشراب ، عملا بمبدأ « اعمل لدنياك كأنك تموت غدا » ؟! أين تلك المباهج التى تلازم الحياة الدنيوية الراقية اليوم ، والتى قلت انك تستمتعين بها ؟ هل ابدلتها جميعا عن رضى وطواعية ، بالموارد الداخلية ؟ » ٠٠ فاجابت : « أجل ، بالموارد النفسية ! » ٠٠ ولم تطرف عيناها الباسمتان أو تشيحا عنه ٠٠ وخيل اليه انهما فى صلابتهما كانتا أشبه بجوهرتين لامعتين تتالقان تحت حاجبين رسمتهما يد بارعة ٠٠ وقالت : « وداعا ٠٠ وأرجو ان تزورنى ثانية ! »

وفيما كان ايزاكسون يقطع الردهة – فى تؤدة – منصرفا ، فتحت مسز تشبستو درج مكتبها ، فأخرجت منه حزمة من الرسائل كانت قد وضعتها فيه عندما طرق الخادم الباب ليعلن اليها وصول الطبيب ٠٠ وكانت الخطابات كلها من ٠٠ نيجل ارماين !

الفصل التاسع

◆ لم يذهب ايزاكسون لزيارة مسز تشبستو مرة أخرى ، قبل ان يغادر لندن فى اجازته السنوية ٠ ولقد هم – أكثر من مرة – بالذهاب اليها ، اذ كان ثمة شىء فى أعماقه يهيب به أن يفعل ٠٠ شىء لعله كان من الفضول الذهنى! ٠٠ على ان ثمة شيئا آخر كان يصد الطبيب عن الذهاب ٠ فلقد احس بأن المرأة كانت تتجاهل الجانب الطيب من نفسه ٠ ولكن ، فيم كان يعنيه رأيها فيه أو افكارها عنه ؟ ٠٠ وراح يوجه لنفسه هذا السؤال ، فلما قدر له ان يجيب عنه ، ألفى نفسه مضطرا الى الاعتراف بان هذه المرأة قد تركت فى نفسه أثرا محدودا ٠٠ اثرا قد لايرضيها ، ولكنه كان واضحا جليا ، وكان وضوحه ينم عن قدر من قوتها وسلطانها !٠٠ فلقد أحس انه برغم نفوره من مسز تشبستو ، وبرغم انه ذهب فى ذلك الى حد الاعراض عنها فى كراهية متقززة ، الا انه لم يكن من المستبعد – اذا قدر له ان يراها بكثرة – ان يبلغ به الأمر الى درجة الشوق الى مشاهدتها اذا هى غابت عنه !٠٠ انه ما أحس قط بمثل هذا الشعور من قبل نحو امرأة ٠٠ أفلا تشتمل الكراهية على شىء من الجاذبية؟!٠٠ وهكذا تبين ايزاكسون بجلاء – على ضوء كراهيته لمسز تشبستو – سر اجتذابها نيجل ٠٠ على ان الصراع الذى احتدم فى أعماقه – فى تلك الأيام القائظة من شهر اغسطس – انتهى الى انتصار «يهوديته» على فضوله الذهنى ٠٠ ومن ثم لم يعد ثانية الى فندق سافوى

وقضى اجازته فى الخارج ، على ضفاف بحيرة (كومو) ، وحيدا منفردا ٠ فقد

كان يعمد – فى كل عام – الى اعتكاف كان يحس بحاجة ماسة اليه بعد عمله المضنى طوال العام .. ذلك العمل الذى كان يقتضيه مخالطة الناس دواما .. وكان ، فى عزلته تلك ، يصيد السمك فى البحيرة الخضراء ، أو يمارس الرسم فى الحديقة الغناء بالفندق الذى كان شبه خاو .. وكان يقضى بضع ساعات من كل يوم فى دراساته العلمية . وقد انصرف فى هذا الصيف الى القراءة عن مفعول بعض أنواع من السموم غير المألوفة ، فكانت له ساعات عجيبة مع تلك الأبحاث ، اذ كان موفور الخيال ، فكان اذا استغرق فى القراءة تمثل تلك العناصر المدمرة فى صور كائنات حية .. وبعد فترات طويلة من الانكباب على صفحات كتبه او أوراق مذكراته ، كان يرفع رأسه أحيانا فيقع نظره على مياه البحيرة الخضراء الساكنة ، والجبال الخضراء الرقيقة المعالم ، الرفيعة الذرى ، وقد شرعت قممها فى كبد السماء .. واذ ذاك كان يرتد من رحلته فى دروب الرعب والفزع ، فيمر به ما يطوف بالمسافر المنهوك القوى من دوار ، ويحملق مشدوها فى الجمال الذى كان يصافح عينيه هنا وهناك .. فاذا عمل بالليل ، كانت جولات العقل السريعة فى مسالك الفكر – ساعات طويلة – تصم اذنيه عن الأصوات المنبعثة فى الخارج ، ثم لا يلبث ان يفيق على رنين الأجراس .. أجراس المياه الهادئة ، او أجراس البر الحالم .. وعندئذ كان يرفع رأسه ويصيخ السمع .. ويظل ينصت حتى تستحوذ على مشاعره غرابة الليل ، وغرابة الدنيا بما تضم عليها جوانحها من جرائم مروعة ومفاتن ناعمة ، فتثير نفسه ، وتأسر روحه .. ويروح يقارن بين الحياتين : حياته هذه بجانب البحيرة الهادئة ، وحيدا ، منصرفا الى البحث والأحلام .. وحياته تلك فى ضجيج لندن وعجيجها ، وأمواج الناس تتدفق على حجرته .. وعندئذ يخال نفسه رجلين .. بل لعله اكثر من اثنين !

وسرعان ما انقضت الأسابيع الأربعة بجوار البحيرة ، وتلتها جولة اسبوعين فى (ميلانو) و (ميونيخ) و (برلين) و (باريس) .. حتى انتهى به المطاف الى الوطن من جديد . ولم يكن قد سمع شيئا عن نيجل خلال رحلته .. ولا عن مسز تشبستو !

ولفظ سبتمبر انفاسه بين ذراعى أكتوبر السمراوين ، ثم تلقى ايزاكسون خطابا من نيجل كان مرسلا من (ستاك هاوس) – وهو كوخ للصيد فى اسكتلندا – يبشر بعودته فى القريب الى الجنوب .. وقد كتب فيه : « اننى أمارس الصيد مع هارويتش ، ولكن الوقت حان لأفكر فى عودتى الى مصر .. واذا كنت لم اكتب لك من قبل ، الا اننى كنت أريد ان أشكر لك زيارتك لمسز تشبستو ، فانك لا تتصور مدى اغتباطها وتقديرها لتلك الزيارة .. وقد سرت كثيرا لحديثك الطلى وروح الدعابة التى سادته ، ولكن ابتهاجها كان أشد لعطفك ورقة شعورك .. الا انها فى الآونة الأخيرة قد حرمت هذه النعمة ، مما أثار أشجانها .. يا الهى ! لو أن البشر أدركوا يا ايزاكسون ما للقليل من العطف الصادق من

قيمة لدى اولئك الذين قلبت لهم الدنيا ظهر المجن ، لما توالوا عن البذل بسخاء، ولو ليحظوا فى مقابل ذلك بحرارة الوداد ! ولكنهم لا يدركون !٠٠ وكم افكر – احيانا – فى اصدق شىء قيل منذ الخليقة ، وهو : « انهم لا يعلمون ماذا يفعلون » ٠٠ فلو اضفت اليه : « وما يغفلون عمله » ، لوجدت تفسيرا لمعظم مافى العالم من تعس وشقاء ٠٠ الى اللقاء ايها الصديق الحميم ، وسوف احضر الى ميدان كليفلاند بمجرد عودتى الى لندن ٠٠ وشكرا لك على تلك الزيارة – المخلص الى الأبد : نيجل ارماين »

وكان هيام نيجل يبدو واضحا ، وكانه ينبعث من ورق الخطاب ، بينما كان ايزاكسون ممسكا به بين يديه ٠٠ « عطفك ورقة شعورك » ! اذن فقد تاثرت مسز تشبستو بعطفه ورقة مسلكه ٠٠ مسلك ايزاكسون !٠٠ ما من شك فى انها ونيجل يتبادلان الرسائل ٠٠ وتذكر ايزاكسون اسارير الانتصار التى كانت تتبدى بين الحين والحين فى لهجتها ٠٠ اذن فقد كانت تتلقى الرسائل من نيجل اثناء غيبته عن لندن ، وكانت هذه الخطابات مبعث الأمل الذى تجلى على محياها ! ٠٠وتمثلها ايزاكسون فى الشرفة وهى تتامل النهر :الم تكن تتطلع اليه كما تتطلع الروح البشرية الى مجال مامول تنطلق فيه ؟٠٠ وعندما تذكر التعبيرات التى تجلت على اساريرها وفى مسلكها ، الفى هذه التعبيرات تزداد وضوحا ، وادرك اذ ذاك معناها الذى طالت حيرته فى تفسيره !٠٠ ومع ذلك ، فان نيجل لم يفض بشىء عن علاقته بمسز تشبستو ، وقد استطاع ان يبقى – طوال هذه المدة – بعيدا عنها ، وما من شك فى ان مثل هذا الغياب يعد غريبا، ويبدو مخالفا لما كان يرتقب منه ، بعيدا عن طباعه المندفعة فى تحمسها ، اذا صح تقدير ايزاكسون لهذه الطباع ٠٠ ولكن ، هب ان تقديره غير صحيح ٠٠ الا يجوز ان يكون هذا النبع الدافق من الشفقة الانسانية – فى نفس نيجل – خداعا ؟

لقد قال ايزاكسون يوما : «ان الاحساس هو مصدر المعرفة عند المراة»، وها هو ذا يضيف الى هذه العبارة فى ذهنه : « وعند الرجل احيانا » ٠ وقد خامره كثير من الأحاسيس ازاء هذا الأمر ، ولكنه جهد فى تنحية هذه الأحاسيس جانبا ٠ على انه لن يلبث أن يعرف الحقيقة عما قريب ٠٠ وحتى ذلك الحين ، فمن العبث ان يحاج او يجادل ٠٠ ثم ان لديه أعمالا كثيرة تصرفه عن ذلك !

* * *

◆ ولم يعد نيجل الى لندن حتى اواخر اكتوبر تقريبا ٠٠ وكانت الأوراق تتساقط من الأشجار ككتائب تتهاوى صرعى فى الميدان ٠ وبدات رياح

الخريف تعود من جديد ، ومعها أمطار الخريف ، التى تكتسح – فى نشاط حزن – آخر آثار الصيف الحلوة .. وفى كل مكان من الريف والمدينة ، خيم ذلك الجو المقبض المنذر بنهاية العام ، والذى قلما يخفق – بل انه لا يخفق البتة – فى اسباغ ثوب قاتم من السحب الكثيفة على السنة المحتضرة .. فى انجلترا ! .. وكان الانقباض الذى يحل بالناس فى هذا الفصل – والذى يعتبر من صفاته المميزة – يبعث بهم الى الأطباء .. وهكذا كان الدكتور ايزاكسون يجلس فى عيادته ، يوما بعد يوم ، يصف من العلاج لأذهان الرجال أكثر مما يصف لأبدانهم ، ويعيش مع نفوسهم المعذبة أكثر مما يعيش مع امراضهم الجسمانية .. ولقد كان الأثر الذى راح مرضاه يخلفونه فى نفسه – فى ذلك العام – يزيد على المألوف ، فكان يشعر وهو يزيل عنهم امراضهم ، بانه ياخذها لنفسه ، وان هواجسهم كانت تنتقل الى ذهنه كما تنتقل الجراثيم من بدن الى بدن ، وانهم اذ يلجاون اليه انما يبتغون به شرا ! .. وكان يقول لنفسه ان الأجازة التى حصل عليها لم تكن كافية لراحته ، ولكنه لم يفكر لحظة فى ان ينقص من عمله .. فقد كان النجاح يجرفه ويدفعه نحو المزيد من العمل المرهق ، وكانت قابليته للعمل تزداد بازدياد توفيقه ، وقد سره نمو ثروته !

واخيرا طرق نيجل بابه قادما لزيارته ، ولكن ايزاكسون لم يستطع لقاءه ، فبعث اليه بكلمة يحدد فيها موعدا للقائهما فى المساء .. وكان عليهما ان يلتقيا فى الساعة الثامنة فى حفلة موسيقية فى « قاعة الملكة » . ولقد تاخر ايزاكسون قليلا عن موعده ، فلما وصل دخل القاعة فى سرعة اثناء فاصل بين حركتين من سيمفونية تشايكوفسكى – التى سماها « السيمفونية الحزينة » – فوجد نيجل فى مقعده .. وجلس الى جواره بعد أن تبادلا التحية .. وفى تلك اللحظة رفع رئيس الفرقة عصاه ، وبدات الحركة التالية ..

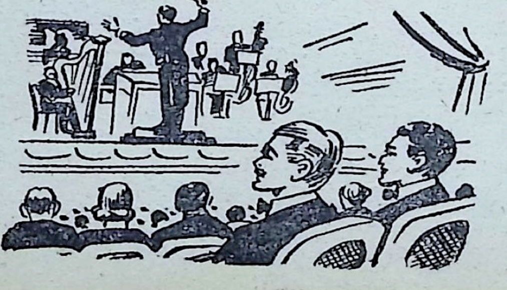

وكانت فى اللحن الموسيقى خفقات كخفقات القلب ، تنبض بالحاح دائب ، فى اتساق جميل ورتابة رهيبة فى آن واحد ! وكان ايزاكسون كثيرا ما استمع الى هذه السيمفونية ، فغرق فى الأثر المزدوج لهذه الرتابة : اثر الجمال ، واثر الرهبة ، وقد اتحدا فى امتزاج غريب ! .. على ان ما للموسيقى من شجى غامض كان فى تلك الليلة اكثر استهواء له ، واثارة لآلامه .. ولعله كان مكدودا ، او ربما كان ثمة سبب آخر لم يدر كنهه .. كانت الخفقات الرتيبة أشبه بنبض الحياة ! تلك الحياة التى كان والرجل الجالس الى جانبه مضطرين الى خوض غمارها لفترة من الزمن ، ثم لن يلبثا ان ينطلقا منها يوما من الأيام ، سواء أكان ذلك بمشيئتهما او رغم أنفيهما ! .. نبض الحياة ! .. وانتقل عقله فجأة من التعميم الى التخصيص ، ففكر فى نبض المرأة : فى قوته ، وانتظامه ، وقسوته .. وخيل اليه انه يشعر تحت اصابعه بنبض مسز تشبستو بالذات ، فأدرك انه انما فكر فيها لأن نيجل ارماين كان يفكر فيها ايضا ، وانه قرنها بالموسيقى لأن نيجل ارماين كان ـ مثله ـ يقرنها بالموسيقى ! فاغاظ ذلك ايزاكسون ، فجهد فى تخليص عقله من التفكير فى مسز تشبستو ، ولكن جهوده ذهبت عبثا .. كان نبضها تحت اصابعه ، وفى كل خفقة منه كان شعوره بسر الحياة وقسوتها يزداد حدة !

وعندما انتهت الحركة الموسيقية ، لم ينبس ببنت شفة .. لا ولم ينظر الى نيجل .. وبينما كانت النغمات الأخيرة للسيمفونية تتلاشى هابطة الى هوة من الشقاء والظلمات ، لم ينطق بحرف ، ولم يتحرك فى مكانه .. كان يشعر بنفسه محطما مهدم القوى ، كشخص ضرب ضربا مبرحا ! .. ولكنه ما لبث أن سمع صديقه يهتف : « ايزاكسون » ، فاجاب : « نعم ؟ » . واستدار قليلا فى مقعده ، بينما كان نيجل يقول : « يا لها من موسيقى عظيمة .. ولكنها خطا فى خطا ! » . فتساءل : « ولماذا ؟ » . واجاب صاحبه : « خطا فى الدرس الذى توحى به ! »

ولم يتمالك الفنان الكامن فى نفس ايزاكسون من اخفاء الرعدة التى مرت بجسده .. وقال : « لست أنشد دروسا .. ولست اريد ان اتلقى درسا منها » .. فرد نيجل قائلا : « ولكن المؤلف يرغم المرء على ذلك .. انه درس فى الياس ، وفى اقرار المرء بعجزه .. فلا جدوى البتة من اى مجهود تبذله ، لأن « الارادة الأزلية » تفرض مشيئتها عليك .. وينتهى بك الأمر اخيرا الى الاستسلام والخضوع .. ان هذه الموسيقى اكذوبة عظيمة ! انها جميلة رائعة ، ولكنها اكذوبة ! » . ولم يبد ايزاكسون رايا ، بل قال متسائلا : « الا تحب أن نخرج قليلا ؟ ان لدينا عشر دقائق للاستراحة »

وانطلقا الى الردهات الخارجية حيث اخذا يسيران الهوينا ذهابا وجيئة ، وهما يمران ـ مرة بعد أخرى ـ بغيرهم ممن كانوا يتناقشون فى الموسيقى .

وراح نيجل يتابع حديثه : « ان مثل هذه الموسيقى تثير حنقى وحفيظتى ، وتجعلنى أحس باننى لن أتخاذل أمامها ! » ، فلم يتمالك ايزاكسون نفسه من الابتسام ، وقال : « ليس بوسعى أن أنظر الى الفن من زاوية خلقية » . فقال نيجل متحمسا لفكرته : « بل من المحقق ان الفن غالبا ما يجعلك تتجه فى تفكيرك اتجاها خلقيا : سواء أكان قويما أو منحرفا .. ومن المحقق كذلك انه يمدك بحوافز ودوافع ترتبط بالحياة وبالناس » .. فنظر اليه ايزاكسون قائلا : « لا أنكر قولك ، ولكن هذه الحوافز أشبه باطياف « بروكن » المعتمة .. مجرد صور غامضة لا تلبث أن تتلاشى سريعا ويبتلعها الظلام .. والموسيقى العظيمة ، وان كانت متناسقة فى تكوينها ، الا انها غالبا ما تخلق فى نفوس أولئك الذين يستمعون اليها خليطا من الأحاسيس المضطربة ».

– اذن فلا بد أن هذه الموسيقى تثير فيك القنوط ؟!

فأجاب الطبيب : « أجل » . واذ ذاك قال نيجل : « ولكنها تثير فى نفسى الرغبة فى القتال ! » . فهتف ايزاكسون : « ماذا ؟ » ، فاستأنف نيجل الحديث قائلا : « القتال ضد جميع شرور الدنيا وأحزانها .. فاننى أمقت اليأس » .. وتطلع ايزاكسون اليه مرة أخرى ، فتبين مبلغ ما كان يبدو عليه من القوة ، ومن المرح ، فقال له : « لقد أفدت كثيرا من اقامتك فى اسكتلندا .. فانت الليلة رائع البهاء » . وكان يرمى الى فوق ما فى هذا التعبير من معنى . فقد تبدى له فى صديقه – فى تلك الليلة – بهاء وروعة كانما خلقتهما قوة كامنة فى أعماقه ، تملأ نفسه اشعاعا واشراقا ، وتكشف عن سحرها بما كانت تسبغه على قوامه وأساريره !

وقال نيجل : « اننى أتطلع الى الشتاء فى لهفة » .. فتذكر ايزاكسون رنة الانتصار التى تخللت صوت مسز تشبستو وهى تقول : « لست أحس بمثل هذه الأشياء فى هذا الصيف » ، وكانت تقصد وحشة لندن واقفارها .. لا مراء فى أن نيجل كان يردد الآن صدى هذه النبرة .. وفى تلك اللحظة دوى رنين الجرس الكهربائى ، فعادا الى مقعديهما فى القاعة حيث لبثا حتى انتهت الحفلة الموسيقية ، فخرجا يسيران معا فى (ريجنت ستريت) .. وكان الشارع كئيبا مليئا بالضباب والضوضاء المزعجة ..

وقال ماير ايزاكسون : « متى ترحل الى مصر ؟ » .. فأجاب نيجل : « فى خلال عشرة أيام ، على ما أحسب .. أتتمنى لو انك كنت مسافرا الى هناك ، انت الآخر ؟ » . فقال ايزاكسون فى تحسر : « لست أجد مهربا من هنا » .. فعاد نيجل يتساءل : « ولكن .. هل تود ذلك ؟ » .. وظل ايزاكسون لحظة لا يحير جوابا ، ثم قال بعد الصمت : « أحب ولا أحب ! ان العمل يقيد المرء بشكل غريب ، اذ انه يشدد قبضته على نفس المرء وروحه ، اذا كان بطبعه مجدا دؤوبا .. ان شطرا منى يريد الفرار .. بل كثيرا ما يريد الفرار ! »

.. وهنا صاح نيجل : « أما أنا فان كيانى كله ينشد الفرار »

وتلفت حواليه ، فاذا بعض الناس يبحثون عن « المتعة » فى الظلام ! .. ورآهم يقفون عند زوايا الشوارع ، يحدقون فى ترقب خشية أن يفقدوا تلك النشوة الشكلية ! .. وكانت العربات تحمل الناس أزواجا ، وتسرع بهم حتى تغيب فى الشمال والجنوب ، مختفية فى الظلام ، فهتف يقول : « شد ما أود أن أذهب الى النور ! » .. واذ ذاك ، أشار ماير ايزاكسون الى الأضواء المتلألئة فى ميدان (بيكاديللى) ، وقال : « حسنا ، ها هو ذا أمامنا ! » .. فقال نيجل : « بل اننى أريد أن أذهب الى النور الحقيقى .. نور الشمس .. وأريد كل امرىء غيرى أن يذهب اليه كذلك ! » .. وهنا قال الطبيب : « ان اندفاعك العاطفى يلازمك فى كافة نواحى حياتك ! .. أتود أن تحمل العالم معك الى مصر ؟ »

فأمسك نيجل بذراعه قائلا : « يخيل الى ان من الأنانية أن يذهب المرء بمفرده ! » . وهنا ساله ايزاكسون : « وهل ستذهب بمفردك ؟ » .. وانطلق السؤال من بين شفتيه فى عناء ، فقد كان عقله لا يفتأ يفكر فيه طول الأمسية ، واذا به يصوغه فى كلمات يدفع بها الى لسانه دفعا .. وشددت أصابع نيجل القوية الضغط على ذراعه وهو يقول : « لست أريد الرحيل بمفردى » .. فقال الطبيب : « أما أنا فخير لى أن أظل وحيدا ، من أن لا أحظى بالرفيق الذى يلائمنى تماما .. الرفيق الذى يستطيع أن يشعر ويفكر معى ، بنفس الطريقة التى أشعر وأفكر بها . فكل صحبة على غير ذلك انما هى صحبة مدمرة ! »

وكان ايزاكسون يتكلم وقد خانته سيطرته العادية على مشاعره .. كما كان فى أسلوبه شىء من الحرارة الكامنة .. واذ رأى نيجل لا يحير جوابا ، استطرد قائلا : « ألا تتفق معى فى ذلك ؟ » ، فقال صاحبه : « قد يستطيع الناس أن يتعلموا وحدة المشاعر والأحاسيس ! » .. فتساءل الطبيب : « هل تعنى انه اذا اجتمعت نفسان ، فان القوية منهما قد تسيطر على الضعيفة من تلقاء ذاتها ؟ .. اننى لا أحب أن أخضع لأحد ، ولا أحب أن أسيطر على أحد ، وانما أحب الاستقلال المتبادل الذى يصحبه اشتراك العاطفة اشتراكا كاملا ! »

وفيما كانت هذه الكلمات تنبعث من شفتيه ، ذكر فجاة تزمته هو شخصيا، فضحك فى تهكم وهو يستطرد قائلا : « ولكن اين نجد ذلك ؟ ان الذين يرضون بالقليل على حق فيما يفعلون .. ولكنك فيما احسب .. تتطلع الى اكثر مما اتطلع اليه ، على نحو ما » .. واضاف العبارة الأخيرة على سبيل التلطف ، اذ تذكر مدى تفوقه فى الذكاء على نيجل . فقال هذا : « اننى احب

ان أؤثر بعطانى اولئك الذين لا يرتقبونه ! ٠٠ اف ! شد ما ابغض هذا الميدان »

ـ هلا ركبنا عربة وذهبنا الى ميدان كليفلاند ؟

ـ اجل ٠٠ سوف آتى معك قليلا

وعندما استقرا فى المنزل قال نيجل : « اننى احب ان اشكر لك زيارتك لمسز تشبستو » ٠٠ ولفظ هذه العبارة بسرعة مباغتة ، شأن الرجل الذى يظل مدة من الوقت معتزما ان يقول شيئا ، ولا يلبث فجاة ـ فى شيء من العناء ـ ان يؤدى ما اعتزم ٠٠ وهتف الطبيب : « ولماذا بحق السماء تود ان تشكرنى ؟ » ، فاجاب : «لأننى سالتك أن تزورها» ٠٠ فقال ايزاكسون : « اما زالت مسز تشبستو فى لندن ؟ » ٠ وكان جواب نيجل : « بلى ٠٠ وقد رايتها اليوم ٠٠ انها تتحدث عن الذهاب الى مصر لقضاء الشتاء »

ـ فى القاهرة على ما اظن ؟

ـ احسبها قد ملت الاقامة فى المدن !

ـ اذن فستذهب شمالا فى مجرى النيل ؟

وكان ينهض بين الرجلين حاجز من التحفظ ، احس به كل منهما حادا ، صلبا ٠٠ وما لبث نيجل ان قال : « لسوف اعنى بها اذا ذهبت ، وان لم يكن هذا محققا » ٠٠ ولم يقل ماير ايزاكسون شيئا ٠ وبعد صمت ثقيل ، غير نيجل موضوع الحديث ، ثم ما لبث ان انصرف بعد قليل ٠ فما ان مضى لشانه حتى عاد ايزاكسون الى حجرة الجلوس بالطابق الأعلى ، واشعل نرجيلته ! ٠٠ كان قد اطفا جميع المصابيح الكهربائية الا واحدا ٠٠ ولما كان يجلس وحده فى الحجرة الصغيرة الخافتة الضوء ، ممسكا بخرطوم النرجيلة الطويل الثعبانى بين يديه الرقيقتين ، اللتين كانتا تشبهان أيدى الفنانين ، لاح كانه يهودى من الشرق ، ولو انه وضع طربوشا فوق رأسه ، لانسلت اوروبا من عروقه قطرة فقطرة ! ٠٠ حتى تعبيرات وجهه تراءت شرقية كاملة ، فى ذكائها الأسمر المتالق ، وفى صبرها الناشىء عن دهاء !

« لسوف اعنى بها ! » ٠٠ ان هذه العبارة اذا ما صدرت عن امراة كمسز تشبستو ، من رجل فى شباب نيجل ارماين وقوته وعاطفته الجياشة ، فلن يكون لها سوى أحد معنيين : ان تصبح هذه المراة خليلته ، او أن تغدو حليلته !٠٠ فاى المعنيين كان يقصد ؟٠٠ وحاول ايزاكسون أن يستدل على ذلك من لهجة نيجل او مسلكه : لقد كان صديقه يبدو حائرا مضطربا ، بل لاشك فى انه كان حائرا مضطربا ! ولكن ربما كان ذلك ناشئا عن شيء فى مسلكه هو ـ اى ايزاكسون ـ او هيئته ! ٠٠ ومع ان نيجل كان شديد الاندفاع وراء عواطفه ، صلب العزيمة ، الا انه لم يكن بالذى يغفل عما يدور فى ذهن شخص يحبه ويعجب به ٠٠ فلعله شعر بتجرد ايزاكسون من

العاطفة نحو تلك المرأة ، بل بعدائه السافر لها .. أو لعله – من ناحية أخرى – كان حائرا مرتبكا بسبب احساس من التخاذل والضعف ألم به .. فكثيرا ما يتكلم الرجال عن السمو بالآخرين ، وهم أنفسهم يوشكون على التردى .. أفكان نيجل يزمع انشاء علاقة آثمة مع هذه المرأة التى كان يشفق عليها ؟ .. وهل كان يشعر بالعار مقدما ؟

ان الزواج قد يكون جنونا صارخا ، ومع ذلك فقد كان فى نفس ايزاكسون شىء راح يرجو اذ ذاك أن يكون نيجل قد فكر فى الزواج .. ولم يكن ذلك الشىء سوى اعجابه الخفى بالفضيلة الكامنة فى صديقه ، اذ ان عملا كهذا يتلاءم مع خلق نيجل ، أما العلاقة الآثمة .. ومع ذلك فان نيجل ليس قديسا !

وفكر ايزاكسون فيما قد يقوله الناس ، فتبين فجأة حقيقة عاطفته نحو صديقه .. فلقد آلمته فكرة القيل والقال ، بل لقد روعه التفكير فى الأقاويل والحقائق المرة ! ان علاقة آثمة كهذه لن تجلب سوى الاشمئزاز أو ضحكات السخرية من العاطفة الحيوانية المسيطرة على الرجل ، اذ تتبدى سافرة فى نيجل ! .. أما الزوج ، فسيكون فى نظر الناس « مجنونا أرعن » ! .. ولم يستطع عقل ايزاكسون أن ينكر ان مثل هذا الحكم سيكون منطويا على عدل .. ومع ذلك ، فمنذا الذى لا يحب – فى دخيلة نفسه – المكافح الذى يحتضن القضايا الخاسرة ؟!

« سوف أعنى بها ! » .. ان العبارة كانت أصدق تعبيرا عن الطريقة الفجة الدنيئة لامتلاك هذه المرأة .. اذ يبدو ان الرجال قد خلقوا ليسقطوا !

وانتهى الطباق من النرجيلة ، ولكن ايزاكسون ظل جالسا فى مكانه .. انه لن ينتقد نيجل قط ، مهما يحدث .. فان الجذوة القدسية فى الرجل سوف تلتهم النقد .. وكان ايزاكسون يعرف ذلك ، بل كان يحب أن يعرف ذلك ، على نحو ما ! .. ومع ذلك ، فكم من دموع وراء ذلك .. دموع من أجل القضاء الذى لا سبيل لتفاديه ، والذى لا يجلب سوى الأسى ! .. وخيل اليه انه يسمع من جديد السيمفونية التى استمع اليها مع نيجل فى تلك الليلة .. نبض الحياة الذى لا يكف ، وجمال رتابته وبشاعتها معا ! .. خيل اليه انه يسمع خفقات الحياة الدائبة ، كأنها خفقات قلب حزين ، لا يملك أن يكف عن الوجيب !

وطرق النافذة وابل من أمطار الخريف الدافقة ، فبارح ايزاكسون مكانه وأوى الى فراشه

الفصل العاشر

• قلما كان ماير ايزاكسون يسمح لقلبه بأن يناضل ما كان العقل يمليه عليه · وكان الاكثر من ذلك ندرة ان يعضد قلبه متعمدا فى معركة كهذه ، وهو يشرف عليها كأحد آلهة الأساطير الأقدمين ·· ولكن الرجال جميعا تعترض حياتهم أوقات يخادعون فيها أنفسهم ، وقد لا يكون بعض هذه المخادعات متسما بالحذق ، ولكنه لا يخلو من النبل ·· وكانت احدى هذه المخادعات هى التى قادته فى اليوم التالى الى الكتابة لمسز تشبستو يسألها موعدا للقاء ، قائلا : « هل لى ان أراك على انفراد ؟ » ·· ووافاه الرد فى المساء :

« **عزيزى الدكتور : لقد ظننت انك نسيتنى تماما ··وانى لأحتفظ بذكرى سارة لزيارتك لى فى الصيف ، فالحق انها جعلتنى أدرك للمرة الاولى ان يوما مثل « يوم عطلة البنوك فى أغسطس » يجب ان لا يكون بطبيعته يوم حزن وضغينة واكتئاب ! ·· فأرجو ان تعاود مثل هذه الزيارة ·· ولعلمى انك مشغول دواما فى اقناع الناس بأنهم يتمتعون بصحة كاملة ، فليكن حضورك يوم الاحد القادم لتناول الشاى فى الخامسة ·· وسوف أبعد عنى جمهور الهتافين الصاخبين حتى نستطيع ان نناقش معا أى أمر ذى شأن يمكن ان يعرض لنا — المخلصة : روبى تشبستو** »

كان ذلك فى يوم الأربعاء ·· وراح ايزاكسون يقرأ الرسالة ويعيد تلاوتها مرة بعد أخرى ·· وشد ما أسف على الايام التى يجب ان تنقضى قبل أن يحل يوم الاحد ، فقد خشى ان يندم على مخادعته نفسه ! ·· ولم تقض هذه الرسالة على خوفه وخشيته ، اذ تملكه الندم أكثر من مرة ·· ثم قدر له ان يلتقى بنيجل ، فتعمد — مرة أخرى — ان يؤازر قلبه فى معركته مع العقل ، فلم يقل لنيجل شيئا عن الزيارة الموعودة ، ولم يقل له نيجل شيئا عن مسز تشبستو · وعجب ايزاكسون لهذا

التحفظ الذى بدا له غير طبيعى فى نيجل ٠٠ وألفى نفسه ـ أكثر من مرة ـ يفكر فى أن نيجل قد ندم على ما قاله عن احتمال زيارة مسز تشبستو لمصر ٠٠ ولكنه لم يكن واثقا من ذلك !

وفى يوم الاحد ، وصل الى فندق سافوى بعد الخامسة ببضع دقائق ، فاقتيد الى حجرة مسز تشبستو ٠ وكانت ظلمة الخريف قد أطبقت على لندن ، فلما دلف الى الحجرة ـ التى كانت خالية ـ وجد الستائر مسدلة على النوافذ ، والنور يسطع باهرا ، والنار تتأجج فى المدفأة ، وقد مدت بالقرب منها مائدة الشاى ، بجانب أريكة كبيرة أقيمت بعيدا عن الجدار ، وفى زاوية متعامدة معه ٠٠ وكانت باقات من القرنفل الأبيض تملأ الزهريات المتناثرة : فوق المدفأة ، وعلى منضدة الكتابة ، وفوق البيانو الصغير ٠٠ وكان المعزف مغلقا ، ولا أثر يبدو لنوتة لحن « جيرونتيوس » !٠٠ ووقف ماير ايزاكسون لحظة ينظر حواليه ، ويتنسم جو الحجرة ، أو يحاول على الاقل أن يحس به ٠٠ **ألم تكن فى الصيف تبدو متسمة بشىء من العزلة والوحشة ؟ لقد كانت اذ ذاك حجرة يبتغى المرء الفرار منها ـ برغم مافيها من أثاث مريح وألوان جميلة ـ أما فى هذه المرة فكانت تبدو زاهية ، أنيقة ، توحى بالامل والرجاء !٠٠ نعم ، لقد اشتم فيها جوا ملؤه الامل !**

وانبعث صرير الباب ، ودخلت مسز تشبستو ٠٠ وكانت ترتدى ثوبا وردى اللون يغطى صدرها ، وله أكمام ضيقة تغطى جزءا من ساعديها ، فتزيد من رقتهما الجذابة ٠٠ وكان الثوب بسيطا ، محكما على قوامها الجميل ٠ ولم تكن ترتدى قبعة ، ولكن ايزاكسون لم يسبق له ان فطن من قبل الى طولها الفارع كما فوجىء به فى هذه المرة ٠٠ كانت ـ وهى تدخل الحجرة ـ تبدو مفرطة فى الطول ، كما كان فى هيئتها تغيير واضح ، ظل ايزاكسون برهة لايدرى ماهو ٠٠وما لبث

ان رأى انها قد مست وجنتيها مسا رفيقا بطلاء أحمر ، فبدل ذلك من هيئتها تماما ، وأظهرها أصغر سنا ، وأكثر تألقا ٠٠ ولكنه جعلها فى الوقت نفسه تبدو أقل احتشاما !

وابتسمت فى اغتباط وهى تصافحه ، وسرعان ما غمرته بجو من البهجة والانشراح ، جعله يقف ذاهلا مشدوها ٠ وبينما كانت تمسك بيده ، ضغطت زر الجرس ، ثم قادته الى الأريكة فأجلسته فوقها فى نوع غريب من المداعبة والألفة ٠٠

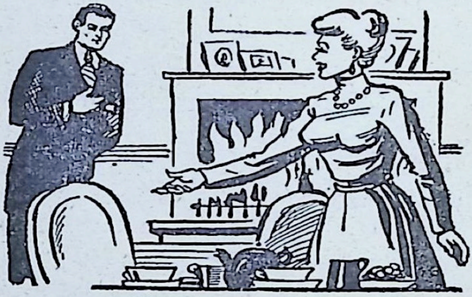

وقالت : « هذا خير من يوم عطلة البنوك القائظ ٠٠ وانى لأعلم انك قد أشفقت على يومذاك ، وكنت تعجب كيف أستطيع أن أحتمل ذلك الجو ٠٠ ولكنى قد حجبت منظر النهر اليوم ، ويسرنى انك لم تحضر ثانية الا بعد أن تيسر لى أن أحصل على النار والنور ٠٠ اننى أحب الشتاء الانجليزى ، ألست مثلى ؟ فالمرء يضطر فيه الى أن يدبر هذه الأشياء اللذيذة التى يبعد بها التفكير عنه فى الشتاء ! أما فى الأماكن الحارة فى الخارج - تلك التى يهفو الناس اليها دائما - فليس فى وسع المرء على مدار العام أن يحظى بحجرة كهذه ، وساعة كهذه ، بجوار نار متأججة ، وستائر مسدلة ٠٠ وصديق ! »

واذ كانت تنطق بهذه الكلمة الأخيرة ، خالطت صوتها

نغمة حلوة حقا .. نغمة لا شك فى جمالها لما كانت تحتويه أو توحى به من عاطفة صادقة ! .. **وكانت هذه النبرة وحدها تنم عن قدر من الصداقة لا يستطيع مقال كامل من مقالات « ايمرسون » أن يصوره ! كانت جاذبية هذه المرأة أشبه بكتاب تقلب صفحاته - واحدة بعد الأخرى - من أجل ايزاكسون .. وكان صوتها أقوى ألوان هذه الجاذبية - المتعددة الألوان - وأشدها أثرا !**

وأتى الساقى بمعدات الشاى ، فلما انصرف ، صار فى وسع الطبيب أن يتكلم ، ولكنه لم يكن يدرى ماذا يقول ، فقلما أصابه الاضطراب وتزعزت سيطرته على نفسه بمثل ما ألم به اذ ذاك .. فلقد أحس بأنه فى موقف خاسر .. وذلك الانقباض الذى كان يجثم فوقه أخيرا - ولعله انقباض جسمانى قبل كل شىء - والذى ازدادت حدته فى الحفلة الموسيقية ، ازداد فى ذلك اليوم وطأة وبعث فى نفسه شعورا بالضآلة ، بينما كان اغتباط مسز تشبستو يبدو كالطود الشامخ بجانبه ! .. **لقد بدت مسز تشبستو للحظة من الزمن وكأنها تسمو عليه وتشرف عليه من عل ، من جميع النواحى .. حتى طول قامتها بدا أشبه بانتصار عقلى ، أو كأنه كان انتصار ارادتها على ارادته !** .. وأخيرا قال : « ولكنا لا نزال فى الخريف ! » .. فقالت : « نستطيع أن نزعم انه الشتاء ! »

وناولته قدح الشاى بنفس الحركة التى سحرت نيجل يوم زارها للمرة الأولى .. ثم قدمت اليه طبقا به بعض شرائح الليمون ، وهى تقول : « ألا ترى اننى عرفت أذواقك ؟ فأنا أعلم أنك لا تتناول اللبن قط ! » .. وكانت معاملتها ترغمه على الشعور بالشكر نحوها ، ومع ذلك فان شيئا فى أعماقه كان يتوق الى رفض شرائح الليمون .. ذلك الشىء الذى لم يكف لحظة عن اتهامها واساءة الظن بها ! .. ولكنه نطق بما جرى العرف به ، فقال : « ما أرق شعورك اذ تتجشمين هذا العناء

من أجلى » ٠٠ فقالت : « أو لم تتجشم أنت الآخر العناء من أجلى ، وفى يوم راحتك ؟ ٠٠ ألا تعتقد اننى شاكرة لك هذا الصنيع ؟ » ٠٠ ولم يكن فى صوتها شائبة من التهكم أو السخرية ، فقد كانت سخريتها فى ذلك اليوم خافية مكبوتة ، ولكنه كان يعلم علم اليقين انها مستعرة كالنار التى تستتر ألسنتها بعناية ٠ وكان استتارها هذا يثير حنقه ٠٠ كان ساخطا على هذه المهزلة التى كانا يلعبانها ، وهذا النفاق الذى كانت تقوده اليه وهى تبتسم ٠٠ كانت أذكى من أن تتصور انها وفقت فى خداعه ، بل انها أكثر دهاء من أن تفكر على هذا النحو ٠٠ اذن فما جدوى ذلك كله ؟ ما جدوى أن تدفعه - وتستبقيه - فى موقف لا يلائمه ؟!

وقدمت اليه الكعك ، فاذا هى تكرمه وكأنها تدلله ! ٠٠

ومن جديد عاد يحس بالامتنان ٠ فالرجال مسوقون الى الشعور بما فى المرأة من فتنة حقيقية ، حتى فى أشد حالات كراهيتهم لها ! ٠٠ ولم يكن ايزاكسون يعرف كيف يتعامى عن الجمال فى أى شىء ٠٠ ولو أن الشيطان هو الذى أتاه ملاطفا ، لوجب أن يقول فى نفسه : « ما ألطف الشيطان وما أرق شمائله ! » ٠٠ ومن ثم فقد فتنته هذه المرأة برعايتها اياه ! ومع ذلك كله ، فانه كان رجلا حديدى الارادة وشديد الاخلاص - بوجه خاص - لذلك استجمع شتات عزيمته الصلبة ، وقال : « لا ، ما أحسبك شاكرة لى ٠٠ فلست أظنك تلك المرأة التى تعرف الشكر لأحد ، لغير داع أو علة » ٠٠ وأردف فى سريرته : « بل ولو وجد الداعى والعلة ! » ٠٠ فقالت : « ولكن ها هى ذى العلة ! » ٠٠ ولمست طرف كمه ، واذ ذاك تلاشى فجأة - وبسبب هذه اللمسة - كل ما كان نها عليه من سحر ٠٠ بل لقد غضب منها عندما رآها تتجرأ على معاملته كما تعامل أولئك الغلمان الذين كانوا يحيطون بها ، وتتجرأ على التفكير فى التلاعب بأسوأ ما فيه من حواس ! ٠٠ وقال :

« أخشى أن تكونى مخطئة ، فلست أصلح علة لشكرانك ! »

وبدت طبيعية ، ودودا أكثر من ذى قبل ، وهى تقول : « بل أعتقد انك جدير بعرفانى حقا ، لأنك فى الواقع لا تميل الى ، ومع ذلك تأتى لزيارتى ٠٠ وهذه غاية الايثار ! » ٠٠ فقال : « هذا اذا افترضنا صدق ما تقولين ، وكنت أنت تميلين لى »

– وانني لأميل اليك بالفعل !

قالت ذلك فى بساطة تامة ، دون تلاعب بألفاظها ٠٠ ومن ثم فقد بدت الكلمات صادقة ٠٠ بدت له ، هو بالذات ! ٠٠ ومضت المرأة فى حديثها قائلة : « قد تعرف ذلك يوما من الأيام » ٠٠ فهتف : « ولكن ٠٠ ولكنى لا أصدق ما تقولين »

وكان قد أفاق من الطعنة التى تلقاها من أخطر أسلحتها وأمضاها : صوتها ! ٠٠ بينما كانت هى تقول : « هذا لا يهم ٠٠ انما المهم هو الواقع ، وليس ما يفكر امرؤ ما فى وجوده أو عدم وجوده » ٠٠ فقال : « أجل ٠٠ ان الواقع هو المهم حقا ! ولقد حضرت الى هنا ، لا فى زيارة رسمية ، ولا فى زيارة ودية ، وانما ٠٠ لعلنى حضرت لأرتكب سفاهة ! » ٠٠ فحركت رأسها مبتسمة ، وأجابت وهى تقدم له علبة سجائرها : « لا ٠٠ انك لا تقدم قط على شىء من هذا القبيل ! »

وتردد قليلا قبل أن يتناول اللفافة ، ولكن عينيها المتألقتين كانتا تسخران منه جهارا ، وكأنهما تقولان : « ان سيجارة واحدة لن ترغمك على شىء أو تحول بينك وبين شىء » ٠٠ وقد استطاعت أن تعرف حقا كيف تجعله يشعر كأنه غلام غرير أبله ! ٠٠ أم ان شعوره بالارهاق فى العمل والانقباض الجسمانى هو الذى كان يجرده من أسلحته اليوم ؟ ٠٠ وتناول السيجارة وغمغم يقول : « شكراً » ٠٠ ثم أشعلها ، فأشعلت

هى الأخرى سيجارة وهى محتفظة ببشرها وسعادتها ! ٠٠ ومضى يقول : « من أين لك هذا اليقين ؟ » ٠٠ فأجابت : « اننى ألمسه »

وضحكت ضحكة خفيفة ذكرته بما سبق ان قاله عن النساء، فقال : « انك مخطئة ٠٠ فانى عازم على ارتكاب تلك السفاهة » ٠٠ وكان ردها : « ولكن ٠٠ هل تظن حقا انها سفاهة منك ؟ » ٠٠ وطغى عليه نفوره من التدخل فى شئون الناس ، ولكنه سرعان ما تغلب عليه بما يشبه الغضب وقال : « لست أدرى ، ولكنك ربما كنت تدرين ! مسز تشبستو ، لقد كنت للتو تشيدين بمباهج الشتاء الانجليزى ! » ٠٠ فقاطعته قائلة : « بل بالاعتكاف عن الناس »

ـ لماذا ترغبين اذن فى الفرار من هذه المباهج ؟

ـ من الذى قال انى فاعلة ؟

ـ ألست ذاهبة الى مصر ؟

فاعتدلت فى جلستها واستقرت فى ركن الأريكة ، قائلة : « هل ترى ان الجو غير ملائم لصحتى هناك يا دكتور ايزاكسون ؟ » ٠٠ وضغطت على كلمة « دكتور » ، فقال : « لست أتكلم كطبيب » ٠٠ فتساءلت : « كصديق اذن ٠٠ أم كعدو ؟ » ٠ فأجاب : « **كصديق ٠٠ له** » ٠٠ فهتفت : « لمن ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « **لنيجل ارماين** »

ـ ألأنه يعمل فى الفيوم ، لا ينبغى لى أن أذهب الى أعالى النيل ؟

ـ اذا ذهبت الى النيل فلن يبقى ارماين فى الفيوم !

ـ أتراك قلقا على عمله فى استصلاح أراضى الصحراء ؟ ٠٠ ترى هل استثمرت شيئا من أموالك فى مشروعه هذا ؟!

فاستبد به الغيظ حين لمح رنة المعرفة فى صوتها ، وقال ; « أفتحسبيننى لا أعنى الا بالمال فحسب ؟ ما الذى تعرفينه

عنى ؟ » . فتساءلت : « وأنت .. عنى ؟ » . وكانت لا تزال تتكلم فى خفة وابتسام ، ولكنه تذكر تلك الخفقات التى لا تكف .. نبض الحياة .. الحياة والعزيمة والاصرار على البقاء كما شاءت فلسفتها !

ـ لست أريد أن أتكلم عن أية معرفة يمكن أن تكون لدى عنك ، ولكن .. دعى نيجل فى الفيوم !

ـ هل قال اننى ذاهبة الى مصر ؟

ـ لقد تحدث عن ذلك مرة واحدة فقط .. قال انك قد تذهبين !

فتساءلت : « وهل قال شيئا آخر ؟ » . وأجاب : « لقد قال انه سيعنى بك اذا ذهبت » .. وأصغت اليه فى صمت .. فلما كف عن الكلام ، قالت أخيرا : « ولم لا ؟ »

ـ لقد عنى الكثيرون قبله .. بأمرك !

ولم تتبدل قسمات وجهها ، بل قالت : « أو لا يعرف ذلك ؟ » .. فقال : « ولكنه لا يشبه الآخرين » .. وردت قائلة : « اننى أعرف نوعه » .. وأحس ايزاكسون حين قالت ذلك بأنه يمقتها .. يمقتها لما كان فيها من سلطان المرأة وقدرتها على الفهم ، وسيطرتها ـ عن طريق هذا الفهم ـ على الرجال ! .. وقال :

ـ ما الذى يقصده من « العناية بأمرك » ؟

وكان يتكلم فى عبوس ، وهو يكاد لا يحس بذلك ، وقد فاض وجهه بالازدراء .. فقالت بدورها : « وما الذى كنت تقصده عندما قلت ان «الكثيرين» قد فعلوا ذلك ؟ » ، فهتف : « اذن فالأمر كذلك ! » . ولم يكن ايزاكسون يرمى الى النطق بهذه الكلمات ، ولكنها انطلقت من بين شفتيه انطلاق الأسير عند فكاك أسره .. ولم تلح فى عينيها بارقة من الفهم للمعنى الذى كان يكمن وراء هذه العبارة .. فقد كان عقله يقول : « يا للرجال ! يا للرجال ! حتى ارماين ؟! »

- أتراك خائفا على الفيوم ؟!

فقال : « أوه ! يا مسز تشبستو ! » .. وأمسك عن الكلام وقد تملكته سورة نمت عن افلات زمام أعصابه .. وكان وراء هذا الصمت فيض جارف من الكلمات : **كلمات تشرح طبائعها وطبائع ارماين .. طريقتها فى الحياة ، وطريقة ارماين .. ما تستحقه هى ، وما يستحقه هو .. كلمات كانت خليقة بأن ترسم لمسز تشبستو الخير الكامن فى نفس صديق ايزاكسون .. ليس هذا فحسب ، بل انها كانت كفيلة بأن تبين لها الخير الكامن فى نفس ايزاكسون كذلك ، والذى بدت معالمه فى حبه لخير صديقه ، وحرصه على أن يقيه الأوحال ! وهذه الطيبة الكامنة فى ايزاكسون هى ذاتها التى منعته من متابعة حديثه .. اذ انه لم يطق اظهار طيبته لهذه المرأة ! وما من ريب فى انها كانت تعرف بغريزتها ، وتقدر ، ما قد يكون فى فطرته من سذاجة .. فليدعها اذن قانعة بتلك المعرفة .. انه لن يهبها الخير الذى فى نفسه ، وحتى لو انه فعل ، لما كانت لذلك أية جدوى !**

وكانت تجلس على الأريكة منتصبة الظهر ، وقد بدا عليها نضول ودهشة عجيبان ، فقالت تستحثه : « نعم ؟ » . واذ ذاك قال : « اذا كنت راحلة حقا الى النيل ، فانى أرجو لك شتاء سعيدا ! » .. كان قد أصبح مرة ثانية ذلك الطبيب المسيطر على حواسه ، والذى تميل اليه نساء كثيرات ! .. وأجابت المرأة وهى تردد صدى لهجته الباردة ، على الرغم مما كان يبدو فى كلماتها من قلق ولهفة : « لسوف أعرف كيف أسعده ، اذا أنا ذهبت ! »

ونهض عن مجلسه ، فقد كره فيها معرفتها الحقة بالرجال .. كان يكرهها الى الحد الذى يتوق معه الى الابتعاد عنها والفرار من صحبتها .. لماذا يمكن ان يسمح لها بأن تأخذ حياة شخص مثل ارماين بين يديها القذرتين ، حتى اذا كان

في وسعها أن تسعده فترة من الزمن ، بمقدرتها الفائقة كأستاذة فى فن الخداع ؟!

ومس أناملها مسا خفيفا وهو يقول : «وداعا» ٠٠ فقالت : « وداعا ٠٠ اننى جد شاكرة ، وانك لتعرف السبب »

وأرسلت اليه ثانية تلك الابتسامة الودود ، فلما فارقها كانت تقف بجوار المدفأة ، والوهج المنبعث من النار يرسم أطيافا على ثوبها الوردى ٠٠ وكانت تتجه برأسها الجميل نحو الباب لترقب انصرافه ، وقد أمسكت بيدها السيجارة التى كانت تدخنها ، بينما كانت حلقات الدخان تطوف حولها ، رقيقة خفيفة ، ثم تدور حول نفسها وتنتهى فى خيوط تصعد حتى سقف الحجرة الدافئة المتلألئة بالأنوار ٠٠ وكان قوامها ، ورأسها ،و عيناها ، تبدو كلها جميلة محببة ٠٠ كانت لا تزال « بيللا دونا » ٠٠ « ست الحسن » التى طالما تحدث الناس عنها ! ولكنه اذ كان يمضى خارجا ، لمح الغضون الرقيقة بالقرب من عينيها ، والخشونة الخفيفة عند عظام وجنتيها ، والارتخاء السافر عند ركنى فمها ٠٠ **ولكن ارماين لم ير كل هذه العيوب ، لا ولم يكن فى وسع ايزاكسون أن يجعله يراها ، فما كان ارماين يرى فيها سوى محاسنها ومفاتنها ٠ وكان تهالكه على التفكير فى هذه المحاسن والمفاتن يعمى عينيه سريعا عن غيرها ! ٠٠ ومع ذلك فحتى ارماين له ناحيته البشعة ٠٠ فقد غدا ايزاكسون يعتقد فى وجود علاقة آثمة بين صديقه وبين مسز تشبستو !**

ولم يعلم الا بعد ثمانية أيام ، وبعد ان أبحر نيجل ومسز تشبستو الى الاسكندرية ، انهما قد تزوجا !

الفصل الحادى عشر

◆ **ما ان تمت مراسم الزواج فى مكتب التوثيق حتى رحل نيجل وزوجته**

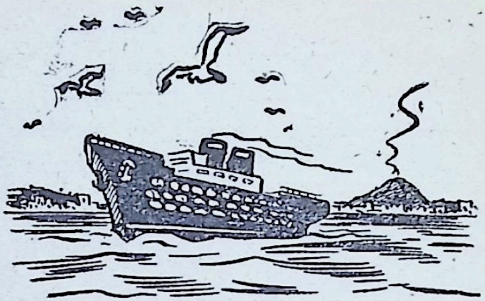

مباشرة الى نابولى ، ومعهما وصيفة للسيدة ، وقدر كبير من الحقائب المختلفة الأشكال والأحجام ٠ ومن هناك ابحرت بهم الباخرة « هوهنزلرن » الى مصر ، حيث كان نيجل قد استاجر « فيلا اندروود » ، على شاطىء النيل - بالقرب من الاقصر - لقضاء الشتاء

وكان نيجل سعيدا ، ومع ذلك فانه لم يكن خاليا من القلق تماما ، ولو انه حرص على اخفاء هذا القلق عن زوجته ٠٠ بل لقد كان يود احيانا لو أنكر وجوده لنفسه ٠٠ ذلك لأنه عندما ابرم هذا الزواج انما كان يستجيب لصوتين راحا يهتفان فى اعماقه : صوت الجسد ، وصوت الروح ٠٠ وما كان يدرى - على وجه التحقيق - ايهما كان اوضح رنينا ٠٠ بل انه لم يكن يدرى اى الرغبتين كانت اقوى سيطرة عليه : الحنين الى المتعة الشخصية ، ام الرغبة الملحة فى أن يسبغ السعادة والدعة على حياة سودتها الأيام ولطختها بالوحل ! ٠٠ قد يكشف له المستقبل عن الحقيقة ، اما فى الآونة الراهنة ، فقد وضع نيجل نصب عينيه هدفا واحدا عظيم القيمة : ان يكون مثال الزوج الكامل !

ومع ان الوقت كان فى شهر نوفمبر ، ولم يبدأ بعد اندفاع الناس نحو (النيل) ، الا ان الباخرة كانت مكتظة بالمسافرين ، حتى انه عندما ذهب ارماين وزوجته الى قاعة الطعام لتناول الغداء - والباخرة تتحرك من نابولى - كانت الأماكن فيها مشغولة كلها ٠٠ وقال نيجل لرئيس السقاة وهو يدس شيئا فى يده : « أعد لنا مائدة وحدنا على السطح العلوى ، فاننا نفضل ذلك كثيرا » ٠٠ ذلك لانه لمح عددا من الوجوه الانجليزية كانت تحملق فيهما وقد بدا على بعضها أكثر من مجرد تعرفها على مسز ارماين ٠٠

وأجاب الساقى البروسى المتورد الوجه - وهو يدس « الشىء » فى جيبه

بحركة آلية ـ فى لكنة المانية ظاهرة : « ساعد لكما مائدة عند قمة الدرج يا سيدى ٠ ولكنى لا استطيع ان اعدك بان تظلا وحدكما ، فلن يكون هناك مفر من السماح لأى قادمين آخرين بالجلوس معكما » ٠ فقال ارماين : « ليكن ٠٠ قدنا الى هناك ! » ٠٠ وان هى الا لحظة ، حتى كانا يجلسان جنبا الى جنب على اريكة بيضاء ملاصقة للباب المفتوح المفضى الى سطح الباخرة ، عند قمة الدرج الرئيسى ٠٠ وقال نيجل لزوجته : « ادعى الله ان يكون لنا هذا المكان وحدنا طوال الرحلة يا روبى ! »

على انه لم يكد يتم كلامه ، حتى ظهر احد الخدم مسرعا ، وهو يقود الى مائدتهما شابا طويل القامة عريض المنكبين ، انحنى لهما فى تحية تقليدية ، ثم جلس تجاههما فى هدوء وتؤدة ٠٠ وكان جميل الهندام الى درجة ملحوظة ، فى ثياب لا بد انها كانت من صنع ترزى انجليزى ! وكان يرتديها فى غير اعتناء ـ يكاد يكون انجليزيا ايضا ـ ولكن فى رشاقة غير متكلفة لا يعرفها سوى الأجانب ! ٠٠ وكان نحيلا ، له كتفان قويتان ، وصدر مقوس ، مما ينم عن قوة بدنية جبارة ٠٠ وكانت رقبته تبدو قوية كرقبة الثور ، وقد استقر فوقها راسه الصغير نوعا فى جراة وزهو ٠٠ وكان شعره اسود مجعدا ، وجبينه عريضا ، وانفه قصيرا مستقيما محدد المعالم ، ذا فتحتين كبيرتين واسعتين ٠٠ وبدت شفتاه ـ تحت شاربين صغيرين كثيفين ـ غليظتين ، وكانه يقلبهما ازدراء ! وكانت ذقنه بارزة قليلا الى الأمام كانها خلقت للهجوم ، وعليها آثار شعر حديث الحلاقة ٠ وكان لون بشرته صافيا رغم سمرته ، كما كانت فى بشرته نعومة واضحة ٠٠ اما يداه السمراوان العريضتان المكتنزتان ، فكانتا تحويان اصابع قوية تنتهى الى انامل مدببة قليلا ، وكانت عيناه واسعتين سوداوين ، قد حلتا فى راسه متقاربتين الى حد يكاد يكون فريدا ، يعلوهما حاجبان ينحدر طرفاهما نحو الانف وترتفع نهايتاهما حتى الصدغين ٠٠ وكان هذان الحاجبان يسبغان على العينين الجاثمتين تحتهما ـ بل على الوجه كله ـ مظهرا مميزا عجيبا ، ينم عن عزم صريح يستوقف النظر ، ويبدو جذابا او منفرا حسبما يكون عليه مزاج صاحبه !

وتناول المسافر قائمة الطعام وراح يدرسها من اولها لآخرها فى عناية واضحة ، وما لبث ان اصدر اوامره فى فرنسية رائعة الى الساقى ، الذى انصرف مسرعا لتنفيذها ، واذ ذاك اخذ الشاب يسوى شاربيه ، وراح يتطلع الى رفيقيه فى هدوء ٠٠ لا فى فضول ، وانما فى ادب تخالطه قلة اكتراث ، وكانه لم يكن ينظر اليهما الا لمجرد انهما قريبان منه ! وكانت مسز ارماين تبدو غافلة عن نظراته المتفحصة ، بينما بادر نيجل الى التحدث اليه ، مبديا بعض الملاحظات ـ بالانجليزية ـ عن السفينة ، فاجاب الغريب باللغة ذاتها ،

ولكن فى لكنة أجنبية صارخة .. وبدا انه شديد الرغبة فى تبادل الحديث ، اذ اقبل يعتذر عن اقتحامه خلوتهما ، وقال انه لم يكن مخيرا فى الأمر ، اذ كانت قاعة المائدة ممتلئة بأكملها .. فقال الاثنان انهما كانا على تمام الاستعداد لاشراك أى امرىء فى مائدتهما : نيجل فى انعطافه المرح العادى ، ومسز ارماين فى تلطف تقليدى كان يخفى وراءه - او هكذا خيل لزوجها - ظلا خفيفا من النفور .. وحدس نيجل انها كانت تفضل كثيرا لو انهما انفردا بمائدة خاصة ، ولكنه حين قال لها ذلك - أثناء تناولهما القهوة على سطح السفينة وحدهما بعد ذلك - أجابت : « كلا ، اذ اية قيمة لذلك ؟ لن نلبث حتى نكون فى منزلنا .. حدثنى عن « الفيلا » يا نيجل ، وعن الاقصر ، فانت تعلم اننى لم أرها قط ! »

وهكذا استطاعت ، بكلمات قلائل ، وفى حذق باهر ، أن تطوح بالاجنبى خارج دائرة حياتهما ، وكأنها قد ركزت تفكيرها كله فى نيجل ، فاحس بان قوتها كانت كتيار مائى قوى غزير ، يتدفق فى المجرى الجديد .. المجرى الذى حفره لها .. ومن ثم تمشى معها ، فراح يحدثها عن مصر .. واذ كان يتكلم ويرقب اصغاءها اليه ، بدأ يحس للمرة الاولى بالتغيير الحيوى الذى طرأ على حياته ، وبشىء فى اعماقه يتراقص طربا ، كأنما ترتل رجولته اناشيد الحب !

وانقضت الرحلة خفيفة سريعة ، يلفها طقس جميل ، هادىء ، بهى الاشراق ، أزرق الأفق .. جو من شأنه أن يطلق الانسانية من عقال الكآبة والانقباض ، الى عالم مرح .. غير ان الرحلة ، بالنسبة لأسرة ارماين ، لم تخل من حادث مكدر . فقد كان بين المسافرين زوجان - هما اللورد والليدى هايمان - كان نيجل ارماين يعرفهما ، كما كانت مسز ارماين تعرفهما عندما كانت لندن تحبها وتهش فى وجهها .. وكان من المستحيل الا يلتقيا بهما ، ومن المستحيل كذلك الا يلاحظا الارتباك والفتور اللذين كانا يشوبان كل لقاء ، وتتبدى مظاهرهما فى تشاغل اللورد وزوجته بالتحديق فى الأمواج المتدفقة ، والآفاق الخاوية .. كان سوء فهمهما للموقف من الجلاء بحيث وجد نيجل نفسه مضطرا الى مواجهة اللورد هايمان ذات يوم فى قاعة التدخين ، والى أن يطلعه على الحقيقة .. فغمغم النبيل ، وقد استحالت عيناه الكستنائيتان الى بئرين مترعتين بالعجب الساخر : « اننى أهنئك .. أهنئك بالتأكيد .. اخبر زوجتى للتو ، فما كنا نعرف شيئا عن ذلك قط » .. ثم انصرف مسرعا ، وبين اسنانه سيجار يحتضر .. ولا ريب فى انه اطلع الليدى هايمان على النبأ .. فقد كانت بعد ذلك تحنى رأسها تحية لنيجل ، ولكن فى حركة قوية تنم عن النفور ، وتعبر بما فيه الكفاية عن استنكارها الممزوج بالازدراء .. أما مسز ارماين ، فكانت تبدو غير حافلة البتة بهذه المظاهر ، وكان تعليقها

الوحيد بشان الليدى انه من العجيب حقا « فى هذه الأيام » ان يوجد انسان يرتدى اللونين الاحمر القانى والقرمزى معا ، لا سيما اذا كان لبشرته لون بشرة الليدى هايمان !.. وكانت دهشتها لاجتماع هذه الالوان الثلاثة من البساطة والصراحة بحيث توحى بانها صادرة عن مجرد ذوق فنى !

والأرجح ان اسرة هايمان قد اذاعت نبأ زواج نيجل بين الانجليز المسافرين على ظهر الباخرة ، اذ ان الوجوه التى كانت تحملق فيهما من حول موائد الطعام ، ظلت تتعقبهما بالحملقة على سطح السفينة ، ولكن مع اختلاف طفيف فى التعبير المرتسم على اساريرها .. فقد انقلب من مجرد فضول متبلد الى ذلك الاهتمام المشوب بالسخرية ، الذى يبديه الشخص العادى ممن يجرى فى عروقهم الدم الانجليزى نحو زوجين حديثى عهد بالزواج !.. ولقد اثارت هذه النظرات المتفرسة غضبا فى اعماق نيجل ، وايقظت فيه قدرا عظيما من الحنان العجيب نحو زوجته ، مبعثه ازدياد تقديره فجاة للقسوة التى عانتها فى الأعوام الأخيرة من اضطهاد المجتمع وتجنبه لها ونشره اقاويل السوء عنها !.. لقد اصبح لها ـ بعد طول العناء ـ من يحميها ويدفع عنها الأذى ، ويحيطها قلبه باجنحة عريضة !.. على ان نيجل غدا يصبو الى التحرر من الناس الذين لم يكن ثمة مهرب منهم على سفينة تمخر البحار .. واصبح وزوجته لا يخاطبان احدا اثناء رحلتهما سوى ذلك الشاب الذى اعتاد ان يشاطرهما مائدتهما .. اذ سرعان ما توطدت بينهما وبينه اواصر الصلات التى تربط زملاء السفر .. الصلات التى لا تورط المرء فى شيء فى المستقبل ، بعد بلوغ البر !.. ومع انه كان يشبه الرجل الانجليزى فى ثيابه ، ويضع على راسه قبعة من القش نقش بداخلها اسم «سكوت» ، الا انه لم يلبث ان انباهما بان اسمه «محمودبارودى» ، وان مسقط راسه فى الاسكندرية ، وانه مزيج من العنصرين اليونانىوالمصرى ، وانه رجل وافر الحمية والنشاط ، قوى العزيمة ، يهتم بمشاريع عديدة ، ويدير الكثير من المؤسسات

وكان يتكلم دائما فى شيء من عدم المبالاة ، والجراة المهذبة ، وكانه لا يعنى اقل العناية بما يحدثه حديثه من اثر فى نفوس الغير .. كما كان يلقى بالمعلومات التى يذكرها عن نفسه ، فى لهجة فاترة ، وبغير اكتراث ، مما كان ينم عن شخصيته وخلقه !.. فاشار الى رفعة مركز والده ، والى ثرائه الفاحش ، تلميحا لا تصريحا .. على انه كان ـ اذا تحدث عن المراكز التى يضطلع باعبائها ـ يتخذ لهجة اكثر تحديدا ، واقوى تبيانا عن شخصه .. وأدرك نيجل أنه ولا بد من رجال الأعمال المجدين ، اذ لم يكن فيه شيء من طباع الشرقى الكسول ، الذى يحب ان يجلس فى الشمس ، وينتظر مشيئة الله ، وان يملأ الأعوام بالأحلام والأمانى ! .. كما ادرك انه هادىء الطبع ، ثاقب الفكر ، مفعم بتلك الكفاية التجارية الملحوظة التى تميز اليونانى الحديث!

ولكن نيجل لم يعلم ان كانت هذه المقدرة يخالطها شىء من الدهاء الملتوى الذى يتميز به الشرقيون ·· وما كان بوسعه ان يتبينه حقا ، فكل ماقاله بارودى، انما قيل فى جلاء ، وفى تحديد دقيق ، سواء أكان حديثه عن مشكلة الأراضى، ام عن مشروعات الرى على النيل ، أم عن التضخم المالى العظيم الذى حدث فى عام ١٩٠٦ والذى تجمعت فيه ثروات هائلة ، أم عن صناعات السكروالقطن التى كان مساهما فيها · وكان الطابع الذى أحدثه فى نفس نيجل يتمثل فى انه رجل خلق لينجح فى كل ما يضطلع به ، وانه فى اية صورة من صور النشاط يستطيع أن يكون حليفا بارعا او خصما بارعا كذلك ! ·· وسرعان ما ظهر أنه كان مولعا بالرياضة ، فقد راح يتحدث فى حماس – كان يختلط دائما شىء من الرصانة غير المتكلفة – عن الخيول التى كان يربيها والسباقات التى فاز بها فى (الاسكندرية) و (القاهرة) ، وعن رياضة اليخوت ، وعن صيد الوحوش بأعالى النيل – جنوبى الخرطوم ، فى بلاد الشلوك – وعن صيد البط والحمام والأوز والثعالب فى الفيوم وعلى بحيرة قارون المقدسة !

ووجد فيه نيجل شخصا ممتازا ·· كان اوفر من التقى بهم – من الرجال ذوى الدم الشرقى – حمية ونشاطا ولطفا ·· أما مسز ارماين فكانت أكثر اعتدالا فى حديثها عنه ، كأنه لم يثر فيها أى اهتمام ، فوجد نيجل فى انعدام اعجابها به ما يؤيد فكرة كانت قد خطرت له عنه ·· اذ خالجه الظن بان بارودى كان رجلا لا يحفل بالنساء الا كملهاة عابرة ذليلة لساعة خالية من المشاغل تقضى فى « الحريم » !·· وكان الشاب جم الأدب مع مسز ارماين ، ولكنه كان اذا ما تحدث تحول – فى حركة غريزية – موجها الحديث الى نيجل ·· وفى مرة او اثنتين كانت مسز ارماين تتركهما وحدهما مع قهوتهما وسيجاراتهما ،فكان يخيل لنيجل – اذ ذاك – أن صاحبه انقلب رجلا آخر ، اذ يتبسط فى مرح ، ولا يصر على الامعان فى سيطرته على نفسه ، وان لم يكن يتخلى عن هذه السيطرة، وانما يغدو أكثر حبورا ، وأكثر ودا ، وأكثر استعدادا للألفة ·· ولعله كان متأثرا بالفكرة الشرقية عن المرأة كجنس أقل شأنا من الرجل ، وكان عاجزا عن مسايرة المساواة التامة والبساطة المألوفتين فى علاقة الرجل الانجليزى بالمرأة ··

* * *

◆ وعندما أشرفت الباخرة على ميناء الاسكندرية ، نزل بارودى الى حجرته ، ثم عاد يرتدى الطربوش !·· وتبادلوا جميعا تحية الوداع فى الميناء ، مع ذلك الرجاء المبهم المألوف ، فى لقاء قادم ، مما يوحى به الواجب فى مثل هذه المناسبات ، وينتهى عادة الى هباء !·· وبدت مسز ارماين جذلة للخلاص من ذلك الرجل ، والانفراد بزوجها ، فقالت لهذا : « لا تستبقنا فى الاسكندرية او

القاهرة ، فانى أريد أن أذهب الى أعالى النهر ٠٠ أريد أن أكون فى فيلا اندروود » ٠

وبعد ليلة قضياها فى فندق «شبرد» ، سافرا نحو (الاقصر) ٠٠ أو بالأحرى الى (قنا) ، حيث خرجا فى الصباح المبكر لزيارة معبد (دندرة) ، ثم استانفا السفر فى قطار تال ، فبلغ بهما (الاقصر) قبيل المساء ، فى اللحظات التى كانت فيها اشعة الغروب الذهبية تسترق الخطى الى السماء ، وتضفى على النهر رواء وجلالا

وكانت مسز ارماين متعبة من الرحلة ، ومن اليوم الطويل الذى أمضياه فى (دندرة) ، والذى كانت تخفى ضيقها منه وبرمها به ٠٠ وراحت تتطلع من نافذة مقصورتهما بالقطار الى سهول الذرة الخضراء ، والى الرجال السمر أشباه العراة وهم ينحنون فى حركات توقيعية على الشواديف ، والى الأطفال راكبى الحمير ، والى النساء وقد وقفن مشدوهات يحملقن فى القطار ، ويضعن أطراف ثيابهن القذرة بين أسنانهن ! وخيل لمسز ارماين انها لا تزال ترى الساحات المعتمة فى بيت «هاتور» ـ بدندرة ـ ولا تزال تسمع صيحات الخفافيش الضخمة التى تسكنه !٠٠ وعندما وقف القطار أخيرا ، نهضت من مكانها فى تثاقل ، وتركت نيجل يساعدها فى الهبوط الى الرصيف ٠٠ وبينما كانت تنظر الى الحشد من المصريين ذوى العيون المحملقة ، قالت : « هل الفيلا بعيدة عن هنا ؟» ٠٠ فقال : « لا ٠٠ اننى أحب أن تمشى اليها ، فهل يضايقك ذلك ؟ »

وكانت عيناه تناشدانها كلمة «لا» ، فاعطته اياها فى لطف بالغ كان ينبغى ان يدون لحسابها بقلم الملاك المسجل للحسنات والسيئات !٠٠ وانطلقا يمشيان الى الفيلا ٠٠ وفيما كانا يخترقان البلدة الصغيرة راح نيجل يشير الى «المعالم» المتباينة : حوانيت العاديات ، حيث يمكن أن تشترى الخواتم والعقود والأحجبة و «خدم الموتى» الخضراء والزرقاء ، والجعارين ، والأقراص المجنحة ، وتوابيت المومياء ٠٠ ثم المسجد ، وكنيسة قبطية ، والمقاهى ، وحديقة فندق الأقصر ٠٠ وكان نيجل يحيى ـ فى طريقه ـ عددا من الأصدقاء المتواضعى المكانة ، كالحلاق الزنجى الذى كان يسمى نفسه «مستر هوايت» !٠٠ و«اهرى احمد» ـ مهرج الاقصر ـ الذى كان يرقص ويتمتم بين يدى مسز ارماين ويصيح مرحبا بها فى عدة لغات ٠٠ و«حسن» عازف الناى الأعور ٠٠ و«حمزة» المكارى المصلى ، الذى كان فى الشتاء «يسرق» أصحاب الملايين جميعا من زملائه ، رغم احتجاجهم ، ويجلس فى الصيف مع الدراويش فى ظلال المسجد الوارفة !

وقالت مسز ارماين فى صوت يشوبه الغموض نوعا ما : « انك تبدو هنا «فى بيتك» ووطنك كما تكون فى لندن !»٠ فقال فى حرارة : « بل أكثر من ذلك بعشر مرات ياروبى ، وهكذا ستكونين انت عما قريب ٠٠ اننى احب المكان الصغير » ٠٠ فهتفت : « احقا؟!» ٠٠ وبعد أن تمهلت قليلا أضافت : « هل توجد فيلات كثيرة هنا ؟ » ٠ فاجاب : « اثنتان فقط على شاطىء النيل ٠٠

احداهما يملكها رجل ألمانى .. وفيلتنا هى الثانية »

فقالت لنفسها : « اثنتان فقط ! واحداهما يملكها رجل ألمانى ! » .. ثم تساءلت كيف يقضيان الشتاء ، فأجاب نيجل : « سيكون على – اذا ما فرغت من تهيئة وسائل الراحة والاستقرار لك هنا – أن أسرع الى الفيوم لأرى كيف يسير العمل ، ولأدبر لك شيئا يروق لك ، اذ اننى أود ان آخذك الى هناك عاجلا .. ولكن المكان موحش حقا ، فلم أشأ ان آخذك اليه مباشرة .. وفضلا عن ذلك فقد خشيت ان تشعرى بالسأم والشقاء اذا لم تتوفر وسائل الراحة اللازمة لك ، وانا أحب أن تكونى سعيدة حقا! » .. وكان فى صوته قلق يخالطه التمنى . واستطرد يقول كغلام متلهف : « لكم أود ان تحبى مصر !» ، فقالت : « اننى واثقة من اننى سوف أحبها يانيجل .. أظن انه لا يوجد كازينو هنا ؟ »

– يا اله السموات ! كلا ، وما حاجة المرء الى كازينو هنا ؟

– آه ! انهم يقيمون واحدا أحيانا ، حتى فى مثل هذه الأماكن .. وقد اخبرنى صديق لى ذهب الى (بسكرا) بأنه وجد كازينو هناك !

– انظرى الى هذا ياروبى !.. انه خير من اى كازينو .. الا تظنين ذلك ؟

وكانا قد عرجا – فى طريقهما – الى اليسار ، وبلغا شاطىء النهر

كان النيل كله قد اكتسى غلالة من الذهب ، تتخللها دوامات صغيرة ذات لون بنفسجى فاقع ، وتتراءى فيها من بعد تموجات متتابعة ذات حمرة شبيهة بالحمرة التى توشى جناح طير العشروس .. وكانت السماء الصافية البهية تشرق بضياء ذهبى باهر خفاق ، وكأنها كائن حى ينبض بانفعال رقيق .. وكانت أشجار النخيل تتمايل على البعد ، والشواطىء العالية تحف بمجرى النيل فى تراميه نحو الجنوب ، والطيور تمرق فى الفضاء متجهة جنوبا هى الأخرى ، وفقا لاتجاه النسيم ، والخفافيش تدور وتدور كالعجلات حول أعمدة المعبد العظيمة ، والقوارب ذات الأشرعة المثلثة تنتشر سابحة نحو الجنوب مع الطيور ، كانما هى احجار كريمة سوداء ، ساكنة ومتحركة ، على الصفحة الذهبية المهتزة .. وكانت جبال ليبيا المحصنة ، فيما وراء (طيبة) ومقابر الملوك ، تقف كديدبانات من الأشباح ترابط فى مراكزها حتى ينتهى هذا الموكب البهيج !

وهتف نيجل : « أليس هذا رائعا ياروبى ؟ » ، فأجابت : « بلى .. غاية فى الروعة ! » .والفت المنظر رائعا بالفعل ، ولكن الغبار الذى تخلل شعرها وثيابها ، والاعياء الذى لاح مخيما على البدن الذى احتضن روحها الكليلة – كما يخيم نسيج العنكبوت على الأشجار – أثقلا تحمسها عن أن يجارى تحمسه .. ولعلها ادركت ذلك ، وأرادت أن ترضيه ، اذ أردفت وهى تشيع نبرة حارة فى صوتها : « يا له من منظر شائق ! .. بل انه اعظم الأشياء التى

رايتها سحرا »

ولمست خمارها وهى تتكلم ، ثم وضعت يدها على شعرها القابع تحته .. وسمعت اثنين من الفرنسيين يتحدثان بنبرات عالية وهما يمران بهما ٠ وكان احدهما يقول فى تلك اللحظة : « ما رايت الغروب فى اى مكان بمثل هذه الروعة ! » ٠٠ وكانت لا تزال تتحسس شعرها ، وهى تشعر كما لو كانت ترتدى ثيابا من التراب ٠٠ وفى لهفة المراة المتانقة التى لم تدخل حجرة زينتها منذ اربع وعشرين ساعة ، راحت تهفو الى التخلص من الغروب ومن الرجل معا ، فتساءلت : « اين الفيلا يا نيجل ؟ » ، فقال : « انها لا تبعد اكثر من عشر دقائق » ٠٠ وتاوهت روحها فى اعماقها ٠٠ ولكنها مضت تمشى الى الأمام فى عزم أكيد ، حتى مرت امام فندق «ونتر بالاس » فهتفت : « ياله من فندق ضخم ! ولكنه ليس مفتوحا ! » ، فقال : « سيفتح عما قريب ٠٠ فلنعرج الآن يمينا ! »

وكانت بعض الفيران الكبيرة الحجم تلعب على الأحجار الوعرة الملاصقة للنهر، بينما كان ينبعث من كوخ قريب خوار لاهث كليل ، صادر عن احدى الآلات، فهتفت : « الى أين نحن ذاهبان بحق السماء يا نيجل ؟ ماهذا الا درب لسير الحمير ! » ، ولكنه قال : « لا باس ٠٠ اصبرى دقيقة واحدة فقط ٠ هاهو ذا قصر الألمانى ، ودارنا تليه مباشرة ٠٠ اترينني اسير بسرعة لا تلائمك ياروبى ؟ » ٠٠ فقالت : « كلا ، كلا !» ٠ وراحت تسرع فى سيرها ،على حين كان جسدها كله يصيح شوقا الى حمام ساخن – اذيب فيه عطر خاص – وبديل لجوربيها وحذاءيها ، وثوب منزلى للشاى ، واريكة بجانبها مائدة الشاى ،ومائة وواحد من الأشياء التى لاتحلم بها رجولته ! ٠٠ ومالبث ان قال : « هانحن اولاء قد وصلنا اخيرا ! »

* * *

◆ وظهر امامها فجاة غلام طويل القامة ، مليح ، فى ثوب فضفاض ذهبى اللون ، وقد امسك ببوابة خشبية مفتوحة اجتازاها الى حديقة ٠٠ وصاح نيجل: « اهلا يا ابراهيم ! » ، فرد الغلام التحية ، وهو ينحنى بجسمه نحو مسز ارماين ، لامسا طربوشه بيده : « اهلا بك ياسيدى ٠٠ اننى ياسيدتى ابراهيم احمد ، الخادم الخاص – الذى يسمونه ترجمانا – لسيدى ارماينيجل !٠٠ اننى استطيع قراءة الهيروغليفية ، واعيش دائما فى شباب ومرح » ٠ وتناول يد نيجل فقبلها ووضعها على جبهته بسرعة ثلاث مرات متعاقبة ، وابتسم وهو يشيح بنظراته جانبا نحو الأرض ٠٠ وعاد يردد فى صوت حالم رقيق : «واعيش دائما فى شباب ومرح ! »

وقطف وردة حمراء من احدى الشجيرات ، فوضعها بين اسنانه الناصعة

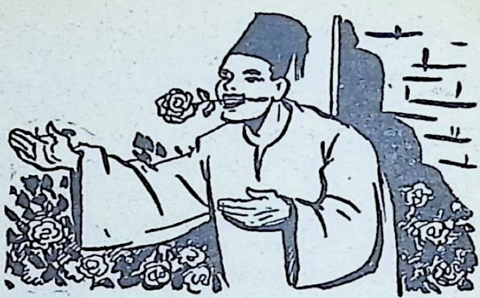

البياض ، ثم تحول يقودهما صوب المنزل الأبيض القائم وسط الحديقة ، على بعد نحو مائة ياردة منهما .. فقالت مسز ارماين : « ياله من فتى لطيف ! » .. فعقب نيجل : « لقد كان ترجمانى من قبل .. هاهى ذى مملكتنا الصغيرة!»

ورات مسز أرماين رقعة فسيحة من الطين الأسمر الذى شققته الشمس ، مجردة تماما من الحشائش ، ومقسمة فى بداوة الى احواض منخفضة ضمت بعض شجيرات البرتقال و «الست المستحية» ، والورد ، والجيرانيوم (الخبيزة الافرنجية) والبونسيتياس .. وكانت تحيط بها من ثلاثة جوانب جدران من الطين ، ويحدها النيل من الناحية الرابعة . وقال ابراهيم : « أليس هذا مكانا جميلا يامس ؟ » . فشرعت مسز ارماين تضحك قائلة : « انه يعدنى من العوانس ! ترى هل هذا اطراء لى ؟! » .. ثم مست ثوب الفتى ، وقالت : «هلا اعطيتنى هذه الوردة يا ابراهيم » .. فصاح : « سيدتى ! لسوف اعطيك كل ماتريدين !»

كانت قد خلبت لبه .. فلما تناولت الوردة التى قدمها اليها مع «السلام» التقليدى ، بدأ المرح يسرى فى اعطافها .. واستطرد ابراهيم يقول فى رصانة: « لا بد لك من كل ماتبتغين » . فقال نيجل : « انه يقرأ افكارى ككل شرقى أصيل !» .. وهنا قالت مسز ارماين وهى تتشمم الوردة : « ان ما ابتغيه الآن هو .. الحمام ! » .. فقال نيجل : « نعم ، بمجرد ان نلقى نظرة اخرى على النيل من حديقتنا ! » .. ولكنها وقفت أمام المنزل وقالت : « ليس بوسعى ان استحم فى النيل .. الى اللقاء يا نيجل ! »

وقبل ان يقول كلمة واحدة ، عبرت شرفة صغيرة ، وتوارت خلف ابوابها العريضة ، حيث اختفت داخل الفيلا .. فابتسم ابراهيم ورفع راسه ثم غمغم: « ان زوجة سيدي ارماينيجل لم تعد تريد ابراهيم .. ولا تريد النيل .. كل

ماتريده هو ان تخلو الى نفسها »٠٠ وراح يهز راسه ـ الذى تدلى فوق عنقه الأسمر الطويل الرقيق ـ ثم تاوه وهو يردد كانما يخاطب نفسه : « تريد ان تخلو الى نفسها ! » ٠ فقال نيجل : « لندعها وحدها قليلا ، ونذهب فنشاهد الذهب ! »

وفى تلك اللحظة كانت مسز ارماين داخل المنزل تنادى وصيفتها فى صبر نافد ٠ وهرعت الفتاة اليها ٠ وفيما كانت ترشدها الى غرفة نوم فسيحة ، راحت السيدة تقول : « بحق السماء ، اخلعى عنى ثيابى ٠٠ اننى كتلة من الغبار ، وما ابشع مظهرى ! هل اعددت الحمام ؟ » ٠ ولم تكن الوصيفة هى تلك الوصيفة ذات العينين الحمراوين التى قابلها نيجل فى سافوى ٠٠ وهزت الفتاة كتفيها الصغيرتين ، وبسطت يديها الدقيقتين قائلة : « انه معد يا سيدتى ٠٠ ولكن الماء ٠٠ اوه ، لا ٠٠ لا ! » ٠٠ فتساءلت مسز ارماين : « ماذا هناك ؟ ما الذى تعنينه ؟ » ٠ فقالت الفتاة : « ان الماء فى لون شيكولاتة الصباح التى تشربها سيدتى ! » ٠ واذ ذاك هتفت مسز ارماين فيما يشبه الياس : «اوه !»

والقت بنفسها على احد المقاعد ، ، وهى تستوعب بنظرة واحدة كل صغيرة وكبيرة فى الحجرة التى كانت مؤثثة ومنظمة بمعرفة رجل فرنسى غنى اصيب بالسل ، وكان يعيش هناك مع خليلته ، ثم مات فى القاهرة منذ عهد قريب ٠٠ وقالت السيدة اخيرا : « احضرى الى المرآة من حقيبة الزينة ، وانزعى عنى هذا الثوب ! » ، فاسرعت مارى لاحضار المرآة ٠٠ وراحت مسز ارماين تنظر فيها طويلا ، وفى لهفة بالغة ، بعد ان نزعت الدبابيس الطويلة والقبعة والخمار عن راسها ٠٠ وقالت الوصيفة : « لا يوجد هنا خدم من النساء يا سيدتى !» ٠٠ ولم تنبس مسز ارماين ببنت شفة ، فاستطردت مارى : « كل الخدم هنا من الرجال ياسيدتى ٠٠ وكلهم سود فى لون الجلد الأسود ! » ٠٠ فقالت السيدة : « اغلقى الباب المؤدى الى حجرة السيد ، ولا تثرثرى كثيرا ٠٠ فان راسى يكاد ينشق !»

.. ..

ـ ماهذا الذى تفعلينه ؟ ان المرء ليظن انك لم ترى مشدا (كورسيه) فى حياتك من قبل ! لا تتسكعى هكذا ، واذا تسكعت بعد ذلك فسوف «اشحنك» الى باريس باول قطار فى صباح الغد ! والآن ٠٠ اين الحمام ؟

فغضنت مارى انفها الذى كان يبدو كعلامة الاستفهام ، ثم سارت امام سيدتها تقودها الى الحمام حيث اشارت الى الماء ، قائلة فى تجهم : « هاهوذا ياسيدتى»٠ فهتفت مسز ارماين : « يا الهى ! » ٠ وراحت تردد هتافها وهى تحملق فى الماء ، فقالت الوصيفة : « مما يثير الحزن ان يفكر المرء فى ان السيدة ٠٠٠ » ، ولكن مسز ارماين قطعت عليها حديثها متسائلة : « هل وضعت فيه عطر ماء النعيم ؟ » ، فاجابت الفتاة : « يقينا ياسيدتى » ٠ فهتفت السيدة وهى تغوص

فى الحوض : « بديع جدا .. ولكن .. اف ! » .. وارتعدت فى اشمئزاز عندما بلغ ماء النيل الأسمر - الغنى بالطمى - صدرها ثم ذقنها ، وغمغمت تقول : « منذا الذى يصدق انه كان يبدو ذهبيا عندما كنا نقف على الشاطىء ! »

الفصل الثانى عشر

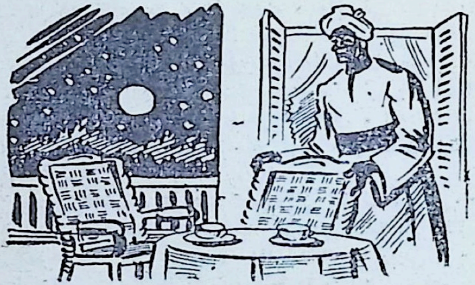

◆ ما ان حانت الساعة الثامنة والنصف من ذلك المساء ، وخيمت الظلمة على النيل وعلى حديقة «الفيللا» الصغيرة ، حتى انهمك خادم نوبى طويل القامة يرتدى قفطانا أبيض وحزاما قرمزى اللون فى بسط سجادتين صغيرتين على أرض الشرفة ، تجاه البابين المؤديين الى حجرة الجلوس ، ووضع فوقهما منضدة صغيرة للقهوة ومقعدين كبيرين من نوع «الفوتيل» .. وكان قد وضع المقعدين متباعدين فى بادىء الأمر ، ثم اخذ ينظر اليهما فى تفكير ، وما لبث ان وضعهما متلاصقين ، وعندئذ لانت اساريره فى ابتسام .. وقبل ان تختفى الابتسامة من وجهه ، سمع خلفه - فوق «الباركيه» - حفيفا خفيفا لثوب نسائى ، فاستدار الخادم النوبى وراح يحدق فى مسز ارماين ، التى وقفت تجيل بصرها فى حجرة الجلوس .. وكانت حجرة يسودها اللونان الأبيض والأصفر ، ذات اثاث انيق بسيط ، ينسجم تماما مع ذلك الجمال الناصع البياض الذى بهر الرجل الأسود واستهواه !

كان يراها بارعة الحسن ! وكان شحوب وجهها ، والبريق الهادىء المنعكس من شعرها قد سيطرا على حواسه .. فلما لمحته ، ابتسمت له ، وهى تتأمل - بنظرات صريحة الاعجاب - التناقض بين عمامته التى كانت فى بياض الثلج ، وحزامه وخفيه القرمزيين ، وبشرته السوداء اللامعة .. بينما راح هو يقارن سرا بينها وبين الهلال الذى كان يضىء ليل الشرق ! وما لبث ان خرج الفتى

فى خفة ليحضر القهوة ، بينما خطت هى الى الشرفة .. ووقفت فى بادىء الأمر ساكنة بلا حراك ، تتفرس فى ذلك الجزء من الحديقة الذى تكشف لها فى الظلام ، وفى التربة الجافة ، وفى شجيرات الورد التى لم تهذب فروعها فبدت برية موحشة ، وفى اشجار « الست المستحية » الصغيرة التى لاحت غير واضحة المعالم وكانها اطياف جميلة ! وانسل من جوف الليل كلب نحيل داكن اللون ، ذو عينين تتالقان فى صفرة فاقعة ، فوقف بالقرب منها وهو يرتعد ويرقبها خلسة .. ولم تكن قد راته بعد ، اذ كانت تحملق فى السماء التى ازدحمت بعشرات الألوف من النجوم .. تلك النجوم ذات البريق الثاقب التى تشرف على الأرض من السماء الافريقية . ووقف الكلب الأسمر يرتعد ويطرف باجفانه ، وعيناه متعلقتان بها ، ثم اشاح ببصره جانبا الى اسفل ، وما لبث ان عاد ينظر اليها من جديد .. ومن النهر المتوارى ، انبعثت اصوات الملاحين من بعد باحدى اغنيات النيل التى تشيع فيها الحرارة والحزن معا ، والتى يعشقها الملاحون النوبيون !

ولمحت مسز ارماين الكلب ، فراحت تطرده فى غضب : «اش..اش..اش!» وهى تشير اليه بيديها متوعدة ، مما جعله يتراجع عائدا الى الظلمات ثانية .. واذ ذاك هتف صوت قوى من عل : « ماذا هنالك يا روبى ؟ » . فاجفلت ، وقالت : « اوه ! اهذا انت يانيجل ؟ » . وجاءها جوابه : « نعم ، ماذا هنالك؟»

ـ انما هو كلب بشع الشكل ! ماذا تفعل هناك فوق الفيللا ؟

ـ كنت اتامل النجوم .. اليست عجيبة الليلة ؟

وكانت فى صوته نبرة من حماس حار يكاد يكون صبيانيا ـ بدات تالفه ـ فقالت : « اجل ، رائعة ! آه ! ها هو ذا الكلب ثانية ! اش .. اش ! » .. فصاح نيجل : « سوف احضر اليك واطرده » .. وان هى الا لحظة حتى كان معها ، وهو يقول : « اين هذا الوحش الصغير ؟ » .. فقالت : « لقد ذهب ثانية ، اذ انك اخفيته .. اه ! هل احضرت لى معطفا ايها الانسان الواسع الفكر ! » ، واستدارت ليطرح المعطف على جسدها ، فلما شرع يحكمه حولها ، ومست يداه ذراعيها وكتفيها ، اومضت عيناه وتوردت وجنتاه السمراوان .. ومالبث بعدئذ ان تبدلت تعبيرات وجهه ، ولاح انه كان يكبح شيئا فى نفسه ويصده ! ثم جذبها فاجلسها فى احد المقعدين ، واتخذ مجلسه بجانبها فى سكون ..

واحضر النوبى القهوة ، ثم انصرف مبتعدا فى خفة والابتسامة على شفتيه ، فصبت مسز ارماين القهوة بينما اشعل نيجل سيجارا .. ودفعت قدح القهوة صوبه وهى تقول : « قهوة تركية لمولاى وسيدى ! » .. ثم اردفت : « احسب اننى ينبغى ان اتعلم كيف اصنعها » .. فاخذ يتاملها وهو يمد يده ليتناول القهوة ، ثم سالها : « هل بدات تالفين المكان ؟ » . فاجابته : « لم ينقض

بعد سوى وقت قصير جدا ايها الملهوف العزيز !٠٠ تذكر اننى لم اغمض بعد جفنا هنا ، ولكني واثقة من انى سوف آلف المكان ٠ وانت ؟ ما هو الشان معك ؟ » ، فاجاب : « اننى لا اكاد اعرف ما اشعر به ! »

وراح يرتشف قهوته فى بطء ، ثم استطرد يقول : « انه تحول عظيم ، فقد مكثت وحدى طويلا ٠٠ ان لى بطبيعة الحال كثيرا من الأصدقاء ، ولكنى مع ذلك كنت كثيرا ما اشعر بالوحدة ، كما كنت انت تشعرين ياروبى ٠٠ اليس كذلك ؟» ٠٠ فكان جوابها : « اننى قلما شعرت بغير ذلك » ٠٠ فهتف : «والليلة ؟» ٠٠ فقالت فى تؤدة : « آه ، الليلة ! ان كل شىء جد مختلف الليلة ٠٠ وانى لأعجب ٠٠ » ، وتريثت دون ان تتم عبارتها ٠ وكانت تسند ظهرها الى المقعد وتتكىء براسها على احدى الوسائد ، وهى تنظر اليه وفى عينيها ، وعند زاويتى فمها ، ابتسامة خفيفة شبه ساخرة ٠٠ ثم اردفت : «ترى ما الذى سوف يخامر ماير ايزاكسون ؟ » ٠٠ فتساءل : « بصدد زواجنا ؟ »

– نعم ٠ هل تعتقد انه سيدهش له ؟

– انا ؟! كلا ٠٠ لست اعتقد ذلك البتة !

– انك لم تشر اليه فى احاديثك معه ٠٠ اليس كذلك ؟

– لم اقل شيئا عن اى زواج ، ولكنه كان يعرف شيئا عن شعورى نحوك !

– مهما يكن من أمر فانى اعتقد انه سوف يدهش للأمر ٠ متى يصل الينا اول بريد من انجلترا ليحدثنا عن راى الدنيا العزيزة الشفوق الطيبة القلب ؟

– ومن الذى يهتم لما يفكر فيه اى امرىء او يقوله ؟

– ان الرجال كثيرا ما يأبون ان يعترفوا لنا بهذه الميزة ، ولكننا معشر النساء ، كقاعدة عامة ، شديدات الحساسية الى حد مروع ٠٠ اشد حساسية مما قد تتصور ٠٠ لكم اود ان ياتى يوم يحاول فيه قومك ان يحبونى !

فتناول يدها بين راحتيه ، ومضى يقول : « ولماذا لا يفعلون ؟ لماذا لا يفعلون؟ ولكننا سوف نعتكف فى هذا الشتاء لنفسينا ، فنتعلم كيف يتعرف كل منا الى الآخر ، ونتعلم كيف يثق كل منا فى الآخر ، ونتعلم كيف ٠٠ كيف يحب كل منا الآخر باطيب واجمل صور الحب !٠٠ لقد اشتريت هذه الفيلا ياروبى لأننى فكرت فى انك قد تحبينها ، وانها لا باس بها كاول منزل لنا ٠٠ ولكننى عما قريب اود ان تاتى معى الى (سنورس) ٠٠ وعندما تنقضى الخمسة عشر يوما التى خصصتها لشهر العسل هنا ، فسوف اتغيب عنك بضع ليال ، لأرى كيف يجرى العمل هناك ، ولأدبر ما يلائمك ٠٠ سوف اشترى افخم خيمة اجدها فى القاهرة ، فانى اريدك فى المعسكر معى ، حيث الموقع اشد عزلة من هنا ، واكثر وحشة ، واقل تحضرا ٠٠ ان الانسان يتجه هناك نحو الطبيعة الخالصة ! وعندما كنت فى لندن – قبل ان اسالك الزواج منى – كنت

اتصورك فى (سنورس) ·· لقد اعتدت أن اقيم معسكرى بالقرب من الماء · وفى الليل ـ عندما ينام الرجال ملتفين فى البطاطين وقطع الخيش ، وحيث تجثم الجمال صفا واحدا ووجوهها متجهة نحو خيمة الرجال ، وهى لا تكف عن المضغ ـ اعتدت أن أخرج وحدى واصغى الى نقيق الضفادع ·· انه اشبه بانغام مزمار تظل اللعينة تعزف عليه طول الليل !·· سوف تخرجين الى جانب ذلك الماء ، وتستمعين اليها معى ·· انه لأمر عجيب حقا ان يثير شىء صغير كهذا خيال المرء ! ·· آه ! ان مجرد التفكير فى تقاسيم الناى المصرى أثناء الليل ·· » · ثم أمسك عن حديثه ، مطلقا صوتا لم يكن ضحكا خالصا ، وانما كان ضحكا يخالطه شىء آخر ! ثم استطرد : « امامنا ـ والحمد لله ـ شتاء عظيم ياروبى ، نقضيه معا بعيدا عن العالم »

فرددت كلماته فى بطء : « بعيدا ·· بعيدا عن العالم ! » · ثم اردفت وقد تغيرت نبراتها : « اننى فى حاجة الى المزيد من القهوة » ·· فقال : « حذار، والا عز عليك النوم ! » ·· فهتفت فى لهجة حافلة بالمعانى : « نيجل ·· هل تريدنى أن أنام الليلة ؟ » ·· فرمقها دون ان يجيب ، بينما استطردت قائلة : « وحتى اذا كنت لن استطيع النوم بسبب القهوة ، فلا بد لى من مزيد منها ·· وفضلا عن ذلك فانى عادة اسهر الى وقت متاخر » ·· فقال مشفقا : « ولكنك الليلة متعبة » ، فقالت باصرار : « لا باس ·· سوف اشرب القهوة ! »

وصبتها فى قدحها ، ثم شربتها ·· بينما كان يقول : « أعتقد انك تعيشين كثيرا فى الحاضر » ·· فقالت : « وانت ·· انك تعيش كثيرا فى المستقبل ! »

ـ أنا ؟ ما الذى يجعلك تظنين ذلك ؟

ـ ان غريزتى تنبئنى بهذه الحقيقة ·· وبحقائق اخرى عنك !

ـ اذا لم تخففى من غلوائك فستجعلينني اشعر وكانني صنعت من زجاج !

ـ عش قليلا فى الحاضر ·· عش فى الحاضر الليلة !

وكانت فى صوتها رنة من الالحاح ، وفى عينيها الزرقاوين الوضاءتين ـ اللتين راحتا تتالقان خلال الظلال المرسومة التى كانت تحيط بهما ـ لمحة من الالحاح كذلك ·· بل لقد كان هذا الالحاح واضحا فى يدها البيضاء النحيلة الدافئة وهى تضعها فوق يده وتردف قائلة : « ولا تشغل بالك بالمستقبل » ·· فابتسم قائلا : « اننى لم أكن مشغولا به ·· ولكننى كنت أتطلع اليه ! »

ـ لماذا ؟ اننا هنا الليلة يا نيجل كى نعيش وكاننا لن نعيش الا الليلة ! ·· انك تتحدث عن (سنورس) ، ولكن من الذى يدرى ما اذا كنا سنرى (سنورس) قط ، او نسمع الارغول المصرى بجانب الماء يوما ؟ انا لا ادرى ، وانت لا تدرى ·· ولكننا معا نعلم اننا هنا الليلة ، الى جانب النيل !

وكانت تحاول بكل قواها ـ ولكن فى استتار ـ ان تدمر فيه ذلك الطموح

الروحى الذى كان عنصرا من عناصر طبيعته ، والذى استطاعت ـ عن طريقه ـ ان تكسبه زوجا لها ·· فقد بدات تشعر بان ذلك الطموح بعينه اصبح لا يجد لذاته شاغلا سوى ان يثيرها ويضايقها ويقف فى طريق رغباتها ، فيسد المسالك فى وجهها ·· وقال نيجل وهو يتنهد فى عمق : « أجل ·· اننا هنا الليلة الى جانب النيل ، نسمع الملاحين وهم ينشدون ··· »

وكان المنشدون البعيدون قد اخلدوا الى الصمت منذ دقائق ، ثم لم تلبث اصواتهم ان سمعت من جديد ، وهى تقترب من الحديقة ، كما لو كانوا فوق عائمة تنحدر مع النهر تحت النجوم اللامعة ·· وكانت الموسيقى من القرب والدنو بحيث استطاعت مسز ارماين ان تسمع كلمة واحدة ، يصيح بها صوت منفرد : « الله ! الله ! الله ! » ·· وكانت تصاحب الصوت همهمة عميقة رتيبة، كما كان المغنى يدق على « دربكة » يضعها بين ركبتيه ، وقد صاحبه (كورس) من الأصوات المنبعثة من الانوف ، فى حرارة بدائية خالية من الفن ·· حرارة كان فيها شىء من الحزن والأسى ، وكان فيها شىء آخر ينبض بين الحين والآخر ـ رغم قسوته وصلابته ـ بالحنين ·· اشبه بقسوة العالم ، التى يخالطها ذلك الحنين الأبدى الى شفاء ما احدثته من جراح !

وعاد نيجل الى حديثه مرددا عبارته الأخيرة : « ·· نسمع الملاحين وهم ينشدون ويتغنون بالله ، وبالله دائما ·· الله ، اله النيل ، والهنا ·· نحن الاثنان الجالسان على ضفاف النيل ! » ·· فهتفت : « اش ، اش ، هاهو ذا الكلب قد عاد ! اننى اريد حتما ·· » ، وكان صوتها قد بدا يرتفع فى هياج عصبى ، واندفاع فجائى يكاد يكون وحشيا ، ولكنها استعادت سيطرتها على نفسها للتو، واستطردت تتابع فى هدوء : « الا يستطيع البستانى ان يمنعه من الدخول ؟ ·· » ، فقال نيجل : « لعله كلب البستانى ·· ساذهب لأرى ما فى الأمر ·· لن اغيب اكثر من دقيقة ! » ·· واندفع قائما يتبع الكلب الذى كان يزحف على بطنه مبتعدا الى داخل الحديقة ، وهو يتلفت حواليه بعينيه الصفراوين فى وجل ، ليرى ما اذا كان الخطر يقترب منه ·

* * *

◆ الله ! الله ! الله ! ·· فى أعماق الليل البهيم !·· ما درت مسز ارماين ان هذه الأنشودة التى راح يرددها ملاحو النوبة ، ستصبح ـ فى ايام مقبلة لم تكن تحلم بها ـ جزءا لا يتجزأ من وجودها على ضفاف النيل ·· لا ، ولكنها رغم ذلك اخذت تصغى فى انتباه توترت له اعصابها حتى غدا مؤلما !

« الله ·· الله ! » ·· وقالت مسز ارماين لنفسها : « ومع ذلك فمن المحتمل الا يكون هناك اله ! بل كيف يمكن ان يكون ؟ اننى واثقة من انه

لا يوجد ! » .. واذ ذاك خيل اليها فجاة ان ماير ايزاكسون قد مثل امامها فى الظلام ، وراح يتفرس فى عينيها كما كان يفعل فى حجرة الاستشارة بعيادته ، عندما نزعت خمارها واستدارت بوجهها نحو الضوء واغمضت عينيها ! ما الذى دعاها الى ان تفكر فيه الآن ؟ ولماذا تمثلته امامها ؟.. وترامى الى سمعها حفيف خافت انبعث من جوارها ، فاجفلت ، وفتحت عينيها .. وعند احد ابواب الشرفة ، كان « ابراهيم » الترجمان يقف ساكنا بلا حراك ، وهو ينظر اليها فى امعان ، وقد وضع زهرة بين اسنانه .. فلما تبين انها قد راته ، راح يتقدم الى الامام فى رشاقة وهو يبتسم ، مطاطئا راسه وكانه يستغفر عن وجوده فى ذلك المكان .. فسالته : « ما اسمك الذى ذكرته لى ؟ »

فتناول الزهرة من بين اسنانه ، وقدمها اليها ، ثم اخذ يدها فقبلها واحنى راسه حتى مس جبينه ظهر راحتها ، وقال : « ابراهيم احمد يا مولاتى » ..

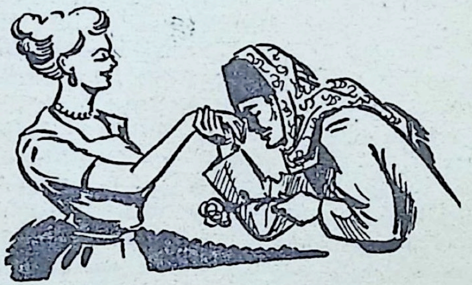

فنظرت الى ثوبه القصبى اللون ، والى سترته الأوروبية ، ثم الى ذلك المنديل الاخضر ـ ذى الحواف المذهبة ـ الذى كان يعقده حول طربوشه ، والذى غطى عنقه وتهدل على صدره .. ثم قالت فى استحسان : « شكلك بديع جدا ، ولكنى لا احب هذه السترة ، فانها تبدو انجليزية الى حد بعيد ! » .. فقال : « انها هدية من لندن يا مولاتى ».

« الله ! » .. كان غناء الملاحين يزداد قوة باطراد ، ويبدو اكثر حرارة ، واكثر الحاحا ، وكانه ابتهالات دينية غريبة تطرد ارتفاعا فى الليل البهيم .. فقالت مسز ارماين : « اين هؤلاء الناس الذين يغنون يا ابراهيم ؟ » . وثبتت الزهرة فى صدر ثوبها ، بعد ان فتحت معطفها لتفعل ذلك ، ثم استطردت قائلة : « لكانى بهم يقتربون شيئا فشيئا .. اقادمون هم من جنوب النهر الى الشمال ؟ »

فقال : « اعتقد انهم فى « فلوكة » يا سيدتى ٠٠ انهم نوبيون ، وهم دائما ينشدون هذه الانشودة ٠٠ انها انشودة جميلة ! »

وراح يحرك راسه فى رفق ، متتبعا ايقاع الموسيقى ٠٠ ومن خلال اطراف منديله الحريرى ، الخضراء والمذهبة ، كانت عيناه السمراوان الرقيقتان لا تكفان عن التفرس فى مسز ارماين التى قالت : « نوبيون ؟! ولكن الاقصر ليست من بلاد النوبة » ٠٠ فرد قائلا : « ان بلاد النوبة تقع جنوبى اسوان ٠٠ والمسلات تاتى من هناك ٠٠ سأريك المسلات غدا يا مولاتى ، فما من ترجمان يفهم كل شىء عن المسلات مثل ابراهيم ! »

فقالت : « اننى واثقة من انه لا يوجد مثلك ٠ ولكن ٠٠ » ٠ وكانت اصوات البحارة المنشدين هذه قد بدأت تسيطر على تفكيرها ، فقالت : « وهل كل البحارة نوبيون اذن ؟ » ٠٠ فاجاب فى لهجة لندنية مباغتة : « كلا ! »

ـ ولكن هؤلاء الذين يغنون ؟

ـ لقد قلت انهم نوبيون يا سيدتى ٠٠ انهم رجال محمود بارودى النوبيون !

فاعتدلت مسز ارماين فى مقعدها وهى تقول : « بحارة بارودى ! » ٠٠ واردفت بعد لحظة : « ولكن محمود بارودى ليس هنا فى الاقصر ؟٠٠» ٠٠فاذا عينا ابراهيم اللطيفتان تكتسبان حدة وبريقا فجائيين ، وقال : « وهل تعرفين محمود بارودى يا سيدتى ؟ »

ـ لقد قابلناه على الباخرة قادما من نابولى ٠

ـ انه كبير جدا ٠٠ كبير كرمسيس الثانى ٠٠ كتمثال الملك نفسه الذى ترينه امامك فى معبد الرامسيوم !٠٠ وعيناه واسعتان كعينى ، والشعر الكث يحف بهما هكذا !

ورفع يديه السمراوين الى اعلى ، مقلدا حاجبى « بارودى » العجيبى الشكل ٠٠ فاومأت مسز ارماين براسها ، بينما مد ابراهيم يديه نحو النيل قائلا : « هؤلاء هم رجاله النوبيون ، وهم قادمون من « دهبيته » التى تنتظره فى الاقصر الآن ٠٠ انهم الليلة بلا عمل ، ولذلك فهم يقبلون على شىء من اللهو !»٠ فتساءلت السيدة : « وهل هو قادم الى هنا ٠٠ الى الاقصر ؟ » ٠٠ فاوما ابراهيم براسه فى هدوء وقال : « اجل ، انه قادم الى الاقصر يا سيدتى ٠٠ وهو رجل لطيف جدا ، ورجل طيب جدا ! انه كبير كرمسيس الثانى ، وغنى كالخديو ! ولديه من المال مثل هذا القدر ! » ٠٠ وطوح بذراعيه فى الفضاء كانه يرسم عالما كبيرا او محيطا شاسعا ٠ ثم اسقط ذراعيه فجاة وهو يضيف : « ها قد جاء سيدى ! »

وبرز نيجل من ظلمات الحديقة قائلا : « أهلا يا ابراهيم ! » . فأجاب الترجمان : « أهلا بك يا سيدى ! » .. فعاد نيجل يقول متلطفا : « هل جئت تؤنس وحشة سيدتك فى غيابى ؟ أحسنت يا بنى ! » . واذ ذاك ابتسم ابراهيم ثم ابتعد متمهلا نحو شاطىء النيل ، وتلاشى ضياء ثوبه الذهبى بين جذوع أشجار البرتقال الصغيرة .. بينما قال نيجل وهو يجلس فى مقعده ويتنهد فى رضى وارتياح : « لقد تحققت من أنه كلب البستانى نفسه .. وقد الزمته باطعام الحيوان المسكين ، اذ اوشك ان يموت جوعا ، وهذا ما كان ياتى به الينا » .. فقالت فى وهن : « فهمت ! »

وغمغم نيجل : « الله ! » .. وكان فى نطقه بها كرجل من الشرق .. ثم نظر فى عينيها ، وراح يقول : « انها الكلمة الاولى التى تسمعينها - فى الليل - من مصر يا روبى ! انها تحية ليل مصر اليك .. وكثيرا ما سمعت هذه الأنشودة فى أعالى النهر ، عند بلاد النوبة ، ولكن .. اوه ! شد ما تبدو لى الآن مختلفة ! »

وكانت مسز ارماين فى تجاربها الطويلة - خلال حياة معقدة وحافلة بالتقلبات - قد سمعت صوت الحب من أفواه الرجال ، مرات عديدة .. ولكنها لم تكن قد سمعت قط - حتى هذه اللحظة - صوت الحب من نيجل ، زاخرا مليئا .. وتبينت فيه شيئا لم تعرف كيف تتجاوب معه ، وهى التى كان لها من غريزة الغانية اللعوب ما يمكنها من التجاوب الكامل التام مع رغبات الرجل الذى دبرت بنفسها امر ارتباطها به .. لقد كانت مدينة له بهذا ، ولكن ما أكثر ما كانت مدينة به لشىء آخر فى اعماقها ؟! .. ان ثمة جوعا كان يعوى فى اعماق نيجل ، ولم يكن لديها قوت له !.. فلماذا اظهر لها هذا الجوع ؟.. لقد طالما ضاقت نفسها بمظهر هذا الجوع ، اما الليلة فانها تحس بأنه يشحذ كل كيانها ويرهف حسه .. ومع ذلك ، فقد عقدت العزم على أن لا تدع نيجل يرى انفعالها .. ومن ثم فانها اجابت فى هدوء بالغ : « اننى أسمع هذه الأغنية للمرة الأولى معك .. لذلك فسوف تظل مقترنة بك فى نفسى ! »

فدنا منها قليلا .. وفهمت ، واستطاعت ان تجيب النداء الذى استثار هذه الحركة .. فهتف يقول : « يجب ان نشرب ماء النيل معا يا روبى .. ماء النيل بأشكاله المختلفة .. وسوف آخذك الى مقابر الملوك والى بهو الأعمدة ، بينما تكون الشمس موشكة على المغيب .. وعندما يشرق القمر ، سنذهب الى الكرنك .. وانى لواثق من انك ستحبينها جميعا ، كما احبها انا .. من الطبيعى أن المرء لا يستطيع ان يعرف مدى مشاعر غيره ، ولكن .. هل تظنين انك ستحبين معى كل هذه الأماكن ؟ »

وكانت تخالط الحرارة والرغبة فى صوته نبرة تنبىء بالقلق وبذلك الشك النفسى الذى يصاحب الحب فى أنواع معينة من الطبائع البشرية ٠٠ وقالت المراة : « اعتقد أننى احبها جميعا ٠٠ معك » ٠ وتركت يدها تسقط فى يده ، فلما اطبقت راحته عليها تحركت غرائزها ٠٠ كان فى نيجل شىء يجذب جسدها اليه ، بشدة وقوة فى بعض لحظات معينة ، فكان عليها ـ فى حياتها المقبلة ـ ان تطرد ما قد يتعارض مع هذه الجاذبية !

واستطرد نيجل فى حديثه قائلا : « ويوما ما ٠٠ يوما ما سآخذك لترى الليل وهو يهبط على أبى الهول ، اعجب ما فى مصر ، بل ما فى العالم بأسره ! ٠٠ نستطيع ان نفعل ذلك عندما يكون حتما علينا ان نمر بالقاهرة ، فى ذهابنا الى الفيوم او سفرنا منها ، بمجرد أن اعد لك أسباب الاقامة هناك ! »

ـ انك تفكر فى كل شىء يا نيجل !

ـ اولا تحبين أن تكونى موضع التفكير ؟

ـ ما من امراة على ظهر البسيطة لا تحب ذلك !

وضغطت يده فى رفق ، ثم رفعتها فوضعتها على ركبتها ٠٠ وعندئذ رأته يتطلع الى النجوم ، فايقنت أنه كان يربط بينها هى وبين النجوم ٠٠ ويفكر فيها كشىء مثالى ، او انه ـ ان لم يكن الأمر كذلك ـ يفكر فيها كشىء يمكن ان يغدو مثاليا فى الوقت الملائم ! وقالت : « اننى لست نجما ! » ٠٠ ولكنه لم يحر جوابا البتة ، فعادت تقول : « نيجل ٠٠ لا تكن من الحماقة بحيث تفكر فى كنجم من النجوم ! » ٠٠ فالتفت اليها فجاة وقال : « ماذا تقولين يا روبى ؟ » ٠٠ فاجابت : « لا شىء ! »

ـ ولكنى سمعتك تتكلمين ؟

ـ لابد انها كانت اصوات الملاحين المنشدين ٠٠ لقد كنت اتطلع الى النجوم ٠٠ تالله ما اعجبها !

وفيما كانت تقول ذلك اتت بحركة خفيفة جعلت معطفها ينفرج بحيث بدا نحرها الناصع ، وهى تردف : « ما ابدع هذا الدفء الجميل ! » ٠٠ فنظر الى نحرها ، وتنهد ، وبدا عليه التردد لحظة ٠٠ ثم انحنى فجاة كما لو كان يهم بتقبيله !٠٠ ومزق السكون فى تلك اللحظة الصوت الأخن ، المنبعث من أنف الملاح الذى كان يردد الهتاف المنغوم « الله ! » وهو يتزعم المنشدين ، قادما الى الحديقة من النهر ، بينما كانت دقات « الدربكة » تدوى عاليا ٠٠ عندئذ رفع نيجل رأسه دون أن يقبلها ، وقال : « ان هؤلاء الملاحين قريبون من الحديقة ! » ٠٠ فالتفت مسز ارماين فى معطفها فجاة ، بينما كان ماضيا فى حديثه قائلا : « هل تحبين أن نهبط الى النهر ونراهم ؟ » ، فاجابت : « نعم ، دعنا نذهب ٠٠ ينبغى ان اراهم ! » ٠٠ ونهضت من مقعدها فى حركة

سريعة رشيقة ، كانت مليئة بدافع من التحمس الملتهب ، فى حين كانت عيناها تلمعان فى ضراوة ، كانهما تجيبان على أصوات الملاحين الضارية !

وجذب نيجل ذراعها فتابطها ، وانحدرا على الممر الرملى الصغير امام اشجار البرتقال الساكنة ، حتى بلغا ضفة النهر ٠٠ وكان ابراهيم واقفا هناك ، يدخن سيجارة ، ويسترق النظر ساهما ، من خلال دثاره ذى الأهداب (الشراريب) ٠٠ فقال نيجل : « أين الملاحون يا ابراهيم ؟ » ٠٠ فبادر مجيبا : « ها هم اولاء قادمون يا سيدى » ٠٠ وعلى الظلمة الرجراجة المترامية التى لفت النهر ، كانها طريق رحبة من مسالك الليل تمتد موغلة نحو اصقاع افريقية نائية ، وهى تحتضن ضفتى النهر بسياج من الأشجار المعتمة ٠٠ على هذه الظلمة اقبلت « الفلوكة » وهى تتالق بالمصابيح ٠٠ والمجاديف تضرب صفحة الماء مختلطة باصوات الرجال ، الذين بدوا كاشباح مبهمة ، بعضها جاثم ، وبعضها منتصب ، وبعض ثالث انحنى مطلا على النهر الذى تخللته خيوط من الضوء ، اخذت تتساقط فيها قطرات متالقة من الماء العالق بالمجاديف المرفوعة ٠ واذ تكشف هذا المنظر للمتفرجين الواقفين فى الحديقة، هتف ابراهيم : « ها هم أولاء النوبيون قادمون » ٠٠ فقال نيجل : « ترى ما الذى يفعلونه هنا ؟ ولماذا يصعدون فى النهر الليلة ؟ رجال من هؤلاء يا ترى ؟ »

وفتح ابراهيم شفتيه ليجيب ، ولكن مسز ارماين نظرت اليه ٠٠ وعندئذ اطبقهما دون ان ينطق بكلمة واحدة ! بينما هتفت : « صه ! اننى اريد ان اسمع غناءهم » ٠٠ فقد لاح لها ذلك وكانه حفل موسيقى ليلى (سيريناد) من الشرق ، اقيم ترحيبا بمقدمها الى مصر ٠٠ او كانه صوت افريقيا العظيمة السوداء يتحدث اليها وحدها من ثنايا الليل ٠٠ يخاطبها فى نداء قوى ، ويتحداها ان تستطيع الاغضاء عن الاصغاء اليه ، او الاستجابة الى دعواته البدوية !٠٠ وثار فى اعماقها لون من الخيال الحيوانى ، فبدات تحس بانفعال قوى ينهشها ٠٠ ولم تعد تسمع اسم « الله » ٠٠ وحتى لو سمعته ، فانها لم تعد تربط بينه وبين الاله الذى يعرفه المسيحيون ، او الاله الذى يعرفه نيجل ، وانما بينه وبين تلك الأصنام الغريبة القائمة فى المعابد المعتمة ، حيث تختلط الجريمة بالعبادة ٠٠ لقد ثار خيالها فجاة ، واستجمع كل نشاطه ، ثم اندفع يعدو جامحا !

وظل القارب واقفا امام الحديقة ، فراحت تحدث نفسها : « لعلنى المقصودة بهذا ٠٠ بل اننى المقصودة به حقا ! » ٠٠ وادركت من تلك اللحظة على وجه التحقيق ان هذا القارب قد اتى الى الحديقة لأنها كانت تقيم فى هذه الحديقة ، وانه تمهل حتى تستوثق من ان الغناء كان موجها اليها ولم يكن لأحد سواها

.. انه لم يكن لها ولنيجل معا .. اذ لا شأن لنيجل به ، وما هو بالذى يفهم مغزاه ! .. وما لبث القارب ان تحرك الى الأمام ، واخذت المجاديف المتلألئة تحت الأضواء تتارجح فوق الماء مبتعدة ، والأصوات تحلق تحت النجوم سارية ، الى ان طواها الليل فى احضانه .. واستحوذ غموض مصر – الذى لا يغفل ولا ينام – على الضوء والغناء !

وعندئذ قال نيجل فى تهيب ، وقد خامرت صوته رجفة : « هل نعود الى الفيلا يا روبى ؟ » .. فلم تحر جوابا لحظة . وما لبثت ان قالت : « اجل .. احسب ان الوقت قد حان للذهاب الى الفراش » .. فتابط نيجل ذراعها ثانية .. ومضيا متجهين نحو المنزل ، بينما كان ابراهيم يرقبهما والابتسامة على شفتيه !

الفصل الثالث عشر

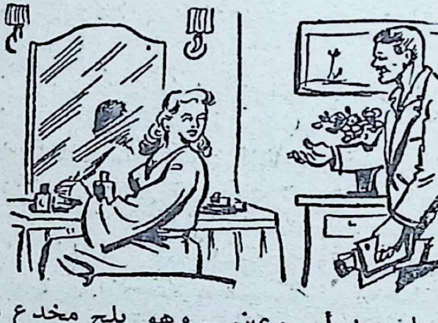

• **قال** نيجل بعد أسبوعين – وهو يلج مخدع زوجته عقب رياضته الصباحية التى كان يتمشى خلالها على ضفة النهر بعد استحمامه فى النيل : « روبى .. من تظنيننى قد قابلت لتوى فى الأقصر ؟ » .. وكان ممسكا فى يده بحزمة من الخطابات والصحف ، اذ كان البريد قد وصل منذ قليل .. وكانت مسز ارماين فى ثوب منزلى (روب) طويل أبيض اللون ، لا يبرز تقاطيع جسمها ، وقد تهدل شعرها اللامع خلف عنقها ، وجلست أمام منضدة الزينة .. فالتفتت من

فوق كتفها قائلة : « أهو شخص تعرفه نحن الاثنان يا نيجل؟» ٠ فأومأ برأسه موافقا ٠٠ وإذ ذاك قالت : «ماأحسبك تعنى القرمزى والأحمر القانى ؟ » ٠٠ فقال : « آل هايمان ؟ كلا ، ولو اننى أعتقد انهما هنا فى فندق ونتر بالاس » ٠٠ فغمغمت عابسة : « غفر الله لهما ! وهل الذى قابلته رجل أم امرأة ؟ » ، فأجاب: « بل رجل ! »

واستدارت دفعة واحدة ، فى حركة حادة فجائية ، وقد تشبثت يداها بمسندى المقعد وهتفت قائلة : « رجل ! ما أحسبه ماير ايزاكسون ؟ »

ـ ايزاكسون ؟ يا اله السموات ! انه لا يأخذ اجازة قط الا فى شهر اغسطس ٠ ياللصديق العزيز الحميم ! كلا ! بل هو شخص لا أهمية له بصفة خاصة ، ولكن لا بأس به ! ماهو سوى ٠٠ بارودى !

فتهاوت ذراعا مسز ارماين عن مسندى المقعد ، وهى ترتد الى المرآة ، ثم قالت وكأنما هذا الاسم لا يعنى شيئا بالنسبة لها : « بارودى ! لماذا تثير شغفى للاشىء يانيجل ؟ » ٠ وتناولت ناثرة « البودرة » ، وهى تستطرد : « هل تعنى ذلك الرجل الذى رأيناه على الباخرة ؟ ما شأنه بنا ؟ »

فعبر نيجل الحجرة ، ثم جلس على مقعد بجوار منضدة الزينة ـ فى مواجهة زوجته ـ ممسكا فى حجره بحزمة الخطابات والصحف ، وقال : « أفكنت تتوقعين شخصا آخر يا روبى ؟ » ٠٠ فقالت : « كلا ، لأننا لا نريد أحدا ! ولكنك أثرت لهفتى وترقبى ، ثم ألقيت عليه رشاشا باردا ! يا لك من شخص مزعج ! » ٠٠ وكان فى صوتها نوع من السخط المكبوت ، ولكن عينيها وشفتيها كانت تبتسم وهى تمر بناثرة المسحوق على وجهها ٠

واستند نيجل بذراعه الى منضدة الزينة وقال : «روبى !» ، فهتفت متسائلة : « نعم ٠٠ ماذا هنالك ؟ » ٠ وتوقفت عن نثر

البودرة على وجهها ، بينما قال : « كم أود ألا تفعلى كل ذلك ! » .
فسألته فى دهشة : « كل ماذا ؟ »

ـ كل الذى تفعلينه بوجهك ، فأنت جميلة .. وبودى لو تركت وجهك على سجيته !

ـ اننى أفعل ذلك فى الواقع ، ولكننى أحاول أن أقى بشرتى حرارة الشمس ! ولا ريب فى انك لا تريد منى ان أبدو كزوجة واحد ممن يسميهم ابراهيم « الفلاحين » .. أليس كذلك ؟

ـ انما أريد أن تظهرى طبيعية بسيطة كشأنك معى دائما ، ولست أعنى طبعا انك بسيطة العقل ، وانما أقصد أسلوبك وطريقة حياتك !

ـ يا عزيزى نيجل .. من ذا الذى يتصنع فى هذه الأيام ؟ ولكننى مضطرة الى أن لا أظهر كنساء الفلاحين .. ان ذلك يصدم ابراهيم ويفجعه !

ومع ذلك فقد وضعت ناثرة المسحوق جانبا ، بينما قال نيجل : « انك لاتثقين فى جمالك الحقيقى يا روبى ! » . فاضطجعت فى مقعدها وراحت تنظر اليه فى رصانة ، وكأن ملاحظته هذه قد أثرت فيها تأثيرا قويا .. ثم تطلعت الى المرآة ، وعادت تنظر اليه من جديد قائلة : « هل تظن اننى ينبغى أن أكون من الحكمة بحيث أثق فيه كما هو الآن ؟ » .. فهتف متحمسا : « لا ريب فى ذلك » .. ووضع يده فوق يدها ، ثم استطرد : « **انك تزدهرين هنا فى مصر .. ولكنك لا تكادين تمكنين المرء من ادراك ذلك عندما تضعين هذه الأشياء فوق وجهك** »

وعادت تحدق النظر الى المرآة فى صمت . وأخيرا قالت : « هل هناك خطابات لى ؟ » ، فأجاب : « اننى لم أنظر اليها بعد ، فقد كنت أتمشى مع بارودى على الشاطىء ، حيث لحق بدهبيته ، وسيذهب بها الى (أرمنت) ليشرف على أعماله فى صناعة السكر هناك » .. فغمغمت : « آه ! » ، بينما استطرد

نيجل قائلا : «وأظنه لن يبقى الا الى الغد أو الى يوم الأربعاء ٠٠ وقد دعانى للذهاب الى يخته والتفرج عليه بعد الظهر ! » ٠٠ فسألته : « وهل انتويت الذهاب ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « لقد قلت له اننى لن ألبث ان أخبره ٠٠ فهل أذهب ؟ » ٠٠ وأجابت متسائلة بدورها : « أو لست تريد أن تذهب ؟ »

ـ اننى أحب أن أرى العائمة ، ولكن ٠٠ انت تعلمين انه نصف شرقى ، ولعله لم ير من الصواب ان ٠٠ ولكن ٠٠٠

ـ تقصد أنه لم يدعنى معك ؟ ولماذا ينبغى أن يفعل ؟ اذهب يا نيجل ، فأنت فى حاجة الى صحبة الرجال أحيانا ، وما ينبغى أن تجلس دائما بجانبى ! وفضلا عن ذلك فانك موشك على السفر الى (الفيوم) ، ويجب أن تتعود الوحدة بين ساعة وأخرى !

فضغط على يدها فى رفق ، وقال : « لسوف أعود من الفيوم سريعا ٠٠ وسريعا سوف تذهبين معى الى هناك » ٠٠ فهتفت : « اننى أحب هذا المكان ٠٠ أهناك خطابات لى ؟ » ٠٠ واذ ذاك فك الخيط الذى كان يربط رزمة الخطابات ، وراح يتصفحها ، ثم ناولها ثلاثة أو أربعة خطابات ، فقالت : « والآن اذهب واقرأ خطاباتك بعيدا عنى ٠٠ فاننى لاأستطيع أن أفعل شيئا عندما تكون فى حجرتى ، لأنك تستحوذ على انتباهى كله ! وسوف ألحق بك تحت بعد بضع دقائق» ، فقبلها وانصرف، ملبيا رغبتها

وعندما بلغ حجرة الجلوس الصغيرة ، ألقى بالصحف على احدى المناضد فى غير اهتمام ، ودون أن يفض أغلفتها ـ اذ قلما نظر فى صحيفة منذ أن قدم الى مصر ـ فقد كانت لديه أشياء أخرى لابد له من أن يفعلها ٠٠ أشياء شغلته عقلا وجسدا ٠٠ اذ كان نيجل ، ككثير من الرجال الذين خلقوا وبهم حماس حيوى عظيم، يعيش أحيانا وعلى جانبى وجهه مثل رفاريف الحصان ، التى تحجب عن ناظريه تماما كل مافى العالم عن يمينه ويساره ٠٠ كان فى وسعه أن يركز حواسه فى أمر واحد الى حد يدعو للدهشة ٠ وقد ركزها ـ منذ قدم الى مصر ـ فى زوجته وفى حياته الخاصة من

حيث علاقته بها ٠٠ ولم تكن تزعجه شئون الأمم والدنيا كلها ٠٠ الا أنه اعتاد أن يقرأ خطاباته وبعض أشياء أخرى الى جانبها، ومن ثم فقد تناول الرسائل التى وصلته هذا الصباح ، ومضى خارجا الى الشرفة ليلقى عليها نظرة فى الشمس الساطعة ٠٠ وكانت الرسائل تتضمن فواتير ومطالبات ، ورسالة من وكيله فى (اتشنجهام) ، وحوالة من رجل الأعمال الذى يعامله فى القاهرة ٠٠ ثم ـ مرحى ! ـ خطاب من أخيه هارويتش !٠٠ ولم يوح له هذا الخطاب ببهجة كبيرة ، فقد سبق أن تلقى عدة خطابات عائلية لايلوح فيها الابتهاج بزواجه ٠٠ لكن أهله لم يضايقوه الى الحد الذى كان يخشى من قبل أن يفعلوه ٠٠ ولم يكن يتوقع أن ينظر أقرباؤه أو العالم الى الأشياء بعينيه هو ، أو أن يفكروا فى « روبى » بشىء من الرفق أو التسامح من أجل ماضيها ٠٠ كان يعرف دنياه بحيث لم يكن يتطلب منها أمرا لايقبله العقل ، ولكن « هارويتش » سبق أن عبر عن رأيه بحريته المعتادة ، ولا يبدو ان ثمة سببا معينا يجعله يعاود الكتابة اليه سريعا على هذا النحو !

وفتح نيجل الخطاب وقرأه فى سرعة ، ثم أعاد قراءته ، وبعدئذ وضعه على ركبتيه وجذب قبعته المصنوعة من التيل فوق عينيه ، ثم مكث فترةطويلة بلاحراك ، ممعنا فى التفكير٠٠ فقد حمل اليه خطاب أخيه ان «زوى» زوجة أخيه هارويتش ، قد وضعت غلامين توأمين ، وانهما كانا « فى صحة جيدة الى حد يكاد المرء يذهل له ٠٠ مرحى ، مرحى ! » ٠٠ وكان المرح البالغ الذى أبداه هارويتش فى خطابه طبيعيا تماما ، ومن الجائز أن يؤخذ على انه منبعث من المشاعر الأبوية التى حظى بها ، غير أن ابتهاجه انطوى على بارقة من الزهو لم تغب عن فطنة نيجل ، وهى التى جعلته يمعن فى التفكير الآن ٠٠ لقد كان هارويتش مبتهجا لأن ظفره بالنسل قد حجب نيجل وزوجة نيجل عن الميراث ، ولأن مسز ارماين ـ كما أصبح فى وسع

المرء أن يرى — لن تكون البتة « ليدى هارويتش » !

ولم يبال نيجل بالامر قط بالنسبة لنفسه ، فمع أن هارويتش كان يكبره بعشر سنوات ، الا انه لم يفكر البتة فى ان يرثه ، ولم يتمن قط ان يرثه ! وعندما تزوج من «روبى» كان يعلم ان زوجة أخيه سوف تنجب طفلا ·· كان يعلم ذلك ، ولكنه لم يخبر روبى به ! ·· ولم يتعمد اخفاء الأمر ، وانما ·· كل ماهنالك أنه لم يخطر بباله أن يخبرها عنه ! أما الآن فان لهجة خطاب هارويتش جعلته يسائل نفسه : هل يسوؤها الأمر ؟!

وسمعها اذ ذاك قادمة الى الحجرة خلفه ، ثم اجتازتها وانتقلت الى الشرفة ، وهى تقول : «نيجل ! هل أنت نائم ؟» ، فهتف : « نائم ؟! فى هذه الساعة ؟ » · وللمرة الأولى خالجت صوته نبرة غير طبيعية ·· كان يغتصب لهجة مليئة بعدم الاكتراث · وقفز من مقعده ، فتناثرت الخطابات على الأرض ·· فهتفت : « أو لم تقرأ خطاباتك فى هذا الوقت كله ؟! » ·· فقال : « لا ·· لم أقرأها كلها ·· حتى الآن على الأقل ! »

وانحنى يلتقط الخطابات من الأرض ، وهو يستطرد : «لقد شغلت بقراءة خطاب من أخى ·· من هارويتش » ·· فرمقته بنظرة حادة ، وقالت : « من اللورد هارويتش ؟ أهى أنباء سيئة ؟ هل اللورد هارويتش مريض ؟ » ، فأجاب : « كلا يا روبى »

— ماذا فى الأمر اذن ؟

— الأمر ؟ لا شىء ! بل انها على العكس أنباء سارة !

وكانت عيناه ، على الرغم منه ، تحدقان النظر اليها فى تفرس شديد ، بسبب القلق الذى انتابه ·· واستطرد : « لقد ظل اللورد هارويتش المسكين ينتظر طويلا ·· وها هو ذا أخيرا قد حصل على ما كان يتوق اليه ! » · فتساءلت : « وما هو ؟ » ·· وكان جوابه : « طفل ·· أعنى طفلين ، توأمين ! » ··

وران الصمت عليهما لحظة ، وبعدئذ قالت مسز ارماين ، فى ابتسام : « اذن فهذا هو الأمر ! » ٠٠فقال : «**أجل يا روبى !**» ٠٠ وتساءلت : « أبنتان هما ، أم غلامان ، أم بنت وغلام ؟ » ٠٠ وأجابها : « بل غلامان معا » ٠٠ فقالت : « **هنئه نيابة عنى عندما تكتب اليه !** ٠٠ والآن ، اقرأ بقية رسائلك ٠ أما أنا فسأذهب لأتجول فى الحديقة »

وفيما كانت تقول ذلك ، رفعت مظلتها وانطلقت تخطر نحو النيل ، متوقفة بين آن وآخر لتتأمل زهرة أو شجيرة ، أو لتمسك بوردة ريثما تشمها ثم تفلتها فى تراخ وفتور٠٠وساءل نيجل نفسه : « ترى هل يسوؤها الأمر حقا ؟ يا للعنة ! هل يسوؤها الأمر ؟ » ٠٠ ولم يكن محياها قد اكفهر ، ولا صدرت عنها بادرة غضب رغم ارادتها ، ومع ذلك فقد كان فى هدوئها الظاهر نوع من التحفظ والكبت جعل بدنه يقشعر جزعا !٠٠ لقد كانت من البراعة فى قراءة أفكار الناس بحيث انها ولابد قد أحست بالقلق الذى ملأ قلبه ، والرغبة الحارة فى أن يطمئن ويهدأ جأشه ! ٠٠ **لو انها فقط قابلت الأمر فى صراحة ، ولو انها جاءت اليه ولمست يده ، وقالت : « أيها الصديق الحميم العزيز ٠٠ ما الذى يهمنا من الأمر ؟ ما أحسبك تظن اننى عنيت قط بأن أكون ليدى هارويتش المقبلة ؟» ـ أو شيئا من هذا القبيل ـ اذن لتلاشت شكوكه وانمحت الى غير رجعة ٠ ولكنها تلقت الأمر فى برود غير مألوف ، وأقصت الموضوع عن حديثهما فى تعجل أكثر مما ينبغى ٠ ولعل الخطأ ـ مع ذلك ـ خطأه هو ، اذ كان متحفظا معها ، ولم يقل لها كل ما كان يفكر فيه أو أى شىء كان يفكر فيه !**

وبدافع قوى ، أسرع خلفها حتى أدركها عند ضفة النيل ، وهو يصيح : « روبى ٠٠روبى ! » ٠ ولكنها قالت : « انظر ! » ٠٠ فهتف : « ماذا ؟ أوه ! انها ذهبية بارودى وقد ألقت

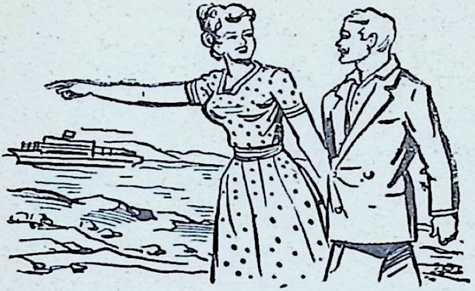

مرساها هناك ! نعم ، كنت أعرف ذلك ، فقد أراد الفرار من ضوضاء الاقصر ٠٠ روبى ، انك ٠٠ انك لم تبالى بالأمر ٠٠ أعنى هارويتش والغلامين ؟ » ٠٠ فتساءلت : « أبالى ؟! » ٠ وبدا الغضب واضحا فى صوتها بغتة ، ولاح فى عينيها البراقتين وميض قاس وهى تقول : « أبالى ؟ ما الذى تعنيه من ذلك يا نيجل ؟ » ٠٠ فقال : « الواقع ٠٠ انك ترين ان ذلك يحدث اختلافا كبيرا فى مركزى من وجهة النظر الدنيوية » ٠٠ وكان ردها : « وهل تظننى أهتم لذلك ؟ لقد حدست ان هذا ما جال ببالك ٠٠ ولقد أدركت تماما ما الذى كنت تفكر فيه على الشرفة ! »

وكانت فى صوتها نبرة تنم عن الاستياء لما أصاب كرامتها من جرح ! وما لبثت أن أضافت فى نوع من الهدوء والمرارة البالغة : « ولكن ٠٠ أى شىء آخر كان ينتظر أن يخطر لك أو لسواك ؟ » ٠ فهتف بها : « روبى ! » ٠ وحاول أن يمسك بيدها ، ولكنها لم تدعه يفعل ، بل صاحت : « كلا يا نيجل ! لا تمسنى الآن ! اننى ٠٠ اننى خليقة بأن أمقتك لو مسستنى الآن ! » ٠٠ وكان وجهها يتقلص فى أسى ولوعة ، والدموع تتردد فى عينيها ، وهى تستطرد : « لست ألومك قيد شعرة ٠٠ ولابد أن أكون حمقاء اذا توقعت من أى شخص ـ حتى

انت ـ أن يثق بى ، بعد كل ذلك ٠٠ كل ذلك الذى حدث ! ٠٠ ولكن من الصعب ، بل انه من الشقاء المروع أحيانا ، أن يحتمل المرء هذا الجمود والكفر بامكان وجود أى خير أو نزعة طيبة فى نفسه ! »

واستدارت تبتعد فى عجلة ، ولكنه هتف بها فى رقة وحنان : « روبى ! » ٠ فقالت : « كلا ، كلا ، دعنى وحدى قليلا ! » ٠٠ ثم صاحت به اذ رأته يتبعها : « قلت لك اننى أريد أن أنفرد بنفسى ! » ٠٠ فظل جامدا مكانه فى ممر الحديقة ، يرقبها وهى تمضى حتى دخلت المنزل ، وراح يقول لنفسه : يا لى من حيوان ! لست الا وحشا ضاريا ! ٠٠ وشدد الضغط على قبضتيه ٠٠ كان فى تلك اللحظة يمقت نفسه ، ويتوق الى أن يصارع هذه النفس فيصرعها ويصرع الرجال جميعا معها ٠٠ **أولئك المرتابين فى وجود الخير ، المتشككين والمكذبين للفضائل ٠٠ انهم عوامل التدمير لكل ماهو طيب ونبيل !**

* * *

◆ **أما** مسز ارماين فقد مضت الى حجرتها رأسا ، وأوصدت الباب دون وصيفتها ، ثم استسلمت لعاصفة عنيفة من الحزن والأسى ، كان مبعثها تلك الرغبة العمياء التى دفعت نيجل الى أن يكون صريحا ، وجعلته يلح فى تتبع الأثر الذى خلفته أنباؤه عن هارويتش ٠٠ ذلك لأنها ـ بما أوتيت من دهاء عبقرى قل أن فارقها ـ كانت قد أخضعت طباعها لخدمة الخداع والمخاتلة ، فلما تبينت آن سيطرتها على نفسها قد فارقتها وانه ما من سبيل الى اخفاء سخطها وحنقها ، مضت تربط غضبها بسبب آخر غير السبب الحقيقى ٠٠سبب خليق بأن يثير عطف نيجل وحنانه نحوها ٠ **اذ انها ـ فى الوقت الذى كانت تشعر**

فيه نحوه بالمقت والكراهية ـ كانت تلقنه كيف يحبها .. تلقنه ذلك عن عمد وتدبير ! .. أما عندما خلت الى نفسها ، فقد فارقها تدبيرها ، ولم تعد تبالى بما قد يحدثه الحزن والغضب من آثار فى وجهها وهيئتها ، فاستسلمت لهما .. وكان استسلامها كاملا !

ولم تهبط فى ساعة الغداء ، ولكنها قبيل موعد الشاى ظهرت ثانية في الحديقة ، وقد بدت عليها السكينة والهدوء ، وان كانت بادية الاعياء الى حد يبعث على الاشفاق ، وفى عينيها لمحة من اللطف ، والتفكير العميق .. وعندما اقترب نيجل ليستقبلها فى قلق وندم ولهفة ، سألته : « متى تذهب الى الدهبية ؟ » ، فأجاب : « ما أظننى سأذهب البتة .. فلست راغبا فى الذهاب ، بل اننى سأبقى هنا وأتناول الشاى معك » .. ولكنها ردت قائلة : « لا .. ليس لك أن تفعل ذلك ، فانى أحب أن أتناول الشاى بمفردى اليوم » .. وكانت تتكلم فى رفق بالغ ، ولكن مسلكها وعينيها وكل كلمة قالتها ، كانت تأنيبا له وعتابا ! .. فأجاب : « اذن فسأذهب .. اذا كنت تفضلين ذلك ! » .. وغض بصره وهو يستطرد قائلا : « لقد حضر رجال بارودى بالفعل ليصحبونى الى هناك » .. فقالت : « لقد سمعتهم من حجرتى وهم ينشدون . هيا اذهب .. ولا تجعله ينتظرك طويلا ! »

وكانت تبدو ـ وهى تنطق بكلماتها الأخيرة ـ كما لو كانت تبذل جهدا واضحا .. وكأنها كانت تحاول أن تنهج منهج الغانية اللعوب ، عندما تتلطف فى تدلل آمر الى الرجل الذى تطمئن الى انه يعبدها .. ولكنها فى الوقت نفسه جعلت شفتيها ترتجفان ، بحيث يشعر انها كانت تتصنع موقفها تصنعا ! .. على أنه لم يجرأ على القول بأنه أدرك ذلك ، وانما مضى يجتاز الحديقة الى ضفة النيل ، واستقل « الفلوكة » التى

كانت تنتظره ، وأعمل ملاحوها المجاديف متوغلين فى النهر !

وما كاد يذهب حتى نادت مسز ارماين ابراهيم وأمرته بأن يضع لها مقعدا ومنضدة فى ظل سياج الحديقة الملاصق للحاجز الحجرى الممتد الى داخل النيل ، والذى أقيم ليحول دون تآكل أرض الشاطىء عند الحديقة ٠٠ وقالت : « سأتناول الشاى هنا يا ابراهيم ، فاخبر « حسن » بأن يحضره بمجرد أن تبدأ الشمس فى الغروب » ٠ فأجاب الفتى ـ « الدائم الشباب والمرح » ـ قائلا : « سمعا وطاعة ٠ وهل يعود ابراهيم ويمكث معك ؟ » ٠٠ فهزت رأسها وهى تنظر فى رفق الى الفتى ، الذى كان قد بدأ يعبدها ، شأن جميع النوبيين الذين كانوا فى الفيلا ، وقالت : « ليس اليوم ياابراهيم ، فاننى أحب أن أخلو الى نفسى »٠٠فأحنى قوامه الطويل النحيل وأجاب فى رصانة : « لك كل ماتشائين يامولاتى » ٠ فصاحت به فى حدة مفاجئة : « لا تنادنى اليوم بلقب : مولاتى ! »

ولاح ابراهيم متحيرا ، مبهوتا ، وقد آلمته لهجتها٠٠وعندئذ لمست جبينها وهى تستطرد : « لا بأس يا ابراهيم ! ان رأسى يؤلمنى اليوم ويجعلنى أغضب دون داع ! » ٠٠ فدس احدى يديه فى ثوبه الذهبى وأخرج منه قنينة من الزجاج مليئة بنوع من العطر الأوربى الرخيص ، وقال : « لسوف يشفيك هذا يا مولا ٠٠ يا مس ٠٠ دلكى به رأسك ، فان له رائحة جميلة ٠٠ ان رائحته جميلة حقا ! » ٠٠ فتقبلت العطر فى ابتسامة شاكرة ، بينما انصرف الفتى مهموما ، ليأمر باعداد الشاى ، وقد ترك رأسه يميل نحو كتفه اليسرى ، وبدا أشبه بكلب أمين يجد نفسه فجأة ـ وعلى غير انتظار ـ غير مرغوب فيه من سيدته ! ٠٠ أما مسز ارماين فقد جلست ساكنة بلا حراك ، وقد قطبت جبينها !

وكان بوسعها أن تسمع غناء أتباع بارودى النوبيين ، وهم

ينحنون فوق مجاديفهم القوية ، ولكنهم لم يكونوا يرددون أنشودة « الله » التى كانوا يحيونها بها عند وصولها ، والتى يحتمل أن يكونوا قد حيوها بها تنفيذا لرسالة ما أرسلها اليهم سيدهم من الاسكندرية ٠٠ كلا ، وانما كانوا يرددون ــ فى هذه المرة ــ أغنية خافتة غامضة ، تكاد تشبه همهمة بعض الأرواح فى النيل ، وتبدو كما لو كانت تعبر تعبيرا غريبا عن حزن أصاب الشمس ! ٠٠ فكأنما كانت تكمن فى قلب ذلك البهاء الذهبى قرحة خفية ، كتلك القرحة من التشكك التى تكمن فى لب كل فرح انسانى ! ٠٠ وما لبث النهار أن أخذ فى الاحتضار ، وتلاشت أصوات الملاحين ٠ وأحضر حسن الشاى لسيدته فى الحديقة ــ تنفيذا لأمر ابراهيم ــ فلما فرغ من اعداد المائدة وقف بالقرب منها لحظة ينظر عبر الماء الى دهبية بارودى الكبيرة البيضاء ، التى كانت ترسو الى الشاطىء ، على بعد قليل من الحديقة ، عند منحدر النهر ٠٠ وكانت تنبعث من عينيه أضواء صفراء ! ٠٠ فقالت مسز ارمين : « ماذا تفعل يا حسن ؟ » ٠٠ والتفت النوبى الطويل نحوها قائلا : « ان محمود بارودى غنى ! محمود بارودى غنى ! » ٠٠ وعاد يرمق الدهبية من جديد ، ثم تحول الى المائدة الصغيرة ، فحرك أحد الأطباق ، وسوى ثنية فى غطاء المائدة ، ثم انصرف لشأنه متمهلا فى سيره ٠٠

وراحت مسز ارماين ترشف الشاى وما زال العبوس يعلو أساريرها ، وتتأمل النهر وقد بدأ يفقد لونه الأسمر رويدا رويدا ، فيتألق بادىء ذى بدء بلون الذهب الشاحب ، ثم بذلك الذهب الذى يومض ويلمع كوهج النار ٠٠ وكانت دوامات الماء ــ وراء حاجز الأمواج ــ ذات لون بنفسجى رقيق ، تبدو وكأنها تختلج بالحياة ! **وكان ثمة اشراق عجيب ، يجمع بين البهاء الروحى والبهاء الحسى ، ويبدو كما لو كان مؤلفا من عناصر**

الروح والمادة معا ٠٠ وكان هذا الاشراق يشع على الدنيا ويضفى عليها وشاحا وضاءا من الحسن ٠٠ وبينما كان لون الذهب يزداد عمقا ، أخذ ينتشر على صفحة النهر ، متجها نحو الاقصر ، زاحفا من البر الغربى للنيل حتى البر الشرقى ، ومن « دهبية » بارودى حتى قدمى مسز ارماين !

« محمود بارودى غنى ! محمود بارودى غنى ! لماذا قال حسن ذلك ؟ وما شأنها هى به ؟ ونظرت عبر النهر الى مركب بارودى العظيمة البيضاء ، التى كانت وقتئذ تتحول الى جوهرة سوداء على ذهب النهر الرجراج ، فخيل اليها أنه كان ساحرا بارعا أدرك حقيقة طبيعتها ، فحاول ان يواسيها ويطيب خاطرها ، بأن ينثر الذهب نحوها نثرا ! ٠٠ وكان ذلك وهما سخيفا بلا شك ، فما لبثت هى نفسها أن ابتسمت منه فى مرارة ! ٠٠ وكانت تكاد تمقت نيجل فى ذلك اليوم ٠ بل انها كانت تكرهه بالفعل ــ عندما غادرته فى الحديقة قبل الغداء ــ لما بدا منه من بعد عن روح رجل الدنيا ، ومن سذاجة الأطفال ومكرهم ٠٠ فما من ريب فى انه كان يعلم ، بل لابد انه كان يعلم ان زوى هارويتش كانت حاملا ٠٠ لابد انه علم بذلك عندما خرج مع أخيه للصيد فى الخريف ٠٠ ومع ذلك فانه لم يقل لها كلمة واحدة عنه ، وها هو ذا الآن قد أقصى عن الميراث ٠٠ ولعله ماكان ليرث أخاه البتة ، ولكن الفرص كانت فسيحة لأن يرثه ، ولأن يأتى اليوم الذى تتبوأ فيه المجد ، بوصفها : « ليدى هارويتش » ! **٠٠ وكان هذا الأمل هو الذى مال بها الى ناحيته ، وهو الذى كان له أكبر الشأن فى الدور الذى لعبته فى لندن ، لتكسب نيجل زوجا لها ! ولو ان ما أصبح الآن حقيقة واقعة كان حقيقة واقعة منذ أسابيع قليلة ، فهل كان يخطر ببالها قط أن تدبر الخطط للزواج منه ؟ وهل كانت مثل هذه الصلة « تستحق منها العناء » ؟!**

ألا ما أعظم فرحة الليدى هايمان وعشيرتها بأجمعها ! تلك العشيرة التى دللت واحتفت بمسز تشبستو يوما من الأيام ، وقلدتها لقب « بيللا دونا » ٠٠ (ست الحسن) ! ٠٠ أجل ما أشد فرحتهم اليوم ! انها تكاد تسمع الآن ـ وهى فى مجلسها هذا على ضفة النيل ـ ما يقولونه : «شكرا لله ان خاب فأل هذه المرأة وراح سعيها هباء » ! ٠٠ « ما أشد غيظها وسخطها الآن وقد رزق هارويتش بغلامين ! » ٠٠ « ما أشدها لطمة على وجهها بعد أن اقتنصت نيجل ارماين الأبله ! » ٠٠ لا ريب فى ان مئات من النساء يبتسمن فى هذه اللحظة لخيبة رجائها البشعة ٠٠ وربما ابتسم مئات الرجال كذلك ٠ فما كان فى وسع أى أحد أن يصدق انها تزوجت نيجل لشخصه ، ولأنها أحبته بصدق واخلاص وعاملته فى صراحة وأمانة ٠٠ كان من الطبيعى انها لم تشغف به حبا ، فالواقع انه لم يكن من ذلك الطراز من الرجال الذى يمكن أن تهيم به امرأة فى مثل طبيعتها ومزاجها ! **صحيح انها مالت اليه قبل أن تتزوج منه ، بل وأحست نحوه بجاذبية جسمانية ، ولكن هذه الجاذبية الجسمانية ـ وهى مجرد نزوة عابرة لامرأة متقلبة الأهواء عظيمة الخبرة ! ـ سرعان ما فقدت طعمها وبهجتها ، ولسبب لو عرفه نيجل لكان طعنة نجلاء فى قلبه !**

وما كانت لتستطيع احتمال حبه للمثل العليا ، وغريزته فى البحث عن الخير المكنون فى الرجال والنساء ، ورغبته الخفية ـ فيما يتعلق بها بصفة خاصة ـ فى التقدم الخلقى والمعنوى ! ٠٠ ولقد كانت تدرك ان هذه الصفات قائمة فيه ، ومن ثم كان فى وسعها أن تبغضها ، ولكنها كانت عاجزة حقا عن فهمها رغم ذكائها ٠٠ فقد كان هذا الذكاء من نوع يفهم الرذيلة على نحو أوفى وأتم من فهمه للفضيلة ٠٠ **ومع انها كانت تستطيع أن تنتحل الفضيلة ـ كما أثبتت فى لندن بمسلكها الذي مكنها**

من اقتناص نيجل ـ الا انه لم يكن فى وسعها أن تتعلم كيف تفهم حسن هذه الفضيلة أو تنعم بدفئها ونورها ٠٠ فقد كانت ـ من الناحية الخلقية ـ عاجزة ! ٠٠ وكانت الهوة الواسعة التى تفصل دائما بينها وبين زوجها ، هى أنه لا يعترف مطلقا بوجود عجز خلقى ٠ ومن ثم فلا بد من أن يسىء فهمها الى الأبد ، لأن براعته فى قراءة الشخصية والأخلاق كانت أقل ارهافا من براعته فى الحب ! ٠٠ هذا فى الوقت الذى كانت تضم فى أعمق أغوار نفسها تلك الرغبة التى لابد من وجودها ـ نشيطة أو خاملة ـ فى كل المخلوقات الآدمية ٠٠ الرغبة فى أن تكون مفهومة لدى الغير ، وأن تكون معروفة على حقيقتها ٠ أجل ، كانت لديها هذه الرغبة ، برغم انها كانت على استعداد لأن تمثل أى دور من أدوار الغش والخداع ، وبرغم انها كانت نادرا ما تظهر على حقيقتها !

لقد كان نيجل على علم بأن «زوى هارويتش» كانت ترتقب مولودا ، ومع ذلك فانه لم يطلعها قط على ذلك ! ٠٠ راحت هذه الحقيقة تتردد فى ذهنها مرة تلو الأخرى ، وهى جالسة تتأمل الغروب ٠٠ بل انها لم تكف عن التردد منذ الصباح ، ولم يقو غضبها العنيف على أن يخمد الصوت الملحاح الذى لم يكل عن ترديدها ٠٠ **بل ان هذا الصوت عمد فى اللحظات الأولى لغضبها وشعورها بالمرارة الى أن يضيف : « وسوف يدفع لى نيجل ثمن هذا ! » ٠٠ ولكنه كف عن اضافة هذه العبارة الآن ، ولعل ذلك كان راجعا الى ان غضبها الضارى خلف بها اعياء ٠٠ وفطنت الى انها كانت تدفع بهذا الاعياء ثمن غضبها المشبوب ، وان نيجل قد يضطر الى أن يكفر عن ذلك ! ٠٠** فلقد كان راحلا الى (الفيوم) بعد يومين أو ثلاثة ٠٠ وشد ما تمنت أن يكون رحيله الليلة ، وأن لا تضطر الى مصاحبته ، ولا تحتاج الى أن تمثل دور المرأة الطيبة أو المرأة

التى تولدت الطيبة فى نفسها ، بعد أن أنهكها الضنى وأرهقها الغضب !

وكان الشاى قد أمسى أسود اللون لطول بقائه ، فصبت لنفسها قدحا آخر شرعت ترتشفه دون أن تضيف اليه شيئا من اللبن أو السكر ، فاذا به لاذع ، قابض ، كريه المذاق فى فمها ٠٠ ولكنه أزال ما بها من كلال ، فكأنما أزاح الأستار عن شبح واضح المعالم يخطو الى الضوء عاريا ٠٠ انه نفسها على حقيقتها ، فى غير كلال أو حياء ! ٠٠ لسوف يدفع نيجل حساب ذلك كله يوما !

وكان اللون الذهبى قد انحسر عن النهر فى تلك الأثناء ، فتحول لون الماء الى لون الفضة المذابة ، ثم الى لون الفولاذ ٠٠ وانبعث من « الدهبية » ـ التى بدأت تبدو وكأنها تتباعد متراجعة أمام مسز ارماين ـ أضواء حمراء وزرقاء ٠٠ وكانت أصوات الفلاحين السمر لا تزال تنبعث حارة ـ غير كليلة ـ وهم عاكفون على الشواديف ، على امتداد النيل ٠٠ وكانت أذنا مسز ارماين قد ألفتا هذه الأصوات فى الأيام الأخيرة ، الى درجة جعلت من العسير عليها أن تصدق انها ـ منذ زمن قصير ـ لم تكن قد سمعتها قط ، ولا أحست بتأثيرها العجيب ، وقوتها الجارفة التى تمتزج بقوى أخرى من الشمس والهواء ، فتثير نفوس الرجال والنساء نحو الرغبة فى مباهج خشنة ، بل ـ فى بعض الأحيان ـ فى ملاذ قاسية وحشية ! ٠٠ أما وقد أخذ ضوء النهار فى الذبول والتلاشى ، فان تلك الأصوات القوية البدوية الحزينة لم تعد تبدو منبعثة من حناجر المصريين الكادحين المكدودين ، وانما بدت منبعثة من حنجرة هذه الأرض التى كانت تجمع بين الخرائب والذهب ، حيث انبسطت الخضرة اليانعة الى جانب الرمال الصفراء ، وحيث كانت القنابر تصيح فى الصباح بينما يعوى ابن آوى بالليل !

ظلت مسز ارماين تصغى طويلا ، وهى جامدة فى مقعدها بلا حراك ، ولكنها تململت فجأة ، ثم انبعثت قائمة وانفلتت مسرعة نحو المنزل ٠٠ كان نيجل عائدا أدراجه ، اذ انها سمعت أصوات ملاحى بارودى النوبيين ، مختلطة بأصوات رجال الشواديف ٠٠ وما أن بلغت المرأة المنزل ، حتى بادرت بالصعود الى مخدعها توا ، وأغلقت بابه خلفها ، ثم وقفت الى جوار نافذة مفتوحة تطل على شرفة فى مواجهة النيل ٠٠ وكانت أصوات رجال الشواديف قد صمتت تماما ، فقد حان وقت راحتهم مع هبوط الليل السريع ، ومن ثم أسرعوا الى ارتداء جلابيبهم التى امتزجت فيها الحمرة بالزرقة وانصرفوا يمشون الى قراهم ٠٠ بينما اقتربت الأصوات الأخرى رويدا ، وهى تردد أنشودتها الدينية فى همهمة عميقة أكثرمنها شدوا وغناء بينما قامت المجاديف بدور « ضابط الايقاع » !

وخيم الظلام ، وسكنت الأصوات ٠٠ ومالت مسز ارماين الى الأمام ، وهى تستند باحدى يديها على اطار النافذة ، وأسنانها الناصعة تتألق فوق شفتها السفلى ٠٠ فقد سمعت فى الحديقة صوتين يتحدثان وهما يسيران نحو المنزل ٠٠

وما لبثت مسز ارماين أن ارتدت عن النافذة ، وهتفت : « مارى ! مارى ! » ٠٠ فأقبلت الوصيفة تعدو ، وهى تقول : « هأنذى يا سيدتى ! ماذا تريد السيدة ؟ » ٠٠ فأجابت مسز ارماين : « أريد أن أبدل ثيابى » ٠٠ فتساءلت : « هل تود السيدة أن ترتدى ثوب السهرة ؟ » ٠٠ ولكن السيدة قالت : « لا ، فلن نتناول العشاء قبل ساعتين » ٠٠ فتبدت الحيرة على الوصيفة وقالت : « اذن ٠٠ يا سيدتى ؟ » .

- لا تتكلمى كثيرا ٠٠ احضرى لى ثوبا أبيض ٠٠ ذلك الثوب من التيل الأبيض الذى اشتريته من محال (باكان) ، ولم ارتده قط ٠٠ واحضرى لى ٠٠٠

و مضت تصدر أوامرها بشأن الجوربين والحذاءين ، ثم ذهبت الى حجرة الزينة حيث وقفت أمام المرآة تتفحص وجهها فى عناية وامعان .. وما لبثت أن خلعت القبعة التى كانت تضعها على رأسها . ثم هتفت بعد لحظة : « أوصدى باب حجرة النوم والباب المؤدى الى حجرة السيد » .. فقالت الوصيفة : « حسنا ياسيدتى ! » .. وراحت توصد الأبواب ، وهى تغمغم : « رباه ! هل أصابها جنون ؟! ماذا دهاها ؟ لا يوجد أحد هنا ، ولن يأتى أحد ما .. ففيم كل هذه الجلبة ؟ » .. وعادت السيدة تقول : « اخرجى القبعة البيضاء ، وباقة القرنفل الأبيض الصناعية ! » .. وغمغمت الوصيفة : « آه ، يا الهى ! »

- هل سمعت ؟ القبعة البيضاء و ...

- لقد سمعت يا سيدتى ، لقد سمعت ! .. أوه ، لا .. لا!

فصاحت مسز ارماين : « اذن فعجلى ! » .. فقالت الوصيفة : « سمعا يا سيدتى .. حسنا جدا ! » .. وانطلقت تعدو لتحضر القبعة ، بينما أشعلت مسز ارماين جميع الشموع ، وجلست أمام المرآة .. وتذكرت رغبة نيجل التى أبداها اليها فى صباح اليوم ذاته اذ سألها أن تكف عما «تفعله بوجهها» .. حسنا ! ستستجيب الى رغبته على هذا النحو : **ففى مهارة وعناية بالغتين ، مضت تذر «البودرة» على وجهها ، وتظلل عينيها ، وترسم حاجبيها الرفيعين فى براعة ! ..** وأقبلت الوصيفة عند باب حجرة الزينة قائلة : « كل شىء معد يا سيدتى ! » .. واذا بها تنتفض مجفلة ، وتدور على عقبيها ؛ فقد طرق باب حجرة النوم فجأة ، وانبعث صرير المقبض وهو يدور ..

وأسرعت مسز ارماين تقبض على ذراعها فى شدة ، وتهمس : « صه ! لا تنطقى ! » . فوقفت الفتاة فى مكانها جامدة بلا

حراك ، تحملق فيما أمامها وتعجب مما يدور حولها ، على حين ذهبت سيدتها فى هدوء الى حجرة النوم ، دون أن يند عنها أى صوت ، وجلست على الجانب الاقصى للفراش ، ثم اضطجعت الى الخلف حتى شارف رأسها الوسائد ، وهى تحرص كل الحرص على ألا يمسها ·· وانبعث صوت من خارج الباب :

« روبى ! روبى ! »

ـ ماذا جرى ؟ من هناك ؟

وكان الصوت الذى أجاب خافتا ، تنطق نبراته بالدهشة : « أنا ·· نيجل ! » · فاستوت مسز ارماين جالسة ، وقالت : « ماذا جرى يا نيجل ؟ اننى نائمة ! »

ـ آه ! اننى ·· اننى آسف اذا كنت قد أزعجتك · ولكن ·· ما أحسبك مريضة !

ـ كلا ، اننى أستريح قليلا ·· ماذا هناك يا نيجل ؟

ـ لقد أحضرت بارودي الى هنا ليراك ويرى الفيلا ، وليتعشى معنا الليلة !

فهتفت : « أوه ! حسنا » ·· وكأنما اشتم فتورا فى ردها، فتساءل : « ما أحسبك تتضايقين يا روبى ؟ » ·· وكان صوته المتسلل من خارج الباب قد غدا شديد الخفوت ·· فهمست بدورها : « اهبط اليه ، واعن به ·· سوف آتى حالا ! » ·· وانبعث صرير المقبض من جديد وهو يتركه من يده ·· ولكن لحظة انقضت دون أن ينبعث خلالها لقدميه وقع ينم عن ابتعاده ·· وما لبث صوته أن عاد هامسا : « اسمعى يا روبى ·· اذا ·· » · ولكنها صاحت : « اذهب الى الطابق الأسفل ، وسأحضر للتو ! »

فمضت الخطوات نحو الدرج ·· واذ ذاك هتفت مسز ارماين بوصيفتها : « البسينى الثوب حالا ·· لا ، انتظرى ، ابدلى الجوارب أولا ·· » ، فركعت مارى سريعا على الأرض ، واذ أحنت رأسها ، أخذت تبتسم ·· فلقد بدأت تفهم !

الفصل الرابع عشر

◆ عندما دخلت مسز ارماين حجرة الجلوس الصغيرة وجدتها خالية ، ولكنها اشتمت رائحة السيجار ، وسمعت غمغمة الأصوات فى الخارج بالقرب من الشرفة .. وكان من الجلى ان الرجلين يمشيان ذهابا وجيئة فى الحديقة ليستمتعا بنسيم المساء الرقيق .. فلم تخرج اليهما للتو ، وانما وقفت وهى تنصت الى صوتيهما

آه ! انهما يتحدثان عن الفيوم .. فلا شك اذن أنهما يناقشان بعض شئون الزرع والغرس وفلاحة الأرض ! .. وكان يخيل اليها ان وجهها فى هذا المساء قد احتفظ فى بشرته بأثر من آثار انفجارها العاطفى فى الصباح ، كانما تحول الجفاف والخشونة من طباعها الى بشرتها وانتشرا فوق جلدها فافقداه مرونته الطبيعية ! ومع ذلك فانها قبل أن تغادر حجرة النوم مباشرة ، صاحت بها مارى فى نوع من الاعجاب يخالطه التحفظ : « ان السيدة رائعة الليلة ! » .. وراحت تسائل نفسها : هل قالت الوصيفة الحق ! .. فما ان ازدادت الأصوات فى الخارج خفوتا وبعدا لحظة ، حتى مضت لتقف أمام احدى المرايا ، وتلقى على نفسها نفس السؤال ! .. وكانت قد انتقت لملبسها ثوبا للخروج بدلا من ثوب استقبال عادى ، اذ كانت تعتقد انها تبدو فيه اصغر سنا ! كما كان قوامها الجميل لا يزال احدى مميزاتها العظيمة ! اجل ، كان قوامها ساحرا ، وكان هذا الثوب يبرزه اكثر فتنة واشد سحرا ! .. وكان السكون الطويل الذى صاحب عيشتها الخاملة فى لندن ، عندما عرفت نيجل – وما تلا ذلك من راحتها النسبية فى جو مصر الجميل – قد اتى بالعجب العجاب فى

شكلها ومظهرها .. وما من ريب فى انها الليلة - برغم ما احدثه استسلامها دون وعى للغضب من آثار - تبدو اصغر باعوام كثيرة مما كانت تبدو فى حجرة الاستشارة بمنزل ايزاكسون : كانت الغضون حول عينيها لا تكاد تظهر ، او هى لم تكن تظهر على الاطلاق .. كما كانت ناصعة البياض الى حد عجيب .. والشرقيون يستطيبون البياض الناصع ! وهم دائما يتصورون الغربيين اصغر سنا باعوام عما هم عليه حقيقة ، اذا كان هؤلاء قد نجحوا فى الاحتفاظ بشىء من سحر الشباب ! واذن ، فلم تكن مارى قد جانبت الصواب !

واستدارت مسز ارماين وخطت مغادرة الغرفة الى الشرفة . واذ تقدم الرجلان للقائها ، قالت فى نوع من التراخى الساحر ، وعدم الاكتراث : « آه ! محمود بارودى ! اذن فقد اتيت الى الجنوب لتعنى بامر .. ترى ما هو ؟ ذلك الشىء الذى لك .. السكر الذى تمتلكه ؟ » . فاجاب فى رصانة وهو ينحنى فوق يدها : « السكر الذى امتلكه .. اصبت يا سيدتى ، وارجو ان تصفحى عن تطفلى ، فقد شاءت رقة زوجك ان يصر على احضارى الآن ، وانا فى هذا الثوب من قماش الفانلا » .. وكان اعتذاره هادئا رزينا الى ابعد الحدود ، ولكن نيجل كان يبدو منفعلا بعض الشىء ، بل قلقا ، وكان يستجدى بعينيه الصفح عما سببه من مشكلات فى الصباح ! .. ولكنها لم تكن تبدو راغبة فى ان تمنحه هذا الصفح بعد .. وهكذا كانت رقيقة معه ، تتحاشى نظراته هذه دون ان تبدو انها قد تحاشتها عن عمد !

واخذوا يتجولون برهة ، ويتبادلون احاديث خفيفة فى غير موضوع معين ، حتى قالت مسز ارماين موجهة الخطاب لزوجها مباشرة للمرة الأولى : «نيجل ! .. الا ترى من المستحسن ان تذهب وتخبر حسن باننا سوف نكون ثلاثة على مائدة العشاء ، ثم تتحدث قليلا الى الطاهى ! ان لغتك العربية قد تكون اشد تاثيرا على الخدم من انجليزيتى ! وسوف نجلس انا ومحمود بارودى فى الشرفة حتى تعود ثانية » .. فاجاب نيجل : « اصبت ! » .. ومضى لتوه ، وتركهما معا .. فما ان انصرف حتى جلست مسز ارماين فى مقعد من الخيزران ، ومكثت برهة لا تقول شيئا .. ولكن اساريرها تبدلت فى هذه اللحظة من الصمت ، فتلاشت البساطة والسمة الطبيعية المتراخية تدريجيا ، لتكشفا عن التوثب والاغراء اللذين تحذقهما الغانية المدربة ! .. بل ان جسدها لم يخل من التغيير ، فقد غدا اشد حساسية ، واكثر يقظة وشعورا ، تحت عينى بارودى ! واستيقظت فجاة كل احاسيس المرأة فيها .. تلك الأحاسيس التى كانت حتى الآن - عدا القليل من دلائل الحياة العابرة الغامضة - ترقد ساكنة جامدة فيها ، وراحت تشير فى جراة لتجذب انظار هذا الرجل الذى كان يجلس غير

بعيد عنها ، يحدق النظر اليها فى صراحة ورصانة شرقيتين ٠٠ ومع انهما تبادلا الحديث قبل الليلة ، عندما كانا على ظهر السفينة ، الا ان هذه كانت اول مرة ينفردان فيها ٠٠

وكانت عينا مسز ارماين - الليلة - تحدثان باردوى فى وضوح بانها قد اعجبت به ، بل انهما كانتا تحدثانه باكثر من هذا ٠٠ بان صاحبتهما كانت تريده على ان يعلم ذلك ! ولقد تقبل اعجابها ، فما لبثت آن تلقت منه ردا جريئا ٠٠ اذ سرعان ما فطن الى ان التغيير الذى اصابها كان شبيها بالتغيير الذى اصابه ، فان علائم العزم القوى الصريح التى كانت ترتسم فى وجهه ، والتى كثيرا ما استمالت نيجل اليه ، كانت تختلط الآن بشىء اكثر حدة - كانه من الدهاء والمكر - وبنوع من الاستهتار الذى كان فى وسعها ان تفهمه وتقدره احسن تقدير ! ٠٠ وفيما كانت تنظر اليه فى ظلمة الليل المتجمعة ، تبينت ان فى اعماقه اكثر من رجل ٠٠ فهناك بالتاكيد قاطع طريق لا ينطوى على شىء من الخوف ، ولا على كثير من الرحمة ٠٠ فمضت تقارن قاطع الطريق هذا بنيجل ٠٠ وما لبث الرجل ان سالها : « كيف وجدت مصر يا سيدتى ؟ هل احببت بلدى ؟ »

وانحنى قليلا الى الأمام وهو يحطم اخيرا ذلك الصمت الذى ران عليهما ، فجذبت حركته هذه ومظهره الحالى انتباهها الى كتفيه القويتين العريضتين ووضع راسه الذى يستوقف الأنظار ، ذلك الوضع الذى لو كان اقل جراة مما هو لكان خليقا بان يمس النفس بشهامته !

- هل رايت كل الأشياء المشرقة فى طيبة والكرنك ؟

- نعم ! لقد كنا سياحا بحق ، فذهبنا الى بهو الأعمدة والمقابر ، والمعابد ٠٠ وتعشينا فى ضوء القمر على قمة البوابة فى الكرنك ، وشهدنا غروب الشمس من الدير البحرى

فسالها : « والشروق ؟ » ٠٠ فاجابت : « لم نره من اى مكان ٠٠ فانى افضل النوم حتى الضحى » ٠ فعاد يسالها : « وهل تهتمين بكل هذه الأشياء : المقابر ، والمعابد ، والمومياءات ، يا سيدتى ؟ هل استمتعت بحياتك فى مصر ؟ »

وتمهلت قبل ان تجيب على هذا السؤال ٠٠ انها كثيرا ما استمتعت برحلاتها مع نيجل فى ذلك المرح الوضاء المتدفق الذى يبعثه جو الاقصر الساحر ٠٠ رحلات الغداء فى الهواء الطلق ، او بين جدران الخرائب العظيمة ، ونزهات على الأقدام فى الممرات السمراء المستقيمة بين الحقول الخضراء المتماوجة ، التى تصيح القنابر فوقها ، ويطير منها الحمام البرى ليؤلف السحابة الوحيدة فى موكب النصر المكون من الذهب ومن الزرقة ! ثم ذلك التسلق لمسافات طويلة

على المرتفعات – فى ممرات مرقطة كلون النمر – الى القمم العالية ، حيث اتخذت الشمس مملكتها منذ بدء الخليقة .. ثم الهبوط منها عندما يبدأ النهار فى الاضمحلال ، وعندما يمضى الفلاحون نحو بيوتهم تحت ظلال النخيل الشبيهة بالمخمل الأسود ، والغبار الذى تثيره اقدامهم السمر الحافية ، يتصاعد فى دوامات حلزونية صوب ضوء الغسق الداكن .. وقد استمتعت مسز ارماين كذلك بالعشاء فى (الكرنك) تحت أشعة الهلال الوليد الباهتة .. فقد كانت لا تزال تملك القوة على الاستمتاع ، كما كان لديها كثيرا من ذلك النشاط الجسمانى الذى تمتاز به المراة الانجليزية العادية ، التى تالف الهواء الطلق ، وتحس براحتها فوق صهوات الجياد ! وكانت مصر شيئا جديدا كل الجدة بالنسبة اليها .. شيئا جديدا يجلب الصحة والشعور بالشباب ! ومع ذلك فقد تمهلت قبل ان تجيب !

لقد كانت تحس فى أعماق نفسها ، طوال تلك الأيام التى كانت تتذكرها ، بانها كشخص يمشى فى موكب نصره .. كانت فى نشوة من الطرب «للصفقة» التى ربحتها فى الوقت الذى كانت فيه حياتها تنحدر نحو خريف العمر .. نشوة من الطرب للطمة التى وجهتها الى مجتمع كان يحتقرها ويطردها من نطاقه .. وكانت هذه النشوة قد لونت ايامها بالوان بهيجة ، ولكنها أدركت الآن – بغتة ، وعلى غير توقع – أنها كانت تعيش فى نعيم المجانين ، الذى قادها نيجل اليه ! .. وقد القى هذا الادراك ظلا كثيفا على الأيام التى مرت بها فى مصر ، ومحا اشراق تلك الأيام ، ومرحها ، وتالقها !

وأجابت اخيرا : « كل الاستمتاع ! وهل تهتم انت بمثل هذه الأشياء ؟ » .. فهز كتفيه العريضتين ، قائلا : « سيدتى .. ما انا بسائح ! وماذا ترينني فاعلا فى هذه المعابد بين الخفافيش ، وفى هذه المقابر التى يكاد المرء يشم منها رائحة الموتى ؟.. انك لا ينبغى ان تبحثى بيننا نحن المصريين عمن يهتم بهذه الأشياء ، بل اذهبى الى هاته العذارى الانجليزيات العوانس – هل الأمر كذلك حقا ؟ – هاته العذارى اللواتى يرتدين قبعات عالية من الفلين على شعورهن الشيباء المرجلة بهذا الشكل ! » .. ورفع يديه السمراوين متظاهرا بانه يرتب شعره خلف رأسه ، ثم استطرد : « واللواتى يربتن على رأس الترجمان الذى يجلس عند اقدامهن ويخبرهن بآلاف الأكاذيب ! أو اذهبى الى هؤلاء الأثريين ذوى الأجسام النحيلة ، والأنوف الحمراء ، والرؤوس المجردة من الشعر تماما ، الذين يقومون بحفرياتهم بحثا عن المومياءات، بينما زوجاتهم .. آه ، حسنا !.. ما كان ينبغى أن اقول ذلك ، ولكننا معشر المصريين اوتينا أشياء اخرى خيرا من الذهاب الى ابى الهول والتحديق فى وجهه ! لقد كنا نراه دائما ، ونحن نعلم انه هناك فى موضعه ، وانه لن يركن الى الفرار !

ومن ثم فاننا نفضل ان نستمتع بحياتنا ما استطعنا ، والا نشغل انفسنا بهذه الاشياء ٠٠ فهل تجدين فى مسلكنا ما يستحق اللوم ؟ »

ـ كلا ٠٠ اننى لا الوم أحدا البتة على الاستمتاع بحياته !

وكان فى هيئته ولهجته ، بل وفى مسلكه ، شىء ما يكاد يشبه الغطرسة المغلفة بغلالة من قلة الاكتراث ٠٠ ولعلها كانت تستنكر ذلك وتغضب منه ، اذا بدر من شخص اوروبى ٠٠ اما منه هو ، فانها لم تستنكره ولم تغضب منه ٠ وليس ذلك فحسب ، بل انه اجتذبها واستمالها ، فقد كن يبدو ان هذه الغطرسة تنبعث ، بحق ، من قوته العظيمة ، ونظراته الجريئة الصريحة التى تتواثب فى عينيه ، وفى شبابه ، وفى الدم الشرقى الذى يجرى فى عروقه ٠٠ ان مثل هذا الرجل لا بد وان يشعر بعتوه وجبروته ، وان عنى اشد العناية باخفاء ذلك !٠٠ ولماذا لا يظهر لها شيئا من حقيقته الكامنة فى اعماقه ؟ وقبل ان تفكر فى الجواب ، استطرد الرجل يسألها : « ولا على اية طريقة يسلكها للاستمتاع بحياته يا سيدتى ؟ »

وازداد انحناء الى الأمام ، وهو يضع يده الكبيرة على خده ، ثم يهبط بها الى عنقه الجميل ، واضعا اصابعه داخل ياقته الرخوة المزدوجة ، بينما كان يحدق فى عينيها ٠٠ فقالت : « اننى لم اقل ذلك ! » ٠ فسألها : « وهل تبالين كثيرا بما يمكن ان تكون عليه الطريقة اذا ما ادت الى الاستمتاع ؟ » ٠ ولكنها بدلا من ان تجيب سألته : « وهل تبالى أنت ؟ » ، فاجاب : « أنا ؟! لا ، بكل تاكيد ! ولكنى ٠٠ اننى لست مثل مستر ارمين ! » ٠٠ واخطا قليلا فى نطق الاسم ٠٠ فقالت : « مستر ارماين ؟٠٠ ما شانه ؟ » ٠٠ فقال : « الا يعتقد ان هناك بعض أشياء يجوز للمرء ان يفعلها ، وان الكثير من الأشياء لا ينبغى له ان يفعلها ؟ ان كل الانجليز كذلك ! آه ٠٠ يا الهى ! لو ان احدا فعل شيئا يرونه خطأ ، فيا ويله ! »

ورفع يده عن عنقه ، ثم هوى بها على ركبته ، وهو يستطرد مبتسما ، وما زالت عيناه تنقبان فى عينيها : « لعمرى ، ان ذنبه اذ ذاك ليبدو اسوأ من اكل لحم الخنزير فى نهار رمضان ، فى نظر الرجل المصرى ! » ٠٠ فسألته : « هل تبغض الانجليز ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « ما الذى ينبغى ان اقوله ؟ » ، فاجابت : « قل الحقيقة ! » ٠٠ واذ ذاك قال : « اما السيدات الانجليزيات فاعتقد انهن لطيفات ! » ٠ فقالت : « والرجال الانجليز ؟ » ٠ واجاب : « آه ! انهم جميعا ٠٠ رفاق طيبون ! » ٠٠ ولفظ الكلمتين الأخيرتين بلهجة من الازدراء الساخر لا يمكن وصفها ، ثم قال : « آه ! انهم جميعا ٠٠ رفاق طيبون ! الا تظنين ذلك ؟ »

ـ ولكن ما معنى هذا ؟

- فتيان ظرفاء يا سيدتى !

ثم جلس معتدلا ، ودفع صدره الى الامام وراح يطرقه قائلا : « بولبيف .. بودنج بالبرقوق .. رفاق لطف ، وحكام ! »

- لا ينبغى أن تضحك من مواطنى !

- اضحك ؟ معاذ الله ! ولكن هل لى أن ابتسم فقط ، بركن واحد من فمى؟!

وكشف عن صفين من الاسنان الصغيرة المستقيمة الناصعة البياض ، التى كانت تبدو من القوة بحيث يمكن ان تعض قضيبا من الحديد ! ثم تابع القول : « ان الرجل الانجليزى يحكمنا فى مصر .. وهو لا يفتا يقول اننا الحاكمون ، بينما يظل هو الحاكم الحقيقى ! وهو طالما يحكمنا فانه يحتقرنا يا سيدتى ، ويستخف بنا .. انه يظننا أطفالا بلهاء ، ولكننا احيانا نبتسم له ، ولو انه بطبيعة الحال - لا يبتسم لنا البتة ، خشية ان تكون الابتسامة الواحدة كافية لأن تجعلنا نظن فى انفسنا اننا لسنا دونه بكثير ! انه خطا جسيم منا ، ولكن الله يسمح لنا ، بطريقة ما ، بان نبتسم ، وعندئذ ... » ، وعاد ينحنى الى الأمام ، وقد انبعث صريف مقعده فى الظلام ، وهو يستتلى قائلا : « عندئذ نجد بعض النساء الانجليزيات اللواتى يحببن أن يريننا نبتسم ! بل ان البعض منهن يبتسمن معنا خلف ظهر الرجل الانجليزى ! »

كان يتكلم فى هدوء ، وفى نوع من السخرية الغامضة ، ولكن دون اية بادرة من المرارة .. غير انه خفض صوته قليلا وهو ينطق بكلماته الأخيرة : «فهل ترين ذلك خطا جسيما منهن يا سيدتى ؟ ماذا تقولين؟ هل تحتقرينهن؟»

ولم تجب بكلمة ، ولكن شفتيها المصبوغتين المتحركتين كانتا تختلجان ، وكانها كانت تحاول أن تكبح الابتسام ، ولكنها لم تنجح فى ذلك كل النجاح، بينما عاد الرجل يقول : « هل تحتقرينهن اذا كن يبتسمن .. اذا كن يبتسمن .. اليس ذلك مشينا يا سيدتى ؟ » . وكان يبتسم فى عينيها ، فقالت : « انه لعار عظيم ! وانا احتقر النساء المخادعات ! » . فقال : « ومع ذلك فمن ذا الذى لا يخادع ؟ كل انسان ، عدا .. الرفاق الطيبين ! » .. ثم دفع براسه الى الوراء وهو يضحك ، بينما كانت هى تنظر الى عنقه المكتنز .. ثم قالت : « انك ما تحدثت قط على هذا النحو ونحن على الباخرة ؟ » . وكان جوابه : « سيدتى .. اننى لم اكن وحيدا معك قط .. فكيف كان يمكن ان اتحدث على هذا النحو ؟ كنت اذ ذاك اتعرض لأن يساء فهمى ! »

ولقد كان فى مسلكه هذا ، لا فى عينيه فحسب ، وفى اتخاذه هذا النوع من الالفة نحوها - وهى الفة استبعد منها نيجل وامثال نيجل - قحة بالغة واضحة، تلطم مسز ارماين وتتحداها ، وكانها قفاز القى فى وجهها !.. أتراها كانت تسخط وتحنق من ذلك لو انه حدث بالأمس فقط ؟.. ما كان بوسعها

ان تدرى ، ولكنها الليلة كانت على استعداد للترحيب بهذه اللحة ، اذ كانت الليلة تمقت نيجل وتبغضه ٠٠ ومع ذلك فقد كان لبارودى ، بغض النظر عن غضبها الشخصى من زوجها ، تاثير قوى واضح عليها ٠٠ وقد احست - وهى التى تدرك دائما بعينيها - بما كان فيه من حب السطو وقطع الطريق ! افلم تكن هى نفسها قطعة طريق ؟ كم من رجال حق بهم الدمار ، كانوا يملكون الاجابة عن هذا السؤال ؟! ولقد كان فى هـذا الرجل نبع لا ينفد من القوة والحمية والنشاط ٠٠ كان يشع حوله جوا خارقا للمألوف من القوة البدنية ، المصحوبة بقوة عقلية كانها ذرات الغبار المتطايرة فى شعاع من النور !

ولقد كانت مسز ارماين امراة قوية العزيمة - كما حدس ماير ايزاكسون لأول وهلة - فاذا بها تشعر بان امامها كائنا بشريا أصلب منها عزما ، واشد اصرارا ، واكثر تمسكا ٠٠ ولم يكن يقل عنها مكرا وبرودا !٠٠ فكيف يجوز الا يفهم كل منهما الكثير عن خلق الآخر ، بالرغم من انه كان رجلا شرقيا وهى امراة غربية ؟! ثم انه شرقى ، والشرقيون قراء افكار ، ان لم يكونوا قراء نفوس وارواح !٠٠ وهنا شعرت المراة براحة بالغة ، وكانما وضع فى المساء بلسم على جراح الصباح !

وفى تلك اللحظة ، سمعا نيجل يهتف : « روبى ! » ٠٠ فارتد بارودى الى الوراء فى مقعده - فى هدوء - وقد بدا ساكنا ، قويا ، عمليا !٠٠ وفى هذه المرة ، لاحظت مسز ارماين أن مقعد الخيزران لم يصدر صريفا ما ، من جراء حركته هذه ٠٠ وقالت السيدة : « هل كل شيء على ما يرام بالنسبة للعشاء يا نيجل ؟ » ، فاجاب زوجها : « أرجو ذلك ٠٠ ولكن يجب الا يظن بارودى ان لدينا طاهيا كطاهيه ! » ٠ فنهضت مسز ارماين قائلة : « ساترككما برهة وجيزة ، وسيكون العشاء فى الثامنة والربع ! » ٠٠ فقال بارودى وهو يقف لها : « شكرا لك يا سيدتى ٠٠ وارجو المعذرة للثوب المصنوع من الفانلا الذى ارتديه ! » ٠٠ فكان جوابها : « اننى احب ان ارى الرجال فى ثياب من الفانلا ٠٠ اليس كذلك يا نيجل ؟ » ٠٠ وكانت تتكلم فى استرخاء يكاد يكون شرودا ، ثم مضت فى تمهل حتى دخلت المنزل ٠٠ وهكذا استطاعت فى دهاء ومكر ان تنشر حولها جوا رقيقا من التحفظ والنفور !

* * *

◆ وكانت الصحف التى اتت فى بريد الصباح ما تزال على المنضدة فى حجرة الجلوس ، لم تفض غلافاتها بعد ، فتناولت واحدة منها اثناء مرورها ، وحملتها معها الى الطابق العلوى ، حتى اذا ما بلغت حجرتها فتحتها والقت نظرة سريعة على اخبار المجتمع ٠٠ آه ! ها هى ذى فقرة عن ليدى هارويتش

جاء فيها : « لقد كان لمولد غلامين توأمين للكونتس هارويتش رنة فرح وابتهاج فى الأوساط الاجتماعية ، لما يتمتع به كل من اللورد والليدى هارويتش من حب وتقدير عام • ويقال ان تعميد الطفلين سيتم فى الهيكل الملكى بكنيسة قصر سان جميس ، وان صاحب الجلالة الملك سيكون اشبينا لهما •• وقد كان الوريث التالى للقب والممتلكات الكبيرة التى تلحق به ـ حتى هذا الحادث السعيد ـ هو المحترم نيجل ارماين الذى تزوج اخيرا من مسز تشبستو المعروفة ، وهو أصغر من اللورد هارويتش بعشرة اعوام »

والآن ، وبعد ان رأت الحقيقة الواقعة منشورة فى الصحف ، ازدادت مسز ارماين فجأة ـ وبطريقة ما ـ ادراكا وشعورا بانتصار ليدى هارويتش وعصبة هارويتش ـ وهى تمثل المجتمع كله ! ـ من ناحية ، وبما يبدو انه هزيمتها الساحقة من ناحية أخرى •• ألا ما اسعد الابتسامة التى ينبغى ان تكون الآن مرتسمة على شفاه المجتمع الراقى •• على شفاه نساء عديدات لسن افضل مما كانت قلامة ظفر ؟!•• والذى اقامها هذا المقام المزرى هو نيجل ، وهو الذى جر عليها ذلك كله !•• وعندئذ زمت شفتيها فى تشاؤم ، وهى تذكر عينى ليدى هارويتش الأمريكيتين الباردتين ، اللتين طالما نظرتا اليها باحتقار المرأة الطاهرة العارفة بما هنالك •• تلك النظرة التى تحرك الشيطان فى النساء غير البريئات ، وفى اللواتى عرفن بانهن لسن بريئات !

وأزاحت الصحيفة جانبا ، ومضت الى النافذة فراحت تتطلع الى الخارج •• وانبعث من الحديقة الى خياشيمها اريج زهرة مستترة كانت تمنح الظلام خير هباتها •• ومن بعيد ـ الى يمينها ـ كان وشى زخرفى من النار الملونة يرتسم على صفحة العتمة التى لم تكن فى حلكة السواد الذى كان يملأ العالم فى ناظريها •• كان هذا الوهج ينبعث من « دهبية » بارودى !•• وعادت أفكارها توسوس لها : ان النساء فى لندن يبتسمن ويطربن لسوء حظها ونكد طالعها ! وفيما كانت تحدق فى صفوف المصابيح ، خيل اليها انها صفوف من الأعين الشامتة ! ثم خيل اليها انها صفوف من الأعين تراقبها وتمعن النظر اليها وتستشف حقيقة نفسها !•• وعندئذ نادت مارى ، وشرعت تبدل ثوبها من جديد •• وفى تلك الأثناء ، صعد نيجل مرة أخرى ، مصطحبا بارودى الى احدى حجرات النوم الخاصة بالضيوف ، ثم جاء يعالج الباب الموصل بين حجرتيهما ، فصاحت به فى استخفاف : « انك لن تستطيع الدخول ! » •• فقال شأن من يكذب ظنه : « ما أراك تبدلين ثوبك ؟ » •• فقالت : « ليس فى وسعى ان أتناول العشاء فى ثوب من التيل ! » •• فقال : « ولكن كلا منا !•• » • فقالت مقاطعة : « انكما رجلان ، اما انا فسيدة ، ولا أستطيع أن أتناول العشاء فى ثوب من التيل الأبيض ، اذ ان ذلك يجعلنى احس كأننى

ملاءة سرير او كيس وسادة : امض لشانك يا نيجل »

وسمعته يغسل يديه ، وما لبثت ان سمعته ينصرف مبتعدا ، فادركت تماما ان لهجة الاستخفاف فى صوتها وقعت كالسياط عليه ، وانه كان يعانى الأمرين !٠٠ وما لبث ان دوى رنين جرس العشاء الصغير ، فنزلت الى الطابق الأسفل فى ثوب سهرة من اللون الأصفر الشاحب ، عالى الخصر ، وقد وضعت على صدرها باقة من الزهور القرمزية ٠ ولم تكن تتحلى بشىء من المجوهرات ، او تزين شعرها بشىء ٠٠ وفيما كانت تدخل الى الحجرة ، انتاب نيجل ـ للحظة وجيزة ـ شعور غامض بان امراة غريبة عنه تلج الحجرة ٠ فلماذا كان ذلك ؟ لقد راح عقله يردد السؤال ، بينما كان يحملق فيها بامعان ليستشف سبب هذا الشعور ٠٠ كانت تبدو ناصعة البياض الى حد غريب ، بل الى حد غير طبيعى ٠٠ أتراها قد عاودت ـ رغم حديثهما فى الصباح ـ وضع تلك المساحيق على وجهها ؟٠٠ وهل كان بياض لونها انصع من المعتاد ، او ان شفتاها كانتا أكثر حمرة ؟٠٠ او انها فى الواقع لم تضع على وجهها شيئا على الاطلاق ٠٠ اذ انه لم يكن يدرى ما صنعته بنفسها ؟٠٠ ولكنه كان مشغول البال ، قلقا ٠٠ كان يحس بحنين الى ان ينفرد بروبى ، وان يجعلها تصفح عنه لما نالها منه ، من اهانة بالغة فى هذا الصباح ! لقد اصبح يكره هذا الحاجز الذى قام بينهما ، ويشعر بانه هو الذى خلقه بعدم ثقته فيها وجحوده اخلاصها ٠٠ والنساء دواما اشد حساسية من الرجال ٠٠ ومن منهن يمكن ان تكون اشد حساسية من « مريم المجدلية » ، التائبة التى أحاطت بها حلقة من الجحود والسخرية ، والدهشة والعجب ؟٠٠ لقد اصبح يشعر بانه قد تنكر فى الصباح لمبادئه الأساسية ، وكان زائفا مع نفسه ، وانه بسقطته هذه من سماء المثل الأعلى للسلوك ، قد اصاب بلطمة ثقيلة تلك الفضيلة المرتجفة التى كانت تستجمع شجاعتها لتطل براسها وتجازف بالخروج الى النور !

وفى خلال العشاء كان كل شىء ٠٠ كل نظرة ، او نبرة ، او ايماءة ، او حركة معبرة من «روبى» ، تكاد تؤيده فى لومه لنفسه وزجره اياها ٠٠ فمن المحقق انها قد تغيرت ، وان تلك المراة الكليلة الساهمة المستغرقة فى التفكير ، والتى مكثت وحدها فى الحديقة عندما ذهب الى « الدهبية » ، قد اخلت مكانها لامراة أصلب عزما ، واشد تالقا ، واعظم حيوية ٠٠ امراة تستطيع ان تقف موقف النزال دفاعا عن نفسها ، قديرة على ان تكون جريئة الى حد يكاد يشبه التحدى ٠٠ امراة خليقة بان تؤلمه وتوجعه ، ردا على ذلك الألم الموجع الذى اوقعه بها ! وكان الطعام بالغ الجودة ، فان طاهيهما النوبى كان قد تلقى هذا الفن فى أحد الفنادق الكبرى ، بحيث لم يكن على مسز ارماين ان تعتذر عن شىء ٠٠ وقد امتدح بارودى الطعام فى أدب جم ، ومع

ذلك احست ان وراء مديحه هذا تحفظا غير محدود • واذ ذاك تذكرت ذلك الزمن الذى كان فيه طاهيها اشهر واعظم طهاة لندن على الاطلاق •• كان اعجوبة من عجائب فن الطهى ، رشاه عشيق لها من اصحاب الملايين ليترك خدمة اسرة من ارفع الأسرات النبيلة مقاما ، ويضع مواهبه فى خدمتها ! •• وقد ذكرت هذه الحقيقة لبارودى ، وكان ذلك أمرا لا يفعله الا السوقة ، فى حين انها لم تكن سوقية فى جوهرها •• ولكن دفعتها الى ذلك رغبتان : فقد شعرت بان فى ضيفها ذلك الاعجاب الغريب – الذى يكاد فى اغراقه ان يكون خياليا – نحو الثراء والرفاهية ، فاحبت ان تستجلب هذا الاعجاب الى شخصها •• وارادت فى الوقت نفسه ان تزيد من عقابها لنيجل !

قالت : « انك تبدو اكولا ذواقة للطعام يا محمود بارودى •• واحسبك قد سمعت عن ارمان كاريير ؟ » •• فتساءل : « احسن طاه فى اوروبا يا سيدتى ؟ كيف لا اكون قد سمعت عنه من أصدقائى فى باريس ؟ » •• فقالت : « لقد لبث فى خدمتى خمسة أعوام » •• وساد الصمت لحظة ، وتورد وجه نيجل فجاة حتى غدا أرجوانيا ، بينما كان بارودى ينقل عينيه الواسعتين فى تثاقل من مسز ارماين اليه ، وما لبث أن قال أخيرا فى هدوء : « اننى اهنئكما معا ، فلا ريب انه كان لديكما كنز نفيس •• ولكن لماذا تخليتما عنه ؟ »

وكان يوجه السؤال لنيجل •• وعندئذ قال نيجل فى خشونة مباغتة •• خشونة انجليزية صميمة تكاد تشبه التعالى والترفع : « انه لم يكن فى خدمتى •• لقد كان ذلك قبل ان نتزوج بوقت طويل »

– آه ! لقد فهمت ! ولكن يا للخسارة ! اذن فلم يتح لك الحظ لتناول أطباقه العجيبة ؟!

– كلا •• اننى لا ابالى بمثل هذه الأشياء !

فلم يزد بارودى على ان قال : « حقا ؟ »

ثم راحوا يتحدثون فى مواضيع شتى ، ولكن نيجل كان قد فقد مرحه ، ولم يعد قادرا على استعادته •• وابى بارودى ، كمسلم صالح ، ان يتناول شيئا من النبيذ ، حتى اذا ما قدمت الفاكهة نهضت مسز ارماين قائلة : « ساتركما برهة وجيزة ، وستجداننى فى الشرفة • ورغم أن بارودى لا يشرب شيئا ، فاننى واثقة من انه يحب احاديث الرجال خيرا من ثرثرة النساء ! » •• وانكر بارودى ذلك فى ادب ، وان بدا فى نبراته شىء من عدم الاكتراث ، ثم اضاف : « ولكن ماذا تقولان فى قبول ضيافتى لتناول قدح من القهوة ، وكاس من الشراب بفندق ونتر بالاس ؟ فالليلة حفلة الافتتاح لفرقة موسيقية مجرية ، احضرتها انا فى الشتاء الماضى الى مصر ، اذ علمت – وقد

لا اكون خبيرا فى الموسيقى الغربية ـ انها تعزف ببراعة منقطعة النظير ! .. ماذا تقولان ؟ ايسرك ذلك يا سيدتى ؟ » .. فاجابت : « أجل » . ثم التفتت الى نيجل قائلة : « هيا بنا نذهب ! الا نذهب ؟ » . فاجاب : « طبعا ، اذا شئت .. ولكن هل يمكنك المشى فى هذا الثوب ؟ » .. فاومات براسها ايجابا ، وهى تقول : « ان الأرض جافة تماما فى الخارج .. سوف اعود اليكما بعد دقيقة واحدة »

ولكنها غابت عشرا .. فلما عادت كانت تلتف فى معطف جميل من الفراء الابيض الفاخر ، وتضع على راسها قبعة صفراء صغيرة ، ترتفع فى جانب منها باقة من الريش . وقالت : «اننى متاهبة للخروج» . فقال نيجل : « يا له من معطف جميل ! » .. فانه لم يكن قد رآه من قبل ! وراح يتحسسه فى رفق باصابعه السمراء ، وما لبث ان نظر اليها ، ثم جذب اصابعه وخطا الى الوراء بحركة تكاد تكون فجائية !

وعندما وصلوا الى الفندق الكبير ،كانت الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعاتها فى البهو ، الذى تناثر فى ارجائه الفسيحة عدد من الناس فى جماعات صغيرة متفرقة ، وكانوا ينصتون اليها وهم يحتسون اقداح القهوة التركية .. وكان الموسم لا يزال فى بدايته ، ولم يبدا بعد اندفاع السياح نحو النيل . كما ان الموجودين منهم لم يكونوا قد وطدوا اواصر المعرفة العابرة بينهم .. ومن ثم فقد كان الناس ينظر بعضهم الى بعض فيما يشبه التساؤل والتحفظ ، او كان بعضهم يتجاهل البعض تماما ، بينما تكاد وجوههم وظهورهم تقول لبعضها بعضا فى صراحة وجلاء : « لن يكون لنا شان بكم حتى نعرف المزيد عنكم ! »

واثار دخول الجماعة القادمة من « فيلا اندروود » اهتماما صرف الناس عما كانوا فيه .. وما كاد الخدم يرون بارودى حتى سرت بينهم حركة رقيقة سريعة للمبادرة الى خدمته ! وملأ الابتسام وجوه النوبيين الطوال القامة فى ثيابهم البيضاء واحزمتهم القرمزية ، ورفعوا ايديهم الى رؤوسهم بالتحية ، وهم يبدون سرورهم ورغبتهم فى استرعاء انظاره .. واسرع حارس الباب الالمانى فتقدم الى الامام وعلى اساريره ابتسامة ارجوانية اللون.اما رئيس الاوركسترا ـ وكان مجريا قحا ـ فقد اخذ يقود الفرقة فى حماس وحمية كانه يعزف من أجله ! وتقدم سيد اسود اللون مهيب الطلعة ، يرتدى ثوبا قرمزيا مقصبا ـ ويبدو كانه امير شرقى ، ولكنه فى الواقع كان يكسب عيشه من صلته الوثيقة بالمصعد المؤدى الى الطابق الاول ! ـ فقادهم الى احدى الموائد .. وتقبل بارودى هذه اللفتات كلها بغير اكتراث ، وفى جلال خلو من التصنع او التكلف . فلما اتخذ ثلاثتهم مجلسهم حول المائدة ، اصدر امره بطلب القهوة والشراب ، ثم اخذوا يصغون الى الموسيقى ، التى كانت بالغة الجودة ، تحوى تلك الطلاوة

الخاصة التى تجمع بين الحمية والحزن ، والتى تتميز بها الموسيقى المنبعثة من اقواس عازفى الكمان المجريين

وكان نيجل يدخن لفائفه ، ويلوح منصرفا بكل جوارحه الى الموسيقى ، وقد غض ببصره الى الارض ٠٠ اما مسز ارماين فكانت تلوح مستغرقة فى الاصغاء كذلك ، بيد انه لم يمض على جلوسها اكثر من خمس دقائق حتى كانت قد رات والمت بكل جماعة من الناس فى جوارها ، وحددت الجنسيات ، وانتقدت ثياب النساء ووجوههن ، واعملت فكرها وانتهت الى قرار حاسم عن الرجال الذين كانوا يصاحبونهن ، وعن الروابط العائلية ، او الغرامية ، التى كانت تربط بين بعضهن البعض او بينهن وبين اولئك الرجال ٠٠ بل انها فعلت اكثر من ذلك ، فقد استطاعت ان تقدر وتزن مبلغ الاهتمام ، او الفضول ، او الاعجاب ، او الغبطة ، او الازدراء ، التى كانت هى نفسها قد اثارتها فى نفوس هؤلاء الناس ٠٠ استطاعت ان تقدر وتزن هذه الانفعالات بتلك الموازين السديدة التى للمراة البارعة الخبيرة ، التى عاشت سنين برمتها فى الأوساط الراقية او المتوسطة على السواء ! ٠٠ وعن كثب منهم ، جلس اللورد والليدى هايمان ، مع اثنين آخرين من الانجليز - هما سير جون وليدى ميرشيسون - الى مائدة لم تكن فى محاذاة مائدة مسز ارماين وزميلها ، وانما كانت الى الوراء قليلا ، من الناحية اليمنى ، بحيث كان شاغلوها فى متناول انظار مسز ارماين ٠٠ كانوا ثلة من ابناء الطبقة الراقية الذين يغشون موائد القمار وحلبات السباق ، ويحبون المرح واللهو ، ويبدون فى كل مكان ، فلا يفوتهم حفل هام يذهب اليه ويظهر فيه نظراؤهم ومن على شاكلتهم ! ٠٠ كانت ليدى ميرشيسون حسناء شقراء حقودا ، من ذلك الطراز من النساء اللواتى لا يترددن فى أن يعضضنك اذا لم تدعهن ينلن ما يردن ! وكانت وقتئذ تبتسم فى شراسة ، وتغمغم ببضع كلمات لليدى هايمان ، التى كانت ضخمة الجسم بطبيعتها - ولكنها كانت تضغط جسمها بشدة ! - ذات لون قان دموى لم تفلح المساحيق فى اصلاحه اصلاحا كافيا ، وذات طبع استبدادى لم يفلح اللورد هايمان فى تقويمه بما فيه الكفاية !

كل هؤلاء الناس - وكانت مسز ارماين تعرف ذلك فى قرارة نفسها الى حد اليقين - قد قراوا ما نشرته صحيفة « المورننج بوست » ٠ ٠وهم هنا فى مصر يمثلون (لندن) ، ومن ثم فقد كانت ترى فيهم حكم (لندن) عليها : « لقد نالت ما تستحق » ٠٠ راته فى ابتساماتهم الباردة ، وفى لفتاتهم المباشرة اليها - وكانت لفتات قاسية ، وقحة ، باردة كالفولاذ ! - وفى نظرات الاشفاق الغريبة ، الممتزجة بلون من التشفى الحيوانى - بل الصبيانى - التى كان الرجلان يرمقان نيجل بها !

وما لبثت مسز ارماين ان نقلت انظارها من (لندن) الى (مصر) ممثلة فى بارودى .. لقد كانت بزواجها من نيجل تتوق الى ان تضع « كعبها » على راس لندن التى طالما احتقرتها ، وازدرتها .. وكانت ترجو ان تضع يوما « كعب » الليدى هارويتش على راس اكثر من امراة واحدة من اللواتى عرفتهن قبل ان يلقى بها الى خارج المجتمع .. وكانت – فى قرارة نفسها – تعتمد على ذلك ، وكانه شىء محقق ، شىء ليس عليها الا ان تنتظره .. فقد كان اللورد هارويتش معتل الصحة منهوك القوى ، كما كان رجلا طائشا الى حد بعيد ، تتعقبه الحوادث باستمرار ، ودائما ما يتعرض لتحطيم عظامه واصابة جسمه بشتى الاصابات .. ولم يكن عليها الا ان تنتظر فقط ! .. اما الآن ، فهناك غلامان توامان .. وهناك لندن باسرها تضحك منها !

وعادت تنظر الى بارودى من جديد .. وكانت الموسيقى الحارة الحزينة قد بلغت ذروتها ، واستحوذت عليها ، وامسكت بها فى قبضتها القوية ، وراحت تجرفها الى الامام .. فلما انتهى اللحن ، كانت مسز ارماين تشعر بانها قد حملت بعيدا عن لندن ، وعن تلك الامانى والاطماع القديمة ، الى الابد ! .. وكانت عينا بارودى الواسعتان تستقران عليها ، وكانهما تقرآن افكارها .. واصبحت تحس – للمرة الاولى – بالقلق ينتابها من هذه النظرات المتفرسة ، المليئة بالعزم والتصميم .. وتحس بالرغبة – بل الحاجة – الى الفرار منها والنجاة من هذه الرقابة ! .. وفيما كان العازفون يرفعون ذقونهم عن آلاتهم، ويرخون ايديهم الى جوانبهم ، قالت لزوجها : « هل اكتفيت من الموسيقى يا نيجل ؟ » . فاجفل نيجل وهتف بها : « ولماذا يا روبى ؟ انهم يعزفون فى براعة وحق السماء ! »

ولاحت فى عينيه نظرة اوحت بانه كان كشخص يعود من رحلة طويلة مظلمة تحت الارض الى ضوء النهار .. كانت الموسيقى قد حملته الى جانب تلك الفتاة التى احبها يوما ، والتى قضت نحبها منذ عهد بعيد .. اما الآن ، فقد راح ينظر الى تلك المراة التى تحيا بجانبه ، والتى اتجهت اليها قوته العظيمة على الحب ، وتركزت فيها .. وسالته : « هل يضايقك ان نعود الى المنزل ؟ » ، فاجابها متسائلا : « وهل اكتفيت من الموسيقى الى هذا الحد ؟» ، فقالت : « كلا ، ليس الامر كذلك ، ولكن .. ولكننى متعبة ! » . وفيما كانت تقول ذلك استطاعت ان تحول انظاره فى براعة – ودون ان يبدو عليها تعمد ذلك – نحو الجماعة الصغيرة التى كانت تضم آل ميرشيسون وآل هايمان ، وان تحول مشاعره نحو الاشفاق عليها من نظراتهم ، فيدرك ان ذلك كان سبب رغبتها فى الانصراف .. بل ربما كان ذلك بعض السبب ، وليس السبب كله ، كما اوحت اليه .. وعندئذ قال نيجل فى حنان : « لسوف اعود

بك الى المنزل لتوا »

فلما غادروا الفندق ، حيا بارودى الزوجين مودعا ، ودعاهما الى تناول الشاى على ظهر « اللولية » او اللؤلؤة – وهو الاسم الذى كان يطلق على دهبيته – فى اليوم التالى ، واضاف : « سارحل الى ارمنت فى المساء ، فهل يضايقك الحضور يا سيدتى ؟ » .. وكان يتكلم بادب جم ، ولكن فى غير اكتراث . واجابته مسز ارماين باللهجة نفسها : « شكرا ، لسوف يسرنى ذلك ! » .. فقال : « طاب ليلكما .. لقد كانت الموسيقى رائعة ! » .. واختفى شبحه الطويل فى الظلام . فلما فارقهما ، كان الصمت يخيم فوقهما .. واتى نيجل بحركة وكانه يهم بان يمسك بيدها ويضع ذراعها تحت ذراعه ، ولكنه لم يفعل! وهكذا راح الاثنان يمشيان جنبا الى جنب بجوار النهر دون أن يلمس احدهما الآخر او يتبادلا كلمة واحدة .. وعلى هذا النحو وصلا الى الفيلا ، ثم الى الشرفة الممتدة امام حجرة الجلوس . وعندئذ تكلم نيجل اخيرا فقال : « هل .. هل ستصعدين للتو يا روبى ؟ » .. فاجابت : « اجل » . واذ ذاك قال : « اننى .. هلا ناديتنى من نافذتك بعد قليل؟» .. وكان جوابها ان تساءلت : « ولماذا ؟ »

– عندما تجدين الوقت مناسبا لصعودى اليك .. اذ يجب بعد الذى حدث هذا الصباح ان اتحدث اليك قبل ان ننام .

فنظرت اليه ، ثم نكست بصرها الى الارض ، وهى تريح ذقنها البيضاء على الفراء الأبيض الدافىء ، وأخيرا قالت : «سأناديك» . واذ مضت مبتعدة ، راح يتبعها ببصره وهو يفكر فى مبلغ ماتبدو عليه من الطول الفارع – الى درجة غريبة – فى هذا المعطف الا بيض الطويل ، وراح يذرع المكان ذهابا وجيئة اثناء انتظاره ، مصغيا مترقبا ان يسمع صوتها .. وبعد فترة خالها دهرا طويلا سمعها اخيرا تقول : «نيجل .. لك ان تصعد الآن .. اذا شئت !» .. فاسرع من فوره يرقى الدرج نحو حجرتها ، حيث وجدها جالسة فى مقعد كبير بالقرب من النافذة المؤدية الى الشرفة العليا ، التى كانت مفتوحة على مصراعيها تحتضن ظلمة الليل.. وكانت ترتدى ثوبا أبيض هفهافا واسعا من ثياب النوم ، ذا أكمام كبيرة تنسدل حول ذراعيها كالجناحين .. وكان شعرها معقوصا خلف عنقها !

وكانت الحجرة مضاءة بشمعتين صغيرتين تحترقان فوق مكتب صغير ، وبضوء القمر الشاحب الرقيق الذى كان يسترق الخطى الى داخل الحجرة فى حذر واصرار معا ، زاحفا اليهما من مصر التى كانت تنام دون ان تنبعث لأنفاسها صوت ما ، والتى كانا ياويان اليوم الى احضانها الدافئة ! .. ووقف نيجل امامها برهة ، ثم جلس فوق اريكة صغيرة لم تكن ملاصقة لها ، وانما كانت قريبة منها .. وهتف يقول : « روبى ! » .. فاجابت : «حسنا يا نيجل!» .

قال : « لقد كان هذا اول يوم تعس مر بى منذ زواجنا ! » .. فتساءلت : « تعس ؟! »

ـ نعم .. بسبب هذه السحابة التى نشات بيننا !

فلم تقل شيئا . وعندئذ استطرد يقول : « على انه علمنى شيئا ياروبى .. لقد جعلنى ادرك مقدار حبى ، وشغفى بك » .. ومال نحوها . وفيما كان يفعل ذلك سرح فكرها الى بارودى فذكرت تماما كيف كانت تبدو كتفاه وعنقه عندما كان يميل نحوها ! بينما كان نيجل يتابع كلامه : « ولا احسبنى كنت ادرك ذلك حق الادراك من قبل . بل اننى واثق تماما من اننى لم اكن ادركه .. ولكن الذى جعلنى افهم حقيقة شعورى هو مااحسست به عندما وجدت اننى آذيتك واسات اليك لحظة واحدة .. روبى ! .. لقد تولى ضميرى ومشاعرى عقابى الى حد لااظن معه انك يمكن ان تودى عقابى باكثر من ذلك ! »

ـ انا اعاقبك ؟ ولكن اى جرم اتيته حيالى ، وكيف يمكن لى ان اعاقبك ؟

ـ لقد اسات اليك هذا الصباح عند ماظننت لحظة ...

وكف عن الكلام .. فقد وجد انه لايستطيع ان يصوغ افكاره فى كلمات واضحة . وما لبث ان اختتم عبارته قائلا : « بشان هارويتش والغلامين .. » ، فقاطعته صائحة : « آه اهو ذلك ؟ .. ولكن الامر لم يكن بذى بال ! » .. وكانت تتكلم فى برود شديد ، ولكنها كانت تحس بنفسها اكثر انفعالا ، واحر عاطفة مما كانت منذ عهد بعيد ، بل اكثر مما كانت تعلم انها قادرة على ان تحسه ! وعاد يقول : « لا .. لقد كان ذا شان خطير ! ولكنى لا احسبنى كنت اعنيه حقا » . فقالت معتدة : « بل انك كنت تعنيه ! » .. فاعتدل فى جلسته ، كما يفعل رجل فوجىء بما ازعجه . بينما اردفت هى : « لقد كنت تعنيه وتعتقده .. لاتحاول ان تتملص من ذلك يانيجل ! »

ـ اننى لااحاول ياروبى .. لماذا ؟ الم اقل .. ؟

ـ لقد كنت تعتقد مايعتقده كل امرىء .. تعتقد اننى امراة جشعة ، لا روح لى ولا ضمير ، واننى تزوجت منك مدفوعة بمطامعى الشريرة الخبيثة فى ان اصبح يوما من الايام ليدى هارويتش .. لقد كنت تعتقد ذلك يا نيجل .. كنت تعتقده حقا !

ـ اننى فى لحظة واحدة فقط ..

ونهض من مجلسه فوق الاريكة ، فوقف بجوار النافذة .. كان يشعر بما يشعر به رجل يجتاز ازمة نفسية ادبية .. يشعر بان مايقوله فى تلك اللحظة ، والطريقة التى يقوله بها ، ومبلغ مايضح فيه من اخلاص عميق ، ومرارة قلبية ، ربما كان له ـ بل لابد ان يكون له ـ اثر واضح يحدد مجرى المستقبل ..

واستطرد يقول : « اننى فى لحظة واحدة فقط تساءلت عما اذا كنت قد

فكرت عند ماتزوجت منى فى اننى قد أصبح يوما من الايام لورد هارويتش ! »
.. فقالت : « طبعا »

* * *

◆ « الله » .. ومن خلال النافذة المفتوحة تسلل ذلك الصوت الأغن ، المنبعث من الملاح النوبى ، وهو يبدأ أنشودة النيل على السطح الأسفل من «الذلولية» . وتسلل معه الى الحجرة ذلك الوجيب الخافت لدقات « الدربكة » وكأنه الصوت المنبعث من بعض الأمواج الطويلة الخفية الأبدية .. أمواج الليل !.. ذلك الفيض الغامر من الأسرار الغامضة والحسن المكنون الذى يغرقهما ويغرق العالم كله ! وزادت هذه الموسيقى البعيدة من انفعالها ومن انفعاله معا !

- روبى .. حاولى ان تفهمى . احسب أنه كان ، الى حد ما ، شعورا وضيعا ، ذلك الذى دفعنى الى التساؤل .. لقد كان عسيرا على ان اصدق انك تهتمين بى كثيرا

- ولماذا ينبغى لك ، أو لأى امرىء غيرك ، ان تعتقد اننى خليقة بان أهتم واحب ؟!

- لقد اعتقدت ذلك فى لندن ، واعتقدت ذلك هنا ، وقد كنت دائما اعتقد ذلك .. دائما ! واذا كان بعض الآخرين قد .. قد كفروا بك وكذبوك ، فاننى لم اكن مثلهم البتة .. أو ترتابين فى ذلك ؟

وتقدم خطوة الى الامام ، ووقف ينظر اليها ، مستطردا : « ان بوسعى ان أثبته لك » . فتساءلت : « آه ! كيف » ؟.. فاجاب : «ان ماير ايزاكسون يعلم ذلك» .. ولم يشر الى زواجه منها كدليل سبق أن قدمه ، لان ذلك قد يعنى شيئا آخر غير ايمانه فى زهدها الدفين ، وفى رغبتها الخفية فى كل ما هو طيب وجميل .. واردف يقول: «وانت ، الا تعلمين ذلك ؟.. حتى بعد هذا الصباح؟»

- بعد هذا الصباح .. اننى لاأحب ان اوذى شعورك ، ولكن عليك ، بعد الذى حدث هذا الصباح ان تثبته لى .. تثبته بما لا يدع سبيلا الى الشك ، والا فاننى لن اصدقه !

وضاع صوت الملاح النوبى المنفرد وسط اصوات رفقائه - وهم ينشدون معا - وقد حومت فوق النيل .. بينما استطردت قائلة : لست احب ان اكون باردة الشعور .. ولست اود ان أكون قاسية ، ولكن المرء لايملك ان يمنع اشياء معينة من ان تخالجه .. لقد كنت مسوقة ، مجبرة ، على الشك والريبة فى كل مايتصل بالرجال .. ولست اود أن اجوس ثانية خلال حياتى الماضية ، لا ولا اود ان اعيد على مسامعك ذلك «الكليشيه» القديم « من كان منكم بلا خطيئة » ، وليس فى

نيتى أن ألعب دور المراة الشاكية الباكية ، فما فعلت ذلك قط من قبل ، واحسبنى على قدر ضئيل من الشجاعة يحول بينى وبين اتيان ذلك البتة !٠٠ ولكن شيئا كالذى حدث فى هذا الصباح ينبغى ان ينمى الشكوك والريب والشبهات فى امراة مر بها من التجارب ما مر بى !٠٠ ولقد كان من ايسر الأمور لدى ان ارتمى بين ذراعيك ، واقول اننى قد نسيت كل شىء ، واننى لن افكر فيما حدث ثانية ، وما الى ذلك ٠٠ كان من ايسر الامور لدى ان امثل لك دورا فى مسرحية ، ولكنك كنت طيبا معى عندما هجرنى الجميع ، وقد اهتممت بى الى الحد الذى جعلك تتزوج منى ، ومن ثم ، حسنا ، اننى لن افعل شيئا من ذلك ، وانما سوف اخبرك بالحقيقة ٠٠ هاهى ذى : اننى لا استطيع ان احول دون ادراكى انك ترتاب فى مقاصدى ، ولست فى الواقع ادهش لذلك قيد انملة ٠٠ لست اعرف ان كان لى حق فى ان أشعر بانى قد اوذيت فى شعورى ، او اهنت ٠٠ ولكن ، سواء اكان لى هذا الحق ام لم يكن ، فاننى قد اهنت واوذيت فعلا ، ولا بد ان ينقضى بعض الوقت قبل ان اشعر بالأمن والسلامة الكاملين معك ٠٠ الأمن والسلامة ! فليس فى وسع المرء ان يشعر بهما الا اذا وجد ان ذلك الشطر الضئيل من الاخلاص الكامن فيه ، يقابل بالتصديق والايمان والثقة !»

وكانت تتكلم فى هدوء ، ولكنه أحس بالانفعال المضطرم خلف هذا الهدوء الظاهرى ٠٠ وكانت فى صوتها نبرة من الصلابة انباته - بوضوح - بانها تعنى كل ماتنطق به !٠٠ وكان صوت الملاحين النوبيين يعبر النيل اليهما بغير انقطاع ٠٠ وقال نيجل : «لست أدهش البتة ان يخالجك مثل هذا الشعور » ٠٠ ثم وقف برهة ممعنا فى التفكير ، متاملا ٠٠ وما لبث ان جلس ثانية وبدا يتكلم فى عزم تستحثه العاطفه : «روبى ! احسبنى اليوم كنت كاذبا مع نفسى ، لاننى اليوم كنت خائنا لايمانى الحقيقى العميق بك ٠٠ ففى لندن ، كنت اعتقد انك اهتممت بى كرجل ٠٠ لا لأننى قد فتنتك بصفة خاصة بشخصيتى ، بل لاننى استطعت ان احس كيف يسىء الاخرون فهمك وتقديرك ٠٠ وكان يخيل الى - بل ويخيل الى الآن - ان فى وسعى ان البى رغبة فى نفسك لم يحاول احد قط غيرى ، بل لم يشا قط ، ان يلبيها ! كان الآخرون ، فيما يخيل الى ، ينظرون اليك على انك لم يعد لك مطمع البتة الا فى تلك الأشياء التافهة التى لايقام لها فى الواقع اى وزن : المال الوفير والترف والحلى والثياب ٠٠ وانت تعلمين ما اعنيه ! ٠٠ ولكنى شعرت بان رغبتك الحقة - حسنا ٠٠ لابد لى من ان اقولها فى صراحة - هى ان تكونى محبوبة ، لا مشتهاة فحسب ٠٠ ان يستوهبك الناس شيئا ، لاان يهبوك اشياء فحسب ٠٠ لقد شعرت بذلك ، وخيل الى اننى ادركته ٠٠ افلم أكن على حق ؟»

فقالت : « لست ادرى ٠٠ الليلة ؟! » ٠٠ وكانت أذناها قد امتلأتا بتلك

الموسيقى وذلك الغناء الذى كان ينوح ويختلج فى احضان الليل .. وعاد يقول: « اليس فى وسعك ان تغفرى لى تلك المرة الواحدة التى تخليت فيها عن نفسى، بعد كل هذه الأيام و .. والليالى معا ؟ .. الم اقم الدليل على شيء ماخلالها ؟» .. فقالت : « لقد كنت تلوح كذلك، ولكن الرجال غالبا مايبدون هكذا، دون ان يكونوا حقا .. وقد ظننتك تعرف لماذا تزوجت منك» .. فقال : «خبرينى لماذا تزوجت منى ؟ » . فقالت : «ليس الليلة ! » . فشرع يقول ، وقد تباطا فى كلامه واكتسبت لهجته جدا واهتماما عميقين ، وسرعان ماستحوذت لهجته على انتباهها كله :

ـ لقد كنت باروبى منذ عهد بعيد احب فتاة صغيرة .. كانت فى مستهل شبابها الباكر ، لا تعرف الا النزر الضئيل عن الدنيا ، ولا تعلم شيئا البتة عن مفاسدها وشرورها .. واحسبنى احببتها لأنها كانت ، من ناحية ، على هذا النحو من قلة المعرفة ، والى هذا الحد من الطهر والنقاء ، وان المرء ليستطيع ان يرى .. يرى فى عينيها انهما مانظرتا قط ـ ولو عن بعد ـ الى الوحل والاقذار او اى شيء دنس اغبر ! .. كانت تحبنى الحب كله . ثم ماتت .. وبعد ذلك اصبحت مثلى الأعلى !

ونظر اليها وهو يرفع راسه قليلا فى بطء .. وكان فى عينيه ضياء ساطع اخافها وسحرها فى الوقت نفسه .. ضياء خالص نقى لاتشوبه شائبة ، فكانه لهب ترتفع السنته فى مكان خلو من الريح .. واردف يتابع القول : « ولقد ظللت احتفظ بها دائما فى ذاكرتى بمعزل عن النساء الأخريات .. دائما ، وعاما بعد عام .. حتى جاءت ليلة ، وانا فى لندن ، بعد ان عرفتك ! ففى تلك الليلة ـ ولست ادرى كيف حدث ذلك ، او لماذا حدث ـ خيل الى اننى اراها واراك ، واقفتين معا ، تنظر كل منكما الى الأخرى .. وخيل الى اننى تبينت فى كل منكما .. لست ادرى كيف اعبر عن ذلك تماما ..»

وتوقف عن الكلام وهو ينكس بصره كشخص استغرق فى تفكير عميق ، او شخص استبدت به الأفكار . وما لبث ان استطرد قائلا : «لقد كان فى كل منكما ـ مع الكثير من الأشياء الأخرى المتباينة ـ شيء واحد .. شيء جميل ، اجتمع فيكما معا .. وخيل الى انها كانت تقول فى تلك الليلة انك تنطوين على شيء طالما احببته فيها .. شيء مستتر لاتراه العيون .. وانك تخافين اظهاره ، لان احدا لايصدق انك تنطوين على هذا الشيء فى اعماق جوانبك ! خيل الى انها تطلب منى ، فى تلك الليلة ، ان اجعلك تثقين بى ، فتطلعينى على هذا الشيء .. وفى تلك الليلة كانت بداية حبى لك ! وما خطر لى البتة اننى سوف اطلع احدا ـ حتى انت ـ على ذلك . افتحسبين اذن اننى كنت خليقا بان اطلعك عليه ، اذا كنت لا اثق بك كما يبدو انك تظنين ؟ »

ـ هل لك ان تناولنى كوبا من الأبوليناريس(١) يانيجل ؟ انه هناك بجوار السرير !

وهتف وهو شارد البال : «أبوليناريس ؟!» •• وكان يحملق فيها وهو سارح البال ، كأنما أصيب بالارتباك لهذا التحول الفجائى •• فقالت : «انه هناك»•• واشارت بيدها ، وعندئذ انحسر كمها الطويل ، الشبيه بالجناح ، حتى كشف عن ذراعها البضة الناصعة •• وغمغم نيجل : « آه •• حسنا ! » • ثم مضى ليحضر ماطلبت ، بينما جلست هى فى مكانها بلا حراك ، تنظر خلال النافذة المفتوحة الى ضوء القمر المترامى على بلاط الشرفة الأبيض •• وسمعت صليل الزجاج ، وقرقرة السائل وهو يصب فى الكوب •• ثم عاد نيجل ثانية ووقف بجانبها وهو يقول : «هاهو ذا ياروبى !»

وكان الحماس قد تلاشى من صوته ، والضياء الغريب قد خبا من عينيه •• وقالت : «شكرا» ، ثم تناولت الكوب ، فادنته من شفتيها ، وراحت ترشف منه• وما لبثت أن وضعته على المكتب الصغير ، وقالت : « اننا مازلنا فى بداية الأمور يانيجل •• هذه هى الحقيقة •• فليس فى وسعنا ان نقفز فى وثبة واحدة الى الكمال المتبادل فى علاقتنا معا ! وان لدى القليل من الأوهام ، كما أجرؤ على القول باننى شديدة الحساسية حيال بعض الأشياء الى حد السخف •• أكثر حساسية مما تتصور ! والحقيقة هى اننى وطئت بالاقدام ردحا طويلا ، وما من رجل يستطيع ان يدرك ماتشعر به المراة ـ السيدة ـ التى تكون فى ذروة نجاحها ، ثم تجد نفسها منبوذة ، مقصية عن المجتمع ، واخيرا تداس بالاقدام!•• ان ذلك يجعلها تهرع الى الشيطان فتطوق عنقه بذراعيها ! ربما كان ذلك امرا شائنا ، فظيعا ، ولكنه الحقيقة الواقعة •• وعندما تحاول أن تهجر الشيطان ، فانها تكون كتلة من الاعصاب المتوترة ، تجفل وتفزع لأى شبح •• ولقد رايت اليوم شبحا فى الحديقة ! » • فتمتم : « أعرف ذلك •• اعرف ذلك ! » •

ـ هل تذكر تلك الليلة التى تناولنا فيها العشاء فوق بوابة معبد الكرنك ؟ لقد اردت بعد العشاء ان ترينى الخرائب فى ضوء القمر ، فكنا اينما ذهبنا ، يتبعنا رقيب ذو ثوب اسود •• او يفاجئنا ذلك الرقيب ذو الثوب الأسود متسللا من خلف عمود ، او مسلة ، أو جدار منهار ، فيواجهنا ، ويتفرس فى وجوهنا ، حتى اضطررنا الى ان نلجأ الى الفرار !•• حسنا ، هذه هى الحياة بالنسبة لبعض النساء •• وهذا ما كانت عليه الحياة بالنسبة لى زمنا طويلا • كلما حاولت أن أتطلع فى هدوء وسكينة نحو شىء جميل ، الفيت نفسى وقد

---

(١) الأبوليناريس ماء معدنى قلوى مهضم ، يستخرج من نبع «أبوليناريس» بمقاطعة الراين

تبعنى رقيب يرتدى السواد ، او واجهنى وراح يتفرس فى وجهى فى شك وارتياب ! واليوم كنت انت واحدا من هؤلاء الرقباء السود ، عندما سألتنى ما سألتنيه بشأن هارويتش !

وتناولت الكوب فرشفت منه بضع جرعات أخرى . وما أن أعادته الى مكانه حتى كان نيجل راكعا بجانبها ، يطوقها بذراعيه ، هامسا : « لن أكون كذلك ثانية ! » .. وتسلل اليه عطر رقيق اخذ ينبعث من شعرها بعد أن أصبح قريبا منها الى هذا الحد ، فاستطرد يهمس من جديد : « ولست أريد أن أكون كذلك يوما ما ! » . وشدها اليه ثم احتواها بين ذراعيه .. وفيما كان يفعل ، كان ينصت الى الملاحين النوبيين ، والى الكلمة الواحدة التى كانت دائمة الترداد على شفاههم التى لم يكن ينالها التعب البتة : الله .. الله .. الله !

كان الله هناك فى غمرة الليل ، بجوار النيل العظيم الغامض الذى يفيض من منابع ممعنة فى البعد ، وسط القفار الموحشة فى الأرض .. كان الله هناك يرعاهما : هو ، وروبى ! .. وكان لديه ذلك الايمان الساذج ـ الذى يكاد يشبه ايمان طفل صغير ! ـ بأن هناك ربا يعرف كل خاطرة تهجس فى نفسه ، وكل حركة يأتيها ! .. وهناك آلاف من الناس يؤمنون هذا الايمان ، ولكن آلافا من الناس يكنونه فى اعماق نفوسهم كما يمكن أن يخفوا خطيئة ارتكبوها .. فهم يخشون اظهار سذاجتهم وبساطتهم !

والغرض المنشود من الله .. الم يكن واضحا امامه كل الوضوح ؟ انه يراه كذلك الآن .. فان ما ينبغى عليه أن يعمله ، هو ان يعيد الى تلك المرأة ثقتها فى وجود الخير ، بأن يؤمن ايمانا ثابتا بوجود الخير فى نفسها ، وألا يدع هذا الايمان يتزعزع كما تركه يتزعزع فى ذلك اليوم ! .. وكان حانقا على نفسه لأنه آذاها وجرح شعورها ، وكلما اشتد حنقه على نفسه اشتد ضغط ذراعيه حولها ، كأنما كان يحاول ان ينقل من جسده الى جسدها ذلك العزم الذى استقر عليه !

ومضى الملاحون النوبيون فى غنائهم الجميل : كانوا بالنسبة اليه فى تلك الليلة يتغنون بالله .. وكانوا بالنسبة اليها يتغنون بـ .. محمود بارودى !

الفصل الخامس عشر

ـ ما معنى هذه الكتابة بالعربية يا محمود بارودى ؟

ألقت مسز ارماين هذا السؤال عصر اليوم التالى ، بينما كانت تقف مع بارودى ومع زوجها فوق السطح الأسفل من

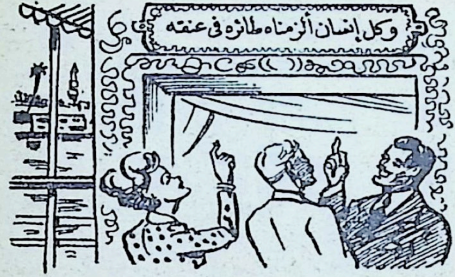
وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه

« اللولية » ، عند قمة الدرجتين اللتين كانتا تؤديان الى الباب الكبير الذى يفصل بين صفى حجرات الجلوس ، وجناح البحارة النوبيين .. وكان ذلك الباب ناصع البياض ، تزينه نقوش بارزة مموهة بالذهب ، كما كانت الكتابة المنقوشة فوقه بحروف بارزة مذهبة . واستطردت تقول : « يبدو انها ذات مغزى ، ولا بد أن أعرف ما تعنيه » .. فأجاب : « انها آية مقتبسة من القرآن يا سيدتى » .. فسألته : « وتعنى ؟ ». واذ ذاك ثبت نظرات عينيه الواسعتين عليها ، وهو يجيب : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » ، فأخذت تردد معنى الآية فى بطء : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » ، ثم أردفت : « اذن فهذا هو شعار اللولية ؟ »

وكانت تقف فى مكانها جامدة ، وهى تحدق فى تلك الكتابة السحرية التى كانت تهم بالمرور تحتها .. فقال بارودى : « أو لم تعجبك هذه العبارة يا سيدتى ؟ » .. فأجابت : « لا ، فانها بالغة القوة .. ولكن ، حسنا .. انها لا تدع منفذا للفرار أو النجاة ، كما انها تكاد توحى بمعنى السجن » .. فقال فى خشوع : « اننا فى الواقع فى سجن من حياتنا .. واننا لفى

سجن من نفوسنا » ٠٠ فأرخت نظراتها عن الكلمات المنقوشة، وغمغمت وهى تتطلع اليه كشخص يرغب فى المزيد : «أحقا ؟» ٠٠ وعندئذ انبرى نيجل من خلفها قائلا : « **سجن ؟ اننى أمقت هذه الكلمة ، وانك لمخطىء يا بارودى٠٠فالحياة حرية رفيعة ، اذا اخترنا لها أن تكون كذلك ، وفى وسعنا ان نعمل فيها بمحض ارادتنا الحرة ٠٠ ان القدر ليس مغلولا الى أعناقنا ، وانما نحن وحدنا الذين نستطيع أن نضعه هناك !** »

فقال بارودى فى اصرار : « هذا لا يتفق مع عقيدتى فى شىء » ٠ وتحول عن الموضوع قائلا : « ها هى ذى قمرات الخدم» ٠٠ وكان قد قادهما الى ممر طويل وهو يشير الى الأبواب الصغيرة على اليمين وعلى اليسار ، ثم استطرد قائلا : « وها هى ذى الحجرة التى أخصصها للعمل وتدبير كل ما يجب على عمله ٠٠ وأحسبكم معشر الانجليز تسمونها ٠٠ الوكر ! »

وفتح « بارودى » بابا كان فى مواجهتهم فى نهاية الممر ، ثم سبقهم الى دخول « وكره » ٠٠ وكان الأثر الذى يقع فى النفس من هذه الحجرة ـ لأول وهلة ـ انها « حجرة مزدوجة » ، اذ كان يقسمها الى غرفتين حاجز نفيس من « المشربية » (١) ، فى وسطه باب على شكل قبو صغير ، اقيم الى جانبيه ـ فى مواجهة باب الدخول ـ عدد من الأرائك غطيت بالوشى المطرز ، وتكدست عليها وسائد كبيرة ٠٠ وكانت الأرض مكسوة بعدد من سجاجيد الصلاة ٠٠ سجاجيد صغيرة تحمل مختلف الرسوم والألوان ، وقد تمازجت عليها الألوان الصفراء والخضراء والبنفسجية والقرمزية والحمراء والأرجوانية والسمراء ، فى اتساق وانسجام كاملين ، وتزاملت فوقها أوانى الزهور مع الأشجار ، والمصابيح مع الأزهار ، والمبانى الغريبة مع السفن

---

(١) يطلق هذا الاسم على التحف المصنوعة من الخشب المفرغ ، التى يفخر بها الفن العربى

ومع السلاسل ، ومع قواعد التماثيل ، ومع سلال الفاكهة ، فكانت تبدو وقد اختلطت جميعا حسبما اتفق ، ولكنها فى الواقع كانت تؤلف مزيجا ترتاح اليه النفس ٠٠ وكانت على النوافذ مصاريع من « المشربية » يمكن فتحها وغلقها وفقا لما يشاء المرء ، وقد كانت اذ ذاك مفتوحة ٠٠ وقامت تحتها خزانات للكتب ، كانت تضم صفوفا منها ـ بالانجليزية والفرنسية ـ يتناول معظمها الزراعة ، والبناء ، والتعدين ، وصناعة القطن وصناعة السكر ، فى مختلف أنحاء العالم ٠٠ كذلك كان بالحجرة مكتب كبير من « اللاكيه » عليه مصباح كهربائى متحرك خلو من حاجب الضوء (أباجورة) ، وسط خليط من أكداس الأوراق والنشرات ٠٠ وعلى مقربة من المكتب ، قامت منضدة صغيرة ومقعدان منخفضان من المقاعد ذات المسندين ٠٠ وكان يتدلى من السقف ـ الذى قسم الى أشكال عديدة طليت باللونين الأحمر الغامق والأزرق ـ مصباح ضخم معلق فى سلسلة من الفضة المذهبة ٠٠ بينما أخذ عود من البخور يحترق فى حامل مموه بالذهب !

وكانت حجرة المائدة ، فى الجانب الآخر من الحاجز ، مؤثثة بعدد من الارائك تمتد حول جدرانها ، وتضم مائدة كبيرة وعددا من المقاعد ذات الظهور المقوسة ٠٠ وغطيت المائدة بمفرش هندى طويل رائع الوشى ، كان اللون السائد فيه هو الأحمر البرتقالى اللامع ، الذى كان يتألق تحت الضوء فيبعث بريقا كأنه ألسنة النيران ٠ وقامت فى وسط المائدة زهرية يابانية ازدانت بألوان صارخة غير متناسقة ، لعلها لم تكن تساوى أكثر من خمسة أو ستة شلنات ! ٠٠ وكان مثبتا بأحد الجدران حامل جميل من الخشب المنحوت ، عليه ساعة رخيصة من سويسرا تمثل عش طائر

وراحت مسز ارماين تجيل أنظارها حواليها فى صمت ،

دون أن تفوت عينيها صغيرة أو كبيرة مما كانت الحجرة تحتويه . وعلى حين غرة ، انبعث من الساعة السويسرية ازيز خافت ، ثم انفتح فيها باب صغير خرج منه طائر خشبى جميل الصنع ، أطلق صيحتين رقيقتين كانتا كل‌ما بعث به «الزمبلك» الانجليزى - الذى جهزت به الساعة - الى النيل ! . ثم اختفى الطائر ثانية ، وأغلق الباب الصغير خلفه دفعة واحدة .. فابتسمت مسز ارماين وقالت : « أأنت الذى اشتريت هذه ؟ » .. فأجاب بارودى : « أجل يا سيدتى .. كل شىء هنا اشتريته بنفسى‌ورتبته وفقا لذوقى المتواضع» .. ثم فتح بابا وقاد ضيفيه الى ممر طويل ، رصفت أرضيته بالباركيه اللامع ، وقال : « وهذه هى حجرات النوم يا سيدتى »

ثم دفع بابين أو ثلاثة ، كاشفا عن قمرات صغيرة جميلة ، بدا واضحا انها كلها باريسية الأثاث . وكانت تحوى أسرة أنيقة ، وكللا رقيقة (ناموسيات) ، ومرايا طويلة ، ومقاعد صغيرة .. كل ذلك فى لون أبيض وأخضر ووردى . أما الجدران فكانت فى لون العاج الأبيض . وكانت تملأ الحجرات ستائر مختلفة الأحجام ، بعضها للكوات المستديرة التى تؤلف نوافذ الحجرات ، وكلها رقيقة جميلة زاهية الألوان ، ملأى برسوم أزهار ربطت باقاتها بالأشرطة ، الى جانب رسوم الطيور الجاثمة والطائرة .. وكانت جميع وسائل الزينة كاملة ، كما كان لكل حجرة حمام خاص به مغسل مطلى بالميناء (بانيو)

وأشار بارودى الى أحد الأبواب دون ان يفتحه ، وهو يقول : « وهذه هى حجرة نومى الخاصة ، يا سيدتى .. انها أكبر حجرة فى‌العائمة ، أماهذه فهى‌الحجرة المخصصة‌لخلواتى .. فكلما أردت أن أخلو الى نفسى دون ان يزعجنى أحد ، وكلما رغبت فى أن أدخن « الكيف » أو آكل « الحشيش » .. أو كلما

أحببت أن أجلس منفردا لأنسى مشاغلى وأستغرق فى التفكير برهة ، فاننى أعتكف بداخلها ! »

وكانت تواجههم فى نهاية الدهليز ستارة مطرزة ، برتقالية اللون ، تغطيها وشائج من الحرير من مختلف الألوان ·· فجذب بارودى الستارة جانبا ، ثم دفع بابا منزلقا من الخشب يكاد يكون أسود اللون ، وقال : « هل لك أن تتقدمى يا سيدتى ؟ » · فخطت مسز ارماين الى الداخل فى بطء وحذر ، واذا بها فى قاعة فسيحة تشغل كل مؤخرة «الدهبية» ·· وكان الجانب الأقصى لهذه القاعة متسعا ، هلالى الشكل ، به مصطبة منخفضة ذات أرائك مقوسة ، يشطرها بابان منزلقان ـ كانا اذ ذاك مدفوعين فى الفجوات الخاصة بهما ـ يؤديان الى شرفة كبيرة تطل على النيل وتغطيها مظلة واسعة من وهج الشمس ، وكان السقف الخشبى لهذه القاعة مقسما الى مربعات سوداء وذهبية ، وقد زخرفت اطاراتها بنقوش دقيقة ـ تمثل آيات من القرآن ـ بحروف من الذهب فوق رقاع سوداء ، وكانت جميع النوافذ من الخشب المفرغ (المشربية)، وقد كانت اذ ذاك مغلقة كلها · وكان يتخلل الجدران ـ وهى ذات لون « جوزى » داكن كلون المشربيات ـ عدد من الفجوات المنحوتة ، وقد صفت عليها أشياء متنوعة تافهة القيمة : من زهريات زاهية الألوان رخيصة الثمن من نابولى وباريس ، الى ساعتين صداحتين أخريين ، ثم ساعة ثالثة ذات ميناء من الخزف الأزرق والأبيض ، وظهر يبدو أنه صنع من النحاس الأصفر، ثم صندوق موسيقى ، ثم تمثال وحش فظيع ـ يشبه التنين ولكن له رأس كلب ـ من الخزف الأزرق والأصفر··ولم تكن بالغرفة أية مقاعد ، ولو أن الشرفة كانت تحوى بعض المقاعد المصنوعة من القش والخيزران ، كما كانت المصطبة المنخفضة مزدحمة بالارائك العريضة ·· وكان فى منتصف أرضية

الحجرة حوض غائر من الرخام ، غرست فيه بعض أشجار النخيل من نوع القزم ، وانبثقت من وسطه نافورة تقذف رشاشا دقيقا من الماء ، تتراقص فوقه ، صاعدة هابطة ، كرة مذهبة صغيرة فى حجم حبة البازلاء ! .. وكانت أرضية الحجرة مغطاة بأكداس من الطنافس الثمينة ، بينما كان يسرى فى جوها أريج خفيف لرائحة عطرية ثقيلة ، يترك فى الحواس أثرا يشبه أثر المخدر !

وغمغمت مسز ارماين قائلة : « يا لها من حجرة غريبة ! » .. وكانت قد لبثت واقفة مكانها بالقرب من الباب بغير حراك . وما عتمت أن تقدمت ـ والرجلان فى أثرها ـ حتى جاوزت « الفسقية » ، وبلغت حافة « المصطبة » ، فدارت على عقبيها ، وأولت ظهرها للضوء الذى كان يتسلل خلال الباب الضيق المؤدى الى الشرفة .. وكان بارودى قد أغلق الباب الذى دخلوا منه ، ثم جذب فوقه ستارا ثقيلا برتقالى اللون ، رأته مسز ارماين وقتئذ ، للمرة الأولى ، فاذا هو بالرغم من انه كان جميلا فى حد ذاته ، سواء فى لونه أو فى قماشه .. بل بالرغم من انه كان ضاريا فى جماله كجلود بعض الحيوانات الوحشية ، الا أنه لم يكن منسجما مع سائر رياش الحجرة ، ولا متناسقا مع الألوان الغامقة للوشى الفاخر الذى كان يملأ المكان ويزين سجاجيد الصلاة الثمينة ، ولا مع الخشب الداكن لمشربيات النوافذ ! .. **كان هذا الستار ـ مثله مثل تلك الساعات الصداحة الرخيصة فوق الحوامل الفاخرة ، او ذلك الخزف السوقى المجلوب من نابولى وباريس ـ يكشف عن ناحية صبيانية فى هذا الرجل ، وعن ذوق فاسد ساذج فى فجاجته ، وان كان لجوجا جريئا فى حرصه على ان ينال الاعجاب ! .. كان هذا الستار ، وهذه الساعات والزهريات ، تكشف فى غرابة صارخة عنيفة ، عن شطر من الرجل يختلف**

كل الاختلاف عن شطره الآخر الذى انتقى تلك الطنافس الجميلة الى درجة الاعجاز ، وذلك الوشى النفيس المسجى فوق الأرائك .. كان الذوق الرفيع مقترنا بذوق عامى باد للعيان !

وتمنت مسز ارماين لو استطاعت أن ترى حجرة نومه .. فبدأت تقول : « شد ما أود .. » ، ثم أمسكت فجأة ، فقال بارودى : « نعم يا سيدتى ؟! » .. وتساءل نيجل : « ماذا تودين يا روبى ؟ » .. فقالت : « ستضحكان منى ، ولكنى أود لو خرجتما الى الشرفة ، وأغلقتما الأبواب ، وتركتمانى وحدى فى هذه الحجرة الموصدة برهة .. اذ أحسبنى سأشعر كما لو كنت فى صميم دار شرقية » .. فقال نيجل : « تعنين فى .. حريم ؟ » . فأجابت : « لعله كذلك .. هيا اخرجا ؟ » .. فابتسم بارودى ، كاشفا عن صفين من الأسنان الدقيقة الجميلة ، وقال : « تعال يا مستر ارماين ! » .. وانتقل الى الشرفة وهو ينطق الاسم بطريقته المخطئة ، فتبعه نيجل . ثم جذب بارودى أحد البابين المنزلقين ، والتفت الى مسز ارماين متسائلا : « أتودين حقا أن أغلق الآخر أيضا ؟ انك بذلك تصبحين فى ظلام دامس ! » .. فأجابت فى صوت خافت : « اغلقه ! » .. وعندئذ جذب الباب الثانى ، فانزلق فى رفق حاجبا ذلك المستطيل من ضوء الشمس وشبح الرجلين عن ناظريها !

لقد قال لها بارودى انها سوف تصبح فى ظلمة حالكة ، ولكن ذلك لم يكن صحيحا كل الصحة .. فقد كان هناك بصيص خافت من الضوء ـ لم يكن فى الواقع أكثر من ذلك ـ يختلس الخطى من حيث لا تدرى ولا ترى ، ليجلو لها ظلمة المكان .. ومضت الى الأريكة ، فى الجانب الأيمن من السفينة ، وتحسست باحثة عن بعض الوسائد ، فكومتها معا ، ثم

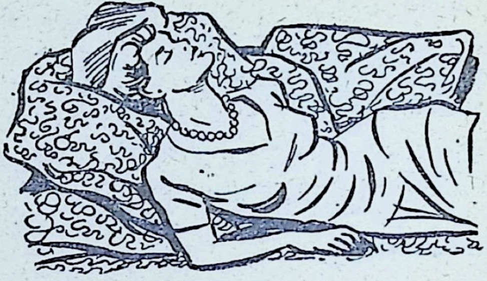

اضطجعت فى حذر ، خشية ان تفسد من وضع قبعتها .. **وكانت الأريكة رخوة لينة ، تستجيب لأية حركة ، فضمت جسدها وعانقته ، كأنها كائن حى عاشق يدرك الرغبة التى كانت تختلج فى نفسها اذ ذاك !** .. وكانت الوسائد تسند ذراعها ، وهى مضطجعة على جنبها ، مرهفة السمع ، ساكنة بغير حراك .. وكانت مسز ارماين على قدر من الخيال ، ولو انها لم تكن من النساء ذوات الخيال اندافق الشديد الحساسية .. ومن ثم تركت العنان لهذا القدر من الخيال ، فحملها معه الى دار شرقية يقتنيها سيد من الشرق .. أين كانت تلك الدار ؟ وفى أية بلاد غريبة تحت الشمس المشرقة ؟ لم تكن تدرى ولم تبال بأن تدرى ، فقد كان ذلك ـ فى الواقع ـ لا يعنيها الا قليلا ، كأية امرأة شرقية اعتادت ان تعيش وقد ارتبطت حياتها بأسوار من الحديد !

ذلك انها خالت نفسها امرأة شرقية خاضعة لما لهذا الشرق ـ الذى لا يتغير ـ من قوانين وعادات جامدة ، وانها فى حريم رجل من الشرقيين الأثرياء ، يمتلكها جسدا وروحا ، ويحبها الى درجة العبادة ، ولكن كما يعبد رجل من الشرق المرأة التى يعدها عشيقته وجاريته معا ! .. لقد لبثت سنين طويلة تحكم

الرجال ، وتسيطر عليهم ، وتدوسهم تحت قدميها .. كانت تعيش لهذا الغرض : السيطرة على الرجال بجمالها وبراعة تدبيرها ! .. أما الآن فقد أصبحت ترى انها لم تعد مالكة ، وانما مملوكة بكليتها .. لم تعد آمرة متحكمة ، وانما مطيعة طاعة عمياء .. تالله ما أروعها من تجربة جديدة ! .. وأحست بأن كل ما فيها من تقلب أهواء الأنوثة ، ومن حب التغيير ، قد نهض متحفزا ، وتدفقت فيه الدماء الحارة لمجرد التفكير فى تلك التجربة .. فى ان تكون هى نفسها جارية مملوكة ، بدلا من اقتنائها للعبيد !

وتحركت قليلا فوق الأريكة .. وكان العطر الثقيل الذى ساد الحجرة يبدو كما لو كان يزحف حولها عن عمد واصرار ، ليخضعها لتأثيره ونفوذه ! .. وسمعت الغمغمة الخافتة .. الوسوسة المنبعثة من الفسقية ، حيث كانت الكرة المذهبة الصغيرة تعلو وتستقر وتهبط وفقا لما يفعله بها الماء الذى كان يندفع ثم يتراجع متناثرا .. كانت هى الأخرى أمة .. جارية فى دار بارودى الشرقية ! .. وأغمضت عينيها فى بطء .. فى دار بارودى الشرقية ! .. هنا اعتاد بارودى أن يضطجع كما تضطجع هى الآن ، فيدخن «الكيف» ويأكل «الحشيش» ، ويسبح فى بحار من الأفكار المتلاطمة ! .. وهو لن يكون عبدا لامرأة أبدا .. كانت موقنة من ذلك كل اليقين .. ولكنه يستطيع ان يجعل من المرأة جارية له ! .. كانت عيناه تبدوان — عندما كان ينظر اليها فى بعض الأحيان — كعينى مالك الرقيق ، ولكنه ، فى قسوته ، قد يستطيع أن يعبد احدى الجوارى ، ويعشقها ! .. **لقد شعرت بما فيه من قسوة ، وكانت هذه القسوة تروق لها وتجتذبها وتغريها ، وتطابق شيئا فى طبيعتها يقدر القسوة ويحترمها ، وفى الوقت ذاته يحتقر اللطف والكياسة ! .. ان بارودى سوف يكون قاسيا**

في غرامه ، ولن يضع نفسه قط عند قدمي امرأة ٠٠ لقد قالت لها عيناه ذلك ٠٠ قالتاه لها في قحة وتبجح وغطرسة !

كانت الكرة المذهبة في الفسقية ، والجارية المغطاة بالحلى والجواهر في الحريم ، سواء بسواء في نظره !

ومدت ذراعها على الوسائد٠٠وبسطت أطرافها على الأريكة ٠٠ أطرافها الطويلة التي ما زالت رخصة لينة فاتنة ٠٠ واستحضرت بارودي في خيالها !

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني في منتصف مايو القادم

تابع على صفحاته أحداث هذه القصة العالمية التحليلية الشائقة ، لترى كيف تطورت الأمور بين هذا الثالوث من أبطال القصة ، ومن هو الشخص غير المتوقع الذى ظهر فجأة على مسرح الحوادث ليمسك بخيوط الموقف المعقد الذى اكتنفته عناصر الخديعة والغدر ، بل الموقف الذى قاد احدى شخصيات القصة الى حد الاقدام على الجريمة !

هذه الأسماء الضخمة من روائع القصص والكتب العالمية ، هى بعض ما صدر من أعداد سلسلة

مطبوعات كتابى

التى تؤدى رسالة مكملة لرسالة كتابى

فرسالة « كتابى » الذى يصدر فى أول كل شهر ، هى نشر ملخصات ٨ أو أكثر من الكتب العالمية – الحديثة والقديمة – فى كل عدد ، لاعطاء فكرة كافية عنها لمن لا يتسع وقته لقراءة نصها الكامل .

أما رسالة « مطبوعات كتابى » ، التى تصدر فى منتصف كل شهر ، فهى نشر الترجمة الكاملة الأمينة لكتاب واحد ، فى كل عدد ، من شوامخ الكتب العالمية التى لا غنى لأى مثقف عن قراءتها واقتنائها .

فاستكمل مجموعتك منها من الإدارة (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) وترقب اعدادها الجديدة فى منتصف كل شهر

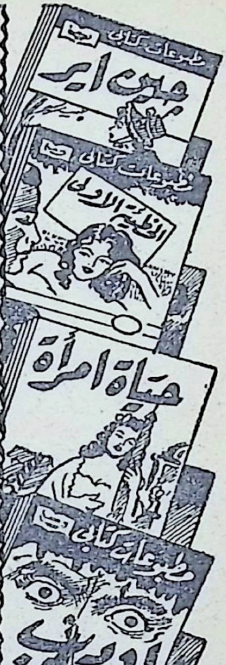

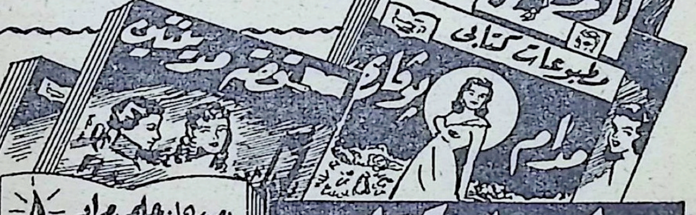

يصدرها : حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

هذه القصة..

إنها أشهر قصة كتبت عن مصر..

ومع ذلك، قرأها العالم كله.. ما عدا مصر..

.. فمنذ أن ظهرت بالانجليزية - عام ١٩٠٩ - ترجمت إلى جميع اللغات الحية ما عدا العربية ! .. فحرم من قراءتها أبناء البلد الذى تدور فيه حوادثها الشائقة .. حتى آن لـ "مطبوعات كتابى" أن تزيح عنها اليوم ستار النسيان فنقدمها لقراء مصر والبلاد العربية جمعاء..

إنها القصة التى جلبت على مصر عقب صدورها "طوفانا" من السائحين، جذبهم ما تضمنته من وصف خلاب للبلاد الساحرة التى عشقت فيها البطلة الشقراء إبنة "التيمز" فتاها الأسمر، ابن القاهرة والأقصر وأسوان!

يصدرها
حلمى مراد

مطبوعات كتابى
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

مطبوعات كتابى

يصدرها حلمى مراد

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

BELLA DONNA

بُيلّا دُونّا

للروائى الكبير "روبرت هيتشنز"

الجزء الثانى من القصة الشائقة

روبرت هيتشنز

بيلّا دُونّا

BELLA DONNA

BY

ROBERT HICHENS

٢٠٠ صفحة
الثمن ١٠ قروش

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية
يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الخامس والعشرون

بيللا دونا

الجزء الثانى

تأليف : روبرت هيتشنز
ترجمة : شمس الدين الغريانى

الادارة : عمارة الجندول ــ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ــ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن اثنان وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا وأستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة أجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوى .

• ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظما للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثار للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (جزء أول) . وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر والثانى والعشرين ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل) .

عزيزى القارىء ٠٠

◆ قدمت لك فى العدد الماضى الجزء الأول من الترجمة « الكاملة » الأمينة لهذه القصة التى أحدثت ضجة خلال نصف القرن الاخير ، واجتذبت السياح من كافة أرجاء العالم ، وجعلت نساء الطبقة المترفة ـ فى أوربا وأمريكا ـ يحلمن بالشاب المصرى الاسمر ، وبنشوة الغرام على رمال الصحراء ، وتحت سماء مصر ، وعلى ضفاف النيل !

وكان غريبا ان تترجم هذه القصة الى جميع لغات العالم دون العربية ، لا لشىء الا لانها اشتملت بعض « الوخزات » التى يوحى التعصب الاستعمارى المقيت الى كتاب الغرب بأن يخزوا بها قوميتنا ٠٠ ولكن « مطبوعات كتابى » تعتز بأن تنفض عن هذه القصة غبار النسيان ، لاننا ـ الى جانب اعجابنا بالقصة كتحفة أدبية رائعة ـ نؤمن بان الخير فى ان نعرف مايفتريه علينا المتجنون ، اذا شئنا ان نحسن الدفاع عن سمعتنا وكرامتنا ٠٠ ولاننا نقدر للمؤلف تلك الصورة الرائعة التى رسمها ـ خلال السطور ـ لفترة كانت مصر فى أثنائها نهبا بين قوتين غاشمتين تنهشان جسدها ، وتمتصان دماءها : قوة البقية المتخلفة من الاستعمار التركى ، ممثلة فى الاتراك الذين استوطنوا مصر ، واستأثروا بخيراتها وبكل نفوذ فيها ، واستغلوا شرقيتهم وانتماءهم الى الاسلام للتغلغل فى أعماق البيئة المصرية ، حاملين جراثيم الفساد ومعاول الهدم ـ هدم القومية المصرية ، والقومية الاسلامية ، والقومية العربية ـ ثم قوة الاستعمار الانجليزى الذى حالف أتراك مصر لأنه كان يهدف الى عين أهدافهم ، وان راح ـ فى الوقت ذاته ـ يصارعهم ، رغبة فى الاستئثار بكل الخيرات ، وكل النفوذ !

كانت فترة دقيقة فى حياة مصر ، عرضها المؤلف ببراعة ، كصورة خلفية لموضوع القصة الاصلى الذى يروى قصة غانية انجليزية وضعتها الظروف بين حجرى الرحى : بين زوج انجليزى ، وعاشق مصرى أسمر غامض ، اذل كبرياءها وهى التى كان قومها يحاولون اذلال بلاده !٠٠ وهى فى الوقت عينه قصة صراع الانسان ـ أو بالاحرى ، المرأة ـ ضد القضاء والقدر ، وصراع الخير ضد الشر ٠٠ الى آخر المعانى التى ينطوى عليها سياق القصة

ورغم حرصى على طبع أكثر من نصف القصة بالحروف الصغيرة ، تجنبا لتعدد الاجزاء بقدر ما فى وسعى ، فسوف تستغرق هذه الترجمة الكاملة لها جزءا ثالثا وأخيرا ، علاوة على هذا الجزء الذى بين يديك ٠٠ وما باليد حيلة !

والله ولى التوفيق

حلمي مراد

هكذا بدأت القصة !

ملخص الجزء الأول

◆ شق الدكتور « ماير ايزاكسون » طريقه فى الحياة بشكل لا يتاح الا ليهودى عصرى يقيم فى لندن .. فقد احاط حياته الخاصة بغموض تام ، وحرص على ان يقرن الطب بعلم النفس ، فكان يتغلغل الى أعماق نفس مريضه، مما اذاع صيته بين سيدات الطبقة الراقية فى لندن ، اللاتى يترددن على الاطباء لأتفه توعك ، ولو لم يكن بهن مرض !.. ويقال ان برجال اليهود بعضا من صفات الأنوثة الحقة ، لذلك استطاع الطبيب الشاب أن يفهم النساء بغريزته ، كما يفهمن بعضهن بعضا : كان كالنساء فى سرعة البديهة ، وصدق الالهام ، وفى حرارة الميل نحو الشىء او النفور منه .. ومن هنا ندرك سر حكمه على « مسز تشبستو » حين زارته فى عيادته . فقد سبقتها سمعة وروايات وشائعات لم يكن يجهلها : كانت من أبدع ربات الجمال ، ولذلك اطلق عليها الناس اسم « بيللا دونا » ، اى « ست الحسن » ..وكانت من أسرة ارستقراطية مفلسة ، مما شجعها على أن تبيع نفسها ، اذ تزوجت — وهى فى الحادية والعشرين من عمرها — من تاجر خمور ثرى خلع عليها اسمه .. ثم فاجاها وهى تخونه مع رجل متزوج من رجال المجتمع المعروفين، فطلقها أمام القضاء

وكانت مسز تشبستو — عندما حاقت بها هذه الفضيحة — فى السادسة والعشرين ، وفى ذروة جمالها ، فتحدت المجتمع ، ولم تحفل بشىء سوى الوصول الى المال وتبديده على حبها للترف والبذخ .. وهكذا عاشت متحررة، غير مكترثة لما احاطها به المجتمع من شبهات . حتى اذا شارفت الاربعين من عمرها ، بدات أضواء حسنها تخبو رويدا ، وأصبحت ترى فى المجتمعات فى صحبة شبان صغار ، بل غلمان !.. وبدأ الناس يسخرون منها ويزدرونها.. وما لبث الكلال ان تسرب الى نفسها وجسدها . وهذا — بوجه خاص — ما أدركه الدكتور ايزاكسون حين زارته فى عيادته .. ولكنه أدرك ، من نظراتها وحديثها ، شيئا أهم .. أدرك قوة شخصيتها ، ودهاء أنوثتها ،ومدى تغلب حبها للمادة — فى نفسها — على كل مايمت للروح وللمبادىء الخلقية !

على ان الطبيب الشاب ازداد ادراكا لكل هذا . عندما تبين أن الغانية قد

ألقت شباكها على صديق له كان الوارث الوحيد للقب « لورد » ولأملاك شاسعة استأثر بها شقيقه الاكبر – حسب قانون الوراثة الانجليزى – ولكنه لم ينجب ولدا يخلفه .. وكان ذلك الصديق « نيجل ارماين » ، شابا فى السادسة والثلاثين ، نقى القلب ، صافى العواطف ، يؤمن بالمثل الروحية والمبادىء الخلقية ويقدمها على كل شىء .. وقد كرس جهوده لاستصلاح الأراضى فى صحراء (الفيوم) بمصر !

* * *

◆ ولم تجد جهود الدكتور « ايزاكسون » فى انقاذ « ارماين » من براثن الغانية .. فان سذاجة الشباب وطيبة قلبه جعلتاه يشفق عليها من قسوة المجتمع ، ويأخذ على عاتقه عبء حمايتها من هذه القسوة ، مبررا ذلك –لنفسه– بانه كان يوقن ان الحب كفيل باصلاح النفوس ، ويؤمن بانتصار الخير على الشر ، وان زواجه من الارملة المفسودة ، التى كانت تكبره سنا ، سيوقظ الخير فى نفسها ، ويصلح من شخصيتها ، ويجعل منها امراة طيبة صالحة !

وهكذا تزوج « نيجل » من « مسز تشبستو » – فاصبحت مسز ارماين – ورحل بها الى مصر . وقبل ان يستقر بها المقام ، كانت قد كرهت البلاد التى اقصتها عن المجتمع الانجليزى واضوائه ، وكانت قد بدات تميل الى شاب أسمر التقت به على سطح الباخرة اثناء قدومها ، ثم قابلته فى الاقصر ، فعلمت انه من اب مصرى وام يونانية ، وانه كان واسع الثراء ، يعيش فى بذخ مفرط

ولم تستطع روحانية الشرق ان تؤثر فى نفس « روبى » – مسز ارماين – ولكن جو مصر الحار ايقظ نزواتها وشهواتها . ثم اقبل نبا بأن شقيق « نيجل » قد انجب توامين ذكرين ، وبذلك تبدد حلمها فى ان يفوز زوجها بلقب « اللورد » وبالثروة ، وهما السلاحان اللذان كانت تطمع فى ان تحارب بهما المجتمع اللندنى لتثار لنفسها مما تمرغت فيه من هوان .. فايقظ هذا النبا – بدوره – جشعها المادى . ومن ثم شرعت مسز ارماين توجه اهتمامها الى « محمود بارودى » – الشاب المصرى – طمعا فى ان تسيطر عليه ، فتستغل مكانته وثروته فى ارضاء مطامعها ، وفى اشباع نهمها الى الترف والبذخ !

وفى ذات يوم ، دعاها « بارودى » وزوجها لزيارة « دهبيته » النيلية –التى كان يدعوها « اللولية » – فبهرها ما شاهدت من خدم واثاث ونعيم .. ولفتت بصرها لوحة كتبت عليها آية قرآنية : « وكل انسان الزمناه طائره فى

عنقه » ، فراحت تحدق فى الكلمات السحرية مبهوتة ٠٠ ثم رات مخدع « بارودى » ، وحجرة كان يخصصها لخلواته و « مزاجه » ، فتمنت ان تقضى فى هذه الحجرة فترة وهى وحيدة ، ومن ثم تركها زوجها ومضيفهما ، واغلقا باب الحجرة ، فسادت الظلمة المكان ٠٠ واستلقت الغانية الانجليزية على اريكة وثيرة ، ثم تركت لخيالها العنان ، فصور لها انها امرأة شرقية ، تعيش فى حريم رجل ثرى ، يمتلكها روحا وجسدا ٠٠ لقد لبثت سنين طويلة تستعبد الرجال ، ولكنها تاقت اذ ذاك الى رجل يستعبدها !٠٠ الى « بارودى » بالذات !٠٠ وكانت توقن ان بارودى سيكون قاسيا فى غرامه ، وانه لن يخضع نفسه لامرأة ٠٠ ومع ذلك فان نفسها هفت الى آن تكون جاريته ، وان تعيش فى حريمه ، وتتقلب فى ثرائه ونعيمه !

والآن ٠٠ تعال نتابع معا قراءة هذه القصة الشيقة

بيلادونا

للروائى الكبير "روبرت هيتشنز" مؤلف "حديقة الله"

الجزء الثانى

وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه

تتضمن هذه الطبعة الترجمة الكاملة الأمينة للقصة كما كتبها مؤلفها ، دون أى تصرف أو اختصار لأى سطر أو لفظ فيها !

المترجم

* * *

◆ ترى كم ظن بارودى أنها تبلغ من العمر ؟! ان العرب لا يعرفون أعمارهم البتة ، وقد اخبرها بذلك — ذات مرة — رجل .. جندى كانت تعرفه . أخبرها بأن العرب فى سن الستين يقولون انهم فى الخامسة والعشرين ، لا تيها أو غرورا ، وانما لمجرد أنهم لا يعرفون لأعمارهم حسابا ! ولعل بارودى لا يرى فيها قط ما كان الانجليز يرونه فيها .. لعله لا يعنى البتة بعمرها ! فهى لم تر فى عينيه ما ينم عن النقد عندما كانتا تتفرسان فيها .. ولعله ، اذا كان قد فكر فى عمرها على الاطلاق ، حسب أنها ما تزال فى سن الشباب . ولكن الأرجح أنه لم يفكر فى هذا الأمر مطلقا !

انها الآن فى دار بارودى الشرقية !.. وارتدت خواطرها الى الوراء : فعندما كانت تغادر لندن مع نيجل ، قادمين الى مصر ، تصورت انه اذا لم يقدر لها أن تسود لندن وتحكمها — لندن هذه التى كانت يوما ما تسجد لجمالها ! — فانها على الأقل ستحتقرها يوما وتزدريها بوصفها ليدى هارويتش !.. كانت تتدثر بهذه الرغبة ، وهذا الحلم ! كان كل تفكيرها مرتبطا بلندن ، وبالناس هناك .. فسوف يأتى يوم يقضى فيه اللورد هارويتش نحبه ، أو يصيب نفسه فى حادث يودى بحياته ، وعندئذ تتوارى « زوى هارويتش » — زوجته — وتنزوى قانعة بأن تصبح مجرد « الكونتس زوى هارويتش »، بينما تغدو هى — هى التى كانت ذات يوم « مسز تشبستو ذات السمعة المريبة ! » — سيدة قصر هارويتش فى (بارك لين) ، وقصر ايلنجتون بارك بالقرب من (اسكوت) ، وقصر جولدنى تشيز فى (دربى شاير) ، وقصر ثرلتون كاسل فى (اسكتلندا) ، وعدد لا يحصى من اكواخ الصيد فى الريف ، ناهيك بالمنازل الأخرى فى (برايتون) و (نيوماركت) ! وقد يرفض المجتمع بعد ذلك أن

يستقبلها ، ولكنه سوف يحسدها حتما !.. ثم لعلها فى النهاية ـ أجل ، أليس كل شىء جائزا فى مجتمع اليوم ؟ ـ لعلها فى النهاية تفرض نفسها على هذا المجتمع فرضا ، فيضطر الى قبولها ثانية بسبب مركزها الرفيع !

لقد كانت تحس بأن براعتها ودهاءها وقوة ارادتها كفيلة بأن تجعل ذلك كله جائزا ، ممكنا ، ولكن رسالة اللورد هارويتش أكتسحت هذا الحلم ومحته محوا !..

اما الآن ـ وقد انقضت الصدمة الأولى نتيجة علمها بما جاء فى الرسالة ، وخف ذلك الشعور المحرق بالخطأ ، وليس بالغضب ، الكامن فى نفسها ـ فقد استعادت رباطة جأشها وراحت تعيد النظر فى أمر مستقبلها بذلك التدبير الدقيق الذى كان من صفاتها المميزة ! كانت قد دبرت خططها لهدف معين ، وخطت الخطوة الكبرى الأولى لتحقيق هذه الغاية ، ولكنها ألفت نفسها بغتة مع الكارثة وجها لوجه .. ومن ثم فان أفكارها الآن قد بدات تتحول عن لندن . بل أخذت «خواطرها عن لندن» تلفظ أنفاسها الأخيرة مع « آمالها فى لندن » ! لم يعد كل ذلك مجديا الآن ! هذا ما كان يقوله عقلها فى مرارة ، ولكن فى عزم واصرار . **لقد نشأت مسز ارماين فى مدرسة الحياة المليئة بالتجارب المتنوعة ، فتعلمت درسا واحدا أجادته وأتقنته .. تعلمت كيف تعوض خسائرها ، فما الذى ينبغى ان تفعله لتعوض هذه الخسارة ؟!**

لقد كانت فى دار بارودى الشرقية ! لقد كانت ـ منذ ساعات قلائل ـ تنظر الى مصر والى كل ما هو مصرى ، نظرة المسافر الى عالم يجتازه فى قطار سريع .. عالم يراه لمدة وجيزة عابرة ، ولكن دون ان يكون له أى شأن مع أهله وساكنيه ، ودون ان يكون له أى دور فى حياته . لقد اضطرت الى ان تعيش فى مصر لمدة معينة ، ولكن رغباتها وآمالها ونواياها كانت تتركز

فى لندن .. فهناك تلعب دورها الرئيسى لتقرير مصيرها .. هناك ، وفى تلك البلاد التى كانت لندن قلبها النابض !.. هكذا كانت ، أما الآن فان عليها ان تركز رغباتها وآمالها ونواياها فى مكان آخر ، اذا كان ينبغى لها ان تركزها فى اى مكان على الاطلاق !.. كان يجب ان تركزها فى نيجل .. وفى الفيوم .. فى استنبات المحاصيل من الأراضى التى لم يكن فيها سوى الرمال وحدها .. فى الفيوم وفى مكان آخر معا .. او فلتركزها فى ...

وراحت تتنشم الرائحة العطرية النفاذة ، وتتحسس الوسائد الحريرية بأصابعها الطويلة ، وتمد جسمها على الأريكة اللينة ، وتصغى الى همسات الفسقية .. تلك الهمسات السائلة !.. ان الدنيا مليئة بألوان مختلفة من الحياة ، ولقد مرت ـ هى نفسها ـ بالكثير من التجارب ، ولكن كم من التجارب لم تمر بها بعد ولم تتعرف عليها قط ؟ انها الآن لم تعد تحس بانها كذلك المسافر فى قطار سريع يندفع فى بلاد لن تعرف عنها ـ ولا تعنى بأن تعرف عنها ـ شيئا !.. لقد بدأ القطار يخفف من سرعته ، فأصبحت ترى الأرض أكثر وضوحا ، واخذت دقائق المنظر تتجلى لعينيها بما فيها من غرابة وحرارة تجعلانها مشتهاة تسر الناظرين !.. ولسوف يقف القطار وشيكا ، وما عليها الا ان تبارحه ، وتواجه هذا العالم الجديد ، وتواجه هذه الحياة الجديدة !.. وفجأة راحت تفتح خياشيمها وتستنشق الرائحة العطرية فى قوة . وشددت يداها الضغط على الوسائد الحريرية فى قبضة مليئة بالغضب ، بينما كان ثمة شىء ما فى اعماقها ـ ذلك الشىء الذى يحاول املاء أوامره من مكانه الخفى ـ يسوط خيالها ليرغمه على بذل جهود اشد عنفا .. فى الدار الشرقية لمحمود بارودى !

ـ روبى !.. روبى !

ودفع أحد البابين المنزلقين بغتة ، فانقض ضوء الشمس على الحجرة ، وقد خففت من حدته تلك المظلة التى كانت ممتدة فوق الشرفة ، ورأت روبى الكرة الصغيرة وهى تتراقص فى الفسقية ، وزوجها يتطلع اليها متسائلا ، وهو يقف فى وسط اطار الباب المستطيل : « ما الذى تفعلينه ، بحق السماء ! » . فأجابت وهى تجلس فى مكانها بحركة فجائية : « لا شىء لا شىء ! » .. فضحك قائلا : « أحسبك كنت فى اغفاءة ! » .. فنهضت من مجلسها وهى تقول : « بل كدت أنام .. ان شئت الحق ! »

ثم وقفت تتحسس قبعتها وشعرها . ومضت — فى حركة خفيفة بارعة — تسوى من وضع الجزء الأسفل لثوبها ، وقالت : « دعنى أخرج الى الهواء ! » ، فتنحى نيجل عن الباب . وخطت خارجة الى الشرفة ، حيث كان بارودى متكئا على السياج وهو يتأمل النيل الذى انعكست عليه أشعة الشمس الساطعة .. واستدار — فى بطء شديد وهدوء بالغ — ليستقبلها ، وفى حركاته تلك الرشاقة الرصينة المألوفة فى الرجل القوى الخفيف الحركة . ثم سحب مقعدا من مقاعد الخيزران ذات المسندين ، وراح يسوى لمجلسها وسادة صغيرة ، فى أدب جم يشوبه تراخ يقرب من عدم الاكتراث ، ثم قال — بينما كانت تستوى جالسة : « هل اعجبتك دارى الشرقية الصميمة ؟ » ، فأجابته متسائلة : « كيف تدير النافورة » . فبدأ ينطلق فى وصف فنى واضح ، ولكنه ما كاد ينطق بكلمات قليلة حتى قاطعته قائلة : « أرجوك ، لا تفعل ! فسوف تفسد بذلك الأثر الذى احدثته النافورة فى نفسى ؛ وما كان ينبغى لى ان اسألك ! » . وهنا قطع عليها نيجل الحديث قائلا : « ان بارودى رجل عملى جدا .. وشد ما أود لو انه كان مشرفا على زراعتى فى الفيوم ! » .. فأجاب بارودى : « يسرنى ان أقدم لك أية نصيحة تريدها ، فانى

أعرف كل ما يتصل بالزراعة فى بلدى »

واسندت مسز ارماين ظهرها الى المقعد ، وراحت تتطلع الى النهر العريض ، حيث كان عدد من المراكب الشعبية يزحف نحو الجنوب ناشرا قلوعه ، والى أعمدة معبد الاقصر العظيم ، وهى تستوى قائمة فى تشامخ على الضفة الشرقية ، والى تلك السحابة التى كانت تؤلفها فروع النخيل الممتدة صوب الشمال وراء القرية ، والى تلك المياه التى لا تبلغ العين مداها ، والى هذه التلال الجرداء الشديدة الانحدار التي تحمى صحراء ليبيا .. كانت تنظر الى هذه المناظر الطبيعية جميعا بعينين تبدوان جديدتين !

ــ تحدث الى زوجى عن الزراعة يا محمود بارودى .. ولينس كلاكما اننى هنا !

ــ ولكن ...

ــ دعنا من المجاملات ، فهذه هى الزيارة الاولى التى اقوم بها لاحدى « الذهبيات » ، كما ان نيلكم يجعلنى أستغرق فى الأحلام .. ولو ان الملاحين كانوا يغنون الآن ...

فهتف بارودى : « سيغنون فى الحال ! » . ثم ارتقى بعض الدرجات ، وتطلع الى السطح العلوى ، وهتف بكلمات غير مفهومة ، فانبعث للتو ايقاع « الدربكة » ، وتلاه صوت آخر يصيح منشدا : « الله » .. واذ ذاك قالت : « والآن .. تكلما عن الزراعة ! » .. فتحول بارودى الى نيجل ، وبدا يتحدث اليه فى صوت خفيض ، بينما جلست مسز ارماين بلا حراك ، لا تنى عن تأمل النيل ، ولا عن الاصغاء الى غناء الملاحين . واحضرت معدات الشاى ، ومع ذلك فقد ظلت مسز ارماين فى استغراقها الكامل اللذيذ ، وعلى شفتيها ابتسامة لا تذوب . وقالت : « استمرا فى حديثكما ، فانكما لا تدركان مبلغ سعادتى ! » ، ثم التفتت الى زوجها واردفت : « اننى أشرب ماء النيل اليوم ! » . فبدت فى وجهه لمحة

قوية من السرور حركت حاسة السخرية فى أعماقها !.. ولم يقل لها شيئا ، ولكنه بعد لحظة وجيزة عاود حديثه مع بارودى فى حمية ونشاط ، وفى حرارة امدته بها عن عمد . خبثا منها — من ناحية — ورغبة فى ان تهيىء لنفسها أطول فترة من الهدوء ، من ناحية أخرى .. اذ كانت — كما قالت حقا — تشرب ماء النيل ، وتود لو جرعت منه المزيد ، تعبه عبا !

كان النهر أشبه بالحلم ، فيما تراه .. وكانت المراكب العظيمة — بقلوعها المثلثة والجماعات الرصينة من رجالها السمر الصامتين — تزحف على سطح النهر دون ما جلبة او ضوضاء ، اشبه بالمراكب التى تمر فى الحلم ، لا يسمع لها صوت !.. وعلى جوانب « اللولية » كانت تسمع مياه النيل تهمس فى رفق .. تهمس اليها وحدها بلا شك ولا ريب ! بينما كانت تختلط بغناء الملاحين النوبيين المرتفع ، الأخن ، تلك الأغنيات الضارية الحزينة التى كانت ترتفع من الشاطىء القريب.. من عقائر الفلاحين الذين كانوا يديرون الشواديف.. يالله ! كم فى هذا العالم من أنواع الحياة وألوانها !

* * *

◆ كانت اللطمة التى أصابت مسز ارماين قد جعلتها فى حالة غير عادية من الامعان فى التفكير ، ومن التامل والتنقيب فى أعماق نفسها ومشاعرها ، ومن الحساسية البالغة لكل المؤثرات الخارجية .. كانت قد خلفتها تهتز فى رعدة كأوتار الآلة الموسيقية اذا هوت عليها — فى قوة — يد قاسية لاتلين !.. وكانت عاصفة الغضب التى زعزعت كيانها قد حركت مشاعرها نحو حياة ضارية مليئة بالعنف ، واثارت كل قوى الطاقة الخفية فى طباعها وارادتها ، وايقظت كل ما فيها من نهم الى أن تستخلص من الحياة خير مافيها ، وأن تعتصر الرحيق الذهبى من

كل واحدة من سنى حياتها الزائلة ، حتى الجفاف !...
« اعمل لدنياك كأنك تموت غدا » !.. ان الذين يؤمنون بهذه الحكمة ـ كما تؤمن هى ـ يرغبون فى الاستمتاع بالعيش فى الحياة الدنيا ، الى درجة لا تتسنى لأولئك الذين يؤمنون بامتداد حياتهم الى عالم آخر .. وما شعرت قط من قبل بتلك الرغبة النهمة كما كانت تشعر بها اليوم .. كانت تشعر بها وهى مستغرقة فى أحلام التفكير ، كما يحس صريع الألم الحاد بذلك الألم ، دون أن يتعذب بفضل تأثير حقنة من «المورفين» !.. واذا لم يكن فى وسعها ان تحصل على الحياة التى كانت ترجوها من وراء الانتصار فى انجلترا ، فلابد لها من أن تنال ـ بدلا عنها ـ حياة اخرى توافق ميولها **الخاصة .. حياة أخرى تستجيب فيها الى ذلك النداء المنبعث من أعماقها نحو اشباع ميولها المادية ، ونحو المباهج الجسدية القوية ، ونحو اللذات التى يسعى وراءها الوثنى الكافر ، عندما يعتزم أن يستخلص أكثر ما يستطيع خلال الفترة القصيرة التى تستغرقها الحياة البشرية على الأرض !**

ولكن كيف تحصل على هذه الحياة الأخرى مع نيجل؟.. انه لن يصبح لورد هارويتش قط .. لن يصبح قط شيئا آخر سوى نيجل أرماين ، رجل محدود الموارد ، يهتم بشئون الزراعة المصرية ، ويمتلك ارضا يسىء استغلالها فى انجلترا ، ورقعة من الصحراء فى الفيوم ! انه لن يصبح قط شيئا غير ذلك ، وغير انه زوجها .. الرجل الذى «غرر بها»! ومن عجب أن عقلها لم يضف الى هذه القائمة الضئيلة : والرجل الذى أحبها !

وظلت مدة طويلة جالسة بلا حراك ، تسند رأسها الى الوسادة ، وتستمع الى أصوات الغناء والصياح وهمسات الماء السرمدية على جوانب « اللولية » ، وتتأمل النيل المتألق، والمراكب التى تزحف فوقه متجهة صوب الجنوب ..

واستيقظت فى أعماقها ـ للمرة الأولى ـ الرغبة فى أن تتبع هذه المراكب مصعدة فى النهر ، وأن تبحر هى الأخرى الى الجنوب الذهبى .. وبدلا من ذلك الحنين الى انجلترا والسيطرة عليها ، نشأت تلك الرغبة فى أن تقصى انجلترا عن حياتها ، وان تركلها بقدمها فى ازدراء ، وأن تكف عن الاهتمام بها الى الأبد .. وما دامت لن تستطيع السيطرة على انجلترا البتة ، فانها غدت تشعر بمقت بالغ لانجلترا !

ـ فى الصيف ؟ اننى أقضى الصيف فى انجلترا دائما !

وفطنت الى نيجل وهو ينطق بهذه العبارة فى مرح . واذ ذاك بدأت تنتبه الى حديثه مع بارودى ، ولكنها ظلت تنظر الى النيل ، دون أن تغير من وضعها .. كانا يتكلمان عن الزراعة حقا ، فى استغراق ظاهر .. ومضى نيجل يشرح تفصيلات جهوده فى الفيوم ، ثم راحا يتناقشان عن محاريث الرمال ، وهو وان كان موضوعا مملا ، الا أنهما تناولاه فى حرارة ، وكأنهما وجدا فيه طلاوة غريبة .. حتى « بارودى » كان يبدى اهتماما عميقا بمحاريث الرمال !.. وهنا نسيت مسز ارماين النيل وانصرفت عنه الى حديثهما .. ولم تكن تهتم بمحاريث الرمال على الاطلاق ، ولكنها كانت شديدة الاهتمام بهذا الجانب الآخر فى « بارودى » .. الجانب العملى ، الذى أخذ الآن يتكشف امامها فى جلاء . وسرعان ما تبينت أنه كان فى جميع التفصيلات الخاصة بالأرض وزراعتها ومبلغ الربح الذى يمكن أن تنتجه وتغله ومدى احتمالات الربح الذى يمكن استخلاصه منها فى المستقبل البعيد .. كان فى كل هذه الموضوعات أستاذا خبيرا ، وكان نيجل يتحدث اليه ويصغى له ، كما يتحدث التلميذ الى أستاذه ويصغى له ! وكان الجانب الجشع فى مسز ارماين عمليا الى أبعد الحدود ـ كما استطاع ماير ايزاكسون أن يتبينه ـ ومن ثم كانت أهلا لأن تقدر الجانب العملى من « بارودى » حق التقدير ، وشعرت بأن

أمامها رجلا يعرف تماما كيف وأين يطرق الجداول التى يجرى ماؤها ذهبا ! .. وكما يستهوى الحب الشاعرى كثيرا من النساء ، فان تلك المقدرة الهائلة على كسب المال كانت تستهويها وتسحرها وتتمشى مع طباعها ، أو مع شطر عظيم منها .. كانت هذه المقدرة فى بارودى قد خلبت لبها ، ولكنها غدت الآن أكثر افتتانا بها ، بعد أن رأت الطريقة البارعة الماكرة التى كان يستغل بها هذه المقدرة وذلك الاستعداد الغريزى .. فقد كان بارودى يستثير فى نيجل ، عن عمد وتدبير ، مطامعه المتصلة بالعمل ، ويستحثه على بذل الهمة والنشاط ، ويوقظ فيه ــ ازاء مجرد التفكير فى حياة الدعة والراحة التى كان يحياها ــ شعورا كذلك الخزى الذى يشعر به الرجال المتعطلون عن العمل ، كان بارودى يفعل ذلك كله عن عمد وتدبير ، ولكن بطريقة ظاهرها عدم الاكتراث وقلة المبالاة .. طريقة خداعة ماكرة .. كان يفعل ذلك عن طريق الحديث عن نفسه ، وعن نشاطه الشخصى ، وعن نجاحه ، لا فى خيلاء أو غرور ، بل فى بساطة بالغة ، وفى سياق حديثه عن خطط نيجل ورغباته !

لماذا كان يفعل ذلك ؟ هل كان يريد أن يبعث بنيجل ليقضى أيام الشتاء فى الفيوم ؟ وهل كان يعلم أن نيجل يعتزم أن « يهيىء شيئا صالحا » لسكناها معه فى الفيوم ؟ .. وشرعت تتساءل ، وهى تمعن فى التفكير العميق : لماذا كان بارودى يستثير حماس نيجل نحو العمل ؟

.. كان يبدو أن الرجلين فى تلك اللحظة قد نسيا تماما وجودها معهما .. نسيا أن فى العالم « ظاهرة » تسمى المرأة ! .. وكانت تحس بذلك الاحساس اللذيذ الذى يستشعره من يسترق السمع خلال ثقب المفتاح ، وهو بمأمن من المفاجأة ! .. كانت تشتهى عادة أن تسترعى أنظار كل رجل يكون على مقربة منها .. ولكنها تود اليوم لو استطال الحديث بين

زوجها وبارودى الى ما لا نهاية ، فقد بدأ يتسلل اليها شعور غريب من الدعة ، والهدوء .. شعور أشبه بالترياق ، بعد ذلك الانفعال ، والغضب المرير الذى قلب كيانها وأثار حفيظتها . وخيل اليها وكأنما استقرت فوقها — فى تلك اللحظة من الراحة القصوى والاستغراق ، التى قضتها فى ظلام الحجرة بالقرب من النافورة — يد منوم مغناطيسى ، فلم ترفع عنها بعد .. على أن الواقع أنها كانت قد وقعت أسيرة سحر « الدهبية » ، وان لم تدر ذلك .. فان الدهبية موطن الأحلام والشعور بالراحة الجسمانية العميقة الهادئة ! .. **وكانت مسز ارماين امرأة شديدة الحساسية ، مرهفة الشعور والاستجابة لكل مؤثرات الحواس ، ومن ثم فانها راحت — بينما كان زوجها يتحدث فى حرارة وحماس عن حياة العمل والنشاط — تتلقى من النيل هبته العجيبة : الخمول والجمود البدنى ! فلم يتحرك جسمها قط ، بل أنها لم تشعر بالرغبة فى التحرك من المقعد العميق الملىء بالوسائد .. كانت أشبه بجسم أنهكه المورفين !** على أن عقلها كان يقظا متحفزا ، يقارن بين مقدرتى هذين الرجلين وكفاءتيهما ، ويبحث دائما — فى الوقت ذاته — عن جواب لتساؤلها : « لماذا كان بارودى يفعل ذلك ؟ »

وأخيرا سمعت نيجل يهتف قائلا : « مهما يكن من أمر فان فى نيتى أن أرحل بقطار الليل غدا . وأنت .. متى تعتزم الرحيل الى الجنوب ؟ » .. فأجاب بارودى : « ان لدى لنشا يقطر الدهبية ، وسأرحل الليلة » ، فتساءل نيجل : « الى ارمنت ؟ » . وكان جواب بارودى : « الى أرمنت لبضعة أيام ، ثم أستمر فى رحلتى نحو الجنوب ، فان لدى بعض الأعمال فى (كوم امبو) .. وسوف أتغيب بعض الوقت ، ثم أعود بعد ذلك الى أسيوط ، اذ لم يعد لى أى عمل هنا »

— وهل لك مصالح فى أسيوط أيضا ؟

ـ آه ، نعم . ان لدى فى أسيوط الكثير منها ، كما أن لدى بعضا منها على مقربة من هنا .. الى الجنوب قليلا ، على الضفة الغربية

فتساءل نيجل : « أهى أراض ؟ » .. فأجاب بارودى : « ان لى بعض بساتين البرتقال هناك » .. واذ ذاك صاح نيجل : « شدما أعجب كيف تستطيع أن تشرف على ذلك كله : السكر والقطن والمحاجر والعقارات والمصانع ؟ لعمرى أن ذلك يدير رأس المرء !.. وهل تشرف على كل شىء بنفسك ؟ » .. وكان جواب الرجل : « عندما تغفل عين السيد عن النظر ، فان بصر الخادم يتحول بعيدا .. الم تدرك ذلك فى الفيوم ؟ » .. فرد نيجل قائلا : « هذا ما سوف أدركه بعد يومين أو ثلاثة! »

والتفت نيجل فجأة نحو زوجته ، فقالت فى بطء : « اننى أسمعكما .. لقد نسيتما كل شىء عن وجودى ، ولكنى كنت أصغى اليكما » . وتحركت فى مقعدها ، وجلست منتصبة الظهر ، وهى تضع كلتا يديها على مسندى المقعد فوق الوسائد ، ثم أردفت : « وكنت أتلقى درسا » . فهتف زوجها : « درسا ياروبى ؟ » .. فكان جوابها : « أجل .. درسا فى التواضع ! »

وحاول كل من الرجلين أن يحملها على أن تفسر ماكانت تعنيه بجلاء ، فأبت أن تشبع فضولهما .. وكان كل ما قالته : « ان لديكما من العقل ما يكفى للحدس والتخمين ! ينبغى أن نذهب يا نيجل . انظر ! ان الشمس موشكة على المغيب ، وعما قريب يتحول النهر الى مجرى من الذهب » .. ورمقت بارودى ، وهى تنطق بالكلمة الأخيرة وتتلكأ فى لفظها كما لو كانت الكلمة حبيبة الى نفسها ، فقال : « هلا انتظرت حتى تشاهدى الغروب من هنا يا سيدتى ؟ »

ـ اننى واثقة أن لديك الكثير من العمل ، فقد كنت مصغية الى بعض الحديث ، وعلمت أنك من رجال الأعمال ، ولا يتسع

وقتك لمثل هذا الهراء الاجتماعى الذى يشغل أفكار النساء .. بل اننى أكاد أشعر بالذنب الذى أتيناه اذ ضيعنا هذه الساعة من وقتك !

وخيل الى نيجل ان فى صوتها نبرة خفيفة تنم عن ألم عميق . أما بارودى فقد أجاب ببعض ما يقتضيه المقام ، فى أدب جم ، وبطريقته العجيبة المنطوية على عدم اكتراث وعلى هدوء .. ولكنه لم يلح عليهما ثانية فى البقاء ، فأيقن نيجل أن لديه الكثير مما كان يبغى عمله .. ولعله كان يود التفرغ لاعداد تدابير سفره فى تلك الليلة ، **فهو — على وجه التحقيق — ليس بالرجل الذى يهتم بالنساء أو تهتم له النساء ، وانما هو رجل أعمال حاذق مكافح ، يحب الكد والنشاط فى الحياة ، ويعرف كيف يعامل الناس !**

ووقف بارودى يودعهما على السطح الأسفل المخصص للبحارة . وبينما كانت مسز ارماين تهم بالانتقال الى « الفلوكة » التى كانت تنتظرهما ، حولت رأسها وراحت تحدق فى الكتابة العربية الغريبة المموهة بالذهب ، والمنقوشة فوق الباب الذى كانت — اذ ذاك — تجتازه للمرة الثانية ، وكأنما كان يستحثها الى ذلك دافع لا قبل لها برده ومقاومته: **« وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه »**

وكان بارودى يتابع أنظارها ، فتلاعبت على شفتيه الغليظتين ابتسامة باهتة سرعان ما غاضت عنهما تاركة وراءها رصانة جامدة ..

وفى تلك الليلة ، بينما كان القمر يستهل طلعته فوق الأفق ، مرت الدهبية أمام حديقة « فيلا اندرود » ، تختال بأنوارها الكثيرة .. وما لبثت أن اختفت بين أطواء الليل ، فى طريقها الى الجنوب ! .. وفى المساء التالى رحل نيجل — بالقطار السريع المتجه الى القاهرة — فى طريقه الى الفيوم

الفصل السادس عشر

◆ غابت « اللولية » عن رقعة النهر التى كانت تحتويها العين من حديقة « فيللا اندرود » ، وغاب نيجل عن المنزل الذى تحيط به تلك الحديقة ، فامتدت أمام مسز ارماين أيام ذهبية من الوحدة المطلقة ، والفراغ الشامل . واذ فطنت الى هذه الحقيقة ، ووضعتها بين غيرها من الحقائق فى لغز حياتها المحير ، جعلت تتطلع الى هذا الفراغ وتسائل نفسها عما تفعله فيه !.. وكانت قد أقبلت على حجرة الجلوس ، فى ثوب ومعطف خفيفين يصلحان للركوب . وللسير على الأقدام ، وللجلوس بين الآثار والخرائب ، ولفلاحة البساتين ، ولكل ما يحتاج لخفة الحركة من الشواغل الأخرى .. ومع ذلك فان فكرها لم يكن قد استقر على خطة معينة . كل ما فى الامر انها كانت يومئذ فى حرية مطلقة ، فاذا خطرت لها اية رغبة فى عمل ، فلن يكون ثمة ما يحول دون اتيانها اياه ! والى ان يحدث ذلك .. الى ان تخطر لها رغبة معينة ، فقد اكتفت بالجلوس فى الشرفة وراحت تجيل بصرها فى أرجاء الحديقة ..

وكانت - من حيث جلست - لا ترى فى الحديقة أحدا .. كان البستانى المصرى منصرفا الى عمله ، أو الى راحته ، فى مكان متوار ، وكانت الحديقة بأسرها مخلدة الى السكون والهدوء . وكان اليوم ذهبيا ، صافيا ، وضاءا الى درجة لا يكاد يصدقها العقل .. يوما ينبض بالحياة ، والنور ، والنشوة الدافقة . فقد كانت تنعم بالحرية فى عالم غريب من الذهب .. تلك هى أولى الحقائق التى احست بها احساسا قويا . كان نيجل اذ ذاك فى القاهرة ، ولن يلبث أن يكون - فى المساء - فى الفيوم ، تلك الأسطورة التى طالما سمعت

عنها الكثير ، حتى اصبحت بالنسبة لها رمزا معنويا : فى الفيوم يشدو الناى المصرى بجوار المياه ٠٠ فى الفيوم ، تسكن الطبيعة الثائرة ـ وكانها فى احضان صدر فسيح حنون ـ وقد تحررت من اغلال الحضارة !٠٠ وفى الفيوم سوف يبدأ نيجل غدا فى اعداد معدات استقبالها وايوائها ، تلك المعدات الحارة المتلهفة الى اخذها « الى احضان الطبيعة مباشرة » ، كما قال لها ذات مرة !

وعندما بلغ تفكيرها هذا الحد ، تحسست وجنتيها اللتين زادتهما المساحيق بياضا ، باناملها ذات الأظافر المصقولة فى عناية ، وراحت تعجب من الحظوظ والمقادير فى الحياة البشرية ! اى جنى ذلك الذى يمسك بها من يدها ، ليقودها الى خيمة فى الفيوم ، كى تعيش فيها مع رجل ملىء بتلك الروح المتحمسة للأخلاق الى حد يكاد يكون صوفيا !٠٠ انها ، على وجه التحقيق ، سوف تكون اكثر راحة وشعورا بانها فى مكانها الطبيعى ، اذا ما استلقت على فراش من الحرير المطرز ، وحولها اكداس من الوسائد اللينة ، وقد افعمت خياشيمها بعبق ذلك العطر الشرقى القوى ، وامتلأت اذناها بهمسات المياه المتراقصة ، واتصل عقلها ، او روحها ، او نفسها ، او كيفما كان اسم ذلك الشىء ، بشىء آخر ـ لم تكن تدرك كنهه ـ به نيران متاججة لا تضيئه ولا تدفئه ٠٠ ولعلها كانت تلفحها بشواظها ، ولكنها لم تكن تستطيع ان تطهرها البتة !

يا له من يوم ذهبى رائع ! انها لتحس هذا الصباح بالتاثير الجميل لهذا الجو الساحر ، على نحو اكثر عمقا مما احست به قط من قبل ٠٠ فلم كان ذلك ؟ الأن نيجل كان غائبا ، ام لسبب آخر ؟٠٠ وعلى الرغم من انها القت على نفسها هذا السؤال ، فانها لم تحاول الاجابة عليه !٠٠ كان الجو يضفى عليها خدرا لذيذا من قلة الاكتراث ٠٠ كان يغدق عليها تلك السكينة الذهبية المنبعثة من كلمة « معلهش » !٠٠ ولقد كانت وهى تهصر الوسائد الحريرية باصابعها فى دار بارودى الشرقية ، تحس بشىء ما فى اعماقها يهتف بها : « ينبغى أن أعتصر كل قطرة من الرحيق الذهبى فى كل واحدة من سنى حياتى الآفلة » !٠٠ وفى ذلك اليوم كانت تحس بأن هناك بعض قطرات من ذلك الرحيق الذهبى ٠٠ بعض قطرات يجب ان تعتصرها ، وتود شفتاها الظامئتان ان ترشفاها ٠ فان الأعوام تمضى واحدا بعد الآخر ، وسوف ياتى ذلك اليوم الاسود الابدى ! ومن ثم فلا بد لها من ان توجه عنايتها كلها نحو المتع التى يمكن ان تنالها فى الفترة القصيرة التى بقيت امامها للاستمتاع ٠٠ الفترة القصيرة ؟! نعم ، فقد كانت امراة ٠٠ وفوق الأربعين !

خيمة فى الفيوم مع نيجل ! لا احد غير نيجل ! أيام تلو ايام فى عزلة مع نيجل ! مع الرجل الذى « غرر بها » ! بينما الحياة تمضى عنها ، لا فى خطى متسللة ، وانما فى اندفاع صاخب ، وجلبة جوفاء !

لقد فكرت فى ذلك ، وواجهته ٠٠ وقد استنكرته روحها كمصير مزر لا يليق بها ، ومع ذلك فانها لم تشعر — فى أعماق نفسها — بقلق ، ولم تنزعج ٠٠ كانت كمياه البحر ، فى اعماقها هدوء وسكينة على الرغم من اضطراب سطحها ! ٠٠ هذا الطقس لن يعترضه شىء أو يعارضه ، وهذا المناخ لن يكف عن السير فى طريقه ، وهذا المزيج من الزرقة ، والذهب ، والدفء ، والشعور بالحرية الكاملة ، لا يمكن أن تقهره الأفكار السوداء أو الخوف ٠٠ وقد خيل اليها لحظة أنها تناضل حتى تشعر بالغضب ، أو تحس بالشقاء ٠٠ ولكن خيل اليها بالمثل ان هذا النضال كان عبثا عقيما !٠٠ لقد كانت حرة تماما فى هذا العالم من الذهب ، فماذا عساها فاعلة بهذه الحرية ؟!

وعندئذ بلغ مسامعها — فى ذلك السكون الذهبى للحديقة — حفيف ثوب ، فالتفتت حولها ، ورأت ابراهيم يتقدم نحوها متمهلا ، مبتسما ، وقد مال رأسه ذو الشعر المجعد الى الناحية اليسرى قليلا ٠٠ وكان يضع وردة خلف كل من أذنيه ، ويمسك بأخرى فى يده ، مع سيجارة غير مشتعلة ٠ فقالت مسز ارماين فى تراخ : « ما الذى ترانا فاعلين فى يومنا يا ابراهيم ؟ » ٠٠ فدنا منها حتى وقف بجانبها ، وهو يغض ببصره الى الارض على طريقته الرقيقة التى تفرد بها ، ثم قال بصوته العميق الخافت : « سوف نذهب الى الضفة الاخرى للنهر يا سيدتى » ، فهتفت : « أحقا ؟! » ٠ فاستطرد قائلا : « وسناخذ غداءنا معنا ٠٠ سوف نقضى اليوم كله خارج المنزل ! » ٠٠ واذ ذاك قالت : « آه ! وماذا نفعل بالشاى ؟ » ٠ فكان جوابه : « لسوف ناخذه معنا فى تلك الزجاجة التى تبدو كانما صنعت من الفضة الخالصة ! » ٠٠ فغمغمت تقول : « الفضة ! والذهب ! »

واخذت تتطلع الى الفضاء المتألق ، حيث كانت (طيبة) ترقد فى مهدها بين ذراعى اله الشمس ٠٠ ثم قالت : « ومتى نذهب يا ابراهيم ؟ » ٠ فنظر اليها ، ثم انفرجت شفتاه الرقيقتان الشاحبتان السمراوان ، فكشفتا عن أسنانه البراقة ٠٠ وأجاب : « عندما تستعدين للذهاب يا سيدتى »

ورفعت عينيها تتطلع الى وجهه ٠٠ كان ابراهيم فى العشرين من عمره ، ولكنه لم يكن أكثر من غلام على الرغم من طوله الفارع ومن كفاءته وخبرته كترجمان مدرب !٠٠ كان كل شىء فيه يوحى بالغلام أكثر مما يوحى بالشاب ، وكان جسمه الفارع النحيل اللدن ، وعنقه الأسمر الطويل ، ورأسه الصغير — يعلوه ذلك الشعر الأسود الكثيف التجاعيد — وتعبيرات عينيه الدائمتى الابتسام ، وحتى حركاته الوئيدة الرصينة ، وأوضاعه الحالمة ، ومشيته المتخطرة وطريقته فى الجلوس والقيام ٠٠ كلها كانت توحى ، أو تبدو كأنها توحى — للمحيطين به — بأنه فى الحقيقة لم يكن الا غلاما !٠٠ وكان ثمة شىء شديد الجاذبية فى

يفاعته الواضحة ٠٠ شيء يوحى على نحو ما بالثقة والطمانينة ٠ وقالت مسز ارماين فى بطء ، وهى لا تنى عن النظر الى ابراهيم : « ارانى مستعدة الآن ! » ٠٠ ثم استطردت قائلة : « هل هناك فلوكة لتعبر بنا النهر ؟ »

- بعد اربع دقائق او خمس يا سيدتى

- نادنى من هنا عندما يتم اعدادها ٠٠ وانى ادع لك عمل كل الترتيبات الخاصة بالغداء والشاى

- كل ما تريدينه يجب ان تناليه يا سيدتى !

اكانت هذه عبارة تقليدية يقولها ابراهيم دائما ؟ لقد بدا اليوم كما لو كان ينطق بهذه الكلمات عن يقين واقتناع غير عاديين ، وكان لها معنى خفيا غريبا ، فالى اى حد كان هذا الفتى « غلاما » حقا ؟٠٠ واخذت تعجب من امره وهى ترقى الدرج الى الطابق العلوى !

لقد قال لها نيجل : « انك تزدهرين هنا » ، وقال لها : « انت جميلة ولكنك لا تثقين بجمالك » ، ولعل ذلك كان حقا ٠٠ وهى ستكون اليوم وحيدة تماما مع ابراهيم والمصريين ٠٠ ستكون فى حرية تامة كاملة !٠٠ لقد كانت تقلب هذه الأفكار فى بالها ، وهى جالسة فى الشرفة ، واذا بفكرة مباغتة توحى اليها بان تشغل نفسها - فى الفترة التى تنقضى قبل حضور « الفلوكة » - بازالة الطلاء عن وجهها ، ومن ثم صعدت الى مخدعها ٠ وما لبث ابراهيم ان صاح - بعد حوالى عشر دقائق - من الشرفة السفلى : « ان الفلوكة على استعداد يا سيدتى » ٠٠ ثم دار حول المنزل ووقف تحت شرفة مخدعها يصيح بالعبارة نفسها ، فاجابته : « سانزل بعد لحظة » ٠٠ ولكن عشر دقائق اخرى انقضت قبل ان تظهر فى الحديقة ، وقد امسكت بيدها مذبة (منشة) من العاج ، وغطت وجهها بخمار ابيض ٠ وتساءلت : « هل اعددت كل شيء يا ابراهيم ؟» ٠٠ فاجابها : « كل شيء ! »

* * *

◆ ومضيا الى الفلوكة ، فعبرت النهر بهما ٠ وعند بقعة من الضفة الغربية غلبت على ارضها التربة الرملية ، كان حمزه ، المكارى التقى ، ينتظر فى هدوء وسكينة ، ومعه حماران كبيران جهزا بعدات فاخرة ٠ وخطت مسز ارماين من الفلوكة الى البر بمعاونة ابراهيم ، وسرعان ما انطلقت الفلوكة عائدة من حيث اتت - عبر النيل - وملاحوها يغنون باصوات عميقة حزينة ، وهم يشقون النهر بمجاديفهم الضخمة ، حتى تلاشت اصواتهم ٠ وكانت مسز ارماين قد مكثت واقفة عند حافة النهر تنصت الى غنائهم وهو يخفت شيئا فشيئا ، حتى اذا ما انتهى الى غمغمة رتيبة لا تكاد تستبين منها شيئا ، استدارت على عقبيها وهى

تتنهد، وقدانتابها شعورغريب بأنالحلقة الاخيرةالتيكانت تربطها بالمدنيةوالحضارة قد انفصمت ، وانها قد غدت بغتة فى قبضتى مصر الجافتين الحارتين ! فلما استدارت ، ألفت نفسها وجها لوجه مع حمزة ، الذى كان يقف أمامها جامدا كالتمثال ، وقد استقرت عيناه الكبيرتان – الشبيهتان بثمار اللوز – عليها ، دون أن تطرفا أو تبتسما !

« نهارك سعيد ! » . نطق حمزة بهذه التحية العربية – أخيرا – فى رصانة ودعة ، فحيته مسز ارماين بالانجليزية ، وهى تسائل نفسها : لماذا اصبحت تحس فجاة ، فى ذلك اليوم ، بانها ترتمى فىأحضان مصر الحارة ؟.. لماذا تحس – احساسا صادقا ، وللمرة الأولى – بما لهذه البلاد من سحر وادع ودود .. تحس به فى الدفء الذى هفا باعصابها ، وفى نعومة الرمل تحت قدميها ، وفى النسمة الرقيقة التى كانت تمر بها كالفراشة الطائرة ، وفى كلمات حمزة ، وفى وقفته ، وفى نظرته ، وفى صمته .. لماذا ؟.. أفكان هذا كله لأنها لم تعد مقيدة بصحبة نيجل ؟.. لقد أشار نيجل يوم وصولها الى حمزة وأراها اياه مع معالم الاقصر .. ولقد رأته بعد ذلك عرضا بين الحين والآخر ، ولكنها لم تنظر اليه قط من قبل فى امعان ، بعينى المرأة التى تنظر وتتامل وتقدر ! كان حمزة من طراز يختلف كل الاختلاف عن ابراهيم . كان نحيلا بالغ النحول يكاد يكون هشا ، لين العظام ، رقيق اليدين والقدمين ، ضيق الكتفين ، صغير الرأس ، ذا وجه كأنه وجه تمثال جميل من البرونز ، رصين ، جامد ، غامض، يكاد لايشبه وجوه البشر فى هدوئه الشامل ، وترقبه وتيقظه ! وجه يخيل اليك أنه خليق بأن ياخذ كل شىء ولا يعطى شيئا البتة !.. واذ كانت مسز ارماين تنظر اليه ، ذكرت الصفة الذى لصقت به والتى كانت تميزه عن سائر اهالى الاقصر : لقد كان « المكارى المصلى » .. سائق الحمير الورع !

ثم لماذا استخدمه ابراهيم فى رحلتهما اليوم ؟ انها لم تلحقه بخدمتها من قبل !.. وفى صوت خافت ، القت على ابراهيم هذا السؤال ، فاجاب : « انه مكارى بارع جدا ، ولكن سيدى أرمينيجل لايحب استخدامه ! » .. فعجبت مسز ارماين من السبب فى ذلك ، ولكنها لم تسال شيئا آخر .. فقد كانت فى يومها ذاك تشعر بأنها فى قبضتى مصر ، وان ابراهيم وحمزة جزء من مصر، وان عليها أن تتخذ لنفسها موقفا سلبيا اذا شاءت أن تستمتع بيومها الى اقصى مدى !.. وخيل اليها أن شيئا ما فى قرارة نفسها ينبئها بأن ابراهيم – فى كل مايفعله – انما كان مسوقا نحو هدف معين !

وساعدها الفتى على امتطاء الحمار . وكانت على الدابة الأخرى التى سيمتطيها سلتان كبيرتان معلقتان على جانبيها . اما حمزة – ذلك الفتىالرقيق اللين ، والذى كان جسمه مع ذلك فى قوة الدرع ومرونتها – فقد كان عليه

ان يجرى بجانبهما ، الى الابد ، اذا ما دعا الامر٠٠ حافى القدمين !٠٠ وتساءلت مسز ارماين : « الى اين نحن ذاهبون ياابراهيم ؟ » ، فاجاب : « سننطلق فى هذا الطريق ياسيدتى » ٠٠ وأطلق من حلقه صوتا عاليـــا ، لاهثا ، أشبه بالتنهد : « حا ! » ، فاندفع حماره الى الامام للتو ، تتبعه الدابة التي امتطتها مسز ارماين ، وقد خلفـا النهر العريض وراءهما ووليا وجهيهما شطر جبال ليبيا الجرداء ٠ وكان ابراهيم يسير فى المقدمة دائما ، يقود الركب ، وقد دفع طربوشه الى مؤخرة رأسه المجعد الشعر ، بينما مال الى الوراء فوق دابتـه ، وتباعدت ساقاه الطويلتان عن جانبيها ، وتهدل جورباه الى أسفل كاشفين عن بشرته السمراء الداكنة ٠ وشرع « يدندن » فى صوت خافت رتيب ، ويقطع غناءه بين الحين والحين بذلك التنهد اللاهث المرتفع الذى كان يستحث به حماره على السير ٠ وكان حمزة يجرى خلفه فى خفـة الى جانب مسز أرماين ، وقد ارتدى ثوبا ابيض ، ووضع على راسه عمامة بيضاء ، وقبض بيـده اليمنى على قطعة طويلة من قصب السكر ٠٠ وظل ـ وهو يعدو ـ محتفظا بقامته المنتصبة، جامد الوجه لم تتبدل اساريره قط ، ولم تتحول نظراته عن جبال ليبيا التى استقرت عليها منذ البداية ٠٠

وكانت المحصولات النامية منبثة فوق الأراضى الشاسعة الممتدة بين النيل واطلال (طيبة) ، فى خضرة يانعة ، فكانها رقعة من الطلاء الصارخ على لوحة جميلة ٠ وهنا وهناك ، كانت الغـابات المصفرة من شجيرات الذرة تستوى ساكنة تحت أشعة الشمس الساطعة ، وكانت حقول قصب الســكر المتكاثفة مرتعا للهداهد المتوجة تحوم فوقها ، وللقنابر تصيح وهى ترفرف باجنحتهـا الصغيرة وكانما انتابتها نشـوة عصبية !٠٠ وعلى الرغم من أن الوقت كان شتاء ، وقد اقترب عيد ميلاد المسيح ، فان النسمات الرقيقة كانت تبدو كما لو كانت تهمس برسائل عذبة من الربيع الدافىء الدائم الابتسام فوق البلاد الشرقية !٠٠ كانت هذه دنيا من النشوة الفتية ، لا فى استغراق وتبلد ، وانما فى فيض من الطرب واللذة ٠٠ وكانت الاشياء كلهـا ـ النابضة بالحياة أو الجامدة ـ تصدح باناشيد الحب ، فى غير جهد أو عنـاء ، اذ كان غناء يفيض من قرارة قلب لم يعرف الحزن اليه سبيلا قط !

« انك تزدهرين هنـا » ٠٠ لقد قال نيجل ذلك لمسز ارماين ، وقد راحت تفكر فى كلماته ، وتحس بانها اليوم تطابق الحق تماما ! ترى الى أين هى ذاهبة؟ انها لاتبالى ٠٠ كل ماتعرفه أنها تمضى تحت هذه السماء الصداحة ، وتمشى فوق هذه الأرض الصداحة ، وتخترق هذا الضياء الذى تصدح به الشمس ، وفى هذا الكفاية كل الكفاية !٠٠ ونظرت الى حمزة مرة أو اثنتين ، فلمـا لاحظت انه لم يكن ينظر اليها البتة ، حاولت أن تتحدث اليه ، فابدت ملاحظة عن الجو

بالانجليزية • واذ ذاك ادار راسه نحوها ، وحدجها بانظاره الجامدة ، ثم قال: « نعم » ، واشاح بوجهه ثانية • والقت عليه سؤالا يتطلب الاجابة بكلمة « لا » ، ولكنه فى هذه المرة قال « نعم » ، دون ان ينظر اليها !•• كان يمضى فى عدوه كتمثال حى من البرونز ، فى خفة ونشاط وجلد ، نحو الجبال ذات الألوان الشبيهة بجلد النمر •• وفجاة ، بدا على حمزة شيء جعل مسز ارماين تتساءل : الى اين هم ذاهبون !•• لقد سبق لها ان شاهدت الاطلال والآثار القائمة على ضفة النيل الغربية ، وألفت مدينة (حابو) و (دير البحرى) و (القرنة) و (الرامسيوم) ومقابر الملوك والملكات • وقد نزلوا فى موضع يقع الى الجنوب من (طيبة) ، وبدا انهم كانوا يتجهون نحو مدينة (حابو) •• وعندئذ سالت المكارى: « الى اين نحن ذاهبون ياحمزة ؟ » • فكان جوابه: « نعم ! »

وظل فى عدوه ، ممسكا بقطعة من قصب السكر ، وكانه احد حملة المشاعل فى موكب دينى !•• وتوقف ابراهيم عن الغناء ليتنهد ثانية ، ثم ضرب حماره برفق تحت اذنه اليمنى ، فجعله يعرج الى اليسار دفعة واحدة •• ورات مسز ارماين معبد مدينة (حابو) العظيم على مبعدة منهم ، ولكن المعبد لم يكن الوجهة التى كانوا يقصدونها ، فقد خلفوه الى يمينهم ، وعاد ابراهيم يضرب حماره من جديد ، فمضت الجماعة سريعا نحو الجبال الليبية • وكانت الحرارة تزداد شدة كلما امعن النهار فى سيره نحو الظهيرة ، ولكنها لم تبال بها ! بل انها كانت ـ فى الواقع ـ تشتهى أن تزداد الحرارة شدة واستعارا !•• ورات قطرات العرق تتفصد على وجه التمثال الحى الذى كان يجرى الى جوارها • وكف ابراهيم عن الغناء •• ترى هل ختم اقتراب « الزوال الذهبى » على شفتيه بخاتم من السحر ؟

•• وانطلقوا يسيرون •• ويسيرون •• ويمعنون فى السير !

* * *

• « هذا هو مكان الغداء ياسيدتى ! » • وكان ابراهيم قد جذب عنان حماره أخيرا ، وانحدر من فوق ظهره وهو يضم «جلابيته» (١) بيديه السمراوين، بينما انبعث من حمزة صوت يشبه الفحيح : « هس •• هس •• هس ! » ، فوقف حمار مسز ارماين دفعة واحدة ، وعندئذ وثبت من فوقه واستوت على قدميها • كانت ، أو أنها ـ بالأحرى ـ احست كما لو كانت فى صميم احشاء

---

(١) استعمل المؤلف هذه الالفاظ المصرية العامية كما ينطق بها المصريون

الجبال ! فى مكان يتقد نارا ، بين الوهاد ذات الحواف البارزة الصفراء او الصفراء المشوبة بالحمرة والسمرة ، وبين الصخور المكدسة التى بدت كأنها السنة من اللهب غريبة الأشكال ، قد جمدتها ظاهرة قاسية خفية !.. وكانت تشعر بحرارة الأرض تحت قدميها وهى تقف ساكنة تجيل بصرها حواليها .. كان الأثر الأول ، الذى ألم بها ، شعورا بالانفعال الشديد .. فقد أهاجها ذلك المكان الخاوى المقفر ، كما تهيج النفس جلبة عالية ، وحشية ، ضارية ! اذ كان منظره يوحى بالضوضاء !.. وقد ظلت واقفة لحظة .. ومع أنها كانت ـ فى الواقع ـ تحدق فيما أمامها فقط ، الا أنها أحست كما لو انها كانت تنصت .. تنصت الى الصلابة والقسوة ، والى الحرارة والوهج ، التى كانت كلها تصيح بها معا !

وانزل حمزة السلتين ، بعد أن وضع « عصاه السحرية » ـ (عودالقصب) ـ فوق الارض المحرقة

« لماذا أحضرتمانى الى هنا ؟ » .. طاف هذا السؤال بخاطرها ، ولكن مسز ارماين لم تنطق به ولم توجهه الى احد ما ، بل رفعت يديها فازاحت خمارها ، وتركت أشعة الشمس تنصب فوق وجهها الخالى من المساحيق والدهانات ، ولكن ذلك لم يستمر أكثر من لحظة واحدة .. فقد اسدلت خمارها ثانية ، وقالت لابراهيم : « عليك أن تبحث لى عن رقعة من الظل ياابراهيم » .. فهتف : « تعالى معى ياسيدتى » . وشرع يرتقى الطريق الضيق ، الذى كان اشبه بشريط اصفر يتدلى من الشمس . وتبعته مسز أرماين حول صخرة كبيرة كانت بارزة وكأنها وضعت لتسد الطريق ، ثم الى رقعة مسطحة اشبه برف كبير ، كان الجبل يميل فوقها ويحتضنها .. وكان الظل يمتد فوق تلك الرقعة طولا وعرضا، بينماكان الجدار الطبيعى خلفها مجوفابشكل يوحى بالراحة والدعة!.. فلما اشرفت مسز أرماين على تلك البقعة ورأت الظل المنتشر فوقها ، ندت عنها صيحة دهشة بالغة .. فقد استندت الى الصخرة كومة من الوسائد الحريرية بينما نشرت فوق جزء من الهضبة الصغيرة سجادة ثمينة . وكانت المفاجاة عند مرأى هذه الأشياء ـ التى توحى بالرغد والرفاهية ووجود الناس فى هذا المكان الحار الوحشى المقفر ـ خليقة بأن تثير فى نفسها قلقا يصل الى درجة الفزع ، فراحت تتلفت حولها فى حدة وهى تزيح خمارها من جديد ، ولكنها لم تر حولها غير صخور لامعة صفراء وعنبرية وحمراء ، وغير خصلات وضاءة من الرمل تتخللها ، ووهاد كانت تبدو أشبه بجنادل متحجرة من النار .. وخيل اليها من جديد أنها تستمع الى الصلابة والحرارة والوهج وهى تصيح بها جميعا فى وقت معا !

« هذا هو مكان الغداء ياسيدتى » .. وكان ابراهيم ينظر الى الأرض حيث

نشرت السجادة الرائعة ، فتساءلت : « ولكن ٠٠ لمن كل هذه الأشياء ؟ » ٠ وكان جوابه : « لك بالطبع ! » ، فعادت تسأله : « هل وضعت هنا من اجلى ؟ » ، فاجاب : « بالتأكيد ! » ٠٠ وكان يبدو دائما كغلام لطيف وادع ، فراحت مسز ارماين تتفرس فيه لحظة لتستشف ما كان يخفيه ٠ ومالبثت ـ يحدوها حافز فجائى ـ أن مضت نحو حافة الصخرة العظيمة التى كانت تخفى حمزة والحمارين عنها ، وتطلعت نحو الطريق الضيق الذى قدمت منه ، فرأت حمزة ساجدا فوقه ، وقد وضع جبهته على الأرض ٠٠ ثم رأته يرفع راسه وقد اغمض عينيه فى قوة ، وهو يتمتم ويتمتم بصلواته ٠ ثم رأته يسجد مرة اخرى ٠ ويضع راسه على الأرض ، فارتدت مسز ارماين الى الوراء ٠٠ ولم تدر السبب فى ذلك تماما ، ولكنها احست للحظة بقشعريرة باردة تسرى فى جسمها تحت اشعة الشمس المحرقة ٠ وقالت لابراهيم الذى كان يقف فى هدوء بجانب السجادة : « ان حمزة يصلى ! »

ـ بالتأكيد ، فان حمزة يصلى اذا ماوقف ٠٠ ان حمزة مكارى صالح جدا !

ولم تلق مسز ارماين اسئلة اخرى ، بل جلست فوق السجادة واستندت الى الوسائد ، فأصبحت بمنجى من وهج الشمس الضارى ٠ وكانت تشرف فى يسر ـ وكأنها فى مقصورة بمسرح ـ على ذلك العرض الملتهب الذى كانت الطبيعة تؤديه امام ناظريها ، بينما كان ابراهيم يروح ويغدو فى جلبابه القصبى ـ فوق الأرض الصفراء ـ وهو يحضر لها الطعام والماء ممزوجا بعصير الليمون ٠ وعندما اتم ترتيب كل شىء فى عناية وحذق ، قال : « هل من شىء آخر ياسيدتى ؟ » ٠٠ فهزت مسز ارماين راسها وقالت : « كلا يا ابراهيم ، ان لدى كل ماأريده ٠٠ اننى فى راحة تامة هنا ! » ٠٠ فأردف قائلا : « ان كل ماتريدينه سوف تحصلين عليه اليوم ياسيدتى ! » ٠٠ ورمقها بنظرة ، ثم مضى مبتعدا حتى أخفته الصخرة عن أنظارها ٠ وخيل اليها أن تعبيرا غريبا ، مليئا بالمعانى ، وليس صبيانيا فى شىء ، قد اومض ـ ثم خبا ـ فى عينيه !

وتناولت قليلا من الطعام فى تمهل ، ثم رشفت الماء والليمون

ولم يرجع ابراهيم ، كما أنها لم تسمع صوته ولا صوت حمزة ٠ وكانت تعلم أن الفتيين المصريين قريبان منها ، خلف الصخرة ، ولكنها ـ مع ذلك ـ لم تكن تراهما أو تسمعهما ، فبدأت تشعر كما لو كانت وحدها تماما بين الجبال ٠ وجذبت احدى الوسائد المسندة الى الصخرة خلفها ، فوضعت يدها عليها وتركتها مستقرة فوقها ٠٠ وبدا الاحساس الذى ارسله لمس الحرير فى أناملها كما لو كان يحملها ثانية الى دار بارودى الشرقية ! ٠٠ وأتمت تناول طعامها ، ثم وضعت القدح الفارغ على السجادة ، وأغمضت عينيها واخذت تتحسس الوسائد ٠ وفيما كانت تتحسسها ، خيل اليها أنها ترى حمزة ثانية ،

بوجهه الجميل الصارم ، وهو يصلى فوق الارض الصفراء

حمزة ، ابراهيم ، بارودى ! كانوا جميعا من ذوى الدم الشرقى ، وكانوا جميعا يعتنقون دينا واحدا ٠٠ ذلك الدين الذى انبثقت من اعماقه تلك الكلمات التى رأتها منقوشة على باب «اللولية» : « وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه » !٠٠ كل انسان ؟ هل هو كل رجل ؟ وماذا عن طائر « الانسانة » ؟ ماذا عن القدر المكتوب على المرأة ؟!

وفتحت عينيها ، واذا بها ترى بارودى واقفا عن كثب منها ، وقد استند الى احدى الصخور ، واخذ يرمقها بنظرات ثابتة !٠٠ وظلت لحظة لاتدرى أذهلها مرآه وأفزعها أم لا ٠٠ فقد لاح انهـــا كانت تشعر بذاتين مختلفتين : الذات الواعية ، والذات الباطنة ٠٠ وكانت تدرك انهما فى نضال حاد قوامه الاحاسيس! وبسبب هذا النضال ، لم يكن فى وسعها أن تقرر ـ حتى بينها وبين نفسها ـ هذا أو ذاك : ان ذاتها الواعية لم تكن تتوقع البتة ان ترى بارودى هنا ، اما ذاتها الباطنة فمن المحقق انها كانت تعلم حق العـــلم أنه سوف يأتى الى هـــذه البقعة الصفراء النارية القاسية ، لينفرد بها !٠٠ وألفت نفسها تقول : « شكرا جزيلا ٠٠ بشأن السجادة والوسائد »

وهكذا انتصرت ذاتها الباطنة !٠٠ كلا ، انها لم تذهل ولم تدهش لحضوره !

* * *

◆ وتحول بارودى عن الصخرة ، متقدما نحوها فى بطء ـ دون أن يفتر ثغره عن ابتسامة ـ فوق تلك الارض المتألقة التى بدت تحت وهج الشمس وكأنها ذات عقل واع !٠٠ وكان الرجل يرتدى بدلة من التيل الأبيض، وحذاءين أبيضين، ويضع الطربوش فوق رأسه ٠ وما لبث أن قال بالفرنسية : « أما وزوجك ليس معنا ، فلنتحدث بالفرنسية » ٠ فأجابت باللغة نفسها : « كما تشاء ! » ٠ولم تفكر فى ان تسأله عن سر ايثاره الحديث بالفرنســية ، اذ كان ثمـــة عدد من « لماذا » قد تجمع بينها وبين ذلك الرجل الذى كانت لا تكاد تعرفه ! ومضيا يتحدثان بالفرنسية ٠ وظل بارودى فى بادىء الأمر واقفا فى الشمس ، بينمـــا كانت هى تتطلع اليه فى رزانة وسكينة من مكانها الظليل ٠٠ ثم قالت : « هل أرمنت فى هذه البقاع ؟ »

ـ لست أزعم ذلك ٠٠ ولكنها ليست بعيدة كالفيوم

ـ يجب أن تغفر لى جهلى ٠٠ فلست اعرف الا القليل عن مصر !

ـ ستعرفين المزيد عن بلدى يوما ما ٠٠ أكثر من الانجليزيات الأخريات بكثير!

وكان يتكلم فى رصانة واعتداد لايخلوان من خشونة ٠ ولاحظت أنه لم يعد يختم عباراته بكلمة « ياسيدتى » !٠٠ وكانت عيناه الواسعتان ترمقانها فى ثبات،

وتصوبان نحوها نظرات سديدة لاتقل فى حدتها عن نظرات طائر جارح ٠٠ ولقد كانت نظراته تخترق خطوط دفاعها عادة ، ولكنها اليوم لم تمكنها – فى مقابل ذلك – من ان تخترق خطوط دفاعه هو ، أو تتوغل فى مناطق تفكيره أو احاسيسه! وتذكرت عينى ماير ايزاكسون ٠٠ لقد كانتا – هما الأخريان – قاسيتين فى توغلهما ، ولكن ٠٠ بينما كانت عينا ايزاكسون تكشفان بوضوح وجلاء عما يشغل عقله ، فان عينى بارودى كانتا – فى هذه المرة – تخفيان ماكان يدور فى عقله وهما تتفرسان متغلغلتين الى ماكان يشتغل به عقلها !٠٠ وهذا الامتزاج بين المنع من ناحية والسطو من ناحية اخرى ، حمل – فى أنانيته الصارخة – الى نفسها شعورا غير عادى بمدى قوته !٠٠ لقد ظلت اعواما بأكملها تسيطر على الرجال ، أما هذا الرجل فكان قادرا على أن يسيطر عليها ، وكان يعرف ذلك حقا ٠٠ بل كان دائما يعرفه ، منذ اللحظة الأولى التى استقرت فيها عيناه عليها ! أفكان الشطر اليونانى منه ، أم هو الشطر المصرى ، الذى استطاع ان يقهرها ؟! أهو ذلك الجانب العملى النشيط الحاذق ، أم هذا الجانب الغامض المؤمن بالقضاء والقدر ؟! أم لعل لديه اغراء مزدوجا لجانبى نفسها وفطرتها !

وقالت تجيبه : « أتظن ذلك ؟ اننى أشك فيه ، فما أرانى واثقة من أننى سامضى شتاء آخر فى مصر » ٠٠ فازدادت عيناه كآبة وعتامة ٠٠ بل لاح كأن وزنهما المادى قد ازداد ثقلا ! وقال : « هذا أمر معلوم ، ولكنك لم تؤتى علمه!» ٠٠ فأجابت فى حدة مفاجئة ، مليئة بعزة الأنوثة التى تلاحظ فى المرأة المصرية: « ولا أنت ! » ٠٠ وبحركة سريعة مرنة ألفته الى جانبها ، يستلقى بطوله على الارض فى ظل الجبل ٠٠ وانقلب قليلا على أحد جانبيه – وهو يرفع نفسه مستندا الى ذراعه القوية – وظل محتفظا بهذا الوضع دون أن يبدو عليه أنه كان يبذل فى ذلك اى جهد ٠ واستطردت تقول وهى ترفع الوسائد الى جوار الصخرة خلفها : « واننى لأرجو الا تحاول أن تمارس معى الاعيب التنويم المغناطيسى القديمة التى يستخدمها فقراء الهنود يابارودى ! اننى أعلم أن عددا من النساء الأوروبيات يدفعهن الهوس الى ارتكاب الحماقات والظهور بمظهر شائن هنا ، ولكنى لست مخبولة ولا متهوسة ٠٠ وأؤكد لك ذلك ! »

– كلا ، بل أنت عملية ٠٠ مثلى ! وأنت شىء آخر ٠٠ مثلى أيضا !

ومال برأسه قليلا الى الوراء ، فكشفت لها هذه الحركة عن عنقه الجميل الذى بدا كأنه يظهر كل القوى المركزة التى كانت فى هذا الرجل ٠٠ قوى هادئة ونارية معا ، تشبه قوة الصخور ، وتشبه ألسنة اللهب المتحجرة التى كانت تحيط بهما ! وتساءلت : « شىء آخر ؟ ماهو ؟ » ٠ فقال : « لماذا تكثر النساء من الأسئلة وهن يعرفن الاجابة عليها ؟ هاهو ذا ابراهيم يحمل القهوة الينا » وفى تلك اللحظة ظهر ابراهيم بالفعل ، وهو يسير ببطء – مقبلا من وراء الحاجز

الصخرى ـ حاملا صحفة عليها قدحان للقهوة ووعاء للسكر وابريق من النحاس كان البخار يتصاعد منه ٠٠ ووضع الصحفة على الارض فى رفق ، دون ان يفوه بكلمة واحدة ، وملأ القدحين فقدمهما لمسز ارماين وبارودى ، ثم انسحب فى هدوء ٠٠ وفى خلال ذلك كله لم يلق على مسز ارماين نظرة واحدة ، وهى التى كانت تظن أن ابراهيم ليس الا غلاما ساذجا لطيفا ودودا !

أفى استطاعة هؤلاء الناس جميعا أن يقرأوا أفكارها ويقتفوا أثر ماتانف منه وماترغب فيه ؟ حتى التراجمة والمكاريين ٠٠ سائقى الحمير ؟!٠٠ وخيل اليها ـ للحظة من الزمن ـ أن الانجليز الأقوياء الجبابرة ، أبناء ذلك الجنس الحاكم الذى تعرفه حق المعرفة ، ليسوا سوى أطفال ـ أطفال قصار النظر باردى الحس ! ـ وأن هؤلاء المصريين الخاضعين المستسلمين : بارودى وابراهيم وحمزة المصلى ، كانوا رجالا دهاة تتدفق الدماء الحارة فى عروقهم ، وقد أوتوا القدرة على التنبؤ واستطلاع الغيب !

وناولها بارودى القدح وهو يقول : « هاك قهوتك ! » ٠ فرشفت قليلا منها، ثم وضعت القدح على الأرض ، وقالت : « فى الليلة الأولى لوجودنا فى فيللا اندرود ، جاء ملاحوك النوبيون مصعدين فى النيل ، ومضوا يغنون وينشدون تحت جسر الحديقة تماما ٠٠ فلماذا فعلوا ذلك ؟ » ٠ فقال : « لأنهم رجالى ، وقد أمرتهم بأن يغنوا لك» ٠٠فتساءلت: « وابراهيم ٠٠وحمزة ؟» ٠ وكان جوابه: « لقد أمرتهما بأن يأتيا بك الى هنا » ٠٠ وقالت : « أجل » ، ثم التزمت الصمت لحظة ، وعادت تقول : « نعم ، لقد كانا ينفذان أمرك طبعا ! »

وفيما كانت تنطق بهذه الكلمات ، خيل اليها ان موجة حارة من الرضى العميق قد غمرت كيانها كله ٠٠ فلقد حرص هذا الرجل على أن يبعث اليها ـ وهو فى الاسكندرية ـ بتحيته ، فى الليلة الاولى لحياتها الجديدة بجوار النيل ٠٠ حرص على أن يحييها اذ ذاك ، وهاهو ذا يهينها الآن بالفعل ٠٠ اذ اعترف فى هدوء بأنه عاملها كانها قطعة من الأثاث ! واعجبها ذلك وأحبته !٠٠ لقد كان يحييها فى تلك الليلة الاولى بأنشودة عن الله ٠ ورسا عقلها ـ بعد جولته السريعة من فكرة الى فكرة ـ عند هذه الذكرى ، وسرعان ما ذكرت حمزة وصلواته ، وراحت تتساءل فى عجب عن مدى قوة الايمان بالله لدى ذلك المخلوق القاسى القلب الذى كان مستلقيا بجوارها !واستطردت تقول فى تمهل : « لقد كانوا يتغنون بأنشودة عن الله ٠٠ و «الله» هى الكلمة الوحيدة التى استطعت ان أفهمها !»

ورفع بارودى نفسه قليلا ٠ وبينما كان يحدجها بنظراته ، انفرجت شفتاه ، وراح يغنى ـ بصوت مرتفع حزين ـ تلك الانشودة القوية الرتيبة التى يحبها الملاحون النوبيون ٠ وكانت الصخور الحارة الصفراء التى تحيط

بهما تؤلف مجال الصوت بالنسبة اليه ٠٠ اما قوة صوته فكانت خارقة حقا ، احدثت فى نفسها ــ مع أساريره الجامدة التى لم تكن اذ ذاك تعبر عن شئ ما ــ تاثيرا مؤلما ٠٠ ومع ذلك فانه كان يغريها ويغويها !٠٠ فلما انتهى من الغناء ، غمغمت تقول : « نعم ، هذه هى الأغنية ! » ٠ ولم يقل شيئا ، كما ان صمته المطبق ، الذى تلا غناءه القوى ، كان يشدد من قبضة غرابته عليها ٠ ولقد احست ــ بل وادركت ــ منذ لحظة وجيزه فقط ، انها وبارودى قد فهم كل منهما الآخر كما لم تستطع هى ونيجل أن يفهم أحدهما الآخر ! ولكنها لم تلبث ان احست فجأة بأن فى بارودى سرا أشد عمقا واعظم استغلاقا من اى سر يمكن ان يكمن فى نيجل ، وكان هذا السر يبدو لها وثيق الصلة بايمانه فى اله قادر جبار ٠٠ فى «كائن» ما خارج نطاق هذه الدنيا ، يتحكم فى مصائرها ، ويملى ارادته على الأقدار التى تحويها !٠٠ كانت عقيدة زوجها ــ كما حدستها وكما تحس بها فى وضوح قوى ــ تثير فيها شعورا من السخرية ، كذلك الشعور الذى يحسه الشخص الساخر المتجرد من المشاعر الرقيقة عند سماعه التصريحات الساذجة التى تصدر عن طفل غرير ! أما دين بارودى فكان يسحرها ، ويدفعها نحو الشعور بما يشبه الرهبة والخوف ٠٠ كان اشبه بنار احرقتها ، وأشبه بباب من الحديد اغلق دونها !

ومع ذلك فانه لم يتحدث قط عن دينه من قبل ٠٠ ولا تحدث عنه الآن ، ولكنه كان يتغنى بأنشودة بلاد النوبة !

وقالت : « هل انت الذى اخبرت ابراهيم بأن يختار حمزة سائقا لحمارى اليوم ؟ » ٠٠ كانت لا تزال فى شغل شاغل ، تتمثل حمزة وهو يعدو بجوارها صوب الجبال ، ثم وهو يصلى بين الصخور ٠ وواتاها جواب بارودى : « نعم » ، فسألته : « لماذا ؟ » ، فقال : « لأن حمزة مكارى صالح جدا ! »

وفى تلك اللحظة بدأت مسز ارماين تشعر بالخوف من حمزة ، بل وبالخوف من صلواته ! وكانت تعلم ما فى ذلك من سخف غريب ، لأنها لم تكن تؤمن بشىء البتة ! وكان بارودى قد استرخى قليلا ، وأراح خده على يده ٠٠ كان قد تعلم ــ فى مكان ما ــ أسرار أوضاع الجسم الأوروبية ! لقد كانت فى غنائه أعماق بعيدة الغور من الغرابة ، وها هى ذى ترى الآن أعماقا أخرى من الغرابة فى مسلكه ٠٠ كان يحييها من النيل ــ فى جنح الليل ــ وهو بعيد فى الاسكندرية ، وها هو ذا قد أمر ابراهيم وحمزة بأن يحضراها الى هذا المكان المقفر ٠٠ ثم ها هو ذا الآن يضطجع بجانبها ، بجسده القوى ، فى اطمئنان واسترخاء ، بينما سرح عقله ــ على مابدا ــ فى بعض الأحلام الضالة ! ٠٠ فهو بذلك لم يكن يكترث بها ، ولا يبذل اى جهد لارضائها وادخال السرور الى نفسها ، بل انه ــ فيما كان يخيل اليها اذ ذاك ــ لم يكن يفكر فى

أمرها ! فلماذا لم تشعر بوخز هذا التجاهل ، ولم تحس بحنق أو غيظ منه ؟ بل لماذا تجد نفسها مأخوذة بسحر تجاهله وعدم مبالاته ؟!

ولم تكن قد سألت نفسها عن سبب ذلك ، وكأنما أصابتها منه عدوى هذه الحال التى لم تمر بها قط من قبل ! ولبثا وقتا طويلا على هذه الحال ، جنبا الى جنب ، بلا حراك البتة ، يظللهما صمت مطبق ٠٠ وكانت هذه الفترة من السكون والجمود بالنسبة لمسز ارماين أعجب فترة مرت بها فى حياتها المليئة بالحوادث والاحداث ٠ كانت فى ذلك السكون تمر بتجربة تروضها ٠٠ كانت فى السكون تصهر وتصاغ من جديد ٠٠ كانت تنتزع من نفسها !٠٠ فما هذا الشىء الذى كان نشيطا فى السكون ، وكيف كان نشيطا ؟! ما الذى كان يتكلم فى السكون ؟٠٠ لم تكن ثمة أصداء تتردد ، بأصواتها المسحورة ، بين الصخور المتألقة فى هذه الجبال الليبية ٠٠ ومع ذلك فان شيئا ما قد رفع صوتا وصاح عاليا ٠٠ ولقد جاء الجواب ، ولكنه لم يكن رجع الصدى : فى الراحة تجديدا !

وعندما عادا الى الحديث ، كانت الرغبة الجشعة التى ساورت مسز ارماين نحو استخلاص أكبر قدر من المتعة فى السنوات التى بقيت امامها ، قد غدت أشد قوة وعنفا فى نفسها ! كما ولدت فى أعماقها واحدة من تلك العقائد العجيبة التى لا تهبط — فيما يبدو — الا على نفوس النساء فحسب ٠٠ ولد فى اعماقها الايمان بأن الأيام قد ادخرت لها ثأرا من القدر الذى سلبها احتمال الحصول على كل ما كانت تصبو الى الحصول عليه من زوجها نيجل ٠٠ الايمان بأنه سيغدو فى وسعها ان تتم هذا الانتقام بوساطة الرجل الذى كان يرقد بجانبها !

الفصل السابع عشر

عندما خطت مسز ارماين — فى مساء ذلك اليوم — منتقلة من « الفلوكة » الى حديقة « فيلا اندرود » ، لم تنتظر حتى يساعدها ابراهيم فى الصعود الى الشاطىء ، وانما أسرعت مهرعة وحدها ، فاجتازت الحديقة والشرفة ، وانطلقت الى مخدعها حيث أوصدت الباب ، ثم أشعلت الشموع على جانبى المرآة الطويلة بحجرة الزينة ، ورفعت خمارها ، وراحت تتطلع فى لهفة الى وجهها العاطل عن الزينة ،

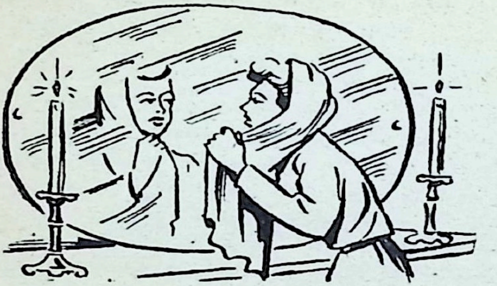

فى المرآة : ترى هل كانت فيما صنعته مجانبة للصواب والعقل الى حد بعيد ؟! لقد خالجها مرات عديدة خلال ذلك اليوم ـ بينما كانت مع بارودى ـ شعور يكاد يشبه الفزع والهلع مما فعلته بنفسها .. أما الآن وقد أصبحت وحدها فى أمن وطمأنينة ، فقد مضت تتساءل عما اذا كانت حمقاء حين أطاعت ايعاز نيجل واعتمدت على جمالها المجرد من كل زينة !.. وراحت تتفرس فى المرآة ، ثم نزعت قبعتها وعادت تتفرس من جديد فى قوة وامعان ، يكادان أن يكونا قاسيين !

وسمعت طرقة حادة على الباب ، فهتفت : « من هناك ؟ » .. وواتاها صوت وصيفتها : « أنا ياسيدتى » . فمضت مسز ارماين الى الباب وفتحته ، وقالت فى خشونة : « تعالى هنا يا مارى ! خبرينى بالحقيقة ـ فلست أريد منك أى ملق او مداهنة ـ هل تظنين انى أبدو أصغر سنا وأحسن منظرا اذا ما وضعت شيئا على وجهى ، أو اذا ما تركته هكذا خاليا من الزينة ؟ » .. وأدنت وجهها من ضوء الشموع ووقفت ساكنة بلا حراك ، بينما راحت مارى تتفحصها فى انتباه شديد .. ثم قالت أخيرا : **« ان السيدة تبدو هنا أصغر سنا بكثير ، فقد تغيرت السيدة تغيرا كبيرا منذ أن حضرنا الى**

مصر ! لست أدرى حقا ، ولكننى أظن أن السيدة ربما كان فى وسعها أن تستغنى عن أى شىء الا اذا كانت ستلتقى ببعض الفرنسيين طبعا ! أما اذا كانت السيدة ستقضى أوقات طويلة فى الشمس ، فعليها أثناء الليل أن تحرص على وضع .. » ، وانطلقت الوصيفة ، سعيدة هانئة ، توغل فى الحديث فى موضوع يروق لها ويلائم طبيعتها !

وتناولت مسز ارماين طعام العشاء وحدها فى عجلة . وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة عندما فرغت منه ، فخرجت لتجلس فى الشرفة ولتدخن سيجارتها وترشف قهوتها . ولم تكن أثناء عودتها من الجبال قد خاطبت ابراهيم الا نادرا ، كما أنها لم توجه كلمة الى حمزة الا عندما تمنت له ليلة سعيدة على ضفة النيل .. وتذكرت ذلك التعبير الذى ارتسم فى عينيه الشبيهتين بثمرة اللوز ، عندما رد تحيتها .. **كان تعبيرا غامضا بعيد الأغوار ، يفيض بادراك قاس فى صراحته ، جرد طبيعتها من كل ما كانت تستتر وراءه من وسائل التنكر والاستخفاء ، وتركها عارية كما هى ليراها جميع الرجال فى هذه البلاد ! .. وما كانت عينا ابراهيم تلوحان قط مثل عينى حمزة ، ومع ذلك فما هو الاختلاف الحقيقى بين ابراهيم وحمزة ؟**

وفجأة قالت لنفسها : « لماذا ينبغى أن أشغل رأسى بهؤلاء الناس : خادم وسائق حمير ؟ » .. انها لم تكن تعنى البتة فى انجلترا بما يظنه فيها أولئك الذين فى خدمتها .. ولكن الأمور كانت تبدو هنا ـ فى مصر ـ شديدة الاختلاف ، وقد أخذها ابراهيم وحمزة الى المكان الذى كان بارودى ينتظر فيه لقاءها .. كانا ماجورين لبارودى ، وهذه هى الحقيقة اللاذعة .. الحقيقة التى راحت تفكر فيها وهى تجلس وحدها ، ترشف القهوة التركية التى أعدها لها حسن ، وتدخن سيجارتها . كانت تقول لنفسها انه لم يكن لها أن

تغضب لما حدث .. ولكنها كانت تعلم كل العلم أنها لم تغضب فى الواقع ! .. كانت تعلم أنها كانت جد مسرورة لأن بارودى اشترى ابراهيم وحمزة ، فقد ولد الشرقيون وفى دمائهم شهوة للدسائس والمكائد ، والسير فى الخفاء ، والزحف فى الممرات المنحرفة الملتوية .. فلماذا كان ينبغى على هؤلاء الذين يحيطون بها أن ينبذوا طبيعتهم وغريزتهم ؟!

وانتقلت اذ ذاك الى التفكير فى نيجل .. لكم كانت مع بارودى أكثر راحة وانسياقا لسجيتها منها مع نيجل فى أى يوم من الأيام ! .. لم يكن فى وسعها قط أن تتيح لنيجل ما كان ينشده .. وربما استطاعت أن تتظاهر بتوفيره له ، ولكن انخداع نيجل ما كان ليغير من الحقيقة شيئا ، رغم أن نيجل كان أهلا لأن ينساق للخداع ولأن يضلل ! .. **أما بارودى ، فكان فى وسعها أن تهبه ما كان راغبا فيه ، بل لقد خيل اليها — فى تلك الليلة — أنها قد خلقت لتهبه ما يرغب فيه حقا ، فما كانت لتجهل حقيقة نفسها ! كما أنه قادر على أن يهب لها كل ما تريده تماما ! هكذا أصبحت تعتقد ، فلقد بدا لها — بعد ذلك اليوم الطويل بين الجبال — أن أطماعها القديمة قد ماتت .. قد قتلت !** .. ومع هذا الموت ، نما فجأة فى أعماقها — على نحو أشد ضراوة ووحشية ! — ذلك الحب المسيطر ، وذلك النهم المتسلط نحو الأشياء المادية .. نحو النقود ، والحلى ، والتحف الجميلة .. نحو كل ما يمكن تلخيصه فى كلمة « الترف » ! .. ولقد كان بارودى ذا ثراء فاحش ، وكانت ثروته تزداد يوما بعد يوم ، وأنها لتعرف كيف تضع الرجل فى الميزان فلا تخطىء وزنه !.. وعلى الرغم مما كان فى بارودى من غموض وخفاء — حتى بالنسبة اليها — فانها كانت قادرة على أن تكون حكما صائبا عن مقدرته العملية ، وعن مقدرته على الكسب والربح ! .. ولكنه كان قادرا على أن يهب لها ما هو أكثر من « الترف » .. ما هو

أكثر من « الترف » بكثير !

وفيما كانت تقرر لنفسها هذه الحقيقة ، تسلل الى قلب مسز ارماين ساكن جديد .. وكان هذا الساكن هو **الخوف!** كانت تعلم انها وجدت فى بارودى رجلا يمكن أن يسيطر عليها .. بل لقد كان فى وسعه أن يدمرها ، لأنها وجدت فيه رجلا يمكن أن تحبه ، لا ذلك الحب الروحى السامى ـ فما كانت قادرة على أن تحب أى رجل على هذا النحو ! ـ ولكن بتلك القوة الخطرة ، وتلك الرغبة والعاطفة البدنية الغيور ، وذلك التركيز المرير الذى يبدو انه ينمو فى طراز معين من النساء عندما يخلفن الشباب وراءهن ! .. كانت تعلم ذلك ، وكانت خائفة كما لم تخف قط من قبل !

وفى تلك الليلة لم تذق طعم النوم الا قليلا .. وقد سمعت مرتين أو ثلاثا ، وهى ترقد يقظى فى الظلام ، أصواتا بعيدة تغنى فى مكان ما على النيل ، فكانت تتململ فى فراشها ، وهى تتوق للخروج الى بهمة الليل لتزداد دنوا من هذه الأصوات .. كانت تخال أنها انما جاءت من أجلها ، وانها تدعوها اليها ، بل انها اعادت الى ذاكرتها صوت بارودى ـ عندما رفع جسمه قليلا ، وراح يحدق فى وجهها ـ وهو يغنى تلك الأنشودة عن « الله » .. أنشودة الملاحين النوبيين !.. وعندئذ تمثلته أمامها فى الظلام ، فى وضوح قاس اليم ، وكانما كانت تضيئه أشعة الشمس الحارقة : لماذا التقت بهذا الرجل بعد أن اتخذت خطوتها الحيوية نحو زواجها الثانى مباشرة ؟ **لقد لبثت أعواما طويلة حرة من كل قيد .. حرة كما يمكن أن يكون المنبوذ عن المجتمع حرا .. ذلك الذى يجد نفسه مساقا رغم أنفه الى خارج المجتمع ، الى حرية فظيعة !.. لقد كانت ـ خلال كل هذه** الأعوام من الحرية ـ تستغل الرجال وتستخدمهم دون أن تحب واحدا منهم .. وبعدئذ ، وأخيرا ، قيدت نفسها مرة أخرى ، واتخذت ما خيل اليها انه الخطوة الحاسمة نحو

مستقبل موفور الاحترام والكرامة ، وربما نحو مركز اجتماعى تتطاول اليه الأعناق !.. وما كادت تفعل ذلك ، حتى ألقت المصادفة فى طريقها بالرجل الذى كان يستطيع أن يمسك بها ويرفعها ويفى بكل ما لطبيعتها من احتياجات ! .. وهذه الكلمات من القرآن .. أليست صادقة كل الصدق بالنسبة اليها ؟!.. ان قدرها وطائرها قد ربطا الى عنقها بلا ريب .. بيد من ؟.. انها لتعرف ما سيقوله بارودى ، لو أنها سألته.. ويا للعجب ! **حتى الدين الذى يعتنقه كان يسحرها ويأسرها، مع أنها كانت تضحك فى قرارة نفسها من عقيدة نيجل .. كان دين بارودى يبدو منطويا على قوة صلبة .. قوة ضارية قاسية !** (١) ولقد كانت تحس بأنه ــ حتى بالنسبة لدينه ! ــ كان لصا قاطع طريق ، يحاول أن يمسك بين يديه الشرهتين، فى هذه الدنيا ، بالمباهج والملاذ الموعودة فى عالم آخر ! كان موطد العزم على ألا يفوته شىء أو ينكر عليه أمر يرغب فيه حقا !

وراحت تتقلب فوق الحشيات من جديد ، وهى تخرج ذراعيها خارج الغطاء الخفيف الذى كانت تتدثر به ، ثم وضعت يديها فوق وجهها ، فوجدت وجنتيها تلتهبان نارا.. وعندئذ ذكرت كيف أنها منذ عهد بعيد ــ عندما كانت شابة حديثة الزواج ــ رقدت مسهدة ذات ليلة ، وتحسست بيديها وجنتيها الملتهبتين .. كان ذلك على أثر التقائها بالرجل الذى من أجله طلقت من زوجها .. الرجل الذى دمر حياتها فى المجتمع . ترى هل يعيد التاريخ نفسه ؟ وهل تعود الحياة على أعقابها ؟ انها تذكر المباهج العنيفة لهذا الحب المستتر

---

(١) يقصد المؤلف هنا ان الدين يقسو على الانسان اذ يحمله تبعات مسلكه فى الحياة الدنيا ، ثم يحاسبه عليها فى الآخرة ، مع انها مفروضة عليه فى حياته بحكم القدر .. وهو الجدل الذى يدور دائما حول « القضاء والقدر ».

الذى ألقى به ــ فيما بعد ــ فى التراب ، لتحدجه الدنيا كلها بأنظارها .. ترى هل قدر لها أن تحس بمثل هذه المباهج مرة أخرى ؟ وهل من الممكن أن تتهيأ لها معرفتها من جديد ؟ ثم هل لديها القدرة على تذوقها بعد كل ما مرت به من أحداث ؟! .. انها تعلم أن لديها هذه القدرة !.. **وعندئذ اختلط الخوف فى نفسها باحساس من الانتصار .. فقد شعرت بأن مرور الأعوام لم ينقص من مقدرتها على الاستمتاع بما كان بالنسبة اليها بهجة وسرورا ، بل انه زادها .. وهذا الشعور بازدياد مقدرتها على الاستمتاع أوجد فى نفسها شعورا آخر زاخرا بالشباب !**

حتى نيجل قال لها : « انك تزدهرين هنا » ! .. حتى هو ــ هو الذى خدعته وضللته بهذه السهولة خداعا تاما كاملا ــ قد رأى الحقيقة فيها بوضوح وجلاء .. ولكن ماذا يكون من أمرها عندما يعود من الفيوم ليبقى معها ثانية ، أو ــ وهو الأرجح ــ ليحملها معه بعيدا ؟

وكانت الأصوات التى بلغت مسامعها من بعيد قد خفتت .. فقد سيطر الليل أخيرا على المنشدين ، فاستغرقوا فى النوم تحت دثار من سكون الليل وصمته . ولكن مسز ارماين ظلت ترقد مستيقظة ، شاعرة بأن انقطاع الغناء قد جعلها أقل استعدادا للنوم . عندما يعود نيجل ليأخذها بعيدا ، الى خيمة فى الفيوم .. ماذا اذن ؟ .. انها لن تفكر فى هذا الأمر ، ولكنها سوف تطيع ما توحى اليها به طبيعتها .. ان لديها اسبوعين من الحرية ، هى التى قضت كل هذه الأعوام الطويلة من الحرية .. **ان أمامها أسبوعين فقط ، وعليها اذن أن تستغل هذين الأسبوعين وأن تستمتع بهما الى غاية ما يسعها الاستمتاع .. وليس عليها أن تفكر فى شىء الا فى لحظتها الحاضرة .. وعليها أن تعتصر ، ثم تعتصر ، ذلك الرحيق الذهبى الذى تحويه هذه اللحظات التى تمتد**

أمامها مباشرة !

والخيمة التى فى الفيوم ؟.. لعلها لن تراها البتة ! لعلها لن تخرج قط مع نيجل فى حلكة الليل لتصغى الى الأرغول المصرى بجوار الماء .. ولكنها ستسمع بارودى حتما وهو يغنى ثانية فى الغد ! وسوف ترقبه حتما ، فى الغد أيضا ، وهو يغنى !

ودست ذراعيها داخل الفراش ، وجذبت الغطاء فى انفعال حتى بلغ ذقنها .. يجب أن تنام ، والا نم وجهها غدا عن سهادها ! وقد كان بارودى يتفرس فى وجهها وهو يغنى !

وعاد الخوف من جديد يقبض عليها بأصابع لا تلين !

الفصل الثامن عشر

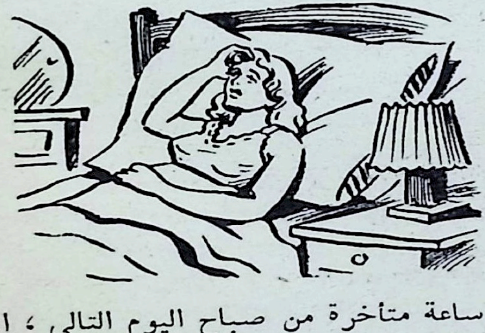

◆ فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى ، استيقظت مع مسز ارماين — وفى كيانها — امرأة كانت قد قضت بعض الوقت ترقد فى سكون أشبه بسكون الموت ! امرأة تعرضت للدمار منذ سنين مضت ، فى سبيل عاطفة كانت جسدية أكثر منها روحية مثالية ، فلما حاق بها الدمار فعلا ، تركت الجانب البشع من طبيعتها ينطلق حرا ، مرسل الزمام ،

يتحدى العالم بما فيه .. ولم تدرك تمام الادراك ـ قبل هذا اليوم الجديد الذى استيقظت عليه ـ مدى ذلك الجهد الطويل الذى كانت تبذله ، وكيف أتعب أعصابها ومزاجها وأثارهما ، اذ فازت بزوجها بأن لعبت عليه دورا ، وقد مضت ممعنة ـ منذ أن فازت به ـ فى تمثيل هذا الدور ! .. ولم تعد ترى هذا التمثيل منذ ذلك الحين أمرا بالغ الصعوبة ، على الرغم من أنها مرت بلحظات كانت تحن فيها حنينا قويا الى أن تظهر نفسها على حقيقتها ! .. **أما الآن وقد أمضت بضع ساعات فقط مع رجل استطاع أن يستشف حقيقتها ويجيد قراءة ما كانت تهجس به نفسها ، ولا يتطلب منها جمالا روحيا ، أو نضالا فى سبيل الفضيلة ، أو أسفا مريرا على أية أفعال أتتها فى الماضى ، فقد تبينت فداحة النير الذى كانت تحمله على عاتقها ، وامتلأت نفسها برغبة جامحة فى أن تنال ما يعوضها الجزاء الأوفى !.. لقد شعرت كأن الأقدار مدينة لها بدين ثقيل ، فاستقر عزمها على أن تستوفى هذا الدين حتى آخر قطرة منه !**

أما وقد تحررت من القيود التى كان يفرضها عليها وجود زوجها ، ومن الحمل الذى كان يثقل به كاهلها ببحثه الدؤوب ـ رغم استتاره ـ عن الجزاء الأدبى الذى لم يكن فى وسعها البتة أن تهبه اياه ، فان كيانها كله وطبيعتها كلها أصبحا يبدوان كما لو كانا قد أصيبا برد فعل عنيف ! وفى خلال الأيام التى تلت ذلك مباشرة ، كانت تشعر أحيانا بأنها على سجيتها وطبيعتها ، شعورا أتم وأوفى وأكثر قوة مما أحست به فى أى يوم من قبل .. وكانت غالبا ماتدرك سر ذلك الارتياح العجيب ، الذى يكاد يكون وحشيا ، والذى يحسه الغرب أحيانا عندما يتصل عن كثب ببداوة الشرق الحارة الماكرة .. الشرق الذى لا يعنى بالقاء الأسئلة ، والذى حذف كلمة « لماذا » من قاموسه !

كان بارودى مجردا تماما من مبادىء الضمير العادية بقدر ما كان الرجل الانجليزى المهذب مليئا بها !! (١) كان له ـ بلا ريب ـ قانونه الخاص الذى يهتدى بهديه فى مسلكه حيال اخوانه فى الدين ، ولكن هذا القانون ـ فيما يبدو ـ كان غير ذى تأثير على الاطلاق عندما تنشأ صلة بينه وبين أولئك الذين ينتمون الى جنس آخر ودين آخر ! .. وكانت مسز ارماين امرأة ، ومن ثم فقد كانت فى ناظريه أقل منه مرتبة!.. وقد كان بين الصفات التى اجتذبت مسز ارماين اليه ـ ومن المؤكد أنها لم تكن أقلها شأنا ـ افتقاره الى احترام النساء بوصفهن نساء ! .. ومن المسلم به كحقيقة ثابتة عن المرأة ، انها تكن فى أعماقها ـ مهما يبلغ عمق الهوة التى تنحدر اليها ـ لهفة خفية الى احترام الرجل لها .. وسواء أكانت مسز ارماين تشاطر النساء هذه اللهفة الخفية أم لا ، فان شيئا واحدا كان محققا .. **كان زوجها يحترمها ، فكانت تحمل هذا الاحترام كسلسلة من حديد ، وكان بارودى لا يحترمها ، فكانت تحمل خلوه من الاحترام نحوها كزهرة تتزين بها !**

وعندما زارت مسز ارماين « اللولية » ، وقرأت ـ كما تفعل النساء غالبا ـ أخلاق الرجل من الأشياء التى يعمد الى احاطة نفسه بها ، تبينت للتو بعض حقائق معينة فيه ، لم يجشم نفسه ـ أثناء مخالطته لها ـ عناء اخفائها .. فالى جانب بصيرته الثاقبة ، ودهائه المطواع ، وتجرده الواضح من مبادىء الضمير ، وجرأته الناعمة المصقولة الباردة كالبرونز ، كانت به بداوة (غشومية) ساذجة ، وبساطة أشبه ببساطة تلاميذ المدارس ، وطيبة فطرية تبعث على الدهشة ، ولكنها مع ذلك تثير الاعجاب لأنها لم تكن متوقعة منه ! .. فالرجل

---

(١) يبدو ان المؤلف هنا اخطأ فهم مبادىء الشرق ، بنفس القدر الذى أخطأ به فهم مبادىء الغرب ، الذى ينتمى اليه « السادة الانجليز المهذبون » !!

الذى اشترى الساعات الصداحة ، والزهريات الرخيصة ، والذى جعل الكرة المذهبة تتراقص فوق نافورة الفسقية ، والذى حطم تناسق الألوان القاتمة فى حجرة استراحته بذلك اللون البرتقالى الصارخ الذى أقحمه عليها ، فبدا وكأنه كان يعكس الأضواء البدائية الوحشية المنبعثة من أعماق طبيعته .. هذا الرجل كان يسير جنبا الى جنب مع صانع المال البارع ، والباحث المقدام عن الملذات ، والحالم الشهوانى ، والديبلوماسى المحنك ! كان المزيج لاذعا مثيرا ، ولو أنه لم يكن غير عادى فى الأقطار ذات الشمس الساطعة ! .. **وكان هذا يروق لمسز ارماين ، ويلائم شغفها الجامح بالتجديد ، ويجعلها تحس بأنها ــ على الرغم من خبرتها الواسعة بالحياة فيما يتعلق بالرجال ــ لا تزال تجد ((أراضى مجهولة)) يمكن أن ترتادها وتكتشفها ! ..** ومع أنها لم تكن تهتم بصفة خاصة بالأطفال ، ولم تحس البتة بحنين الى أن يكون لها طفل من دمها ، الا أنها أدركت أنها قد تحب ــ بين الحين والحين ــ أن تلهو بالطفل الذى ينطوى عليه هذا الرجل ، وأن تدلله ، وتضحك منه ، وتشعر بسموها عليه ، وتحس بالحنان نحوه ، كما يمكن أن تحس أشد النساء صلابة بالحنان نحو ما يوقظ فيها مقدرة المرأة المزدوجة : مقدرتها على العاطفة ، ومقدرتها على الأمومة ! .. كانت تخشى بارودى ، وتبتسم ، بل تضحك منه ، فى وقت واحد ! .. وكانت فى عجب من أمره فى الوقت الذى كانت تستشف ما ينطوى عليه .. فهو فى لحظة يبدو أمامها شفافا كالزجاج ، وفى أخرى يواجهها كصخرة أحاطت بها الظلمات فى ليلة لا يخترق حجبها بصر ! .. أما هو فلم يبال قط بما اذا كانت تنظر خلال الزجاج ، أم تحدق فى الصخرة مشدوهة حائرة ! فما كان ليبدو مكترثا لحظة ــ عندما يكون معها ــ لملاحظتها اياه ، أو متلهفا على معرفة رأيها فيه ، أو حتى معنيا بذلك ! ولقد كان من جراء اكتمال

انانيته أن بدأت أنانيتها تحترمه وتقدره ، فاضطرت الى الاعتراف بأنه يملك بعضا من صفاتها المميزة ، ولكن شيئا ما فى طبيعته غالى فيها وأبرزها وجعلها لامعة وغامضة معا .. شيئا كانت هى محرومة منه ، ولعله كان من خواص جنسه ، ومن ثم فلن يقدر لها أن تحصل عليه قط !

* * *

• **وكان** حمزة ، المكارى المصلى ، ينتظرها كل يوم فى موضع يحدد من قبل ــ على الضفة الغربية للنهر ــ بينما كان ابراهيم يرافقها الى هناك فى « الفلوكة » وهو يبتسم فى رقة كطفل ساذج ، ويضع وردة بين أسنانه . وكانت « اللولية » ترسو فى النهر ، بعيدا الى الجنوب ، بين بساتين البرتقال التى يملكها بارودى ، وبين (أرمنت) ، فكان فى كل يوم يقبل على النيل فى زورقه الأبيض ، ليقابل المرأة الأوروبية ، لا يصحبه غير تابع واحد .. نوبى ضخم الجثة يدعى أيوب . وكان السياح الذين يأتون الى (الأقصر) قلما يذهبون الى أبعد من بقاع معينة محددة ، فهم يقضون أيامهم اما عابرين للنهر على مرمى البصر من القرية ومن (طيبة) ، أو بين المعابد والقبور على الضفة الغربية ، أو فى الكرنك ، أو معبد الأقصر أو حوانيت العاديات ، أو فى ظلال أحراش النخيل التى تحيط مباشرة بمنازل الكرنك الرمادية ، ومآذن الأقصر . أما الرجل الذى يذهب شمالا الى ما وراء (القرنة) ، أو جنوبا الى ما وراء مدينة حابو ، أو شرقا الى سفوح الجبال التى تزركش صحراء العرب ، فانه يكون بمنجاة من أنظارهم ومن ضجيج القيل والقال بينهم .. ومن ثم كان بارودى ومسز ارماين يلتقيان فى المنطقة الجنوبية ، بين الصف الثانى من الجبال ، أو فى السهل الفسيح ، أو تحت الظلال الخفاقة لأشجار البرتقال المزروعة صفوفا متقاربة أو على مسافات متساوية

فى دقة بالغة .

وكانت مسز ارماين ، عندما تبرح ضفة النهر الممتدة تحت سور الحديقة فى كل صباح ، لا تسأل ابراهيم الى أين هى ذاهبة .. ولم تكن بالمثل تلقى أية أسئلة على حمزة وهى تمتطى ظهر حمارها ، بل كانت تستسلم فقط ــ دون كلمة واحدة ــ الى رعاية هذين الاثنين ، فتتركهما يأخذانها الى حيث أمرا بأخذها ، والى حيث كانا قد تقاضيا الأجر لأخذها .. كما حدث فى اليوم الأول من أيام حريتها !.. **ومالبثت أن راحت تسائل نفسها : ألم يكن فى العقيدة الاسلامية ما يصدق على هؤلاء الذين لاينضوون تحت لوائها .. او لم يكن كل كائن حى ــ الى أن ينفخ اسرافيل فى الصور ــ حبيسا فى سجن القدر الذى سبق أن كتب له !** .. ولكنها فى قدرتها على أن تكون قصيرة النظر أحيانا ــ مع أنها فى اللحظات الحالكة الظلام من الليل تغدو بعيدة النظر متوجسة ــ كانت غالبا ما تستسلم للاحساس بحرية مطلقة خالية من القيود ، مطمئنة الى المسافات الشاسعة التى كانت تفصل بينها وبين (الفيوم) .. فهى لم تعد ترى هاتين العينين ــ عينى نيجل ــ اللتين كانتا تسألانها عطاء ، ولم تعد تسمع هذا الصوت الذى يرجو ويستجدى افضالا لا تستطيع أن تهبها مطلقا ، وأن كان فى وسعها أن تتظاهر بمنحها !

وهكذا كانت أحيانا تضم الى صدرها طيف الحرية الكاملة ، فى مطالع الأيام الصافية المشرقة ، عندما كان ابراهيم يأتى اليها ليخبرها بأن الوقت قد حان للذهاب ، وعندما كانت تسمع شدو الملاحين الخافت فى الفلوكة . واذا كان قدرها قد كتب عليها وألزم عنقها ، فقد كانت تمر بها لحظات لاتدرك فيها ذلك ادراكا كاملا .. لحظات كان يخالجها فيها احساس ــ بهيج متوثب ! ــ بالقوة والشباب ، وتتمثل خلالها تلك المرأة التى جلست ذات يوم فى عيادة « ماير ايزاكسون »،

وكأنها امرأة غريبة مكدودة لم يعد لها أى شأن بها !

على أنه برغم ما كان يمر بمسز ارماين من لحظات الانطلاق والمرح فى هذه الأيام — التى كانت غالبا ما تقول لنفسها أنها أيام حريتها — فانها كانت تمر أيضا بالكثير من لحظات التوجس والانقباض والحيرة فى شأن المستقبل .. لحظات أخذت تزداد كثرة عندما بدأت تزداد ادراكا بحقيقة طبيعتها التى كانت تتكشف الآن فى ضراوة ! .. قط ما كانت لتتصور أنه ما زال باقيا فى أعماقها مثل هذا الاستعداد القوى للتأثر بالعاطفة .. لم تكن تتصور على الاطلاق احتمال استطاعتها أن تحب اى رجل مرة ثانية .. تحب ، بتلك الحرارة المشبوبة ، وبتلك القوة التى تجلب فى أعقابها القلق والاضطراب ، والرغبة القاسية فى الاستئثار ، وفى الدفاع عن العرين ، وفى التملك .. لا بدافع من الزهو النسائى أو الجشع النسائى ، وانما بدافع من شىء يستقر بعيدا فى الأعماق بين ينابيع النفس البشرية !.. **لم تكن تحسب على الاطلاق أن من الممكن أن يشرق فى عماقها — فى تلك الحقبة الوسطى من حياتها — مثل هذا البعث الذى سرعان ما بدأت تحس بوجوده فى قلق ولهفة .. فان ذلك الكلال ، وذلك الركود الشبيه بجمود الموت ، اللذين كثيرا ما كانا يحاصرانها ويضيقان عليها الخناق ، اختفيا فجأة كما تختفى الأشياء التى تسقط فى بحر بعيد القرار ! كان جسمها وعقلها قد تيقظا فى تحفز وحرارة ، كأنما أصابتهما الحمى معا !**

وكانت تقول لنفسها أحيانا — وهى تحاول ان تخادع هذه النفس — أن اللوم ، او المسئولية على الأقل ، عن هذا التغيير ، يجب أن يلقى على كتفى (مصر) .. ولعلها كانت اذ ذاك تنظر الى كتفى بارودى ! وكان هو يلمح هذه النظرة ، فيفهم حقيقة نفسها اكثر مما كانت تزعمه — لنفسها — من أنها كانت تفهم

هذه النفس ! .. ومع ذلك فانها كانت قد قضت سنين عديدة وهى بمنأى عن أن تكون ممن يحاولن أن يمارسن خداع نفوسهن .. ولكن هذا الرجل استطاع أن يتجاوز بتأثيره الناحية الجسدية ، وان يفرض سلطانه كذلك على تلك الناحية التى أبت ان تستجيب الى المحاولات الرفيقة للتأثير عليها ودفعها نحو الخير ، ونحو مثل أدبية رفيعة .. أجل ، تلك الناحية التى كانت موجودة فعلا ، كشعلة حيوية ، روحانية .. ذلك الشىء الرائع الغريب الحبيس فى قفص جسدها الملتهب !

ومحمود بارودى ؟ هل كانت ثمة مسرحية تمثل وراء ذلك المظهر القوى ، المليء بالألغاز .. المظهر الذى كان يعرضه للنظرات المتفحصة التى يصوبها اليه هذا العالم وتلك المرأة ؟!. لكم كانت مسز ارماين تعجب وتحار فى أمره أحيانا ، دون أن تستطيع أن تستقر على رأى . والواقع أنها كانت لا تعلم الا القليل عنه ، فعلى الرغم من انه كان يبدو غالبا وكأنه يكشف نفسه ــ فى غير اهتمام او اكتراث ــ الا أنها كانت تعود الى « الفيللا » ، بعد نهاية كل لقاء بينهما ، ورأسها مازال مليئا بالأسئلة .. وكانت غالبا ماتشعر براحة غريبة معه ، لأنه لم يكن يسألها ما لا قبل لها بمنحه ، ولذلك استطاعت أن تكون على سجيتها معه . ولكن الرجل الشرقى لا يسكب اسراره فى أذن المرأة الغربية ، وليست أساليبه فى التفكير كأساليب الرجل الغربى .. فلم تعرف مسز ارماين قط حتى الآن ألفة سرية ــ بل أية ألفة ــ كهذه ، كانت الرشوة سبيلها ، ومن ثم فانها كانت تسير حتما بخطى حثيثة نحو خاتمة سريعة حاسمة !.. ولابد ان بارودى كان قد دبر خططه لرؤيتها ــ كما كان يراها الآن ــ وهو بعد على ظهر السفينة « هوهنزلرن » .. انه لم يخبرها بذلك ، ولكنها عرفته وادركته . **أو لم تكن تعرفه وهى**

على ظهر السفينة ؟ ألم تكن نظراتهما المتبادلة مليئة بما يقال والرد على ما يقال ؟

وعلى الرغم من المعرفة التى مرت بها فى حياتها ، فانها أصبحت تقول لنفسها أنها لم تكن تعرف شيئا .. فقد كان فى رأس بارودى الكثير – حتى فيما له علاقة بها هى – مما لم يكن بوسعها أن تعرفه .. ومع ذلك فانها استطاعت أن تكتشف شيئا عنه : كان والد بارودى من أثرياء الأتراك المصريين ، وكانت أمه يونانية جميلة ، اعتنقت الاسلام عندما شغف أبوه حبا بها ، وعرض عليها أن يتزوج منهـا ، فقبلت العرض ، واختفت عن العالم خلف أسوار الحريم .. وفى الحريم قضت نحبها ، تاركة وراءها هذا الابن الوحيد . والأتراك المصريون – كقاعدة عامة – اجرأ وأوفر نشاطا ، وأقوى نفوذا ، ولعلهم أيضا أشد جشعا ، من المصرين ذوى الدم المصرى الخالص .. وكانوا – فى الأيام التى سبقت الحماية الانجليزية – يتولون الكثير من المناصب الهامة بين الطبقات الحاكمة فى مصر (١) .. **كانوا يحشون جيوبهم بالمال ويسلبون اولئك الذين تحت سلطتهم بتلك القسوة التى هى من خصائص الخلق الشرقى !..**

وجاء الانجليز ، فوضعوا حدا لجمعهم المال بهذه الوسائل الشريرة ، ومن ثم فان حب الانجليز لا يزال حتى اليوم أقل انتشارا من كراهيتهم فى قلب كل تركى فى مصر .. ومع ذلك فان فى طبيعة التركى المصرى غالبا ، ماهو اكثر تجانسا مع طبيعة الانجليزى القح مما يمكن أن يوجد فى اى مصرى صميم ومن المحتمل أن التركى المصرى كان يزداد اذكاء لحقده على الانجليزى ، كلما رأى فى هذا ماكان يمكن أن يكونه هو ، لو لم

---

(١) هذا الجزء يشتمل على تحليل طريف لنوعين من اللصوص تنافسا على الاستئثار بخيرات مصر وحرياتها

ترده عن ذلك بعض أخلاق الشرق . فقد يصدر الرجال فى كراهيتهم عن جهل ، ولكنهم كذلك قد يكرهون عن فهم وادراك !

* * *

• **ولقد** نشأ بارودى فى جو من خشية الانجليز وكراهيتهم .. فان والده ، رغم ثرائه العريض ، فقد مركزه وسلطته بسبب الانجليز .. اذ كان له نفوذ على الكثيرين من مواطنيه يوما ما ، ولكن هذا النفوذ لم يعد له ، ولن يكون له البتة .. وقد تسربت من يديه – فى هدوء – فرصة السلب والنهب اذ أخذها الرجال الذين يلبسون الخوذة بدلا من الطربوش ، والذين قد يعترفون بأن « لا اله الا الله » ولكنهم ينكرون أن « محمدا » كان « رسول الله » ! .. **كان الأب يكره الانجليز ، وقد علم ابنه – نصف اليونانى ! – ان يكرههم ، ولكن فى غير جلبة او تفاخر ! وحفظ بارودى الدرس عن أبيه بسرعة ، وعن ظهر قلب ، فشب على بغض الانجليز . ومع ذلك – وفى تناقض مستتر – فانه كان ينمى طبيعته على بعض الميزات وبعض الكفايات وبعض الميول التى يشاطرها الانجليز !**

لم يكن شرقيا خاملا (١) ، غير عملى ، ولكنه مع ذلك كان ماكرا مراوغا ، لا يفكر البتة فى الغد ، خياليا فيما لا طائل وراءه ، مستكينا ، على استعداد للتذلل حتى يصل الى السلطة ثم يتحول ليركل الرجل الذى رفعه على كتفيه !.. ولم يكن كالغدير الراكد ، لا تلوح على سطحه الا ألوان الفساد والتعفن ،

---

(١) يبدو ان انسياق المؤلف الى المقارنة بين قومه كمستعمرين ، وبين المستعمرين السابقين – الأتراك – قد أثار نعرته وتعصبه ، فنسى مهمة الروائى لينساق لتيار قوميته الخبيث . ترى ماذا كان يقول لو انه كتب روايته اليوم ، وصفعات المارد الشرقى تنهال على وجوه قومه ؟!

وانما كان رجلا بمعنى الكلمة ، كما يفهم الانجليز معنى الرجولة !.. كانت لديه الغريزة الحقة نحو الرياضة ، والمقدرة الصادقة التى يؤتاها الرياضى الأصيل .. وكان نشيطا كدودا ، فى أعماقه تلك الموهبة الآمرة المسيطرة ، وتلك القدرة على الادارة والتنظيم . وكانت لديه – كانجليزى – تلك المثابرة التى تؤدى بأى عمل يشرع فيه الى خاتمة ناجحة .. كان لديه من قوة الارادة قدرما كان لديه من المكر والدهاء . ومن الاصرار والثبات ملثما كان له من نفاذ البصيرة وعمقها .. وقد ورث عن أبيه غرائز الجنس الفاتح المنتصر ، وهى – لذلك – مشابهة لغرائز الانجليز .. وورث عن والدته ، التى وثبت من بين الطبقات الوضيعة ، تلك المقدرة الخارقة على الاقتناء والتملك ، وذلك النشاط غير المحدود ، الذى لا يحفل بالمصاعب فى جريه وراء الربح .. النشاط الذى يعد من مميزات اليونانى العصرى فى مصر ! .. **ولكن كانت فى أعماقه أيضا نزعة خفية ، عريقة فى القدم ، نحو التعصب ، ورضاء غامض ، قاس ، غريب ، بالقضاء والقدر ، وتجرد من قيود الضمير – لعله كان خليقا بأن يثير أى انجليزى يقدر له أن يفهمه ! – وصبيانية عارضة كانت أقرب الى خلق المصريين منها الى خلق الأتراك المصريين .. ودهاء حاضر غريزى لم يأت من أية بلاد غير بلاد الشمس المشرقة !**

كان يصلى ، وكان شهوانيا ! وكان يصوم ، ويحب حياة الرغد والرفاهية ! كان يستطيع أن يسيطر على رغباته ، ثم يطوح بضبط النفس الى الرياح !.. ولكنه ، فى كل ما كان يفعله وما لم يكن يفعله ، كان يحتفظ بروح الرجل الذى يستطيع المثابرة فى نبذ الشىء أو الجد فى ملاحقته سواء بسواء ، وكان وجود هذه الروح لديه هو الذى جعل منه رجلا قويا !

اما انه كان رجلا قويا – لاتقتصر قوته على الناحية الجسدية فحسب ! – فذلك أمر سرعان ما تحققت مسز ارماين منه ..

وقد حدثها عن ابيه وأمه ، ولكنه لم يحدثها عن الجو الذى نشأ فيه .. اخبرها عن ثروة أبيه الطائلة ، واراضيه الواسعة ، وعن خططه هو ، وما درته عليه ، وما يحتمل أن تدر عليه فى المستقبل ، وعن بعض الصفقات الرائعة التى حققها ببيعه بعضا من قطع الأرض الزراعية التى كان يمتلكها فى ضواحى القاهرة — عندما بلغت فورة البناء الجنونية ذروتها — أثناء التضخم المالى الذى حدث فى سنة ١٩٠٦ . ولكنه لم يحدثها عن عامل مسيطر فى حياته ، تمثل فى كراهيته المتوارية العميقة للانجليز .. الكراهية التى نبتت فى نفسه عن طريق أبيه ، ثم نمت وترعرعت بفضل بعض الحوادث التى مرت به فى تجاربه الخاصة .. لا ولم يحدثها ، فى اسهاب ، عما أشار اليه تلميحا — فى ذلك المساء الذى اصطحبه فيه نيجل الى الفيللا — من أن بعض المصريين لم يكونوا يقتصرون على ارضاء غرورهم ونزواتهم فحسب ، وانما كانوا يعنون أيضا بارضاء كراهيتهم المستترة لأولئك الذين كانوا يسيطرون على بلادهم ، ومن ثم كانوا يحرصون على ان يوجهوا الى هؤلاء أبشع وأقسى ألوان الغدر ، كلما سنحت لهم الفرصة ! .. **لا ، ولم يخبرها بارودى بأنه مذ كان غلاما ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى لدى الانجليز ، كان — ككثير من أقرانه الفتيان الوجهاء ، أنصاف المتعلمين ، الذين امتازوا بالرزانة وبالجاذبية البدينة — يتيه زهوا بالانتصارات التى كان يحرزها فى جولاته بين النساء الغربيات اللائى كن يفدن على مصر زرافات لقضاء الشتاء فى القاهرة ، او على ضفاف النيل .. وكان يزيده تيها واختيالا أنه كان يرى فى كل انتصار يحرزه ، لطمة عنيفة يوجهها للرجل الغربى الذى كان يحسبه طفلا ، وغير أهل للحكم ، والذى كان يحكمه ليستغله ، وفى الوقت ذاته يزدريه ويحتقره فى صمت !**

ولعل بارودى خشى أن تحدس مسز ارماين تلك الحقيقة المريرة ـ فى طبعه ـ فتنفر منه ، بالرغم مما كانت تجده فيه من جاذبية قوية ، وبالرغم من تحررها من قيود الضمير ، وبالرغم من النظرة الساخرة ـ بل القاسية ـ التى كانت تنظر بها الى الرجل العادى . ومهما يكن من أمر ، فان بارودى أخلد الى الصمت ! .. وأوشكت هى ان تنسى الشبح الذى انبعث من الظلمات ومثل أمامها فى شرفات « فيللا اندرود » .. شبح حقيقة هذا الرجل !.. ولعله كان يقض راحة ضميرها لو أنها تذكرته ، ولكنه ما كان ليردها عن الانحدار الذى شرعت فيه .. فان حياتها الماضية أثلمت شعورها ، وخشنت طبيعتها . وما أكثر ما اتبعت الدوافع الخسيسة ، وما أكثر ما استسلمت للأهواء والنزوات ، بحيث لم تعد تحس بسعادة الانصياع للخير ، أو تسمح لأى اعتزاز بقوميتها ان يضع يدها فى يد الفضيلة !

وكانت تقول لنفسها ان عينى بارودى حين تحدثتا اليها ـ على ظهر الباخرة ـ انما فعلتا ذلك استجابة لنداء جمالها وفتنتها ، لا لأى شىء آخر . واى سبب عدا ذلك كان يحتمل أن يخطر ببال امرأة من هذا الطراز ؟.. ومع ذلك ، كانت تمر بها لحظات ينطلق خلالها الهامها النسوى بحثا عن سبب آخر ، ثم يقنع بعجزه عندما لا يجد !.. أما بارودى ، فلم يكن بحاجة الى البحث فى شخصها عن أسباب غير تلك التى كانت تبدو واضحة لعينيه .. ولقد ألف ـ مذ كان فى السادسة عشرة من عمره ـ ذلك التأثير الذى كان لثقته بنفسه وقوته البدنية الفائقة على النساء الغربيات !.. وهكذا ، مضى ابراهيم وحمزة يصطحبان هذه المرأة الغربية ـ فى كل صباح ـ الى المكان الذى يكون قد حدده لهما بارودى مقدما ، والذى كان يسبقهما اليه دائما . وكان بارودى يحب السرية والتكتم ، فلم يكن لمسز

ارماين ـ فى حاضرها ـ حاجة الى ان تخشى افتضاح سرهما .. لم يكن ثمة مايدعوها الى الخوف من شىء كهذا ، من ناحية بارودى !

على انه كانت ثمة عينان حاسدتان فى « الفيللا » .. عينان كانتا ترقبانها فى ذهابها ـ كل صباح ـ وتحييانها عند عودتها فى المساء بنظرات الفضول . ولقد عاشت مسز ارماين أعواما طويلة لم يخطر ببالها ـ خلالها ـ ان تحفل بتعرف رأى وصيفتها فيها . أما الآن ، فكان خليقا بها ان تحفل ، اذ ان الالتزامات تتوالى فى أعقاب الزواج !.. وما كانت مارى تدرى شيئا ، بل ولم يكن لديها ـ فى الواقع ـ أى سبب يدعوها للارتياب فى شىء ، ولكن درايتها بشخصية مخدومتها كانت كافية لأن تثير فى نفسها كل مايمكن ان ترتاب فيه فتاة فرنسية اكتسبت فى باريس خبرة ومعرفة !.. وبينما كانت مسز ارماين تؤمن بخبث ابراهيم وحمزة ـ وتطمئن الى وجوده ـ فانها لم تكن تظن اطلاقا ان مارى على شىء من الخبث .. ثم ان « اللولية » كانت قد اختفت تماما من الاقصر مع صاحبها . كذلك كان من الطبيعى ـ وقد بقيت مسز ارماين بمفردها لفترة قصيرة ـ ان تقضى وقتها ، كسائر السياح فى حوض النيل ، فى مشاهدة معالم البلدة وضواحيها .. وكانت تتناول الغداء فى الخارج كما كان يفعل كل امرىء تقريبا .. فلم يكن ثمة مايدعو مارى للشك والريبة !

ولكن ، لا ! كان هناك سبب كاف .. ذلك هو ماكانت عليه مسز ارماين من قبل ، وما اصبحت تفعله فى الوقت الحاضر . فالحقيقة غالبا ماتعلن عن نفسها ، دون ان يدرى أحد كيف يتسنى لها ذلك ! وكانت مسز ارماين تدرك ذلك فى المساء عندما ترى عينى وصيفتها ، فتتمنى لو أنها احضرت معها وصيفة انجليزية عاطلا عن الذكاء !

وفيما عدا ذلك ، كان ثمة ظل يستلقى عليها من الفيوم .. ظل زوجها !

* * *

• **بعد** ثمانية أيام من لقاء مسز ارماين بارودى بين الصخور ذات الألوان النارية ، صحبها ابراهيم وحمزة الى بساتين البرتقال التى كانت جنوبى الاقصر ، والتى تحدث بارودى عنها الى نيجل .. وكانت تقوم على ضفة النيل الغربية بين (الاقصر) و (ارمنت) ، وعلى مسافة كبيرة من أولاهما . ولكن المصادفة شاءت ان تكون الريح قوية نوعا ما ، وان تهب فى سرعة غير مألوفة من ناحية الشمال ، فنشر الملاحون أشرعة «الفلوكة» المثلثة العظيمة . وكانت المياه ذات الخضرة السمراء تتموج وتتهامس حول مقدمة القارب ، بينما كانت مآذن الاقصر تتراجع فى سرعة عن عينى مسز ارماين ، وكأنها كانت تفر منها وقد استبدت بها الرغبة فى الاختفاء بين أشجار النخيل ! واذ راح القارب يمعن فى انطلاقه ، ويخلف وراءه مرحلة بعد مرحلة ، بدأت مسز ارماين تعجب من امر هذه الرحلة .. وما لبثت ان سألت ابراهيم : « الى اين نحن ذاهبون ؟ » ، فأجاب فى رصانة : « الى مكان جديد .. الى مكان جميل جدا .. مكان لطيف جدا ! » .. فقالت فى شىء من الارتياب : «ينبغى ان لا نذهب بعيدا ، اذ يجب ألا أتأخر كثيرا فى العودة»

وكانت فى تلك اللحظة تفكر ـ حانقة ـ فى مارى ! ألا ليت مارى لم تكن موجودة فى فيللا ((اندرود)) !.. ولم تكن مسز ارماين تخشى شيئا من ناحية الخدم النوبيين ، فهم جميعا يتفانون فى الوفاء لها ، وقد بدأت تعتبرهم ((عبيدا)) لهـا ، لا لنيجل !.. أما تلك الفتاة الفرنسية الصغيرة ، الفظيعة ، الذكية ، فلا سبيل الى الثقة بها ! .. وكأنما قرأ ابراهيم أفكارها ،

اذ قال : « لقد قلت للآنسة الفرنسية اننا ذاهبان لمشاهدة معبد بين الجبال .. معبد رائع حقا ، كله ملىء بتماثيل رمسيس وقلت لها أننا قد نتأخر فى العودة ! » .. فحدقت مسز ارماين فى عينى الغلام الرقيقتين اللامعتين وقالت : « فليكن ! ومع ذلك فمن الواجب أن نعود فى موعد مناسب » .. وكانت نفسها تتأجج غيظا بسبب هذا الالتزام الصغير ، وهى التى ألفت الحرية الجديدة بعيدا عن نطاق التقاليد . وبغتة ، استقر عزمها على أمر : لسوف تتخلص من مارى ، فتعيدها الى أوروبا ! ترى كيف تدبر أمرها بغير وصيفة ؟ .. انها لا تستطيع أن تتصور ذلك ، ولكنها فى هذه اللحظة لم تبال ولا اكترثت .. **لسوف تتخلص من مارى و .. وتلاعبت الابتسامة على شفتيها فجأة ، فسألها ابراهيم : « لماذا تضحكين ؟ » .. فأجابته : « لأن الجو بديع .. وأنا سعيدة ! »**

ولكنها فى الواقع انما ابتسمت اذ طاف بخاطرها ذلك التبرير الذى ستقدمه الى نيجل : « لست أريد وصيفة هنا .. أريد ان أتعلم البساطة ، وان أتعلم كيف أخدم نفسى بنفسى ! ثم كيف يمكن لى ان آخذها الى الفيوم ؟ » .. ولسوف يطرب نيجل لذلك ، وتهتز أعطافه جذلا .. ولكن كيف تكون الاقامة فى الفيوم بغير وصيفة ؟ .. على أنها مالبثت ان نحت هذا الخاطر عن فكرها فى عزم قوى .. لسوف تعيش ليومها الراهن .. يومها هذا فوق صفحة النيل ! ومالت فوق حافة القارب ، وراحت ترسل النظر ناحية الجنوب ، عبر ذلك الفيض العظيم من المياه المتألقة تحت أشعة الشمس الذهبية . وفيما كانت ممعنة فى التحديق ، تحول القارب وأخذ يقترب من الشاطىء . وعلى قمة الضفة العالية السمراء ـ حيث كان ثمة رجال عراة سمر الأجسام ينحنون ويتغنون بجوار **الشادوف ـ رأت اذنى الحمار الطويلتين ، ثم ثوبا أبيض**

مستقيما ، ثم خيالا كخيال تمثال من البرونز ، ثم عصا منتصبة كأنها الرمح المشرع نحو الشمس !

كان حمزة فى انتظارها .. كان ينتظرها وكأنه قضاء محتوم !

الفصل التاسع عشر

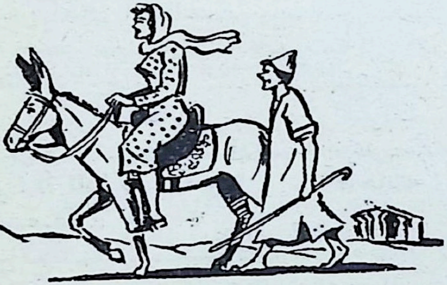

◆ سار ركب مسز ارماين فى بطء محاذيا لضفة النهر ، فلم يحول حمزة راس الحمار نحو جبال ليبيا . وبدت مقابر طيبة وهياكلها بعيدة غاية البعد ، فتساءلت المرأة فى نفسها : الى أين كانت تقاد وتؤخذ ؟ ولكنها لم تسأل أحدا .. كانت تستمتع بهذا الاحساس الجديد ، اذ تجد نفسها محكومة من بعيد ! وذكرت الجهد الذى بذله خيالها عندما حبست نفسها فى ظلام «اللولية» العطرى ، وخالت نفسها جارية ، مثلما كانت الزوجات الشرقيات جوارى من الرقيق !.. ونظرت الى ابراهيم وحمزة فسرح خاطرها الى أولئك «الأغوات» الذين كانوا غالبا ما يصاحبون نساء الطبقة الرفيعة من الشرقيات عندما يخرجن محجبات الى العالم الخارجى ، وعندئذ لمست خمارها الهفاف وابتسمت، تماما كما كانت تداعب خواطرها الشريدة .. لقد كانت هذه الحياة المصرية حريفة لاذعة ، لفرط ما بها من توابل التجديد !

ورأت أمامها ، على مسافة قريبة ، سياجا عظيما أخضر ـ من الأشجار الممتدة من ضفة النهر الى الداخل ـ مستوى الحدود ، غير متعرج الاطراف .. سياجا رسمته يد الانسان فلم تترك للطبيعة عملا فيه ! ولم تكن الاشجار ذات فروع طويلة كالنخيل ، ومن ثم أخذت مسز ارماين تنظر اليها فى امعان ، فما

لبثت أن عرفتها ٠٠ وعندئذ قالت لابراهيم : « هذه بساتين البرتقال التى يمتلكها محمود بارودى ! » ٠٠ وكان جوابه : « بالتأكيد ! » ، واخذ يتطلع نحو الاشجار ٠ وما لبث أن أردف بعد لحظة : « انها رائعة الجمال حقا ! » ٠٠ ثم تحول يخاطب حمزة فى سرعة ، بالعربية ، فراح حمزة يجيبه فى طلاقة غريبة ٠٠ كان عندما يتحدث الى قومه يبدو وكأنه انقلب مخلوقا آخر ٠٠كان جموده القاسى ، الشبيه بجمود التمثال ، يذوب ويتلاشى ، وكان وجهه يضىء بالتعبير ، وكانت تتدفق منه حياة متنوعة الاشكال ، كما تتدفق المياه عندما تطلق فى مجراها فجأة ! أما اذا ما خاطبته مسز ارماين ، فقد كان يستعيد جموده وهدوءه سريعا ، ويقتصر فى الاجابة على : « نعم » ، ثم تغدو عيناه الشبيهتان بثمرتى اللوز ، كالحجب الكثيفة لا يمكن اختراقها أو استشفاف ما وراءها !

وفيما كانت مسز ارماين تسمعهما يتحدثان ، أخذت تسائل نفسها : «ماهى حقيقتهما ؟ » ٠٠ ولم يكن بوسعها ان تجيب عن هذا السؤال ، ولكنها كانت تستطيع أن تشم ـ على الاقل ـ فى هذا الجو ، رائحة التوابل ٠٠ عبيرا يفتح الشهية !٠٠ ولقد كانت يوما ، وربما عادت ثانية ، امرأة طائشة لا تقدر عواقب الامور ! الا انها كانت تحب تلك النكهة ، لانها كانت تجعلها تشعر ـ رغم التجارب العديدة التى مرت بها ـ وكانها قد ظلت دواما فى عزلة ، تجرى حياتها على وتيرة واحدة ٠٠ كما لو انها كانت قد عرفت من الحياة أقل كثيرا مما كانت تظن حتى الآن انها تعرفه !

وبلغوا طرف بساتين البرتقال ، ثم مروا بينها وبين النيل ، وما لبثوا أن انتهوا الى طريق عريض غير مرصوف يؤدى الى اليمين ، فراحوا يسيرون فيه حتى وصلوا الى منزل صغير يقع فى قلب البستان ، تضمه وحدة عذبة وهدوء رقيق ٠٠ وكانت تمتد منه ـ الى جميع النواحى المحيطة به ـ صفوف بالغة الانتظام من الاشجار الصغيرة الظليلة المحملة بالثمار٠٠أشجار غير باسقة الطول، ذات سيقان نحيلة واغصان متشعبة وأوراق لامعة ، انتشرت بينها الثمار ككرات صغيرة ، بعضها اخضر اللون ، وبعضها فى الطريق الى ذلك اللون الذهبى ، وقليل منها قد غدا ذهبى اللون بالفعل ٠٠ وكانت تتدلى فى مجموعات تبدو كأنها مجموعات من الثمار الصناعية ، اذ كانت بهية المنظر الى حد عجيب ٠ وكأنما كان النسيم الذى ملأ قلوع الفلوكة قد فقد الحياة ، أو لعله كان ملكا خالصا للنهر فقط ٠٠ فقد كان الركود يسود الجو فى هذه البقعة ٠ وفى هذا السكون الدافىء ، كانت الثمار تنضج لتأتى بالذهب الى جيوب بارودى !٠٠ وكانت الارض المتغضنة تحت الاشجار ذات لون سنجابى داكن فى الظل ، بينما كانت فاقعة اللون تمتزج فيها السمرة الباهتة بالصفرة

الترابية حيثما تقع عليها اشعة الشمس

وترجلت مسز ارماين امام المنزل ، الذى كان مطليا بلون وردى خفيف ، يكاد اللون الابيض ان ينبثق من خلاله ٠٠ وكان ذا طابق واحد ، وفى واجهته باب من خشب النخيل يؤدى اليه سلمان منخفضان ينحدران ذات اليمين وذات اليسار من شرفة صغيرة ٠ وكان بارودى قد ظهر عند الباب ، مرتديا حلةمن الفانلا ، وعلى راسه الطربوش ، وفى يده مروحة كبيرة من سعف النخيل ٠ وابتعد حمزة بالحمار ، متجها به الى خلف المنزل ، وفى أثره ابراهيم ٠٠ اما مسز ارماين فقد مضت تصعد الدرج فى بطء ، حتى لحقت ببارودى فوق الشرفة ٠ ولم ينبس بكلمة ، فوقفت الى جواره فى صمت ـ لحظة من الزمن ـ وهى تتأمل بساتين البرتقال : كانت الدنيا تبدو كأنما غرست جميعها بالاشجار الصغيرة الجميلة ، التى كادت ان تكون ـ بين فصيلتها ـ غادات مدللة ، مزوقة ، حظيت بخير تنشئة وتربية ! وقد بعث نظامها ومظهر العناية البادى عليها ـ والذى كان شديد الروعة حقا ـ رجفة من النشوة فى ناحية ما من أعماق مسز ارماين !٠٠ كانت تلك الاشجار تبدو وكأنها عنيت بهندامها واتقنت زينتها ٠٠ وكذلك كانت مسز بارودى ، منذ اليوم الذى التقت فيه ببارودى بين الجبال ـ أول مرة ـ فقد عادت الى عنايتها بطلاء وجهها ، اذ خشيت أن تكون مارى مخطئة فى رايها عن جمالها ، ولو ان بارودى لم يكن فرنسيا ٠ وكانت مسز ارماين فى ذلك اليوم شديدة الابتهاج ، لانها لم تثق فى الطبيعة ثقة كاملة ٠٠ ففى وسط أشجار البرتقال هذه ، كانت تشعربأنها ليست غريبة ولا متطفلة !

وعندئذ ، رفعت خمارها وخاطبت بارودى قائلة : « ماذا تسمى هذا المكان ؟ ٠٠ هل له اسم معين ؟ » ٠ فأجاب : « هذه فيلا « ليلة الذهب » ! وانى أستعمل كلمة « فيلا » بمعناها الايطالى » ٠٠ فقالت : « نعم ، بلا شك ٠٠ ليلة الذهب ! ولكن لماذا تستعمل كلمة : ليلة ؟ » ٠ فأجاب : « لان الاشجار تضفى نوعا من الظلمة حول المنزل » ٠٠ وهنا قالت معقبة : « اما لقب : الذهب ، فانى أفهم معناه ! » ٠٠ فقال معلقا : « أجل ٠٠ انك تفهمين معنى الذهب ! » ٠٠ وحملق فى وجهها وهو يستطرد مبتسما : « انك تفهمينه ، كما أفهمه انا الآخر ، ولكن ٠٠ ربما بطريقة مختلفة ! » ٠٠ فقالت : « أحسبنا نفهم معظم الاشياء وان اختلفت طريقتانا ! »

وكانا يتكلمان بالفرنسية ـ اذ أصبحا يتكلمان دائما بالفرنسية كلما كانا معا ـ وكانت مسز ارماين تفضل ذلك ٠ فقد كانت ، على نحو ما ، لا تبالى كثيرا بهذا الرجل « مترجما » الى الانجليزية !٠٠ وكانت تود لو استطاعت التفاهم معه بالعربية ، ولكنها كانت أكسل من ان تحاول تعلمها ٠ وما لبثت

ان أضافت : « الا ترى ذلك ؟ » . فأجاب بهدوء : « اظن ان طريقتى فى فهمك خير من طريقة مستر ارماين ! » . ثم أشعل سيجارة وأردف يقول : « اما طريقتك فى فهمى ، فلست أعرفها ! » ، فقالت : « وهل انا افهمك على الاطلاق ؟.. هل تود منى ان أفهمك ؟ »

وخالت فجأة انها تواجه صخرة صلبة ، فانتابها شعور حاد من الانفعال والاستفزاز ، تلاه شعور آخر اشد رزانة وأكثر عزما وتصميما .. فما زال أمامها اليوم بطوله ، كما انها كانت فى عزلة مع هذا الرجل .. كانت قد ظلت اعواما برمتها تتخذ من فهم الرجال شغلها الشاغل ، اذ ما قيمة الجمال اذا لم تكن فى خدمته وصيفات من العقل والحكمة ؟! .. ولقد استطاعت بفهمها الرجال أن تكسب ثروات طائلة ، بددتها كلها .. كذلك استطاعت – بفهمها الرجال – أن تضمن لنفسها زوجا ، عندما ألمت بحياتها لحظة حرجة ! .. لذلك كان من السخف ان يأتى رجل ، هو على الاقل اشبه بطفل غرير – وهنا تذكرت الساعات الصداحة والكرة المذهبة الراقصة – فيغرر بها ويراوغها ! .. ولو انها استعانت بقواها فلا بد انها قادرة على ان تقلبه باطنا ظاهرا كما تقلب واحدا من قفازاتها ! ولسوف تفعل ذلك اليوم ! .. ومن ثم فانها أشاحت عنه – قبل ان يجيب على سؤالها – واستطردت تقول : « منذا الذى يهتم بمثل هذه الاشياء على ضفاف النيل ؟ » .. وضحكت وهى تردف قائلة: « وعلى الاقل ، من من النساء الغربيات يمكن ان تهتم به ؟ .. اننى شخصيا لا أبالى ، فقد ثملت من شمسكم بما يكفينى ! » .. ثم رمقته بنظرة ، واستتلت تسأله : « هل سنتخذ مجلسنا فى الداخل أم فى الخارج ؟ فى المنزل أم فى بساتين البرتقال ؟ » . فقال : « ايهما تشائين ! »

ولكنه تحول متجها الى الخارج ، فتبعته . وفيما كانا يهبطان الدرج ، بلغ مسامعهما صوت رجل من العاكفين على الشادوف ، قادما من مكان بعيد على النيل ، ليذكر المرأة بالنهر العظيم – الذى كان يبدو انه سوف يفيض الى الابد فى حياتها بمصر – ويذكرها بضيق رقعة الوجه القبلى ، ذلك الممشى الضيق بين جبال ليبيا وصحراء العرب . ووقفت ساكنة فى أسفل الدرج تنصت الى الغناء . وكانت هناك فترة من الصمت ، ارتفع على اثرها ذلك الصوت القوى من جديد ، قادما اليهما عنيفا ، خلال الممرات المنسقة بين الاشجار الصغيرة الجميلة . وتذكرت ان المرة الاولى التى رات فيها الرجل الذى طلقت بسببه ، كانت فى دار الاوبرا بلندن .. وان المسرحية التى كانت تمثل فى تلك الليلة – التى كتبها القدر لها – هى أوبرا « عايدة » ، بأنغامها الشرقية ، ومناظرها على ضفاف النيل . وخيل اليها لحظة ان ذلك المصرى المتوارى عن انظارها – والذى كان يدير الشادوف – كان يهتف بهما من مسرح لم تكن هذه الحديقة من البرتقال الا منظرا من مناظره الزخرفية

الرائعة (الديكور) !٠٠ ولكن الخيال كان أتم وأوفى من أن يستطيع المسرح تصويره ٠٠ فقد انبثقت فيه الواقعية بلمساتها الغليظة الهائلة التى لايمكن دحضها أو تكذيبها ، حتى أحست بأنها كانت تمضى فى شىء كانت تحقيقه غرابة ذلك العجب المجرد ، الذى يخالطه الفزع أحيانا ٠٠ بل لعلها كانت غرابة أشد مما يمكن أن يوجد فى أعظم الفنون اتقانا !

ومع ذلك فانها كانت تمشى فى « فيلا ليلة الذهب » ، وهو اسم من الواضح أن « الطفل » صاحب الكرة المذهبة هو الذى أطلقه على ذلك الجزء من ممتلكاته ٠٠ اسم يمكن ان يتخذ له مكانا على أشد المسارح اغراقا فى التمثيل !٠٠ كانت تدرك ذلك ، وتحس به ، وتسخر منه ، ومع ذلك فان عقلها كان يحتضن الاسم ويحتضن تلك الحاسة الكامنة فى بارودى ، والتى بحثت عن هذا الاسم وانتقته !٠٠ وقالت أخيرا : « ما أكثر هذه المئات من أشجار البرتقال ! لسوف نضل بينها ! » ٠٠ وكان المنزل الصغير قد اختفى عن الانظار بين الاشجار ٠٠ فما لبثت ان أضافت : « الى أين نحن ذاهبان ؟ » ٠ وكان جوابه : « اصبرى لحظة ، فسوف ترين ! »

★ ★ ★

◆ ومضى يسير فى بطء بمشيته السهلة الثابتة ، التى كانت فى خفتها تنبىء عن قوة أحسن تدريبها ٠٠ ثم قال : « والآن ، الى اليمين ! » ٠ وكان يسير الى يسارها ، فأطاعت اشارته ٠ واذ استدارت فى اتجاه النيل ، رأت أمامها « تكعيبة » مرتفعة من الغاب (البوص) ، يحيط بها سياج من نبات الجيرانيوم البرى ٠٠ وكانت فتحة التكعيبة فى اتجاه النيل ، فلما ولجتها لمحت بعيدا عنها ـ فى نهاية ممر بين أشجار البرتقال ـ ضفة النهر المتعرجة ، غير المستوية ٠٠ وكانت الارض الممتدة تحت بصرها متغضنة ، بينما كان خط الشاطىء يميل وينخفض ٠ وعلى الرغم من انها لم تكن ترى المياه ، فان القلوع المثلثة العالية للمراكب الوطنية المتجهة صوب الجنوب كانت ـ فى أشعة الشمس ـ تتراءى لها على نحو غريب ، خلف الثغرات التى كانت تتخلل أوراق الشجر !

ونهض هدهد من مجثمه ، عند اقترابها ، فانطلق طائرا فوق الاشجار ، بينما كانت احدى القنابر « تصوصو » فى مكان ما ٠ وعلى أرض التكعيبة ، فرشت سجادة صلاة ثمينة ، كما كان ثمة مقعد منخفض أعد خصيصا لها ، وأمامه وسادة لتضع قدميها عليها ٠ واستقرت على منضدة أقداح القهوة التركية ٠٠ كما كانت على المنضدة علب من الفضة للسجاير والثقاب وبعض الحلوى اللينة المغطاة بمسحوق السكر ـ وقد بدت ٠٠ [illegible] ألوانها الوردية

والعنبرية والخضراء الزمردية – (الملبن) ٠ وكان على حافة المنضدة ، تجاه المكان الذى وضع فيه المقعد ، صندوق جميل من الفضة المذهبة ، ذو غطاء كان عبارة عن مرآة ، فتناولته للتو قائلة : « ما الذى يوجد بداخل هذا ؟ » ٠٠ ففتح بارودى غطاء الصندوق ، وأراها فى رصانة ناثرة للبودرة ،وبعض المساحيق ، والكحل – مع أداة صغيرة من العاج .تستعمل فى مصر لوضعه (مرود) – ثم زجاجة من ماء الورد ، وعجينة من الحناء ، وأخرى من سناج المصابيح (الهباب) ممزوجا بالزيت والجير الحى ، وغير ذلك من المستحضرات التى تستعمل فى الشرق عامة لزينة النساء ٠٠ فراحت تفحصها بدقة وامعان، ثم تطلعت اليه وهى تبتسم ، ذاكرة احتجاج نيجل الرقيق الحار !٠٠ نعم ، انها تستطيع أن تكون على سجيتها الى حد غريب مع بارودى ، ولكن عليها الآن ان تقلب هذا القفاز الطويل بطنا لظهر !

واتخذت مجلسها على المقعد ، ووضعت قدمها على الوسادة ٠ وكان بارودى قد تربع على السجادة ٠٠ ومن الطبيعى ان شكله بدا سخيفا – بل مضحكا – وهو يتخذ هذه الجلسة وقد ارتدى تلك الثياب الأوربية ! وجال هذا بخاطرها وهى تتفرس فيه من عل ، وقد أدركت انه كان فى الوضع الصحيح تماما ، شاعرا بالراحة والارتياح ٠٠ بل كان – على نحو ما – رشيقا فى جلسته ٠ واذ أدركت ذلك ، أحست بالسر الغامض فى كيانه الشرقى ، كما كانت فى بعض الأحيان تحس بالسر الغامض فى عقليته !٠٠ وقال أخيرا : « هل لك فى تناول القهوة بعد عناء الركوب طوال هذه المدة ؟ » ٠٠ فقالت : « أجل ، ولكن لا تنهض من مكانك ، فسأصبها بنفسى وأقدم لك قدحك » ٠٠ وقد فعلت ذلك بتلك الابتسامة الرشيقة التى أثرت فى نيجل ، بل وأثرت فى ماير ايزاكسون ٠٠ ثم رفعت خمارها ، وتناولت الصندوق المذهب فتطلعت الى صورتها فى

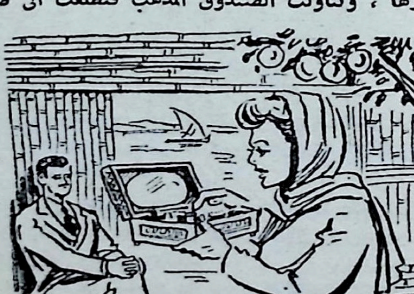

المرآة فى امعان وتفحص ، وأخذت ناثرة البودرة وراحت تستعملها فى حذق وبراعة .. فلما ارتاحت الى هيئتها ، وضعت الصندوق جانبا ، ثم قالت وهى تلمسه فى موضعه بجوار قدحها : « انه بديع » ، فقال : « هو لك ! » . واذ ذاك قالت : « اذن فسوف آخذه معى هذا المساء » .. وكانت تتمنى ان تكون فى مكان ما بجوفه ، ماسة كبيرة ، أو زمردة عظيمة .. فقد اضطرت الى بيع معظم حليها الثمينة عندما حلت بها الأيام السوداء فى انجلترا !

وقالت : « لا بد لى من سيجارة » .. وكانت كل من القهوة والسيجارة لذيذة ممتعة . وكان دفء الجو يحيط ببدنها كغلالة من الحرير الناعم المصقول . وبلغ سمعها صوت خافت لين ، واذا ببرتقالة قد سقطت من أحد الفروع وسط زهور الجيرانيوم القرمزية المتكاثفة . وما لبثت المرأة ان قالت لبارودى : « لم لا تتكلم ؟ » .. ولكنها قالت ذلك فى تراخ وقلة اكتراث . ترى هل كان غرضها قد بدأ يفتر فى هذا الصباح الذى خلق للاستمتاع بالأحلام ، فى هذه العزلة المترفة ، مع الرجل الصامت الذى لم يكف عن ان يرقبها فى امعان ؟!.. وما لبث ان أجاب عن سؤالها : « ولماذا ينبغى ان أتحدث اليك ؟ اننى لست كأولئك الذين يثيرون الضجيج دواما ، سواء أكانت فى سرائرهم كلمات تقال أم لم تكن ! ثم ما الذى تريدين ان أقوله لك ؟ »

وشرعت تقول : « حسنا .. » ، ثم امسكت ، وتناولت المروحة المصنوعة من سعف النخيل ، والتى كان قد وضعها على المنضدة . وأردفت : «دعنى أفكر !» .. ترى كيف تنفذ اليه ؟ وما الطريقة المثلى ؟.. انها — لأمر ما — لم تكن تشعر بميل الى التخابث معه .. فكما انها أصلحت زينة وجهها أمامه ، كذلك كان فى وسعها ان تضع الكحل فى أجفانها ، كما كان فى وسعها ان تكون صريحة فى الحديث معه !.. يا لها من راحة ، بل يا لها من لذة حسية ، ان تفعل ذلك !.. ولقد حققتها فجأة ، وعلى أتم وجه ، اذ قالت : « من أى نوع أنت ؟ اننى أود ان أعرف » . وأخذت تحرك المروحة فى رفق أو فى تراخ بالغ ، أماما وخلفا .. بينما أجاب هو : « ولكن فى وسعك أنت ان تخبرينى ، لأنك تريننى طول الوقت .. أما أنا فلا أستطيع ان أرى نفسى ، الا اذا نظرت فى المرآة ! » .. فقالت : « اننى لا أعنى ظاهرك يا بارودى ، بل باطنك » .. وبدت كما لو كانت تخاطب طفلا غريرا !

— ان الرجل الذى يطلع امرأة على كل ما فيه لا يكون ذكيا !

— ولكن الأذكياء غالبا ما يفعلون ذلك ، دون ان يدركوا انهم يفعلونه

— انك تفكرين فى رجالك الانجليز !

قال ذلك دون ان يبدو ساخرا هازئا .. فذكرت أول حديث تبادلاه منفردين، فابتسمت وغمغمت : « الرجال الرفيعو المقام .. الحكام ! » . ولم يجب على

ابتسامتها ، بل استطرد يقول : « ان رجالك الانجليز يظهرون ما هم عليه دون ان يعنوا باخفاء شيء ·· فاذا حدث ولم يرق لأحد ما هم عليه ، فذنبه على جنبه !·· ان جزاءه ركلة بالقدم ، ولن ينال قرشا واحدا ! وهم مع النساء بالمثل ، كلا ·· ليس هذا بصحيح » · واستطرد كأنما يراجع نفسه : « انهم مع الرجال ، رجال مستعدون للركل ·· ولكنهم مع النساء مجرد غلمان ! والمرأة تمسك بالغلام من أذنه » ·· ومد يده اليسرى فوق راسه حتى امسك باذنه اليمنى من أعلاها ، واستطرد : « هكذا ! ثم تقوده الى حيث تشاء · وهكذا تقود المرأة الرجل الانجليزى ! ولكننا لسنا كذلك ! »

وكانت تحدق فى يده السمراء وهى تمسك باذنه ·· وبدا لها هذا العمل منه شاذا خارقا للمألوف · لا مراء فى انه كان فى كل شيء على نقيض ما اعتادته وما ألفته !·· ورفع يده عن اذنه ، بينما كانت تساله : « كم مرة رحلت فيها عن مصر ؟ » ·· فأجاب : « انها ليست كثيرة ·· ذهبت ثلاث مرات الى (نابولى) عند اشتداد الحر ، اذ كان والدى يقتنى فيللا فى (بوزيليبو) ·· وذهبت مع والدى الى (فيشى) ، كما اننى ذهبت أربع مرات الى (باريس) · كذلك ذهبت الى القسطنطينية ، وقمت برحلات الى سوريا »··فسالته : «وهل ذهبت الى فلسطين ؟ » ·· فأجاب : «الى القدس؟·· لا ، فنحن لا نحج اليها » ·· وكان يتكلم فى تحفظ · وما لبث ان أضاف فى نوع من الزهو الهادىء ، وفى كثير من الاعتزاز والفخار : « ولقد ذهبت الى مكة ·· طبعا ! »

فطاف بفكرها هذا الخاطر : « هل تظهر حقيقة الرجل خلال الدين الذى يعتنقه ؟ » ·· ومن جديد شعرت – هى دون النساء جميعا ! الا ما أعجب ذلك ! – بما فى دينه من سحر ·· وقالت متعجبة : « الى مكة ؟ » ·· لقدكان الرجال يجتازون الكثير من الصحارى حتى يصلوا الى الأماكن المقدسة ، فقد حدثها نيجل – ذات مساء – بشيء عن هذه الرحلة ، وكانت تشعر بالسأم والضجر من حديثه · أما الآن ، وهى تنظر الى واحد من الحجاج ، ذهب مع « الكسوة الشريفة » ، فانها لم تعد تشعر بشيء من هذا الضجر ·· بل استطردت تساله فيما بدا انه خروج عن الموضوع ، وان لم يكن فى الواقع خروجا حقيقيا : « وحمزة ؟ هل هو خادمك ؟ » ·· فأجاب : « انه مكارى من أبناء الاقصر ! »

– نعم ·· ولكنى لم أكن استخدم حماره من قبل · انه لم يتول قيادة حمارى الا منذ ·· منذ ان رحل زوجى · وهم يقولون فى الاقصر انه من الدراويش حقا !

– انهم فى الاقصر يقولون اشياء كثيرة

– وهم يسمونه المكارى المصلى · هل ذهب ، هو ايضا ، الى مكة ؟

فتغير وجهه قليلا • وضاقت عيناه ، واقترب طرفا حاجبيه •• ولكنه بعد لحظة قصيرة من الصمت اجابها قائلا : « لقد ذهب الى مكة ، معى •• على نفقتى ! » •• ولم تكن تعرف الكثير عن المسلمين ، ولكنها كانت تعرف ما يكفى لكى تدرك ان حمزة لم يكن خليقا بأن ينسى هذه المكرمة • ولقد اختار بارودى حمزة ليكون مكاريا لها •• واذ ذاك شعرت كما لو ان يدى الاسلام استقرتا عليها !•• وقالت فى بطء : « لا بد وان يكون حمزة حافظا لصنيعك هذا ! » •• ولكن بارودى لم يجب قط •• فحولت انظارها فوق زهور الجيرانيوم البرية – على امتداد الدرب الذى كان يتخلل الأشجار – نحو الثغرة المفضية الى ضفة النهر ، فرأت شراعا مثلثا ينزلق جانبا ثم يختفى وراء الأشجار ، متجها الى الجنوب •• وفى لحظة ، تلاه ثان وثالث ثم رابع •• وكان الرابع برتقالى اللون، فظلت تتبعه ببصرها هنيهة ، من وراء أوراق اشجار البرتقال •• ألا ما أكثر المراكب المتجهة نحو الجنوب !•• وقالت : « ان المراكب كلها تتجه نحو الجنوب اليوم ! » •• فاجاب فى غير اهتمام : « لان النسيم يهب من الشمال »

– كم أود ان أذهب فى النيل جنوبا ••

– اذا ذهبت فلا بد لك من ان تستقلى دهبية !

– مثل « اللولية » ؟•• ولكنى واثقة من ان « اللولية » لا مثيل لها على النيل !

– هل تظنين انك قد تحبين ان تعيشى بعض الوقت على ظهر « اللولية » ؟

فاومات برأسها دون ان تتكلم • وتوالى المزيد من الأشرعة المثلثة ، كانها الأجنحة • وكان تاثيرها عجيبا ، وهى تراها بهذا الشكل من مبعدة ، دون ان تتبين الأجسام التى كانت مثبتة فيها •• لقد كانت تبدو غامضة ، وكانت مسز ارماين شاعرة بغموضها • انها مع بارودى تشعر بالغرابة ، والغموض ، والخيال •• وهى اشياء اما انها كانت جاهلة لها – عادة – واما انها كانت تسخر منها صراحة خلال سنوات عديدة من حياتها •• فهل كانت تشعر بها لأنه كان يشعر بها بالمثل ؟!•• كان لا بد لهذا السؤال ان يظل بلا جواب ، حتى تعرف المزيد مما كان يشعر به !•• وقال أخيرا : « قد يكون الامر كذلك •• ربما عشت بعض الوقت على ظهر اللولية ! » •• فتساءلت : « وكيف استطيع ذلك ؟ ومتى ؟ »

– اننا نفعل فى حياتنا كثيرا من الأشياء التى اعتدنا ان نقول لأنفسنا اننا لن نفعلها قط •• ونحن غالبا ما نفعلها فى نفس الأوقات التى كنا نظنها مستحيلة الوقوع !

فقالت : « ولكنك ترسم الخطط مقدما » •• فتساءل : «او افعل هذا حقا ؟» •• فاجابت : « نعم ! فهل رسمت خطة بشأن اللولية ؟ » •• وكانت تشعر

اذ ذاك بانه قد فعل .. بل كانت تشعر بانها حبيسة هذه الخطة ، كالفراشة فى شبكة الصائد !

ومر شراع برتقالى آخر . ترى هل يقدر لها يوما ان تبحر الى الجنوب على ظهر « اللولية » ؟.. وقال بارودى : « هلا ذقت هذا الملبن المصنوع من اوراق الورد ؟ » .. ودون ان يمس الأرض بيديه ، استوى قائما ووقف بجوار المنضدة .. فقالت : « بلى .. اعطنى قليلا منه .. قليلا فقط ! » .. فاخرج من احد جيوبه مطواة صغيرة من الفضة ، ثم دفعها برفق واحكام دقيق ، فى الحلوى ذات اللون الوردى ، واقتطع منها جزءا أمسكه بين أصابعه السمراء، ثم قدمه لمسز ارماين التى كانت ترقبه فى انتباه عميق .. ذلك الانتباه الذى توليه المرأة ـ فقط ـ لجميع الافعال التى ياتيها رجل يهتف جسمه بدعوةحارة لجسمها !.. وأخذت قطعة « الملبن » فوضعتها فى فمها

وفيما كانت تلوكها اغمضت عينيها . وما عتمت ان قالت : « والآن خبرنى: هل دبرت خطة ما بشان اللولية ؟ » .. وكان وجهه ، وهو يتطلع اليها ، ينم عن اعراض عن الاجابة على سؤالها ، ولكنه كذلك لم يكن ينم عن انكار لما تسال عنه . وقال : « عش يومك ، ولا تفكر فى غدك ! » .. فقالت : « هذه فلسفتى فى الحياة ايضا .. ولكن متى تفكر فى الغد اذن ؟ »

وعادت ـ من جديد ـ تفكر فى حمزة ، فخيل اليها انها ترى هذين الاثنين: بارودى وحمزة ، يرحلان معا للحج الأكبر ، ويعودان منه ـ ولعلهما عادا أشد ايمانا أو أكثر تعصبا ـ ليخطوا فى حياتها !.. واستطردت تقول : « أتعلم ان أحدكما ـ أنت او مصر ـ له .. له .. » . ولم تتم عبارتها ، فقال فى غير اكتراث ظاهر : « ماذا ؟ » .. فكان جوابها : « له فى نفسى تاثير عجيب غير مفهوم ! » .. وضحكت فى تكلف ، ثم عبست وتنهدت ، بينما كان يرقبها فى امعان . وفى تلك اللحظة كان ثمة شىء يناضل فى اعماقها ، فى قوة ، كمخلوق ضئيل قلق يكافح فى عنف ، على دقة حجمه ، فى سبيل الخلاص من فخ وقع فيه !.. وخيل اليها ان اقحام حمزة فى حياتها بيد بارودى هو الذى كان يكربها ويضايقها فى دخيلة نفسها . ومضت تقول : « اننى أعيش ليومى دائما . وهناك فى الانجليزية مثل يقول : كل ، واشرب ، وامرح ، لأننا فى الغد ... » . فتساءل فى لهفة : « فى الغد ؟ » .. فاتمت المثل قائلة : « فى الغد سوف نموت ! » .. وهنا سالها : « وهل يفزعك الموت ؟ » . وكان فى صوته ازدراء صريح ، فسألته : « أولا يفزعك أنت ؟ »

واذ ذاك تالقت عيناه بضياء لم تره فيهما قط من قبل..فان مثل هذا الضياء لا ينبثق أحيانا الا من مشاعل الايمان بالقضاء والقدر فحسب ، فيكشف عن حافة النفس البشرية .. ولكنه خبا قبل ان يتسع لها الوقت لتتامله . وقال

بارودى : « ربما تحدثت فى مثل هذه الامور مع الرجال ، وليس مع النساء ! هل تحبين أوراق الورد ؟ » ٠٠ وامسك بمطواته مستعدا فوق الحلوى ، فقالت : « لا ، لا أريد شيئا منها ٠٠ انها لم تعجبنى كثيرا ، فان طعمها يثير نفسى ٠ هل لك ان تجلس يا بارودى ! »

وأومات بيدها نحو الأرض ، فاطاعها وجلس القرفصاء ٠ كانت قد عقدت عزمها على ان تنفذ الى نفس هذا الرجل ، وها هى ذى قد نفذت بمحض المصادفة الى شىء فى نفسه ٠٠ فقد كان من الواضح انه من طراز أولئك المسلمين الذين يعيشون وهم على استعداد للاندفاع فوق الفولاذ البارد فى سبيل الوصول الى جنة مليئة بمباهج الجسد !

وكان خمولها واستغراقها فى الخيال فى هذا الصمت الصارخ لهذه الحديقة من البرتقال على حافة النيل ٠٠ كان خمولها واستغراقها فى الخيال قد شرعا يفارقانها ٠ وعاد العاكف على الشادوف يرفع عقيرته بالغناء من جديد ٠٠ ومن جديد عادت تذكر ليلة من ليالى شبابها ٠٠ عادت تذكر أوبرا « عايدة » وتمرد طبيعتها ٠ لقد عوقبت على هذا التمرد ، ولكنها لم تؤمن باله مهمته التهذيب والتعليم ، وانما آمنت بدنيا تعرف كيف تصب الاحتقار !٠٠ ترى هل يمكن ان يحل بها العقاب مرة ثانية ؟٠٠ لقد كان من الغريب انها ظلت سنين برمتها تتحدى الرأى العام، ولكنها منذ ان تزوجت ثانية بدات تتجه خفية من جديد ـ وهى لا تكاد تشعر بذلك ـ نحو الرغبة فى استرضائه !٠٠ وربما كانت تلك عادة غريزية جبارة عاودت من جديد عملها فى نفسها ٠ ولقد احست اليوم ـ وهى فى اواسط حياتها ـ بشىء مما كانت تحس به فى ذلك الحين ، وهى فى أوج شبابها ٠٠ فعندما التقت للمرة الاولى ـ فى دار الأوبرا ـ بذلك الرجل الذى دمرت حياتها من أجله فيما بعد ، كانت جاذبيته الضارية قد هوت عليها كلطمة قوية وجهتها يد شديدة العزم ٠٠ ولم تفقدها هذه اللطمة الوعى الى حد التبلد، وانما اهاجت مشاعرها نحو حياة محمومة ! وها هى ذى ـ بعد هذه الأعوام ـ قد تلقت لطمة أخرى ٠ ومن جديد ، عادت الحياة المحمومة تتواثب فى أعماقها ٠ ولكن ما أكثر ما مر بها بين اللطمتين من تجارب واسعة ، وما أكثر ما ضيعته من حسن ظن الدنيا بها !٠٠ وفى هذا الصمت العميق الذى كان يخيم على حدائق البرتقال ، راحت تسمع همس النذير لها !٠٠ وكانت تتوق الى ان يعاود الفلاح صياحه حتى يطغى صوته على ذلك الهمس المروع ، ولكنه حين انبعث ثانية ـ بعيدا وعاليا ، من الممر الممتد بين الأشجار ـ بدا لها شبيها بصوت ذلك النذير ، وقد ارتفع فجاة يهددها ويحذرها ٠٠ وخيل اليها كذلك انها تسمع وراءه ، من بعد سحيق ، صوت العالم ـ الذى كان عالمها ـ يصيح مرة أخرى ليجللها بالعار ! وعندئذ احست بالخوف من نفسها لحظة ، وكانها

كانت تقف على مبعدة من الشر الكامن فى نفسها ، تنظر اليه وترى ، فى عجب ممزوج بالفزع ، مدى قدرته وقوته !

فهل تنطلق ساعية وراء العقاب من جديد ؟ ولكن كيف يمكن ان تعاقب ثانية ؟٠٠ لقد اصلتها الدنيا باسوأ ما لديها ، ومن ثم فانها فقدت سلطانها عليها ٠٠ كانت الذراع التى لوحت لها بالسوط قد لوحت به حقا الى اقصى مدى لقوتها ، فلم تعد لديها من مزيد تخشاه وتخافه من البطش !

وعند هذا الحد من تفكيرها ، انتصب طيف نيجل امام بصيرتها ! وفى ذلك الهدوء الساحر الذى غمر الحديقة المستلقية على حافة النيل ، كانت ثمة عاصفة هوجاء تتلاطم فى اعماقها ، بينما جلس بارودى عند قدميها ، بلا حراك ، لا يحس ولا يتأثر ٠٠ وعيناه الجامدتان اللامعتان لا تكفان عن التحديق اليها فى امعان ٠٠ وقالت بغتة : « لسوف يعود زوجى عما قريب ! » ٠٠ فكان تعليقه : «وعما قريب سارحل فى النهر نحو الجنوب ، الى ارمنت ٠٠ ومن ارمنت الى اسنا ٠٠ ومن اسنا الى كوم امبو ، ثم أسوان » ٠٠ فخيل اليها انها تسمع دبيب الحياة وهى تتسلل منها الى مناطق الجنوب ! وشعرت كان اطواقا من برودة الفزع تحيط بها وتطوقها ٠ واستطرد بارودى مغمغما : « هناك فتاة فى اسوان تشبه القمر ليلة تمامه ! » ٠٠ فايقنت مما فطر عليه الرجل من تحرر شامل ، وأحست بحرارة كحرارة النار تكتسح الاطواق الباردة ٠٠ ولكنها قالت وهى تبتسم : « ولماذا لا تبحر الى اسوان ؟ »

– فى الوقت فسحة ٠ وفتاتى لن تغادر اسوان ما لم أصرح لها بالرحيل !

– وهل هناك اقمار اخرى فى ارمنت واسنا وكوم امبو ؟

وكانت تبدو وكانها تضحك منه ساخرة ، ولكنه لم يبال ، بل قال : « فى اسنا ؟ كلا ٠٠ وفى كوم امبو ؟ كلا » ٠٠ فتساءلت وقد زحفت الى صوتها المتراخى حدة مفاجئة : « وفى ارمنت ؟ » ٠ فقال : « هناك فرنسيون فى ارمنت ٠٠ وحيثما ياتى الفرنسيون تاتى النساء الصغيرات ! » ٠ وتذكرت الحجرات الصغيرة الأنيقة على ظهر « اللؤلية » ٠٠ لقد كان يمتلك منزلا عائما ٠٠ وحرية عائمة ! وفى تلك اللحظة ، كرهت الذهبية وتمنت لو انها ارتطمت بصخرة فى النيل تمزقها اربا !٠٠ ولكنه سيعوم فوق النهر الى الجنوب الذهبى ، بينما ترحل هى شمالا الى خيمة فى الفيوم !٠٠ ولم تستطع الاحتفاظ بجسمها ساكنا فى المقعد ، الا بصعوبة بالغة ٠٠ وتناولت احد الصناديق الفضية وراحت تشدد الضغط عليه باصابعها ٠٠ فسالها : « هل لك فى مزيد من حلوى اوراق الورد ؟ » ٠٠ ولكنها أجابت : « لا ٠٠ لا ! » ، ثم أسقطت الصندوق من يدها ، فأحدث ارتطامه بالمنضدة صوتا جافا

– ينبغى أن ابقى فى ارمنت عدة أيام ، فلا بد لى من رعاية بمصالحى الخاصة

بالسكر هناك

ـ آه ! السكر ! ربما كان زوجي يعتقد انك لا تفعل شيئا سوى رعاية مصالحك ، ولكن يجب ألا تفترض ان امرأة ٠٠٠

فهتف : « امرأة ؟ ماذا ؟ » ٠ وكان جوابها : « لقد تبينت منذ البداية انك تحب اللهو ! » ٠ وتناولت المروحة ثانية ، بينما كان يقول : « منذ البداية ؟ ٠٠ متى كان ذلك ؟ » ٠٠ فاجابت : « على ظهر الباخرة « الهوهنزلرن » طبعا ٠٠ واذ ذاك قال : « اما انا فقد ادركت ٠٠ ادركت ٠٠ » ٠ وتريثت لحظة وهو يبتسم فى وجهها ، فتساءلت : « ما الذى ادركته ؟ » ، فاجاب : « آه ! ادركت اننى أستطيع ان افهم شيئا عن النساء ٠٠ عندما يسمحن لى ٠٠ وقد سمحت لى انت فوق « الهوهنزلرن » ٠٠ أليس كذلك ؟ » ٠ فقالت : « لم يحدث اننى خاطبتك على انفراد اذ ذاك ! » ٠٠ فقال : « لم يكن هذا بالأمر الضرورى ٠٠ لم يكن ضروريا على الاطلاق ! » ٠٠ فهتفت : « اجل ٠٠ اننى اعرف ذلك ! »

وكانت تحترق ٠٠ كان كل جسمها يحترق ٠٠ بالغيرة من ماضيه ! وكلما نظرت اليه ، خيل اليها كانما كان ثمة من ينفخ فى اللهب ، فينبعث منه مزيد من الحرارة ، ويلفحها بشواظه ، ويشويها شيا ، فى فظاعة كانت تزداد وتشتد !٠٠ ان رجلا كهذا ، رجلا شرقيا ، غير مقيد بشىء قط ، وبلا راى عام ـ وكانت فى هذه اللحظة تتمثل لندن فتراها مليئة بالراى العام ٠٠ لندن « الحنبلية » ! ـ يزدريه ويقيد حركاته ٠٠ ما الذى ينبغى أن تكون عليه حياته، فى هذا المناخ ؟٠٠ وما الذى ستكون عليه حياته ؟٠٠ وهب شىء ما فى داخلها ، وثار ضد هذه الحرية وهذا التحرر ، فاحست فى اعماقها بالم يكاد لا يطاق ٠٠ الألم الذى تحسه امرأة لم تعد شابة بعد ، ولكنها لا تزال قوية ، طافحة بالحياة ، تغار غيرة ضارية ، جسدية ، على شاب لم يكن لها عليه اية حقوق !٠٠ آه ! لو انها فقط كانت اصغر سنا مما هى بعشرين عاما ! ولكن ٠٠ حتى وهى كذلك الآن !٠٠ واتكأت بذراعها على المنضدة فى تراخ ، وراحت تنظر فى غطاء صندوق الزينة الذى منحها اياه ، فاذا التعبير الذى بدا فى العينين اللتين راحتا تتطلعان الى عينيها من غطاء الصندوق ، يجعلها تجفل وتقلق !٠٠ اين كانت تجاربها ؟٠٠ انها لتخجل من نفسها !٠٠ وان البراءة والبداوة الساذجة أمران لهما قيمتهما مع هذا الرجل ، ولكن لكل شىء حدودا ، فلا يجب ان تتجاوز هذه الحدود الا اذا كانت تقصد أن تفعل ذلك، والا اذا عرفت انها سوف تفعل ذلك ٠٠ وما عاشت العمر الذى عاشته منذ طلاقها دون ان تكتشف ان اعظم خطوة رعناء تأتيها امرأة غيور ، انما هى فى اظهار غيرتها ٠٠ وقد أثبت لها ذلك أزواج نساء اخريات الى أبعد مدى ، عندما كانت هى قبلتهم !

ـ طبعا ٠٠ فانت تعرفين الكثير عن الرجال !

قال بارودى ذلك فى يقين هادىء ، وكأنه يعرف كل شىء عن ماضيها !.. وللمرة الأولى طاف بفكرها هذا السؤال : « آتراه سمع عن مسز تشبستو الذائعة الصيت ؟.. ترى هل كان يعرف شيئا ؟ » .. كان ذلك جائزا ، فقد زار اوروبا ، وعاش فى باريس .. وهو يقرأ الانجليزية ، ولعله قد قرأ العديد من الصحف الانجليزية . وقالت فى تأن : « هل تراك سمعت يوما عمن تدعى « بيللادونا » .. (ست الحسن) ؟ » . وكان صوتها ينم عن عدم الاكتراث، ولكن عينيها كانتا ترقبانه فى امعان شديد.. فتساءل : « بيللادونا ؟ .. ولكن اية امرأة جميلة يمكن ان تكون هى ؟ » .. فقالت : « وهل سمعت قط عن مسز تشبستو ؟ » .. وكان جوابه : « كلا » .. وراح يحدجها بانظاره وهو يستطرد : « من هى ؟.. وهل هى تفد على القاهرة فى الشتاء ؟ »

فأيقنت انه لم يسمع شيئا عنها ، ولكنها لم تكن على يقين من انها ابتهجت لذلك ، فان شهرتها كانت من نوع ربما استهواه وأثار اهتمامه .. وكانت حيرى ، متلهفة على ان تعرف .. كانت تتوق الى ان توجه اليه الكثير من الأسئلة عن آرائه فى النساء ، ولكنه لم يكن ـ بلا شك ـ خليقا بان يقول الحقيقة .. كما ان الرجال يكرهون بطبعهم ان تستجوبهم النساء !.. وعاد يسألها : « أهى تأتى الى القاهرة ؟ » . فأجابت : « انما جاءتها مرة واحدة فقط » . وهنا هتف : « أأنت بيللادونا ؟ » .. فكان جوابها : « كان خليقا بك ان تعرف ذلك ! » .. واذ ذاك قال : « أجل ، هذا صحيح .. انك « بيللا دونا » ، ولكنك لست « دونا أونيستا » .. انك ست الحسن ، ولكنك لست .. ست الشرف ! »

ولم تستنكر هذه الملاحظة أو يستبد بها الحنق بسببها .. كانت هذه الملاحظة الجارحة التى وجهها اليها ـ فى رصانة ومواجهة ـ تكاد تكون ساذجة ، فقد كانت واثقة كل الثقة من ان بارودى لن يقدر امرأة قط لأنها شريفة !.. وعادت تتوق من جديد الى التلميح له بشهرتها ، والسمعة السيئة التى اكتسبتها ، والتى كانت مع ذلك نوعا من الصيت الذائع .. فقالت : « انهم فى .. فى أوروبا ، يدعوننى غالبا بيللا دونا » .. فتساءل : « فى أوربا ؟ » .. قالت : « فى انجلترا .. فى لندن » .. فقال : « لقد أصابوا .. ولسوف أدعوك هنا على ضفاف النيل .. بيللا دونا ! »

قال ذلك فى غير اهتمام .. ولكن شيئا ما فيها تهلل طربا !.. ومع ذلك فقد قالت، بل انها لم تملك الا ان تقول: «والقمر ليلة تمامه ؟.. أعنى فتاتك؟ ».. فسألها : « ما شأنها ؟ » قالت : « أهى « بيللادونا » ؟.. أهى سيدة جميلة ؟» .. فأسبل جفونه ، وأرخى نظراته الى الارض .. بينما استطردت هى تقول : « لست أسألك ان كانت سيدة شريفة ! » .. فأجاب : « انها فى السادسة

عشرة .. وهى راقصة » .. فقالت ، وهى تبذل جهدا غير قليل : «لقد فهمت!»

واطبقت شفتيها فى شدة ، واخلدت الى الصمت ، وهى تفكر فى عودة نيجل، ثم رحيلها معه الى الفيوم ، بينما يمضى هذا الرجل صوب الجنوب ، فى بيته العائم المليء باسباب النعيم والرفاهية .. لقد كانت مصممة على أن تعيش ليومها ، ولكن متى قدر لأية امرأة تكويها نيران الغيرة ان تعيش ليومها فقط ؟!.. ان الغيرة تزج بنفسها فى الماضى والمستقبل ، فتسأل الأول عما كان ، وتسال الآخر عما سيكون !.. اما هى فسوف يحتويها قماش احدى الخيام ، ليصبح جدران سجنها !.. لماذا ؟.. لماذا قيدت نفسها بهذا الرباط ؟ .. لقد كانت ، منذ شهر واحد ، فى حرية مطلقة ، وكان فى مقدورها الذهاب الى الجنوب على ظهر « اللولية » !

واحست بوخز اليم فى جسمها كله ، وهى تثور ضد هذا النير الذى وضعته على عاتقها بمشيئتها .. ولكنها عندما تكلمت ثانية، بدا صوتها هادئا متراخيا : « احسبك لن تظل فوق النيل الى الأبد ؟ » .. ومن جديد أطبقت اصابعها ، فى حركة آلية ، على أحد الصناديق الفضية ، بينما قال : « كلا بالتاكيد ، فسوف اعود الى اسيوط ، ثم القاهرة والاسكندرية ، والدلتا ايضا » .. فتساءلت : « والفيوم ؟.. أليست لك املاك هناك ؟.. أليست من أغنى المناطق فى مصر ؟ » .. فتطلع اليها ثم ابتسم وهو يمط شفتيه الغليظتين قليلا ، وقال : « ما أراه عملا حكيما .. حتى لو استطعت الذهاب الى الفيوم ! »

وكان قاسيا فى تضييق الخناق عليها الى هذا الحد .. فاجابته فى رصانة : « انما كنت اعنى ان نصائحك فى شئون الزراعة المصرية قد تكون ذات قيمة بالغة لزوجى » .. وكان فى نظرته ، وصوته ـ حين تكلم ـ شيء بدا فجاة كانما كان يشدها ثم يردها : « آه ! هذا حق .. فان مستر آرمين سوف ياخذ بنصيحتى ، لأنه فى بعض النواحى ليس انجليزيا قحا » .. فقالت : « اذن فسوف يكون كريما منك ان تاتى الى الفيوم وان تقدم له نصائحك المثمرة » .. فمال نحوها وقال : « ان بيللادونا ليست شديدة الدهاء ! » .. فسالته وفى صوتها رنة خفيفة من التهكم : « وهل تظن ان الدهاء ضرورى الى هذا الحد ؟ .. اننى لا أدرى فى الواقع لماذا .. » . فضاقت عيناه حتى اصبحتا مجرد شقين يتالق من خلالهما ضوء اصفر ، وسالها وهو يقطع عليها حديثها : « متى ترحل وصيفتك الفرنسية ؟ »

فتململت ومكثت تنظر اليه برهة دون ان تجيب . ترى هل قرا ما جال بخاطرها هذا الصباح ؟.. واخيرا قالت : « وصيفتى ؟ ماذا تعنى ؟.. ولماذا ينبغى ان ترحل ؟ » .. ولكنه كرر سؤاله : « متى سترحل ؟ »

كان قاطع الطريق قد عاد الى الظهور فيه فجاة .. وقالت : « يا لسخف

الفكرة !٠٠ اننى لا استطيع المضى فى حياتى بلا وصيفة ! » ٠٠ وكانت لا تزال ماضية فى التظاهر بالدهشة الممزوجة بعدم الاهتمام ، بينما انبعث من اعماقها صوت غامض ـ صوت لا تكاد تعرفه ـ يهمس اليها : « عليك بالمقاومة » ٠٠ اما هو فقد عاد يسالها مرة اخرى ، وكانه لم يسمعها : « متى سترحل ؟ »

وكان الرجل الذى يعمل بجوار الشادوف قد كف عن الصياح ٠٠ ولم تعد مسز ارماين ترى ، فى نهاية الممر الطويل الضيق ـ بين فجوات الأوراق المدببة اللامعة ـ تلك الأشرعة المثلثلة وهى تنزلق على صفحة الماء ٠٠٠ وكان اختفاء الاصوات الصائحة والأشرعة المثلثة يجعل حديقة البرتقال تبدو وكانها بمعزل ، فى نهاية العالم القصوى ! وكان سكون الظهيرة الذهبى يلف الحديقة بما يشبه حلة زاهية ، وشيت اهدابها وحواشيها بحمرة الجيرانيوم ، والخضرة اليانعة ، والصفرة التى تتحول رويدا الى لون ذهبى٠٠ ولكنها فى هذا السكون كانت تحس بانها فى حاجة الى النضال ، اذا شاءت ان تسكن دار السلامة والأمان ، وان هذه الحلة الزاهية التى تحيط بها فى رفق ولين ، تبدو ناعمة الملمس ، ولكن ٠٠ الم تكن ـ فى الوقت ذاته ـ مهلكة قتالة ، كقميص « نيسوس » ٠٠ ولن تلبث سمومها ان تتغلغل فى اطرافها ، وتزحف حتى تصل الى اعماق روحها ؟!٠٠ قد يكون السؤال عن رحيل وصيفتها او عدم رحيلها امرا تافها ، ولكنها شعرت بانها اذا قاومت مشيئته فى هذا الأمر ، فسوف تنتصر فى معركة حاسمة ، وتنال السلامة من خطر مصلت فوق راسها ، على حين انها لو خضعت فى هذا الأمر فسوف تخضع كل ارادتها لمشيئته وارادته ٠٠ ومن ثم هتفت لنفسها : « لن اخضع قط ! »

وعندئذ نظرت الى قاطع الطريق الجاثم بجوارها ، فاحست بشىء فى اعماقها ، يبدو انه كان لب انوثتها ، يتوق فى حرارة الى الخضوع والاستسلام ! ٠٠ لقد كانت ترغب فى التخلص من مارى ، وقد قررت فى هذا الصباح نفسه ـ من تلقاء نفسها ودون ان يحثها احد على ذلك ـ ان تطرد مارى ٠٠ فكم يكون من غير المعقول اذن ان تابى ذلك لمجرد انه هو ايضا كان يرغب فى ذهاب الفتاة !

وسالته فى بطء ، وقد استقرت انظارها عليه : « لماذا تريدها على ان تذهب؟ وفيم يمكن ان يهمك ان كانت تذهب ام تبقى ؟ » ٠٠ واكتفى بان راح يرمقها بانظاره ، وقد اتسعت عيناه ، ثم انطلق ضاحكا ٠٠ وتناول سيجارة اخرى ، فاشعلها ، ثم عاد يضحك من جديد فى هدوء ، ولكن فى استعذاب حقيقى لادعائها الجهل ، ولنفاقها الشفاف الفاضح !٠٠ وعلى الرغم من ذلك فقد امعنت فى اصرارها ، فقالت : « لست ارى كيف يجوز لشىء كهذا ان يكون ذا شان بك ، او ان يهمك على الاطلاق ! » ٠٠ فقال : « لسوف احصل لك على وصيفة تفضلها ؟ » ٠٠ فتساءلت ساخرة : « لعلك تقصد ٠٠ حمزة ! » ٠٠ وسالها

متحديا : « ولم لا يكون حمزة ؟ »

ونظر اليها ثم اخلد الى الصمت . ومن جديد ، انتابها شعور بالخوف والرهبة .. كان هناك شيء مميت مروع ، يتصل بهذا المكارى المصلى .. وما لبث بارودى ان قال : « متى ترحل هذه الفتاة ؟ » .. ففتحت مسز ارماين شفتيها لتقول : « انها لن تذهب على الاطلاق » ، فاذا بها تقول : « اننى أعتزم التخلص منها خلال الأيام القليلة المقبلة .. فقد كنت دائما أنوى التخلص منها » .. فهتف : « أحقا ؟ »

– انها فى الواقع ليست وصيفة بارعة .. فهى لا تفهم أساليبى وطرائقى ! فقال بارودى فى هدوء : « او لعلها تفهمها أكثر مما ينبغى !.. اننى – عندما ترحل – احرق قطعة من الشب على الفحم ، واعطيها لكلب أسود ليأكلها !.. فان لهذه الفتاة عينا شريرة ! »

الفصل العشرون

◆ **عندما** انقضى وقت الظهيرة ، ورقدت الأرض فى رقدة الشمس الملتهبة ، قدم بارودى الى مسز ارماين — فى المنزل الذى تحيط به بساتين البرتقال — وجبة مصرية أو « الغدا » على صينية مستديرة من الذهب البراق ، كانت موضوعة فوق حامل منخفض ، مطعم بقشور السلاحف ، ومحلى بعدد

كبير من مربعات الصدف الصغيرة .. وعندما دخلت مسز ارماين مع بارودى الى الحجرة التى كانت معدة لتناول الطعام: كانت الصينية قد تم اعدادها فى موضعها ، وجهزت بمناشف من الحرير الأبيض ، وأرغفة مستديرة من الخبز الأصفر ، وشرائح من الليمون .. وكانت الجدران مزينة بسجوف من الحرير الأخضر اللامع ، والذهبى الكابى(غير اللامع) ، والأحمر العميق القاتم .. وتناثر على الأرض عدد آخر من الطنافس الثمينة التى يبدو أن بارودى كان يملك منها معينا لا ينضب، كما كان البخور يحترق فى أحد الأركان . وكانت تحيط بالجدران تلك الأرائك المنخفضة المعهودة . ومن خلال نافذة متسعة ـ كانت مصاريعها الخشبية المتأرجحة مفتوحة قليلا ـ رأت مسز ارماين اشجار البرتقال الساكنة تبدو كأنها لوحة فنية !

وجلست على كومة من الوسائد الحريرية كانت قد وضعت خصيصا لها فوق الطنافس .. وفيما كانت تسوى ثوبها وتستقر فى جلستها ، انبعثت من خارج المنزل مباشرة أنغام موسيقى قومية بدائية ، على الأرغول ، ترافقها دقات طبل من الفخار ، وما لبث أن انضم اليهما للتو صوت عال متهدج يغنى : « دوز ياللى !.. دوز ياللى ! »

وفى اللحظة نفسها دخل أيوب الى الحجرة فى خفة وسكون ، وقدم لبارودى ـ الذى كان يجلس فى مواجهة مسز ارماين ، ملصقا ركبته اليسرى بالسجادة ورافعا اليمنى وقد وضع منشفته فوقها ـ « طستا » من النحاس المطروق ، ذا غطاء صغير ، وابريقا نحاسيا .. ومد بارودى يديه أمامه ، فأخذ ايوب يصب الماء فوقهما فينساب الى داخل « الطست » خلال الثقوب التى كانت تتخلل الغطاء .. ثم جعل بارودى من يديه ما يشبه قدحا استدارت فوهته الى الأعلى ، فتلقى

فيه المزيد من الماء ونقله الى فمه . وراح يتمضمض فى عناية ثم بصق الماء فوق غطاء الطست .. وحمل أيوب الطست والابريق الى الخارج ، بينما جفف بارودى يديه فى منشفته ثم غمغم بعبارة ، هى « بسم الله » ، ولكن مسز ارماين لم تكن تعرفها .. فقد جلست فى مكانها ساكنة بلا حراك ، وكأنما لم يكن يراها أو يحس بوجودها أحد . **كانت تصغى الى الصوت المتهدج ، ودقات الطبل ، وأنغام الارغول .. وكانت تشم رائحة البخور ، وتشعر كشخص يقف عند أحد الأبواب ويسترق النظر من خلاله الى عالم غير معروف أو مألوف !**

وعاد أيوب بعد ذلك مباشرة ، فشرعا فى تناول الطعام ، الذى كانت تصاحبه الموسيقى دواما : قدم أيوب لهما حساء احمر ، ثم « قاورمة » ـ لحم مطبوخ فى مرق دسم كثيف مع بصل صغير الحجم ـ ثم ورق العنب المحشو بخليط لذيذ من اللحم والأعشاب ، وسلطة اللبن بالخيار ، وطيورا صغيرة الحجم تخترقها أسياخ من الفضة ، ثم « سبانخ » ، وأخيرا فطائر مقلوة من دقيق القمح مشربة بالعسل .. وكانت مسز ارماين قد اعطيت سكينا وشوكة وملعقة ـ كلها من الفضة ـ كما كانت الأطباق من الفضة كذلك ، مما لم يكن منسجما تماما مع الصينية الذهبية .. أما بارودى فكان يستخدم اصابعه فقط ، مع قطع من الخبز ، فى تناول الطعام .. وكانت مسز ارماين جائعة ، فأقبلت على الطعام بشهية فائقة .. ولم تكن تعرف شيئا عن الطهو الشرقى ، ولكنها كانت خبيرة بالأطعمة ذواقة لها ، فادركت ان طاهى بارودى فنان ملهم فى مهنته . ولم يقدم لها ـ خلال الطعام ـ شىء من المشروبات التى ألفتها . ولكنها لم تكد تفرغ منه حتى أحضر لها أيوب قدحا جميلا من الذهب ، أو الفضة المذهبة ـ اذ أنها لم تعرف أيهما ـ وصب فيه ، فى رصانة ووقار ،

قدرا قليلا من سائل ما .. فسألت بارودى : « ما هذا ؟ » . ولكنه اجابها بقوله : « اشربى ! » .. فرفعت القدح الى شفتيها ورشفت جرعة من .. الماء ! واذ ذاك هتفت فى نبرة من الدهشة والامتعاض معا : «آه !» .. فقال بالعربية الدارجة : « اللى يشرب موية النيل عواده ! »

– ما معنى هذه العبارة ؟

– من يشرب ماء النيل لابد أن يعود اليه !

فابتسمت ورفعت القدح الى شفتيها ثانية ، فرشفت آخر قطرة من الماء .. وقالت : « ماء النيل ؟ لقد فهمت ! »

– وسوف تتناولين الآن بعض « الشربات »

وخاطب أيوب بالعربية ، فمضى هذا بالقدح ، ثم عاد بكوب طويل من الزجاج الرقيق ، وبعد أن وضع على ذراعه اليمنى منشفة جميلة مطرزة ، أخذ يصب فى الكوب – من دورق ضيق العنق من الخزف – سائلا كان لونه يميل الى الخضرة الناعمة كالمخمل .. فتساءلت مسز ارماين : « أهذا شربات حقا ؟ » . فقال بارودى : «انه شربات مصنوع من البنفسج» .. فعادت تتساءل : «وكيف يصنع ؟» . فأجاب : «بأن تهصر زهور البنفسج وتخلط بالسكر حتى يتكون منهما مزيج يغلى على النار مدة طويلة » . وظل أيوب واقفا بجوارها وهى ترشف الشراب ، حتى اذا ما فرغت قدم لها المنشفة المطرزة فمستها بشفتيها .. وقال بارودى : « هل اعجبك ؟ » ، فأجابت : « انه غريب جدا .. ولكن كل شىء هنا غريب حقا ! »

وأحضر أيوب الطست والابريق لسيده – مرة أخرى – فغسل بارودى يديه ومضمض فمه كما فعل قبل الغداء .. وبعد الانتهاء من هذه « المراسم » غمغم ثانية بكلمة أو عدة كلمات ، ثم استوى قائما على قدميه ، وتناول يد مسز ارماين اليسرى فى يده اليمنى ، ثم قادها الى الأريكة .. واحضر

أيوب القهوة ، ورفع الصينية الذهبية ووضع القهوة على صينية أصغر حجما ، فى مكانها ، بعد أن نقل الحامل الى مقربة من الأريكة ، ثم حمل الصينية الذهبية فى حرص بالغ وخرج بها من الحجرة .. **واذ اختفى عن الانظار ، كفت الموسيقى فى الخارج عن العزف فى اقتضاب مفاجىء ، وكأنها بترت بترا ، دون أى تمهيد لانتهاء اللحن ، مما يجفل له أى شخص أوروبى !..** ولكن الصمت المفاجىء الذى تلا ذلك مزقه طائر يغرد فى مكان ما بين أشجار البرتقال ، وتبعه للتو طائر آخر يجاوبه .. فقال بارودى فى صوت عميق متئد ، كأنما يخاطب نفسه : « انها تغرد تسبيحا بحمد الله ! »

فسألته : « هذه الطيور ؟! » .. وتطلعت اليه فى عجب ، بينما كان يرمقها بعينين تفيضان بالوجوم ، وهو يقول : «انك لا تعرفين هذه الاشياء ! » .. فأحست فجأة بأنها أشبه بطفل جاهل غبى ، أو كشخص لا يستحق العلم والمعرفة !

* * *

• **ومضى** بارودى يرشف قهوته .. وكان وقتئذ يجلس بجوارها على الأريكة ، على الطريقة الأوربية ، فزاد وضعه هذا من صعوبة تقبلها لعقليته الغريبة ، اذ بدا لها كشاب هائل القوة ، ومع ذلك شديد المرونة ، بالغ الملاحة ، قوى العزيمة ، كان يمكن أن ينتمى الى أحد شعوب جنوب أوروبا .. بل انه حتى وهو يضع الطربوش على رأسه ، لم تكن هيئته تنم على انه شرقى لا يخطئه الظن !.. ومع ذلك فقد كان هذا الرجل يحدثها ، فى جد ظاهر تماما ، عن الطيور التى تغرد ويجاوب بعضها بعضا بالتسبيح بحمد الله !.. وقالت : «كان ينبغى أن ترتدى زيا آخر !» .. فسألها : «كيف ؟» . فأجابت : «كان ينبغى أن ترتدى ثيابا مصرية ، لا الفانلا الانجليزية !» ..

فقال كأنه يطمئنها : « سترينني كذلك يوما ما .. فانى غالبا ما ارتدى القفطان فوق « اللولية » فى الليل »

ـ فوق اللولية فى الليل ؟.. اذن كيف يمكن أن أراك فيه بحق السماء ؟

وكانت تتكلم فى انفعال حاد مفاجىء .. فقد خيل اليها اليوم أن زواجها من نيجل كان مصلتا فوقها كالسيف ، قد يهبط عليها فجأة ، فيطرحها أرضا ، قبل أن تستنفد كل طاقتها من السعادة !.. ولكن بارودى قال فى هدوء : **«سوف ترينني فى سروال من التيل الأبيض ، وفى الصدرية ، والقفطان و « الجبة » ـ بكسر الباء ـ أو « الجبة » ـ كما كان ينطق بها أبى ، بتعطيش الجيم وضم الباء ـ والعمامة على رأسى .. فقط يجب أن تنتظرى قليلا ، وان كانت النساء يكرهن الانتظار فى سبيل لذة أو متعة .. انهن دائما فى عجلة ! »**

ولم تثر فيها هذه الأنانية الباردة ـ التى تقبل بها اعجابها به وعلق عليه ـ شيئا من الغضب ، بل نوعا من الاحترام الممزوج بالعجب .. كأنما كان ذلك جزءا من قوته ! ورفع حاجبيه ، ثم دفع رأسه الى الوراء ، كاشفا عن عنقه القوى الجميل .. وبنفس الحركة التى لاحظتها منه فى حديقة « فيللا اندرود » ، دس أصبعيه داخل ياقته المنخفضة اللينة ، وظل محتفظا بهما كذلك وهو يستطرد : « انهن كالأطفال ، ويجب ان يعاملن كالأطفال ! ولكن فى وسعهن أيضا ان يكن بارعات عندما يردن الخداع ! اننى أعرف ذلك ، فهن يستطعن أن يكن ماكرات كالثعالب ، خفاف الحركة ، سريعات كالغزلان !.. **ولكن كل مايفعلنه ، وكل ماهن عليه ، ليس الا من أجل الرجال .. فما خلقت النساء الا للرجال ، وهن يعرفن ذلك ويدركنه حق الادراك ، بحيث لا يفكرن الا فى الرجال فحسب .. اننى أؤكد لك ذلك! »** .. فقالت ـ وهى تتقبل تصريحاته

بابتسامة : « لاشك أن هذا صحيح ! »

- والنساء يجرين حتى وراء خيال الرجل ، اذا لم يحبسن خلف أسوار من حديد !

فانطلقت مسز ارماين ضاحكة ، وقالت : « ولذلك فانكم معشر الشرقيين تضعونهن دائما هناك! » . فهتف : « **حسنا.. ألسنا حكماء فى ذلك ؟.. ألسنا أكثر حكمة وتعقلا من الاوربيين أمثال مستر أرمين ؟ »** .. وأصابها اقحامه اسم نيجل الفجائى بصدمة خفيفة ، فأحست - للحظة عابرة - بما فى هذا الاقحام من ذوق فاسد أجفلت منه حتى اخلاقها التى لم تكن خالية من الشوائب ! ولكن هذا الاحساس ما لبث أن تلاشى لمجرد تذكرها نشأته الشرقية .. فقالت : « وأنت ؟.. الا يمكن أن تثق فى امرأة قط ؟ » . فأجاب فى هدوء : « أبدا ، فالنساء كلهن سواء ! اذا رأين شبح الرجل فلابد ان يجرين خلفه ! انهن لا يستطعن أن يتمالكن أنفسهن ! » .. فأجابته قائلة لتفحمه : « كأنى بك تنسى أن الرجال يجرون منذ الأزل خلف أشباح النساء ! »

وجالت بخاطرها حياتها الخاصة ، وكيف كانت موضع العبادة والملاحقة . ومع أن الباعث على ذلك لم يكن طيبا صالحا ، الا انه على أية حال .. ولم تسترسل فى تفكيرها الصامت ، اذ رغبت فى أن يعرف بارودى كل هذا ، ولكنه بادر قائلا : « ان الرجال يفعلون ذلك ليرضوا النساء .. كما تعطين الطفل - كى ترضيه - حرباء مربوطة فى خيط !.. ضعى الخيط فى يده ، فاذا الطفل سعيد راض !.. وهكذا الشأن مع المرأة ، مع فارق بسيط ، هو أنها لا تريد الخيط ، وانما تريد طرف القفطان ! » .. **وخيل الى مسز ارماين ، وهى تصغى الى بارودى ، انها قد اقصيت الى الأبد عن المكان الذى اعتادت منذ مدة طويلة ان تشغله .. فقد كان هذا**

الرجل ينشد ـ ضمنا ـ اعجابها ، ويتقبله ، بدلا من ان يقدم لها اعجابه بها ! ومع ذلك ، فقد كان هو الذى استقبلها بتحية غنائية على النيل فى الليلة الأولى لحضورها .. وكان هو الذى ابتاع حمزة وابراهيم ، وهو الذى رغب ثم جهد فى التعجيل برحيل نيجل ، وهو الذى قرر أن مارى يجب أن ترحل .. وماء النيل !.. بأى عزم قوى أعطاها اياه لتشربه !.. ثم ان لديه خططا للمستقبل .. خططا كانت تبدو وهى تتجمع حولها فى صمت ، وفى رفق ، أشبه بالسحب تغير منظر دنياها !

انها لم تقلب هذا القفاز باطنا لظاهر بعد !

وشعرت بأنها يجب أن تبدل من خططها واساليبها ، وان تضاعف من المحافظة على اعتبارها ، وان تفر من المركز المتواضع الذى يبدو انه كان يضعها فيه عن عمد وتدبير .. فاين ذهبت كبرياؤها .. حتى ولو كانت كبرياء غانية ؟! .. وهنا رفعت قدحها فأفرغت ما فيه من القهوة فى جوفها ، ثم وضعته ثانية وبدأت تلبس أحد قفازيها الطويلين الأبيضين .. واستمر بارودى يدخن سيجارة فى هدوء ، فتناولت القفاز الثانى .. وعندئذ صفق بيديه فى حدة ، فدخل أيوب للتو ، وخاطبه بارودى باللغة النوبية ، وعلى أثر ذلك اختفى فى سرعة وخفة .. ولبست مسز أرماين قفازها الثانى ، وقالت : « آن لى أن أعود الى المنزل »

* * *

• **وتحركت** تزمع النهوض ، ولكن حركتها توقفت عندما دخل الحجرة خلسة رجل نحيل ، يرتدى ما لاح لها أنه قطعة من الخيش .. وكان عارى الذراعين ، والصدر ، والساقين ، والقدمين ، ذا رأس نحيل مذبب حليق عند مقدمته ، تزين

مؤخرته خصلات من شعر أسود ملبد مثقل بالدهون ، انسدلت حتى كتفيه .. وكان يمسك فى يده — التى كادت ان تكون سوداء اللون — بعصا قصيرة من جريد النخيل .. وفى سمة من الغموض والخفاء المفرطين ، الممتزجين بالمكر والخبث ، راح يزحف حول الحجرة ملاصقا للجدران ، وهو يصفر حينا ويقرقر كالدجاج حينا آخر — على التعاقب — مطأطئا رأسه متفرسا فى الأرض ، ثم رافعا اياه محملقا فى السقف ! وكان قد صوب نحو مسز أرماين نظرة حادة عند ما دخل الى الحجرة ، ولكنه بدا وكأنما نسيها للتو ، واستغرق بكليته فى مهمته الغامضة .. وبعد ان طاف عدة مرات حول الحجرة — على هذا النحو — توقف بغتة ، كأنه كلب صيد وجد طريدته ، ثم جذب من داخل اسماله الغليظة جعبة متغضنة من جلد حال لونه ، ذات فوهة واسعة ، وصاح ببضع كلمات فى صوت عال وحشى ، ثم قفز الى أعلى وأصاب السقف بعصاه .. واذ ذاك ، سقط فى الجعبة ثعبان طويل !

وأطلقت مسز أرماين صيحة من الدهشة ، وليس من الفزع ، اذ أنها لم تكن تخاف الثعابين !.. بينما مضى الدرويش يزحف حول الحجرة كما فعل أول مرة ، وهو يهتف بمزيد من الكلمات ، ويقرع الجدار بعصاه .. فسقط فى الجعبة ثعبان آخر — أو بدا كأنما سقط فيها — من مكان خفى بين السجوف الحريرية .. ومن جديد عاد الرجل يزحف حول الحجرة ، ويهتف بالكلمات ، ويقرع الجدران ، حتى يتلقى ثعبانا آخر !.. وفى تلك اللحظة اندفع الى الداخل صبى صغير أسود العينين ، رفع يده الى جبينه بالسلام .. وعندئذ مضى الدرويش والصبى — بمصاحبة موسيقى بدائية انبعثت من الخارج — فى ممارسة ألوان من ألعاب الشعوذة وترويض الأفاعى ، وهى مناظر مألوفة فى الشرق ، وان كانت لا تفتأ تثير اهتمام الشرقيين دواما ، وتستحوذ على ألباب الكثيرين من السائحين

والمسافرين .. فلما انتهت ، سلم الصبى الصغير بالطريقة نفسها ، وانطلق يعدو الى خارج الحجرة ، ولكن الموسيقى ظلت مستمرة فى عوائها القوى .. وعندئذ تقدم الدرويش ، ممسكا بجعبة الأفاعى ، حتى وقف أمام مسز أرماين ساكنا بلا حراك !

وللمرة الأولى ركز عليها عينيه الماكرتين الضاريتين ــ اللتين كانتا محتقنتين ــ فى نظرات ثابتة كأنما يريد أن يخضعها لقوته المغناطيسية ، أو أن يملأ نفسها بالرعب المميت .. ولكنها قابلت نظراته بهدوء وثبات ، ومدت يدها نحو الكيس ، فى حركة تنم عن رغبتها فى تناول الأفاعى ، فقرب الدرويش جعبته منها فى بطء ــ وهو لايزال يحدجها بأنظاره المتفرسة الوحشية ــ حتى كادت تلتصق بهـــا وهو يمسكها تحت صدرها .. فامتلأت خياشيمها برائحة عفنة غريبة ، أشبه برائحة شىء مفرط القدم .. وترددت لحظة ، وما لبثت أن نزعت قفازيها ووضعتهما بجانبها فوق الأريكة ، ثم استوت قائمة ، ودفعت يدها اليمنى فى عزم داخل الجعبة ، وقــد أغمضت عينيها فى الوقت نفسه .. أغمضتهما لتستغرق فى الاستمتاع الى أقصى حد بشعور جديد عليها كل الجدة !..

والتقت يدها بشىء حى ، جاف الملمس ، يتلوى .. فاطبقت عليه يدها فى ثبات ، ولكن فى رفق ، ثم جذبته الى الخارج نحوها .. وفى تلك اللحظة فتحت عينيها ، فرأت أنها قد أخرجت من الظلام ثعبانا أسود اللون ، مرقطا بلون برتقالى كالح .. وكان يتلوى فى يدها ، وكأنه يحاول الفرار ، ولكنها ظلت ممسكة به فى ثبات ، فبدأ يخلد الى الهدوء ، ويتطاول بعنقه الى أعلى ، ويرتد برأسه المنبعج الى الوراء ، ويرمقها بعينيه المضطربتين الطافحتين بالاثم ، كعينى أى مخلوق عريق فى الاجرام لا يمكن أن يحس بندم أو توبة !.. ونظرت الى هاتين العينين فأحست بعطف قوى ــ نحو ذلك المخلوق ــ

مجرد من كل شعور بالخوف على الاطلاق .. وفى حركة بطيئة ، راحت تدنيه منها ، وتدنيه ، ثم تدنيه ، حتى انفلت من يدها متمايلا مترنحا ، وبلغ جسدها

وظل الدرويش واقفا أمامها ، ولكن التعبير الذى كان يشع من عينيه تغير ، فلم يعد مغناطيسيا رهيبا ، وانما انقلب الى انتباه عميق ! وكان بارودى جاثما فى مكانه على الأريكة ، ساكنا بلا حراك ، وقد أخذت نظراته تنتقل من مسز أرماين الى الثعبان ، ثم ترتد اليها ثانية .. أما هى فكانت سعيدة راضية مطمئنة ، وهى تشعر بأن هذين الرجلين قد ركزا حواسهما كلها فيها .. والتف الثعبان حولها فى سرعة وخفة ، متعلقا بخصرها ، ثم اندفع بالجزء الأعلى منه ناحية الدرويش ، مطلقا لسانه الشريطى الذى كان يهتز ويتلوى أشبه بشىء رخو فى مهب تيار من الهواء .. وجعل يهبط ويعلو عدة مرات ، فى حركة منتظمة ، وكأنه كان يجهد فى اطاعة عواء الموسيقى والانهماك فى الرقص على أنغامها .. واذ انبعثت نغمة حادة طويلة ، ارتفع بالجزء الأعلى من جسمه ، حتى أضحى رأسه محاذيا لأذن مسز أرماين ، وظل كذلك وهو يتمايل فى بطء من ناحية الى أخرى ، فى مرونة مقيتة مروعة تثير الاشمئزاز .. ثم كفت الموسيقى عن عوائها الرهيب ، وخيم السكون لحظة . **وعندئذ اندفع الدرويش ، فى حركة وحشية - فيما بدا - عن غيرة لم يعد يستطيع كبحها ، فقبض على عنق الثعبان على قيد بوصتين من رأسه ، ثم انتزعه بعيدا عن مسز أرماين .. وعاد الوميض الرهيب الى أساريره ، وقد أضيفت اليه نار متاججة تنذر بنية انتقامية !** وراح يضغط بابهامه على ظهر الثعبان .. وكأنما مسه خبل ، اذ مضى يدمدم فى نبرات خافتة متحشرجة ، وينحنى الى الخلف ثم الى الأمام ، مطوحا بخصلات شعره الملبد فوق وجهه ، ثم رادا اياها بعيدا عنه . وأخذ جسمه ينقبض

ويتقلص ، ثم شد قامته فى عنف الى أقصى طولها ، بينما كانت قدماه العاريتان تؤديان نوعا من الرقص البدائى .. **وعندئذ بدا كأنما تملكته نوبة حادة من الجنون الوحشى ، اذ أحنى رأسه فجأة ، وفغر فاه ، الذى تدفقت منه فقاقيع الزبد ، ثم أطبقه على رأس الثعبان فقضمه** ! .. والقى بالجثة بعيدا عنه ، وهى مازالت تتلوى وتنبض بالحياة ، وأخرج صوتا يدل على المضغ ، وهو يعمل فكيه فى قوة واطراد . وما لبث أن اندفع برأسه الى الأمام نحو مسز أرماين ، وفغر فمه ثانية ليريها أنه أضحى خاليا ، ثم تناول جعبته من الأرض ، واندفع الى خارج الحجرة دون جلبة أو ضوضاء !

ووقفت تنظر الى الثعبان الملقى على السجادة عند قدميها ــ جثة بلا رأس ــ ثم قالت لبارودى : « خذه بعيدا ! » .. فالتقطه من الأرض ومضى الى النافذة ، فألقى به فى حديقة البرتقال ، ثم عاد ثانية ووقف بجوارها ، فقالت : « ياللوحش الرهيب ! » .. **وكانت تتكلم فى غضب بالغ .. فقد شعرت ــ عندما انقض الدرويش على الثعبان ــ كما لو كانت هى هدف الهجوم ، وبدا لها أن قتل الثعبان كان بمثابة اعتداء عليها هى !.. ولم تستطع ــ حتى بعد أن ذهب القاتل ، وطوحت جثة القتيل الخالية من الرأس خارجا ــ ان تتخلص من هذا الاحساس .. كانت مشاعرها تفيض بغضب عميق يتوق الى ما يلطفه ويخفف منه**

وتحولت الى بارودى وهى تهتف به : « كيف تركت هذا الوحش يفعل ذلك ؟.. وكيف استطعت أن تجلس وتسمح بوقوع شىء مقيت كهذا ؟ »

ــ ولكنه أتى الى هنا ليفعله .. انه أحد طائفة السعدية !

ــ وهل كان سيفعله ولو لم أتناول الثعبان بيدى ؟

فقال : « طبعا » .. ولكنها صاحت : « لا أصدق هذا .. انه انما فعله لأنه غضب من الثعبان ، اذ لم يؤذنى واستسلم

لقبضتى ! » . فقال فى هدوء : « ليكن ذلك .. فما قيمته ؟ ». فرمقته بنظرة ، ثم جلست ، وقد سرى من غضبها ذلك التعبير الذى لاح فى عينيه .. تلك النظرة الجديدة التى استطاعت أن تقراها وتستشفها .. ترى هل كانت هذه النظرة وليدة الشجاعة التى أبدتها هى مع الثعبان ؟ .. وراحت تسائل نفسها عما اذا كانت بهذا العمل - الذى اقدمت عليه بدافع خفى - قد أمسكت بشىء فى أعماقه كان حتى ذاك الحين - على مابدا - يروغ ويتملص منها ؟ .. ومع ذلك ، وعلى الرغم من تناقص غضبها ، فان شعورها بان اعتداء شخصيا قد وقع عليها ، لم يتلاش منها تماما .. وسألته : « أهناك حقا من يأكلون الثعابين غيره ؟ » .. فأجاب : « بالطبع .. طائفة السعدية ! »

- وهل هذا الرجل واحد منهم ؟.. لقد كره منى أن أمسكت بالثعبان !

- أما أنا فلم أكره ذلك !

- أحقا ؟

عندئذ قوى شعورها بأنها قد أمسكت بشىء فى اعماقه كان يتملص منها حتى الآن .. ومضى يقول فى رقة ذكرتها برقة ابراهيم الباسمة ، وان كانت أقل صبيانية منها : « هل لك أن تجلسى لحظة فى هدوء ؟.. لسوف أجلب لك متعة جديدة يزول لها كل مابك من غضب ، كما تزول الأمواج من النيل عندما تخمد أنفاس النسيم ! » .. فتساءلت : « وما هى ؟» .. واذ ذاك أفعمت عيناه بنوع من السعادة الماكرة ، أو المكر السعيد - كالأطفال - وقال : « اجلسى هناك ، وسوف تعرفين » .. ثم غادر الحجرة ، وما لبث أن عاد بعد لحظة يحمل صندوقا كبير الحجم ، ملفوفا بعناية فى ورق مفضض .. وفكرت بادىء ذى بدء فى انه سوف يقدم اليها هدية أخرى؛ لعلها حلية ثمينة !.. ولكنه حين ازال الورق المفضض فى

حذر ، فتح حقيبة من الجلد الأحمر ، وكشف عن صندوق للموسيقى ، وضعه فى رفق على منضدة القهوة ، وانحنى فوقه ، ثم أداره .. فسمعت (طقة) ، تلاها طنين خافت ، وما لبثت أن تناهت الى مسمعى مسز أرماين ـ فى نشوة وطرب ـ أنغام لحن قديم من احدى أوبرات « أوبير » التى عفا عليها النسيان . وكان مطلع الأغنية : « تعال فوق البحر المتلألىء بضوء القمر ! »

وكان التحول من جو « السعدى » المليء بالدروشة البدوية، الى هذه التفاهات الرنانة الناعمة ، قد عبث بأعصاب مسز ارماين وأخرجها عن اتزانها .. فغمغمت : « أواه، يا بارودى! » .. وأخذت شفتاها ترتجفان ، فأشاحت بوجهها .. وكان الجهد الذى تبذله كى لا تفشى طربها ـ الذى كاد أن يكون هستيريا ، والذى اقترن برغبة حارة فى ان تدلل هذا الطفل العملاق ـ يوشك ان يخنق انفاسها .. وانبعثت طقة جديدة ، ثم توقفت الموسيقى .. وسمعته يقول : « انتظرى لحظة ! » .. ورن صوته فى رصانة ، كصوت طفل يقدر ـ كل التقدير ـ قيمة ماكان يفعل .. ثم « طقة » جديدة .. تلاها لحن «باريجى أوكارا»

واستطاعت مسز أرماين ان تسيطر على مشاعرها ؛ فأخذت نفسا عميقا ، وتحولت مرة أخرى نحو بارودى .. كانت فى وجهه القوى الجرىء علائم الغبطة والجذل ، فكأنه غلام غرير !.. ونظرت اليه ، فاذا بطربها وحنانها يتلاشيان ، ويعاودها من جديد ذلك الشعور الذى احست به فى « فيللا اندرود » .. كأن أطواقا من الخوف كانت تحيط بها .. فان المتناقضات البالغة فى هذا الرجل ، مقترنة بكمال جسمه ، كانت تجعله ـ فى أعتبارها ـ ذا جاذبية وسحر لا يقاومان .. **كانت فيه جدة كاملة تروق لقابليتها الداعرة ، التى أضحت منقلبة الأهواء ، قلقة ، بعد الأعوام الطويلة التى قضتها فيما**

كانت تزعمه لهوا .. لقد كان ـ عندما تكلم عن الموت منذ دقائق ـ قدريا غامضا جادا .. ولكنه انقلب الآن طفلا غريرا شهيا .. وان كان طفلا فى هيكل رجل يفيض بهاء!.. وانبعثت طقة جديدة من صندوق الموسيقى ، ثم لحن « سالفى ديمورا » وسألها : « ألنت الآن أحسن حالا ؟ » . فأومأت برأسها ، واذ ذاك اردف : « لقد اشتريته من نابولى ! »

ورفع الصندوق بين ذراعيه القويتين السمراوين ، وأدناه منها .. ولم يبد فى أساريره ماينم عن ارتياب فى أن طربها قد يكون عن هزؤ وسخرية منه .. كان من الجلى أنه ايقن من أنها كانت تحس بالسعادة كما كان هو يشعر بها . ومضى يقول : « انك تسمعينه الآن أكثر جلاء ! » .. فأومأت برأسها ثانية . وما لبثت ان قالت فى همس دون ان ترفع عينيها عنه : « قربه من أذنى ! » .. فأطاعها . وما ان لمست يده أذنها ، وأحست بخشونتها الدافئة ، حتى تنهدت

وانتهى لحن « سالفى ديمورا » ، فغمغمت : « هل من لحن آخر ! » .. وظلت تطلب « آخر » ، و « آخر » ، حتى انتهت مجموعة ألحان الصندوق ، وعندئذ حملته على أن يدير ثانية لحن « تعال فوق البحر المتلألىء بضوء القمر » . **وكان قفازاها موضوعين على الأريكة بجوارها ، فلم تلبسهما ثانية .. بل انها لم تتناولهما .. الى أن خفت وقدة الشمس، ومالت أشعتها .. وكان الصندوق الموسيقى قد ظل ساكنا مدة طويلة** . وقالت أخيرا : « يجب أن أنصرف ! » . ورفعت يديها الى شعرها الذى اختل نظامه ، وعادت تقول : « أجل ، يجب أن أذهب ! » .. ونظرت الى ساعتها ، ثم هبت قائمة وهى تستطرد : « لكم تأخر الوقت! .. أين ابراهيم؟ » . فبدا وجه ابراهيم البسام فى النافذة .. وهتفت به قائلة : «الحمار يا ابراهيم ! أريد الحمار حالا ! » .. فهتف : « سيكون لك كل ما تشائين ! »

ثم أومأ برأسه ، كأنما يؤكد هذا القول لنفسه ، وهو يغض ببصره الى الأرض ، وتابع كلامه : « ان حمزة على استعداد .. ان حمزة مكارى طيب جدا ! » .. فقالت : « حسنا .. ها أنا ذى مقبلة ! » .. فحياها ابراهيم ، وما زالت الابتسامة تضىء وجهه ، ثم اختفى عن الأنظار ، فمشت مسز ارماين الى النافذة ، وراحت تتطلع الى الخارج: كان الغروب قد حل ، وبدأ البهاء السماوى الذى يقترن بهذه الساعة السحرية ، فى هذه البلاد ذات الجو الخلاب ، يهبط على المنزل المنعزل ، وعلى بساتين البرتقال العظيمة التى كانت تحيط به .. وكانت أرض الممرات الجافة تتألق بوهج رقيق ، بينما غدت جذوع الأشجار النحيلة أشد غموضا وخفاء .. وكانت الأوراق وما تحتضنه من كنز الثمار — فى سكونها الشامل — مليئة بالآمال الخفية ، بينما كانت الأطيار التى سكنت بينها تتبادل التغريد الرقيق فى التسبيح بحمد الله !

كانت مسز أرماين تنظر الى الخارج ، وتصغى الى الأطيار ، بينما كانت الشمس تغوص فى الغرب الذى لم تكن تستطيع أن تراه .. وما لبث ان حان وقت المغرب ، أولى صلوات المساء المفروضة على المسلمين .. **وتمنت لو انها لم تكن مضطرة للذهاب .. كانت تود ذلك وتتمناه فى حدة ، وفى ضراوة ، بحيث فزعت لرغبتها هذه كأنها شبح انبعث أمامها فجاة ليواجهها ! .. كانت تتوق الى ان تبقى فى هذا المسكن بين البرارى ، وأن يدركها ليل النجوم الافريقية فى « فيلا ليلة الذهب »** .. وسمعت وقتئذ صوت الفلاح صاحب الشادوف يرتفع من بعيد ثانية ، ينذرها ولا ريب بالرحيل .. أو لعله لم يكن يطلب اليها سوى البقاء ! .. وكان من الغريب ان تلك العاطفة القديمة الميتة ، التى غيرت حياتها وشوهتها ، قد عادت الى الظهور خلال تفكيرها فى هذه البلاد! .. لقد كانت تناضل قيودها وأصفادها فى بادىء الأمر ، ولكنها

ما لبثت فى النهاية ان استسلمت اليها ، وغدت أسيرة لها ، ثم اصبحت أمة من امائها !.. كانت اذ ذاك شابة صغيرة ، اما الآن فانها قادرة على أن تتبين فداحة المصير الذى ينتظر مثل هذه الجارية التى لم تعد شابة صغيرة بعد ! .. ومن جديد، عاد الفلاح يصيح بها من النيل ، فكان صوته يبدو لها الآن وكأنه ينذرها حقا بأن عليها أن تنسحب ــ قبل أن يفوت الأوان ــ من بين يدى الاسلام ! .. قبل أن يفوت الأوان .. بينما لا يزال فى الوقت فسحة !

وكانت من الاستغراق فى التفكير فى نفسها وفى مخاوفها ورغباتها بحيث أن شطرا منها كان قد نسى وجود بارودى بالقرب منها ، بالرغم من أن شطرا آخر منها كان يفكر فيه حقا .. ولعلها كانت ــ اذ ذاك ــ تعتبره كعامل من العوامل المؤثرة فى حياتها ، لا كرجل يقف فى الحجرة التى كانت توليها ظهرها .. كان العالم الخارجى ، بحديقته ذات الأشجار الحالمة ، واضوائه المتالقة والخابية ، واصوات طيوره ، وذلك الصوت البعيد المنبعث من النيل ، قد ملك عليها حواسها مخاتلة وغدرا ، وان كان قد ضن عليها بالسكينة والسلام : ذلك لأن العاطفة عندما تبدأ ــ ولو لم تكن من نوع رفيع مثالى ــ فانها تنبض بالحياة فى طبيعة من الطبائع .. اذ انها لا توقظ القوى الجسدية فحسب ، وانما توقظ قوى اخرى اشد غرابة واعمق أغوارا .. قوى ربما قل استغلالها ، او ظلت مهملة ردحا طويلا .. **قوى تتصل بالجمال الذى لم تصنعه يد البشر .. قوى ذات شذى وأضواء وأصوات لا تحن للرجل ولا تشتاق اليه ، ولكن الرجل هو الذى يأخذها الى معبده المقدس ، لتكون ملك يديه وحده ، فى تلك اللحظات التى يكون خلالها فى أوج حيويته !**

ولكن العالم الخارجى حل به الآن دخيل اقتحمه ليحطم سحره وفتنته ، وليزيد فى نفس تلك التى كانت تطل عليه

خلال النافذة تأثير الروعة والرهبة . فما ان سكت صوت الفلاح، وتحركت مسز أرماين ـ وهى جادة فى اعتزامها الفرار ـ فاذا بها تسمع نداء يردد اسم الله وراء البساتين ، داعيا الى الصلاة .. واذ ذاك أنبأها شىء ما فى أعماقها بأن أوان الفرار قد ولى ، وانها تركته يفوت دون وعى منها ، وان اليدين اللتين كانتا تلمسانها الآن ، لن تلين قبضتهما عليها حتى .. حتى ماذا ؟

ولم تجب على هذا السؤال ، ولكن .. عندما صاح الفلاح مرة أخرى من بعيد ، خيل اليها انها تسمع رنة انتصار وحشية تدوى فى صوته !

الفصل الحادى والعشرون

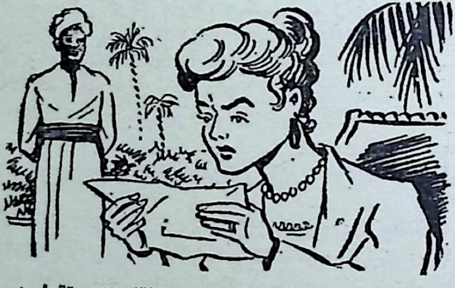

◆ بعد اسبوع تلقت مسز ارماين برقية من القاهرة ، تقول :

« سأسافر الليلة ، فاصل غدا صباحا . لك حبى ـ نيجل »

وكانت تتوقع مثل هذه الرسالة ، فقد كانت تعلم انها لابد آتية . ومع ذلك فانها أحست ـ عندما أحضرها لها حسن فى الحديقة ، حيث كانت تجلس اذ ذاك ـ كما لو انها تلقت لطمة على راسها !.. وانتظر حسن بجانبها فى هدوء ، حتى اشارت اليه بيدها ـ فى حركة يكاد يخالطها العنف ـ تنبئه بأن البرقية لا تتطلب ردا .. فلما انصرف ، جلست لحظة وقد نشرت البرقية على

ركبتها ، ثم صاحت تنادى ابراهيم ، فاقبل يتخطر بين شجيرات الورد ، ملبيا نداءها . واذ ذاك قالت له : « لقد جاءتنى برقية من القاهرة » .. وتناولت الورقة فارته اياها .. وقال الغلام : « هل سيدى ارمينيجيل .. هل هو عائد الى هنا ؟ » .. واذ اجابت : « نعم » ، قال فى لهجة من الارتياح الفاتر : « انباء طيبة جدا .. انباء لطيفة جدا حقا »

- لسوف يرحل الليلة ، فيكون هنا عند وصول القطار السريع صباح غد

واجاب ابراهيم متملقا : « هذا شيء جميل جدا .. فان مولاى قد طال بعاده وسوف يسر لرؤيتنا ثانية ! » .. فرمقته بنظراتها ، ولكنه لم يكن ينظر اليها ، بل كان يحدق فى اتجاه النهر ، وهو يدير زهرة بين اسنانه فى رصانة هادئة ، احست بها وكانها كانت تخزها وتزجرها .. ولكن ما الذى يهمه فى ذلك ؟.. لقد كان بارودى يدفع له ، وكان نيجل يدفع له ، فما من سبب يدعوه للانزعاج او الاضطراب .. وقالت : « لسوف يصطحبنى - عندما ياتى - الى الفيوم »

- نعم .. والفيوم مكان لطيف جدا .. مكان طيب جدا حقا !.. فهناك يوجد كل شيء .. هناك الثعالب ، والحمام ، والبط ، وكميات وفيرة من قصب السكر .. وهناك الماء ، والنخيل ، وكل شيء يمكن ان يشتهيه اى امرىء !

فهبت واقفة ، فى حركة عنيفة عصبية ، وقالت : « آه ! ما قيمة كل ذلك بالنسبة اليك ؟ .. انك لن تذهب معنا الى الفيوم فيما احسب » . فلم يقل شيئا . وعندئذ هتفت فى عجب : « او تراك ذاهبا معنا ؟ » .. فاجاب : « بالتاكيد ! »

- ستاتى معنا اذن ؟.. من اين لك ان تعرف ذلك ؟.. هل اخبرك مستر ارماين ؟

- ان مولاى لم يخبرنى بشيء ، ولكننى قادم معك .. وكذلك حمزة قادم ايضا !

فهتفت : « هل سياتى حمزة ؟ ».. وكان جوابه : « بالتاكيد ! ».. فاحست بشعور من الارتياح والرضى ، خالطه مع ذلك شيء ضئيل من الجزع . وسالته: « ولماذا ؟.. ما الذى يضطر حمزة الى الرحيل معنا ؟ » .. فاجاب : « ليكون سائقا لحمارك .. فان حمزة مكارى طيب جدا ! » .. وقالت فى شيء من شرود الذهن : « لست ادرى .. لست واثقة من اننى ساحتاج الى حمزة فى الفيوم !» .. ولكن ابراهيم تطلع اليها بوجهه الباسم ، وقال : « انك لن تجدى فى الفيوم مكاريا طيبا على الاطلاق يا سيدتى ! ولكنك حرة دائما فى ان تفعلى كل ما تحبين ، واذا كنت لا تودين اخذ حمزة ، فسوف يكون حمزة حزينا جدا ، وسيبكى حقا ، ولكنه سيمكث هنا .. فانت حرة دائما فى ان تفعلى

ما تشائين ! »

واذ فرغ من عبارته ، ادركت ان حمزة سيصحبهم .. ادركت ان بارودى قد امر بذهاب حمزة معهم .. فقالت ، وكان لها فى هذا الشان ارادة : « سوف نرى فيما بعد » .. ثم نظرت فى ساعتها ، وقالت : «لقد حان وقت الخروج» . فاجاب : « ان « الفلوكة » معدة ، وسوف تبحر « اللولية » هذه الليلة .. ستذهب « اللؤلية » هذه الليلة الى ارمنت » ..فقطبت مسز ارماين حاجبيها.. ارمنت ، اسنا ، كوم امبو ، ثم اسوان !.. كانما كان القدر يعتزم - فيما بدا لها - ان يسلط عقاربه السامة على فطرتها الأنانية المستبدة !.. فكيف يمكن لها ان تحتمل مثل هذا الوخز والعذاب ؟.. ولكن امامها يومها هذا . متى تتعلم حقا ان تعيش ليومها فقط ؟.. آلا ما اشد غباءها وحمقها !

ومضت الى الطابق الأعلى فى عجلة لترتدى ثيابها ، وهى لا تزال مقطبة الأسارير ، ودون ان تنبس بكلمة اخرى ..

* * *

◆ وكان الوقت قد جاوز منتصف الليل عندما عادت الى الفيللا .. وكانت الليلة غير مقمرة ، والريح تهب عاتية ضارية ، تجلد وجه النيل لتحيله الى امواج صاخبة يجلل حوافيها الزبد الفوار ، بينما كانت حبات الرمل تنور بسرعة زاحفة من الصحراء على البرارى وحدائق الاقصر .وكانت السماء خالية من النجوم ، والليل قارس البرودة ، كثيف الظلمة . وتشبثت مسز ارماين بذراع ابراهيم وهى تكافح لتصعد الى ضفة النهر ، ثم راحت تتلمس طريقها فى عناء الى المنزل الذى لم يكن يبدو منه غير ضوءين خافتين .. وكانت نوافذ الشرفة موصدة ، فدار حول المبنى الى الباب الأمامى .. وعندما مد ابراهيم يده ليقرع الجرس ، الم بمسز ارماين خوف مباغت ، وساءلت نفسها : « هبى ان نيجل رحل من القاهرة مبكرا عما كان ينتوى ؟.. هبى انه قد عاد فعلا ، وانه الآن فى المنزل ؟ » . وامسكت بيد ابراهيم ، فقال شيئا حملته الرياح ،فضاع فى زمجرتها .. ثم تركت يده ، وعندئذ قرع الجرس . ولم تمض لحظة حتى فتح حسن الباب .. وما ان ولجت المنزل حتى قالت لابراهيم : « سله عما اذا .. اذا كان قد حدث شىء .. اذا كانت هناك رسالة او اى شىء »

فخاطب ابراهيم حسنا بالعربية ، ثم قال : « انه يقول ان لا شىء هناك يا سيدتى » .. فقالت : « حسنا .. سآوى الى فراشى .. طاب ليلك يا ابراهيم ! » .. ومضت الى الطابق الأعلى . وما ان بلغت مخدعها ، حتى اوصدت بابه ، ثم جلست كما هى ، بالخمار الذى كان مسدلا على وجهها ، وقد رفعت ياقة معطفها ، وتشعث شعرها بايدى العاصفة الغاضبة . وكان على

منضدة الزينة مصباح مشتعل ، نسقت الى جانبه ـ فى أوضاع عجيبة ـ بعض الأشياء الفضية ، والفرش ، والزجاجات ، والعلب ، التى توضع عادة فى حجرة الزينة .. كانت هذه الأشياء منسقة فى نوع عجيب من الرسم الزخرفى، يدل على الاجتهاد وسعة الخيال ، مما ذكرها فى حدة بالحقيقة الواقعة .. بانه لم تعد لها وصيفة !.. فلقد تخلصت من مارى ، التى بارحت الاقصر فى اليوم السابق ، دون ان تندى عيناها بالدموع ، أو يبدو عليها الأسى ، وانما كانت تبدو متحفزة ، شرهة ، فضولية ، الى اللحظة الأخيرة !.. وكانت مسز ارماين قد أتت اليها قبل ذلك بيومين ، وفى يدها خطاب مفتوح من نيجل ، فقرأت ، عليها قراره بأن وجود الوصيفة فى الفيوم من الأمور المستحيلة ، وان مارى يجب ان تترك خلال تلك المدة فى الاقصر .. وتلا ذلك مشهد صغير أجادت المرأتان تمثيله ، فمضت مسز ارماين تندب الحظ ـ الذى اقتضى ضرورة فراقهما ـ ولكن فى غير اغراق أو مغالاة .. على حين مضت مارى تأسف على قرار السيد بأن يأخذ سيدة « فى مثل هذه الرقة وفى مثل هذا اللطف » الى « عالم فى مثل هذه الفظاعة وهذه الوحشية » .. ولكنها كانت تشير ـ فى الوقت نفسه ، وفى تذلل ريائى خبيث ـ الى انها ما كانت لتستطيع ان تبقى وحدها فى المنزل بالاقصر مع ثلة من النوبيين !.. كانت كل من المرأتين راضية عن نفسها ، وهى ترى مواهب انوثتها تنطلق فى مهارة بالغة .. فكانت مسز ارماين تعرب عن أسفها لقرار مارى ، وتبدى اعجابها فى الوقت نفسه بما لدى الفتاة من اعتزاز مرهف بعذريتها . ثم تظاهرت بأنها اكتشفت ـ بمحض المصادفة ! ـ ان كثيرا من الأشياء الأنيقة التى ابتاعتها من باريس ، لم يعد يصلح لها .. وان ثوبين أو ثلاثة من ثيابها البديعة الرائعة ، لم تعد تلائمها .. وانها ـ وهى توشك ان ترحل الى الفيوم ـ لا « تستطيع أن تضايق نفسها » ببعض القبعات التى طالما قالت مارى عنها أنها « أشد أناقة من الشيطان نفسه ! » .. ثم كتبت للفتاة « شهادة » رائعة ، وتلاقت يداهما على « شيك » مفرط فى السخاء !.. وبذلت بعض الوعود فى غير اهتمام ، ولكن مارى كانت تعلم انها سوف تتحقق، فتركت عنوانها الدائم فى باريس .. ثم نزلت الستار فى بطء . آه !.. من المؤسف حقا انه لم يكن هناك متفرجون يشهدون هذه المسرحية ! ولكن المواهب، كالعبقرية سواء بسواء ، تجد فى نفسها العزاء والجزاء !

وهكذا أصبح حسن هو الذى يرتب « أشياء » مسز أرماين .. ومع انها كانت راضية عن رحيل مارى ، الا انها شعرت بارتباك شديد بغير وصيفة .. فلم يحدث قط ، منذ كانت فتاة صغيرة ، ان اعتادت أداء شىء من مطالبها التى يمكن ان تؤديها وصيفة ماهرة .. ولم تكن بالمنزل خادم انثى . ولقد كانت ـ فى تلك الليلة ـ متعبة ، شديدة الانفعال .. كانت اعصابها متوترة ، كما كان قلبها

يشتعل بغيرة تعلم حق العلم أن من المقدور لها ان تشتد ، وان لا تخمد نارها، فى الأيام المقبلة عليها !.. وأحست بانقباض شديد ، فما أبشع ان تعود الى المنزل فى مثل هذه الحالة ، وفى سكون الليل ووحشته ، ثم تجد نفسها محرومة من وسائل الراحة !.. وعندما رأت تلك الأشياء الفضية منسقة كلها فى اوضاع خاطئة ، وقد تناثرت الفرش هنا وهناك ، وغرست فيها الأمشاط واسنانها الى أعلى ، وقنانى العطور وقد وضعت على جانبها بدلا من اقامتها مستوية على قواعدها ، وعلب المساحيق وقد وضعت معكوسة عاليها أسفلها .. عندما رأت ذلك كله أحست بالرغبة فى البكاء حتى ينضب معين دمعها .. فلم يعد هناك من ينزع عنها قبعتها ، ويرجل شعرها ويمشطه ، ويخلع عنها ثوبها، ويفك أربطة حذاءيها .. ثم ، فوق ذلك كله ، سيصل نيجل فى التاسعة من صباح الغد !

وكانت الرياح تزأر وتزمجر فى الخارج .. وقد أفلت أحد المصاريع الخشبية للنوافذ من عقاله ، فراح يرتطم بالجدار فى دوى عنيف ، على فترات متقاربة ، فيوحى اليها كان شريرا أثيما يحاول ان يقتحم النافذة ! .. كانت موقنة من مصدر هذه الضجة المتكررة .. وكانت تعلم انها قد تستطيع ان توقفها اذا ما فتحت النافذة لحظة ومدت يدها ، ومع ذلك فقد كانت خائفة من اتيان ذلك .. خائفة من أن تمد يدها فى تلك الظلمة العاصفة لئلا تفاجأ بيد اخرى تمسك بها !.. كانت ملأى بالمخاوف العصبية !.. ولم تكد تصدق – وهى فى جلستها هذه – انها فى مصر ، فان زئير الرياح كان يوحى بمناخ شمالى بارد كئيب .. وارتطم مصراع النافذة بالجدار فى دوى حاد ، فلم تعد تقوى على احتمال هذه الضجة ، ونهضت الى خارج الحجرة ، حتى اذا بلغت قمة الدرج صاحت تنادى : « ابراهيم ! » .. ولم تتلق جوابا .. وكانت الانوار كلها مطفأة ، فاستشرى فيها الخوف من هذه الظلمة الفاغرة فاها ، وعادت تصيح من جديد : « ابراهيم ! ابراهيم ! »

وسمعت حفيف ثياب ، وخطوات خفيفة واسعة تعلن ان شخصا يقبل اليها مسرعا ، فارتدت الى حجرتها ثانية .. وعندئذ ظهر ابراهيم متسائلا : « ماذا تريدين ياسيدتى ؟ » . فاشارت الى النافذة قائلة : « المصراع الخشبى . لقد افلت من مكانه .. ألا تستطيع ان تثبته ؟ انه يثير ضجة فظيعة ، ولن أتمكن من النوم الليل كله ! » .. ففتح النافذة ، وعندئذ اندفعت الريح الى الداخل، فتوهج المصباح قليلا ، وما لبث ان انطفأ

وظلت مسز ارماين دقيقتين أو ثلاثا لا تسمع شيئا سوى زمجرة الرياح ، التى كان يبدو انها استحوذت على الحجرة بأكملها ، فاحست وكأنها اضحت فريسة للرياح وفريسة للظلام معا !.. واطبق عليها انفعال تهوسى .. رعب

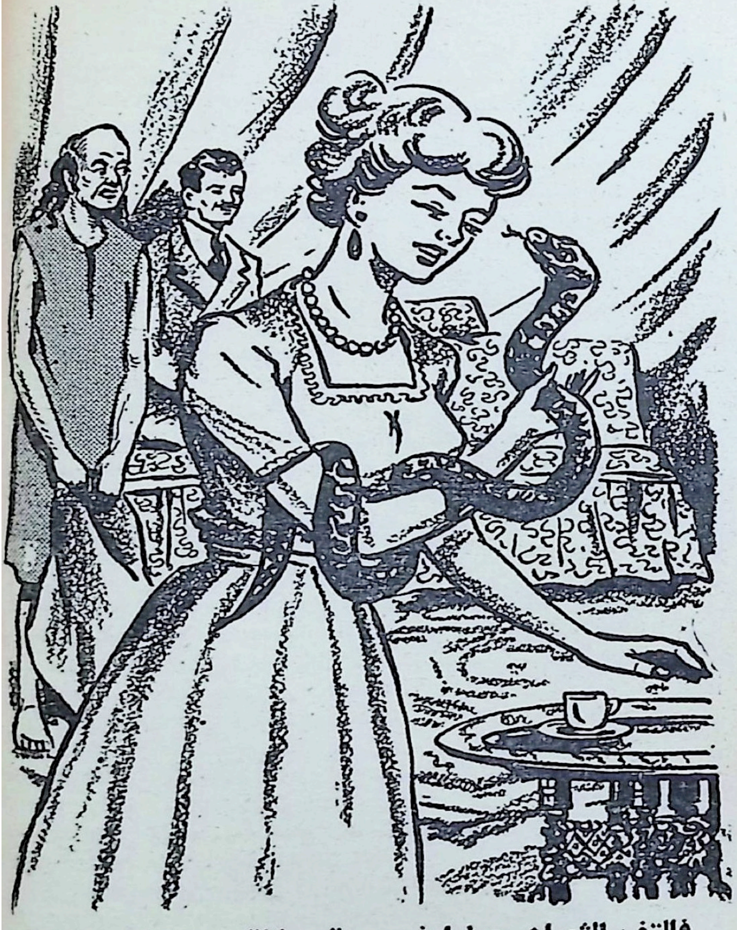

فالتف الثعبان حولها فى سرعة وخفة ... (ص ٨٦)

جامح من القدر ومن المجهول ! وانتابها - فى العاصفة وفى الظلام - احساس كئيب بالعجز والهلاك ، وبأنها قد فقدت السعادة والضياء الى الابد .. فلما طردت الرياح من الحجرة واوصدت النافذة دونها ، وانبعث صوت احتكاك الثقاب ، ثم لاح وهج ضئيل ، وانكشف لعينيها جزء من ابراهيم - الذى بدا عملاقا فارع الطول الى حد غريب ، فى العباءة الصوفية السوداء التى كان يتدثر بها لتحميه من البرد - وثبت مسز ارماين نحوه وهى تشعر براحة وطمانينة لا يمكن وصفهما ، وهتفت قائلة : « آه يا ابراهيم ! يالها من ليلة رهيبة ! شد ما اشعر بالخوف منها ! »

واشعل ابراهيم المصباح فى مهارة ، ثم استدار نحوها وراح يحدق فيها ، وهو يقول : « انك يامولاتى شاحبة ، ناصعة البياض كزهرة اللوتس التى يحملها رمسيس ! » .. وكانت قد وضعت يدها على ذراعه .. ولكنها لم تلبث ان تركتها تسقط بجانبها ، ثم جلست على الاريكة وبدأت تنزع الدبابيس من قبعتها وقناعها ، وتلقى بها كلها الى الارض .. ثم قالت : « انها العاصفة .. واننى لأكره عزيف الرياح بالليل ! » . فقال ابراهيم ، وعلى أساريره علائم الجد : « ان الجنى يمتطى الريح ! » . فهتفت : « الجنى ؟.. وما هو ذلك ؟ » . فاجاب : « روح شريرة ، تسعى للايذاء ! لقد كان فى الحجرة الليلة ! »

وراحا يتبادلان النظرات فى صمت . ثم قالت مسز ارماين : « هل المصراع على مايرام الآن ؟ » .. فاجابها : « بالتاكيد » . فقالت : « اذن ، عم مساء ! »

فرد تحيتها قائلا : « طابت ليلتك ياسيدتى » . و سعى الى الباب ، ثم قال : « لقد كان الجنى فى الحجرة الليلة بالتاكيد ! » .. فحاولت ان تبتسم لهذا السخف ، ولكن شفتيها لم تطاوعاها ، فقالت : « ولمن تراه قد أتى ؟ » .. فاجاب : « لست أدرى .. ربما جاء ليقابل سيدى أرمينيجل ! انها ليلة بغيضة هذه الليلة . ولقد مات « محمد » الليلة .. مات فى الليلة التى تفصل بين يومى الاحد والاثنين ! »

وطاطأ راسه فى اسى ، ثم غادر الحجرة وهو يغلق الباب خلفه فى رفق . وما كاد ينصرف حتى خلعت مسز ارماين ثيابها ، وتركتها متناثرة تملأ الحجرة فى غير نظام او ترتيب ، ثم أوت الى فراشها . وكانت قد تركت المصباح مضاء .. فقد كانت خائفة من الظلمة ، وكانت تعلم انها لن تستطيع النوم .. اذ انها - برغم استهزائها بالخرافات المصرية - كانت كلما نظرت حواليها فى الحجرة ، تشعر بانها كانت تبحث على غير وعى منها عن الشبح المظلم للجنى !.. ولقد ظلت الرياح تزار الليل بطوله ، وظلت مسز ارماين الليل بطوله يقظة ، حائرة ، خائفة ، تدبر الخطط ، وتتصور الاحداث ، فى

فزع من المستقبل ٠٠ ومع ذلك فقد كانت تستجمع كل حذقها وبراعتها ، ورصيدها من العزم والارادة ، لتشكله حسبما كانت تريد وتهوى ، وهى مطمئنة الى انها ستجد من يعاونها فى ذلك : بارودى ، ابراهيم ، حمزة !

وعندما خمدت أنفاس الرياح مع الفجر ، وغشيها النعاس أخيرا فى خطى متسللة ، كأنه موجة رقيقة ، كان آخر ما رأته بعين الخيال هو طيف حمزة ، منتصب القامة ، رصينا ، يحف به الغموض والاسرار ، وقد أمسك بيده عصا مشرعة نحو السماء ٠٠ أو لعله كان ذلك الجنى الذى جاء من ظلمات الليل ليقابل « سيدى أرمينيجل » ؟!

* * *

◆ ماهذا ؟٠٠ أهو الجنى يتحرك ويتكلم ؟ أم هو ٠٠؟ من المحقق أن ثمة صوتا وحركة بالحجرة وفتحت مسز ارماين عينيها ، فرأت أشعة الشمس ، ورأت شخصا بجوار الفراش ٠٠ وسمعت صوتا يهتف : « روبى ! » ٠ فاختلجت اجفانها بفعل الضوء الباهر ، ثم فتحت عينيها على سعتهما ، وهى لا تزال ترقد بلا حراك ٠ وعاد الصوت يهتف : « روبى ! » ٠٠ وشعرت بيد تستقر فوق احدى يديها ، فأعادتها هذه اللمسة من غياهب النوم الى ضياء اليقظة ، واستطاعت ان تميز نور الصباح ، وأن تتبين نيجل ٠٠ كان يقف بجوار الفراش فى ثياب السفر ، يعلوه الغبار ، فى شعر قصير مشعث ، ووجه لوحته السمرة وأشرق بهاء ، وقد راح ينظر اليها ممسكا بيدها

— هل روعتك ؟٠٠ لم أقصد ذلك حقا ، ولكنى ظننت انك لابد أن تكونى مستيقظة الآن !

ولم يكن يخالط صوته شيء من اللوم أو التقريع ، ولكن مجرد نبرة من الامتعاض سرت فيه ٠٠ فاستوت جالسة ، وهى تتكىء على الوسادة الكبيرة ، قائلة : « ويحى !٠٠ كنت أنوى الذهاب الى المحطة لاستقبالك ! » ٠٠ فجلس ملاصقا لها — وهو لايزال يضع يده فوق يدها — وهتف قائلا : « هل كنت تنوين ذلك حقا ؟ »

— بلا ريب ! ولكنها تلك العادة الذميمة التى تلازمنى ٠٠ عادة الرقاد يقظة مسهدة أثناء الليل ، والنوم فى الصباح ٠ كذلك كانت ثمة عاصفة رهيبة فى الليلة الماضية

— أعرف ذلك ٠٠ كانت الجان تطوف مطلقة السراح !

وكان يقول ذلك مازحا ، ولكنها هتفت متسائلة : « كيف عرفت ذلك ؟ » ٠٠ فقال فى عجب : « كيف ؟! ٠٠ لماذا ؟ انهم فى مصر ٠٠ ولكن ماذا تعنين ؟ » ٠٠ على أنها كانت قد استجمعت حواسها ، وأفاقت من النوم تماما ،

فاستعادت هدوءها الفريزى ، وتحررت من ربقة الليل ، وقالت : « شد ماتبدو فى صحة طيبة ! »

ـ انه العمل .. والشمس .. والحياة تحت الخيام !.. ما اروع ذلك وما أبهاه !.. كم أود أن يروقك ذلك وأن تحبيه !.. ولكن ، الا نتناول بعض الشاى معا ؟.. وبعدئذ أقفز الى الحمام ، فان الجو من البرودة بحيث لا يصلح النيل للاغتسال هذا الصباح ، بينما الغبار يملأ كل جزء فى جسمى .. سوف اقرع الجرس لمارى

وهم بالنهوض ، ولكنها امسكت بيده وقالت : « نيجل ! » .. فتريث متسائلا : « نعم ؟ » .. فهتفت به : « لا تدق الجرس لمارى »

ـ ولم لا ؟ ـ لا جدوى من ذلك !

ـ لماذا ؟ أهى مريضة ؟ ـ لقد رحلت

فهتف : « رحلت ؟! » .. وتأمل الاضطراب الذى كان يسود الحجرة ، والثياب المتناثرة على قطع الاثاث وعلى الارض ، وقال : « بوسعى الآن أن أفهم ذلك كله .. ولكن ما السبب ؟ هل سرقت شيئا ؟ أم .. أم لعله كان ينبغى ان احضر امرأة أخرى فى المنزل ؟ » .. فاجابت : « كلا ، كلا .. لاشىء من ذلك ، وانما أنا التى سرحتها وديا ! لقد ظننت أنها سوف تعترض سبيل راحتنا فى الفيوم .. فماذا كان يمكن أن نفعل بها فى خيمة ؟ » . فتساءل : « وهل ستدبرين شئونك بغير وصيفة ؟ » . وغمرت وجهه اشراقة من السرور الوضاء ، واستطرد قائلا : « يالك من زوجة طيبة ! » . وانحنى فوقها ، ووضع يديه على كتفيها فى رقة ، ثم قبلها قبلة طويلة !

وما لبث ان أضاف ، وهو ينهض ثانية ، فى نوع من المزاح الحنون وقد عاد يجيل أنظاره فى الحجرة : « وهل هكذا تدبرين شئونك ؟.. يجب ان أتعلم كيف أخدمك ! » .. واخذ يدور فى الحجرة على غير هدى ، وهو يجمع الاشياء ، ويتناولها بطريقة خاطئة ، حتى وضعها كلها فى كومة واحدة فوق الاريكة .. وقال : « سأتقن العمل فى المرة القادمة !.. أما الآن فسأدعو حسنا ليحضر الشاى ، وسوف أحدثك أثناء تناوله عن معسكرنا فى الفيوم . ولكن .. كلما فكرت فى انك تخليت عن وصيفتك ! » .. وقبلها ثانية فى حنان ، وتمهل قليلا ، ثم مضى لشأنه !

* * *

◆ وما كاد يذهب حتى نهضت من الفراش .. كان عليها أن تبحث عن ثار ، ولم تكن تعرف موضع أى شىء من متاعها .. كان البقاء بغير وصيفة

امرا يبعث على الجنون !٠٠ وتمنت ـ أكثر من مرة ـ وقد عاد نيجل ، ولم يعد فى وسعها أن تذهب الى بارودى لو انها كانت قد احتفظت بماری ٠٠ أتراه كان من الافراط فى الغباء أن تحتفظ بها ؟٠٠ وراحت تجذب الادراج واحدا بعد الآخر ، ودبت الحرارة فيها ، واستبد بها التعب ، قبل ان تجد بغيتها ٠٠ ترى كيف تكون الحياة فى خيمة ؟٠٠ انها لتكاد تحس بالغثيان كلما فكرت فى كل ما ينتظرها ٠ آه ! ها هو الدثار اخيرا !٠٠ وانتزعته من مكمنه فى عجلة وعنف ، ولفته حول جسمها كيفما اتفق ٠٠ ولكن طبيعتها الحقة ـ ذلك الشطر الدؤوب من نفسها ـ عادت الى البروز فجاة ، فبادرت الى المرآة واخذت تصلح من وضع الدثار حولها فى عناية بالغة ، ويد مدربة ، ثم عقصت شعرها فى بساطة ، ومضت تتامل نفسها لحظة ٠٠ ترى هل استطاع الواقع الجديد أن ينطبع على وجهها ، وعلى جسدها ؟!

لقد رأت امامها امرأة تفيض نشاطا ، وتتدفق فيها الحياة بقوة تبهر البصر ٠٠ كانت العينان ـ بعد ان خلصتا من آثار النوم ـ دافئتين مليئتين بالعاطفة الموعودة !٠٠ وكانت الشفتان نضيرتين رطبتين ، والقوام فاتنا شديد الاغراء ٠٠ أما العنق الجميل فقد ظل محتفظا بروعته كاملة ٠٠ لقد ارتدت الى عنفوان الشباب فى مصر ، وهى تعلم سبب ذلك حق العلم ٠٠ انها وحدها تستطيع أن ترى الواقع الجديد منطبعا عليها فى جلاء ووضوح ٠ اما نيجل فلن يدرك كنه ما بها ٠٠ سوف يخطىء فهمه ٠٠ سوف يحسبه من اجله هو ـ شان الكثيرين من الرجال المخدوعين ، منذ فجر الزمن ـ وسيقول لنفسه : « ذلك كله من اجلى ! » ٠٠ ومضت تمعن النظر فى صورتها طويلا ، فطربت لذلك التغيير الحيوى الذى ألم بها ٠ وفى غمرة هذه النشوة ، انتهت الى عزم خليق بامرأة تافهة مغرورة : يجب ان تسخر ارادتها باكملها فى سبيل الاحتفاظ لنفسها بهذا الدفء الذى ملأ حياتها الباردة ٠٠ يجب أن تدرب طبيعتها ، وتسوس عواطفها ، وتروض عقلها على قبول كل ماهو مقبل عليها : الملل ، والانتظار ، ومتاعب التظاهر والتمثيل الطويلة ، والسأم من حياة الخيام ، والوحدة المزدوجة فى الفيوم !٠٠ وما ينبغى لها أن تسمح لهذا الفيض من الجمال بأن تشوهه الغيرة بجحافلها المخربة ، فان الغيرة غالبا ماتدمر جمال النساء وتحيلهن الى عرافات ناحلات شاحبات ٠٠ ولكنها لن تخور أو تستسلم ، فان الجمال ـ فى اعتقادها ـ هو كل شىء بالنسبة للمراة ٠٠ والمراة التى تفقد جمالها ، انما تسقط من الحساب ، ولا تعود محسوبة بين الاحياء !٠٠ وكانت رؤيتها لصورتها فى المرآة ، وتقديرها لجمالها ، يبدوان وكانهما قد سلحاها فى جميع الميادين ، ففارقها الانقباض الذى ملأ ليلها بالرعب والفزع ، وعمر صباحها بالخوف والتوجس ٠٠ وغدت قادرة على ان تمنى

نفسها بان المستقبل ملىء بالاشياء الذهبية ، لانها غدت قادرة على الايمان بان فتنتها لا تزال وافرة عامرة !

* * *

◆ وفى ذلك اليوم أرضت نيجل وأبهجته ، وخلبت لبه وسحرته ، بذلك الفيض الدافق من مفاتنها الحيوانية .. ولم يكن بوسعه ان يابى عليها شيئا . ومن ثم كان على استعداد - عندما رجته ضاحكة ان يكون لها مكاريها الخاص وحمارها فى الفيوم ، وهى التى استغنت عن وصيفتها ! - لأن ينزل على ارادتها . وقال فى حرارة : « سناخذ محمدا ، اذا شئت.. ولو ان هناك عددا وفيرا من المكارين حيث نحن ذاهبان » .. فقالت : « اننى استغنيت عن محمد » . فلاحت عليه الدهشة ، وقال : « أحقا ؟ وماذا فعل ؟ » .. فاجابت : « لا شىء على التحديد .. ولكنى افضل حمزة ! »

وتمهلت لحظة ، ثم أردفت فى بطء وهى تشيح بوجهها جانبا : « ان فيه شيئا غريبا يثير اهتمامى .. واحسب انه ربما كان ناشئا عن ايمانه العميق بعقيدته ، وتفانيه العظيم فى الدين الاسلامى .. وانا .. اننى لا املك نفسى من الاعجاب بذلك ، ولسوف يسرنى ان ناخذ حمزة معنا .. فهو يختلف كل الاختلاف عن غيره ! » .. وما لبثت ان غيرت لهجتها فاضفت عليها لونا من المرح وهى تستطرد قائلة : « وفضلا عن ذلك فان حماره خير الحمير على ضفتى النهر ، فقد احضره من سوريا ، وانه ليعد عجيبة من العجائب .. هبنى حمزة ، وحماره ، وابراهيم ، كحاشية لى ، واعدك بانك سوف لا تسمع منى اية شكوى البتة ! »

- لسوف يكونون لك حتما ، فانى احب الرجل الذى يعنى بعقائده ، وان خالفت عقائدى وكان من المستحيل ان اومن بها يوما !

وهكذا تقرر مصير حمزة وابراهيم فى يسر وسهولة .. ولكن ، لم يكد نيجل يدعو ابراهيم ويخبره بانه قد قرر ان ياخذه وحمزه الى الفيوم ، وان عليه ان يخبر حمزة على الفور ، حتى بدا على ابراهيم شىء من التردد والشك ، وقال : « سأفعل كل ما يريده سيدى ، ولكن حمزة يربح كثيرا من عمله فى الاقصر ، ولا أدرى ان كان يقبل الذهاب الى الفيوم » .. ورمق مسز ارماين فى اعتذار وأسف ، وأردف قائلا : « اننى سعيد جدا بذهابى ، أما عن حمزة فلست أدرى .. » ، وكان يتكلم فى لهجة من الاخلاص الظاهرى أوشكت ان تخدع مسز ارماين ، فظنت ان بعض عراقيل قد نشأت حقا !

وهتف نيجل : « اعرض عليه كل ما يمكن ان يطلبه ، وأراهن انه سوف يسعد بالذهاب ! » .. فقال ابراهيم : « اننى ذاهب لأرى ياسيدى ! » ..

واذ ذاك قال نيجل لزوجته : « انه سيكون لك ياعزيزتى ، مهما يكن ثمنه ! »

واتم ابراهيم الصفقة مع حمزة فى عناء بالغ ، كما قال ! .. وهكذا اسلمت « فيلا اندرود » فى اليوم التالى الى رعاية حسن ، ورحلت اسرة ارماين شمالا فى قطار المساء السريع المتجـــه الى القاهرة ، حيث رؤى ان يمضيــا يومين وليلتين ، حتى يتسنى لمسز ارماين أن ترى الاهرام وابا الهول . وكان نيجل قد حجز الحجرات اللازمة لهما فى فندق مينا هاوس ، وعنى بان تكون ذات شرفة تواجه الهرم الاكبر مباشرة ، وتطل على رمال الصحراء

وافطرا فى فندق شبرد ، ثم استقلا عربة مقفلة مضت بهمــا فى « طريق اسمــاعيل » تحت أشجار اللبخ المتعــانقة .. وكان نيجل فى ابدع حالاته المعنوية ، اذ خيل اليه فى هذا الصباح كأن حياته كانت تسمو الى اوجها ، وكانما قد كتب له ان يوهب قدرا من السرور يفوق كل ما يستحقه ! وهو - كرجل زاهد - لم يكن فى يوم من الايام ولوعا بالمجتمع ، او مباليا بقراراته وآرائه ، ومن ثم فانه لم يستشعر الألم قط ، كما كان يمكن ان يحدث لكثير من الرجال ، عندما أحس باشفاق المجتمع عليه ودهشته بل احتقاره وازدرائه اياه لزواجه .. ولكنه كان - فى الوقت ذاته - فرحا فى قرارة نفسه مغتبطا لحرمانه من الارث فى لقب اسرته وأملاكها ! فلو انه ورثهما لأصبح موقفه أشد حرجا ، واصبح مركزه مع « روبى » أشد تعقيدا . اما وقد جرت الامور على ما هى عليه الآن ، فانه و « روبى » كانا حرين طليقين كالهواء ، وكانت روحه تتواثب طربا لحريتهما هذه . وهتف قائلا : « اننى لاشعر اليوم كمــا لو كنت واحدا من أبناء القبائل الرحالة ! ولكن ، بحق السماء .. اليس الهواء باردا ؟.. انه دائما يهب فوق هذه السهول فى الشتاء .. تدثرى جيدا ياعزيزتى ! »

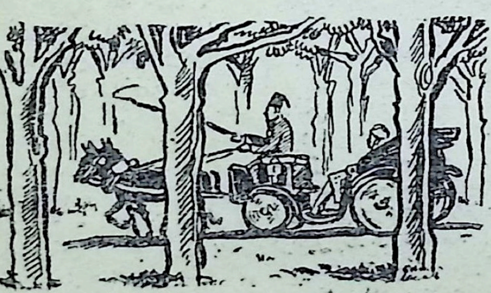

ومد يده يجذب الفراء ويحكم وضعه حولها ٠٠ فقد أصبح يشعر - وهو سبا - بان عليه ان يغالى فى رعايتها ، وأن يحرص على ان يؤدى بعض الخدمات الصغيرة لها ٠٠ وكان يؤديها فى لمسة رقيقة تكشف - وهى تصدر عن رجل فى مثل صحته الموفورة وقوته العظيمة - عن مدى التقدم الذى احرزه الرجل المستقر فى اعماق نفسه ، خلال الفترة التى غابها عنها ٠٠ واستطرد يقول : « ساقوم بعمل وصيفتك ! » ٠٠ فقالت وقد غاصت فى ثنايا الفراء : « ولكنك لن تلبث ان تشغل بالعمل والصيد ! » ٠٠ وكان وجهها مغطى بالخمار الذى كتم بعض صوتها ، فلم يكد نيجل يسمع صوتها بجلاء ٠ وعاد يقول : « انك فى المقام الاول ، وساتوفر على العناية بك قبل أى شئ آخر » ٠ فرفعت الخمار لتكشف عن شفتيها ، وحتى ينطلق صوتها وهى تقول : « ولكنى اريد ان يكون عملك فى المقام الاول ، فاننى اكره المرأة التى تتزوج من رجل ، اعجابا منها بخلقه ، ثم تسعى بكل الوسائل بعد ذلك لتغير هذا الخلق ، لتهبط به من مكانته كرجل الى ٠٠ حسنا ٠٠ الى مايشبه وصيفا ذكرا !٠٠ كلا يانيجل ٠٠ ركز اهتمامك فى عملك ٠ وسادبر امورى على خير وجه ! »

وشعرت اذ ذاك بانها لن تستطيع ان تطيقه اذا هو عكف على العناية بامرها بمثل هذا الالحاح طيلة اليوم !٠٠ ومع ذلك فانها كانت تصبو الى أن يكون عبدا لها ٠٠ كانت تتوق دواما الى أن ترى الرجال يعبدونها ٠٠ ومع ذلك فقد كان فى أعماقها اذ ذاك شىء لعله كان قديرا - على مر الزمن - أن يطغى على زهوها وغرورها ٠٠ وقال نيجل : « لسوف نرى ٠٠ سيكون العمل على مايرام ياروبى ٠٠ يمكنك أن ترى الاهرام جيدا الآن ! » ٠ فنظرت عبر السهول الى تلك المقابر العظيمة التى كانت تجتذب العالم الى اقدامها - ممثلا فى السياح الذى اعتادوا ان يتدفقوا لزيارتها - ثم قالت : « وددت لو أن البرد لم يكن قارسا الى هذا الحد ! » ٠٠ وخطر بارودى ببالها ٠٠ كان بارودى الآن بعيدا فى الجنوب الذهبى ٠٠ ولعله مع « القمر المكتمل » !٠٠ وفى تلك الاثناء ، قال نيجل : « لن يكون بهذا السوء أو نصفه عندما نصل الى فندق مينا هاوس ، فان الريح تهب على هذا الطريق دائما فى الشتاء ! »

- وفى الفيوم ؟٠٠ هل سيكون الجو باردا هناك ؟

- كلا ، انه ليس بمثل هذه البرودة ٠ على ان الحرارة تنخفض احيانا فى بعض الليالى ، وكثيرا ما ينتشر الضباب !

وهنا تساءلت مسز ارماين : « أهو ضباب كثيف ؟ » ٠ فاجاب : « اننا لن نحس بشىء من ذلك ، فسننعم فى خيمتنا بالدفء والدعة » ٠٠ وهنا عاد ذهنها الى شروده : لقد كانت « اللولية » تمخر عباب النيل - فى هذه الاثناء -

فى صميم الدفء والشمس الذهبية الساطعة !·· وأحست كان قلبها راح يغوص بين جنبيها ، ولكنها سرعان ماذكرت ما استقر عليه عزمها فى « الفيللا » ، فاذا بغرورها يبسط يده لذلك الشعور الذى خامرها منذ دقائق وخالت انه يناوىء هذا الغرور ، وتعانق الشعوران فى وئام ! ·· وكانت العربة ماضية بهما فى خفة وسهولة ، والجياد تركض فى الهواء المنعش ، والصحراء تبدو باهتة غير واضحة المعالم فى هذا الصباح العاصف ·· ولكنها ما لبثت ان ازدادت وضوحا وامتلاء بالنداء والدعوات !·· واتسع الطريق عند نهايته – كانه فم يفتح على سعته – وظهر صف من الحمير ، يتخلله هنا وهناك جمل ابيض يزدان بسرج مزركش ، وقد أحاطت بها جماعات من المصريين تعالى صياحهم وراحوا يحملقون فى العربة بعيون جشعة نهمة !·· وصاح الحوذى عاليا ، فاندفعت الجياد راكضة ، وتحولت نحو حديقة الى اليمين ، وما لبثت آن وقفت امام مينا هاوس !

* * *

◆ ولم تنقض دقيقة حتى كانت مسز ارماين تقف فى شرفة يفضى طرفها الاقصى الى بحر من الرمال الصفراء الشاحبة ·· وتبعها نيجل ، ولكن بعد ان كانت قد انقضت بضع دقائق ، فقالت فى صوت يخالطه شىء من الضيق ، وهو يقترب ليقف الى جوارها : « يبدو انك تعرف كل انسان هنا ! » ·· فأجاب : « الواقع ·· ان هناك بعض رفاق من القاهرة أتوا لقضاء بضعة أيام هنا » ·· فتساءلت : « مع زوجاتهم ، فيما يظهر ؟ » · فقال : « أجل ·· بعضهم اصطحبوا زوجاتهم · ثم اننى عرفت – بالطبع – عددا كبيرا من الناس فى الشتاء الماضى ·· ألا ترين ان الجو أكثر دفئا هنا ؟·· فلدينا الشمس فى عنفوانها ، بينما الرياح اقل شدة مما هى فى الجانب الآخر ·· ثم ، أليس الهرم الاكبر هائلا ؟ »

وأمسك بذراعها فى حنان ، واستطرد قائلا : « أما أبو الهول فيقوم وراءه ·· وانى لأود ان تريه للمرة الاولى قبل ان يهبط الليل » · فقالت : « دبر مايروق لك ! » ·· وكان صوتها لا يزال مشوبا بتلك النبرة الدالة على الضيق ، فقد كان عليها ان تمر وسط النظرات المتطفلة المشوبة بالعداء – سواء فى شرفة الفندق الكبرى ، او فى البهو الفسيح – وهى التى تزوجت ثانية وهجرت حياة التحدى التى كانت تحياها كل هذه السنوات ·· اجل ، انها قد غدت اقل استهانة واستهتارا بالرأى العام وبعداء النساء ، مما كانت من قبل ، واصبحت تتمنى أن يتقبلها المجتمع ثانية ·· ولقد كان بوسعها ان ترغم الناس على قبولها فى المجتمع ارغاما ، لو انها اصبحت ليدى هارويتش !

.. وكانت تهجس لنفسها بذلك وهى تتطلع نحو الهرم الاكبر ، ومن ثم كانت كلمات نيجل عن ابى الهول تقع على اذنين غير واعيتين .. كان نيجل قد أقدم على خطوة غير حكيمة ولا موفقة - دون أن يفطن - اذ أحضرها الى مينا هاوس فى هذا الوقت بالذات .. ولكنه كان يسير فى الظلمات !

ذلك لان البهو العربى الفسيح كان - فى ساعة الغداء - مكتظا بضباط من حامية القاهرة والعباسية ، ومعهم نساء من بنات وطنهم .. كما جلس بعض معارف نيجل الى موائد صغيرة على يمينهما ويسارهما ، وانتشر فى ارجاء أخرى من البهو رهط من كبار الشخصيات الانجليزية المعروفة ، الذين كانوا يحملقون فى مسز ارماين كلما صور لهم ظنهم انها لا تراهم .. وكان هناك - على غير بعد من الزوجين - اللورد والليدى هايمان ، وآل ميرشيسون ، وقد عادوا الى الظهور ثانية .. وما كان ألد اعداء مسز ارماين وأشدهم دهاء ليحتال على اثارة اعصابها وتعكير مزاجها باكثر مما احدثته هذه المجموعة من الناس فى تلك اللحظة .. ولكن ما من لمحة او حركة ندت عنها وفضحت ما كان يعتمل فى نفسها .. فان الوقت اتسع لها كى تسيطر على مشاعرها ، وتستعيد هدوءها ورباطة جاشها الظاهرين كاملين موفورين .. ولكن عاطفة عاتية راحت تزار فى أعماقها ، وكأنما كانت الجن تتجمع من ظلمات الليل الكثيفة ، وتحتشد فى أنحاء نفسها ، وقد حملتها الرياح على اجنحتها !.. وعندما وافى الغسق ، ملقيا بغموضه الشاحب فوق الصحراء - وفوق المجانب التى تأويها الصحراء - كانت الجن قد استحوذت على روحها !

* * *

◆ وما لبث الزائرون الذين عمروا القفار حول الاهرام خلال اليوم ان عادوا الى القاهرة بالترام أو العربات ، أو كانوا يتناولون الشاى فى الفندق ، عندما امتطى مستر ومسز ارماين حماريهما ، وركبا خلال الغسق متجهين نحو أبى الهول .. وراحا يقتربان منه ، من الخلف ، وقد سكنت الرياح تماما . ومع ان المساء لم يكن دافئا ، الا ان حدة برد الصباح خلفها نسيم أكثر رفقا بالرمال وملاءمة لها .. وكانت أضواء القاهرة تتالق عن بعد ، عبر النيل والسهول ، على سفوح المقطم .. وفى خلال هذا الفراغ الصامت الذى ساد الصحراء المقفرة اذ ذاك ، كانا يركبان فى صمت ، حتى لاح امامهما ، فوق قفار الرمل السنجابية ، جسم كبير يبرز من الارض .. فقال نيجل وهو يجذب عنان حماره : « هل ترين ذلك ياروبى ؟ » . فاجابت : « ذلك الشىء الذى يشبه ثمرة هائلة من عش الغراب ؟ .. نعم ، ماهو ؟ » .. فقال : « ابو الهول ! » .. واذ ذاك هتفت فى عجب : « اهو هذا ؟ » ، فقال :

« نعم ٠٠ ولكنها مؤخرة راسه ، اما الجسم كله فيختفى عن انظارنا الآن ٠٠ مهلا حتى ندور حوله ونراه وجها لوجه ! »

فلم تقل شيئا !٠٠ وظلا يمضيان حتى شارفا اطراف المنخفض العميق الذى يقبع فيه الوحش المهيب ، تحيط به الرمال والشهرة المدوية الدائمة ٠ وما لبثا ان بلغا حافة الحوض فصارا فى مواجهة ابى الهول الذى كان يستقر على الضفة المقابلة ٠٠ وهناك ترجلا عن حماريهما ، وامر نيجل المكارين باقتياد الدابتين والابتعاد عن نطاق السمع ٠٠ وظل الصوت الاجش المنبعث من وقع اقدامهم — وهم يسيرون فى خفة فوق الاحجار والارض الصلبة التى تتاخم الرمال — يخفت رويدا رويدا ، وسرعان ما اختفى وسط ظلمة الغسق، مخلفا ارماين وزوجه وحدهما ٠٠ ومع أن ضوء النهار كان يخبو سريعا ، الا انه لم يكن قد تلاشى تماما ٠٠ كان النهار والليل يتصافحان في غسق غامض لم يبد هابطا من السماء — التى كانت توشك ان تغدو ماهولة بالنجوم — فحسب ، بل كان يرتفع كذلك من بين الرمال الشاحبة ويسبح حول ابى الهول ٠٠ وكان الهرم الاكبر يلوح على البعد اسود قاتما بالنسبة للفراغ الذى كان يحيط به !٠٠ وظلت مسز ارماين ساكنة بلا حراك ، بادىء ذى بدء ، وهى تتطلع الى الوحش ٠٠ ولكنها ما لبثت ان أشارت الى نيجل بان يبسط معطفها على حافة الرمال ، ثم اتخذت مجلسها فوقه ، وراحت تتطلع ثانية ، دون ان تنبس بكلمة واحدة ٠٠ واخذ شحوب الغسق يزداد قتامة ، وكان اطيافه الرمادية الصفراء من ناحية ، والرمادية البيضاء من ناحية اخرى ، قد بدات تعتكر قطرات سوداء معتمة ، كانت تنسكب من نبع خفى لايرى !٠٠ ومرت نسمة باردة ، بقطرات قادمة من مكان سحيق ، حيث تمتد الرمال حتى الساحل الذهبى ٠٠ وسكنت النسمة لحظة ، ثم عادت ثانية وقد اشتدت قليلا ، وبدا

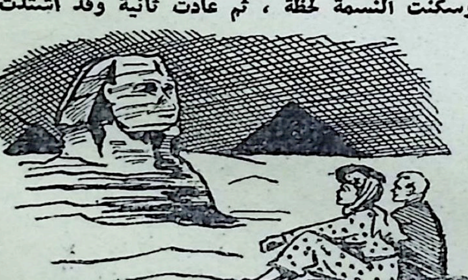

الحاحها واضحا محددا

وكان نيجل واقفا .. ولكنه حين راى روبى لا تتحرك ، جلس بجوارها وهو يشبك يديه السمراوين معا حول ركبتيه ويشدهما فى قوة حتى غدا رسغاهما فى بياض الثلج .. واختلس النظر اليها مرة ، فراى وجهها جامدا صارما الى حد غريب .. انه كاد أن يكون قاسيا فى سكونه ، فحول الرجل بصره نحو أبى الهول من جديد .. وعندئذ نسى روبى ، ونسى مصر ، ونسى كل شىء عدا ذلك الاثر الذى يعد أعظم ما أبدعت يد الانسان على كر الدهور ! ذلك الخلق الذى كان بهدوئه القاسى الصلب وقوته الهائلة يثير فى بعض القلوب الفزع والهول ، ويقر فى بعضها السلام والطمانينة .. يحرك بعض الطبائع نحو الطموح ، ويصرع البعض فى احساس شامل بعجزهم ، وتفاهتهم، وكيانهم الزائل ، ومستقبلهم المظلم المجهول ! .. ومهما يكن الاثر الذى يحدثه أبو الهول فى نفس مسز ارماين – لو انها راته فى لحظة من حياتها اقل حرجا من هذه اللحظة – الا انه بدا لها قاسيا مروعا .. اذ كانت العاصفة قد انفجرت فوق رأسها ، وهى تواجه هذا الجمود الشامل .. وشعرت بنفسها فريسة للقوى المتضاربة ، تلك الوحوش الضارية التى كانت هى نفسها قفصا يضمها !.. كان وحش الصخرة الحية يواجهها ، ولو انه – فى رصانته الساخرة وقوته المتجردة من العاطفة – تنازل فاحس بوجودها ، لما وسعه ، كما خيل اليها ، سوى أن يهزأ بها ويسخر منها فى جمود غريب !.. وبينما لم تكن تؤمن الا بالحياة الصغرى ، فى هذه الدنيا ، كانت تستقر امامها فكرة الابدية ، منحوتة فى صخور القفار بيد الانسان ، لتقول لها من بين شفتيها الجامدتين : « يالك من حمقاء ! » .. واذ كانت تنطوى على عزم قوى، وارادة صلبة ، وغرور لا يهجع ، فان هذه القوة التى جثمت امامها لم تكربها فحسب ، وانما أثارت فيها الحنق والغضب .. وانصب سخطها كله على نيجل !.. فقد نسيت ، أو انها شاءت ألا تذكر ، ان أبا الهول كان أعجوبة العالم ، فقالت لنفسها انها تعلم حق العلم لماذا احضرها نيجل لدى أبى الهول فى الليل .. لقد احضرها كى تتلقى عقابا رادعا .. احضرها كى تزدجر .. وفى حمية أوهامها العصبية ، خيل اليها لحظة انه حدس شيئا من الحقيقة التى كانت حبيسة فى نفسها .. ولقد صدمته هذه الحقيقة فى قوة ، وصدمت آماله فى السعادة ، واتجاهاته الخلقية والمعنوية ، فكأنما احضرها لتتلقى عقابها على يدى أبى الهول .. وخيل اليها انها تنثنى وتتلوى فى قبضة الوحش ، وهى تكره من نفسها هذا الاستسلام لقبضته !.. لقد سخر « بارودى » من أبى الهول ذات مرة امامها ، وانها لتذكر كلماته الآن بحذافيرها : « ان لدينا – معشر المصريين – ما هو أجدى من الذهاب والحملقة

فى ابى الهول ٠٠ اننا نفضل ان نستمتع بحياتنا على قدر ما نستطيع ولا نشغل أنفسنا به » ٠٠ انها لتذكر هزة كتفيه القويتين ، التى صاحبت هذا القول ٠٠ بل انها لتكاد تستطيع ان تراهما وترى حركتهما الهازئة المترفعة أمامها الآن !٠٠ اجل ، لقد اخذ ابو الهول يتلاشى اذ ذاك فى ظلمة الليل ، على حين أخذ بارودى يتراءى لها وقد وقف امامها ، فى مواجهتها ٠٠ وحجب جسده القوى عن عينيها رسم ابى الهول ٠ وكانت نجمة المساء قد بزغت ، واشتد هبوب النسيم ثانية من مكانه الخفى بين الرمال ، وراح يهمس حول ابى الهول !

وهنا سرت رعدة فى بدنها ، فنهضت قائمة ، وهى تقول : « هيا بنا نذهب من هنا ٠٠ اننى أريد الانصراف ! » ٠٠ فقال نيجل متسائلا : « اليس رائعا ياروبى ؟ » ٠٠ فاجابت : « أجل ٠ أين البدو ؟ » ٠ ولم يعد فى وسعها ان تخفى طويلا انفعالها الداخلى الخفى ، ولكن نيجل عزاه الى سبب خاطئ ، واحترمه !٠٠ كان أبو الهول دائما يحرك الناحية الروحية فيه تحريكا قويا ، ويجعله يحس فى كل خافقة من كيانه بأن الانسان لم يخلق ليكون مقيدا بالزمن وانما خلق للأبدية !٠ وقد اعتقد ان التمثال قد أحدث تأثيرا مماثلا فى نفس روبى ، فلم يدهشه ان ضايقها هذا التأثير ، وانما بعث فى قلبه حنانا عظيما نحوها ، يشبه حنان الأب حين يرى دموع طفله تنهمر بعد عقاب استحقه ٠٠ لقد جعلها أبو الهول تدرك ادراكا عميقا مدى بشاعة بعض الامور !٠٠ واستبقى نيجل ذراعه حول خصرها ، بعد أن ساعدها على امتطاء حمارها ، وهمس : « هل تدركين ما تعنيه - بالنسبة لى - رؤيتى لابى الهول معك ؟ »

وكان الليل قد اسدل أستاره ٠٠ وفى تلك الظلمة راحا يجتازان الصحراء ٠٠ وظل أبو الهول قريرا فى مكانه يتطلع الى الشرق ، حيث كانت أضواء القاهرة تتألق عبر السهول تحت سفوح المقطم !

الفصل الثانى والعشرون

● **الفيوم** واحة عظيمة رائعة الجمال تقوم على هضبة مستوية من صحراء ليبيا ، موفورة الخصب ، غنية بالخيرات ، لينة التربة ، ذات مناخ جميل ، وعيون من المياه العذبة التى توجه فى عناية الى شبكة من الترع والقنوات تنتشر كالغضون

على وجه الأرض ، فتنشر الحياة وابتسام المرح خلال أشجار النخيل الكثيرة ، وأشجار الزيتون والفاكهة ، وحقول القمح وأحراش قصب السكر .. ويطلق عليها المصريون غالبا اسم « بلاد الورد » ، ويقولون أن كل شىء ينمو فى أرضها : فهى للفلاح جنة لا يلقى انسان فيها سوى السعادة . وما من مصرى عرف كيف يطلق البندقية الا استبد به الشوق الى ممارسة هوايته بين صيدها الوفير المتنوع ، وكل صائد سمك يشتهى أن يدلى بشباكه الى قاع بحيرتها المقدسة ، كما أن أصحاب الأراضى يفضلون أن يكون لهم القليل من الأفدنة بين (سنورس) و (بنى سويف) عن الكثير منها فى مناطق مصر الأخرى ! .. والرجل الذى يجرى وراء الجمال يصبو قلبه نحو ما لنسائها – غير المحجبات – من جمال شاعرى : بذقونهن ذات الوشم الرقيق ، وعيونهن الواسعة الكبيرة ؛ وأجسامهن اللدنة الهيفاء .. **وقلما يوجد فى وادى النيل فتى أسمر لا يتالق وجهه وينطق بالرغبة الجارفة اذا رنت فى مسامعه كلمة « الفيوم » ! .. انها أرض تسيل عسلا ولبنا ... أرض تشتهيها القلوب ، تلك البقعة الخضراء من الخصب الحلو الكريم التى يغدق عليها (بحر يوسف) من خيراته .. ولكنها**

بالنسبة لمسز ارماين ، كانت منذ البداية ارضا مقيتة !

كان معسكرهم قد أقيم على قطعة سمراء من الأرض الخلاء ، مجاورا لجدول صغير ، بالقرب من أجمة من اشجار النخيل كانت تحجب عنهم منازل أهالى القرية الكبيرة – او البلدة الريفية – (سنورس) .. وكانت الأرض التى يستصلحها فلاحو نيجل ، بل التى استصلحوها فعلا – اذ كان معظمها يانع الخضرة بالمحاصيل الوفيرة – تبعد عن هذا المكان قليلا ، حيث كانت الواحة تمتد موازية لرمال صحراء ليبيا ذات اللون الأصفر الفاقع ، أو العسلى ، أو السنجابى الشاحب أحيانا .. على أن نيجل كان قد أقام معسكره الأول – عند ما قدم الى الفيوم للمرة الأولى – بين نخيل (سنورس) . وهناك سمع الناى المصرى فى الليل .. وقد أراد أن يجدد بعض الانفعالات التى كان يشعر بها ، وأن يحسها وقد ازدانت بمفاتن جديدة بعد أن تزوج ولم يعد وحيدا ، ولذلك فقد أمر بأن يقام المعسكر بجوار الجدول الصغير الذى عرفه ، حتى يتذوق التغيير الذى ألم بحياته ، على أتمه

وكانت السكة الحديدية تصل ما بين القاهرة وسنورس ، ومن ثم فان الزوجين قدما بالقطار ، فوصلا فى وقت متأخر بعد الظهر .. وكانت « الكسوة الشريفة » توشك على السفر بعد ثلاثة أيام – فى طريقها الى مكة – ولذلك امتلأت مدينة (الفيوم) وغيرها من المحطات القائمة على طول الطريق بجموع من الأهالى الذين احتشدوا لتوديع الحجاج الراحلين فى صحبتها لتأدية الفريضة فى الأراضى المقدسة .. وكانت الأعلام الرخيصة الصغيرة الحمراء ، ذات الأطراف الصفراء الفاقعة ، ترفرف فوق الأبواب وتحت مصاريع نوافذ كثير من المنازل ، كما كان الجو المعتدل الصافى مليئا بالأنغام التى تردد اناشيد الحج فى أصوات عالية مدوية ! .. وحدث أن تعطل القطار مرة فى احدى المحطات الصغيرة ، وامتد تعطله – لسبب غير

معلوم ــ فترة طويلة ، فجلست مسز أرماين خلالها بجوار النافذة تتأمل الجماهير ، بينما نزل نيجل ليلين عضلات ساقيه، وليرى الناس من كثب .. **وكانت الأناشيد تتردد فى أصوات جهورية ، لا من الحجاج المسافرين فحسب ، وانما من الكثير من « الحاسدين » الذين لن يتهيأ لأحدهم قط أن يحمل لقب « الحاج »** ! .. وسرعان ما تألفت ــ أمام باب العربة تماما ــ جماعة غريبة من الناس ، تقدمها رجل متين البنيان ، عريض المنكبين ، ذو وجه شرس حليق الشارب ، أبيض البشرة ، تزينه لحية شائكة حالكة السواد .. وكان يرتدى عمامة خضراء . ووقف خلفه كهل كان يحدق أمامه بعينين فاقدتى البصر ، ويمسك عكازا طويلا .. ثم ثلاث نساء حجبن وجوههن بخمر كثيفة ، وارتدين ثيابا خفيفة يغطى بعض اجزائها « ملس » أسود فضفاض ذو أكمام واسعة . وكانت جفونهن مثقلة بالكحل ، وأيديهن ذات لون برتقالى قاتم من أثر الحناء .. وكان ينبعث منهن صليل وشنشنة كلما تحركن، اذ أحاطت بسواعدهن وسيقانهن حلى بدائية من الذهب والفضة ، كانت تنزلق وتدور حول أطرافهن الدقيقة العظام .. وكان الأعمى ينشد بصوت عال ، والنساء يحملقن فى غير هدف معين ، وقد رفعن أطراف « الملس » فى حركة لاشعورية امام وجوههن رغم ما كان يسترها من حجب . أما الرجل ذو اللحية المشعثة ، فكان يتحدث فى عنف الى بعض الأصدقاء، ولا يلبث بين الحين والآخر أن يقطع حديثه فجأة ، وينضم الى رفيقه الأعمى فى أنشودته الصاخبة .. وكانت على الرصيف بجوارهم بضع صرر قليلة لفت فى ثياب بالية ومناديل .. بينما كانت تنبعث من خارج المحطة أصوات لا تنقطع من زغاريد النساء .

وفيما كانت مسز أرماين تتأمل هؤلاء القوم ، أقبل نيجل قائلا : « انهم ذاهبون الى مكة ! اترين هذه الصرر ؟ ان هؤلاء

المساكين سيتغيبون شهورا برمتها ، ومع ذلك فهذا هو كل ما يحملونه معهم من متاع ! » .. وكان الأعمى سادرا فى أنشودته ، وقد انضم اليه ذو اللحية السوداء وهو يرمق مسز أرماين بعينيه الضيقتين الفاسقتين ! .. وانبعث صوت بوق ، فصعد نيجل الى العربة . وبدأ القطار يتحرك فى بطء تاركا المحطة .. وكانت مسز أرماين تحملق فى الرجل ذى اللحية ، الذى ظل يحدجها بأنظاره ، وهو منطلق فى الزئير بأنشودته الدينية ، حتى غاب عن الأنظار !

وقال نيجل : « يا لهم من قوم غريبى الأطوار ! » .. وردت زوجته قائلة : « نعم ، انهم غريبو الأطوار جدا ! » .. فعاد يقول : « **ليس بوسع المرء أن يعرفهم على حقيقتهم قط ، فان بيننا وبينهم حاجزا أبديا .. ذلك الجدار الصخرى العظيم من دينهم .. كأنما العالم كله ذاهب اليوم الى الحج .. حتى نحن يا روبى ! »** .

وحتى عندما نزلا من القطار فى (سنورس) ، كانت المحطة تزخر بالناس ، والهواء يموج بأناشيد الحج .. وقابلهما ابراهيم فى المحطة ، بينما كان حمزة خارج السياج مع الحمار المخصص لمسز ارماين .. وكان مشتركا فى الانشاد ، وقد انبعث اللهب من عينيه الطويلتين .. ولكنه لم يكد يرى مسز ارماين حتى انقطع صوته وراح ينظر اليها فى صمت!.. وانتابها وهى تحييه احساس غريب غير مألوف ، وهو مزيج من الخوف والطمأنينة ، فقد كان من حلقات الاتصال بينها وبين بارودى ، ومع ذلك فانه كان ــ فى الوقت نفسه ــ يبدو فى ناظريها كشبح مشئوم .. ولم يكن فى وسعها قط التخلص من التفكير فى أن ضررا ما ، أو خطرا ماحقا مهددا ، لن يلبث أن يحل بها عن طريقه !

واذ غادروا المحطة وركبوا متجهين صوب النخيل ، أخذت أصوات الأناشيد تخفت شيئا فشيئا ، ولكنها ظلت تتناهى

اليهم ضئيلة خافتة ، حتى عند ما أصبحت الخيام على مرمى البصر منهم ، وكأنما كانت تتسلل بين الجذوع المجعدة ، ومن خلال الأعشاب الكثيفة النامية ، وفوق المياه الجارية ، لتؤلف موسيقى دينية خافتة حول مقامهم البدوى .. ولكن الأصوات تلاشت تماما بعد الغروب ، اذ حمل القطار طوائف الحجاج نحو القاهرة ، وتفرق المودعون سائرين بين النخيل ، أو فى طرقات (سنورس) ، متجهين نحو ديارهم .. وخيم الصمت فوق هذه الأراضى الفياضة بالخير والثراء ، والتى كرهتها مسز ارماين منذ اللحظة الأولى ! .. **كرهتها كما تكره المرأة مكانا يحل فى حياتها محل المكان الذى يأوى الرجل الذى يملك عليها مشاعرها ويسيطر عليها مهما تكن المسافة التى تفصل بينهما !**

وفى تلك الليلة ، رأت أمامها — وهى تجلس فى الخيمة — بساتين البرتقال التى تتاخم النيل ، وزهور الجيرانيوم البرية التى تحف بكشك من الخيزران وكأنها سياج حوله . وسمعت صوت الفلاح بجوار الشادوف وهو يرفع عقيرته بالغناء .. ترى هل كان يرتفع محتجا عليها أم نذيرا لها ؟ وهل كانت تبالى بهذا أو ذاك ؟ أو هل كان فى وسعها أن تبالى ؟ وهل فى وسع أى صوت أن يحول بينها وبين الانقياد الى الصوت الذى كان يدعوها ويناديها ؟ ثم ما الذى كان فى بارودى حتى يجعل نداءاته لها على هذا النحو من العمق ومن الاستبداد ؟ ما الذى كان فيه حتى يسيطر عليها هذه السيطرة التامة ؟! .. لقد بات فى وسعها — وهو بعيد عنها — أن تلقى على نفسها هذه الأسئلة التى لم تكن تملك أن توجهها الى نفسها وهو دان منها قريب !

لقد كان رائعا من الناحية الجسمانية ، ولكن .. هكذا كان رجال آخرون عرفتهم فسيطرت هى عليهم دون أن يسيطروا عليها ! .. وكان جسورا ، ولعله كان فى أعماق نفسه مستهترا ، وان بدا فى ظاهره — فى لحظات معينة ،

أحيانا ـ بعيدا عن الاستهتار .. ومع ذلك ، فقد كان هناك رجال آخرون على هذه الشاكلة ، ولكنها لم تكن تحبهم البتة !.. وكان عاطفيا ، بل غزير العاطفة ، ولكن نيجل كان عاطفيا ، ولو انه كان حريصا أشد الحرص على امتلاك زمام طبيعته .. **لقد كان بارودى غريبا بالغ الغرابة ! أجل ، كان غريبا بالغ الغرابة ، فقد كانت تفهمه دون أن يكون فى استطاعتها أن تفهمه ! .. كان مليئا بقوة غامضة عنيفة ، تجمع بين الدين والرذيلة معا .. ولم يكن تدينه نفاقا أو رياء ، كما لم تكن رذيلته تمشى على استحياء ! كانا متماثلين فى الجرأة وقوة العزم .. وكانت كلما خالت انها قد استحوذت عليه ، وجدت انها قد أطبقت يدها على فراغ !** .. ومثل هذا الفشل يجرح كبرياء المرأة ، وغالبا ما يتمخض جرح كبرياء المرأة عن انبثاق عاطفتها !.. كان شديد الاهتمام بها ، ومع ذلك فان جزءا منه كان يتهرب منها ! فهل كان يحبها ؟ انها لا تدرى ! كانت تعلم انه كان يسوقها دواما نحو مزيد من الرغبة فيه ، ومع ذلك فان هذا الانسياق ـ بالذات ـ قد لا يكون مدبرا من ناحيته .. كان يبدو من قلة الاكتراث بحيث لا يستطيع التآمر واحكام الخطط ، ومع ذلك فانها كانت تعلم انه كان يحكم خططه حولها ! .. أتراه كان الآن فى أسوان ، مع فتاة راقصة من قومه ؟ انها لم تسمع عنه كلمة واحدة منذ اليوم الذى سبق تلك الليلة العاصفة ، عندما جاء الجنى ممتطيا صهوة الرياح !

لقد خرج من حياتها بغتة ، دفعة واحدة .. ولم يقل لها فى لقائهما الأخير شيئا عن أى لقاء مقبل ، ومع ذلك فانها كانت تعلم انه كان ينوى أن يلقاها ثانية ، وأنه كان ينوى .. ماذا ؟ ان صمته العميق لم ينبئها بشىء البتة ، ولم يكن بوسعها الا أن تعجب وترتاب ، والا أن تروض نفسها على الاحتفاظ بزهرة جمالها ، وان تثق ـ وهى ترى حولها حمزة

وابراهيم ـ فى انه ببراعته فى التآمر سوف « يدبر الأمور على نحو ما » ! ومع ذلك فكيف يمكن للأمور أن تدبر ؟ انها تنظر الى المستقبل، فتحس باليأس وخيبة الأمل .. ترى ما الذى سيحدث ؟ كانت تعلم انها اذا انساقت وراء عاطفتها ، فأعدت نفسها لأن تقدم على خطوة جنونية .. خطوة حاسمة ، فان بارودى لم يكن ليسمح لها بأن تخطوها . وما كان قد انبأها بذلك ، ولكنها أدركته بغريزتها . ولو انه كان يعتزم امرا ، فلا بد أنه يختلف عما يخالجها كل الاختلاف .. لابد انه ينتوى أمرا ، بل لابد أنه ينتوى الكثير من الأمور .. والا فلماذا كان حمزة هنا فى أعماق (الفيوم) اليانعة الخضراء ؟

وكان نيجل قد ذهب الى (سنورس) ليحضر بعض المؤن، وتركها لترتاح بعد سفرها من القاهرة ، فنهضت من مجلسها على الأريكة فى « خيمة الجلوس » التى كانت مريحة بأثاثها المتواضع ، غير الفاخر ، ومضت الى الباب حيث راحت تتطلع الى الخارج .. وكان الليل قد أرخى سدوله ، وبرزت النجوم من خدورها ، وأشرق قمر صغير وقد أحاطت به هالة مضيئة من البخار ، فراح ينشر ضياءه فى السماء التى كان بعضها محجوبا بضفائر رفيعة من السحاب .. وكانت أشجار النخيل المتكاثفة المتقاربة تبدو أشبه بعصى طويلة سوداء تتوجها اكاليل ضخمة من الريش .. ورات بينها ضوءا يلمع ، كان ينبعث من خيمة ضربت على مبعدة منهم ، وشغلتها سيدة المانية فى أوسط العمر ، تسافر فى صحبة شاب عربى وسيم الطلعة .. وكانا قد مرا بالطريق قريبا من المعسكر ، بينما كان ارماين وزوجته يتناولان الشاى ، فسأل نيجل ابراهيم عنهما .. وما زالت مسز ارماين تذكر تلك النظرة التى لاحت منه ، وهو يقول لها ، بعد أن سمع قصتهما : « هذه احدى النساء اللواتى يدمرن سمعة الأوربيين وكرامتهم هنا » ... وقد أجابته قائلة : « هذا شىء لا أستطيع أن أفهمه على

الاطلاق ! » .. ثم بدأت تدير الحديث الى أمور أخرى . **ولكنها لم تنس قط تلك اللوحة التى ارتسمت فى عينيه وتبدت فى أساريره ! .. ولو أن « أمورا معنية » وقعت ، فلسوف يستبد بها الخوف من نيجل !**

ونبحت الكلاب عن بعد ، وسمعت مسز ارماين خرير الماء فى الجدول الذى يجرى أمام المعسكر ، وانبعثت من الأرض المثقلة بما تحمله من زرع — الا حيث ضربت الخيام — رائحة اوحت اليها بجو الخريف .. وظهر فى الطريق الضيق المؤدى الى المدينة — وسط الحقول والنخيل — اثنان من رجالهم . قادمين نحو المعسكر وهما يمتطيان جملين .. وما مضت لحظة حتى ارتفعت زمجرة حادة ، مختلطة بنباح الكلاب وخرير الماء .. وكانت الجمال قد قيدت الى أوتادها استعدادا لهجعة الليل ، ولم يكن الجو باردا حقا ، ولكن الهواء خلا من ذلك الدفء الذهبى ، كما ان ذلك الجفاف النقى الرائع الذى تمتاز به مصر العليا ، خلفته رطوبة كثيفة بعد ان غابت الشمس .. وكان البخار الذى يحف بالقمر ، والرائحة المنبعثة من الأرض ، وأصوات الكلاب البعيدة ، وخرير الماء الدانى ، وشعورها بالطل المعلق فى الجو حولها نديا رطبا ، وذلك الضوء المتألق فى الخيمة البعيدة بين النخيل .. كل ذلك جعل مسز ارماين تحس انقباضا لا تكاد تحتمله .. كانت تتوق بكل جوارحها الى العودة للأقصر ، وكان يخيل اليها أن من المحال ان يكون اى امرىء سعيدا هنا .. ومع ذلك فقد كان نيجل سعيدا كل السعادة ! وكان كل مصرى يتمنى أن يكون فى الفيوم ! .. وبدا لها رنين الاسم نفسه موحشا كئيبا !

* * *

◆ **لابد** أن يكون بارودى قد انتوى أمرا ! .. وفيما كانت تفكر فى ذلك ، اذا بها ترى حمزة — منتصب القامة كالقصبة —

قادما من المدينة فى ذلك الطريق الضيق المعتم .. وعادت الى افكارها : يجب أن تسعد نيجل أولا ، ثم تنتظر ! .. يجب أن تشعر نيجل بالسعادة البالغة ، لئلا تجد نفسها قد سقطت تحت تأثير تقدير بارودى لها واعجابه بها ، ولئلا تثبت على نفسها أنها أقل براعة وحذقا ودهاء مما تحس بأنها عليه !

واجتاز شبح حمزة المعتم قنطرة صغيرة من جذوع النخيل ، أقيمت فوق جدول الماء ، ثم استدار واجتاز الأرض الخلاء نحو المعسكر ، فى سكون شامل ، اذ كان يمشى بقدمين حافيتين .. ومضى نحو خيمة الرجال ، حيث كانت الجمال قد انيخت صفا واحدا ووجوهها نحو باب الخيمة وراحت تأكل طعامها من الشعير الذى نثر أمامها على سماط من الخيش .. فلما بلغ مدخل الخيمة ، وقف ساكنا بلا حراك ، ملتفا فى عباءة سوداء ! .. ونادته مسز ارماين فى رفق ، من أمام مدخل خيمتها : « حمزة ! حمزة ! » ، فمرق خلال الفراغ الذى كان يفصل بين الخيام ، حتى وقف بجوارها .. ولم تكن قد تبادلت الحديث مع حمزة قط من قبل ، وما سمعته ينطق بكلمة انجليزية الا « نعم » .. ولكنها كانت تحس فى تلك الليلة بشوق قلق الى توثيق علاقتها به .. فقد كان مبعوث بارودى الخاص الى معسكر الفيوم ! .. وقالت : « أمسرور أنت من وجودك فى خدمتى يا حمزة ؟ هل يسرك انك قدمت معنا الى الفيوم ؟ » ، فأجاب : « نعم » .. وترددت قليلا .. **فقد كان فى مظهره ، وفى مسلكه – دائما – شىء ما يبدو كما لو كان يقف حاجزا بينها وبينه ، وينفرها منه .. كانت تحس دائما كأنما كان الشاب يدفعها بعيدا ، بكل ما فى عقله وروحه من قوة !** وقالت أخيراً : « هل تحبنى ياحمزة ؟ ». فأجاب : « نعم » . وعادت تسأله : « لقد ذهبت الى مكة مع محمود بارودى ، أليس كذلك ؟ » .. ومرة أخرى أجاب . « نعم »

ولكنه نطق بالكلمة فى هذه المرة ، فى غمغمة خافتة .. وكانت يداه تتدليان الى جانبيه ، وقد اخفاهما فى كما العباءة الفضفاضة ، فاذا بهما تتحركان ، وترتفع احداهما فى سرعة الى صدره ، حيث ظلت فى مكانها .. وعندئذ قالت مسز ارماين فى حدة مفاجئة : « ما الذى تفعله ؟ » .. واسرعت بدورها ، مدفوعة بباعث لم يكن بوسعها أن تفسر كنهه ، فأمسكت بيده التى وضعها على صدره ، وجذبتها الى ناحيتها .. ورأت فى ضوء القمر الشاحب انه كان يمسك ـ فى احكام ـ بما يشبه مسبحة من الأصداف وقد ربطت بخيط حول عنقه .. فأسرع يغطى الأصداف بأصابعه ، وقد بدت نواجذه ، وعندئذ خلت من يده ، وهتفت سائلة :

ـ ما هذا ؟ ـ نعم ؟!

فاستدارت ودخلت الخيمة ، وعندئذ انفلت مبتعدا ، اشبه بالشبح

وفى تلك الليلة ، سألت نيجل عندما عاد من سنورس : « ما معنى هذه المسابح المؤلفة من الأصداف ، والتى يضعها المصريون احيانا حول اعناقهم ؟ » .. فسألها . «أى نوع من الأصداف ؟ » .. واذ قالت : « الودع ! » ، هتف « الودع ؟ آه ! انهم يعدونه تعويذة ضد الحسد والأرواح الشريرة .. اين رايت مثل هذا الشىء ؟ » .. فأجابت : « لقد رأيته على أحد المكاريين فى جنوب النيل ، بالاقصر ! » .. ثم ادارت دفة الحديث الى وجهة أخرى !

وكانا يجلسان لتناول العشاء على جانبى منضدة ذات قوائم حديدية ، من النوع الذى يمكن طيه ، وقد فرشت تحت اقدامها سجادة زاهية سميكة ، منسوجة من الصوف ، كانت من السعة بحيث كانت تخفى تماما الأرض الصلبة داخل الخيمة المستديرة التى كان قماشها مجللا ببطانة حمراء اللون قانية ، تغطيه رسوم مزخرفة من الالوان السوداء

والبيضاء والصفراء والزرقاء والخضراء .. وكانت الخيمة مضاءة بمصباح كبير من المصابيح التى تضاء بالبترول ، احذت تدور حوله فراشات الليل وترتطم بغطائه الزجاجى بين الحين والآخر ! .. وكان مدخل الخيمة مفتوحا ، وقد وقف ابراهيم امامه مباشرة ، وهو يلف رأسه ووجهه بوشاح كبير ذى أهداب هفهافة ، ليرقب قيام « السفرجى » الوطنى بواجبه على مايرام .. ومن خلال هذا الباب كان خرير الماء ينساب خافتا ، تخالطه من بعد جلبة الكلاب التى كانت لا تكف ولا تنى عن النباح .. كما كان العبير النفاذ المنبعث من التربة الرطبة الخصبة يتسلل الى الخيمة فيختلط برائحة الطعام فى الأطباق!

وكان وجه نيجل يشع بضياء باهر ، فقد انتقلا طفرة واحدة من المدينة الحديثة الى هذه البرية الموحشة ، وكان يحس فى ذلك بالسعادة كاملة .. ومن ثم راح يتطلع الى « روبى » ليستبين فى أساريرها انعكاس نشوته وجذله ، وان داخله شىء من الشك والريبة ، اذ كان يدرك أنها تجربة جديدة لها ، فى حين انها كانت بالنسبة اليه قصة قديمة أسبغت عليها روبى روعة الحب الفاتنة ! .. وردت نظرته بنظرة ارتاح لها عقله .. نظرة هزت مشاعره ، ولكنها مع ذلك لم توح اليه بغير هذه الملاحظة السخيفة : « لا بأس بالطاهى ياروبى .. أليس كذلك ؟ » . فقالت : « انه رائع ! وما أرانى قد تناولت عشاء فاخرا كهذا ! ترى كيف يسعه ان يعد ذلك كله فى الخيام ؟ » .. ثم رفعت مقعدها ، وهى تردف قائلة : « ان هذه المائدة منخفضة قليلا .. ولكن ، ما كان ينبغى ان اكون طويلة الى هذا الحد ، فالمرء فى المعسكر يجب أن يكون ذا حجم مناسب ! » . فهتف يقول متلهفا : « هل تعبت من الجلوس اليها ؟ »

— كلا ، كلا .. لم يكن تعبا بمعنى الكلمة .. انه ليس بذى بال !

ـ سوف أعمل غدا علي تغييرها ، ورفع قوائمها على نحو ما .. فيجب أن يكون كل شىء هنا علي ما يرام ، مادمنا سنقضى فى المعسكر بعض الوقت

فنهضت واقفة وهى تقول : « لن أتناول القهوة الليلة ، فما أفظع أن يأرق الانسان فى خيمة ! » .. فقال : « سترين انك ستنامين هنا نوما مريحا ، فكل امرىء ينام نوما عميقا فى المعسكر ، لأن المرء يقضى وقته كله فى الهواء الطلق ، حتى اذا ما وافى المساء كان متعبا منهوكا » .. فقالت : « نعم .. ولكنى لن أعمل عملا شاقا كما تفعل أنت ! » .. ومضت نحو مدخل الخيمة ، وما لبثت ان قالت فى غير اكتراث : « كم من الوقت سنقضيه فى الفيوم ؟ كم مكثت انت فى السنة الماضية ؟ » . فأجابت : « لقد ظللت أروح وأغدو نحو ستة أشهر » .. فلم تقل شيئا ، بينما اشعل هو سيجارا ، ثم أردف : « على أن الأمر جد مختلف الآن طبعا .. فنحن سنبقى طالما شئت أنت .. أما اذا لم ترغبى فى البقاء ، ففى وسعنا أن نعود للتو الى الفيللا » .. فتساءلت : « وعملك ؟ » وكان جوابه : « ينبغى لى فى الواقع ان أكون هنا .. ولذا أرجو ان تحبى هذا المكان ياروبى ! »

ولحق بها عند باب الخيمة ، وهو يتابع القول : « على اننى اعتزم ان افرغ لك فى هذا الشتاء ، لاحاول اسعادك ، وسوف نرى الى أى مدى يمكن ان تستسيغى البقاء هنا .. هل تظنين أنك سوف تحبينه ؟ هل تحسين ، كما أحس انا ، بالنشوة من هذه الحرية المطلقة الشاملة ؟ » وتأبط ذراعها ، وهو يواصل الحديث قائلا : « انه تغيير جسيم بالنسبة اليك ، فهل ترينه تغييرا سعيدا ؟ » .. فكان جوابها : « ان هذا مكان رائع ، ولكنه غريب على فلابد من أن آلفه أولا » ..

وكانت وهى تقول ذلك تحس بشوق بالغ تكاد تزهق روحها من تباريحه .. شوق الى أن تستقل قطار الصباح الى

القاهرة ، اذ انها ــ وهى التى اعتادت أن ترى كل نزواتها تطاع ، وجميع ميولها تقابل من الرجال بالارضاء .. لم تدر كيف كان من الممكن أن تحتمل هذا الموقف الذى لا سبيل لجعله محتملا الا بحب جارف ، فحسب ! ..

ولقد كان هذا الرجل الواقف الى جوارها يطوى بين جوانحه هذا الحب الجارف الذى جعل من «الفيوم» الموحشة الكئيبة جنته السماوية ! .. وشد ما كانت تود أن تلطمه لأنه كان على هذا القدر من السعادة ! .. ومضت تقول فى تمهل : « هناك شيء واحد يجب أن اصارحك بأننى أحب ان افعله قبل ان نرحل من مصر » .. وبدت كما لو كانت محرجة ــ بل مرغمة ــ على أن تقول ذلك .. فأجاب : « وما هو هذا الشيء ؟ »

ــ اننى أحب ان أذهب جنوبا فى النيل على احدى الذهبيات !

ــ سوف تذهبين اذن .. وعندما نبرح هذا المكان ، ونمر فى طريقنا بالقاهرة ، فسوف ابحث عن واحدة ونرسلها الى الاقصر ثم نبحر عليها من هناك الى أسوان .. ولكن لا تظنى أننى سوف احصل على « لولية » أخرى !

وانطلق يضحك ، وهو يضيف : « فان أصحاب الملايين مثل بارودى لا يُؤجرون مراكبهم .. واذا فعلوا فاننى لا أستطيع ان أدفع من الريع الضئيل الذى أحصل عليه من ايتشنجهام » .. وتغضن جبينها فى عبوس .. فلشد ما كانت تكره أن تسمع الرجل الذى يحبها يتحدث عن فقره ! .. **كان عقلها قد اعتاد التفكير فى انه ليس من حق أى رجل ان يحبها ما لم يكن قادرا على أن يهبها كل ماتريد كاملا غير منقوص !** . وما لبث نيجل ان قال : « الا نخرج الى العراء قليلا يا روبى ؟ » . فأجابت : « حسنا .. لك ماتشاء ! »

وخرجا الى الخلاء ، وكانت يده لا تزال موضوعة على ذراعها ، وهو يقودها الى ضفة الجدول الصغير ، وقد أوشك

الهلال على الغروب .. أما السماء الزاخرة بالنجوم فكانت مرقشة هنا وهناك بغلالات رقيقة من السحب .. وكان الطل الثقيل يهبط على الحقول الكثيفة التى كانت تملأ الواحة ، بينما انتشر على سطح الأرض ــ على مبعدة من ادغال النخل حيث كان يتألق مصباح خيمة السيدة الألمانية والفتى العربى ــ ضباب رقيق متلألىء .. واستنشق نيجل الهواء بشراهة ، ثم أطلقه ، فاندفع من بين شفتيه بخار سميك ، وقال : « لقد تركنا جفاف الجو فى الوجه القبلى ، أما هذه فأرض الخصب .. الأرض التى ينمو فيها كل شىء ! والندى أثناء الليل جميل أخاذ .. ولكن مهلا ، فسوف أحضر لك معطفا .. تذكرى أننى وصيفتك هنا ! » .. ومضى فأحضر معطفا ، وضعه فوق كتفيها ولفه حول بدنها ، ثم قال : « اننى لاظن ان اللولية الآن بعيدة فى جنوب النهر ، ولعلها فى أسوان .. وانى تساءل هل يقدر لنا ان نرى بارودى ثانية يوما من الأيام ؟.. انه فى رأيى شخص طيب ، ولكن المرء ــ على أية حال ــ لا يستطيع البتة أن يكون وثيق الصلة بشخص شرقى .. لقد كنت أظن ذلك ممكنا ، بل كنت أقسم على امكانه ، ولكن .. »

ولم يتم عبارته بل راح يهز رأسه وهو ينفث دخان سيجاره .. كان قد اتخذه ــ دون وعى منه ــ سمة الزوج ولهجته ، فبدا فى نبرات صوته شىء يوحى بأنه يفترض موافقة روبى على هذا الرأى .. **وكم تمنت اذ ذاك ان تباغته ، وأن تقول له أنها كانت على صلة بشخص شرقى ، صلة اشد توثقا مما يمكن أن تكون صلتها به هو .. ولكنها فكرت فى الدهبية ، وفى النيل ، وفى الخلاص السريع من هذا المكان ، فما لبثت أن قالت : « اذا شئت الحق ، فاننى كنت احس دائما بمثل هذا الشعور .. هناك حاجز منيع بين الشرق والغرب ! »** .. ونظرت الى الضوء البعيد بين النخيل ، ثم استطردت قائلة فى ازدراء : « وهؤلاء الذين يحاولون القفز فوق هذا الحاجز لابد ان يكونوا

مجانين ، او اشد سوءاً » .. فبدا وجه نيجل صارما عبوسا ؛ وقال : « أجل ! انني أنفر عادة من الحكم على الناس ، ولكن هناك اشياء معينة لا يمكن للمرء أن يغتفرها قط ! » .. ثم طوح ذراعه ناحية الضوء ، وأردف : « وهذا واحد منها .. فشدما اكره ان أرى هذا الضوء قريبا منا .. انه اللطخة الوحيدة التى تشوه الكمال هنا» .. فغمغمت قائلة : «لاتنظر اليه ! »

وكان تعبيره الغريب عن الاشمئزاز القوى العنيف ، وعن الحنق البالغ ، قد اذهلها وأقلقها فى وقت واحد .. فاستطردت تقول : « ولا تفكر فيه ، فليس لنا شأن به . آه ! ما هذا ؟ »

فقد انبعثت فى تلك اللحظة من الضفة الاخرى لمجرى الماء ، انغام عذبة صافية ، أشبه بأنغام (الفلوت) ، وراحت تزداد ترديدا وترجيعا المرة تلو الاخرى .. ولان وجه نيجل ، وتلاشت الصرامة منه لتحل محلها لمحة جعلته يبدو كوجه غلام حالم .. ثم همس قائلا : «انه .. انه الناى المصرى على ضفة الماء ! » .. وتسلل ذراعه الى خصرها فاحتواه ، ثم أردف يقول : « اقتربى منى قليلا .. نعم .. هكذا ! .. والآن انصتى معى ! »

وعاد النغم الخافت الصافى يتردد مرة بعد أخرى .. وكان الهلال قد مضى فى رحلته وراء النخيل ، فزاد رحيله من حلكة الليل ، مما جعل الضوء البعيد بين النخيل أشد وضوحا ، وأقوى تألقا .. وتعلقت عينا بيللا دونا به ، وثبتت انظارها عليه .. بينما كان الناى المصرى منطلقا فى ترجيع انغامه الصافية !

الفصل الثالث والعشرون

◆ استمانت مسز ارماين بكل ما فيها من شجاعة وصبر وقوة ارادة ، وبدات تعمل فى عزم واصرار على بلوغ المارب الذى استقر عليه رايها :

الرحيل عن هذه البلاد التى كانت تزداد بغضا لها يوما بعد يوم !.. وقد أثار الموقف الذى كان يكتنفها — وهو موقف جد مختلف عن كل ما مر بها من قبل — نوعا من اليأس العصبى فى قرارة نفسها ، فاذا بهذا اليأس يزودها بالسلاح ويجعل منها امرأة خطرة !.. ولانها اضحت امرأة خطرة ، فانها أخذت تتظاهر بالسعادة فى سذاجة وبراءة ، بل انها كثيرا ما كانت تمعن فى التظاهر فتبدو فى سعادة حارة متأججة . وشرعت تظهر بمظهر التى نبذت كل فضلة مما علق بها — من قبل — من مسلك الغانية الخبيرة .. ولعل نيجل ما كان ليصدق وجود هذه البقايا . على انه شعر بالتغيير الذى الم بها ، وطرب له .. وراح يقول لنفسه ان تجربته فى الحب أثبتت صواب رايه : فقد استطاع ان يرد لروبى — بحبه لها وثقته فيها — اعتزازها بنفسها ، وان يعيد لها راحتها العقلية والجسدية .. وهو بعمله هذا قد هيأ لنفسه غبطة لم يعرفها قط من قبل ! وفى غمرة هذه الغبطة ، تجلت طبيعته فى اكمل صورها ، وتوثب نشاطه ، واضطرم ذكاؤه ، وتوهج قلبه واشتعل ..واحس بنفسه وكانه أضحى ضعف الرجل الذى كانه من قبل ، فانكب على عمله بقوة عملاق ، واقبل على ملاهيه — من الركوب والقنص وصيد السمك — بحماسة الفتى الذى يتحرر من الوصاية لاول مرة !

ولقد نالت مسز ارماين جزاءها على الجهد الذى انفقته فى الخداع ، بما شهدته من سعادة زوجها ، وعرفانه لجميلها ، ووفائه وتفانيه من اجلها .. فقد كانت من البراعة بحيث وضعته فى الموضع الذى توقعت الدنيا ان تشغله هى .. فى موقف المتواضع ، المعترف بالفضل والجميل !.. ونجحت سريعا فى ان تدخل فى روعه إنه كان جميلا منها ان ترضى بالزواج منه ، وان ما ضحت به — فى سبيل ذلك — لم يكن بالقليل !.. ولم تكن تشكو البتة ، ولكنها غالبا ما كانت تشير ، بكلمة عارضة ، الى انها فى سبيل التقدم فى

تطورها ، راحت تحتمل بسرور قدرا من العناء غير قليل آ٠٠ من ذلك انه لم يكن يمر يوم دون ان تدبر ما تحيى به فى ذاكرته انها من أجله وحده تعيش بغير وصيفة ، للمرة الاولى فى حياتها ! ومع ذلك فانها لم تقل قط : « ليتنى احتفظت بمارى » ، وانما كانت سبيلها الى ذلك ان تقول : « لكم احمد ما قررناه من التخلص من مارى يانيجل ! انها كانت خليقة بأن تحس بالشقاء هنا ، فان هذه الحياة كانت كفيلة بالقضاء عليها ، ولو اننى أعمل على مواجهتها على خير وجه ٠٠ ولكن الخدم لا يقبلون البتة هذا الشظف ! وانه لجميل منك انك لا تبالى بمظهرى الخالى من الزينة ، وارتدائى دائما نفس الثياب القديمة ! »٠ وكانت تقول هذه الاشياء فى لهجة تصطنع فيها المرح ، وتحرص – فى الوقت نفسه – على ان تنم عن مدى الجهد المعنوى الذى كانت تبذله !٠٠ ولربما قالت ، اذا ما جلسا للعشاء : « أليس من الخوارق يا نيجل ان يصبح الانسان بسرعة قليل الحفل والاهتمام بما ياكله ، مادام يجد ما يمسك به رمقه ويشبع جوعه ؟٠٠ اننى اذكر ذلك الزمن الذى كنت فيه محبة للأكل أكثر مما ينبغى للمراة ، ذواقة للطعام الجيد ٠٠ وهاندى الآن ابتلع ما يقدمه لنا محمد من طعام ، فأستطيبه واستطعمه !٠٠ هلا اعطيتنى قدرا آخر من هذه « اللبخة » العجيبة ، التى يسميها كباب حلة ؟! » ٠ فاذا ما اوى نيجل الى فراشه فى تلك الليلة ، أو خلا الى نفسه خارج الخيمة ليدخن ، راح يفكر قائلا لنفسه : « يا للسماء ! ان روبى زوجة مخلصة حقا ، اذ ترضى بما يقدمه لها محمد ، بعد تلك الاطعمة الفاخرة التى اعتادت دائما ان تتناولها » ٠٠ فى حين انه كان من قبل يهنىء نفسه على نجاحه فى استخدام ذلك الكنز الثمين – الذى يعد افضل طهاة المعسكرات فى مصر كلها – رغم ارتفاع أجره !

وكانت دواما – بمئات من الطرق والوسائل – تعمل على ان تذكره بتلك الرفاهية التى كانت تعيش فيها طوال السنين الماضية ، ولكنها – مع ذلك – لم تبد قط آسفة عليها ، وانما كانت دائما تهنىء نفسها على انها هجرت تلك الحياة الى حياة أخرى تختلف فى طريقتها ٠٠ حياة تشبه ما كان يلقاه اهل (اسبرطه) – فى الماضى – من شظف وعناء !٠٠ والواقع انها اصبحت غالبا ما تتكلم كما لو انهما كانا من عامة الناس ٠٠ كما لو انها كانت قد تزوجت من رجل فقير حقا !٠٠ وكانت ، اذا ما اقترح شيئا قد يكلفهما المزيد من النفقات ، تقول : « اننى لن ادعك تتصرف بغير روية ، فلسنا أثرياء ٠٠ ومع اننى احب انفاق النقود ، الا اننى أكره أن أدفعك الى الاستدانة ! » ٠٠ فاذا ما بدأ نيجل يبين لها قدرته التامة على ان يقدم لها اى شىء مهما يكن ، تجاهلت ملاحظاته فى لطف – وفى مرح ايضا – بمثل هذه العبارة : « انك تنسي الى اى مدى يختلف مركزك الآن بعد أن انجب اخوك وريثا ! » ٠٠ ولقد

امعن فى الحاحه ذات مرة ، واطلعها على مركزه المالى سعيا الى اقناعهـا بان لديهما « الكثير مما يفى بكل مطالبهما » ، فكانت النتيجة على غير ما توقعه ، اذ ظلت برهة واجمة وكانما عقلت الدهشة البالغة لسانها ، ثم لم تلبث ان استعادت هدوءها ـ فى الظاهر ـ وقالت فى عزم : « اذا كان هـذا هو كل ما نملكه ، فاننى على حق تماما فى ان اكون شحيحة مقترة !.. وفضلا عن ذلك ، فانه امر جليل بالنسبة لى ان اضطر الى التفكير فى أمر المال ، فلقد اعتدت دائما ان أنفق المال بلا حساب ، وقد قضيت حياتى كلها اعيش فى بذخ مفرط ، ورفاهية تفوق الحدود .. لذلك فان التحول الى عيشة البسـاطة وانكار الذات ـ بين الحين والآخر ـ سوف يفيدنى اعظم فائدة ، سواء رضيت عن ذلك فى بادىء الامر أم لم ارض عنه ! » .. ثم تتظاهر بانها تكتم زفرة توشك ان تنطلق من صدرها ، وتبتسم له فى رقة بالغة وعزم أكيد !

ولكنها لم تغال قط فى تمثيل دورها ، ولم تحاول قط ان تبرز ان وراء موقفها أمرا معينا ، فما ان ترى انها قد بلغت غرضها و « أصابت هدفها » ، حتى تدير الحديث الى وجهة أخرى .. وما حاولت قط ان تثابر على أداء دور المغبونة المضحية ، فقد كانت من الحصافة بحيث تدرك كيف يعاف الرجل ، فى أعماق نفسه ، الزوجة المضحية ! بل انها استطاعت ـ بمختلف الحيل ـ ان تبقى نيجل مفعما بالتقدير لها . ولم يفتها خلال ارضائها للناحية الروحية فيه ، ان ترضى النواحى الاخرى ، فلم تدع له الفرصة قط ليغفل عن انهـا ما زالت امراة فاتنة شهية ، وانها بكل مافيها ملك يديه !.. وهكذا ايقظت فيه ـ خطوة بعد خطوة ـ شعورا عنيفا ملحاحا بحاجته اليها .. ذلك الشعور الذى يثيره طراز معين من النساء فى طراز معين من الرجال !.. وهكذا علمته ان يشكر لها صنيعها اذ هيات له تلك المتعة المزدوجة : المتعة الروحية للرجل ذى العقلية السامية الذى عثر ـ لو خيل اليه انه عثر ـ فى امراة معينة على ما يحقق ، الى حد ما ، مثله الاعلى فى السلوك .. والمتعة الجسـدية للرجل العادى الموفور الفتوة ، الذى يقرن ـ حقا وشرعا ـ شبعه الروحى بشبع آخر جد مختلف ! واخذت تحمل المشعل أمام الروح والجسد معا ، فكان كلاهمـا يجد الدفء فى وهجه ، ويجد الغبطة والحبور فى ضيائه !

كان نيجل قد مال اليها فى انجلترا ، واحبها فى فيلا اندرود .. ولكن هذا الحب وذلك الميل لم يكونا شيئا مذكورا الى جانب هذا الشعور الذى نما فى قلبه نحوها ، وسط هذه الخضرة النامية التى تجعل من (الفيوم) جنة فيحاء .. فلقد نشأ فى أحضان الطبيعة ، واعتـاد قلبه ان يخفق مع قلب الطبيعة الكريم الحانى !.. وعندما كان يقف حتى كتفيه فى بحر من عيدان قصب السكر ذات الخضرة المشوبة بلمعان الفضة ، أو يتطلع الى سعف النخيل

التى كانت تتهامس فوق رأسه ، او يصغى الى خشخشة سنابل القمح الغارقة فى أشعة الشمس ، والى حفيف أعواد الذرة المثقلة بالثمار خلال هبات النسيم الوافد من الصحراء .. كان كثيرا ما يقارن — اذ ذاك — حبه النامى لروبى ، بهذا النمو المطرد لنتاج الطبيعة الأم فى ذلك المناخ الكريم الجواد .. وكان يخال ان الوفرة العارمة التى امتاز بها ذلك العالم الاخضر المحيط به ، كانت تجد لها فى أعماقه قرينا ! ولكن ، كانت هناك الصحراء الغربية كذلك ، تذكره بقفار العالم المجدبة .. القفار المجدبة فى الانسانية التى تحتاج الى استصلاح وتعمير !

* * *

◆ ولم يتخل نيجل — فى غمرة هذه النشوة العارمة — عن اجمل ميزاته الفطرية : ميزة التواضع المجرد عن الزهو وحب الظهور .. وكان ما فطر عليه — كانجليزى اصيل — من كتمان مشاعره نحو كل ما يستثير عواطفه ، قد صده عن اطلاع زوجته على ما كان يعتمل فى عقله وقلبه . وكانت روبى من البعد عن الروحانية والحماس المعنوى ، بحيث شق عليها ان تحدس شيئا من هذه المشاعر ، ولكنها فى الوقت ذاته درست نيجل ادق دراسة ، فادركت — بوجه عام — « مكانتها من نفسه » ! .. وكانت أحيانا تعجب من ان تجتمع فى نفس واحدة من الامور ما اجتمع فى نفسه ، ولكنها كانت تعلم انها موجودة حقا على هذا النحو !.. ولقد راحت تؤدى دورها على خير وجه ، وان اخذ القنوط يثقل على أعصابها يوما بعد يوم ، بفضل هذا الاداء . على انها كانت حين تفقد شيئا مما أخذت به نفسها من تجلد — للحظة عابرة ، بين آن وآخر — تفلح فى حمل نيجل على أن يعزو ما يصدر عنها من حدة او سلاطة لسان او مرارة ، الى عيب فيه أيقظ وساوس المرأة التى طالما عانت من الذل والامتهان. وكانت تذكره فى خبث بتلك الليلة التى اعقبت خصامهما فى حديقة « فيللا اندرود »

كانت تذكره — دون كلام — بما قالته اذ ذاك من كلمات ، حتى ليخيل اليه انه يسمعها تقول : « عليك — بعد الذى حدث هذا الصباح — ان تثبت لى ايمانك بى .. ان تثبته بما لا يدع سبيلا الى الشك ، والا فاننى لن اصدقه ! .. ولابد من ان ينقضى بعض الوقت قبل ان أشعر بالامن والسلامة معك .. فليس فى وسع المرء أن يشعر بهما الا عندما يجد ذلك الشطر الضئيل من الاخلاص — الكامن فيه — يقابل بالتصديق والايمان والثقة ! » .. وكان يذكر ما استقر عليه عزمه — فى تلك الليلة التى استحكمت فيها الأزمة بينهما — من ان يرد على تلك المرأة ثقتها فى الخير ، بان يوطد ايمانه بالخير الذى تنطوى

عليه نفسها !.. ومن ثم فانه كان يسخط على نفسه ، ويقسم على بذل جهود جديدة . ولم يكن من العسير عليه ان يبذل هذه الجهود بعد ان اصبحت روبى له بكليتها .. بعد ان اصبح يراها وقد طلقت – الى غير رجعة – حياتها السالفة ومعارفها السابقين ، وبعد أن أصبح يضمها معه فى أحضان الطبيعة .. بعد ان أصبح يعرف – وكيف كان يمكن الا يعرف ؟! – انها تعيش فى عفة وطهارة وبساطة ، وانها ، كما كان يظن ، راضية قانعة سعيدة ، على الرغم من تلك النظرات العارضة التي كانت تلقيها على الماضى ، حنينا الى بذخها ورفاهيتها القديمة الراحلة !.. فمن العسير على الانسان الذى يجد السعادة الكاملة فى حياة معينة ، ان يتبين ما فى مثل تلك الحياة من شقاء وعذاب لانسان آخر !

ولم ترتكب روبى سوى أخطاء قلائل !.. كان وجهها – الذى أصبح خلوا من الزينة – يتسم بوقار هادىء عندما تكون مع زوجها . وراحت تعمل فى جهد على ان تنال خلاصها من حياة لم تكن توائم طبيعتها ، بل كانت تجدها مقيتة بغيضة .. وكانت كثيرا ما تقول لنفسها انه لولا وجود حمزة وابراهيم فى المعسكر معها ، لما استطاعت – طيلة هذه المدة – احتمالا ، فان وجودهما كان يعني أنها لم تكن نسيا منسيا ، وانها – فى الوقت الذى كانت تتذرع فيه بالصبر – كان ثمة شخص آخر يتجمل بالصبر مثلها ، فى مكان ناء على النيل ، فى المناخ الذهبى لمصر العليا !.. كان وجودهما يعنى ذلك قطعا .. بل لابد انه كان يعنيه بالفعل !.. ولكنها كانت فريسة الغيرة التى لم تتناقص بفعل الزمن والبعاد ، وانما راحت تزداد يوما بعد يوم ، بل راحت توقظ فى خيالها قوة حيوية لم تكن تعتقد انها تمتلكها . فلقد كانت تعرف الرجال – كجنس – معرفة تامة ، وتعرف أهواءهم المتقلبة ، ونسيانهم السريع، واستعدادهم للرضى والقناعة بالقليل ، وهى صفة جد مختلفة عن تعلق النساء العظيم بالكمال فى ارضاء نوازع الجسد ! . كما كانت تعرف قابليتهم القلقة، وتجردهم من ضبط النفس . وكانت اذا أضافت الى هذا الفيض من المعرفة ، ما اكتسبته من معرفة شخصية ببارودى – كرجل من الشرق ، فى مقتبل الشباب وعنفوان القوة والتحرر من القيود – تعرضت لرؤى كانت تنزل بها اقسى ألوان العذاب !.. وكم من مرة كان عقلها ينطلق فيها معربدا ، ويصور بارودى معتليا عرش الملاذ الحسية التى كان يحبها ، فكانت – اذ ذاك – تحس باكثر من الألم المعنوى الذى يملأ قلبها .. كانت تحس بألم جسمانى فعلا ، فكأنها مريضة ، وكان جسمها ينضح بألم الغيرة كما يحس أى انسان آخر باوجاع أى مرض جسمانى !.. لذلك كانت تحس برغبة جارفة فى ان تقدم على عمل مادى جنونى !

وهنا كانت تذكر جمالها ، وان عليها ان تحتفظ به لأطول مدة ممكنة ، مهما يكلفها ذلك ، فكانت فى قرارة نفسها تلعن طبيعتها الجامحة المتمردة .. على ان جو (الفيوم) كان بالغ الرفق بها ، كما ان الحياة فى العراء - وفى الهواء الطلق النقى الخالى من الشوائب ، الذى كان يهب خلال النخيل من صحارى ليبيا العذراء - منحتها من الصحة ما لم تعرفه من قبل ، على الرغم من العذاب العقلى الذى كانت تعانيه .. واصبح الألم الجسمانى الناشىء عن غيرتها ، يلم بها فى نوبات متباعدة ، لا تلبث ان تنجلى عنها سراعا !.. اجل، لقد اعادت مصر لها شبابها ، او انها - على الاقل - اخذت تطيل وتضاعف من بريق ايامها الذهبية ودفئها . ومع ذلك البريق والدفء ، كانت الرغبة فى الاستمتاع بحياتها - وفى استخدام قواها الحاضرة بطريقة تجلب لها السعادة - تزداد قوة وحرارة .. كانت تصبو الى الرجل الذى يلائمها ، والى عيشة الرغد والرفاهية التى يستطيع ان يهيئها لها .. فقد استيقظ - مع عاطفتها الجسدية الخالصة نحو بارودى - ذلك الجشع القبيح الذى كان جزءا اساسيا من طبيعتها .. جشع الانسان المادى البحت الذى لا يحفل البتة بتلك البساطة التى تبهر عينى اى انسان !.. فقد كانت امرأة تصبو الى ان تعرف أن شخصا ما يدمر نفسه من اجلها .. كانت تحس بلذة جسدية فى انفاق النقود ، وغالبا ما كان عقلها يردد كلمات حسن وهو ينظر عبر النيل الى شراع « اللولية » المثلث ، ويغمغم قائلا : « محمود بارودى واسع الثراء ! محمود بارودى واسع الثراء ! » ، فيتملكها شوق جارف الى الذهاب، لا الى محمود بارودى فحسب ، وانما الى الذهب الذى يقتنيه ايضا !.. وذكرت ما هجس به خاطرها - وهى تجلس على ضفة النيل فى حديقة فيللا اندرود - من ان الذهب المتالق على صفحة الماء انما كان يتدفق نحوها من بارودى ، ليهدىء روعها فى وحدتها !

واخيرا ، جاءت الأزمة .. فبعد ان اقام الزوجان فترة قصيرة فى (سنورس) ، انتقل المعسكر من القرية الى اطراف الواحة ، كى يكون نيجل قريبا من اراضيه . وهناك كان الخصب الغزير ، ووفرة خضرة الزرع اليانع، يجرجران اذيالهما وسط القفار الصحراوية . وكانت مسز ارماين تتطلع اثناء الليل - من خلال فرجة مدخل الخيمة - نحو الرمال الشاحبة الغامضة الموحشة المترامية الى ابعاد غير محدودة ، وهى تتغلغل وسط الظلمة اللانهائية ! .. كان المنظر يسحرها ويفتنها - فى البداية - فيحملها على ان تعير اذنا واعية لنداء الشرق .. ولكنها سرعان ما ضاقت برؤية تلك البطاح الساكنة غير المأهولة ، التى كانت تذكرها بانواع اخرى من العزلة ، لا تستطيع ان تجد لها اسما .. وهى العزلة التى تعانيها كثيرات من النساء عندما يافل

نجمهن ويخبو ضياء مجدهن !٠٠ ولم تتحدث الى نيجل فى هذا الشان ، ولكنها زعمت أن الرياح الليلية التى تهب من الصحراء تبعث بقشعريرة البرد فى جسمها ، حتى وهى بين جدران الخيمة السميكة ٠ وعلى ذلك ، فقد اديرت الخيمة بحيث أصبح مدخلها مواجها للواحة ، فحققت روبى بهذا ما جهدت فى بلوغه من تجنب الصحراء !

وعلى الرغم من شعورها الذى أوشك ان يبلغ مبلغ الفزع - من هذه الفيافى الجرداء الشاسعة - فانها تبينت ان تأثرها بسحر الصحراء أخذ يزداد قوة وعنفا ٠٠ ذلك السحر الذى خيل اليها انه يدعوها ويجتذبها الى الخطر او الحزن ، لا الى المتعة او البهجة الدائمة !٠٠ وكانت كثيرا ما تحس برغبة قلقة فى توثيق صلتها بالشىء الذى تخافه ، والذى يوقظ فيها توجسا رهيبا من المستقبل ٠٠ عندما تنقضى البقية الباقية من ربيع أيامها الى غير رجعة !٠٠ فلما اخبرها نيجل ذات يوم بانه سيتوقف عن العمل يومين او ثلاثة ، وانهم سينقلون المعسكر الى البرارى الممتدة على الطرف الشمالى الشرقى من بحيرة قارون المقدسة - حيث يجد ابراهيم وحمزة ، حسب قوله ، فرصة من الطراز الاول لصيد البط - وانه سيتاح لروبى ان تتعرف الى الصحراء الليبية عن كثب ٠٠ عندما اخبرها نيجل بذلك ، بادرت الى الموافقة فيما يشبه اللهفة ، اذ كانت ترحب بأية حركة ، او اى تغيير ٠٠ وكانت تود أن توثق صلتها بالشىء الذى تخافه ٠٠ بالصحراء الموحشة !٠٠ وهكذا انيخت جمال الركوب ذات صباح ، وتهاوت الخيام ثم ربطت ونقلت الى الموقع الجديد، ثم شرع الزوجان فى رحلتهما موغلين فى القفار ٠٠ على انهما قاما - اولا - بجولة فى الواحة ليتيحا لرجالهما من الاعراب الوقت الكافى لاقامة المعسكر على الرمال ، وليتيحا لابراهيم ساعة او اثنتين يعد فيهما كل شىء قبل وصولهما ٠ وكان الوقت عصرا عندما مضيا فى الطريق الضيق المؤدى الى البحيرة ، تاركين ادغال النخيل خلفهما ، ومساكن الفلاحين المنخفضة ٠٠وراحا يتقدمان فى بطء نحو تلال الرمال التى كانت تظهر لهما على بعد ، حيث كانت تتراكم خيام الغجر المرقعة الحائلة اللون ، وحيث كان صائدو السمك -اشباه العراة - هم السكان الوحيدون فى هذه الفيافى الغريبة التى كانت تلتقى الرمال فيها بالمياه المالحة بين أحراش من شجيرات الاثل !

وكان اليوم غائما راكد الهواء ، والسماء تبدو مثقلة بالسحب اكثر مما هى عادة فى مصر ، والجو مقبضا كئيبا ٠٠ بينما راحت تحلق الى يمينهما ويسارهما أسراب الحمام البرى ، وهى تدور وتحوم فوق الزرع الذى اخذ يقل شيئا فشيئا - كلما اوغلا فى الصحراء - وفوق جداول الماء الصغيرة التى كانت تفيض رويدا عند بداية مملكة الجدب ٠٠ وكان سائقا الجملين يرددان

الاغانى البدوية - بصوتين خافتين ولكنهما نافذان - وهما يعدوان الى جوار الجملين باقدام حافية . أما حمزة - الذى صحب القافلة الصغيرة مع حماره لتمتطيه مسز ارماين اذا تعبت من ركوب الجمل - فقد كان يسير دائما فى المؤخرة ، فى هدوء وخفة ، دون نصب او كلال ، حاملا عصاه المعهودة .. وعلى هذا النحو مضوا فى طريقهم نحو البحيرة ، يصحبهم دائما ذلك الغناء الحزين الذى كانت انغامه تشبه الطنين تارة وتشبه التغريد تارة أخرى

وكانت بنادق نيجل معلقة على جانبى دابته .. كان يتطلع فى شوق بالغ الى الاجازة التى قررها لراحته ، اذ كان قد أضنى نفسه بالعمل الشاق مع فلاحيه : فكثيرا ما كان يخوض حتى ركبتيه فى الوحل ، ويشق الارض بمحراث الرمل ، ويدير المضخات الصغيرة البدائية ، ويحفر الارض ، ويغرس الزرع ، ويقود المحراث اليدوى الذى يجره جمل وضع فى مكان الحمار !.. كان فى خير حالاته ، صلبا كالفولاذ ، احرقت الشمس جلده ، مرحا ذلك المرح الذى يكاد لا يحفل بشىء ، والذى ينشأ عن صحة موفورة يزيدها العمل كمالا !.. وكانت القفار الممتدة امامهما تبدو فى ناظريه كانها الجنة الموعودة، لانه كان يهم بدخولها مع روبى ، ولانها كانت تزخر بآلاف من البط البرى والثعالب التى تتسلل من جحورها اثناء الليل بين شجيرات الاثل التى توقف نموها .. وقالت روبى : « كانما نحن ذاهبان الى نهاية العالم ! »

وكانت تتارجح فى رفق الى الامام والى الخلف ، تبعا لحركة الجمل الذى تركبه ، والذى كان قد تحول الى اليمين - اذ ذاك - بعد ان ظل وقتا طويلا يتبع طريقا مستقيما يشق الحقول ، دون ان ينحرف يمنة ولا يسرة ..وكانت الصحراء الرملية قد بدات تظهر للعيان ، بينما ظل يزحف - الى يسار الركب، وموازيا له - جدول كسول فاتر الهمة ، بين ضفتين غير مستويتين من الرمال. وكان الطريق نفسه يعلو ويهبط بهم ، وتلوح فيه هنا وهناك تلال صغيرة اشبه بسنام البعير ، واخاديد عميقة ، واحيانا جحور واوكار . وبدأت الحقول تزداد تباعدا ، ولم تعد تبدو للعيان بيوت أو أكواخ ؛ وانما تناثرت بعيدا فى ذلك الفضاء الأبيض المجدب - الذى كان يلوح أشبه ببقعة خالية من من اللون فى لوحة فنية - خيام منخفضة سمراء وسوداء ، كانت تبدو كما لو كانت جاثمة فوق الأرض المقفرة . وعادت تقول : « هل يقيم هنا احد ، فى الجانب المقابل ؟.. هل هذه الأشياء خيام حقا ؟ » ، فاجاب : «أجل يا روبى!» .. فقالت : « انه ليبدو بعيدا عن التصديق ان يختار احد من البشر الاقامة هنا طواعية ! » .. فسالها : « الم تحسى قط بنداء البرية ؟ » .. واذ ذاك نظرت اليه ، وبادرت قائلة : « آه ، نعم ! ولكن الأمر يختلف بالنسبة الينا ، فنحن ناتى الى هنا لنمارس تجربة جديدة ، ولنحصل على شىء من التغيير ، كما ان فى

وسعنا ان نرحل عنها عندما نشاء ٠٠ ولكن ، تصور ان انسانا يختار العيش هنا دائما أبدا ! » ٠٠ فقال : « هل تحنين الى المدينة ؟ » ، فهتفت : « بل اننى اوثر العيش هنا على اية مدينة ! » ٠٠ فاخلد الى الصمت لحظة وقد فقد وجهه طابعه المرح ، وغدا قلقا ملهوفا ، ثم قال : « روبى ! هل تكرهين هذا كله ؟ » ،

ـ اكرهه ؟ كلا ، فهو تجديد بالنسبة لى ! انه شيء غريب يروقنى ويثير الانفعال فى نفسى !

ـ هل أنت واثقة ؟

وتذكر فجاة حجرة استقبالها بفندق سافوى ! ما أعظم الفرق بينها وبين الحياة التى حملها اليها ٠٠ الحياة التى كان يحبها ، والتى قد تصلح تماما لرجل ٠٠ لقد كان يحب مثل هذه الحياة ، ولكن لعله كان ـ ولا يزال ـ انانيا يؤثر نفسه واهواءه !٠٠ وجهد فى ان يستشف ما تنم عنه أساريرها ، فاذا به وقد امتلأ بغتة بالشكوك والمخاوف. واردف قائلا : « اننى احب هذه الحياة الخشنة ، طبعا ٠٠ ولكنك لا يجب ان تخضعى لما أحبه اذا لم يوافقك ، فنحن الرجال مفرطون فى الأثرة ! » ٠٠ ورات فى ذلك فرصتها السانحة ، فقالت : « أو لم تعلم بعد ان النساء يجدن سعادتهن القصوى فى ادخال السرور على قلوب الرجال الذين يحببنهم ؟ » ٠٠ فاجاب : « ولكنى أريد ان أدخل السرور على قلبك » ٠٠ فقالت : « ستفعل ذلك عما قريب » ، فتساءل : « وكيف ؟ » ، واجابت : « بان تاخذنى الى النيل فى الجنوب ! »

وكانت قد غرست فى فكره الاعتقاد بانها تعيش من أجله فى غير أثرة او انانية ، فعزم على ان يوفيها جزاءها بنفس العملة : بالايثار ، وانكار الذات ٠٠ ولا باس بما يصيب العمل ، فانما ينبغى له ـ فى هذه السنة الأولى ـ ان يفكر فيها أولا ، وان يكرس نفسه لها ٠٠ أو ليس يستصلح « الصحراء » ايضا عندما يجعل حياتها تورق وتزدهر ؟!٠٠ وعندئذ قال : « سآخذك فى رحلة الى جنوب النيل ، وارجو ان تكونى صريحة معى دائما يا روبى ، فاذا ٠٠ اذا كانت الأشياء التى توافقنى لا تجد هوى من نفسك ، فلا بد من أن تقولى ذلك صراحة ٠٠ وفى رأيى ان الشيء الوحيد الذى يمكن ان يربط اثنين من الناس معا باطواق من الفولاذ ، انما هو الصدق المطلق ، فهو وان كان يجرح أحيانا ، الا انه يبصر الانسان بمواطىء قدميه حقا ! » ٠٠ فهتفت : « أجل ، ولكنى صادقة كل الصدق عندما اقول اننى أحب أن أعيش فى حياتك ! » ٠٠ لقد أصبح فى ميسورها ان تجرؤ على هذا القول ٠٠ وعلى الرغم من تلك الوحشة المتزايدة حولهما ، فان قلبها راح يتوثب لقرب خلاصها ، اذ كانت تعلم كيف يفكر ، عقله ، ومن ثم فقد خيل اليها انها تسمع همسات مياه النيل ، حول مقدمة الدهبية !

* * *

◆ وفى تلك الليلة بات معسكرهما فى وحشة عجيبة !٠٠ فان بحيرة قارون التى تبدو أشبه ببحر داخلى – والتى كان ماؤها ملحا أجاجا كماء البحر – كانت تعانق عند طرفها الشمالى بحرا آخر من الرمال ، وكانت سفوح تلال صحراء ليبيا الشاسعة تمتد الى مياهها الساكنة الخالية من الأمواج ٠٠ وهكذا كانت وحشة الصحراء تقترن بوحشة هذا البحر الأبكم ، كما يقترن صمت الفيافى العميق بصمت المياه وسكونها العميق !٠٠ وما أحست مسز ارماين قط من قبل بمثل هذه الوحشة ، ولا تخيلت قط صمتا كذلك الذى كان يحف بمعسكرهم ، والذى خيم على الصحراء وخيم على المياه السمراء المخضرة فى هذه البحيرة الواسعة التى كانت تشبه بحرا كبيرا ٠٠ وخيل اليها ان الصمت الموحش كان يتلقف صوتها – اذا تكلمت – فريسة سائغة له ! حتى أفكارها كانت تبدو وكأنما أنشب الصمت فيها براثنه ، وحملها بعيدا عنها ، وكأنها كائن حى قدر عليه ان يذبح !٠٠ كانت تحس بنفسها تافهة ، عاجزة ، متبلدة العقل ، وسط أحضان الطبيعة الجرداء ، التى كانت فى شحوب البرص !٠٠ وكانت تشعر بالقشعريرة تسرى فى بدنها ، وتحس كأنها قد خلت من الجنس ، فلا هى ذكر ولا هى أنثى ، وكأن قواها وعواطفها ورغباتها كلها قد غدت فى قبضة الصمت ، وأوشكت ان تنتزع منها الى الأبد !! وما حدث لها قط من قبل ان كان لشىء غير انسانى أو غير متصل بجهود البشرية ورغباتها مثل هذا التأثير المروع عليها !٠٠ على انها أخفت هذا التأثير عن نيجل وتكتمته !

وكان ركوب الجمل طويلا قد أتعبها قليلا ، بالرغم من القوة البدنية العظيمة التى اكتسبتها فى مصر ، فانهمكت فى تلك الأعمال المألوفة التى تمارسها المرأة على أثر وصولها من السفر ، اذ أبدلت ثوبها ، واغتسلت فى حوض مرن من المطاط ، ودلكت جبينها بماء الكولونيا ، ورتبت شعرها أمام مرآة معلقة على جدار الخيمة المائل ٠ ولكنها فى خلال الوقت الذى استغرقته هذه الأعمال ، كانت تصغى الى الصمت الرهيب ، وتحس به كعبء يجثم على صدرها ، وتبتعد – أو تحاول ان تبتعد – عن ذراعيه الممدودتين نحوها ٠ وكانت تتسرب – من حيث لا تدرى – أصوات تلوح فى أذنيها ، كما تلوح الأشباح والهياكل العظمية والخيالات أمام العينين !٠٠ أهذا ابراهيم حقا ؟ وهل هذا هو نيجل يتكلم ويضحك ؟٠٠ وهذا التيار الطويل المتدفق من الكلمات ، أتراه ينبعث من حلق حمزة ؟٠٠ أم ان هؤلاء الذين فى الخارج ليسوا سوى أشباح ، لها صوت الأشباح ، وتحاول أن تتحدث الى أشباح ؟

وما لبث الشاى أن أعد ، فغادرت الخيمة الى العراء ٠٠ وكانوا على مسافة كبيرة

من البحيرة ، يشرفون عليهـا من مرتفع بسيط ، كان جزءا من منحدر شاسع لسفح تل عظيم من الرمل ، يرتفع وراءهم تدريجا حتى ليكاد يبدو من بعد كأنه يلمس الأفق الداكن المنخفض !٠٠ وفى كل مكان كان البياض - والبياض المشوب بالصفرة - يذوب فى السمرة الداكنـة ، أو السمرة المشربة بالاخضرار ٠٠ وكان الزرع الوحيد البادى للعيان ، هو تلك الدغلة العظيمة من شجيرات الاثل التى كانت تمتد من سهل الرمال المنبسط الى يسارهم حتى ضفاف البحيرة ٠٠ بل انهـا كانت تزحف داخل المياه ، فتنشىء مأوى لآلاف فوق آلاف من البط البرى الذى يعمر تلك الفيـافى المائية ، والذى راحت أسرابه تسبح فى العـراء ، دون خوف أو وجل ، وتؤلف سحبا من المخمل الأسود فوق سطح البحيرة الساكن الذى كان يبدو - بسبب بعض العوامل الجوية - وكأنه يرتفع مائلا ككثبان الرمال ، حتى يلتقى بالسماء المنحنية ٠٠ وتراءى على بعد شاسع قاربان أو ثلاثة من القوارب البدائية التى يستخدمها الأهالى - الذين يذهبون فى بداوتهم الى درجة تقرب من الوحشية - فى صيد السمك من البحيرة ٠٠ وكانت القوارب لا تكاد ترى الا كقطع سوداء عالقـة بين ماء البحيرة والأبخرة التى حجبت السماء ٠٠ ولـكنها كانت تتحرك على نحـــو غير محسوس لتؤدى مهمتها العجيبة الغامضة ٠ وقال نيجل اذ رأى «روبى» تخرج من الخيمة : « تعالى انظرى الى أسراب البط يا روبى ! ما أجمله من مكان للرياضة ! »

وللمرة الأولى تبادلا دوريهما العاديين المتناقضين : فقد غدا هو عمليا ، بينما أصبحت هى خيالية أو منساقة لتأثير قوى من خيالها ٠ وكان ينظم بنادقه ويعنى بها ، وهو يدبر الأمر مع عملاق أسمر من سكان الخيام ، ليرشده الى خير أماكن الصيد لقاء مبلغ من المال ٠ ثم عاد يقول لها : « ولكن ما من سبيل للوصول الى مسافة تجعلها فى نطاق طلقات البندقية ، وأحسب اننى سأضطر الى ان أحذو حذو الأهالى » ، فتساءلت فى اهتمام متكلف : « وما هو ذاك ؟ » ٠ فأجاب : « ان أخلع ثيابى وأخوض فى المـاء حتى رقبتى حاملا البندقية فوق رأسى ٠ ثم ألبث ساكنا بلا حراك حتى يدنو بعضها ويصبح فى مرمى البندقية » ، ثم مضى يقهقه فى جذل سابق لأوانه ٠ وأضاف قائلا : « وقد قلت لابراهيم ان عليه ان يعد لى نارا كبيرة مستعرة عند عودتى ! » ٠ فسألته : « وهل أنت ذاهب اليوم ؟ » ، فأجاب : « أجل ٠٠ أظننى سأقضى ساعة ٠ وأنت ؟ ألا تشعرين برغبة فى ركوب الحمار الى حافة الماء ، والتريض معى فى البحيرة ؟ »

وترددت لحظة ٠٠ فقد شعرت بأنها تكاد تكون عاجزة عن اتخاذ قرار فى هذه القفار الواسعة وهذا الصمت المخيم ٠ وما لبثت ان قالت : « لا ٠٠ أحسبنى لقيت اليوم ما فيه الكفاية ، ولكن ينبغى ان تحضر لى بطة للعشاء ! » ، فهتف : « أقسم أن أفعل ! » ٠ وأمسك بكلتا يديها وهو يهم بالذهاب ، فقد كان مفعما

بذلك الجذل المستبد الذى يحس به الرياضى وهو منطلق لممارسة هوايته وتذوق المتعة التى يستشعرها فيها٠٠ثم قال : « وما الذى ستفعلينه الى ان اعود ؟ »٠ فاجابت : « ساخلد الى الراحة ٠٠ وربما قرات قليلا ، او تحدثت مع ابراهيم ، فانه يسليني دائما ! » ٠٠ فقال : « حسنا ٠٠ ساركب الحمار ، وآخذ حمزة معى ! » ٠ وفيما كان يمتطى ظهر دابته ، استدار نحوها قائلا :

ـ روبى ٠٠ اننى آنال نصيبى الآن ، ولسوف تحصلين على نصيبك بالمثل ٠٠ ستنالين أحسن « دهبية » يمكن الحصول عليها فى النيل ٠٠ « اللولية » ، اذا قبل بارودى ان يؤجرها لنا !

ـ اوه ! لسوف تكلفنا « اللولية » فوق ما نطيق ، لو قدر لنا استئجارها !

ـ مهما يكن من امر، فاننا سنحصل على «دهبية» فاخرة ، وسترين كل معبد على النيل ، وستذهبين حتى (حلفا) ، اذا شئت ! والآن ، عليك ان تصلى بكل حرارة ليسوق الله لنا بطا كثيرا !

ثم ركب حماره ، ومضى هابطا السفح الرملى نحو البحيرة ، وما لبث ان أصبح مع حمزة والدليل الوطنى ، مجرد بقع متحركة على بعد شاسع ٠ وراحت مسز ارماين ترقب هذا الركب من مقعد طويل آمرت ابراهيم باحضاره لها فى الرمال ـ على بعد بضع مئات من الياردات من المعسكر ـ وهى تقول له : « اتركنى هنا برهة يا ابراهيم ! » ، فاطاعها ومضى مبتعدا عنها ـ فى سكون ـ ثم جلس متربعا ليحرسها ٠٠ ولم تكن مسز ارماين ، بادىء ذى بدء ، تفكر فى شىء على الاطلاق ، اذ اخذت تحملق فى الكثبان الرملية ، والسهول الرملية ، والشواطىء الرملية ٠٠ وفى ادغال الاثل ، وفى المياه السمراء المرقطة باسراب البط ، وفى الأجسام الصغيرة السوداء المتحركة ، التى كانت تزحف كالحشرات نحو البط والبحيرة !٠٠ كانت تحس بنفسها اشبه ب ٠٠ بماذا ؟ اشبه بلا شىء ! اشبه بالعدم !٠٠ ولقد ظلت تحس كذلك فترة خالتها دهرا طويلا ، ثم بدات تعود الى نفسها تدريجيا ، وببطء ٠٠ بدات تتحرر من سحر هذا المكان ، وتناضل فى سبيل الفكاك من قبضة الصمت المطبقة عليها ٠٠ وكانت تكتوى فى هواء الصحراء القارس المثلج !

لماذا تركت نفسها تساق الى هذا المكان ، ولو كانت اقامتها فيه لثلاثة ايام او اربعة ؟٠٠ وهل كانت تخالجها اية رغبة ـ ولو مجرد رغبة عابرة ـ فى ان ترى من الفيافى الموحشة اكثر من المكان الذى قدموا منه ؟٠٠ واين كان بارودى فى هذه اللحظة ؟٠٠ ما الذى يحس به ، او يفعله ، او يفكر فيه ؟٠٠ وراحت تقسر عقلها على ان يتشبث بالتفكير فيه ، فلم تزدد الا شعورا بانها تعيش فى منفى !٠ ولقد كانت دائما ـ الى ما قبل لحظتها الراهنة ـ تؤمن ايمانا راسخا بأن بارودى قد دبر خطة معينة بشأنها ، وان اخلادها الى الهدوء والسكينة

ضرورى لتنفيذ هذه الخطة على أفضل وجه .. كانت تشعر بأنها تتخبط فى شراك خطته ، وان عليها ان تنتظر ، اذ ان شيئا ما من تدبيره ـ شيئا ما لم تدر ما هو ـ لن يلبث ان يحدث عما قريب ، وانهما سيعاودان اتصالهما من جديد ! .. اما الآن ، وهى ترزح تحت ثقل وحشة المكان التى كانت تدفعها الى شك صارخ وانقباض عاق ، وقد شرعت تتمالك نفسها بعد شرودها ، فانها مضت تتساءل عما اذا لم تكن قد ارتكبت خطأ فاحشا ؟.. ان بارودى لم يتحدث اليها مطلقا عن المستقبل ، ولا أشار قط ـ ولو تلميحا ـ الى نواياه بشأنها !.. ترى هل كان ذلك لأنه لم يكن ينتوى شيئا البتة ؟.. اتراها كانت ضحية نزواتها ورغباتها فقط ؟.. أيكون بارودى قد سئمها ، فتخلص منها ؟.. ولكن شيئا ما فى أعماقها ـ شيئا كان يخالطه نوع من الغرور ـ راح يحدثها بان الأمر لم يكن كذلك . ولكنها لم تقو على ان تصدقه فى هذا اليوم بالذات ، وسط هذه العتمة الرهيبة ، وتلك الكآبة المتسلطة ، وذلك الجو القارس الباهت الضياء ! .. وهنا استدارت فى مقعدها وصاحت بصوت عال : « ابراهيم .. ابراهيم ! » ، فنهض من بين الرمال ، وتقدم نحوها متلكئا حتى وقف صامتا الى جوارها .. واذ ذاك قالت : « ابراهيم ! » ، ثم نظرت اليه ، واخلدت الى الصمت مترددة. وما لبثت أن استعانت بالجزء الثابت العزم من نفسها ـ تلك النفس التى اكتسبت الصلابة والخشونة من الحياة التى كانت تحياها ـ وقالت : « ابراهيم ! هل تعرف أين بارودى ، وما الذى كان يفعله كل هذا الوقت ؟ »

ـ أما الذى كان يفعله ، فلا علم لى به يا سيدتى .. فان باردوى يفعل أشياء كثيرة !

ـ أريد أن أعرف ما الذى كان يفعله !.. لا بد لى من أن أعرف ، ولسوف أعرف !

كان سحر المكان ، وسحر الصمت العظيم القارس ، قد تحطم تماما فجأة فزال أثره عن مسز ارماين .. واستوت على قدميها بين الرمال ، وهى توشك ان تفقد سيطرتها على نفسها .. اذ كانت كلما تأملت المنظر الموحش الممتد امامها ، وجدته يزداد كآبة لاقتراب المساء .. وفكرت فى السعادة التى كان نيجل ينعم بها .. بل لقد رأته هناك ، بقعة سوداء فى ذلك الفراغ الشامل ، يزحف قدما نحو ملهاته وسروره . واذ ذاك تملكتها سورة من الغضب المضطرم بالحقد والحنق ، وبدا لها ان من الفظاعة البشعة ان تكون امرأة مثلها فى مثل هذا المكان ، وفى مثل هذه الحالة ، تنتظر بين الرجال وحيدة ، مهجورة ، دون ما شىء تفعله ، أو انسان تتحدث اليه ، ودون ما أمل فى تسرية أو سرور .. بل دون ما أمل فى شىء على الاطلاق !.. وانبعث فى أعماقها فجأة صوت مدو ، وبدا كأنما كان يصيح ، ويصرخ : « لن أحتمل هذا ! لن احتمله البتة ! » .. وتحولت تقول

لابراهيم فى انفعال : « لقد سئمت الفيوم ٠٠ سئمتها الى اقصى حد ، واريد ان اعود الى النيل ٠ هل تعرف أين يوجد بارودى الآن ؟ هل هو فوق صفحة النيل ؟٠٠ اننى أكره هذا المكان ، واشمئز منه ! »

وقال ابراهيم فى رقة بالغة : « سيدتى ، ان صيد الثعالب ممتع هنا ! » ٠٠ فصاحت محنقة : « صيد الثعالب ! وصيد البط !٠٠ اذن فانت لا تفكر الا فى مسرات سيدك وملاهيه !٠٠ أتظن أننى سوف أظل جالسة فى مكانى بين الرمال اياما عديدة ، لا أفعل شيئا ، ولا ارى شيئا ، بينما ٠٠ بينما ٠٠ » ، وأمسكت عن الحديث بغتة ، اذ لم يعد فى وسعها ان تمضى فيه ٠٠ كانت ضراوة غضبها تكاد تكتم أنفاسها وتخنقها ، ولو ان نيجل كان بجانبها فى تلك اللحظة لوجدت فى نفسها من القدرة ما تظهر به - حتى له هو - شيئا من الحقيقة التى كانت تكتمها !

وانبعث صوت ابراهيم الرقيق من جديد ، وهو يزج بنفسه فى غمرة انفعالها ، قائلا : « سيدتى ٠٠ ان صيد الثعالب يحتاج الى ان تخرجى اليه ليلا ٠٠ فلا بد لك من الذهاب الى هناك عندما يخيم الظلام ، والتربص فى مكانك مدة طويلة حتى يحضر الثعلب ٠٠ وعليك ان تربطى عنزة ، فيشم الثعلب رائحة العنزة ، ولا يلبث ان ياتى ! » ٠٠ فراحت تحملق فيه مشدوهة لا تكاد تفقه شيئا ٠٠ اذ ما شأنها هى بكل هذا الهراء ؟٠٠ ثم التقت عينا ابراهيم بعينيها ، وهو يستطرد فى هدوء : « ان سيدى أرمينيجل يهتم بذلك كل الاهتمام ويسر منه ! » ٠٠ ولم تنبس ببنت شفة ، بل ظلت تتفرس فى ابراهيم ٠ ومضى يقول : « لعل سيدى يخرج للصيد الليلة ٠٠ فاذا خرج ، جاز لك ان تذهبى فى نزهة قصيرة مع ابراهيم ! » ٠٠ وأشار الى الفضاء المترامى خلفها ، حيث ترتفع تلال الرمال حتى تكاد تلامس السماء المقوسة ، وأردف قائلا : « ستتمشين هناك قليلا للتريض ! »

وظلت ساكتة لا تقول شيئا ، ولا تسال عن شىء ٠٠ فما كانت بها حاجة الى السؤال !٠٠ وبدت لها القفار الموحشة المحيطة بها وكأنها أينعت وازدهرت فجأة كما تتفتح الوردة عن كمها ٠٠ وخيل اليها ان هذا المكان لم يعد أقصى أطراف الدنيا ، وانما غدا قلبها الدافىء الحنون !٠٠ وعندما تكلمت أخيرا ، راحت تقول فى هدوء : « لسوف يخرج سيدك لصيد الثعالب الليلة ! » ٠٠ فاومأ ابراهيم برأسه وقال وقد شرد فكره : « أرجو ! » ٠٠ وفى تلك اللحظة بلغ مسامعهما صوت طلق نارى انبعث من بين ادغال الاثل البعيدة ، بجوار المياه السمراء المخضرة ٠٠ بينما كان ابراهيم يستانف حديثه قائلا : « أرجو أن يذهب مولاى أرمينيجل وراء الثعلب الليلة ! »

الفصل الرابع والعشرون

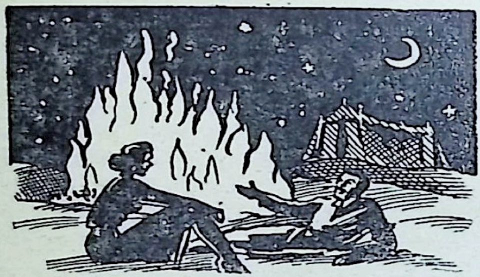

◆ كان العشاء فى المخيم مادبة بهيجة ، فى تلك الليلة ٠ فقد احضر نيجل معه بطتين ، واشعل ابراهيم نارا حامية من أعواد الحطب الجافة لتدفئة الرياضى الملهوف ٠ وظهرت روبى فى حالة معنوية مدهشة ، وبلغت ذروة الكمال فى اداء دور سيدة البيت الغيور ٠٠ كانت تغدو وتروح بين الرمال ، وتشرف على كل شىء ٠ بل انها نفذت الى خيمة الطاهى مع ابراهيم ، لتلقى على محمد بعض الارشادات عن اعداد البط ٠ وراحت تقول لنيجل : « هذه اجازتك ، وانا اريد ان تكون اجازة سعيدة حقا ! عليك ان تستمتع بأكبر قسط منها ، وأن تخرج للصيد فى كل وقت ٠٠ ولقد سمعت ان عددا كبيرا من الثعالب يأوى الى ادغال الاثل، فهل تخرج الليلة لتجرب حظك معها ؟ » ٠٠ فبسط ساقيه امامه مسترخيا، وهو يرسل زفرة طويلة نمت عن الرضى والارتياح ، وأجاب :

— لست أدرى يا روبى ٠٠ اننى احب ان افعل ، ولكن المكان هنا بهيج مريح الى حد بعيد !

ونظر الى النيران المتقدة ، ثم عاد يتطلع اليها ثانية وهو يستطرد قائلا : « لست واثقا من اننى سأخرج ثانية ! » ٠٠ فقالت : « أتراك متعبا ؟ » ٠ وأجاب : « كلا ، ليس الأمر كذلك ٠٠ الواقع أننى أحس بسعادة عظيمة معك فى المخيم ٠٠ كما احب ان افكر فى هذه العزلة الموحشة التى تحيط بنا ، اذ لا يوجد من البشر حولنا سوى نفر من الغجر هناك ، وقليل من صائدى السمك المتوحشين انصاف العراة ٠ لقد احضرنا واحتنا الخاصة معنا الى قلب صحراء ليبيا ، واحسب اننى سوف أكون رجلا حكيما الليلة فالزم الواحة ! » ٠٠ فابتسمت له قائلة : « افعل اذن ! » ٠٠ وتخلل ابتسامتها تثاؤب طويل ، ثم

استطردت تقول : « اما أنا فسوف أذهب الى الفراش توا ! » ٠٠ وتظاهرت بانها تحاول ان تكتم التثاؤب من جديد ، فسألها : « أتعنين أنك سوف تذهبين الى الفراش مبكرة ؟ » ٠٠ فهتفت : « بل فى الحال ٠٠ أيضايقك ذلك ؟ اننى جد متعبة بعد ركوب الجمال هذه المدة الطويلة ، وسوف انام نوما عميقا ! »

ووضعت يدها على كتفه ، وقد تبدى النعاس على كل أساريرها ، وقالت : « أيها الشقى العجوز ! ما الذى تعنيه بهذه اليقظة التامة التى تبدو فيها ؟ » ٠٠ فالقى يده فوق يدها ، وضحك قائلا : « اننى أحس فى هذه البلاد العظيمة كما لو كنت مصنوعا من حديد ، فلست أشعر برغبة فى النوم قط ! » ٠٠ فكتمت التثاؤب من جديد ، وقالت : « اذن فسوف ٠٠٠ » ثم وضعت يدها على فمها ، واردفت : « سوف امكث قليلا لأونسك ! » ٠ فهتف : « هذا ما لا ينبغى ان تفعليه حقا ، بل يجب ان تأوى الى الفراش حالا ٠٠ وقد أخرج لأتفقد الثعالب ، بعد ان تستقرى فيه !٠٠ وما دمت تريدين النوم ، فلا بد لى من ان ٠٠ » ، وجذب وجهها اليه ، ثم قبلها قبلة طويلة وقال : « ٠٠من ان اسلمك الى الفراش اولا ، حتى اذا ما رأيتك فى امن وراحة ودفء ، بدات المسير » ٠٠ فردت قبلته باحسن منها ، وقالت : « لا ، بل يجب ان اودعك حين تخرج ! » ٠٠ فتساءل : « ولكن لماذا ؟ »

— لأننى أحب ان اودعك وانت تمضى ليلا الى الشىء الذى يجلب لك السرور، فهذا هو سرورى ومتعتى ٠٠ ولكن ليس دائما ، لأننى من الأنانية بحيث لا أرضى بذلك !٠٠ وعندما نذهب الى النيل ، فسوف يكون عليك ان ترعانى ، وان تفعل كل ما أريد ٠ اما فى هذه الأيام القلائل ، فساكون كالمراة الشرقية ، طوع اشارة سيدى ومولاى ! لذلك يجب ان اقف لك حتى أراك وأودعك ، وبعدئذ ٠٠ آه ! سانام نوما عميقا !

فنهض قائما ، وهو يقول : « اننى قد أمكث فى الخارج حتى الصباح ٠٠ ترى هل أحضر حمدى عنزة ؟ » ٠٠ وذهب ليحضر بندقيته ٠ وان هى الا دقائق قليلة ، حتى كان يغادر المعسكر ، وهو يهتف بها فى جذل : « طيبى نوما يا روبى ! انك تبدين أشبه بساحرة وانت تقفين أمام النار والسنة اللهب تتلاعب حولك وتضيئك ! طابت ليلتك ٠٠ طابت ليلتك ! »

وخفت وقع قدميه فوق الرمال ، وتلاشى صوته وسط الظلام ، فظلت روبى مدة طويلة ، تقف مترقبة — بلا حراك — بجانب النيران ٠٠ وخالت ان روحها قد انطلقت تعدو فوق الرمال صوب تلك القمة التى تلامس السماء ، ولكن ارادتها القوية امسكت بجسدها ، فظل واقفا بجوار اللهب ، حتى ابتعدت البعثة الرياضية مسافة كافية ، واذ ذاك هتفت : « ابراهيم ! » ، فبادر متسائلا : « سيدتى ؟ » ٠ فقالت : « كيف نزمع الذهاب ؟ » ٠ وكانت تخاطبه فى همس

خافت الى جوار النار ٠٠ ولم تنتظر اجابته ، بل مضت تقول : « هل يهم ان يعرف الجمالون ؟ هل يجب أن يعرفوا ؟ وهل سأركب أم أمشى ؟ » ٠٠ فاجاب : « دعى كل شىء لابراهيم ، أما الآن فاذهبى الى خيمتك ، وسوف الحق بك عما قليل ! » ٠

واسرعت الى داخل الخيمة لفورها فجلست على مقعد من المقاعد التى تطوى وتنشر ، وقد قامت أمامه منضدة مستديرة من الحديد ، فبسطت روبى ذراعيها على المنضدة ، واسندت وجهها الى ظهر يديها ٠٠ وكانت وجنتاها متوهجتين ، ولكنها ما لبثت ان قفزت على قدميها ، واسرعت الى حقيبتها ففتحت قفلها ، واخرجت منها صندوق الزينة الذى أهداها بارودى اياه فى بساتين البرتقال ٠٠ ومضت تزين وجهها فى عجلة ، وهى تقف أمام المرآة المعلقة الى جدار الخيمة ٠ ثم ارتدت معطفا قصيرا من الفراء ، اذ كان الهواء شديد البرودة فى الخلاء ٠٠ وراحت تتساءل عن مدى المسافة التى ستقطعها مع ابراهيم ٠٠ وماذا لو عاد نيجل على غير انتظار ، كما يفعل معظم الأزواج فى مثل هذه الظروف ؟

على انها لم تشأ ان تزعج نفسها بالتفكير فى ذلك ، اذ كانت تشعر بانها قد بلغت من الياس حدا يحملها على الا تحفل بشىء ٠٠ كانت تحس بنفسها فى قبضة القدر ، فاذا كان القدر يعتزم أن يتمرد عليها ويقلب لها ظهر المجن ، فالويل لها ٠٠ ولنيجل !٠٠ ولكنها كانت تنتوى – فى لحظتها هذه – ان تذهب الى ما وراء الكثيب الرملى ، وهذا هو كل ما تعرفه أو تفكر فيه !٠٠ واسرعت تثبت أزرار معطفها وترتدى قبعة وقفازين ٠٠ وما لبث ابراهيم ان دس خلال مدخل الخيمة رأسه المدثر بما يقيه البرد ، وقال : « سنبدأ الآن ! » ٠٠ فتساءلت : « هل سنمضى على الأقدام ؟ » وكان جوابه : « على الأقدام فى البداية ! »

واذ غادرت الخيمة ، وجدت أن نار الحطب قد أطفئت تماما ٠ وقال ابراهيم وهو يشير الى الظلمة الممتدة امامهم : « لن يرى أحد – من الذين هناك – شيئا » ٠ فقالت : « والرجال ؟ هل يهم أمر الرجال ؟ » ٠٠ وكان سؤالها فى غير اكتراث ، فهى لم تكن تشعر بأنها تبالى بذلك حقا ٠٠ واجاب ابراهيم : « كل الرجال نائمون ، عدا حمزة ٠٠ فانه يتولى الحراسة » ٠٠ وكانت خيام الرجال على مسافة منهما ، فنظرت مسز ارماين نحوها ، ولكنها لم تر اية حركة ، ولم تلمح اى شبح ، عدا تلك الأشباح الشاحبة الضخمة ٠٠ اشباح الابل الجاثمة ٠ واستطرد ابراهيم قائلا : « لقد قلت أننى خارج لأتبع سيدى ارمينجل ! »

وبدأت الرحلة الى أعماق الصحراء ٠ وفيما كانا يغادران المعسكر ، حانت من مسز ارماين نظرة ، فرأت حمزة خلف خيمتها يقوم بالحراسة ، وقد حمل بندقية فوق كتفه ٠٠ وكان الليل حالك الظلام خاليا من النجوم ، والهواء – رغم خفته

وبطئه فوق الصحراء ـ باردا ، وخازا ٠٠ وأخذت قدما مسز ارماين تغوصان مع كل خطوة فى الرمال العميقة الرخوة ، وهى تمضى الى الحلكة المدلهمة المسيطرة على الصحراء الشاسعة التى لا حدود لها ولا قرار ٠٠ وفيما كانت تحدق امامها فى الحلكة الخاوية ، وتشعر بسعة هذه القفار غير المأهولة ، خطر لها ان ابراهيم انما كان يقودها الى مغامرة جنونية ، وانهما لن يمضيا الا نحو الرياح ، والصحراء المقفرة ، والظلمة التى يمكن للمرء أن يتحسسها ٠٠ ولم يخاطبها بكلمة ، وكذلك هى لم تتحدث اليه ، حتى سمعت فجاة ـ وبالقرب منهما ـ زمجرة غاضبة لأحد الجمال ٠٠ وعندئذ وقفت بغتة قائلة : « هل سمعت هذا ؟٠٠ هناك شخص على مقربة منا » ٠٠ فقال : « بل تعالى يا سيدتى ٠٠ انه هجين طيب أعد من اجلنا » ٠٠ فافرخ روعها وقالت « آه ! » ٠ ثم أسرعت تغذ السير من جديد ، فلم تمض ثانيتان أو ثلاث حتى ارتفع خوار الجمل من جديد ، فقال ابراهيم : « ان البدوى يحمله على الخوار ليدلنا على مكانه »

وصاح ببضع كلمات باللغة العربية ، فأجابه من الظلام صوت أجش قوى ٠ وفى اللحظة التالية بلغا شبحين ملثمين ، أمسكا بزمامى جملين جثما على الرمل ، خلف بعض كثبان الرمل التى كانت تحميهم من الرياح ٠٠ وكان على أحد الجملين ما يشبه الهودج ، فاتخذت مسز ارماين مجلسها بداخله ، بينما جلس أحد البدو فى المقدمة ٠٠ وانبعث صوت عصا ، فصاح الحيوان محتجا ، وهو يملأ فراغ الليل بخوار طويل صار فى النهاية أشبه بزئير الأسد ٠٠ وما لبث ان نهض من مجثمه فجاة ، وكف عن الخوار ، ثم انطلق يركض بخطى واسعة ٠ ولم يكن فى وسع مسز ارماين ان تعرف حساب الوقت الذى انقضى ، أو المسافة التى قطعتها ، خلال هذه الرحلة ٠٠ فقد كانت مليئة بالانفعال ، مبهورة بالمغامرة التى لم يكن لها بها عهد من قبل ، مما بعث فيها شعورا عجيبا بالشباب !٠٠ وتحولت

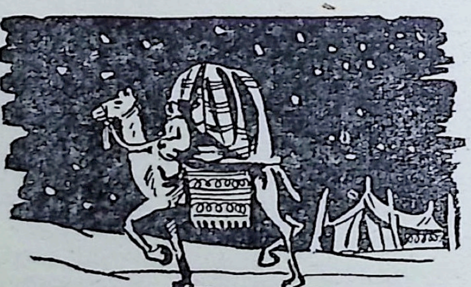

الصحراء المظلمة ـ التى كانت الرياح الباردة تجتاحها ـ فغدت فجأة فى نظرها بمثابة معقل للآمال القوية والرغبات التواقة الى التحقق !٠٠ وكان الأمل المرجو يملؤها ـ لحظة بعد أخرى ـ بدفء يفوق ما سرى اليها من نار المعسكر العظيمة التى اشعلت ترحيبا بنيجل ٠٠ حتى اذا لاح لناظريها اخيرا ـ على البعد ـ بريق ضوء خافت ، كأنه نجم ملتصق بالأرض ، خيل اليها ان الصحراء كلها تتالق بضياء ساطع يبهر الأنظار ببهائه !

وما من ريب فى ان الضوء كان بعيدا ، لأنه لم يكن يزداد وضوحا لبصرها او تالقا ـ رغم ان الهجين كان يطوى الصحراء ـ وانما ظل يبدو كعين نائية ترمقها بنظرة قاسية ثابتة ، وكأنها تستشف دخيلة نفسها ٠ وسرح فكر مسز ارماين الى عينى بارودى الثاقبتين ، فلما نظرت الى الضوء الأصفر ثانية ، احست كما لو ان الرجل كان يرقبها فى جمود من حصن بين الرمال ٠٠ حصن منيع لم تكن تستطيع الاقتراب منه ٠

ومن العسير تقدير المسافات والأبعاد فى الصحراء ٠٠ ففى الوقت الذى كانت فيه مسز ارماين تظن أنها لن تستطيع بلوغ هذا الضوء قط ، اذا به يتسع بغتة ، ويتفجر اشكالا من السنة اللهب ـ هنا وهناك ـ تبعا لهبات الرياح المتسللة من الصحراء ، ثم يغدو نارا متاججة ، تكشف عن اشباح غامضة لجمال، ورجال رابضين ، وخيام ، وكلاب للحراسة ، وجياد مقيدة السيقان ٠٠ واذا بها فى وسط مخيم اقيم فى مكان منعزل فى احضان الرمال ، بعيدا عن اية واحة !

وبرك الهجين ، فاستوت المراة على قدميها ، ووجدت ابراهيم يقف الى جوارها ٠٠ وظلت مبهورة البصر لحظة ، وهى تقف ساكنة بلا حراك ، وتضغط قدميها على الرمال التى كانت تتوهج فى الضوء المنبعث من النيران ٠٠ ورات عيونا ـ عيون البدو الجميلة الشبيهة بعيون الطيور ! ـ تحدجها بنظرات ثابتة ، خلال قلنسواتهم المعتمة المدببة ٠٠ وسمعت « طقطقة » الخشب بين السنة النيران المتاججة، وسط هذا السكون الذى لم يكن يتخلله سوى عزيف الرياح، وذلك الصرير الخافت المنبعث من أضراس الجمال وهى تجتر طعامها ، على حين كانت الكلاب تحوم حولها وتتشمم ساقيها ٠ وقال ابراهيم : « تعالى معى يا سيدتى ! » ٠٠ فتبعته فى حركة آلية وابتعد بها عن النيران ، فاجتازا معا بقعة من الأرض الرملية ، نحو خيمة كبيرة منعزلة عن سائر خيام المعسكر ٠٠ وأخذ قلبها يخفق فى عنف واضطراب ـ كلما ازدادت من الخيمة دنوا ـ وقد خامرها شعور عذراء غريرة !٠٠ فما شعرت منذ اعوام بالشباب يتفجر بين جوانحها كما شعرت به فى تلك الليلة ٠٠ ففى تلك الصحراء المظلمة ، وبين هؤلاء الرجال الافريقيين ، كانت كل معرفتها بشئون الدنيا ، وكل تجاربها مع الرجال فى البلاد المتحضرة ، تبدو عبثا لا نفع لها منه ولا قيمة ٠٠ كأنها نثرت تلك المعرفة وتلك التجارب

فى الهواء ، وتجردت منها كما تتجرد الأفعى من جلدها ، ثم وقفت هناك فى جهالة جديدة تماثل جهالة الشباب الحائر !

وكانت شريحة من القماش السميك تؤلف بابا للخيمة ، وقد اسدلت باحكام، فمضى ابراهيم نحوها وصاح مناديا ٠ ومرت لحظة لم يتلق فيها جوابا ٠٠ وفى خلال تلك اللحظة انفسح الوقت أمام مسز ارماين لتلمح خيمة أخرى أصغر حجما ، اقيمت مع خيمة بارودى – وهى الخيمة الكبيرة ، كما أدركت – بمعزل عن سائر الخيام ٠ واذ سكنت الرياح لحظة ، خيل اليها – وان لم تستوثق – انها قد سمعت من الخيمة الكبيرة صوتا رفيعا يشبه صوت الأوتار المشدودة الى آلة موسيقية لم تكن تعرفها ٠٠ وفى اللحظة ذاتها ، رفع باب الخيمة ، وتدفق منه ضوء ساطع ، رأت فى وسطه شبح رجل نظر الى الظلام لحظة ، ثم تراجع الى الخلف ، فأسرعت تلج الخيمة لتجد نفسها واقفة بجوار محمود بارودى !٠٠ واذ ذاك أسدل باب الخيمة ثانية ، فحجب عنها الليل والصحراء معا !

* * *

◆ وكان بارودى يرتدى ثيابا عربية ٠٠ فقد غطى راسه بعمامة بيضاء موشاة بالقصب ، كما احيط وجهه باطار ناصع البياض من لون الثلج النقى ، بينما اختفى عنقه الضخم خلف غلائل من القماش الثمين ٠٠ وكان يرتدى « قفطانا » طويل الكمين ، من الحرير المقلم المشجر ، ويحيط خصره بحزام عريض من الحرير الهفهاف الفاخر ، ويضع فوق ذلك كله ما يشبه المعطف من قماش قرمزى اللون (جبة) ٠٠ وكانت ساقاه بغير جوربين ، كما كانت قدماه فى خفين محليين من الجلد المراكشى القرمزى ، وقد أمسك بيده اليسرى غليونا مفرط الطول ، ذا مبسم من العاج !

واخذت مسز ارماين تنقل نظراتها بينه وبين خيمته ، وتلك الستائر الحريرية السميكة ذات الألوان المشرقة – التى كانت تخفى قماش الجدران – والى الأبسطة النفيسة التى كانت تغطى رمال الصحراء ، والى المصباح الفضى الكبير المعلق بسلسلة من الفضة الى السقف المحدودب ، والى أكوام الوسائد الحريرية المتعددة الألوان التى تناثرت فوق الأرض ٠٠ومرة اخرى تناهى الى خياشيمها ذلك الشذى الخفيف للعطر القوى الذى كانت تقرنه ببارودى دائما ، ثم أصبحت تقرنه بالشرق كله ، وبكل ما هو شرقى ٠٠ لقد نقلها ذلك الهجين السريع – خلال الليل – من عالم الى عالم آخر حقا ، ولكنها أحست بالتعب فجاة ٠٠ أحست بأنها تتمنى لو تستلقى فوق هذه الحشيات الحريرية الكبيرة ، وبين تلك الجدران الحريرية الملونة التى حجبت عنها الظلمة العاصفة ، والصحراء الكئيبة الشاسعة ، وأن تظل كذلك طويلا ٠٠ واصاب الوسن غريزة الغانية ، تلك الغريزة المترفة

الفاترة ، فاستجاب جسدها كله لهذا الدفء العطرى ، وهذا الجو من الثراء والرفاهية الذى خلقه الرجل الواقف أمامها فى قلب الوحشة وصميم القفار

وما لبثت ان تنهدت ، ثم نظرت الى عينيه .. فقال بتلك اللهجة الساخرة المنغمة ، التى لحظتها منه فى أول لقاء لهما على انفراد : « وكيف حال مستر أرمين ؟ هل خرج يسعى وراء الثعالب ؟ » .. ولم تدرك قصده ونيته ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يقول لها فى تلك اللحظة ما قد يصفع ـ بخشونة أقسى من ذلك ـ الابتهاج الشهوانى الذى أضفاه عليها هذا التغير المباغت .. لقد كشفت لها كلماته ، منذ الوهلة الأولى ، ضرورة عودتها فى الحال ، وسريعا ، الى المعسكر ، والى نيجل .. كما أيقظت فيها المرأة الوسنانة الكامنة فى أعماقها .. المرأة التى ما زالت تحتفظ بغرائز « السيدة » !.. فقد تبينت هذه « السيدة » ـ كما تبينت حواء عريها وتجردها ـ مبلغ الهوان الذى أصابها باندفاعها السريع أثناء الليل من معسكر الى آخر .. الهوان الذى تمثل فى انها هى التى بحثت عن الرجل و سعت وراءه ، وأنها سيقت اليه ، دون ان يجشم نفسه عناء الحضور اليها !.. وتورد وجهها تحت الطلاء الذى كان يكسوه ، فاستدارت فى عجلة ، وانحنت تحاول ان تحل أربطة باب الخيمة القماش .. فلقد اعتزمت ان تخرج الى العراء فتنادى ابراهيم ، ثم تغادر المعسكر على الفور . ولكن يديها كانتا ترتعدان ، فلم تستطع فك الأربطة ، رغم نضالها ومحاولتها وهى منحنية فوقها . ولم تسمع أية حركة خلفها .. فهل كان باردوى ينتظر هادئا حتى يراها راحلة ؟.. وودت أن تركع على الأبسطة لتتمكن من فك أربطة الباب ، ولكنها ، فى غمرة غضبها العصبى وانفعالها الشديد ، خالت ان الركوع فى هذه الخيمة لن يكون سوى دليل مادى على الهوان !.. ومع ذلك فانها ـ بعد ان ترددت لحظة ـ تهادت على الأرض ، ودفعت يديها تحت القماش فى قوة ، وراحت تتحسس الفراغ ، فيما يشبه الجنون ، بحثا عن الحبال .. وأمسكت يدها شيئا ، لعله كان حبلا ، أو وتدا ، اذ انها لم تكن تدرى .. ولكنها راحت تشده وتجذبه بكل ما فيها من قوة !

وفى تلك اللحظة بالذات ، سكنت الرياح فجأة .. تلك الرياح الليلية التى تهب فوق الصحراء جامحة بغير زمام يقيدها ، فتعصف تارة فى ثورة تكاد تكون ضارية ، وتخمد تارة أخرى فى سكون يكاد يكون تاما شاملا .. واذ ذاك سمعت صوتا واهنا أثار انتباهها كله بوهنه وخفوته .. كان ترجيعا للصوت الذى خيل اليها أنها سمعته عندما كانت تنتظر خارج الخيمة ، ولكنها فى هذه المرة لم ترتب فى حقيقته .. كان ذلك صوت آلة موسيقية ، آلة من نوع ما ، ذات أوتار ، تعزف عليها أصابع مدربة رصينة .. وتكررت الأنغام ، فتسلل اليها من الخارج لحن شرقى غريب .. لحن رقيق حزين يحرك المشاعر .. وأوحى اليها

ذلك بوجود نساء ! فتوترت عضلات يديها ، وتهاوت اصابعها عن أوتاد الخيمة. وراحت تفكر فى الخيمة الأخرى .. الخيمة الصغيرة التى رأتها قائمة بالقرب من خيمة بارودى : فمن ذا الذى كان يقيم فى تلك الخيمة ؟

ومضى اللحن يجرى فى استرسال ، يكاد يشبه شدو طائر صغير ، ينساب من مكان منعزل فى الصحراء . ولكن لم يلبث اللحن ان تلاشى فى جوف الليل ، اذ اشتد هبوب الرياح الليلية من جديد .. فنهضت مسز ارماين من ركوعها ، ولم تعد يداها ترتعدان ، كما لم تعد بها رغبة فى الذهاب . وقالت : « هلا سويت لى بعض الوسائد يا بارودى ، فاننى متعبة من اثر الركوب ؟ »

ولم يكن قد تحرك من حيث كان واقفا منذ ان دخلت الخيمة ، ولكنها لاحظت ان غليونه الطويل قد سقط من يده ، واستقر فوق السجادة .. وسألها فى وجوم : « اين تريدين ان اضعها ؟ » . فاشارت الى احد جوانب الخيمة ـ وكان اقربها الى الخيمة الصغيرة ـ وقالت : « هنا ، بجانب هذه السجف الحريرية ، حتى استطيع ان أسند ظهرى .. اثنتان او ثلاثة فقط .. نعم ، هذه تكفى ! » .. وفكت ازرار سترتها المصنوعة من الفراء ، واردفت قائلة : « هلا ساعدتنى ؟ » ، فنزع السترة عنها فى رفق . وجلست ، ثم

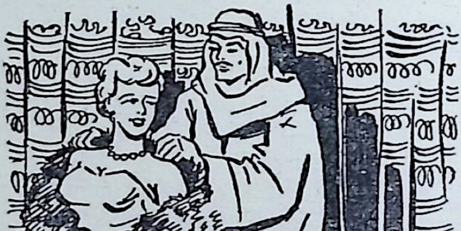

خلعت قفازيها ، ورتبت الوسائد خلف ظهرها فى عناية . وكان مسلكها مسلك امرأة تنتوى ان تبقى حيث كانت ، مدة طويلة . وراحت ترهف السمع منصتة عسى ان تسمع الموسيقى ثانية ، ولكن وجهها لم ينم قط عن انها كانت تبذل أى جهد .. كانت نفسها قد عادت اليها .. وكانت « نفسها » هذه امرأة استطاعت فى عالم معين ـ عالم تحارب فيه النساء غيرهن من النساء ، من أجل الرجال ، فى سذاجة ، بل وفى علانية تامة احيانا ! ـ ان تحافظ طويلا على مركزها فى عزم ونجاح ، بل وفى قسوة !

وكان بارودى يرقبها بعينين ملؤهما الجد والاهتمام ·· والتقط غليونه من الارض ، ثم جلس متربعا بالقرب من حيث جلست مستندة الى الوسائد ·· وازداد هبوب الرياح الليلية قوة ، فلم تعد تسمع صوتا من الخيمة الاخرى · واذ ادركت ان الريح لابد ان تبدد هذه الموسيقى الغريبة الرقيقة ، ولو ظل عازفها المستتر ممعنا فى ادائها ، قالت فى شىء من الجفوة : « وماذا لو عاد زوجى الى المعسكر قبل عودتى الى هناك ؟ » ·· فقال : « لن يحدث هذا » · فتساءلت : « وما الذى يدرينا ؟ »

ـ سيحملك الهجين الى هناك فى خمس عشرة دقيقة

ـ ربما كان هناك الآن ·· ماذا لو كان هناك ؟

ـ وهل ترغبين فى ان يكون هناك ؟

كان قد نفذ الى فكرها ، وتعمق فى فهم رغبتها ·· ذلك ان انغام تلك الموسيقى ، وهذا اللحن الصغير المنبعث من « العود » البدوى المشدود الاوتار، تحت اصابع مدربة ـ ربما كانت مصبوغة بالحناء ، لون الفرح والسرور ـ قد جعلها مستهترة لا تبالى بالعواقب ·· لقد اصبحت تتوق فى تلك اللحظة الى ازمة وانفجار !·· ومع ذلك فان سؤاله هذا جعل شيئا ما فى اعماقها ينكص ويتراجع ·· افيمكن ان تكون خائفة من نيجل ؟ ايمكن ان تطاطىء راسها امام طيبته عندما تتبين هذه الطيبة ما هى عليه من شرور ؟·· لقد غيرها الزواج حقا ، وعلى نحو مبهم غامض ، فاعاد اليها رغباتها ونزواتها ، بل حتى تلك الحشمة المصطنعة ، التى كانت تظن انها تخلصت منها الى الأبد ، منذ زمن بعيد · وكانت اشباح بعض غرائز المراة « المستقيمة » لا تزال تجاهد بوهن فى اعماقها ـ على ما بدا ـ محاولة ان ترفع رؤوسها فى اعماق هذه المراة ، التى لم تلبث ان قالت : « ان الامور لا يمكن ان تمضى على هذا النحو ·· اننى لا اعرف ما ابغى، ولكنى لن اسمح لنفسى بأن اعامل كما تخال ان بوسعك ان تعاملنى ! هل تعلم ان فى اوربا رجالا قضوا على انفسهم من اجلى ؟ هل سمعت ؟ حطموا انفسهم من اجلى ؟! » ·· فقاطعها وهو يبتسم ابتسامة العارف ، قائلا : « افكنت تحبين ذلك ؟!·· لقد كنت تحبينه كثيرا ، ولكنى لن افعله قط ! » ·· واخذ يهز راسه وهو يستطرد قائلا : « اننى على استعداد لأن امنحك اشياء كثيرة ، ولكنى لست واحدا من أولئك الذين يسميهم الرجل الانجليزى حمقى مافونين ! »

وكان الجانب العملى فى خلقه ـ وقد بدا واضحا جليا فجاة ـ اشبه بيد باردة مثلجة وضعت على بدنها ·· كان اشبه بدواء ناجع للحمى التى انتابتها، فقد بدا وكانه يوشك ان يتغلب على مرض طاغ ، هو مرض رغبتها فيه واشتهائها اياه ، الذى انجب لنفسه رفيقا ابديا تمثل فى غيرتها الجامحة التى

كانت تشمل جسدها كله وروحها كلها !٠٠ وقالت بعد لحظة من التردد ، وهى تسارع من جديد ـ رغم انفها ـ الى استقبال هوانها ومذلتها : « ذلك لأنك لا تميل الى ٠٠ فكل رجل يميل الى امراة يمكن ان يكون احمق من اجلها ، حتى ولو كان رجلا شرقيا ! » ٠٠ فقال : « ولماذا حضرت الى هنا اذن ؟٠٠ اننا على مسيرة يومين ـ فى الصحراء ـ من أبى الهول ! » ٠فاجابت: « لأنه يروق لك ان تلاحق امراة انجليزية ! انك قاسى الفؤاد ، وهذا الامر يستهويك ! » ٠٠ وفى تلك اللحظة فهمت سر قسوتها نحو نيجل فى وضوح وجلاء ، كما فهمت سر قسوة بارودى حيالها ٠٠ وهكذا كانت تدنو من معرفة قانون التعويض عن خبرة وتجربة !

وضاقت عيناه وقال : « افكنت تفضلين ان لا الاحقك ؟ » ٠٠ فلم تحر جوابا ، ولكنه عاد يسالها : « هل كنت تفضلين ان تتركى فى هدوء لحياتك مع مستر ارمين ؟ » ٠٠ فهتفت فى قنوط : « آواه ! لقد سئمت حياتى معه ! من الخير ان لا يكون فى المعسكر عند عودتى الليلة ٠٠ هذا افضل الى درجة كبيرة ! » ٠٠ فقال فى صوت يدب فيه الازدراء والاستهجان : « واذا وجدته فى المعسكر ٠٠ هل تخبرينه ؟٠٠ انك لا تشبهين اية واحدة من نسائنا ، فهن يعرفن كيف يفعلن ما يردنه ، حتى وهن خلف الابواب والنوافذ المقفلة فى بيوت ازواجهن ٠٠ انهن نساء بارعات ماكرات عندما يمشين فى دروب الحب ! » ٠ وهكذا جعلها تحس كانها طفلة غريرة ، بل انه وجه لطمة عنيفة الى كبريائها كفانية ناجحة ٠٠ فقالت : « ما ينبغى ان اخبره ، بالطبع ٠٠ ولكن لعل ذلك يكون خيرا لى ، فقد تعبت وضقت ذرعا بحياتى هذه ! »

وعادت الكآبة المروعة تتدفق عليها من جديد ٠٠ تلك الكآبة التى كثيرا ما تصيب النساء اللائى من طرازها وسنها ، والتى كانت تخشاها وتوجس منها شرا ٠٠ فقد كانت راغبة فى أن تعيش ـ فى السنوات القليلة الباقية ـ كما تود وتهوى ان تعيش ٠٠ لابد لها من ان تسارع الى الفكاك من سجنها ، والا فلن تجد حرية تنعم بها اذا هى أبطأت فى تحطيم سجنها ، لان العمر الباقى لها اقصر من ان تضيعه فى التردد !٠٠ ولم يكن فى وسعها ان تخبر بارودى بشىء من هذا كله ، ولكن كان من المحتمل ان تجعله يشعر بقوة رغبتها ، بطريقة توقظ فيه قوة مساوية من الرغبة المستجيبة !٠٠ ولعلها لم تستغل حقا كل ما لديها من قوى الفتنة ـ فى المرات السابقة ـ لم تستغل تلك القوى التى طال ترويضها وتدريبها فى اتون الحياة المتاجج !

وسكنت العاصفة فوق رمال الصحراء ، فعادت تسمع انغام العود الرقيقة٠٠ كانت تتموج فى اذنيها كشىء لين مرن مثير !٠٠ لابد ان ثمة امراة كانت فى تلك الخيمة !٠٠ وهى « بيللا دونا » ، ست الحسن ، لابد لها من ان تعود

الى معسكرها على الفور ، وتترك بارودى مع تلك المرأة ! ان العقارب تقتص منها الليلة !٠٠ وقالت : « لماذا تراك حضرت الى هذا المكان ؟ » ٠٠ فاجاب : « لأقضى معك ساعة ! » ٠٠ وكانت السخرية والرصانة ـ اللتان تبدوان دائما باردتين فى هدوئهما ـ قد تلاشيا من عينيه ، وحل محلهما بريق لامع بدل هيئته كلها تبديلا ٠٠ اذن فقد كان ، هو الآخر ، ينطوى على ذلك الجنون السماوى !٠٠ التهوس الشبيه بما لدى حمزة !٠٠ أم تراه كان جنونا لا يمت الى السماء بصلة ؟٠٠ ولم تحاول ان تساله ، لانها لم تعن بأن تعرف !

وهاجت الرياح الليلية من جديد ، فاغرقت أنغام العود الرقيقة الخافتة !

* * *

◆ اجتازت مسز ارماين فى تلك الليلة ـ دون ان تفطن ـ حدا فاصلا بين عالمين مختلفين ٠٠ وقد اجتازت هذا الحد الفاصل عندما خرجت من الخيمة الكبيرة الى رمال الصحراء لتعود أدراجها الى المعسكر المجاور للبحيرة ٠ كانت السماء قد صفت قليلا ، بينما كانت مع بارودى ، فبزغت بعض النجوم على استحياء فوق الخيام والنيران المشتعلة ، ورانت على الصحراء سكينة وصفاء خالص افعما بشاعرية عميقة ، واتخذا من الصحراء الشاسعة حرما مقدسا لهما !٠٠ وتبدل منظر المعسكر ، فلم يعد خليطا غامضا كدرا من الرجال والحيوانات والخيام ـ يكشف عن بعضه ضوء نيران مستعرة ، ويخفى بعضه دثار الليل الاسود ـ وانما كان صورة هادئة مريحة للطمانينة والدعة ، مليئة بتفصيلات هادئة ٠٠ تفصيلات السوائم وهى تطعم او تجتر طعامها ، والرجال وهم يدخنون او ينامون أو يتجمعون سويا ليتحاكوا بقصص لا تفرغ ولا تنتهى ، أو ليلعبوا « الضامة » وهى اللعبة المفضلة عند البدو

ولكن الظلمة الدامسة والعاصفة الهوجاء اجتمعتا معا فى اعماق مسز ارماين ! لذلك اذهلها مرأى هذا المكان الصحراوى ، الذى كان الهدوء الشامل يسوده فى تلك الساعة المتاخرة من الليل ، حين وجدت فيه نقيضا لما يعتمل فى نفسها

وكان بارودى قد خرج قبلها ليتحدث الى ابراهيم ، فرأته وقد تضخم حجمه الى حد غير مالوف وغدا عملاقا مهيبا ، بسبب تلك الثياب الفضفاضة التى كان يرتديها ، وتلك العمامة من القماش الرفيع الفاخر التى احاطت براسه ، طيات فوق طيات لا عدد لها ، وقد راح يمشى بخطى واسعة بطيئة ، فيعبر الرمال وينضم الى حاشيته ، التى نهض افرادها جميعا قائمين عند ما راوه قادما !٠٠ وظلت هى جامدة فى مكانها لحظة ، فى ظل الخيمة المظلم ، ثم

لفحها الهواء البارد الجميل فجعلها تدرك انها كانت تتاجج بنيران انفعالاتها ، وأحاط بها الصفاء الساحر ، فهيأ لها ان تتبين ما كان فى نفسها من اضطراب معتم كثيف الضباب !٠٠ وسرت فيها رعدة قوية وهى تقف فى ذلك المكان٠٠ رعدة لم يختلج لها بدنها فحسب ، وانما كان كيانها كله وطبيعتها كلها يرتعدان ويرتجفان !٠٠ وفى تلك اللحظة ، سمعت – ثانية – ذلك العزف على العود ، ورأت شعاعا ضئيلا من الضوء يتسلل من الخيمة التى لم تدخلها ، فيستلقى على الرمال ٠٠ فأحكمت أزرار معطف الفراء الذى كانت ترتديه ، وراحت تلوى القفازين بين يديها ، وهى تنظر صوب الشعاع ٠٠ كان صدغاها يدقان بنبض شديد ، وأحست فى ظهرها – تحت كتفيها مباشرة – بصدمة باردة مفاجئة ، أشبه بالبرودة الناشئة عن روح النعناع (المنتول) ، فتلفتت تنظر الى نار المعسكر المتاججة ، وما لبثت أن استرقت الخطى متسللة فوق الرمال حتى وضعت قدمها فوق ذلك الشعاع ٠٠ ثم وقفت تنتظر !

وللمرة الاولى ، تبينت انها كانت خائفة من محمود بارودى ، وانها تحجم عن اغضابه كما يحجم الكلب عن اغضاب سيده ! ولكن هل يغضبه ان ترى عازف العود ؟٠٠ انه لم يجشم نفسه مشقة اسكات هذا العزف ٠٠ كان يعامل النساء فى تشامخ واستعلاء ، وكان هذا جزءا من سحره وفتنته لهن ، او لها هى ، على الاقل ! فماذا يهمه لو انها عرفت ان معه امراة اخرى فى المعسكر ، أو رأت تلك المرأة ؟٠٠ وحتى لو غضب !٠٠ انها تفكر فى غضبه وتعلم انها فى تلك اللحظة على استعداد للمجازفة بالتعرض لهذا الغضب – بل المجازفة بأى شيء – فى سبيل ان ترى المرأة التى كانت فى تلك الخيمة٠٠ واذ راحت تعمل فكرها سريعا ، فى انفعالها العصبى وغيرتها المريرة – التى تضاعفت حرارتها عشر مرات بعد ان اقتربت لحظة رحيلها – استطاعت ان تصور لنفسها ما ينبغى ان تكون عليه تلك المرأة ٠ لعلها على الارجح شركسية فاتنة ، ناصعة البياض ، صغيرة السن ، بل صغيرة السن جدا ، فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ؟! ٠٠ أو لعلها عذراء من الفيوم – بلاد العذارى السمراوات الجميلات – ذات حاجبين عريضين ، ووجه بيضاوى ، وعينين سوداوين واسعتين تذيبان القلوب ؟!٠٠ وراح خيالها يرسم ويصور اشكالا من الفتيات الجميلات على صفحة الليل الحالك السواد !

واذ انبعثت من داخل الخيمة نغمة عالية اشبه بالانين ، تقدمت مسز ارماين الى الامام ، ورفعت طرف القماش ، وتطلعت الى الداخل ٠٠ فاذا الخيمة – فى داخلها – لا تشبه خيمة بارودى فى شيء ٠٠ كان كل ما فيها مجردا من الجمال ، وان بدا كل شيء تقريبا زاهى اللون : كان جدار الخيمة مغطى بنوع من القماش الخشن المخطط ، فى الوان صفراء وحمراء صارخة ، وقد انتشرت

عليه رسوم بارزة متعاقبة تشبه الورود ، تدور حول حافته المتاخمة للرمال٠٠ وكانت ارض الخيمة من الرمال التى تناثرت فوقها قطع من الاكلمة نقشت عليها زهور ضخمة الحجم ، بدت وكانها تلف وتدور فى برية من الاوراق الخضراء الباهتة والصفراء ٠٠ وثبتت على الجدران ، اطارات مشوهة الطلاء ، تضم صورا صغيرة : لوحات زيتية بدائية تعج بالالوان الصارخة ، ورسوم بالطباشير لشخصيات مفزعة كالتى تعمر حلما مروعا ، وصور لرجال فى ثياب رسمية ـ ذوى انوف حمراء ووجنات مكتنزة ـ ورسوم لكلاب وقطط وزواحف، ولوحات ملونة انتزعت من الصحف المصورة ٠٠ واختلطت بكل هذه اشياء اخرى حدست مسز ارماين انها احجبة وتعاويذ واقية : مصحف ضمه غلاف من الفضة ، وعلق بخيط من الحرير الاصفر ٠٠ لفافة صغيرة ـ او اثنتان ـ وشرائح من الورق ، عليها كتابة بالعربية ٠٠ سواكان من الخشب فى انبوبة خشبية مفتوحة من احد طرفيها ٠٠ حذاء مفرد دقيق الحجم ، ربط فى خيط مع قطع من المرجان وبعض الزهور الذابلة !٠٠ مسابح عديدة من الاصداف ، يتخللها خرز ازرق فاقع وابيض ٠٠ قنينة من الميعة المباركة ٠٠ عدد من الحلى على شكل الكف ـ الخميسة (او كف فاطمة كما اسماها المؤلف) ـ بعضها كبير الحجم جدا ، وقد صنع من فضة مذهبة ، وسلك مع احجار واقراص من مادة حمراء تشبه شمع الختم ، وبعضها صغير ، من الفضة والنحاس ،لايساوى شيئا من القيمة المادية ٠٠ وكانت هناك ايضا قدم حيوان صغير مثبتة فى ماسك من الفضة المطروقة ، كما كان يوجد ـ فوق منضدة صغيرة من الخشب ـ مصباح زيتى زرى الشكل ، يتصاعد منه الدخان ، وتحته صندوق كبير من الخشب مرصع بازرار كبيرة من النحاس الاصفر ، ومصفح بزوايا من النحاس، وقد طلى بلون اخضر لامع ٠٠ وبالقرب منه ـ لصق جدار الخيمة ـ كانت توجد

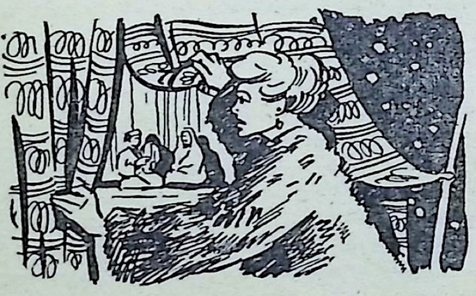

حشية من القطن غطيت باكلمة زاهية اللون ، أعدت كفراش للنوم !

وكان فى الخيمة شخصان ٠٠ وعلى الرغم من أن الانغام الموسيقية الرقيقة اوحت الى مسز ارماين بأنها صادرة عن امراة ، الا ان العازف لم يكن امراة، وانما كان شابا طويلا عريض المنكبين ، ارتدى سترة صفراء فاقعة اشبه بسترات الجنود المراكشيين ــ من ابناء القبائل ــ وسراويل واسعة من التيل الابيض ، وخفين أصفرين ، وطربوشا ٠ وكان يلف خصره بمنطقة « شملة » طويلة ضيقة ذات لونين ــ احمر واصفر ــ تتدلى منها أهداف « شراريب » ! ٠٠ وكان يجلس متربعا على الاكلمة القبيحة الشكل ، ممسكاً بين يديه الكبيرتين الشاحبتين ــ المرقطتين ببقع زرقاء من « الوشم » والمصبوغتى الانامل بالحناء ــ بآلة موسيقية صغيرة عجيبة الشكل ، تتألف من قصعة سلحفاة برية ، وجلد الماعز ، والخشب ، والاوتار الاربعة التى كان ينطقها بتلك الانغام الشاكية المتموجة ٠ وكان الشاب ذا شارب ولحية صغيرة ذات لون أزرق مائل الى السواد !٠٠ وكانت عيناه نصف مطبقتين ، ورأسه مسندا الى احدى كتفيه ، وفمه منفرجا ، وقد ارتسمت على أساريره تعبيرات تنم عن الرضى العليل الخائر !٠٠ وكان بين آن وآخر ، يترنم بلحن قصير فى صوت مسلوب غير طبيعى ، وهو يهز جسمه الضخم المترهل هزات خفيفة ، بينما كان راسه يرتعش ، كانما أصابته نوبة من الفالج !٠٠ وعلى الرغم من منكبيه العريضين ، واطرافه الطويلة ، ولحيته ، فقد لاح فى شخصيته ــ بوجه عام ــ تخنث لا سبيل الى وصفه ، وكأنما كانت اعضاء جسمه الضخمة ، التى توحى برجولة كاملة ، تزيد هذا التخنث ظهورا ، بدلا من ان تستره !٠٠ وكانت تجلس ــ على بعد يسير منه ، وفوق الحشية ــ فتاة منتصبة الظهر ، كانها صنم من الأصنام ، وقد ثنت ساقيها وقدميها واخفتهما تحت ثيابها الحريرية الفضفاضة !

وأخذت مسز ارماين تنقل بصرها بين الرجل والأنثى ، بتلك اللهفة الضارية التى تعتمل فى صدر المرأة المشتعلة الغيرة ٠٠ فقد فطنت فى التو الى ان الرجل لا يمكن أن يكون عشيقا لهذه الفتاة ، وانما هو تابع لها ٠٠ ولعله احد الأغوات ، خصص لادخال السرور على نفسها ٠٠ انما كانت هذه « امراة » بارودى ، التى سوف تبقى هنا فى الخيمة بجانبه ، بينما ترحل هى ــ الأوروبية المكبلة بالأغلال ــ تحت جنح الليل الى بحيرة قارون !٠٠ ولكن هل يمكن أن تكون هذه « امراة » بارودى ؟٠٠ هذه المخلوقة المخضبة ، المثقلة بالحلى ، المتبهرجة ، التى تكاد تشبه الببغاء فى حللها ذات الألوان الصارخة المتعددة ، والتى ظلت جاثمة بلا حراك فوق تلك الأبسطة ، كما تجثم الببغاء فوق أعواد قفصها ــ دون مبالاة ــ فكانها مغفية غلبها النعاس ٠٠ ولعلها فى الواقع كانت يقظى ترقب ما حولها من طرف خفى ، وقد وضعت سيجارة بين شفتيها

المصبوغتين ، فوق ذقن وشم عليها رسم أشبه بلحية صغيرة فى لون «النيلة» ؟ ٠٠ أفمن المعقول ان يفتتن بارودى بهذا الوجه الذى ربما بدا فتيا تحت كسوته الكثيفة من الأصباغ والطلاء ، ولكنه لم يكن – فى الواقع – يعتبر جميلا فى نظر أى رجل عرف حسان أوروبا وامريكا والفهن ؟٠٠ هذا الوجه بملامحه السمجة ، وعينيه الكئيبتين الراكدتين ، ووجنتيه المكتنزتين ، وشفتيه الشهوانيتين ؟

أجل ٠٠ كان بارودى خليقا بذلك !٠٠ وفيما كانت مسز ارماين تتأمل المنظر – بتلك البصيرة الغريزية التى تحتدم فى نفس المرأة المهتاجة الملتاعة – شعرت بالسحر الذى تنبض به مثل تلك المخلوقة فيجر وراءه رجلا مثل بارودى ، كما يجر « اللنش » السفينة الكبيرة !٠٠ يقينا انها لم تؤت ذرة من العقل ، وانما كان لها جسد اشتمل على ارادة متوارثة عن عدد لا يحصى من أجيال بعد اجيال من « الغوازى » ٠٠ ارادة امتاع الرجال !٠٠ جسد حسن التكوين ٠٠ بل جميل التكوين حقا ، خلو من ذلك الثقل الذى كان يظهر فى وجهها ٠٠ جسد خفيف الحركة ، لدن الاعطاف ، يستطيع أن يتشكل فى مختلف الحركات ، وأن يرقص ، ويتخذ أوضاعا مثيرة ، وينحنى ، ويجلس ساكنا – كما هو شأنه الآن – فى جمود التمثال ٠٠ جسد يمكن ان يحسن ارتداء الثياب الفاخرة ذات الألوان الرائعة ، والأقمشة الشفافة المزركشة بالترتر ، والحلى البدائية التى لا تتألق – فكأنها تعكس الروح العصرية القلقة – وانما تبدو ناعسة عميقة ، مثقلة ، أشبه بعيون نساء اللهو الشرقيات !

ولم يكن عازف العود البدوى قد أدرك ان شخصا ما يقف فى باب الخيمة ، فظل يعزف ويغنى ، وهو مسبل الأجفان ، وقد غاب فى نشوة عليلة مليئة بالتوجع والأنين ٠٠ أما المرأة الجالسة على الأكلمة الزاهية ، فقد ظلت ساكنة بلا حراك ، وان راحت تحدق فى مسز ارماين ، دون ان يظهر عليها أى غضب ، أو دهشة ، أو فضول ٠٠ بل دون ان تختلج جارحة فى أساريرها ! فقد ظل فمها المصبوغ جامدا فى وضع كان يوحى بأنه فم نحت من مادة صلبة ! صدرها فقط هو الذى راح يعلو ويهبط فى حركة منتظمة تحت ثيابها الملونة ، وحليها الثقيلة ، وعقودها المؤلفة من قطع من العملة !

وخطت مسز ارماين الى داخل الخيمة وهى تسدل غطاء الباب خلفها ٠ ولم تكن تدرى ما هى فى سبيل عمله ، ولكنها كانت تطفح بفضول مرير لا قبل لها بمقاومته ، مع رغبة غزيرة فى أن تقحم نفسها فى حياة هذه المرأة ، تلك الحياة التى كانت تختلف اختلافا عجيبا عن حياتها هى ، ومع ذلك فانها كانت تتصل بها بحلقة واحدة ، هى محمود بارودى !٠٠ كانت تمقت هذه المرأة ، ومع ذلك فان مقتها كان ممتزجا باعجاب غامض ، وبرغبة غريبة فى ان تلمس

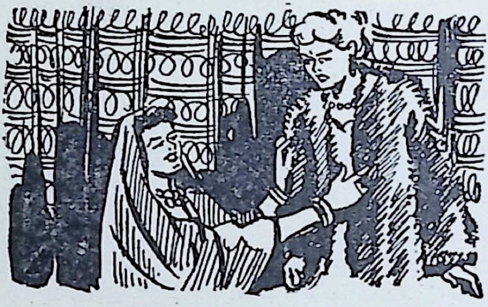

هذه الدمية المصبوغة التى كانت تمنحه المتعة والسرور ، وبحنين قوى الى ان تتحسس جاذبيتها ، وتسبر أغوار سحرها وفتنتها ، وتتلقى منها درسا فى فنون الشرق العجيبة !٠٠ وما لبثت ان دنت من المرأة حتى وقفت الى جانبها ٠ وامتدت ـ على الفور ـ احدى اليدين المصبوغتين حتى بلغت معطفها ، فراحت تتحسس فراءها فى رفق ورقة بالغة ٠٠ ولحقت بها اليد الأخرى ، وما لبث المعطف ان أصبح مرتعا لأصابع حيرى معجبة ، تتحسسه وتربته فى رفق من أعلى الى أسفل ثم من أسفل الى أعلى ٠٠ بينما كانت العينان السوداوان المثقلتان ترقبان فى خشوع تألق تلك البشرة الناعمة النضرة ٠٠ وهكذا التقى فضول مسز ارماين بفضول آخر ، صبيانى !٠٠ وما لبث ان بزغ من سحب الغموض شعاع من الضوء ٠٠ وكان شعاعا ساذجا !

وحيرت هذه السذاجة مسز ارماين وبلبلت خواطرها ، وكأنها كانت تطرد غضبها بعيدا ، وتحميها من لذعات فضولها !٠٠ ولكن هذه السذاجة الصبيانية التى طالعتها من تلك الغريمة العجيبة ، لم تلبث ان أثارت فيها مرارة أشد حدة مما عرفته من قبل ، فاذا بها لا تطيق على جسدها لمسات الاعجاب التى راحت الفتاة تربت بها معطفها !٠٠ اذ كيف تكون مثل هذه المخلوقة سعيدة موفورة السعادة ، بينما هى ـ بعلمها وتجاربها ومفاتنها المدربة حتى الكمال ـ تعيش فى فيض من الشقاء ؟!٠٠ وحدقت من عل فى أعماق عينى « الغازية » ، فتهادت اليدان المخضوبتان وابتعدتا عن الفراء فجاة ٠ ورأت مسز ارماين أمامها امرأة لم تعد ساذجة أو غريرة ٠٠ امرأة كانت تفهمها وتستطيع هى ان تفهمها !

وانقطع صوت العزف على العود ، وتلاشت أنغام الأوتار الرقيقة الخافتة ٠ فقد رأى الرجل ما حدث ، واستوى على قدميه وقال شيئا بلغة لم تستطع مسز ارماين ان تفهمها ، فأجابته الفتاة فى صوت بدت فيه السخرية والتهكم ٠ وما

لبثت فجاة ان بدأت تضحك .. وفى اللحظة نفسها ، دخل بارودى الخيمة ، فنادته الفتاة ، ثم أشارت الى مسز ارماين ، وهى تمعن فى الضحك ، بينما كان يبتسم لها وهو يجيب على حديثها . واذ ذاك جن جنون مسز ارماين ، فقالت فى ضراوة : « ما الذى تقوله لها ؟ وكيف تجرؤ على أن تتحدث اليها عنى ؟ كيف تجرؤ على مخاطبتها فى شانى ؟ » .. فهتف فى غير اكتراث : « أف ! انها طفلة صغيرة لا تعرف شيئا .. لقد تم اعداد الهجين ! »

وعادت الفتاة تتحدث اليه فى سرعة بالغة ، وفى لهجة تنم عن ألفة مجردة عن الحياء ، مما أكرب مسز ارماين وازعجها .. ولاح أن شيئا ما قد أثار فى نفس الفتاة روح الفكاهة الصاخبة ، اذ راحت تشير بيديها المخضوبتين ، وهى تتمايل فوق حشيتها فى انطلاق وحشى بربرى ، بينما كان خادمها الضخم المترهل يقف ممسكا بعوده فى احدى يديه الشاحبتين ، ويمسح بالأخرى على لحيته الزرقاء المائلة للسواد ، ويجيل بصره فى هدوء ، دون ان تفتر شفتاه عن الابتسام !.. واستدارت مسز ارماين ثم أسرعت تغادر الخيمة . أما بارودى فقد تحدث الى الفتاة ثانية ، وشاركها فى مرحها ، ثم تبع مسز ارماين الى الخارج ، فما ان راته هذه حتى اندفعت نحوه وامسكت جبته بيديها .. وكانت يداها ترتعدان فى عنف ، ثم صاحت قائلة : « كيف جرؤت على احضارى الى هنا ؟ كيف جرؤت على ذلك ؟ »

– لقد كنت أبتغيك ! وانت تعلمين هذا !

– ليس هذا صحيحا ..   – بل هو حق !

– كلا .. هذا غير صحيح ، فكيف كان يمكن ان تريدنى ، بينما كانت لديك هذه الراقصة ؟

فهز كتفيه فى غير اكتراث – تماما كما يفعل الفرنسيون الذين كان يلتقى بهم مذ كان طفلا صغيرا – وقال : « انك لا تفهمين رجال الشرق .. او تنسين اننى شرقى ! » . فخامرتها فكرة طارئة وصاحت : « لعلك متزوج ؟! » . فاجاب ببساطة : « اننى متزوج طبعا ! » .. وضاقت عيناه ، وبدأ وجهه يتخذ مظهر الصلابة والشراسة ، وقال : « ثم انه ليس من عادتنا ان نناقش هذه الشئون! » .. فاوجست من غضبه ، وتمتمت : « اننى لم اقصد .. »

وتخاذلت يداها عن جبته ، ثم اردفت : « ولكن ، اليس من حقى .. ؟ » . ثم امسكت عن الاستطراد .. فماذا كانت جدوى مطالبة مثل هذا الرجل بشىء ؟ .. وماذا كانت جدوى تبديد أية عاطفة عليه ، سواء أكانت هذه العاطفة رغبة أم غضب ؟.. ما جدوى ذلك كله ؟.. ومع ذلك فما كان فى وسعها ان ترحل دون اى تفاهم معه .. لم تكن تستطيع ان تنطلق عائدة الى المعسكر بجوار البحيرة ، وتستقر فى احضان الفضيلة ، وفى الحياة المنزلية مع نيجل !.. كانت

طبيعتها كلها تصيح ـ ملحة آمرة ـ فى طلب هذا الرجل المصرى !٠٠ وكانت غرابة أطواره تغويها وتملك عليها مشاعرها ، كما كان تكوينه الجسمانى الرائع يروق لها فى قوة لا تستطيع صدعا ٠٠ كان يسيطر عليها بقلة اكتراثه كما كان يسيطر عليها بعاطفته ٠ وكان يفتنها بثرائه ، وقدرته على الاقتناء ، فى براعة تضارع براعة اليهود !٠٠ كانت سخريته تلهبها سياطا ، وازدراؤه للمثل الأخلاقية يتجاوب مع ازدرائها لها ٠٠ وكان علمه الوافر بحقيقتها يبعث فيها الدفء ، والراحة والارتياح !٠٠ بيد ان التفكير فى خيانته لها ـ بمجرد بعدها عنه ـ كان يهيج فيها نوعا من الجنون !٠٠ فهتفت تقول : « كيف يمكن أن أراك ثانية ؟ » ٠٠ وتكشف كل ما كانت تحسه نحوه ، عاريا ، فى نبرات صوتها !٠٠ وعادت تقول : « كيف يمكن أن أراك ثانية ؟ » ٠٠ ولكنه وقف ينظر اليها فى صمت ، فأردفت قائلة : « وما الذى سيحدث لى اذا كان نيجل قد اكتشف اننى كنت بعيدة عن المعسكر ؟ »

ـ سوف ينتحل حمزة عذرا يفسر به غيابك !

ـ واذا لم يصدق هذا التعليل ؟

ـ عليك ان تقدمى له غيره ٠٠ فما ينبغى ان تخبريه بالحقيقة قط !

وكان هذا أمرا ألقاه ـ بلهجته الفاترة ـ كنير أو عبء على عاتقها ٠ ومضى يقول : « لن يقدر له البتة أن يعرف اننى كنت هنا ، فسوف أرفع خيامى الليلة ـ بمجرد انصرافك ـ وأعود أدراجى الى القاهرة ٠٠ فلست أود أن أثير المشاكل مع الانجليز طالما كان الانجليز يحكمون مصر !٠٠ اننى موضع اعتبار الانجليز ورعايتهم ، وهكذا ينبغى ان تستمر الحال ، والا فان أعمالى ومصالحى سوف تتأثر وتعانى الكثير من المتاعب ٠٠ وهذا ما لن يكون قط ٠٠ هل فهمت ؟ » ٠٠ فرنت اليه بطرفها ، دون أن تقول شيئا ٠٠ بينما عاد يتابع القول : « ان لنا ان نفعل كل ما نشاء فى هذا العالم ، على الا نخسر فى سبيل ذلك شيئا ٠٠ وهكذا كان شأنى فى الحياة دائما ! » ٠٠ ففكرت فى كل ما حاق بها من خسائر منذ أمد بعيد ، عندما فعلت الشيء الذى اشتهته ، واحست بنفسها مرة ثانية ، أدنى منه مرتبة وأقل شأنا !

وعاد يقول : « وهذا أيضا سوف نفعله ، دون ان نخسر أى شىء من جراء اتيانه ! » ٠٠ فتمتمت : « هذا ؟ ما هو ؟ » ٠٠ فقال : « عودى الى بحيرة قارون الآن !٠٠ ولكن خبرينى ، ألن تحتاجا الى دهبية عما قريب ؟ » ٠٠ فتساءلت : « هب اننا فى حاجة الى واحدة ؟ » ٠٠ فقال : « ستحصلان اذ ذاك على اللولية ! »

ـ أتعنى انك تنوى الذهاب معنا ؟

ـ هل أنت طفلة صغيرة ؟٠٠ اننى سأؤجرها لزوجك بمبلغ يناسب موارده،

حتى تستطيعى ان تعيشى كما ينبغى لك .. سوف أؤجرها بمن عليها من رجالى : بلاحيها وخدمها وطاهيها !.. ويجب عليك بعد ذلك ان تاخذى زوجك بعيدا ، الى اعالى النيل ، فى هدوء وبغير جلبة او ضوضاء !

فاحست مسز ارماين بصدمة باردة ، كانها يد ثلجية ، وقالت مرددة كلامه : « الى اعالى النيل فى هدوء وبغير جلبة او ضوضاء ؟ » ، فاجاب : « أجل ! » . فعادت تتساءل : « وما الفائدة من هذا التكتم ؟ » . وهنا قال بارودى : « عسى إن يحب النيل بحيث لا يعود منه ثانية ! » .. وراح يتفرس فى عينيها !.. وعندئذ سمعت خوار البعير ، فقال بارودى : « ان جملك متأهب للرحيل ! » .. وسارا متجهين نحو النار المضطرمة حيث كان ابراهيم ينتظرهما . وقبل ان تستقر مسز ارماين فى الهودج ، كان بارودى قد مضى مبتعدا دون ان يضيف كلمة اخرى . فلما نهض الجمل - وهو يزمجر شاكيا فى غمرة الليل - لمحت بارودى يرفع باب خيمة « الغوازى » ويختفى بداخلها !

ولم يكن نيجل قد عاد الى المعسكر القائم بجوار البحيرة ، عندما بلغته مسز ارماين . فاسرعت تنزع ثيابها ، وتأوى الى الفراش ، حيث استلقت يقظى ترتعد ، برغم ما كانت تتدثر به من اغطية ثقيلة !.. حتى اذا كان الفجر ، عاد نيجل .. واذ ذاك اغمضت عينيها ، وتظاهرت بالنوم .. ولكنها لم تكف عن الارتعاد قط !

الفصل الخامس والعشرون

وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه

◆ **هتف** نيجل « روبى ! » .. وكان يقف معها على سطح « اللولية » ، وهو يتطلع الى الكتابة العربية المنقوشة بالذهب

فوق الباب الذى كانا يزمعان المرور تحته .. واستطرد قائلا : « روبى مامعنى هذه الكلمات تماما ؟.. لقد أخبرنا بارودى — فى ذلك اليوم ، ونحن فى الأقصر — بمعناها ، ولكننى نسيت .. انها كانت درسا عن القدر .. شيئا من آيات القرآن .. الا تذكرينها ؟ » .. فرفعت قناعها فوق حافة قبعتها المصنوعة من القش ، وقالت : « نعم ، دعنى أفكر قليلا ! »

وبدت كما لوكانت تكد ذاكرتها ، وقد ارتسمت أخاديد التفكير فوق جبينها الأملس عادة ، ثم قالت : « يخيل الى أنها كانت : ان قدر أو مصير كل امرىء قد علقناه بعنقه (وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه) أو شيئا قريب الشبه من ذلك ! »

— نعم ، هذه هى الكلمات ! وقد رحنا نناقشها ، فقلت اننى لست مؤمنا بالقضاء والقدر

— هل قلت ذلك ؟.. حسنا ، هيا بنا نتم ارتياد ...

فأتم عبارتها قائلا : « منزلنا العائم .. أجل ! » .. وأمسك بذراعها وأردف قائلا : **« اذا كان قدرى معلقا فى عنقى حقا ، فانه قدر سعيد .. قدر استطيع ان أحمله كحلية ثمينة لا كعبء يبهظ كاهلى ! »** .. ومضيا يهبطان الدرج معا ، فاختفيا خلال الباب الصغير الى الظلمات الواقعة وراءه !

وكانت « اللولية » ترسو عند (قنا) ، غير بعيدة عن معبد دندرة .. وكانت قد اقبلت فى النيل الى الجنوب ، قادمة من (أسيوط) ، حيث كان بارودى قد تركها ، عندما فرغ من أعماله هناك ، واستعد للعودة الى القاهرة .. وكان نيحل هو الذى رغب فى أن يلحق بها مع زوجته فى (اسيوط) اذ قال لروبى : « لقد كان معبد دندرة أول معبد رأيناه أنت وأنا معا .. فلنزره ثانية فى وقت فراغنا هذا ، ولنسأل آلهة الجمال ان تبارك رحلتنا ! » .. فهتفت : « هاتور ؟! .. ماذا ؟ هل ارتددت وثنيا عابد أصنام ؟ » .. فانطلق يضحك وهو ينظر

فى عينيها الزرقاوين ثم قال : « أبدا .. ولكنها كانت ربة الجمال المصرية ، ولست أحسب أنها تضن عليك ببركتها ! »

وكانت روبى اذ ذاك تشع بهاء واشراقا ، وقد خلفت وراءها — فى مجاهل ليبيا الموحشة — تلك البرودة التى سرت فى بدنها وجعلتها ترتعد فى تلك الليلة بجوار البحيرة المقدسة !.. وما من ريب فى انها لايمكن ان تعاودها هنا فى هذا الدفء الذهبى لمصر العليا . وكانت تقول لنفسها انها لا يمكن أن ترتعد ثانية بعد أن فرت من ذلك الطرف الباهت الموحش من اطراف العالم ، حيث كان اليأس يستبد بها !

وحل يوم السفر الى الرحلة النيلية ، فوضعت روبى ونيجل أقدامهما على « اللولية » للمرة الأولى — كصاحبيها — ومرا بأبواب قمرات الخدم سريعا ، ثم انطلقا الى جناحهما !.. وكان ابراهيم يسير وراءهما فى هدوء ، بوجهه الباسم ، على حين كان حمزة يقف جامدا فى أشعة الشمس تحت الحروف الذهبية ، ويتبعهما بنظراته ، دون ان يطرف له جفنان .. وكان « وكر » بارودى قد أعيد تنظيمه وزخرفته ، وزين بالزهور وفروع « الست المستحية » الصغيرة ، كأنما اليوم يوم عيد . وبدت منضدة الكتابة — التى كانت مثقلة من قبل بالأوراق — نظيفة منسقة ، خالية مما كان يثقلها . ولكن كتب بارودى كلها — أو جلها — ظلت فى مواضعها ، وقد تناثرت على الأرض سجاجيد الصلاة الجميلة .. وكان ابراهيم قد وضع بعض أعواد البخور فى حوامل من الفضة ، بينما كانت الزهرية اليابانية المزوقة الرخيصة لاتزال فى مكانها على مائدة قاعة الطعام ، كما ظلت الساعة الصداحة السخيفة ترسل صيحاتها البلهاء تحية لهما !.. وقال نيجل : « الدار الشرقية ! قلما جال بخاطرك ان تصبحى سيدتها فى يوم من الأيام ياروبى ، اليس كذلك ؟ .. الا ما اجمل هذه السجاجيد !.. ولكن يجب أن نتخلص من هذه الزهرية » .. فقالت فى سرعة ،

وفى لهجة اوشكت ان تكون جادة : « لماذا ؟ » .. فنظر اليها مندهشا ، وقال : « ما اظنك تعنين انك تحبينها ؟.. وفضلا عن ذلك فانها لا تتفق مع الحجرة .. انها نشاز هنا ! »

— بالتأكيد .. ولكنها تروق لروح الفكاهة عندى ، مثل هذه الساعة الصداحة المضحكة ! ولعل الأفضل الا نغير شيئا ، فان « المفارقات » ألذ من ان يغيرها المرء !

— انك طفلة بكل ما للكلمة من معنى ! .. حسنا ! هل نجعل من « وكر » بارودى مخدعا لك ؟

فأومأت برأسها مبتسمة ، وقالت : « ولك أن تستخدمه كلما شئت . والآن ، الى غرف النوم ! » .. فقال : « بل الى مزيد من المفارقات والمتناقضات ! ولكن لا بأس ، فانها تبدو نظيفة انيقة ! » .. فقالت وفى صوتها العذب لمحة من السخرية : «نظيفة انيقة ؟! أهذا كل مالديك ؟»

— حسنا .. اننى أعنى ...

— اعرف ماتعنيه ! هيا بنا !

وراحا يفتحان الأبواب ويطلان داخل تلك الحجرات الصغيرة الفاخرة الزاهية .. **وفيما كانت مسز أرماين تمضى من واحدة الى أخرى ، كانت تحس بذلك الشعور الدافىء الرقيق الذى يتسلل الى فؤاد المرأة وهى تعود الى الجو الذى يلائمها كل الملاءمة ، والذى كانت قد نفيت منه زمنا طويلا !.. انها فى هذا المكان تستطيع أن تعيش فى الجوهر الذى خلقت منه ، ففى هذا المكان كان المال ينفق بغير حساب ليخلق شيئا فريدا !..** وكانت موقنة بأنه ما من دهبية على سطح النيل تضارع اللولية فى كمالها ، ومن ثم فلن يتمالك كل مسافر على النهر نفسه من ان يحسدها !.. وطربت لحظة لهذه الفكرة فى قرارة نفسها ، ولكنها مالبثت ان ذكرت شيئا ، فاذا وجهها يربد ، وشفتاها تتقلصان ، وراحت تجتهد فى أن تطرد من ذهنها تلك الرغبة الطارئة فى ان تحسدها النساء الأخريات !..

اذ لابد من ان تتحاشى ونيجل الجماهير التى تحتشد على النيل فى الربيع .. يجب أن ترسو مركبهما فى الأماكن التى لا يكثر ارتيادها . ألم تردد على مسامعه رغبتها فى «البعد عن الناس» ، وألا ترى شيئا سوى الحياة الوطنية على ضفاف النيل ؟.. ان هاته « النساء الأخريات » يجب ان ينتظرن بعض الوقت لكى يتاح لهن ان يحسدنها .. وهى أيضا يجب ان تنتظر !

وعندئذ كتمت زفرة ضاق بها صدرها وصبرها . ثم فتحت بابا آخر ، وبعد ان ألقت نظرة سريعة الى الداخل ، قالت : « سأتخذ هذه القمرة لنفسى يا نيجل ! » . فقال : « حسنا يا عزيزتى .. ليكن ماتشائين ، ولكن .. دعينا نلق نظرة عليها ! » .. فمكثت لحظة لا تحير حراكا ، وعندئذ أردف قائلا : « لا تكونى أنانية ياروبى ! » .. **وأحسست بأصابع تلمس خصرها من الخلف ، وتمسك بها فى نوع من القوة الحانية ، فأغمضت عينيها وحاولت أن تقسر نفسها على الاعتقاد بأنها أصابع بارودى الحديدية !** .. واستطرد نيجل يقول : « والا سأرفعك عن طريقى ! »

وعندما تكلم نيجل ثانية فتحت عينيها .. كان من العبث ان تستمر فى استغراقها ، فما كان لهذا الوهم ان يستمر فى خيالها ! وعندئذ ضغطت على أسنانها فى قوة ، ثم مدت يديها خلفها ، تتحسس أصابعه .. والتقت أيديهما ، وتماسكت ، فتراجعت روبى الى الوراء ، وتركته ينظر بداخل الحجرة .. وما لبث ان قال : «عجبا ! لابد ان تكون هذه قمرة بارودى !» .. فقالت فى غير اكتراث : « ربما .. ولكنى اريدها لسعتها .. الا ترى انها تبلغ ضعف سعة القمرات الأخرى ؟ » .. فقال : « هو ذلك ، ولكن القمرات الأخرى اكثر منها بهجة وبهاء .. انها قمرة شرقية بحتة ، كما ان الفراش شديد الانخفاض ! » .. وانحنى فوقه يتحسسه ، ثم أردف قائلا : « على انه سرير

وثير ، ولك ان تطمئنى الى بارودى فى ذلك !.. حسنا ، خذيها يا عزيزتى ، وسوف اخذ القمرة المجاورة .. وسيكون بوسعنا ان نتحدث بسهولة خلال هذا الحاجز الرقيق ! » .. وتمهل لحظة ، ثم أضاف فى صوت منخفض :

ــ وذلك عندما لا نكون معا !.. والآن لم يبق الا ان نرى حجرة الاستقبال الأخرى ، ثم نذهب الى (دندره) مع حمزة بينما يشرف ابراهيم على الترتيبات الباقية

ــ أجل ، أو .. الا ندع الحجرة الأخرى حتى نعود ثانية ، عندما ياتى الغسق ؟.. فلا احسبنى اود ان ارى كل شىء دفعة واحدة !

ــ لقد غدوت طفلة تماما ، ادخرى شطرا من سرورك لوقت آخر !.. هل نبدأ الآن رحلتنا الى دندرة ؟

واجابت وهى تسدل الخمار على وجهها فى عجلة : « نعم » . ثم سارت فى الممر ، مجتازة القبوة التى فى الحاجز ، ومنها الى الشمس الساطعة التى كانت تغمر السطح المخصص للبحارة .. فعلى الرغم من ان النوبيين قد نشروا مظلة (تندة) فوق رؤوسهم ، الا أنهم لم يسدلوا قماشها بحيث يلتقى بجوانب « الدهبية » البيضاء المذهبة .. وكان يحيط بهم بريق ساطع من الضوء ، وفى وسط هذا البريق وقف حمزة ، على بعد قليل من الملاحين ، الذين كانوا رجالا من السود ، طوال القامة أقوياء الأجسام . وكان من الواضح أنهم رجال أحسن انتقاؤهم ، فلم يكن بينهم من هو زرى المظهر ، أو قبيح الشكل ، أواعور العين ، أو مشوه الوجه بالجدرى !.. وفيما كانت مسز ارماين ترتقى الدرجات الثلاث التى تفصل بين القمرات والسطح ــ وهى تسير مسرعة ، وكأنها تتعجل الوصول الى أشعة الشمس ــ حدجها حمزة بنظر ثابتة ، وكأنها زجر هادىء ولكنه حازم .. كأنما كانت عيناه تقولان لها : « لماذا تفرين من الظلمات هكذا ؟ » .. وأحست مسز أرماين بأنهما تضيفان

الى ذلك : « أنت التى يجب ان تتعلم كيف تحب الظلمات ! » . **وأثرت نظرته فى أعصابها ، بل لقد أثرت فى أطرافها ، فوقفت جامدة بلا حراك عند قمة الدرج ، وراحت تتلفت حواليها ، فى تردد طفيف ، وكأنها تفضل العودة من حيث أتت !** .. فسألها نيجل : « ماذا هناك ياروبى ؟ هل نسيت شيئا ؟ »

ــ كلا ، كلا ! هل الطريق من هذا الجانب ، أم ينبغى ان نستقل الفلوكة ؟ .. لقد نسيت !

ــ بل من هذا الجانب .. فقد ربطت اللولية هنا لهذا الغرض .. الينا بالحمير يا حمزة !

وكان يخاطبه فى رفق ، ولكن بتلك اللهجة الآمرة التى اعتاد الانجليزى الشاب ان يخاطب بها اى واحد من الأهالى الوطنيين .. ومضى حمزة فى هدوء وسرعة ، دون ان تتبدل أساريره ، فاجتاز المعبر ، وتسلق الضفة السمراء المنحدرة ، ثم اختفى عن الأنظار ، أشبه بومضة من البياض وسط الذهب !.. فقال نيجل : « ياله من شخص نافع .. هذا ! والآن ياروبى ، هيا بنا ننشد بركات « أفروديت » المصرية .. ولسوف نحصل عليها فى يسر ، فان أفروديت لا تستطيع البتة ان تحول وجهها عنك ! »

وفيما كان حماراهما المتعثران يدنوان من ذلك المعبد المنعزل ،

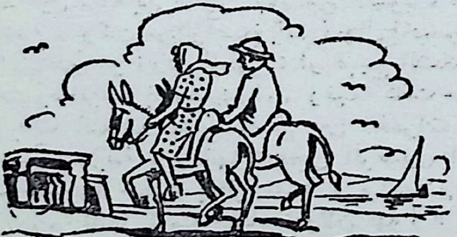

حيث تحملق « هاتور » الحزينة ـ فى وحدتها ـ الى الساحات التى لم تعد تزدحم بالمصلين المتعبدين ، أخلدت مسز ارماين الى الصمت .. كان الأثر البغيض الذى أحسته هنا فى زيارتها الأولى ، يعاودها من جديد ، ولكنها فى زيارتها الأولى كانت متعبة ، وقد أنهكها السفر .. أما الآن فانها قوية ، موفورة الصحة والعافية .. لا ، لن تسمح لنفسها بأن تكون فريسة لأعصابها ! .. **ومع ذلك فعندما أخذ الحماران يسيران فوق الأرض غير الممهدة ، وعندما رأت واجهة المعبد الشاحبة تطالعها فوق الرمال الباهتة اللون ، ووراءها صفحة السماء الأرجوانية ، تذكرت وجه الربة المنحوت ، فنشب فى قلبها فزع كذلك الذى يداخل نفس المؤمن بالخرافات .. ترى لماذا اقترح نيجل ان ننشد بركات أفروديت الحزينة هذه ؟ .. لا ريب انه ما من بركة يمكن ان تصدر عن هذا الصرح المعتم ، أو عن هذه الآلهة التى أسخطها ما امتهنت به من هجران منذ أمد بعيد ! ..**
وترجلا عن حماريهما ، ثم مضيا الى داخل المعبد الخالى الا من الحارس الذى كان فى لون الشيكولاته ، والذى استقبلهما بابتسامة مرحبة كشفت عن ثناياه المحطمة ، قائلا لهما بالعربية : « نهاركما سعيد ! » . فقال نيجل : « كان يجدر به أن يقول «أسعد الله جميع أيامكما على النيل» ، ياروبى ! » .. فقالت : « انه لا يريد بالسعادة سوى اليوم الذى نمنحه فيه نقودا .. أما فى أى يوم آخر فلا بأس من ان نموت كالكلاب الضالة ، دون ان يهتم أو يبالى ! »

* * *

• **ووقفت** ساكنة فى الساحة الأولى للمعبد ، تتطلع الى وجه « هاتور » التى بدت كما لو كانت تحملق فى الفضاء البعيد ، فى حزن أبدى !.. وما لبثت أن قالت : « أحسبك تعول على السعادة اكثر مما ينبغى يا نيجل ! » .. وكانت

تحس كأن وجه هاتور يدفعها الى هذا القول دفعا : « **اننى اعتقد ان من الخطأ ان يعول المرء على شىء ! »** . فتساءل : « اترين ان يتطلع المرء الى تحقيق رجاء ، كما اتطلع انا الى رحلتنا النيلية مثلا ؟ » ، فأجابت بوجوم : «ربما !» . وتقدمت وئيدا صوب الظلمة المتكاثفة داخل المعبد ، وهى تقول : « **ان المرء لا يعرف البتة ما قد تأتى به الأحداث ! »** . وكان صوتها ينضح بنوع من الاكتئاب العنيف ، فقال نيجل : « **كذلك كل شىء مصيره الى الزوال سريعا ، مهما يكن .. ولكن هذا ليس سببا لكى لا نتقبل السعادة المتاحة لنا ، ونستمتع بها الى الحد الأقصى !..** لماذا تحاولين ان تثيرى اليأس والأسى فى نفسى اليوم ؟ » . فأجابت : « لست أحاول شيئا ، ولكن من الخطر ان يغالى المرء فى الاطمئنان الى سعادة لم تتحقق بعد ! »

وكانت تتكلم كشخص يؤمن بالخرافات ، وان كانت فى الواقع تخاطب نفسها .. كانت فى بادىء الأمر تفكر فى نيجل وتتحدث اليه ، كما لو كانت تنشد خيره ونفعه ، تحدوها الى ذلك شفقة غامضة تمت يقينا الى الفتاة التى كانتها يوما ، وليس الى المرأة التى صارت اليها فى حاضرها .. ثم جثمت على صدرها ظلمة هذا المعبد المنعزل ، وادراكها انه معبد افروديت ـ فقد كانت تفكر فى هاتور دائما على انها افروديت ـ كما جثما على صدرها عندما زارت المعبد أول مرة .. **فأحست بقصر أجل انتصار المرأة ـ اية امرأة ـ على عالم الرجال .. ذلك القصر البغيض ! .. واحست بما كتب للجمال الجسدى من حياة موجزة ، تذهب فى الايجاز الى درجة فظيعة ! وخيل اليها انها تسمع حركة « الزمن » وهو يمضى مندفعا ، وتشهد ظلمة « النهاية » تطبق عليها ، كما كانت ظلمة هذا المعبد المنعزل ـ معبد الحب والجمال ـ تزداد حولها تكاثفا !**

وانبعثت من ارتفاع بعيد ، بالقرب من تلك الظلمة المقبضة التى كانت تلف السقف الشامخ فى غياهبها ، أصوات ذات

صريف حاد بشع .. بل مجموعة من الصيحات الغاضبة ، واخذت أشباح هائلة ذات أجنحة خفاقة تروح وتغدو فى سرعة خاطفة ، خلال تلك الأجمة من الأعمدة الضخمة ، اذ روعت خفافيش «هاتور» ــ الهائلة الأحجام ــ من احلامها وتأملاتها .. وانتشرت فى خياشيم مسز ارماين ، فى بطء واطراد ، رائحة ثقيلة ، كأنها رائحة ماض سحيق دب اليه العفن والتحلل !.. واخذ ضوء النهار يخبو رويدا ، كلما أوغلت هى ونيجل داخل المعبد ، وكأنما كانت تسوقهما ــ رغما عنهما ــ قوة هذه الظلمة ، وتلك الروائح الخفية المتصاعدة من أحضان الموت !.. وبلغا أخيرا هيكل دندرة .. « قدس الأقداس » ، حيث كانت تدخر صور وتماثيل آلهة مصر ، وحيث لم يكن يجرؤ على الدخول ــ قديما ــ سوى الملك ، أو كاهنه الأعظم ، وفى عيد راس السنة فقط !.. فوقفا فى ظلمته المقبضة : **المراة التى تتوق للعودة الى حياتها الجامحة المفلتة العنان ، والى ماضيها الحافل بالشهوات والفوضى .. والرجل الذى كان يعتقد ــ فى غير زهو او غرور ــ أن الأقدار قد هياته لتحرير هذه المراة من ماضيها !**

واشعل حارس المعبد ــ الذى كان يتبعهما فى هدوء ــ شريطا من المغنيسيوم ، فتواثبت أمام أعينهما نقوش بارزة تصور الملك وهو يقيم الطقوس الدينية ويقدم الذبائح والقرابين ــ وكأنما دبت فيها حياة عابرة غامضة ــ ثم عادت الظلمة تطبق حولهما من جديد .. وخيل الى مسز أرماين أن تلك الرؤيا القصيرة المبتورة ، انما تشبه رؤيا حياتها القصيرة كامرأة جميلة ، وان انقضاض الظلام ثانية ليمحو رؤى المعبد ، يشبه قدوم ظلمة الموت لتسدل عليها ــ هى ــ ستارا أبديا كثيفا لاسبيل الى اختراق حجبه ! »

لقد كانت صادقة فيما أخبرت به ماير ايزاكسون فى حجرة استشاراته !.. **فهى كلما امعنت فى التفكير ، ازدادت يقينا**

بعدم وجود حياة أخرى .. لم يكن بوسعها ان تتصور حياة الروح ، ولم يكن باستطاعتها أن تتخيل هياكل الموتى العظمية وقد كسيت من جديد ـ فى ((بعث)) عجيب ـ بذلك اللحم الذى كانت تعبده ، وحلت بها من جديد تلك الحيوية التى تجعل من اللحم والعظام كائنا حيا ، رجلا أو امرأة ! .. كانت هذه الحياة الحاضرة هى كل شىء بالنسبة لها .. وكانت تؤمن بانه اذا خبا ذلك الضوء ـ الذى تعيش فيه ويراها الغير بفضله ـ وتلاشى الى الأبد ، فان « الرؤيا » لن تعود الى الظهور من جديد قط !

وخيل اليها ـ وهى فى هذا المكان الذى كان مقدسا يوما من الأيام ـ انها تغوص لحظة فى أعماق نفسها ، وتتغلغل الى أدق خبايا طبيعتها .. ألم تكن فى لندن ـ قبل ان يدخل نيجل فى حياتها ـ مثل هاتور فى معبدها ، تصغى الى الخطوات المبتعدة عنها ، خطوات أولئك الذين كانوا عبادها والساجدين فى محرابها ؟.. فلما أتى نيجل ، جاءها برفقته الأمل الضارى فى رفعة المركز ، والثروة الطائلة ، والفوز الحاسم على أعدائها . ولكن هذا الأمل قد تلاشى بغتة ، ومع ذلك فانها فى خلال ارتباطها بنيجل ، قد وقعت على أمل جديد ، ولابد لهذا الأمل الجديد من أن يتحقق قبل أن تحل بجمالها تلك الظلمة المحتومة !.. ان نيجل لن يكون قط وسيلتها الى الغاية التى كانت تنشدها وترجوها ، ومع ذلك فان مصيره يجب أن يكرس لخدمتها .. ان له مصيره ، ولها مصيرها .. ولن يكون مصيرها مركزا دنيويا عظيما ، ولا احتراما رفيعا ، فهى لن تستطيع أن تنال الأول ، وكذلك لن تحظى بالثانى .. فلعلها قد خلقت لأمور أخرى .. لعلها خلقت لتكون سادنة فى معبد فينوس ، وليس لارضاء أى رجل كزوجة شرعية له .. بل ان هذه الكلمة بالذات ـ «شرعية» ـ تبعث الآن فى دمائها قشعريرة باردة !.. **كانما كان القدر قد كرسها لكل ماهو غير شرعى أو قانونى ،**

فعليها اذن أن تستجيب للقدر ولمصيرها ، وأن تتم رسالتها ، فى غير شفقة ، وفى غير خوف ، ولكن فى غير تهور أيضا !.. لقد كان مصيرها فى أن تتحرر من المصيدة التى كانت حبيسة بداخلها .. هكذا أيقنت !

ومع ذلك فهل سيقدر لها أن تتحرر ؟ .. وفى ظلمة محراب هاتور ، وقد استحوذ على حواسها وجه الالهة الجامد ، وما أوحى به الى عقلها المحدود ، الأنانى ، من أفكار حزينة عن الأنوثة المهجورة .. فى ذلك الجو ، عقدت العزم على أن تتحرر ، والا يقف شىء فى سبيلها ، وأن تسحق أية مشاعر او افكار مثبطة يمكن ان تخامر قلبها أو عقلها !.. ان مصر ، التى خيبت احدى رغباتها ، ثم قتلتها فى أعماقها ، قد منحتها رغبة أخرى ، وقيضت لها فرصة أخيرة — فهكذا أدركت — للسعادة ، واللذة البشعة وان كانت عارمة !.. انها فى مصر قد ازدهرت ، بعد أن كانت امرأة ذابلة .. وفى مصر جددت قوى فتنتها الجسدية .. فعليها اذن أن تتحرر من المصيدة ، وان تتم رسالتها وتستجيب لمصيرها .. ولسوف تفعل ذلك !.. وأقسمت فى سريرتها على ذلك ، وكأنها تنذر نذرا لأفروديت المصرية فى ظلمة محرابها ! لقد أحضرها نيجل الى هنا — أو لم يفعل ؟ — كى تبارك هاتور رحلتهما .. ولكنها الآن ، وتحت دافع جامح ، وبعد ان طرحت عنها كل شفقة وشك وخوف وكل شىء خلا الرغبة المتأججة ، راحت تتوسل الى هاتور ان تبارك رحلتها هى .. لا رحلتهما معا ، وانما رحلتها وحدها ! .. **اجل ، توسلت الى ربة الجمال .. الربة الوثنية الموكلة بالحب الجسدى الذى لا يمت الى الروح بصلة ! .. وخيل اليها — بما يشبه اليقين — ان دعاءها قد استجيب !**

ومع ذلك فان أحدا لم يوجه اليها حديثا ما ، اللهم الا الخفافيش الهائلة التى راحت تصدح لها — فى الظلمة — من أوكارها العالية .. فهى لم تسمع سوى أصواتها البشعة ، وخفق اجنحتها

الرهيب !.. ثم قال نيجل : « هيا بنا نذهب ياروبى ! لست أدرى السبب ، ولكنى أمقت هذا المكان اليوم ! » .. فجفلت حين سمعت صوته دانيا منها .. ولكنها سرعان ما سيطرت على مشاعرها ، وأجابت فى هدوء : « أجل ، لننصرف ، فانما يروع وجودنا الخفافيش ! »

وفيما كانا يغادران المكان ، انثنت تنظر الى العمود الذى كانت هاتور تحدق النظر من فوقه — وكأنها تبحث عن عبادها — وهمست للالهة تحييها مودعة !

* * *

◆ **وما** ان صعدا الى ظهر « اللولية » ، حتى أصدر نيجل امره با بحار على الفور .. وكان يبدو قلقا على نحو غير مألوف، وهو يتعجل المسير ! .. وكان ملهوفا وهو يخاطب « الريس » ذا الوجه الجامد الأسارير ، الذى لف رأسه الجميل بشال ، والذى أصغى اليه فى رصانة وهدوء ، ثم أسرع يطوف بسطح البحارة ، يتفقد استعدادات الرحيل ، ويشرف على سحب الحبال ، واخراج المدارى الضخمة التى تساعدهم على الابتعاد عن الشاطىء ، والأشرعة العظيمة التى ستنتشر حتى يتسنى لنسيم المساء — الذى كان يهب من الشمال — أن يدفعهم نحو الجنوب ، رغم مناهضة التيار القوى الجارف . وعندما اضطرب وجه الماء ، وحومت الدوامات حول مقدمة الدهبية ، وعند ما بدا الشاطئان يتسللان مبتعدين ليرتميا فى أحضان ضوء الشمال الوردى ، وانبعث فى الدهبية العظيمة ذلك الشعور الغامض بالحياة الذى يهز المركب المتحرك هزا ، طوح نيجل ذراعيه الى السماء ، وانطلق من حنجرته هتاف كان مزيجا من التنهد والصياح المكتوم ! .. وما لبث أن ضحك من نفسه وتحول يبحث عن روبى .. واذا بها وحيدة على السطح العلوى ، تقف بين بعض شجيرات النخيل المغروسة فى أوعية

كبيرة ، وقد وضعت يديها على السياج وخملقت فيه وهو يقترب .. وكانت قد نزعت قبعتها وقناعها ، وأخذ النسيم يداعب خيوط شعرها الشاحب اللامع ، الذى كان يتألق كالذهب فى أشعة الشمس الراحلة ، فاندفع نيجل يثب فوق الدرج ليقف بجوارها ، قائلا : « ها قد أبحرنا ! »

— شد ما تبدو فرحا مسرورا ! لقد دعوتنى طفلة ، ولكنك أشبه بغلام مجنون .. مجنون بالسفر والحركة . وان المرء ليظن ان لك .. كلا ، ان ذلك ليس من شيم الغلمان فى شىء !

وتساءل : « ماذا تعنين ؟ » .. فقالت : « كنت أزمع أن أقول ان المرء ليظن أن لك فى (قنا) عدوا ، وانك تفر منه ! » .. فهتف : « منه ؟! انما ينبغى أن تقولى : منها ! » .. فتساءلت بدورها : « منها ؟! » . فبادر قائلا : « من هاتور .. لقد بدا معبد دندرة اليوم عامرا بالأشباح والأرواح ! » .. ونزع قبعته حتى يدع النسيم يصل الى شعره أيضا ، واستطرد قائلا : « وعند ما كنا نقف فى المحراب ، خيل الى أننى أشم رائحة الموت والتعفن .. آواه ! » .. واربد وجهه لهذه الذكرى ، ثم استأنف كلامه فقال : « ويالصيحات تلك الخفافيش .. كانت تدوى كأنها أرواح منذرة متوعدة ! .. لقد كنت معتوها اذ ذهبت الى مثل هذا المكان التمس البركات لرحلتنا . ولقد عوقبت على هذه الوثنية ! .. ولا عجب ياروبى ، فما أظننى حقا أمت الى الوثنية بصلة ، ولست أظن أن حياة الوثنيين تستهوينى أو تلذ لى ، وهى التى يتشدق بها بعض اناس الآن .. فلست أرى كيف يمكن أن تكون الحياة القصيرة المرحة ، مرحة على الاطلاق .. كيف يمكن لرجل ان يكون مرحا والظلمات تنبسط أمامه دائما ؟ »

— أية ظلمات ؟!

— الموت .. بغير خلود !

وظلت برهة لا تنطق بكلمة . وما لبثت أن سألته : « هل

تنظر الى الموت كمجرد باب يؤدى الى حياة أخرى ؟ » . فأجاب : « بل أومن بأنه كذلك ! وأنت ؟ الا تؤمنين بذلك ؟ » .. فقالت : « بلى ! .. اذن فأنت لا تخاف الموت ؟ » . فهتف : « أولست أخافه .. الآن ؟ انه اذا واتانى الآن اضطرنى الى أن أترك متعا كثيرة ! .. ثم اننى أحب هذه الحياة ، وأجد فيها بهجة وطربا . ومنذا الذى لا يفعل ، متى كانت له صحة كصحتى ؟ .. تحسسى هذه الذراع ! » .. ولكنها لم تتحرك من مكانها ، فتناول يدها وراح يضغط بأصابعها عضلاته ..

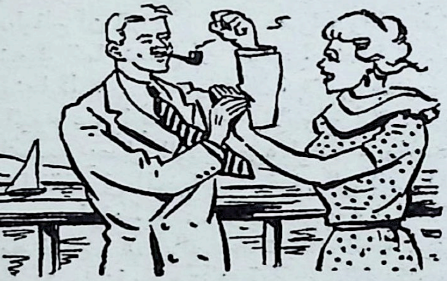

وما لبثت أن جذبت يدها وهى تقول : « انها ذراع من حديد ! ولكن العضلات ليست هى الصحة بالمعنى الدقيق .. اليس كذلك ؟ » .. فأجاب : « لا ، بالطبع .. ولكن هل رأيت قط رجلا يفوقنى فى وفرة الصحة ؟! »

وكان يقف بجانبها ، مشرقا ، منتصب القامة ، وقد شعث النسيم شعره الأشقر القصير ، وتألقت عيناه المشبوبتا النظرات ـ سعادة وهناء .. فبدا بالفعل كأنه شاب للصحة والعافية ! ولاح أصغر سنا مما كان حقيقة ! .. فقالت : « آه ! لا انك تبدو على ما يرام .. تماما مثل كثير من الرجال الذين يمارسون الرياضة ويحتفظون بصحتهم » .. فضحك قائلا :

« انك تأبين على المديح الذى أنشده ! .. انظرى الى هذه الصنادل الكبيرة المحملة بالفخار ! ان كل هذه الآلاف من الزهريات الصغيرة – أو القلل كما يسميها الوطنيون – قد صنعت فى (قنا) . وقد رأيت الرجال يصنعونها ، بل والأولاد أيضا .. ورأيت الصلصال الطرى يدور ويدور حول الأصابع السمراء التى تشكل الفوهة .. آه ما أجمل أن يرى المرء الحياة على جانبى النهر .. ففى كل يوم شىء جديد ، شىء مشوق يثير الاهتمام دائما .. تلك الانسانية وهى تكد وتكدح تحت أشعة الشمس ، وفى الهواء الطلق ! .. **منذا الذى لا يفضل أن يكون فلاحا هنا على أن يكون صانعا فى مدينة انجليزية ؟ .. وها هى ذى الشواديف ! لسوف نراها على طول الطريق الى جنوب النيل ، وسنسمع أناشيد الشادوف القديمة ، التى يهزج بها الفلاحون ، وكأنها تنبعث من تلك الأيام التى كانوا ينحتون فيها أبا الهول فى الصخرة الحية ! .. وسنسمع ذلك الترنيم الوسنان للسواقى ، التى تدور بها الثيران الناعسة حول نفسها فى أشعة الشمس .. وسنرى النساء قادمات صفوفا من القرى الداخلية ، وجرار الماء تستقر فى اتزان عجيب فوق رؤوسهن ..** الا ليتنا نعود الى تلك الأيام التى لم تكن توجد فيها تلك المراكب البخارية ، لنرى النيل أشبه بحلم أبدى ! ولكن لا بأس ! .. على الأقل قد رفضنا جرار بارودى البخارى (اللنش) ، ومن ثم فسنمضى فى رحلتنا مع الرياح ، واذا سكنت الرياح فمع دفعات المدارى القوية اذا لم نرس عند الشاطىء – فهذه هى الطريقة الفريدة للسفر على النيل . ولكن بارودى طبعا يستخدم الذهبية كما يستخدم المرء قطار السكك الحديدية فى انجاز أعماله ! »

وكف عن الحديث بغتة ، وكأنما تحول تفكيره نحو مجرى جديد . ثم قال : « أليس من العجيب أن نقيم – أنت وأنا – فى مركب بارودى ، فى حين اننا لم نره قط مرة ثانية منذ اليوم الذى دعانا فيه لتناول الشاى فوقها ؟ .. لقد خطر ببالى .. »

وأمسك ، فهتفت : « ماذا ؟ »

— لقد خطر ببالى انه قد يأتى بالقطار لتوديعنا عند بدء رحلتنا .

— ولماذا يفعل ؟

— لم يكن ذلك ضروريا بالطبع ، ومع ذلك فانه كان مظهرا من مظاهر الكياسة بالنسبة اليك

— آه ! .. أحسب انه كلما تناقصت مظاهر الكياسة التى تتلقاها الأوروبيات من هؤلاء الشرقيين كان ذلك أفضل !

— انك تفكرين فى تلك المراة الألمانية الفظيعة التى فى (الفيوم) .. ولكن بارودى يلقى تقديرا كبيرا من الانجليز فى مصر ، وقد تبينت ذلك فى القاهرة ، عندما تركتك ومررت بها فى طريقى الى الفيوم .. وهو ينال من الاعتبار فوق ما يحظى به رجل مصرى . فكل انسان يبدو على استعداد لأن يسدى اليه صنيعا ، وهذا هو بعض السبب فيما يلقاه من نجاح فى كل عمل يضطلع به !

— أعتقد انه رجل لا باس به .. ومهما يكن من أمر ففى وسعى ، ما دمنا قد ظفرنا بمركبه الجميلة — ان أستغنى عنه وعن كياسته تماما ! .. أين نرسو الليلة ، ومتى ؟

— عندما يخيم الظلام ، أما المكان فان « الريس » هو الذى يعرفه . أليس رائعا ان يكون المرء بملء حريته واستقلاله ؟.. أننا نستطيع أن نرسو حيث نحب ونشاء ، فى الأماكن المنعزلة، حيث لا يوجد سياح يزعجوننا !

فقالت وهى تردد صدى تحمسه ، بينما كانت تنظر اليه بعينين تفيضان ابتساما : « اجل .. لنتحاشى السياح ونلق مرسانا فى الأماكن المنعزلة .. أما الآن ، فسوف أهبط الى الطابق الأسفل » .. فتساءل : « لماذا ؟ .. ماذا تراك فاعلة هناك ؟ .. ان الشمس موشكة على الغروب ، وينبغى أن نشهد الشفق معا على اللولية للمرة الأولى ! » .. فقالت :

« نادنى اذن عند ما يحين وقته .. ولكنى ذاهبة لأتلقى درسنا فى صنع القهوة ، كما يصنعونها هنا .. فكم يسرنى أن أعد قهوتنا بنفسى بعد الغداء ، فضلا عن انه أمر أستطيع أن أشغل نفسى به .. اننى اريد أن أولى كل شىء اهتماما .. كل هذه التوافه فى حياتنا الجديدة العجيبة ! » .. فألقى ذراعه على كتفيها وقال: « بديع ! » .. وضغط بيده على بدنها ، واستطرد قائلا : « ولكن .. يجب أن تأتى لتشهدى الشفق ! » ، فقالت : « نادنى ، وسوف أحضر ! »

وفيما كانت تهبط الدرج ، انحنى نيجل فوق السياج ، يسألها : « ومن الذى سيلقنك درسك فى صنع القهوة ؟ » .. فأجابت : « انه حمزة ! » .. ثم اختفت عن نظره

الفصل السادس والعشرون

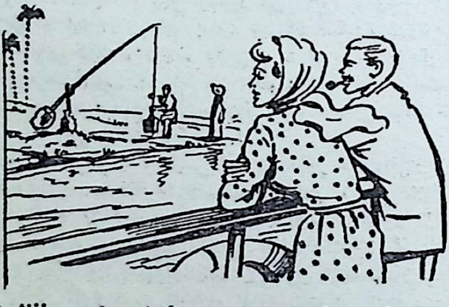

◆ « اننا على طول الطريق الى جنوب النيل سنسمع أناشيد الشادوف القديمة » .. هكذا قال لها نيجل ، عندما نشرت « اللولبية » قلوعها وابحرت من (قنا) !

وكانت مسز ارماين ، وهى تنزل الى حيث تلقى حمزة ، تسمع أصوات الرجال المرتفعة ، وهى تنشد بجوار الشواديف .. كانت تنبعث من كلتا

ضفتى النيل : قوية رنانة من الضفة الشرقية ، وخافتة بعيدة من الضفة الغربية ، ثم لا يلبث ان يغمرهما معا ذلك الفيض الذهبى المنهمر من الشمس الغاربة .. ومع ذلك فقد كانت كل الاصوات - حتى هذه الاصوات البعيدة - تتناهى الى سمعها عاليا ، وكان فى خفوتها قوة وعنفا !.. وذكرت صوت ذلك الفلاح الذى كان يصيح بها فى بساتين البرتقال ، وكيف فكرت لحظة فى الفرار قبل ان تجد نفسها حبيسة ما شاهدته !.. كما انها الآن فى سجن آخر !.. وحتى اذ ذاك ، فقد اطبقت عليها أيد قاسية لا تلين ، وكانت صيحة الفلاح الاخيرة تتهدج فى انتصار وحشى .. ولقد ذكرت « عايدة » فى ذلك اليوم ، كما عادت تذكرها الآن !.. لقد كانت تعتقد - وهى بعد فى ميعة الصبا - ان العاطفة التى دمرتها انما كانت أعتى عاطفة فى حياتها .. كانت لوثة أصابت احاسيسها ، وهذيان حمى اجتاحت جسدها .. وكانت تخال ان هذه الفورة لن تتكرر مع شخص آخر !.. ولكن ما أقل ما كانت تعرفه عن نفسها او عن الحياة ! وما اقل ما كانت تعرفه عن ضراوة القوى المضطرمة فى سن النضوج !.. ان تلك العاطفة التى مرت بها فى أيام شبابها لأشبه بشبح هزيل اذا قيست بهذا الذئب الكاسر الذى اضحى يحيا بين جوانحها الآن !.. انها فى تلك الايام - أيام الشباب - لم تكن قد استكملت قدرتها على الشعور ، وعلى الاشتهاء ، وعلى التفزز من الغيرة ، وعلى الاختبال ازاء أى وهم يهدد احلامها . اما الآن فقد بلغت هذه القدرة ذروة النمو ، وغدت عملاقا رهيبا !.. ومع ذلك ، فان « روبى » - فى المرة الاولى - تركت ذلك الشبح الهزيل يدمرها تدميرا .. اما فى هذه المرة ، فقد عقدت العزم على ان تكون أشد حرصا وحذرا .. ومع ذلك فقد كانت تعانى عذابا أليما من جراء طبيعتها .. الطبيعة التى كانت تخشاها !

لقد رمت النرد (الزهر) ، فليس لها ان تفكر فى الفرار او المقاومة . وكانت الأنانية القصوى - انانية الانسان المادى ، التى لا تماثلها انانية اخرى - تنبض بالحياة الزاخرة فى أعماقها .. ولما كانت لا تؤمن بأية حياة مستقبلة لروحها ، فانها راحت تشتهى اللذة الحاضرة لجسدها الصاخب الصياح ، كما لا يمكن ان يشتهيها انسان سوى الانسان المادى المفرط ! وكانت تعتقد انها لن تفوز بشىء البتة ، اذا فشلت فى الظفر بما تتوق اليه وهى محتفظة بوهج أيامها الذهبية . اذ ان كل شىء لن يلبث ان ينتهى بالنسبة اليها ، وستفغر الهوة السوداء فاها لتتلقاها ، فلا تلبث ان تتلاشى فيها الى الأبد !

كانت امرأة قانطة يائسة تحت قناع من الهدوء البسام ، عندما نشرت « اللولية » أشرعتها وانسابت على صفحة الماء ، فى المساء الذهبى !.. على ان

مسز ارماين لم تكد تهبط الدرجات القلائل ، وتنتهى الى تلك المقصورة الجميلة التى اتخذتها مخدعا لها ، حتى خامرها نوع من الارتياح كاد ان يكون جذلا وغبطة ، اذ بعث فيها ما توفر فى « اللولية » من وسائل الراحة والرفاهية ، شجاعة وقوة ، فاذا بها تغدو قادرة على التطلع الى المستقبل فى امل ورجاء ، واذا نفسها تهر راضية مرضية ، كهرير القط الشابع الهانىء !٠٠ وسارت فى الممر الى حجرة النافورة والكرة المذهبة ، ولكن النافورة لم تكن تعمل فى ذلك اليوم ، وكانت الكرة الصغيرة تطفو فوق سطح الماء فى الحوض الرخامى (الفسقية) وكانها كائن فقد الحياة !٠٠ وخامر مسز ارماين شعور طفيف من خيبة الامل ، ولكنها ما لبثت ان تذكرت انهم كانوا يمخرون عباب النهر ، ولعل النافورة لا تعمل الا اذا كانت « الذهبية » واقفة ٠ وكان الوحش الفظيع ـ الذى يشبه تنينا له راس كلب ، والذى راته فى زيارتها الاولى ـ يتطلع نحوها من فوق الرف الذى كان يستقر فوقه ، فاحست كانه يحييها ويرحب بمقدمها !٠٠ وكانت حواجز « المشربية » مسدلة فوق النوافذ ، ولكن البابين المنزلقين المؤديين الى الشرفة كانا مفتوحين ، يفسحان الطريق لضوء المساء وخرير الماء والاصوات الاخرى على طول ضفتى النهر

واتخذت مسز ارماين مجلسها فوق الاريكة ، وفى اللحظة التالية مباشرة لحق بها حمزة ٠٠ فقالت له فى صوتها البطىء المتراخى : « هل ستريني كيف تصنع القهوة التركية يا حمزة ؟ » ٠ فاجاب : « اجل » ٠٠ وعادت تساله : « واين نصنعها ؟ » ٠٠ فاشار الى الشرفة المرتفعة فى مؤخرة « الذهبية » وقال : « هناك » ٠٠ وتجلى عليها الامتعاض ، ولكنها نهضت من مكانها فى بطء وتبعته الى الخارج ٠٠ وكانت المظلة قد نشرت بحيث تخفى السطح العلوى للذهبية عن العيان ، فلما رات ذلك ، انجابت سحب الامتعاض عن وجهها ، وجلست لتتلقى درسها ، وقد لاحت فى عينيها وحول شفتيها لمحة مشرقة من اللهفة والانتباه البالغين !٠٠ وكان حمزة قد احضر موقدا من النحاس بقوائم من الحديد ، تحميه من الريح ستار من قماش الاشرعة ، وقد وضعت على الخشب المصقول ـ ملاصقة له ـ آنية براقة بيد من خشب ، تحوى بعض الماء ، ووعاء من النحاس به البن الطازج المحمص والمطحون ، و « كنكتان » صغيرتان من النحاس الاحمر بيدين طويلتين ، وقدحان للقهوة ، واناء صغير به السكر الناعم ، وبعض لفافات الورق التى تحوى عيدان المصطكى (المستكة) والعنبر وحب الهال (الحبهان) ٠٠ فما كادت مسز ارماين تجلس بجوار الموقد ، حتى شرع حمزة ـ الذى بدا من اساريره كما لو كان وحيدا ـ يؤدى مهمته فى بطء وتانق ، ودقة تثير الاعجاب ٠ فقد جلس القرفصاء وهو يثنى ساقيه السمراوين الطويلتين تحت جسده الشبيه بعصا من الغاب ، ثم

صب الماء فى احدى (الكنكتين) النحاسيتين ، ووضعها فوق الموقد ، ثم استغرق فى حلم عميق ، وقد استقرت عيناه المليئتان بالاسرار والالغاز ـ واللتان كانتا تستوعبان كل شيء ولا تعكسان شيئا ـ على الجمر المتقد .. وكانت مسز ارماين تجلس بلا حراك وهى ترقبه ، ولكنه لم ينظر نحوها قط .. كان فى شرود ذهنه وجمود وجهه اشبه بالحيوان !.. وبعد قليل صدرت عن (الكنكة) همهمة خافتة ، وعندئذ مد حمزة يده اليها فرفعها من فوق الموقد ، وتناول وعاء البن من فوق الارض ، ووضع بعضا منه فى الماء ، وراح يقلبه بملعقة من الفضة كان قد اخرجها من بين طيات منشفة من التيل مطبقة فى عناية ، ثم وضع « الكنكة » ثانية فوق الموقد . وفتح ـ بعد ذلك ـ لفافة الورق التى كانت تحوى العنبر ، فوضع مقدار قراط منه فى « الكنكة » الثانية ، ثم وضعها هى الاخرى فوق الموقد .. وبدات القهوة تغلى ، فاشعل عودا من المصطكى و (بخر) بدخانه قدحى القهوة الصغيرين ، ثم تناول « الكنكة » الاولى فصب ما فيها من القهوة الشديدة فى « الكنكة » الثانية التى تحوى العنبر الذائب ، وتركها تغلى قليلا حتى فارت ، وما لبث ان صبها فى القدحين ، فبدا سطحها دسما كالقشدة ، وانبعث منها ، مع رائحة القهوة الزكية الساخنة ، رائحة العنبر المثيرة !.. واضاف اليها قليلا من حب الهال ، واخيرا رفع بصره متطلعا الى مسز ارماين ، فقالت : « هل تم صنعها ؟ اذن .. اذن ، هل أضع السكر فيها ؟ » .. فاجابها وهو يحدجها بنظرات ثابتة : « نعم »

ومدت يدها ، ولكنها لم تبلغ وعاء السكر .. اذ انبعث ـ وهى تفعل ذلك ـ صوت من فوق راسيهما يهتف : « روبى ! روبى ! » .. فاجابته قائلة : « اهبط الى هنا ! »

ـ ولكنى أريدك على ان تصعدى لترى الغروب والشفق معى

فعادت تناديه : « اهبط الى هنا اولا » . فهتف : « حسنا » .. وكان اعداد القهوة قد تم ، فنهض حمزة من جلسته المريحة ، ورفع الموقد ومضى مبتعدا فى خفة ، وهو يحمله فى يسر وقلة اكتراث ، كما لو انه كان مصنوعا من ورق الكرتون ، وليس له وزن يذكر .. وبعد لحظة كان نبجل يفد على حجرة النافورة المعتمة ، وهو يصيح : « أين انت ؟.. آه ! هناك ! يجب الا يفوتنا اول غروب للشمس نشهده معا ! » .. فقالت وهى تبتسم : « القهوة ! » . فخرج الى الشرفة ، وعندئذ قدمت له احد القدحين الصغيرين .. فسالها : « هل صنعتها بنفسك ؟ » .. فاجابت : « لا ، ولكنى ساصنعها غدا .. لقد أرانى حمزة كيف تصنع ! » .. فتناول القدح ، وما لبث ان قال : « ان لها عبيرا زكيا ، مثيرا كعطور الجنة ! . لابد انك انت التى صنعتها ! » .. فقالت فى رقة بالغة : « اشربها اذن وانت على هذا الاعتقاد ،

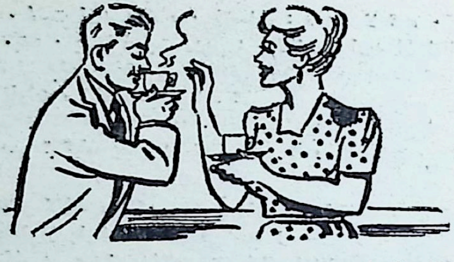

ايها الانسان المضحك ! »

فراح يرشف من قدحه ، وحذت حذوه . وما لبث ان هتف : « عظيمة ، عظيمة جدا .. ولكن ما الذى وضع فيها ليكسبها هذه النكهة اللذيذة الخاصة يا روبى ؟ » .. فاجابت : « آه ! هذا هو سرى ! » .. ومضت ترشف قدحها الصغير ، ثم قالت : « انها بديعة بدرجة تفوق التصور ! » .. واشارت الى لفافات الورق التى لم يرفعها حمزة بعد ، واستطردت : « ان اعدادها يكاد يشبه بعض الطقوس المقدسة ! فنحن نضع القليل من هذه اللفافة ، والقليل من تلك .. ثم نعرض الاقداح لشذى عود مشتعل من اعواد المصطكى هذه.. واخيرا جدا ، عندما تفور القهوة وتزبد ، ننثر عليها السكر الناعم .. وهذه هى النتيجة ! » .. فقال بارتياح : « بديعة جدا ! »

ثم وضع قدحه فارغا ، وقال وهو يشير خلال السياج الى الامواج الصفراء وهى تتراجع خلفهم : « آه ! انظرى الى هذا الضياء ! هل فرغت ؟ » . فاجابت : « تماما » . واذ ذاك قال : « اذن فهيا بنا الى السطح .. ايتها القهوجية ! » .. وكانا وحيدين تماما ، فاحاطها بذراعه ، اذ وقفا ، وقال : « كل ما تمنحينيه يبدو مختلفا عن غيره من الاشياء .. مختلفا ، وافضل بكثير ! » .. فقالت : « ذلك لان مخيلتك رفيقة بى .. رفيقة بى اكثر مما ينبغى ، فانت مجنون بى ! » .. فهتف : « هل انا كذلك حقا ؟ » .. وراح يحدق النظر فى عينيها ، وغدت عيناه الحانيتان الشغوفتان ثاقبتين لحظة ، وهو يقول : « وانت يا روبى ؟ » .. فتساءلت : « انا ؟ » .. وتابع حديثه قائلا: « افيمكن ان تجنى بى يوما ما ؟ »

وبدا مرحه برهة وقد حجبته غمامة رقيقة زاحفة من الشك والارتياب ، وكانما كان نيجل يقارن حالة قلبها بحالة قلبه ، وكما لو ان هذه المقارنة كانت قد بدات - بدات فقط ! - تقلقه وتكربه على نحو مبهم !.. وادركت ما كان يحس به وقتئذ ، فمالت عليه ، وجعلت بدنها يسترخى قليلا فى وهن ،

ثم قالت : « لست اريد ذلك » • فتساءل : « ولم لا ؟ » • وكانت الغمامة قد شرعت تتبدد • بينما اجابت روبى : « لاننى لا اريد ان اتالم •• اريد ان اكون سعيدة فى هذه الفترة القصيرة التى بقيت لى كى اسعد ! »

– ولماذا تقولين « الفترة القصيرة » ؟

– اننى لم اعد شابة بعد •• وقد عانيت الكفاية فى حياتى !

– ولكن معى ؟ كيف يمكن ان تعانى معى ؟•• الا تثقين بى ثقة كاملة حتى الان ؟

– ليس الامر كذلك ، ولكن •• من الخطر على اية امراة ان تجن باى رجل! •• فمن الحماقة ان يفرط الانسان فى حبه !

وكانت تتكلم فى صدق واخلاص لا يخطئهما الفهم •• فقد كانت تفكر فى بارودى ! وقال نيجل : « فى بعض الاحيان فقط •• عندما يحب المرء شخصا متخاذلا او غير مخلص • اما نحن •• فلسنا فى حاجة الى ان نحسب الثمن ، ونتردد ! » •• وانفرجت شفتاها تهمان بالاجابة ، ولكنها تركته يغلقهما !•• وفيما كان يقبلها ، راحت تصغى الى اصوات رجال الشواديف المنبعثة دواما من ضفتى النهر •• وكانت هذه الاصوات قد ازدادت ارتفاعا وهما على السطح العلوى • وكان الغروب فى تلك الأمسية ذا شفق فى لون الذهب الخالص ، وقد ابت السماء الصافية – كما كانت تبدو – ان تحمل لونا غير لون الذهب، كما اعرضت التلال عن ان تتلقى منحة اخرى غير منحة من الذهب !••وهكذا امتدت امام مسز ارماين مشاهد مختلفة – كلها من الذهب – تكاد ان تكون وحشية •• وكانت الاصوات تصيح من خلال الذهب ، منبعثة من الضفتين اللتين كانتا تتحولان الى سواد •• فالذهب فى مصر دائما يسلم المراكب فى النيل – كما يسلم ضفتى النهر ، واشجار النخيل التى تتوجهما احيانا ، ومساكن القرى الوطنية – الى سواد !•• وهكذا كان الشان هذا المساء • الا ان نيجل لم ير ولم يفكر الا فى الذهب وحده •• اذ قال : « ها نحن اخيرا نبحر فى غمرة الذهب •• وهذا يذكرنى الآن بصورة احبها ، ويجعلنى افكر فيها » •• فتساءلت : « اية صورة ؟ » • واجاب : « صورة رسمتها ريشة « وات » ، وتسمى « التقدم » ، فان فيها تالقا رائعا •• واذكر اننى كنت اتحدث عنها الى ماير ايزاكسون فى الليلة التى قدمته اليك فيها »

وكانت تقف متكئة الى السياج ، فى الجانب الأيمن من السفينة • فما ان سمعت ذلك ، حتى رفعت ذراعيها عن السياج ، ووقفت منتصبة القامة لحظة، ثم جلست على مقعد من القش المجدول على هيئة خلية النحل ، وارتكزت بظهرها الى مسند المقعد الذى كان يئز تحتها وكانه يحتج عليها •• وقالت : « الى ماير ايزاكسون ؟•• وما الذى قلته عنها ؟ •• » •• فاستدار نحوها ،

واستند الى السياج ، ثم اخذ ينظر اليها وقد توارت قليلا فى جلستها ، وقال : « كنا نتكلم عن التقدم ٠٠ فان تلك الصورة ليست الا رمزا ، بطبيعة الحال ٠٠ رمزا للتقدم الروحى للعالم ، ولكل واحد منا ! واذكر اننى اخبرت ايزاكسون كيف اننى اومن ايمانا راسخا بانتصار الخير فى العالم ، وفى الفرد ! » ٠٠ فتساءلت : « وماذا قال ؟ » ٠٠ فاجاب : « ايزاكسون ؟٠٠ لست اقطع بانه اقتنع بوجهة نظرى تماما »

- انه فى رايى رجل متشكك شديد الارتياب الى حد ما !

- ربما كان يريد دليلا اكثر رسوخا من الذى اريده ٠٠ دليلا يمكنك ان تشيرى اليه وتقولى : « اسمع ! اننى اعتمد على هذا دليلا لى ! »

- انه اضيق منك افقا واشد تزمتا ٠٠ بكثير !

- آه يا روبى !٠٠ لست اعلم عنه هذا !

- بلى ، انه لكذلك ٠٠ فهو رجل رائع الحلق ، يثير الاهتمام الى حد بعيد ٠٠ ولكنه ، ولعل ذلك لم يخطر بباله ، ضيق الأفق ، شديد التزمت ٠٠ انه يرى الامور ببصيرة نفاذة خارقة ، ولكن فى حيز ضيق جدا !٠٠ وهو لا يحب ان يؤمن بوجود شىء هام ، مادام هذا الشىء لا يقع فى مجال رؤيته ! ولكنك لست من ذلك فى شىء

- انه يفوقنى ذكاء وحذقا الف مرة !

- نعم ٠٠ انه من الحذق والذكاء بحيث لا يطمئن الى شىء ، ولا يثق فى احد ٠٠ فهو مثلا لايمكن مطلقا ان يثق فى امراة مثلى !

فهم نيجل بالاحتجاج فى حمية وتوفز ، هاتفا : « اوه يا روبى ! » ٠٠ ولكنها قاطعته بهدوء ، قائلة : « اجل ٠٠ انه لا يثق البتة بى ، وسيظل الى نهاية العمر يحكم على بالماضى ٠٠ انه خليق بان يلصق بى بطاقة يكتب عليها : « احذروا هذه المراة ! » ٠٠ وان اشد اعمالى براءة ، واعظم محاولاتى الذاتية للاعراب عن حقيقة نفسى وما فيها من خير وطيبة ، لن تقابل منه - رغم ذكائه - الا باساءة التاويل !٠٠ صدقنى يا نيجل ، فنحن النساء ندرك هذه الامور ! » ٠٠ فتساءل : « اذن ، فلا بد انك تبغضين ايزاكسون اشد البغض ؟! »

- بالعكس ٠٠ اننى احبه ! - لست افهم

- اننى لا انشد فيه شيئا من الاشياء السامية التى ٠٠ حسنا ٠٠ التى انشدها فيك ، لاننى لا استطيع البتة ان احفل به ٠٠ ولو قدر له ان يخادعنى ، بل لو عن له ان يبغضنى اكثر مما يفعل الف مرة ، لما ساءنى ذلك ، لاننى لا املك ان احفل به قط ! »

فهتف قائلا : « افتظنين ان ايزاكسون يكرهك ؟ » ٠٠ وكان قد نسى ذهب

الشمس الغاربة ، وذهب النهر السائل ، ولم يعد يرى غيرها ، أو يفكر الا فيما كانت تقوله او تفكر فيه .. وناشدته قائلة : « اصدقنى القول يا نيجل :هل تظنه يحبنى ؟ » .. فاجاب : « انه لا يعرفك .. ولو عرفك ... » . فقاطعته : « لو عرفنى لما غير ذلك من الامر شيئا ! » .. ولكنه قال معارضا : « بل احسبه يغيره .. كل التغيير ! » .. وابتسمت وهى تهز راسها ، وقالت : « ساظل دائما احمل بطاقتى : « احذروا هذه المراة » ! .. ولكن ماذا يهمنى ؟ اننى لست متزوجة منه ، ولو اننى كنت زوجته .. آه ! اذن لكنت اتعس امراة على وجه الارض .. الآن ! » . فجلس بالقرب منها على مقعد آخر من القش ، وسالها : « روبى .. لماذا قلت « الآن » بهذه اللهجة ؟ » .. فاجابت بلهجة فيها تلطف بدا متكلفا : « آه ! لاننى اعيش الآن فى جو خلو من عدم التفه ، مما افسدنى تماما ! »

واحس بان فى أعماقه وهجا قويا ذهبيا ، كوهج الشمس فى الغروب .. لقد نسيت اخيرا موقفهما الاليم فى الحديقة !.. لقد ظل يناضل لكى ينسى قلبها هذا المشهد ، حتى نجح .. وقال بتلك البساطة الباردة التى يتميز بها الرجل الانجليزى : « اننى مسرور .. مسرور . ليت ايزاكسون يعرف ! » .. فاحست بانها تعبس ، وان لم تختلج عضلة واحدة فى جبينها . بينما استانف نيجل حديثه قائلا : « اننى لم اخبرك .. لقد كتبت الى ايزاكسون منذ ايام » .. فهتفت : « هل فعلت حقا ؟ » .. والتقت يداها فى حجرها ، فتماسكت اصابعهما !

— اجل ، لقد ارسلت اليه خطابا حافلا .. واخبرته باننا سنقوم برحلةالى جنوب النيل ، فى مركب بارودى .. وكيف انك تلوحين فى ابدع حال ، وكيف اننا نعيش فى فيض غزير من السعادة ! كما اخبرته باننا سنتحاشى السياح جميعا ، ونعيش لنفسينا فى الاماكن الهادئة التى لا توجد بها سفن ولا « دهبيات » اخرى .. واخبرته كذلك كيف اننى اتمتع بصحة هائلة !

— آه ! احسبك كتبت له ذلك بوصفه طبيبا عظيما !

وافترقت اصابعها ، وتشبثت بمسندى المقعد ، بينما كان نيجل يقول : « كلا ، ولكنى وجدت نفسى منطلقا ، ميالا للثرثرة ، عندما كنت اكتب اليه ، فذكرت ذلك مع غيره ! » .. فتساءلت : « وماذا كان غيره ؟ » . ومالت الى الامام قليلا ، وكانها تريد ان تشهد الغروب بوضوح أكثر ، ولكنها ما لبثت ان راحت تتطلع اليه ، وهو يقول مجيبا : « آه ، لقد افهمته حقيقة مابينك وبينى ، وتحدثت اليه عن الذهبية ، وانها عجيبة من العجائب .. وعن بارودى ، وكيف نجح ابراهيم فى اقناع بارودى بفكرة تاجيرها لنا » .. فتمتمت : « هو ذلك ! » .. واذ ذاك قال : « ما اكثر صرير هذه المقاعد !..

ان مقعدك يرسل صريرا منتظما ! » .. فنهضت من مجلسها ، فسألها : « ما أراك ستهبطين ؟! »

ـ كلا .. لنتمش قليلا ! ـ كما تشائين

وانضم اليها ، فشرعا يتمشيان فى بطء ذهابا وجيئة ، بينما اخذ اللهب يخبو فى السماء ، ويخبو فوق النهر .. واخلدت الى الصمت ، ولعلها اوحت اليه برغبتها فى السكون ، لانه لم ينبس بكلمة حتى اختفى الغسق ، وبدا عالم الماء ، والسهول الخضراء ، والصحراء ، والتلال الجرداء ، شاحبة باهتة فى تلك الآونة التى تسبق ظهور الشفق الاحمر .. واخيرا قال : « ماذا بك يا روبى ؟ ما الذى تفكرين فيه بهذا الاهتمام ؟ » .. فقالت : « لست ادرى » ، ثم نظرت اليه فى امعان ، وبدا عليها انها حزمت امرها ، ثم قالت : « اجل ، اننى افكر جديا »

ـ هل قلت شيئا أغضبك ؟.. هل تكدرت من كتابتى لايزاكسون وحديثى له عن سعادتنا ؟

ـ كلا ، لم اغضب لذلك .. ولكنه يذهب بروعتها بعض الشىء ، بطريقة ما ، فيما يبدو لى !.. ولكن ، ان الرجال لا يفهمون مثل هذه الاشياء ، ولذلك فمن العبث التحدث عنها !

ـ ولكنى احب ان افهم كل شىء .. ان ايزاكسون صديقى ، كما ترين.. افليس من الطبيعى ان اطلعه على ما نحن فيه من سعادة ؟

ـ آه ، بلى .. اظن ذلك .. لا باس يا نيجل ، فماذا فى ذلك ؟

ـ هل كرهت كتابتى اليه ؟

ـ اننى حمقاء يا نيجل .. هذه هى الحقيقة ! اننى خائفة من كل شىء ، ومن كل انسان !

ـ خائفة ؟.. انك يقينا لست خائفة من ايزاكسون ؟

ـ بل أؤكد لك اننى خائفة من كل انسان !

* * *

◆ ووقفت بجوار السياج ، وراحت تنظر ناحية الغرب ، واستطردت تقول : « ان السعادة بالنسبة لى تبدو شيئا هشا فى وسع كل امرىء ان يحطمه .. وللرجال ـ ومعذرة لهذا القول ـ ايد غليظة عادة ! » . فاتكا على السياج بجوارها ، وهو يستدير بكليته نحوها ، وقال : « ما احسبك تعنين انك تظنين ايزاكسون قادرا على أن يحطم سعادتنا يوما ، حتى ولو أراد ؟ »

ـ ولم لا ؟ ـ الا تفهميننى البتة ؟

وكان صوته يتهدج فى تأثر عميق ، وهو يتابع كلامه ، قائلا : « أتظنين ان

اى رجل اوتى ذرة من الرجولة يسمح لأحد ـ ولو كان اعز اصدقائه ـ بان يتدخل بينه وبين المراة التى احبها والتى اصبحت زوجة له ؟٠٠ هل تظنين اننى يمكن ان اسمح لأى انسان ـ رجلا كان او امراة ـ بان يتدخل بينك وبينى ؟ » ٠ فتساءلت : « هل انت موقن بانك لن تفعل ؟ » ٠٠ فاجاب بشىء من الحدة : « اية ماساة فى ان يفقد المرء الثقة بالحب ، كما تفعلين ! » ٠٠ فقالت : « انك لم تجرب الحياة التى عشتها انا ! » ٠٠ وكانت هى الاخرى تتكلم فى حدة ، كما تجلى فى عينيها عنف وهى تستطرد : « انك لم تعش اعواما برمتها محوطا بالغبن والازدراء ٠٠ بل ان صديقك الدكتور ايزاكسون يحتقرنى فى اعماق سريرته !٠٠ اننى اعرف ذلك ، ولست ازعم ان لدى سببا حقيقيا لهذه العقيدة ٠٠ سببا يمكن ان يجد اذنا واعية من الرجل ٠٠ ولكن النساء لا يحتجن لمثل هذه الاسباب لتبرير هواجسهن ! »

ـ ومع ذلك فانك تقولين انك تميلين الى ايزاكسون ؟!

ـ اننى اميل اليه حقا ، الى حد ما ٠٠ او على الاقل هذا ماكنت اظنه ، حتى اخبرتنى بانك كتبت اليه لتحدثه عنا وعن حياتنا على النيل

فقال وهو يزداد منها دنوا : « آه ، اننى لن افهم النساء قط ٠٠ يا له من سبب للكراهية نحو رجل يبعد عنا مئات الاميال ! » ٠٠ فهتفت : « مئات الاميال ؟ نعم ! وماذا لو دفعه خطابك الى الحضور الينا ؟٠٠ هب انه استقر فى راسه ان يسرع ليرى بنفسه ما اذا كان ما كتبته اليه صحيحا ! »

ـ روبى ! ما اشد ضراوتك فى افتراضاتك هذه !

ـ انها ليست ضارية بالقدر الذى تظنه ٠٠ فالدكتور ايزاكسون هو بالذات الرجل الخليق بان يفعل مثل هذا الشىء !

فقال : « حسنا ٠٠وحتى لو فعل ؟ » ٠٠فقاطعته قائلة « اتود ان يفعل ؟»٠ فتردد لحظة ، ولم يجب ، فعادت تقول : « انك تريده على ان يفعل حقا ! » ٠٠ قالت ذلك فى مرارة ، ثم اضافت هاتفة : « لقد كنت اظننى كافية لك ! »

ـ ليس الامر كذلك يا روبى ٠٠ انه ليس كذلك على الاطلاق ، ولكنى اعترف باننى اود فعلا ان يرى ايزاكسون بنفسه مبلغ ما نجده من السعادة معا !

ـ هل قلت ذلك فى خطابك ؟

ـ كلا ، لم اقل عنه كلمة ، ولكنى فكرت فيه مليا عندما كنت اكتب ٠٠ الم يكن ذلك التفكير امرا طبيعيا ؟٠٠ لقد كان ايزاكسون مستودع اسرارى تقريبا ـ وليس تماما ، اذ لم يكن ثمة انسان يلم باسرارى كلها ـ فيما يتعلق بشعورى ونواياى نحوك قبل زواجنا !

ـ ومع ذلك فلو انه استطاع ان يمنع هذا الزواج ، لمنعه فعلا !

ـ أولهذا السبب ، اذا صح ، لا تحبين ان يرى بنفسه سعادتنا سويا ؟

ـ لست اريده هنا .. ولست أريد أى انسان ، فاننى احس بانه قد يحاول ان يفرق بيننا ، حتى فى سعادتنا الراهنة !

ـ له ان يحاول ذلك الى يوم القيامة ، فلن يلقى ذرة من النجاح ..ولكنك لست منصفة له !

ـ وهو لن يكون منصفا لى يوما من الايام .. آه ! ها هو ذا الشفق يأتى اخيرا !

وراحا يرقبان الشفق فى صمت وهو ينشر سحره على التلال الغربية ، وعلى السماء الخالية من السحب ، ناحية الغرب .. كان يوحى بالسلام وبالعزلة النائية ، وكان يوحى بالاشياء التى صفت ورقت ، والتى تطهرت ، والتى تحولت الى نقاء عجيب ، ولكنه ليس نقاء جامدا باردا !.. فلما لفظ الشفق انفاسه الاخيرة بين احضان الليل الذى اقبل يمشى على استخياء ، احس نيجل كانه قد طهره هو الآخر من اختلاط مشاعره وافكاره ، وكان الامور قد استقامت فيما بينه وبين نفسه .. وقال : « ان هذا يجعلنى احس كانى فهمت كل شىء للحظة واحدة .. روبى ! لا تدعينا نتعرض لشىء من المصاعب ، او نثير لأنفسنا شيئا من المصاعب هنا .. ان لدينا فرصة ذهبية للسلام .. اليس كذلك ؟.. ولسوف نكون اسوأ من المجانين اذا لم نغتنم هذه الفرصة لأنفسنا .. ولكننا سنغتنمها ! اننى افهم ان حياتك الماضية قد جعلتك ترتابين فى الناس ، واعتقد اننى افهم مخاوفك حق الفهم كذلك .. ولكنها الآن ـ فيما يختص بى ـ لا تنهض على اساس ، فما من انسان فوق البسيطة يستطيع ان يتدخل بيننا يوما ما .. ان شخصا واحدا فقط هو الذى يستطيع ان يحطم اتحادنا !

فتساءلت : « من ؟ » .. وكان جوابه : « انت نفسك !.. صه ! لقد بدأ الملاحون فى الغناء ، واعتقد اننا سنرسو عند البر ! »

* * *

◆ وفى تلك الليلة ، بينما كانت مسز ارماين ترقد يقظى فى القمرة التى كانت مخدع بارودى ، والتى كانت ـ على نقيض سائر قمرات النوم فى « اللولية » ـ قاتمة الالوان تتميز بطابعها الشرقى .. وراحت تفكر فى الحديث الذى جرى قبيل الغروب ، فتبينت انها ينبغى ان تمسك اعصابها بقبضة من حديد ، وان تقيم حارسا قويا على طباعها الحادة ، اذ انها ـ دون ان تتعمد حقا ـ تركت نفسها تنطلق كالجواد الجامح .. فقدت جزءا من ضبط النفس الذى كانت تتميز به .. لم تفقده كله ، لانها ـ كعادتها كلما

قالت شيئا من الحقيقة ـ جعلت ذلك الجزء يفيد قضيتها كما كان فى وسع الكذب ان يفيدها !٠٠ ولكنها بحديثهـــا ذاك عن ماير ايزاكسون قد أتاحت لنفسها أن تتبين تماما انها انما كانت خائفة منه ، أو انها قد تصبح خائفة منه ، فى المستقبل ! لماذا كتب له نيجل الآن بالذات ؟٠٠ لماذا استرعى انتباه ايزاكسون اليهما والى حياتهما فى هذا الوقت بالذات !٠٠ ان ذلك يبدو كما لو انه ٠٠

وهنا جذبت عنان نفسها بغتة ، فى حدة طارئة ٠٠ انها لن تجعل من نفسها حمقاء تتعلق بالخرافات والاوهام ! ٠٠ لقد كان من الطبيعى تماما ان يكتب نيجل الى صديقه ٠٠ ومع ذلك فانها كانت تتمنى فى حرارة لو ان ايزاكسون لم يكن صديقه ، وان هاتين العينين ، عينى الطبيب الثاقبتين ـ اللتين كانتا تلمان بحالة العقل والجسد للمراة او الرجل بنظرة واحدة ثابتة مشرقة ـ لم تقعا عليها قط ٠٠ ولقد اصبح اشد ما تتمناه الآن ـ فى قرارة نفسها ـ هو الا تقعا عليها مرة ثانية قط !

الفصل السابع والعشرون

• فى منزل ميدان كليفلاند ، وفى صباح يوم من أيام يناير الأخيرة ، راح ماير ايزاكسون يقرأ خطاب نيجل :

« فيللا اندرود ـ الاقصر ، مصر العليا ـ ٢١ يناير

« عزيزى ايزاكسون : هاك أخيرا خطابا منى .. الخطاب

الأول الذى أجلس لأكتبه اليك منذ تلك الرقعة التى أخبرتك فيها بزواجى .. وقد تلقيت خطابك الرفيق جوابا عليها ، وأريته لروبى التى اغتبطت به بقدر ما اغتبطت به ابا ، اذ انها أحبتك منذ اللحظة الأولى ، وكانت — فيما اعلم — تود دائما أن توثق معرفتها بك منذ ان ذهبت للترويح عنها فى وحدتها بلندن .. ولسوف تتاح لها هذه الفرصه يوما ما ، اما الآن فاننا على وشك أن نقطع اتصالاتنا بكل انسان ، وان نسلم نفسينا الى النيل فى رحلة نحو الجنوب .. لعل هذا يدهشك ؛ ولعلك كنت تتصورنى منصرفا بكليتى الى العمل الشاق فى (الفيوم) مع رجالى السمر .. حسنا ، اننى لا أقل اهتماما وعناية بالعمل هناك عما كنت دائما . ولو انك رأيتنى منذ أيام قليلة ماضية ، ورأيت الوحل يبلغ ركبتى ، والزيت والسواد يلطخاننى ، فأبدو أشبه بوقاد ، لعلمت صدق ما أقول !..

ولقد كانت زوجتى معى فى الفيوم ، وقد اخشوشنت كبنات (اسبرطة) ، وطردت وصيفتها الفرنسية ، لتكون حرة تماما ، وأصبحت تعيش تحت الخيام ، وتركب الابل ، وتأكل حيثما اتفق .. وبالاجمال ، غدت تستطيب حياة البدو الرحل فى البرارى والقفار !.. انها ألفت هذه الحياة ، وان كانت تنتقد بين آن وآخر ما اعتادته من أسباب الرفاهية ، بطبيعة الأمر . ولكنها لم تشك قط !.. انها تبدو الآن فى ذروة بهائها ورونقها — أصغر بأعوام كثيرة مما كانت عندما رأيتها فى لندن ! — ولا تطيق سماع كلمة عن احضار وصيفة أخرى لها ، بالرغم من ان الحصول على وصيفة ميسور فى هذه الأيام !.. والواقع اننى شعرت بأنه لا ينبغى لى ان أبقيها طويلا فى تلك الجهات الموحشة — وهى بعد فى أول عهدها بها — رغم أنها كانت قانعة كل القناعة ، راغبة فى البقاء هناك ، عازفة عن ابعادى عن عملى .. وحدست انها تواقة ولا بد الى رؤية بعض عجائب مصر ، فانتهينا الى العزم على القيام برحلة فى « دهبية » الى جنوب

النيل ، وها نحن الآن على وشك الرحيل .. وحبذا لو رأيت مركبنا « اللوليه » ، فهى قطعة من الجمال الكامل . وبغض النظر عن بعض التفاصيل الضئيلة ـ التى لم يتسع وقتى لعرضها ـ فانها خليقة بان تروق لك وتبهجك كثيرا : فحجرات النوم قطعة من باريس ، فى حين ان حجرات الجلوس أشبه بحجرات قصر شوقى .. ولسوف تقول : « ان باريس والشرق لا يجتمعان » . فليكن ! ولكن ما أروع أن تسبح فى الخيال أثناء النهار ، ثم تغوص فى الرفاهية العصرية الحديثه خلال الليل !.. أليس كذلك ؟ .. وخصوصا بعد الفيوم !.. ثم ان لدينا نافورة على ظهر المركب ، ناهيك عن سجاجيد الصلاة الفاخرة التى تعد بالعشرات ، والتى تفوق كل ما وقع عليه بصرى منها فى اسواق القاهرة .. ذلك اننا لم نستأجر هذه الدهبية من « كوك » ، وانما استأجرناها من أحد أصحاب الملايين المصريين ، ويدعى محمود بارودى .. وهو من أبناء الاسكندرية ، وكنا قد التقينا به أثناء سفرنا ، فتصادف أن كان يريد مستأجرا لمركبه ، فى ذات الوقت ألذى كنا ننشد فيه مركبا !.. وماكان فى الحق طامعا فى نقودى ـ رغم اننى دفعت له ما كنت سادفعه الى « كوك » أجرا لمركب من الدرجة الأولى ـ ولكنه لم يشأ ان يترك ملاحيه وخدمه عاطلين عن العمل ، اذ يقول ان البطالة مفسدة لهم ، لذلك كان يبحث عن أمريكى ثرى ـ ككل شخص هنا تقريبا ـ عندما سمع مصادفة من احد خدمنا ـ وهو فتى من الطراز الأول يدعى ابراهيم ـ اننا نريد مركبا جيدة . وهكذا تمت الصفقة بيننا !.. أما خططنا المقبلة ، فما زالت غير واضحة. **فنحن نريد أن نبتعد عن طريق المراكب التى تقوم برحلات سياحية منتظمة ، لنخلو بنفسينا فى الأماكن الجميلة غير المطروقة ـ على طول ضفتى النهر ـ وأن نزور المعابد والمقابر فى هدوء ، وأن نتغلغل فى صميم حياة الوطنيين .. نريد ، فى الواقع ، أن**

ننغمس في ماء النيل حتى اذقاننا !.. وليس فى وسعى أن أصف لك كيف اننا نتطلع معا الى هذه الرحلة فى امل ورجاء ، وكل ما أستطيع قوله هو اننا سعيدان يا ايزاكسون !.. فمن العسير ، بل من المحال ، الا يحس الانسان بالسعادة هنا ، فى هذا المناخ ، وهذا الهواء ، وهذا الصفاء .. الصفاء الذى كثيرا ما أفكر فى أنه يشبه تألق الاخلاص وبهاءه ! **واظن اننا أسعد من معظم الناس هنا .. اننى واثق من ذلك بالنسبة لنفسى ، على اية حال !.. بل اننى لا اغالى اذا قلت اننا أسعد من أى انسان آخر هنا ، وانى لاقولها بصوت عال ، دون خجل او تورع ، ودون أن تساورنى اية مخاوف خرافية من المستقبل !..** ان الشمس تنسكب فوقى وانا أكتب لك الآن ، كما اننى اسمع أصوات الملاحين وهم ينشدون ويهزجون .. وهانذا أرى زوجتى فى الحديقة ، تمشى الهوينا متجهة الى ضفة النهر .. ليس ذلك فقط ، وانما أمامى أيضا تلك الرحلة أتطلع اليها وأنعم بها منذ الآن !.. نسيت أن اخبرك باننى فى أطيب حال ، وما كنت قط من قبل – طول حياتى – فى مثل هذه الصحة الرائعة . ويقال أن الرجل المكتمل الصحة لايحس ببدنه ولا ينتبه اليه ، ولكن الذى أدريه هو اننى كلما استيقظت فى الصباح ، قلت لنفسى : « انك فى أعظم حال ، أيها الفتى العجوز ! » .. وأعتقد ان الشعورية تعنى اكثر من اللاشعورية بكثير ! فهلا تظن ذلك ؟.. فليست بى هنا حاجة الى علمك ، ومهارتك .. لا حاجة لى بهما على الاطلاق ! ترى هل يوجد مرضى فى لندن حقا ؟ وهل عيادتك مكتظة بهم ؟.. اننى لا أكاد أفكر فى هذا ، الا كما أفكر فى ظلمة لندن فى هذه الأيام !.. آه ! يالى من وحش انانى !.. لاريب انك تكره منى هذا الشعور ، أليس كذلك ؟.. ولكن ما أجمل أن يكون المرء سعيدا !.. وعندما أكون سعيدا فاننى اشعر دائما بأننى « أنفذ » القانون ! فاذا شئت أن « تنفذ » القانون ، فخير لك أن تأتى الى مصر !

ولكن ينبغى أن تحضر « المراة » معك الى أشعة الشمس !.. وليس فى وسعى ان أقول أكثر من ذلك ، بل اننى لست فى حاجة الى المزيد من القول .. وانك لتفهم ذلك الآن !.. هل تذكر عودتنا الى منزلك سيرا على الأقدام بعد الحفلة الموسيقية فى تلك الليلة ، وكيف اننى قلت « شدما أود ان اذهب الى النور .. النور الحقيقى ؟ » .. حسنا ، اننى الآن فى غمرته ، وكم أود لو أن بوسعك - وبوسع كل انسان آخر - ان يأتى اليه أيضا !.. أرجو ان تغفر لى أنانيتى ، وان تكتب لى بهذا العنوان اذا ما وجدت فسحة من الوقت .. تعال الى النيل عندما تأخذ الأجازة المقبلة .. وتقبل تحيتنا معا ! صديقاك : « ن.أ. » و « ر.أ. »

« لقد وقعت نيابة عنها ، فانها لاتزال فى الحديقة ، وسألحق بها على التو ! »

* * *

• **خطاب** ينبض بالنجاح .. خطاب ينطق فى دهاء - وفى كل سطر من سطوره - برسالة خفية ، فيقول له : « لقد كنت مخطئا ! » .. خطاب يفيض بنشوة النصر ، ولكنه مع ذلك خلو من الزهو القاسى الذى يبعثه النصر فى بعض النفوس .. أهو حقا خطاب الى صديق صدوق ، ليغتبط بما جاء فيه ؟ .. لقد ظل ماير ايزاكسون طويلا ممسكا بالخطاب بين يديه ، وهو غافل عن الشاى الذى بقى فى مكانه بالقرب منه ، دون أن يمسه . وكان اليوم معتما عبوسا .. كان يوما ساكن الهواء ، غير قارس البرد ، ولكنه أحد أيام السنة الوليدة .. الأيام الأولى التى لا تبشر بالخير . ومع ذلك ، ألم يكن يمسك بالشمس المشرقة بين يديه ؟.. كان من العجيب حقا أنها لم تدفئه ، وانما خيل اليه انها كانت تضيف ظلالا جديدة الى ظلمة لندن المعتمة !

مسز ارماين بلا وصيفة ؟!.. لقد بدا له هذا الحادث التافه ـ مجرد طرد وصيفة ـ بارزا ، يكاد يقفز من خطاب صديقه ، دون أن يعرف سببا لذلك .. **انه يعرف نساء الطبقة الراقية جيدا ، ويعرف ان المرأة العادية منهن تفضل ان تعيش بغير أمل فى دخول الجنة على ان تعيش بغير وصيفة !.. لابد أن تكون مسز أرماين قد تغيرت حقا منذ ان كانت مسز تشبستو .. فهل من الممكن ان تكون قد تغيرت الى هذا الحد ؟..** وهل من الميسور لمن تقدمت بهم السن أن يتغيروا من أساسهم ، اذا ما وقعوا تحت تأثير حماسى خارجى ؟!

وظل ايزاكسون ، طوال ذلك اليوم ، يفكر وينعم الفكر فى هذه المسألة .. لقد كان نيجل يقرع بابا ، فهل من الممكن أن يكون هذا الباب قد فتح له .. أو هل سيفتح له يوما ؟.. لقد كان يخال أنه سيفتح له ، ولعله الآن يظنه قد فتح بالفعل .. لقد كان نيجل وزوجته فى طريقهما معا الى « الأماكن الجميلة غير المطروقة ، على طول ضفتى النيل » ، وكانا « أسعد من معظم الناس » .. بل أسعد من معظم الناس فى بلاد الذهب !.. ومع ذلك فقد ولد غلامان للورد هارويتش ، فحرم نيجل من الميراث !.. لقد راح ايزاكسون يتساءل ـ حين اطلع على هذا النبأ ـ عن الأثر الذى سيحدثه فى الزوجين المقيمين على شاطىء النيل : كيف تحتمله هذه المرأة الجشعة ؟.. الظاهر انها احتملته على خير وجه ، فان نيجل لم يشر الى هذا الأمر بكلمة .. وهناك رحيل تلك الوصيفة .. مسز ارماين بلا وصيفة ؟! لقد جلس ايزاكسون فى تلك الليلة يعيد قراءة خطاب نيجل ، فاذا بهذه الواقعة التافهة ـ فى ظاهرها ـ تكاد تثب من الخطاب وتواجهه وحدها ! .. ما الذى كانت تعنيه هذه التضحية الغريبة ؟.. وما الذى عجل بها واستحث وقوعها ؟.. « لقد طردت وصيفتها الفرنسية ، لتكون حرة تماما » .. حرة لأى شىء ؟ .. ولماذا تريد هذه الحرية ؟

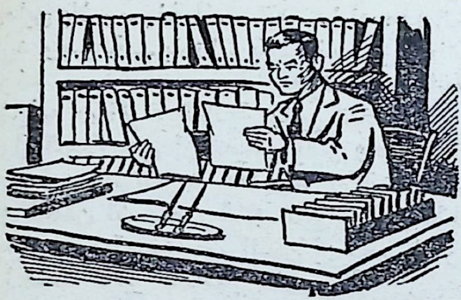

واشعل الطبيب سيجارا ، واضطجع فى مقعده المريح ذى المسندين ، ثم راح يدرس هذا الخطاب المرح كما يدرس الشرطى رسم المنزل الذى ارتكبت فيه احدى الجرائم .. فلما انتهى من تدخين السيجار ، وضع الخطاب جانبا ، ولكنه ظل هنيهة لا يجد رغبة فى الذهاب الى فراشه .. كان عقله كله بعيدا ، على النيل !.. انه لم ير النيل قط ، فهل يذهب لرؤيته توا ؟ هذه السنة ، بل هذا الربيع ؟ .. لقد ذكر نزهته على ظهر الجواد ذات صباح ، وكان هواء لندن يبدو راكدا كليلا ، بل يكاد يبدو خانقا !.. لقد حمله هذا الهواء — يومذاك — على أن يتمنى السفر بعيدا ، بعيدا جدا ، الى بلاد يستطيع ان يكون فيها « على سجيته » .. واذ ذاك تخيل بلدا بعيدا ، حيث تنشر الأساطير طياتها اللامعة .. **وكان وقتئذ يتوق الى الأحداث ، حتى ولو كانت احداثا رهيبة ، هائلة ، مروعة .. المهم ان تكون احداثا غير عادية او مألوفة ! .. كان يتوق الى باعث شديد يوقظ قواه الخفية الى ذروة نشاطها .. فهل يذهب الى النيل قريبا .. فى هذا الربيع ؟**

ونظر الى الخطاب ثانية .. ومن جديد عاد يقرأ تلك الكلمات التى تبدو خالية من المعنى : « لقد طردت وصيفتها الفرنسية لتكون حرة تماما ! »

ترى هل يذهب ماير ايزاكسون الى مصر ، وهل يسعى الى الزوجين ؟.. وكيف يستقبلانه ؟.. وما سر الغموض والأحداث الرهيبة التى لم تلبث أن اكتنفت حياة ارماين ؟ .. هل تكون ثمة جريمة تنفذ فى الخفاء ؟ .. ومن مدبرها وبطلها ؟ .. ومن الصديق الذى يظهر على غير توقع ـ بعد أن يكون القدر قد جمع كل خيوط الموقف فى عقدة عسيرة ـ لينقذ الزوج ؟ .. وهل يستطيع أن ينقذه حقا ، أو .. ؟

ان الأحداث لا تلبث أن تتطور فتشتد حدة وخطورة ، ويلفها الغموض من كل جانب ، حتى لا يتمالك القارىء أن يجد نفسه نهبا لهذه الأسئلة ، ولعشرات من الاسئلة الأخرى . وهو كالتائه فى الظلمات ، حتى يرسل المؤلف ـ ببراعة فنية سمت به الى قمة الفن القصصى الحديث ـ أضواء تبدد الدياجير ، وتكشف عن مصائر اهم أبطال القصة :

الزوج .. والزوجة .. والعشيق .. والصديق !

كل هذا تطالعك به ((مطبوعات كتابى)) ، فى الجزء الثالث والأخير من هذه القصة الجبارة ، الذى يصدر به عدد منتصف يونيو المقبل

* * *

هذه الأسماء الضخمة من روائع القصص والكتب العالمية ، هى بعض ما صدر من أعداد سلسلة

مطبوعات كتابى

التى تؤدى رسالة مكملة لرسالة كتابى

فرسالة « كتابى » الذى يصدر فى أول كل شهر ، هى نشر ملخصات ٨ أو أكثر من الكتب العالمية ـ الحديثة والقديمة ـ فى كل عدد ، لاعطاء فكرة كافية عنها لمن لا يتسع وقته لقراءة نصها الكامل .

أما رسالة « مطبوعات كتابى » ، التى تصدر فى منتصف كل شهر ، فهى نشر الترجمة الكاملة الامينة لكتاب واحد ، فى كل عدد ، من شوامخ الكتب العالمية التى لا غنى لأى مثقف عن قراءتها واقتنائها

فاستكمل مجموعتك منها من الإدارة (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) وترقب اعدادها الجديدة فى منتصف كل شهر

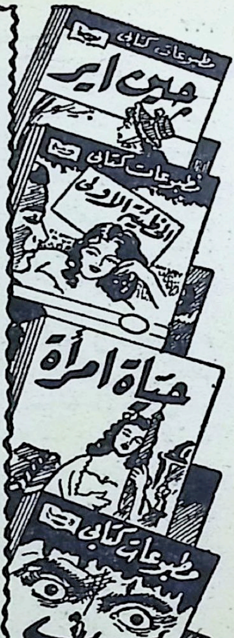
مطبوعات كتابى
جين اير
مطبوعات كتابى
الخطيئة الأولى
حياة امرأة
مطبوعات كتابى
أديب

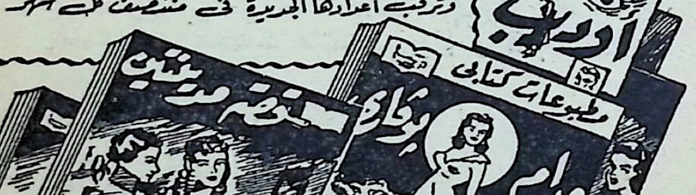
قصة مدينتين
مطبوعات كتابى
مدام بوفارى

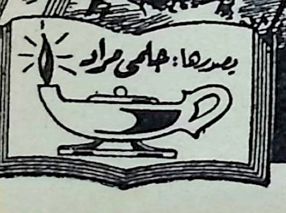

يصدرها : حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

لا تهمل فى اقتناء هذه القصة

فمنذ صدرت بالانجليزية فى عام ١٩٠٩، وجعلت اسم مصر على كل لسان، وترجمت الى جميع اللغات الحية، لم يجرؤ أحد على ترجمتها الى اللغة العربية، نظرا لطولها، وخشية انصراف القارئ العربى عن متابعة أجزائها، بعد أن عوده الناشرون أن يقتضبوا أكبر الأعمال الأدبية وأضخمها فى جزء واحد هزيل!.. لكن "مطبوعات كتابى" التى تؤمن برسالتها التى أخذتها على عاتقها، وهى تقديم الترجمة "الكاملة الأمينة" لشوامخ الكتب العالمية كما وضعها مؤلفوها، بالحرف الواحد - كما هى الحال فى جميع البلاد المتحضرة - لم تحجم عن الاضطلاع بهذه المهمة العسيرة، خدمة للقارئ العربى الذى كان "مجنيا عليه"..

فلا تهمل فى اقتناء هذا الجزء من القصة الذى بين يديك، واطلب الجزء الأول - إذا كان قد فاتك - من ادارة كتابى (بعمارة الجندول، ١٤٠ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) كى تتابع ما جرى من الأحداث بين السائحة الانجليزية الشقراء "مس تشبستو" وعملاقها المصرى الأسمر "البارودى"!

مطبوعات كتابى

يصدرها
حلمى مراد

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها
حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

بيلادونا

BELLA DONNA

روبرت هتشنز

الجزء الثالث والأخير
من أشهر قصة عالمية
تجرى وقائعها فى مصر!

روبرت هيتشنز

بيلا دونا

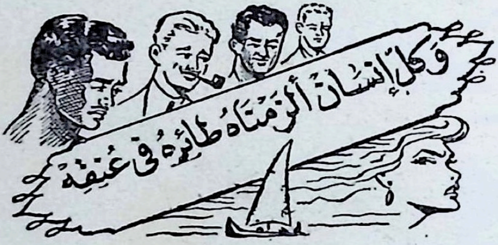
وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه

BELLA DONNA

BY

ROBERT HICHENS

٢٢٠ صفحة
الثمن ١٠ قروش

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب السادس والعشرون

بيللا دونا

الجزء الثالث

تأليف : روبرت هيتشنز
ترجمة : شمس الدين الغرياني

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ثلاثة وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى والعدد العشرون فقد نفدت، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة او تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، اوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة اجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (جزءان) ، وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر والثانى والعشرين ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص اجرة البريد المسجل) .

هكذا بدأت القصة !

ملخص الجزءين السابقين

◆ شق الدكتور « ماير ايزاكسون » طريقه فى الحياة بشكل لا يتاح الا ليهودى عصرى يقيم فى لندن ٠٠ فقد أحاط حياته الخاصة بغموض تام ، وحرص على أن يقرن الطب بعلم النفس ، فكان يتغلغل الى أعماق نفس مريضه، مما أذاع صيته بين سيدات الطبقة الراقية فى لندن ، اللاتى يترددن على الاطباء لأتفه توعك ، ولو لم يكن بهن مرض !٠٠ ويقال ان برجال اليهود بعضا من صفات الأنوثة الحقة ، لذلك استطاع الطبيب الشاب أن يفهم النساء بغريزته ، كما يفهمن بعضهن بعضا : كان كالنساء فى سرعة البديهة ، وصدق الالهام ، وفى حرارة الميل نحو الشىء أو النفور منه ٠٠ ومن هنا ندرك سر حكمه على « مسز تشبستو » حين زارته فى عيادته ، فقد سبقتها سمعة وروايات وشائعات لم يكن يجهلها : كانت من أبدع ربات الجمال ، ولذلك أطلق عليها الناس اسم « بيللا دونا » ، أى « ست الحسن » ٠٠ وكانت من أسرة ارستقراطية مفلسة ، مما شجعها على أن تبيع نفسها ، اذ تزوجت – وهى فى الحادية والعشرين من عمرها – من تاجر خمور ثرى خلع عليها اسمه ٠٠ ثم فاجأها وهى تخونه مع رجل متزوج من رجال المجتمع المعروفين ، فطلقها امام القضاء

وكانت مسز تشبستو – عندما حاقت بها هذه الفضيحة – فى السادسة والعشرين ، وفى ذروة جمالها ، فتحدت المجتمع ، ولم تحفل بشىء سوى الوصول الى المال وتبديده على حبها للترف والبذخ ٠٠ وهكذا عاشت متحررة ، غير مكترثة لما أحاطها به المجتمع من شبهات ٠ حتى اذا شارفت الاربعين من عمرها ، بدات اضواء حسنها تخبو رويدا ، واصبحت ترى فى المجتمعات فى صحبة شبان صغار ، بل غلمان !٠٠ وبدأ الناس يسخرون منها ويزدرونها ٠٠ وما لبث الكلال أن تسرب الى نفسها وجسدها ٠ وهذا – بوجه خاص – ما أدركه الدكتور ايزاكسون حين زارته فى عيادته ٠٠ ولكنه أدرك ، من

نظراتها وحديثها ، شيئا اهم ٠٠ أدرك قوة شخصيتها ، ودهاء انوثتها ، ومدى تغلب حبها للمادة - فى نفسها - على كل ما يمت للروح وللمبادىء الخلقية !

على ان الطبيب الشاب ازداد ادراكا لكل هذا ، عندما تبين أن الغانية قد القت شباكها على صديق له كان الوارث الوحيد للقب « لورد » ولأملاك شاسعة استأثر بها شقيقه الاكبر - حسب قانون الوراثة الانجليزى - ولكنه لم ينجب ولدا يخلفه ٠٠ وكان ذلك الصديق « نيجل ارماين » ، شابا فى السادسة والثلاثين ، نقى القلب ، صافى العواطف ، يؤمن بالمثل الروحية والمبادىء الخلقية ويقدمها على كل شىء ٠٠ وقد كرس جهوده لاستصلاح الأراضى فى صحراء (الفيوم) بمصر !

* * *

◆ ولم تجد جهود الدكتور « ايزاكسون » فى انقاذ « ارماين » من براثن الغانية ٠٠ فان سذاجة الشاب وطيبة قلبه جعلتاه يشفق عليها من قسوة المجتمع ، وياخذ على عاتقه عبء حمايتها من هذه القسوة ، مبررا ذلك -لنفسه- بانه كان يوقن ان الحب كفيل باصلاح النفوس ، ويؤمن بانتصار الخير على الشر ، وان زواجه من الأرملة المفسودة ، التى كانت تكبره سنا ، سيوقظ الخير فى نفسها ، ويصلح من شخصيتها ، ويجعل منها امرأة طيبة صالحة !

وهكذا تزوج « نيجل » من « مسز تشبستو » - فأصبحت مسز ارماين - ورحل بها الى مصر ٠ وقبل ان يستقر بها المقام ، كانت قد كرهت البلاد التى اقصتها عن المجتمع الانجليزى واضوائه ، وكانت قد بدأت تميل الى شاب أسمر التقت به على سطح الباخرة أثناء قدومها ، ثم قابلته فى الاقصر ، فعلمت انه من اب مصرى وام يونانية ، وانه كان واسع الثراء ، يعيش فى بذخ مفرط

ولم تستطع روحانية الشرق ان تؤثر فى نفس « روبى » - مسز ارماين - ولكن جو مصر الحار أيقظ نزواتها وشهواتها ٠ ثم اقبل نبأ بأن شقيق « نيجل » قد انجب توامين ذكرين ، وبذلك تبدد حلمها فى أن يفوز زوجها بلقب « اللورد » وبالثروة ، وهما السلاحان اللذان كانت تطمع فى ان تحارب بهما المجتمع اللندنى لتثأر لنفسها مما تمرغت فيه من هوان ٠٠ فأيقظ هذا النبأ - بدوره - جشعها المادى ٠ ومن ثم شرعت مسز ارماين توجه اهتمامها

الى « محمود بارودى » ـ الشاب المصرى ـ طمعا فى أن تسيطر عليه ، فتستغل مكانته وثروته فى ارضاء مطامعها ، وفى اشباع نهمها الى الترف والبذخ !

وفى ذات يوم ، دعاها « بارودى » وزوجها لزيارة « دهبيته » النيلية ـ التى كان يدعوها « اللولية » ـ فبهرها ما شاهدت من خدم واثاث ونعيم .. ولفتت بصرها لوحة كتبت عليها آية قرآنية : « وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه » ، فراحت تحدق فى الكلمات السحرية مبهوتة .. ثم رات مخدع « بارودى » ، وحجرة كان يخصصها لخلواته و « مزاجه » ، فتمنت ان تقضى فى هذه الحجرة فترة وهى وحيدة ، ومن ثم تركها زوجها ومضيفهما ، واغلقا باب الحجرة ، فسادت الظلمة المكان .. واستلقت الغانية الانجليزية على اريكة وثيرة ، ثم تركت لخيالها العنان ، فصور لها انها امراة شرقية ، تعيش فى حريم رجل ثرى ، يمتلكها روحا وجسدا .. لقد لبثت سنين طويلة تستعبد الرجال ، ولكنها تاقت اذ ذاك الى رجل يستعبدها !.. الى « بارودى » بالذات !.. وكانت توقن ان بارودى سيكون قاسيا فى غرامه ، وانه لن يخضع نفسه لامراة .. ومع ذلك فان نفسها هفت الى ان تكون جاريته ، وان تعيش فى حريمه ، وتتقلب فى ثرائه ونعيمه !

* * *

◆ وتدلهت مسز ارماين فى هوى الشاب المصرى « محمود بارودى » ، الذى كان ينحدر من اب تركى الأصل وام يونانية .. واذا كان مولد توامى لورد هارويتش ـ شقيق زوجها ـ قد حرمها من الأمل فى ان تغدو يوما « مركيزة » او « كونتة » ، وان تنتقم لكرامتها من المجتمع الانجليزى الذى ازدراها فى ترديها ـ قبل زواجها من نيجل ارماين ـ فقد رات ان تستعيض عن ذلك النصر بحياة توافق ميولها الخاصة .. حياة تستجيب فيها لنداء البدن ، وللأطماع المادية !.. ولم يكن من سبيل الى ذلك مع « نيجل » .. ولا سبيل اليه أيضا مع « بارودى » مادام « نيجل » على قيد الوجود . ولكنها لم تعد تقوى على التحول عن « بارودى » الذى اخذت توافيه فى لقاءات سرية يقودها اليها خادمها ابراهيم والمكارى حمزة ، اللذان تبينت أنهما كانا من صنائع الشاب الشرقى الداهية .. قط ما كانت تتصور انه ما زال فى أعماقها مثل هذا الاستعداد القوى للتأثر بالعواطف والنزوات الضارية !.. وكانت تشعر كانها فراشة حبيسة شبكة من نسج بارودى .. والقدر ! ولكن بارودى لم يطلعها قط على ما كان يدبر ، فقد كان من رأيه ان الرجل الشرقى لا يجب

ان يطلع النساء على أسراره ٠ على انه حملها على ان تتخلص من وصيفتها الفرنسية ، ثم ان تغرى زوجها على استئجار « اللولية » ـ دهبية بارودى الرائعة ـ والانطلاق فى نزهة طويلة على النيل

وفجاة ، مرض « نيجل » ٠٠ وقيل انه أصيب بضربة شمس ، ولكن الدكتور « ماير ايزاكسون » شعر بشىء من القلق ٠٠ ورابه ان « نيجل » كان قد كتب اليه قبل ذلك مباشرة يؤكد له سعادته ، ويضرب الأمثلة على وفاء زوجته ٠٠ وكان من هذه الأمثلة ان مسز ارماين قد طردت وصيفتها الفرنسية !٠٠ فلماذا ، وكيف ٠٠ وهى التى لم تستغن من قبل ـ فى حياتها ـ عن وصيفة ؟٠٠ ثم ، ما هذا المرض الذى بلغه انه أوهن نيجل الى حد كبير ؟

وبدأ « ايزاكسون » يشعر برغبة قوية فى السفر الى مصر !

.. ..

والآن ٠٠ تعال نقرأ معا القسم الأخير من هذه القصة « الضخمة » :

بيلاّ دُونّا

للروائى الكبير "روبرت هيتشنز"، مؤلف حديقة الله

الجزء الثالث والأخير

تتضمن هذه الطبعة الترجمة الكاملة الأمينة للقصة كما كتبها مؤلفها ، دون أى تصرف أو اختصار لأى سطر أو لفظ فيها !

المترجم

الفصل الثامن والعشرون

◆ كان اليوم التالى يوم الأحد ، فلم يكن ماير ايزاكسون مقيدا بمرضى أو بمواعيد ، اذ كان يستبقى هذا اليوم متعمدا ليدرس عددا من الخطابات ويجيب عليها .. كان يدفع ضريبة نجاحه العظيم ، فقد غدا واحدا من أكثر الناس عملاً فى لندن . وكان فى بداية العام الجديد قد نبذ قاعدته التى ظلت حتى ذلك الحين محترمة ، فأصبح يستقبل مرضاه حتى الساعة السابعة والنصف ، فى معظم الأيام ، وقل تناوله العشاء خارج منزله .. ونادرا ما كان يرى فى الحفلات الموسيقية أو المسارح .. كان النجاح أشبه بوحش هائل أطبق عليه قبضته وحرمه من كل لهو أو متعة فى الحياة ، فقد أخذ عمله يزداد مشقة ، وراحت مكاسبه تتضاعف ، ومضى يرتفع قدما الى قمة مطامعه !.. فدعى ـ منذ عهد غير بعيد ـ الى البلاط الملكى للمرة الأولى فى حياته ، حيث نال الاطراء على خدماته الفنية وعلى شخصيته نفسها ، وأصبح المستقبل يكفل له ـ بلا ريب ـ لقبا من ألقاب النبل .. وتسابقت أرفع طبقة فى المجتمع

الى استشارته .. أجل ، لقد ارتفع درجات منذ سفر آل ارماين. وكانت رغبته القوية فى «الوصول»ـ وكان «الوصول» فى رأيه يعنى أكثر بكثير مما يعنيه فى رأى معظم الرجال ـ ومتعته الجارفة فى ان يضاعف ثروته، تدفعانه باطراد الى الأمام!.. **وكان فى سويعات فراغه القليلة يعكف فى دأب وأناة على تأليف كتاب عن السموم ، الكتاب الذى كان يعد عناصره فى ايطاليا خلال أجازته الماضية .. وكان ينوى أن يكرس له بضع ساعات فى هذا الأحد ، ولكنه كان مضطرا الى أن « يخلص » من خطاباته المكدسة أولا**

وما ان فرغ من تناول افطاره ـ فى سرعة ـ حتى اعتكف فى حجرة مكتبه . وكانت لندن تبدو ساكنة الى حد غريب .. كان المرء ـ حتى بين هذه الجدران الأربعة ، ودون القاء نظرة على العالم الخارجى ـ يشعر بأن اليوم يوم أحد ، ويشـعر كذلك بأن الناس جميعا قد خرجوا من المدينة .. وكانت تخيم على العاصمة الساكنة غلالة من غيوم سنجابية اللون . فأضاء ايزاكسون النور الكهربائى ، ووقف أمام النار لحظة ، ما لبث بعدها أن ذهب الى مكتبه .. وكانت الخطابات التى يعتزم الرد عليها مرتبة فى كومة واحدة ، الى يمين حافظة النشاف ، وقد وصل عدد منهـا ـ بل معظمهـا ـ من اناس يرغبون فى استشارته ، أو من مرضى يكتبون له عن احوالهم .. ولكنها كانت تعنى المزيد من المال .. وكان بعضها مما يرد عليـه ببطاقة مطبوعة ، ليس عليه الا أن يضيف اليها اسما وتاريخا ، فكان لذلك عملا رتيبا ، متصلا ، أخذ الطبيب يؤديه فى سرعة وخفة .. كان حشوا لبضع ساعات من حياته يجدها دانية فى متناول يده !.. وجلس فى مقعده ، وتناول حزمة من الاستمارات المطبوعة وقلما ، وضعهما أمامه ، ثم فتح واحدا من الخطابات فاذا فيه :

« ٤ شارع مانتون ــ مايفير

« .. يناير

« عزيزى الدكتور ايزاكسون : ان صحتى ... الخ ، الخ . »

ثم فض خطابا آخر ، فاذا فيه :

« ٢٠٠ بارك لين

« .. يناير

« عزيزى الدكتور ايزاكسون : لست أدرى ماذا دهانى ، ولكن ... الخ ، الخ . »

وتناول ثالثا فوجد فيه :

« ١ . س ــ ميدان بركلى

« .. يناير

« عزيزى الدكتور ايزاكسون : ان ذلك الشعور الغريب الذى كنت أحس به فى رأسى ، قد عاودنى من جديد ، وبودى أن أراك بشأنه ... الخ ، الخ . »

★ ★ ★

• **وكان** من عادته ان يجيب على مثل هذه الخطابات بنشاط وحمية ، دون برم أو نفور طبعا !.. كانت كلها من الخطابات التى يريدها ، وقلما كان يستكثرها !.. ولكنه اليوم أحس بشىء من السأم والكلال ، بل ماهو أكثر من السأم والكلال .. انه نوع من حدة الطبع وضيق الخلق والثورة على الحياة التى اختارها لنفسه والتى كان يلقى فيها نجاحا عجيبا !.. المرض والمرض دائما : الوجوه المتقعة الشاحبة ، والأعصاب المختلة ، وعسر الهضم ، والكآبة والانقباض ، وفقر الدم .. كل هذه الجحافل من الأمراض التى تكرب الانسانية كانت تتوافد دائما على حجرته .. يالها من صحبة يضطر اليها انسان ! .. يالها من صحبة حقا !.. وما لبث أن أزاح الأوراق من أمامه بغتة ، ووضع قلمه ، ثم نهض قائما .. وكان يعلم حق العلم ما الذى

شغل باله !.. انه ذلك الخطاب الذى تلقاه من النيل ! .. لقد أزعجه ــ فى بادىء الأمر ــ من ناحية واحدة ، ولكنه الآن يزعجه من ناحية أخرى .. **كان الخطاب نداء له من أرض يعرف أنه لا بد أن يحبها .. نداء من مكانه الطبيعى ، فقد كان أجداده من يهود الشرق ، بل ان بعضا منهم كان يقيم فى القاهرة .. كان نداء من أرض الشمس المشرقة .. انه ليذكر الآن ليلة كان يتحدث فيها مع نيجل عن مصر ، فقال نيجل : « يجب ان تذهب الى هناك .. انك ستكون فى مكانك الطبيعى هناك ! »**

فماذا لو أنه ذهب الى هناك ؟.. ماذا لو أنه ذهب فى أقرب فرصة .. بل حالا ، فى هذا الربيع ؟

ولكن كيف يستطيع أن يترك عمله فى الربيع ، وهو الفصل الذى يعود فيه كل امرىء الى المدينة بعد موسم الأجازات ؟.. وأجاب بنفسه عن هذا السؤال مسفها حيرته، فالناس فى الربيع يذهبون الى الخارج : الى الهند ، الى صقلية ، الى الريفييرا ، الى النيل .. آه ! هاهو ذا يعود الى النيل من جديد ! .. ولكن كثيرا من الناس لا يرحلون الى الخارج . وقد يكون من الجنون لطبيب راق أن يرحل بعيدا ، عند حلول الموسم بالذات .. حسنا .. انه مع ذلك يستطيع أن يرحل لفترة قصيرة .. اسبوعين مثلا ، أو شيئا من هذا القبيل .. ليلتين من لندن الى نابولى .. وليلتين فى البحر باحدى البواخر الجديدة السريعة .. « هليوبوليس » مثلا .. ثم ساعات قليلة فى القطار ، واذا به فى القاهرة ! ...وستحمله رحلة خمس ليال الى الشلال الأول .. وسيكون وقتئذ فى غمرة الضياء الحقيقى!

وراح يحدق النظر فى المصابيح الكهربائية التى تتألق على جانبى المدفأة ، ثم انثنى ينظر صوب النوافذ ... تلك المستطيلات الجامدة التى تشرف على الضباب وظلمة النهار ! .. **الا ما أطيب هذا الأمر ! .. ما أطيب أن يكون المرء فى غمرة الضياء الحق !**

وكان خطاب نيجل موضوعا فى مكان ما تحت خطابات المرضى ، فعاد الطبيب الى مكتبه وبحث عنه حتى وجده .. ثم رجع الى المدفأة ثانية وأخذ يدرس الخطاب من جديد : « هل تذكر عودتنا سيرا على الأقدام الى منزلك بعد الحفلة الموسيقية فى تلك الليلة ، وكيف أننى قلت : « شد ما أود أن أذهب الى النور .. النور الحقيقى » ؟ .. حسنا ، اننى فى غمرته الآن .. وشد ما أود لو تستطيع أنت وكل انسان غيرك أن يأتى اليه أيضا ! .. تعال الى النيل عندما تأخذ الأجازة المقبلة » ! .. ان ذلك يكاد أن يكون دعوة له للذهاب .. ليست دعوة تماما ، ولكنها تكاد أن تكون كذلك ! .. وخيل الى ايزاكسون انه قد حدس ان الرجل الذى كتب ذلك كان يتمنى أن يحضر صديقه ليشهد بنفسه دلائل سعادته ، ولكنه لم يجرؤ تماما على ان يسأله الحضور صراحة، لأنه ـ كما خيل اليه ـ كان يوجس من ذلك التأثير المعادى له ـ أى لايزاكسون ـ والذى كان الكاتب خاضعا لسلطان صاحبته، مما منع قلمه من الانطلاق، وقيد عقاله !

« ترى هل تعرف هى بأمر هذا الخطاب ؟ » .. خطر هذا السؤال ببال ايزاكسون.. كانت كلمات الخطاب الاخيرة تشير ضمنا الى أنها كانت تعرف به ، وقد كان فى نية نيجل أن يخبرها عنه ، ولا بد انه اخبرها عنه فى ذات اليوم الذى كتبه فيه .. ولو أن ايزاكسون ذهب الى النيل ، لوجد على النهر شخصا لا يمكن أن يرحب بمقدمه ! .. كان يعرف ذلك جيدا ! .. بل لعل نيجل نفسه لم يكن يود ذهابه حقا ، فان السعداء من الناس لايودون ان يحضر اصدقاؤهم من الخارج ليقتحموا الدائرة السحرية ويقاسموهم سعادتهم!.. ولربما طلبوا اليهم ذلك بدافع من الطيبة والمجاملة، بل لقد يخيل اليهم انهم يتمنون حضور هؤلاء الأصدقاء ، بدافع من الحماس الوقتى .. ولكن السعادة الحقة انما تجد لذتها فى ان تكون مانعة ، وأن تكون

منطوية على لذاذاتها !

« ان ارماين يود أن أذهب لأرى أن كل شيء على ما يرام .. وعندئذ ، عندما أكون قد رأيت ذلك ، فسوف يتمنى أن يركلنى بقدمه خارجا » .. وعلى هذا النحو من التفكير ، لخص ايزاكسون شعور نيجل الحقيقى حياله فى تلك اللحظة . . وما كان ذلك ليستحق ان يتجشم عناء الرحلة من انجلترا ليرضى مثل هذه النزوة لدى الاناني السعيد ! .. من الخير ان ينحى الفكرة جانبا، فقد كانت فكرة غير عملية .. و .. « وفضلا عن ذلك فانها فكرة مستحيلة ، لا ينبغى التفكير فيها »

وعند هذا الحد عاد الطبيب الى مكتبه ، وبدا يجيب فى عزم راسخ على خطاباته ، ويحدد المواعيد لأصحابها .. وظل يكتب ويكتب حتى فرغ من الرد على جميع الخطابات .. عليها جميعها عدا خطاب نيجل أرماين ! .. وعندئذ عاودته من جديد تلك الرغبة القوية فى أن يجيب على هذا الخطاب بشخصه .. أن يظهر ذات صباح على ضفة النهر حيث ترسو تلك الـ .. ترى ما اسمها ؟ . . آه !.. « اللولية » ، وان يصعد الى سطحها فيقول : « اننى أهنئكما على سعادتما » ! . . لشد ما ستكون دهشة صديقه وذهوله ! ولكن .. غريمته .. ترى كيف يكون شكل وجهها عندئذ ؟

لقد كان ايزاكسون يعد مسز أرماين غريمة له ؛ اذ أقحمت نفسها على حياته لتتجسس عليه .. وقد أحس أنها منذ اللحظة الأولى .. منذ أن رأته ، قد كرهته ! .. ولقد انتصرت عليه ، وهى تعرف ذلك . ولكن ، لعلها الآن ــ وبسبب علمها بذلك ــ تحاول أن تحبه قليلا ، ما دامت قد ربحت قضيتها ضده ! .. ولكن هل ربحتها حقا ، لاسيما وقد رزق لورد هارويتش وريثا ؟

وفيما كان ماير ايزاكسون يجلس وأمامه خطاب نيجل ، انبعث فى أعماقه فضول حاد قوى .. لم يكن فضولا من النوع

المبتذل العادى ، وانما كان ذلك الفضول الذى يستشعره العالم النفسانى نحو الطبائع البشرية الغريبة ! .. فمنذ أن غادر آل أرماين لندن ، وعلم بزواجهما ، كان ايزاكسون كثير التفكير فيهما ، ولكنه كان تفكيرا غامضا مبهما .. كما يفكر المرء فى أناس خرجوا من دائرة حياته لوقت ما ، فقد كان عليه أن يركز تفكيره فى أعماله الخاصة .. أما الآن ، بعد هذا الخطاب ، فعلى الرغم من المسافة الشاسعة التى كانت تفصله عنهما ، الا أنهما كانا يبدوان قريبين منه تماما!.. وانبثقت فى ذهنه كل ذكرياته عن علاقته بهما .. ذكريات مليئة بالحياة ، تكاد أن تكون ضاربة صارخة ... وذكر بوجه خاص تلك المرأة البارعة ، واستدارة وجهها الجميل، والنظرة التى تلوح فى عينيها فتناقض الصورة الرائعة لجانب محياها ، وابتسامتها الساخرة ، والرنين الساحر الذى يتردد فى صوتها المتراخى .. كما ذكر زيارتيه لها ، وكيف كانت تتحداه فى الخفاء ! .. واستعاد فى ذاكرته – فى وضوح وجلاء – تلك الهيئة التى بدت عليها عندما كان يودعها فى المرة الأخيرة ، قبل أن تتزوج من نيجل بثمانية أيام . كانت وقتئذ تقف بجوار المدفأة ، فى ثوبها الوردى ، وحلقات دخان السجاير تدور حولها وتحلق فوقها .. وكانت تبدو جميلة فاتنة فى انتصارها الخفى .. ولكنه وهو يمضى خارجا ، لاحظ تلك الغضون الخفيفة التى كانت حول عينيها، وذلك الجفاف الطفيف الذى كان يكسو وجنتيها ، وذلك الذبول المجونى الذى كان يلم بركنى فمها !

وكان قد ذكر هذه الأشياء كلها عند ما علم بزواجهما ، وعندئذ توقع الكارثة !

* * *

◆ **وأخذ** يتحسس خطاب نيجل ، ثم تناول قلمه ليجيب عليه .. اذ أنه لم يكن ثمة مناص من ايفاد رسول عنه،

ما دام لن يقوى على أن يجيب بشخصه فيفاجىء صديقه بزيارته !.. على أن السكون الموحش الذى خيم على لندن فى ذلك الأحد أكربه وضايقه .. وألفى نفسه يرهف السمع فى شيء من القلق ، وكأن هذا السكون ضجيج عال خيل اليه انه مضطر الى مكافحته قبل أن يقوى على الكتابة الى نيجل فى صدق واخلاص . فقد كان فى هذا السكون المظلم ، المليء بالضباب ، شيء يكاد يشل الحواس !

ترى لماذا كان يكدس الأموال ، ويتشبث بالشهرة ، ويسلم نفسه للسجن بين جدران مسكنه ، فى هذه المدينة المحرومة من الشمس ؟ ولماذا كان يجيع حبه للمال ، وحبه الغريزى للمغامرة ، وشعوره السريع بالانسياق للخيال ؟!.. ولكن ، ألا يزال هذا الشعور سريع الاستجابة ؟.. ان الأهواء التى لا تلقى تشجيعا ، لا تلبث ان تتلاشى ويقضى عليها احيانا !.. ولقد كان فى الواقع يجيع الكثير من أهواء نفسه ، عن عمد واصرار! .. **وعاودته الرغبة فى أن يخلى السبيل لاحدى رغباته القوية ، وأن ينسى – للمرة الأولى – أنه رجل يعيش تحت نير نظام صارم فرضته عليه عزيمته الصلبة .. أو أن يثور على هذا النظام!..وبدت أفكاره للحظة وجيزة أشبه بأفكار واحد من صبية المدارس .. ألا ما أجمل ذلك حقا !**
ما أجمل أن يعد حقائبه فى عجلة ، وأن يقول لخادمه هنرى ، الذى ستعقل الدهشة لسانه : « أطلب لى عربة كبيرة ! » .. ثم يستقل العربة الى (شارنج كروس) .. ويلى ذلك شحن الأمتعة ، ثم ركوب القطار السريع مجتازا المناظر المطيرة ، ثم يمتد امامه البحر السنجابى الى ... وها هى ذى نابولى. ثم بحر أزرق ، وجبال (كريت) ، وسفوح (زانتى) الحديدية .. واخيرا ميناء ضاحكة، بها زوارق ذات قلوع مثلثة منتفخة، يقودها رجال سمر معممون .. ثم تلك البيوت البيضاء ؛ ذات الأسقف المنبسطة ، ثم .. النخيل . لسوف يكون ذلك

جميلا ! سيكون رائعا فاتنا !.. ولو أنه رد على خطاب نيجل ، فلن يستجيب لتلك الرغبة قط .. أما اذا لم يجب عليه ..؟!

وبعد تردد طويل ، نحى الخطاب جانبا ، ثم أخرج من احد الأدراج مخطوطات الكتاب الذى كان يؤلفه ، وبدأ يعد نفسه للعمل . وسرعان ما نسى أن اليوم من أيام الآحاد فى لندن ، بل انه نسى كل شىء عدا انه كان منصرفا الى العمل . ولكنه فى المساء ، وبينما كان يتناول العشاء بمفرده ، عاوده ذلك الحنين الى السفر . وعلى الرغم من أنه قال لنفسه انه لن يستسلم لهذا الحنين ، فانه لم يجب على خطاب نيجل . . ومع أنه كان يشعر بأنه بعدم الاجابة عليه انما يدع الباب مفتوحا امام متعته المحتملة ، الا انه لم يجب على هذا الخطاب قط !

وراحت الأيام تمر تباعا ، وراح هو يعمل فى نشاط جبار لا يلين ولا يسترخى . وكان يبدو شديد العناية بمرضاه ، شديد الاهتمام بشئونهم ، مثلما كان فى الماضى . ولكن ذهنه ظل –طيلة جلوسه فى حجرة الاستشارة، واصغائه الى وصف الأعراض ، وتقديمه النصائح والوصفات – يداعب فكرة الحصول على عطلة فى هذا الربيع ، يقضيها فى مصر !.. وكان ذا خيال حار شديد التحمس ، وان كان يحرص عادة على كبح جماحه . على انه أخذ الآن يطلق له العنان .. **ففى أشد الأيام حلكة ، كان يرى نفسه فى ضوء الشمس الساطع ! وكان اذا نظر الى الأشجار العارية المجردة – فى الحدائق – تمثلها وقد تبدلت فى لحظة واحدة الى نخيل أثقلتها الثمار .. بل انه كان يسمع الرياح الخفيفة وهى تداعب سعفها ! كان يخال اذ ذاك أنها تتحدث اليه من جوف الصحراء !** .. وما اذاقه خياله من قبل مثل هذه المتعة الواضحة الملموسة .. فهل ارتد طفلا صغيرا من جديد ؟ انه ليكاد يخال ذلك !.. آه لو عرف مرضاه حقيقة ما كان يعتمل فى نفس الرجل الذى

كانوا يرجون أن يقودهم الى الصحة ! آه لو علموا بشطحات خياله وهم يبوحون له بأمانيهم وهمومهم ! ولكن وجهه كان جامدا لا ينم عن شيء . لم يكن يصيح فى وجوههم : « أننى الآن فى مصر ! » ، ومن ثم لم يخالجهم الانزعاج قط .

* * *

◆ **وتسلل** فبراير موليا أعقابه . ولو أن ايزاكسون كان قد عقد النية على الذهاب الى مصر بالفعل ، لما وجب أن يؤخر سفره .. فهل كان ينتوى الذهاب ؟.. لقد ظل طويلا وهو يتمثل هذا الحلم البهيج .. حلم الرحيل الى الشمس ، بحيث بدأ يقول لنفسه انه قد لقي ــ فى خياله ــ المتعة التى كان ينشدها ، وأن عليه الآن أن يقر فى مكانه راضيا مرضيا ! بل انه حدث نفسه بتلك الأكذوبة الشائعة التى تؤكد أن التفكير فى الشيء أوفر متعة مما يمكن أن يكون عليه الشيء نفسه ، ومن ثم فان مصر الحقيقية سوف تبعث فى نفسه شيئا من خيبة الأمل ، بعد مصر التى تخيلها فى أحلام الشتاء التى كانت تراوده ! وعندئذ استقر عزمه على ألا يذهب ، بل اقتنع بأنه لم يكن ينتوى الذهاب قط !

وفى اليوم الذى اتخذ فيه قراره هذا ، تلقى خطابا من احدى مريضاته ، وكان قد بعث بها لتقضى الشتاء فى ربوع النيل ، فكتبت اليه من (الأقصر) تخبره ببعض التفصيلات عن حالتها . وأخذ يقرأ خطابها فى عناية وتمهل . وقبل أن يبلغ ختام حديثها ــ الذى كانت تسوده روح الدعابة والهزل ــ انطلقت السيدة فى الثرثرة ورواية بعض الفضائح الصغيرة التى صادفتها بالفنادق المختلفة، ثم اختتمت خطابها بهذه الفقرة :

« وقد أثار وصول دهبية رائعة ــ تسمى اللولية ــ الى هنا ، ضجة شديدة .. فهى ، كما علمت ، أجمل مركب

على النيل ، ويتوق كل انسان هنا الى الصعود عليها . ولكن ليست هناك أية فرصة لأحد منا كي يفعل ذلك ، لأنها — أولا — ترسو على الضفة الغربية للنهر .. الضفة التى تقع بها طيبة . ولأنها ، ثانيا ، مؤجرة طيلة الموسم لنيجل ارماين وزوجته ! **ولا شك أنك تذكر أن مسز ارماين هى التى كانت تدعى مسز تشبستو ، وانها لذلك منبوذة منا تماما .. ولعلها وقد تزوجت الآن ثانية تظن أن فى وسعها أن تختلط بالناس ، ولكنها لن تجد من يرحب بها مطلقا ! ..** ولربما كان ذلك ممكنا لو أن الحظ قدر له أن يواتيها يوما ، فتصبح « ليدى هارويتش » ، لان مركزا عظيما كهذا قد يدعو الناس الى تعديل افكارهم ، لا سيما وان المرأة قد تزوجت الآن . ولكن من العبث الحديث فى هذا الشأن الآن ، اذ وجه التوأمان — اللذان رزقهما لورد هارويتش — ضربة قاضية الى مثل هذا الاحتمال . ويقال انها جنت غضبا عندما سمعت بهذا النبأ . ويبدو ان زوجها لم يكن قد أشار الى هذا الأمر — تصريحا أو تلميحا — قبل الزواج . فياله من رجل عاقل ! لابد أنه كان يعرف صاحبته مسز تشبستو تماما !.. ومهما يكن من أمر ، فمن الواجب ان نعطى الشيطان حقه ! لذلك أذكر أننى سمعت أنها تبدو شديدة الاهتمام بزوجها . **وقد لمحته لحظة — منذ أيام ، وكنت أعبر النهر فى طريقى الى مقابر الملوك — فكان يبدو فى أشد حالات المرض ، كما كان وجهه شاحبا بدرجة غير مألوفة ، أو هكذا خيل الى ! أما هى فلم أرها ، ولكن يقال انها تبدو أصغر سنا مما كانت عليه فى أى يوم ، وأشد فتنة وجمالا مما كانت فى لندن . ولا ريب أن الزواج يلائمها ، ولو انه يبدو غير ملائم له هو .. » الخ . الخ .**

وصل هذا الخطاب فى بريد المساء ، فقراه ايزاكسون بعد أن فرغ من عمله اليومى .. وما أن أتم تلاوته ، حتى أخرج

من أحد الأدراج خطاب نيجل – الذى كان محتفظا به – وأخذ يقارن بين الخطابين .. ولم يكن من الضرورى أن يفعل ذلك ، فقد كانت كلمات نيجل منقوشة فى ذاكرته ، دون أن أن يدرى لذلك سببا أو تعليلا !.. وأحدثت رؤية الخطابين – جنبا الى جنب – فى نفسه أثرا قويا بغيضا . ولعله ، وهو يقارن بينهما على هذا النحو ، كان يبحث فى غير وعى أو شعور عن هذا الأثر !

« ما كنت قط من قبل طول حياتى فى مثل هذه الصحة الرائعة »

« .. كان يبدو فى أشد حالات المرض ، كما كان وجهه شاحبا بدرجة غير مألوفة »

فما الذى حدث بين كتابة الخطاب الأول وكتابة الخطاب الاخير .. خطاب نيجل ، وخطاب المريضة ؟ ما الذى احدث هذا التغيير ؟ .. وما لبث ايزاكسون – بعد دقائق – أن أودع الخطابين درج مكتبه ، ثم أغلقه فى رفق .. وكان قد تناول طعام العشاء ، وأصبح الليل ملكا خالصا له ، فأمر بأن يؤتى اليه بنرجيلته ، كما أخبر هنرى بأنه لا يود أن يزعجه أحد !

ولم يكن – منذ تلك الليلة من ليالى الخريف ، عندما قال له نيجل عن مسز تشبستو : « انها تتحدث عن الحضور الى مصر فى الشتاء » – قد تناول بيده ذلك الخرطوم الطويل الشبيه بالأفعى .. فلم يكن يلجأ الى النرجيلة الا عندما يكون عقله متيقظا بصفة خاصة .. عندما ينبض بالحيوية والانفعال ، وعندما يريد هو أن يدفع هذه الحيوية الى أقصى حدودها .. **عندئذ كانت يداه وشفتاه تحسان بالحاجة اليها ، بل ان عينيه كانتا تحتاجان اليها كذلك !.. كانت أنفاس الشرق تتردد فيه ، فتحرك الغرائز الموروثة ، والاحتياجات الموروثة ، وتبعث فيها الحياة .. وأطفأ الأنوار الكهربائية كلها ، وجلس فى وهج النار الخافت ، ثم تناول مرة ثانية – وفى شوق بالغ –**

خرطوم النرجيلة الأفعوانى بين يديه ، وأخذت المياه تقرقر فى « **الجوزة** » . . وكانت رئتاه تمتلئان بدخان « التمباك » اللذيذ ، ولا يلبث أن ينفثه من خياشيمه فى سحب متكاثفة !.. كانت لندن لاتنام ، وهو جالس فى مكانه لا يتحرك .. وكان نشاط عقله الزاخر الدؤوب يكاد ينطلق من عينيه المتألقتين ، ولكن لم يكن ثمة أحد ليرقبه .. لم يكن معه ثمة أحد ليعجب به أو يخشاه !

واخيراً ، وفى أعمق أعماق الليل ، نهض عن مقعده ، ثم جلس أمام مكتبه وأخذ يعمل حتى كاد الصبح أن يتنفس .. راح يكتب خطابات اعتذار للمرضى ، الذين كان يبحث عن أسمائهم فى دفتر مواعيده ، ويبحث عن عناوينهم فى الدليل أو فى الخطابات التى احتفظ بها منهم .. ومضى يدون حساباته ، ويدرس حسابه فى المصرف ، ويكتب الى مصرفه وسمساره ، والى المستشفيات التى كان متصلا بها ، والى الجمعيات الخيرية التى كان يتردد عليها .. وظل يقوم بهذه الأعمال وغيرها مما كان يمكن حقا — أم تراه لم يكن ممكنا ؟! — أن ينتظر حتى النهار !.. وما أن دبت الحركة فى المنزل أخيراً ، منبئة باستيقاظ الخدم ، حتى ضغط الجرس بأصبعه الطويل ، فواتاه هنرى فورا ، وهو يحاول أن يخفى نظرة الذهول التى تبدت فى عينيه .. فقال الطبيب : « أود أن يسلم هذا الخطاب الى مكتب « كوك » بميدان بيكاديللى حالما تفتح أبوابه .. ويجب على الرسول أن ينتظر الرد ! »

ومد اليه يده بخطاب .. فقال هنرى : « حسنا يا سيدى ! » . فعاد يقول : « وهذه الخطابات كلها يجب ارسالها بالبريد » . وأجاب الخادم من جديد : « حسنا يا سيدى » . فاستطرد يقول : « وعليك أن تأمر آرثر بأن يعد لى الحمام » .. ثم نهض واقفا وهو يقول : « سأستقبل المرضى اليوم ، ولكنى سأغادر لندن غدا أو بعد غد على

الأكثر .. سأذهب الى مصر بضعة أسابيع ! » .. فران الصمت لحظة ، ثم نطق هنرى بعبارته التقليدية ، فغمغم قائلا : « حسنا يا سيدى ! »

ثم استدار ومضى نحو الباب فى بطء شديد ، وقد انحنت كتفاه وكأن السماء قد سقطت .. فوقهما !

الفصل التاسع والعشرون

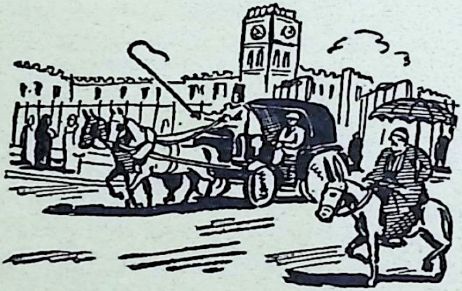

◆ رفض ايزاكسون ان يستقل الحافلة (الامنيبوس) التى اعدها الفندق لنزلائه فى محطة القاهرة ، واستقل الى فندق « شبرد » عربة « حنطور » يجرها جوادان هزيلان اشهبان طويلا الذيل والمعرفة ، ويقودها حوذى وطنى امتلأ وجهه ببثور الجدرى القديمة ، وقد وضع على راسه الطربوش ، بينما ارتدى زيا اوربيا !.. وكانت الساعة قد شارفت الثالثة بعد الظهر ، وزخرت شوارع المدينة ـ المثيرة المغرية ـ بالجماهير من كل جنس . وكان ايزاكسون يجلس منتصب القامة ، يتطلع حواليه بعينين تفيضان باللهفة والتشوق ، وقد سرى فى كيانه انفعال اخذ يهزه هزا ، اذ كانت هذه هى المرة الاولى التى يتذوق فيها الحياة الشرقية .. فما سبق له قط من قبل ان وضع قدمه فوق « عالمه ومكانه الطبيعى » كما كان يسميه !.. وعلى الرغم من النشوة التى كان التجديد ينثرها فى جوانحه نثرا ، فقد خالجه شعور عجيب من السعادة والارتياح لوجوده فى « موطنه » !.. وكان يرى هنا وهناك بيوتا ذات واجهات ناصعة البياض ، تتمايل امامها فروع النخيل .. بيوتا ادرك انه خليق بان

يجد فيها راحته .. يجدها فى الأفنية الفسيحة ، والدرج المستقيم ، وسقوف القرميد ، والفسقية ، والأبسطة الصغيرة ، والأرائك .. والبـاب القاتم ذى النقوش البارزة ، والحاجز الخشبى العريض الذى يحجب الاقسام الداخلية .. انه لم يلج قط مثل ذلك المنزل الذى يقع هناك الى اليسار - مثلا - ومع ذلك فقد خيل اليه انه يعرفه حق المعرفة !

وهذا الحشد من رجال الشرق ذوى العيون السوداء الحادة البراقة ، والعيون المثقلة الجفون بالنعاس ، والعيون المتوهجة بنيران الجشع الصفراء .. هذا الحشد من ذوى البشرة الصفراء ، والبشرة السمراء ، والبشرة السوداء .. من ذوى الأيدى الدقيقة المعبرة ، والاظافر المصبوغة بالحناء ، والمعاصم النحيلة البارعة .. هذا الحشد الذى تنطلق الكلمات من أفواهه فى سرعة وغزارة ، والذى يكثر من الايماء والاشارة بوجهه ويديه ، والذى يتفرس متأملا فى غير وعى أو ادراك ، مستخلصا النتائج فى غير شفقة أو رحمة ، والذى تأخذ عيناه كل شىء ولا تعطيان شيئا !.. أفليس من المحتمل ان يعثر - للمرة الاولى - على نفسه التائهة ، لو انه نبذ وسائل الراحة والمباهج المستعارة من أوربا ، وغادر العربة فاندس وسط هذا الحشد ؟!

وشعر بالأسف عندما وقفت به العربة أمام شرفة الفندق العظيمة ، ولكن صلاته الروحية بتلك المناظر لم تنقطع .. ووضحت له هذه الحقيقة ، فى شعور من الجذل والطرب ، داخله عندما نزل من غرفته بين الرابعة والخامسة - من بعد الظهر - واتخذ مجلسه فى الشرفة الى جانب السياج الحديدى

- أتريد شيئا يا سيدى ؟

فأومأ برأسه ايجابا للساقى الألمانى الذى عرض عليه خدمته .. وكانت احدى الفرق الموسيقية تعزف فى مكان ما قطعا أوربية ، ولكنه قرر ان يبحث فى الأحياء الوطنية - فى تلك الليلة - عن ألحان الشرق المشجية الخافتة التى تشبه الأنين !

وجىء اليه بالشاى .. ودنا منه وطنى يبيع الصحف ، فعرض عليه صحيفة فرنسية اسمها « سفنكس » تصدر فى القاهرة ، وبعض الصحف اللندنية كالتايمز والمورننج بوست ، فابتاع اثنتين او ثلاثا منها وهو شارد الذهن .. وكان قلما ينتابه الشرود ، أما الآن - وهو يرشف الشاى الساخن - فقد كان الانفعال الذى سرى بين جوانحه ممزوجا بشىء آخر بدا مبهما غامضا مختلط المعالم ، وان كان - مع ذلك - لم يخل من نوع من السحر اللذيذ !.. وكانت تتدفق بجوار السياج ، امام ايزاكسون وتحته ، دنيا زاخرة بالكثير من احلامه واخيلته .. أحلام النرجيلة واخيلتها ! كما ان قراره الفجائى بالحضور الى مصر ، وهو نصف ما فى هذه الرحلة من سحر وفتنة ، قد جعل

من وصوله للقاهرة عجيبة من العجائب ، وأحيا فى أعماقه مرح الصبى ولهفته، وان كان يقف الى جوار الصبى ، الرجل الحالم الخيالى !

كانت الشرفة ، بطبيعة الحال ، حافلة بالبشر .. كان الناس من مختلف الأمم يجلسون خلف ايزاكسون وحواليه ، وينطلقون صاعدين هابطين فوق ذلك الدرج العريض الذى يصل ما بين الشرفة والطريق ، محملقين بانظارهم ، ملوحين بأيديهم ، لا يكفون عن الثرثرة .. وانبعث هنا وهناك رنين الأطباق وصليل الآنية .. كانت الفتيات المحجبات بخمر طويلة يأكلن الكعك والحلوى، ويلكن فى أفواههن المثلجات الوردية أو الخضراء الفاقعة أو التى بلون اللوز ! .. اما السيدات المتقدمات فى السن ، فكن يجلسن فى مقاعد منخفضة من الخيزران ، وقد استغرقن فى الفرجة والمشاهدة كأنهن تماثيل تجردت من الحياة !.. وكان علماء الآثار يتجادلون ويتناقشون ويهزون أصابعهم السبابة التى لوحتها شمس الصحراء الساطعة بسمرة داكنة ، بينما كان رجال الاعمال الامريكيون - القادمون فى اجازاتهم - يدخنون سيجارهم الضخم ويدعون أصدقاءهم الذين حضروا من نيويورك أو بوسطن أو واشنطن ، الى العشاء ! امتلأوا بالمرح والحيوية ، وانطلقوا وراء التجارب !.. ولم تكن العربات تكف .. وكان الفتيان الأوربيون يروحون ويجيئون - فى ثيابهم الأنيقة - وقد عن القدوم والوقوف ثم الانصراف ، بينما انهمك رجل وطنى - نحيل الجسم ، أشيب الشعر ، يرتدى حلة رسمية جميلة - فى تسجيل الساعات والمبالغ والأعداد فى سجل غامض ملىء بالاسرار !.. بيد أن ماير ايزاكسون كان مستغرقا فى مراقبة الشرقيين الذين كانوا يقبلون ويمضون فى الطريق الملىء بالضجيج ، فلم يعن بان يتأمل حشود السياح ، لعله يرى بينهم احدا يعرفه ، من مرضاه أو أصدقائه أو أعدائه !.. كان ذكاؤه الحاد ، المعروف به عند المتصلين به ، عاطلا عن العمل فى ذلك الحين للمرة الاولى !

على ان انتباهه لم يلبث ان انتقل من الطريق الى الشرفة ، اذ استدرجه الى هذه - على ما بدا له - رجل أقبل من الاولى .. فقد مرت أمامه وئيدا ، عربة من طراز (الفيتون) ، كانت من أجمل العربات التى وقع عليها بصره !.. كانت بالغة الارتفاع والسعة - وان بدت خفيفة أنيقة - يجرها زوج من الجياد الروسية الممتازة ، حالكا السواد ، مليئان بالحيوية الضارية ، متماثلان تماما وكأنهما صبا فى قالب واحد ، وقد اوتيا قسطا وافرا من النشاط والتوثب ، حتى لقد كانت مشاهدتهما وهما يسيران متعة جميلة رائعة !.. وكان الرجل الذى أثار انتباه ايزاكسون - فى اللحظة التالية - يجلس وحده فى المقعد الأمامى .. ولم يكن سوى محمود بارودى ، وقد ارتدى حلة رمادية زاهية ، ووضع الطربوش على رأسه ، بينما جلس فى المقعد الخلفى للعربة وصيف

(سائس) انجليزى ضامر الجسم ، انيق الهندام ، فى زى رسمى وقبعة عالية لامعة ، وسراويل للركوب ، وحذاء طويل . وكانت العربة سوداء اللون ، بينما طليت عجلاتها بلون قرمزى ، والسروج المموهة بالفضة مصقولة لامعة ، والسلاسل التى تربط الجياد الى (العريش) القرمزى تشع بريقا ساطعا فى ضوء الشمس .. ولكن الذى اجتذب جميع الانظار ، وتعلقت به عينا ايزاكسون ، هو محمود بارودى نفسه ، بقوامه الفارع غير العادى ، ووجهه المثير الذى يعلوه طابع عدم الاكتراث ، وقيادته البارعة للجياد .. وكان قد جذب عنان الخيل فاوقفها امام النزج فى حركة رشيقة ، واذا بالوصيف يثب الى الارض فى اللحظة التالية ، فناوله بارودى عنان الجياد ، ومضى نحو الشرفة حيث وقف لحظة يجيل انظاره حواليه فى هدوء .. وما لبث ان رفع يده اليمنى الى طربوشه ، اذ راى جماعة من الاصدقاء الفرنسيين ، ثم انضم اليهم ، فرحبوا به فى جدل واضح .. بل ان اثنين من الجماعة ـ وهما سيدتان باريسيتان كانتا ترتديان ابهى الثياب ـ افسحتا له مكانا بينهما .. وفيما كان يتخذ مجلسه والابتسامة تغمر وجهه ، لاحظ ايزاكسون حاجبيه الكثيفين المنحدرين ، وعنقه الرائع الذى كان يبدو قويا كعنق الثور !

ـ ايزاكسون ، ايها العزيز !.. اهذا ممكن حقا ؟ لقد كان الأحرى ان اتوقع لقاء ابى الهول فى ميدان كليفلاند !

وكان المتكلم رجلا فارع الطول ، لا يتجاوز الثلاثين بكثير ، ذا عينين زرقاوين حالمتين ، وان كانتا مع ذلك ثاقبتين ، وقد وقف أمام الطبيب . وما لبث أن جلس بجانبه بعد أن أضاف : « هل تسمح ؟ » ، وبعد ان صافحه فى حرارة ومودة !.. فقال الطبيب : « ستارنورث ! انك واحد من القلائل ، بل أكاد أقول انك الوحيد الذى يسرنى لقاؤه فى هذه اللحظة !.. من اين انت قادم الآن ، أو الى أين انت ذاهب ؟.. فلست اعتقد انك تنوى الاقامة فى القاهرة » .. فاجابه الآخر : « لا ، لن امكث .. لقد كنت فى سوريا وقدمت للتو من دمشق ، حيث كنت مع احدى القوافل .. اجل ، سأتناول قليلا من الشاى .. ولكنى سارحل غدا أو بعد غد من مينا هاوس فى رحلة صحراوية صغيرة » .. فتساءل ايزاكسون : « صغيرة ؟.. ترى كم يوما ستستغرق ؟ » . فأجاب القادم الجديد فى غير اكتراث : « آه ، لست أدرى بعد .. ثلاثة اسابيع فى الذهاب وثلاثة فى العودة ـ على ما اعتقد ـ لزيارة واحة توجد بها خرائب وآثار عجيبة !.. ولكن ما الذى اتى بك ، انت ، الى هنا ؟ ما الذى أغراك بترك مرضاك العديدين ؟ » .. فاجاب ايزاكسون بعد شىء من التردد : « نزوة طارئة ! »

ـ يا للشيطان ! وهل يسمح الاطباء المشهورون لأنفسهم بأن تسيطر عليهم

النزوات ؟

وكان هذا الرجل ـ بازيل ستارنورث ـ رحالة انجليزيا انغمس منذ سنوات عديدة فى الشرق الذهبى ، فاصبح يجيد الكلام بالعربية واللغات واللهجات الشرقية العديدة ، واصبح أكثر شعورا بالألفة بين البدو منه بين اخوته ، ومعينا لا ينضب من المعلومات عن اهالى سوريا ومصر وشمال افريقيا باسره • كان يعرف كل شيء عن عواطفهم وعاداتهم وخرافاتهم وطرائق معيشتهم جميعا • وكان ايزاكسون قد عالجه من حمى الملاريا التى اصيب بها فى احدى رحلاته

وفى تلك الليلة تناولا العشاء معا ، فلما فرغا منه اصطحب « ستارنورث » ايزاكسون ليريه بعض الاحياء الوطنية فى المدينة •• وكانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ، عندما وجد ايزاكسون نفسه جالسا فى مقهى صغير بدائى، متوار ، فى صميم أحشاء القاهرة ، وصل اليه ـ مع صديقه ـ خلال دروب وممرات ملتوية •• دروب ملأى بنساء مخضبات الوجوه •• دروب تومض فيها الاضواء المنبعثة من شموع وضعت فرادى فى دهاليز ذات ألوان بنفسجية او زرقاء أو قرمزية ، وفى منتصف الطريق بين طوابق الدور ، على درج ضيق طليت جدرانه بالجير •• وفى هذه الدروب الملتوية كانت تمتزج الصيحات البشرية ، والضحكات ، والدعوات الخافتة ، والمقايضات ، والرفض والاباء ، بموسيقى كانت تبدو متموجة كأنها أشرطة حريرية من الأنغام •• موسيقى تتأرجح بين الخشونة والصرير الحاد والخوار •• موسيقى ثاقبة نافذة ، كانت ـ فى الوقت نفسه ـ غامضة خفية •• موسيقى مثيرة محرضة ، ومع ذلك يشوبها الحزن والكآبة أحيانا •• كآبة الصحراء الغربية وحزن الرغبة الجامحة بين الرمال !•• وكان ذلك الخليط من الاصوات المنبعثة فى المقهى ، يمتزج بخليط آخر من الاصوات ، يجمع بين الانغام الرتيبة لألحان الرقص الشرقية ، وعويل الأرغول الافريقى ، وتغريد المزامير الصغيرة التى تنظم خطى الشركسيات الشاحبات ، وهمهمة « الدربكات » المكتومة !

واحضر لهما شيخ وطنى ـ كان حاجا ـ القهوة من بين الرماد المتاجج رأسا ، بينما اخرج ستارنورث من جيبه علبة من التبغ ، وورق السجاير ، وراح يلف سيجارتين فى حذق ومهارة •• ولم يكن فى المقهى الا قليل من الناس ، كانوا جميعا من الشرقيين • وكانوا يتألفون من اثنين من المصريين ، وزنجى ، وثلاثة جنود من السودان حالكى السواد عجاف الاجسام كأنهم الثعابين ، ذوى بشرة جافة خشنة تبدو كأنها جلود بعض زواحف الصحراء ! •• وكان هؤلاء الشرقيون جميعا يجلسون بلا حراك ، ويبدون مستغرقين فى الاحلام • فقال ايزاكسون : « لماذا أتيت بى الى هنا ؟ » • فاجابه : « هل

يضايقك هذا المكان ؟ »

– كلا .. ولكنى أود ان أعرف لماذا اخترت هذا المقهى بالذات دون مقاهى القاهرة كلها ؟

– انه مكان عتيق ، وهو بالنسبة للشرقيين من أشهر مآوى مدخنى الحشيش ! ولعلك تلاحظ جدرانه القذرة المسودة ، وافتقاره الى الضوء .. فان مدخن الحشيش لا يبغى شيئا من الترف ولا ضوءا أكثر مما ينبغى .. انه يريد الاستغراق فى الاحلام ، وينال هذا الاستغراق هنا . وقد لا تصدق ان بعض الاثرياء من أعلى طبقات المصريين – أولئك الذين تجدهم فى حفلات الاستقبال الرسمية ، والذين تراهم فى المراقص العظيمة بالفنادق الكبرى – يتسللون الى هنا خفية ليلة بعد ليلة ، ويندسون بين أحط طبقات الدهماء ليستغرقوا فى الخيال تحت هذه الأسقف المسودة .. وها هو ذا واحد منهم قادم الآن !

وبينما كان يقول ذلك ، ظهر محمود بارودى على باب المقهى .. كان يرتدى ثيابا وطنية حقيرة رثة : عمامة قذرة بالية ، و جبة طويلة من قماش حال لونه !.. وبعد ان ألقى بالسلام فى همهمة مكتومة – انبعثت من حلقه – أوى الى أبعد أركان المقهى وأشدها ظلمة ، حيث جلس على الارض متربعا .. وأحضر له الشيخ الوطنى « الجوزة » – بعد لحظة – وهى غليون طويل أشبه بالنرجيلة ، فيما عدا الخرطوم الثعبانى .. فتناول بارودى الأنبوبة المصنوعة من الغاب ، وراح يجذب أنفاس الحشيش فى قوة وتتابع ، ثم ينفثها كثيفة من فمه وخياشيمه . فقال ايزاكسون هامسا : « يبدو انه من فقراء المصريين ! » . فاجابه صاحبه : « بل هو من أصحاب الملايين .. وبهذه المناسبة ألم تره بعد ظهر اليوم ؟ » .. فتساءل الطبيب : « أين ؟ » ..وكان

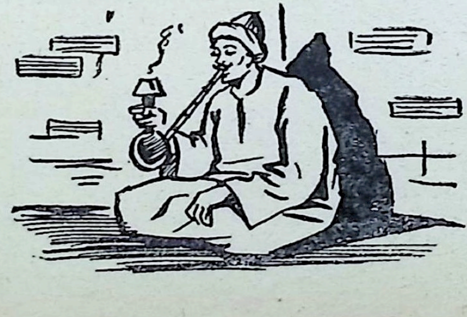

الجواب : « فى شبرد ٠٠ لقد كان قادما فى عربته « الفيتون » ، قبل ان القاك مباشرة ! » ٠٠ واذ ذاك صاح ايزاكسون : « اهو صاحب الجوادين الروسيين ؟ هذا محال حقا ! »

– لقد كان بعد الظهر ذلك المليونير ذا المكانة الاجتماعية المرموقة ٠ أما فى المساء فانه يغوص فى اعماق وطنه الشرقى !

– ومن تراه يكون ؟ – انه محمود بارودى !

فراح ايزاكسون يردد الاسم فى تؤدة وهدوء : « محمود بارودى ! » ٠٠ وفى تلك اللحظة تسلل الى داخل المقهى شيخ بلغ أرذل العمر ، اخذ ينشد فى صوت حاد متهدج ، أغنية عن تدخين الحشيش ، وهو ينقر على دف من جلد الماعز ، بينما راح شاب فى ثياب فضفاضة يتمايل ويؤدى رقصا لا نهاية له ، يمثل الشخص الحالم الذى يقوده الحشيش الى عالم جميل عذب ملىء بالاسرار والخفاء !٠٠ واذ ذاك همس ستارنورث قائلا : « سأحدثك عنه فيما بعد ! »

* * *

◆ وفى تلك الليلة جلسا معا فى الفندق حتى دنا موعد صلاة المسلمين٠٠ وقد اغتبط ستارنورث اذ وجد مستمعا يفوق كثيرا مجرد المستمع العادى المجامل ٠٠ مستمعا يفهم حكمته الشرقية بعقلية الشرق ٠٠ فانطلق يتدفق بمعلوماته العجيبة ، بينما كان ايزاكسون يستوعب هذه المعلومات ويتشبث بها كما لا يمكن ان يفعل سوى يهودى قح !٠٠ وظل يصغى ويصغى ، دون أن يتكلم الا قليلا ، حتى بدأ « ستارنورث » يتحدث عن الجمود الغريب الذى كان يراه واضحا فى الاسلام ، وكيف أن الشرق لابد ان يظل أبدا هو الشرق، على الرغم من أشد المؤثرات الخارجية والنفوذ الخارجى قوة ٠٠ وقال : « أو٠٠ هذا ما يلوح حتى الآن ! » ٠٠ ثم مضى يوضح رأيه ويؤكده بعدد من الأمثلة الصارخة ٠٠ وكان يتكلم عن العرب وعن المصريين الذين عرفهم عن كثب وتوثقت صلته بهم ، والذين رآهم يقعون تحت شتى أنواع المؤثرات الأوربية، بل الذين رآهم قد « تفرنجوا » – على حد تعبيره – ولكنهم كانوا لا يلبثون ، عندما تحين لحظات معينة ، أن يظهروا بمظهر « أبناء البلد » الصميمين ٠٠ ثم استطرد يقول : « بل ان الامر كذلك حتى عندى ذوى الدم الخليط ٠٠ فمثلا ذلك الرجل الذى رأيته الليلة يدخن الحشيش ، وهو فى تلك الجبة العتيقة القذرة ٠٠ لقد ولد من أم يونانية ، ومن المحتمل أن تكون لديه – بل ان لديه فعلا – بعض الصفات وبعض الميول اليونانية ، ولكنها كلها تخضع لسلطان ذلك الشرق الكامن فى اعماقه ، حتى ليوشك أن يبتلعها ! » ٠ وهنا سأله ايزاكسون : « أوتعرفه ؟ »

– اننى لم أخاطبه قط ، ولكنى سمعت الكثير عنه ، من مصريين ومن اوربين .. وهو يلقى نجاحا وفيرا مع الانجليز ، ومع الاجانب عامة ! انه رجل شديد البراعة ، وعلى جانب كبير من الخلال الممتازة – فيما أعتقد – ولكنه من الشرق ! .. فهو خليق بان يثير فى المرء الذى لايعرف الكثير ، دهشة عميقة .. وهو لا يفصح للأعين العادية عن أى شىء .. أى شىء مما هو عليه حقا . بل انه يبدو هادئا ، مسيطرا ، عمليا ، بل جامدا باردا كرجال الاعمال . وهو على أعظم قدر من الاعتداد بالنفس دائما .. كما أنه حريص ، ولكنه كريم شفوق ، لطيف ، مصقول ، دمث الاخلاق ، قليل الاكتراث .. بل ان له نوعا من قلة الاكتراث طاغيا جبارا .. وكثيرا ما رايته فى المجتمعات ، فكان – حتى بالنسبة لى – يبعث فى النفس هذا النوع من الشعور !

– وما هى حقيقة الرجل ؟

– جمر متقد تحت الرماد !.. فهو فظيع فى كراهيته ، فظيع فى حبه !.. ولكنه يكره بروحه ، ويحب بجسده ، كما يقولون ! فهم يصفونه بانه عبد لروحه فى البغضاء ، وعبد لجسده فى الحب !.. وقد ارتكب بعض الجرائم من أجل النساء ، اذا صح ما سمعته من أصدقائى الوطنيين .. واحسبنى واحدا من الأوربيين القلائل الذين يمكنهم أن يستخلصوا قدرا وفيرا من الحقائق من الوطنيين !

– اتقول « بعض الجرائم » ؟

فاجاب ستارنورث على طريقته العجيبة المتراخية ، التى توحى بانه رجل خليق بأن يقوم برحلة مليئة بالمصاعب الرهيبة فى الصحراء ، وهو يرتدى قميصا للنوم ونعلا خفيفا : « نعم .. ولكن ذلك لم يكن فى سبيل نسائه هو ، ولا فى سبيل ربات الجمال الشرقيات .. ان بارودى واحد من المصريين الكثيرين الذين يجنون شغفا بنساء أوربا والدنيا الجديدة ، والذين يفقدون صوابهم لدى رؤية بشرتهن الناصعة البياض ، وشعورهن الملونة الوضاءة .. وقد حدث أن كانت هنا احدى الراقصات ، فى موسم الأوبرا .. وكانت دانمركية ، ذات بشرة نضرة مضيئة ، جمعت كل أسباب الجمال ، من ذلك الطراز الذى يوحى بشعاع من شمس الشمال ! » .. فقال ايزاكسون : « اعرف ما تعنى » . فاستطرد صاحبه : « لقد أنفق عليها آلاف الجنيهات .. بل انه اهداها يختا واخذها فيه الى الجزر اليونانية والى نابولى .. وما لبثت الدانمركية ان رغبت فى الزواج » .. فقاطعه الطبيب متسائلا : « منه ؟ »

– من تاجر فى كوبنهاجن ، كان واسع الثراء . وقد رحب بارودى بالفكرة وابدى سروره لها .. وحضر التاجر الى القاهرة فى الموسم التالى للراقصة فى الأوبرا ، فاسبغ عليه بارودى رعاية عظيمة حتى اصبح صديقا له ، وتحدث

معه حديث رجل المال الراسخ القدم ٠٠ واثر تأثيرا عميقا فى الدانمركى بمميزاته العملية ، ثم زج به فى بعض « المضاربات » الرائعة !٠٠ وكانت النتيجة : دمار الدانمركى دمارا شاملا ، وعودته الى كوبنهاجن مجردا من ثروته ، ومجردا كذلك ـ بطبيعة الحال ـ من حبيبته !

ـ وما الذى حدث لها ؟

ـ لقد نسيت !٠٠ ولكن لا تظن اننى عرفت مصيرها قط ، فقداختفت من دار الأوبرا الى الأبد !٠٠ ولكن اروع ما فى الامر ان الدانمركى ما زال حتى اليوم يقسم بحياة بارودى ، ويقول ان حمقه وجنونه هو ، هما السبب فيما حدث له !٠٠ ومع ذلك فهناك ما هو اسوأ من ذلك بكثير ، فان بارودى رجل لا يخشى شيئا ولا يقيم وزنا لأى اعتبار ، متى سرت فى جسده نار الجنون بأية امرأة ، فمثلا ٠٠٠

وانطلق يروى القصص عن بارودى ، وهى قصص لا يعرف الانجليز فى مصر شيئا عنها ، وانما كان بعض المصريين يعرفونها ويضحكون منها ٠٠ وكانت واحدة أو اثنتان منها مما تمجه وتكرهه آذان الأوربيين ٠ ثم مضى يقول : « انه من الأتراك المصريين كما تعلم ، وينطوى على ذلك الدهاء القادم من البوسفور ، و « المطعم » بالدهاء الكامن وراء جمود أبى الهول وقلة اكتراثه !٠٠ وفى وسعنا ان ندعوه : نبتا غير صالح » ٠٠ وكانت لهجته المتراخية ـ لهجة قميص النوم والنعل الخفيف ـ اشد وضوحا عندما قال ذلك ٠٠ ثم استطرد يقول : « على أن للأتراك المصريين شريعة غير شريعتنا ، وصدقنى اذا قلت اننى معجب بالرجل !٠٠ فانه على قدر عظيم من الشجاعة والحزم ٠٠ وهو فى عمله ، وفى حبه ، وفى بغضه ، مقدام حازم صعب المراس ، وأينما وجه نشاطه انتهى الى نجاح ما بعده نجاح !٠٠ ولكن ولعه بالنساء هو الذى يسيطر حقا على حياته ، كما يقول المصريون المقربون منه والذين يعرفونه حق المعرفة ٠٠ وهكذا الشأن مع الكثيرين من ذوى الدم الشرقى ، بل مع كثرة تفوق ما يتصوره اى امرىء لم يعش بينهم ويعرفهم كما عرفتهم أنا ٠٠ فالعرب يجن جنونهم متى رأوا وجها ناصع البياض ، وكذلك المصريون !٠٠ وهم اذا وقعوا تحت سلطانه مرة ، فانما يخضعون لهذا السلطان الى مدى لا يمكن للانجليزى ان يفهمه ٠ وقد عرفت اعرابيا فى الصحراء الكبرى ، حطم باب احد الفنادق الريفية فى بلدة (الخلف) ـ وكان مصنوعا من جذوع النخيل ـ وقطع عنق المرأة الفرنسية صاحبة الخان ٠٠ قطعه رغم انها كانت تصرخ باقصى ما تبقى لها من قوة ، لا لشىء سوى الحصول على الفرنكات القليلة التى كانت بصندوق النقود ، كى يرسلها الى فتاة فى باريس كان قد التقى بها فى المعرض الكبير !٠٠ وكانت الفرنسية العجوز قد صادقت هذا الرجل

أكثر من ستة عشر عاما ، بل لقد ربته مذ كان غلاما حدثا ، وكانت تكتب له الخطابات التى يبعث بها الى السياح والرياضيين الذين يعمل مرشدا ودليلا لهم • ومحمود بارودى خليق بان يفعل ذلك فى سبيل امرأة ، متى سرى فى جسده الشغف الجنونى بها ، ولكنه عندئذ يفعله بطريقة أكثر تعقلا وأحكم تدبيرا !

ومضى ستارنورث يتكلم ويفيض فى الكلام •• وكان موعد الصلاة قد حان، عندما نطق أخيرا بتحية الوداع •• ولكنه فيما كان يهم بالخروج ، استدار عند الباب ، ونظر الى ايزاكسون بعينيه الحالمتين الباسمتين قائلا : « هذه شريعة غير شريعتنا •• كما ترى ! » • ثم غادر الحجرة وأغلق الباب خلفه فى رفق

* * *

◆ وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخرا ، وان ايزاكسون وصل فى ذلك اليوم من رحلته ، الا أنه كان يحس بنشاط دافق ، وقد فارقه كل سلطان للنوم •• ومع ذلك فقد كان مضطرا بطبيعة الحال الى أن يأوى الى الفراش ، فبدأ يخلع ثيابه فى بطء •• فى بطء وتردد واحجام !•• لقد كان فى القاهرة •• فى القاهرة فعلا !•• كل ما يحيط به فى هذا الليل البهيم انما هو القاهرة ، بمنازلها المليئة بالمصريين المستغرقين فى النوم ، وحريمها ، ومساجدها •• وغير بعيد منه ، كان أبو الهول يتطلع نحو الشرق بين الرمال !

وأخذ ايزاكسون يجول فى الحجرة فى تراخ وتبلد ، ويفعل كل شىء فى بطء شديد •• ومضت الحياة الشرقية ـ كما كانت تتدفق من بين شفتى ستارنورث ـ تتتابع أمام مخيلته فى شبه موكب عظيم غريب •• وفى خلال هذا الموكب كان محمود بارودى يقود جيادا روسية ، ويمشى فى جبته الكالحة كأنه أحد الشحاذين •• ثم توقف الموكب عن المسير ، ورأى ايزاكسون ذلك المقهى القذر فى أحشاء القاهرة ، ومحمود بارودى جاثما على الارض يجذب أنفاس الحشيش الى خياشيمه !•• وأخيرا ارتدى ايزاكسون منامته وتأهب للنوم ، ولكن عقله ظل متيقظا الى حد رهيب •• وكانت الصحف التى ابتاعها بعد الظهر ملقاة على المنضدة •• ترى هل يحسن ان يقرأ قليلا ، حتى يهدىء عن سورة عقله ؟•• وتناول احدى الصحف ـ وكانت « المورننج بوست » ـ وفتحها ، ثم ألقى نظرة عابرة على الصفحات الوسطى ، واذا ببصره يقع على هذا العنوان : « وفاة اللورد هارويتش فجأة » !•• اذن فقد مات شقيق نيجل ! •• ولولا الغلامين التوأمين اللذين ولدا حديثا ، لأصبحت مسز ارماين فى هذه اللحظة « الكونتة هارويتش » !

وراح ايزاكسون يقرأ النبأ فى عجلة • وما لبث ان وضع الصحيفة جانبا

ومضى الى النافذة ففتحها ، اذ كان يريد أن يطلق لأفكاره العنان فى الهـواء الطلق .. وفيما كان يطل من النافذة على المدينة الهاجعة ، سمع هتافا خافتا كانه ينبعث من مكان سحيق ، فيدفع الدماء فى عروقه ، ويجعل قلبه يخفق فى عنف .. كان المؤذن ـ من فوق ماذنة بعيدة ـ يدعو المؤمنين الى الصـلاة فى « الفجر » ، قبل ان تدفع الشمس الى كبد السـماء ـ فى الشرق ـ أول تباشيرها من الضوء الفولاذى ، كأنه نصل رمح مشرع من بعيد : « الله أكبر ! .. الله أكبر ! »

الفصل الثلاثون

◆ كان ايزاكسون قد حضر الى مصر دون ان يعد خطة محـــددة .. كل ما يعرفه هو انه كان يزمع رؤية نيجل ارماين . ولم يكن قد أبرق الى نيجل أو كتب له ليخبره بحضوره ، كما انه ـ بعد ان وصل الى القـــاهرة ـ لم يحاول الاتصال باللولية ، بل رأى أن يذهب الى جنوب النيل ، ويهتدى بنفسه الى الذهبية الرائعة ، فيقف ذات يوم على الضفة السمراء امامهـا ، حتى اذا رأى صديقه على سطحها ، هتف يناديه من بعيد ، ثم عبر « السقالة » ومضى الى ظهر السفينة .. ولسوف يذهل نيجل وتستبد به الدهشة ، ولكن .. ماذا يكون شأن مسز ارماين ؟.. كم من مرة ساءل نفسه ـ وهو على الباخرة التى أقلته من أوربا ـ عن النظرة التى سيطالعها فى عينى « بيللا دونا » ، عندما يمد يده اليها !.. لقد تحدته هاتان العينان من قبل ، وضحكتا منه فى سخرية وتهكم ، بل لقد لاحتا مرة وكأنهما تتوعدانه .. فأى نوع من التحية ستقدمان اليه فى مصر ؟

اما ان وفاة اللورد هارويتش قد تدفع نيجل الى العودة الى انجلترا ، فذلك امر لم يفكر فى احتمال وقوعه ٠٠ فقد كانت الوفاة فجائية ، ومن المحال ان يتمكن نيجل من اللحاق بالجنازة فى الوقت المناسب ٠٠ وكان ايزاكسون يعرف وجهة نظر هارويتش فى علاقة نيجل بمسز تشبستو ، وماكانت الليدى هارويتش تراه فى هذه الصلة ، وتقوله عنها ٠٠ كانت زوى هارويتش صريحة جريئة الى ابعد الحدود ، ومن غير المحتمل ان يقطع نيجل رحلته فى النيل بسبب وفاة شقيقه ، وان لم يكن ذلك مستحيلا تماما ! ٠٠ كان ايزاكسون يدرك ذلك ، فلما التقى فى الفندق ، فى اليوم التالى ، باحد معارفه اللندنين – وكان رجلا يعرف كل شىء عن كل انسان – ذكر حادث الوفاة عرضا فى حديثه ، وهو يتساءل عما اذا كان نيجل سيغادر النيل الى انجلترا ، فكان الجواب : « انه لن يفعل ، فهو عليل بحيث لا يستطيع السفر ! » ٠٠ واذ ذاك تذكر ايزاكسون ذلك الخطاب الذى تلقاه فى لندن من مريضته التى تقضى الشتاء فى الاقصر ، فسأل صديقه : « وماذا به ؟ »

– يقال انها ضربة شمس ، فقد خرج فى الظهيرة بغير قبعة – ونيجل خليق بأن يفعل مثل هذا الشىء تماما – وراح يحفر منقبا عن الآثار ، ومن ثم اصابه مس من الشمس ٠٠ ولست أظن الامر خطيرا ، ولكن لاشك هناك فى انه مريض جدا

– وهل تعرف أين توجد تلك الدهبية ٠٠ « اللولية » ؟

– اعتقد انها فى مكان ما بين الاقصر وأسوان ٠٠ وأنت تعلم ان ارماين وزوجته عاشقان كزوج من الحمام !٠٠ ولذلك فهما دائما يعتكفان عن الناس ، ويبتعدان عن الاماكن المزدحمة ، فلا يراهما احد قط ، الا بمحض المصادفة ٠ انها تمثل دور الزوجة المثالية ! وكم أتساءل : الى متى يدوم ذلك ؟

وشفع ذلك بضحكة تفيض بالشك والسخرية معا ٠ وما كاد ينصرف لشانه ، حتى بادر ايزاكسون بالذهاب الى مكتب « كوك » ، حيث حجز لنفسه مقصورة فى عربة النوم بالقطار السريع الذى يغادر القاهرة الى الاقصر فى مساء اليوم نفسه ٠ ان بوسعه أن يرى المزيد من عجائب القاهرة ، وان يشهد الاهرام وأبا الهول وسقارة ، فيما بعد ٠٠ عندما يعود من جنوب النيل ، اذا ما اتسع له الوقت ، أو ٠٠ لا داعى لأن يرى شيئا منها قط ، فهو لم يغادر انجلترا لمجرد الفرجة والمشاهدة ٠٠ تلك هى الحقيقة ، وهو يدركها الآن تماما ، على الرغم مما كانت تثيره القاهرة فى نفسه ذات الفطرة الشرقية ، من حنين الى الانغماس فى الحياة التى عرفها اجداده وعاشوا فيها٠٠ حياة اليهود الشرقيين ! ٠٠ وما اقواه من حنين ، ذلك الذى كانت تثيره القاهرة !٠٠ القاهرة ذات البيوت الواهنة الانوار الزاهية الالوان ، وذات

الموسيقى الحادة حينا والخافتة احيانا ، وذات الفتيات المخضبات والرجال المدمنين على تدخين الحشيش ، وذات الصوت الذى يصيح عاليا فى ساعة التجلى مسبحا باسم الخالق !

ولكنه كان يعرف هدفه الحقيقى من الحضور الى مصر ، وليس له ان يحيد عنه الآن !

ومع ذلك فقد غادر القاهرة آسفا !٠٠ وكان « ستارنورث » قد اقترح عليه أن يصحبه فى رحلة الاسابيع الستة فى الصحراء ، وشد ما كان يتوق الى ذلك ايضا ٠٠ فالواقع أنه قد تملكته ـ مع ذلك الانقطاع عن العمل ، وذلك التغيير الفجائى الشامل فى حياته ـ رغبة ضارية نحو الحرية والمغامرة ٠٠ لقد استيقظ فجاة ذلك الرجل الدؤوب المثقل بالعمل ، على تلك الحياة العظيمة الممتدة فى الخارج ٠٠ خارج حجرة استشارته ، وخارج البحر الرمادى الذى يحيط بالجزيرة المنيعة ، وخارج أوربا كلها ٠٠ استيقظ الرجل الدؤوب متعبا مكدودا ، وقد أثقلته المدنية حتى ضاق بها ، وانبعث فى أعمق أعماق نفسه صوت يصيح فى طلب الانطلاق والحرية التى لا حد لها ٠٠ فكانما انهارت جدران عيادته فى ضوضاء عالية ـ كما فعلت جدران (اريحا) فى عهد اليهود الغابرين ـ فراى خارجها ما كان يصبو اليه ٠٠ ما كان يشعر دائما ، فى عقله الباطن ، بحاجة اليه ، وان لم يكن قادرا على نيله !

ولم ينم ايزاكسون فى القطار الا لماما ٠ وفى الصباح المبكر نهض من مرقده وارتدى ثيابه ، ثم شهد من نافذة القطار شروق الشمس ٠٠ واهتزت مشاعره حين شهد للمرة الاولى اعجوبة التلال الجرداء فى بلد شرقى ٠٠ فان التلال الممتدة على الضفة اليسرى للنهر ، والتى تالقت فى ألوان رقيقة ٠٠ هذه التلال ذات الفجوات التى تبدو كانها « غمازات » على وجنات من حديد ، وذات الاطراف الخشنة والجميلة معا ، كانت تثير خياله ومشاعره ، وتجعله يتحسر على ما فات من عمره ٠٠ لماذا لم يحضر الى هنا قط من قبل ؟٠٠ ولماذا ترك نفسه يقترب من الكهولة وهو محوط بالقيود من كل جانب ؟٠٠ ان رجلا مثل ستارنورث أصدق فهما للحياة واستيعابا لها منه ، فهو حتى الآن ـ فى هذه اللحظة ـ لم يكن يستمتع بحريته كاملة !٠٠ ثم راح يفكر فى « اللولية » ٠٠ الم يكن فى الواقع رجلا يطارد شيئا ما ويلاحقه ؟٠٠ هب انه تخلى عن تلك المطاردة ؟!٠٠ ان أحدا لم يضطره اليها ولم يقسره عليها ٠ بل انه حضر الى هنا ، ومعه وفرة من المال ، مستقلا كل الاستقلال ٠٠ ولو انه شاء ان يستأجر قافلة كاملة ، ويرحل بها الى ساحل الذهب ، لما كان هناك من يمنعه عن ذلك ٠٠ انه يستطيع أن يذهب اذا أراد الذهاب ، ناسيا أن فى العالم مرضى ، ناسيا كل شىء الا أنه فى حرية كاملة ، وفى البلاد التى يشعر بانه على

سجينته فيها !٠٠ وهنا ، تحول يسائل نفسه عما اذا كان يمكن ان يقوى على نسيان ان فى العالم مرضى !٠٠ وعادت الى ذاكرته الكلمات التى قراها فى خطاب مريضته ، والكلمات الاخرى التى سمعها من صديق فى فندق ، فادرك انه لن يقوى على ذلك ٠٠ الم يكن يخف الى صديقه نيجل المريض ؟

وكما فعل ارماين وزوجته عند وصولهما الى الاقصر – اذ ذهبا الى الفيللا التى استأجراها سيرا على الاقدام – كذلك فعل ايزاكسون ٠٠ فقد رفض كل العروض الصاخبة لوسائل النقل المختلفة ، وانطلق الى فندقه ماشيا ٠ وكان موسم السياحة فى ذروته ، وقد غدت (الاقصر) مركزا لسياح من جميع الاجناس ، كانوا – حتى فى هذه الساعة المبكرة – يزحمون المدينة الصغيرة ! ٠٠ فلما بلغ ايزاكسون ضفة النيل ، راى عندها مرسى عائما ترسو الى جانبه سفينة بخارية لشركة « كوك » ، وقد ازدحمت بالسياح الذين كانوا يتنزهون على سطحها ، او يتناولون الافطار او ينحنون فوق السياج ليساوموا اشخاصا سمر الأبدان باسمى الوجوه انتشروا على الشاطىء والمرسى ٠٠ وكانت خلفها سفينة للبريد أصغر حجما ، ثم صف طويل من الدهبيات التى تحمل اعلام بريطانيا وامريكا وفرنسا واسبانيا وغيرها من البلدان ٠ وكانت الحمير تعدو خببا ، حاملة المتفرجين الذين استخفهم الطرب والانفعال ، يتبعها الغلمان المكاريون صائحين مهللين ٠٠ وعند الضفة الغربية الرملية المنبسطة – التى كانت رمالها تذوب فى خضرة الحقول الممتدة وراءها ، والتى كانت تذوب بدورها فى ذلك الجدب القاحل الذى يضم خرائب طيبة – كانت ثمة دهبيات اخرى ترسو وقد ارتفعت صواريها العالية المدببة تشق زرقة السماء الصافية الخالية من السحب ، المبشرة بيوم بهيج وضاء ٠٠ ولم يكن الوقت قد جاوز التاسعة صباحا بكثير ، ومع ذلك فان الحرارة كانت قد بلغت درجة شديدة الارتفاع ٠٠ وطرب ايزاكسون لهذا الجو الساحر ، وشاع الجذل فى نفسه ٠ ولكنه كان يتوق الى ان ياخذ سوطا ذا سبع شعب ويسوق امامه هذا القطيع من السياح السعداء حتى يخرجهم من البلدة !٠٠ كان يتوق الى ان يجد نفسه وحيدا مع ابناء النيل السمر الأبدان !

وما ان بلغ شرفة فندق « ونتر بالاس » ، حتى راى اناسا يعرفهم ٠٠ وكانت الشرفة هلالية الشكل ، وقد حفل الخليج الرملى الممتد بين طرفى الهلال بحشد كبير من التراجمة ، بين واقفين ومتجولين ٠٠ واذ اقترب ايزاكسون منهم انفصل احدهم عن الجماعة التى كان يقف بينها ، ودنا منه فحياه قائلا :

« طاب صباحك ياسيدى ٠٠ هل تريد دهبية ؟٠٠ بوسعى ان اهيىء لك دهبية طيبة ، ويمكنك ان تذهب عليها من اليوم ، فلا تقيم فى الفندق ٠٠ لن تقضى به سوى ليلة واحدة ، وعند ما ياتي الصباح نرحل عن هؤلاء الناس الذين

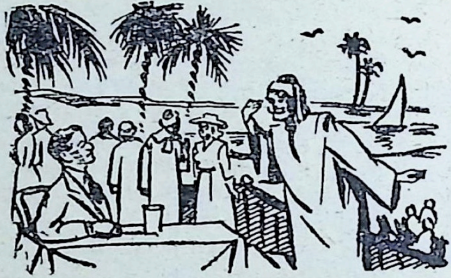

يثيرون ضجة عالية .. سوف نذهب بين المصريين .. اما هنا .. » ، ومد يده السمراء — ذات الأصابع المقوسة الى الخلف — نحو الفندق ، واستطرد قائلا : « اما هنا ، فالقوم من عامة الشعب كثيرو الضجيج !.. انك لست سعيدا على الاطلاق هنا ياسيدى » .. لقد قرأ الوغد افكاره !.. ولم يتمالك ايزاكسون ان ساله : « ما اسمك ؟ » . فبادر الرجل مجيبا : « حسن بن احمد » . فقال الطبيب يطمئنه : « لسوف اراك فيما بعد ! » . وتحول يرقى الدرج ، ويلج الفندق الكبير

* * *

◆ وعندما انتهى من حمامه واستكمال زينته ، خرج ثانية ليستمتع بالشمس .. ووقف لحظة فى الشرفة ، مستمتعا — جسدا وروحا — بذلك السناء الوضاء .. ثم حانت منه نظرة نحو الخليج الرملى ، فراى نواجذ « حسن » الطويلة البيضاء ، وقد لاحت خلال ابتسامة مليئة بالفهم وبالاغراء معا ! كان النهر وراء هذه النواجذ ، حيث كان « حسن » يدعوه فى صمت ، فنظر الى الصوارى المدببة ، وبدا عليه التردد . وعندئذ كشف حسن عن المزيد من انيابه ونواجذه !.. وفى تلك اللحظة بالذات ، انقضت عليه السيدة المريضة — التى كانت قد كتبت اليه من ربوع النيل وذكرت نيجل فى خطابها — وهى تهتف فى دهشة وجذل ، فاستحوذت على انتباهه كله .. وظل زهاء ساعة يمشى من طرف الهلال الى طرفه الآخر ، وهو يجاذبها اطراف الحديث ، فلما اختفت — اخيرا — فى الطريق المؤدى الى معبد الاقصر ، يصحبها ترجمان خبيث الملامح ، كان فى رايها « اذكى من فى الوجه القبلى واشدهم سذاجة ! » ، اسرع ايزاكسون يهبط الدرج فى عزم مستقر ، حتى وقف على الرمال بجانب

حسن ، وقال : « اين تلك الذهبية التى كنت تتكلم عنها ؟.. سوف اذهب لألقى نظرة عليها »

وقبل ان تغرب الشمس فى ذلك المساء ، كان يصعد الى سطح « فاطمة » ، وقد اصبحت له .. وكان قد ظل بضع ساعات يساوم اصحابها فى ثبات حتى ادركه الكلال . ومع انه كان يحس بالتعب ، الا انه كان منتشيا بلذة الانتصار ، حين انتصب على السطح العلوى ، وقد وقف حسن فى خدمته ، بينما كان الملاحون يدفعون الذهبية بالمدارى من الضفة الى عرض النهر الذهبى .. ذلك لأنه ، برغم الدعوات والتوسلات الحارة من السيدة المريضة وغيرها من معارفه الكثيرين المقيمين فى الاقصر ، اصدر اوامره بالانتقال الى الضفة الغربية للنيل ، حيث يمكن ان يكون فى هدوء وسكينة . وكان اصدقاؤه يصيحون به مودعين ، من الطريق امام الحوانيت وامام الفندق .. وكان المكاريون الذين لا يعرفهم يرفعون ايديهم بالتحية ، بينما كان السياح يقفون ليرمقوه بانظارهم .. وراح يرد هذه التحيات ، ثم استدار الى الخلف ، وقد سرى فى نفسه شعور جديد . وسرعان ما نسى ضجيج الاقصر وضوضاءها .. وكان « الريس » يقف على منصة مرتفعة فى مؤخرة السفينة ، جامدا ساكنا كأنه تمثال من البرونز ، ممسكا بعجلة الدفة الكبيرة .. وكان الشراع الضخم يتدلى من الصارى الطويل متهدلا . وفى تلك اللحظة ، لهثت الريح قليلا ، وبدأ الشاطىء يتراجع فى بطء .. وفى بطء كذلك اخذت « فاطمة » تزحف على ذهب النهر المجعد ، متجهة نحو ذهب الغرب المنبسط . ووقف ايزاكسون وحده – مع رجاله المصريين – يشهد غروب الشمس على النيل للمرة الاولى .. وكانت الزوارق قادمة من (طيبة) على تلك الصفحة الذهبية فى طريقها الى الضفة التى خلفها وراءه ، وقد اخذ ملاحوها ينشدون اغانيهم العميقة الرتيبة التى تضبط ايقاع المجاديف .. لكم سمعت مسز ارماين هذه الاناشيد ، وها هو ذا ايزاكسون يسمعها بدوره ، فيتذكر النبض الخافق فى «سيمفونية» معينة – كان قد انصت اليها مع نيجل – ويفكر فى نبض الحياة الخفاق ، ويتأمل كذلك فى مصائر الرجال ومقاديرهم التى غالبا ما تكون قاضية مدمرة ! .. وما لبث ان غاص فى البهاء السحرى لذلك العالم القديم الذهبى الذى احاط به !

– لا اريد ان نرسو قريبا من اية ذهبية اخرى !

فأجاب حسن : « حسنا ياسيدى » .. واخرج الملاحون مداريهم من جديد ، بينما تجرد رجلان من ثيابهما ، واسرعا يهبطان من السفينة ومعهما حبل غليظ ، ثم اخذا يعدوان على الشاطىء وهما يجذبان الذهبية ناحية الجنوب ضد التيار ، حتى بلغت موضعا منعزلا ، كان فيه رجلان يديران الشادوف فى

حمية واستغراق .. وفى هذا الموقع رست الدهبية لقضاء الليل

وأخذ الذهب يخبو رويدا .. وكان المنظر الخيالى الشبيه بالاحلام ـ والمؤلف من النهر والشاطىء وأحراش النخيل والجبال ـ قد غدا أقل تألقا وأشد عمقا .. وكانت تلوح بعيدا ، هنا وهناك ، نافذة تلمع خلال هداة الغسق كلما مسها شعاع من الضوء الآفل . واتكأ ايزاكسون على السياج .. كان فى هذه الأمسية ـ وبعد تلك الشهور الطويلة من العمل المضنى فى منزل بلندن محروم من كل ضياء حقيقى ـ يشعر كأنه رجل اقتيد الى السماء !.. وكان الفلاحون المراة يتصايحون خلفه ، دون أن يحسوا بوجوده ، بينما كانت الاشعة الذهبية تخبو رويدا رويدا !.. وظل فترة طويلة واقفا مكانه بلا حراك .. فقد اجتذب عينيه منزل أبيض على الضفة الاخرى للنهر ، فتعلقتا به .. كان منزلا منفردا ، يقوم وحده على الشاطىء ، بينما كان النهر يتدفق فى منحنى رقيق أمامه ، الى جانب دغلة منخفضة من الاشجار والخمائل .. وكانت نوافذ هذا المنزل تتألق بقوة كأنها جواهر مهتزة .. وأخيرا شد قامته واستوى واقفا بجوار السياج وهو يسأل حسن : « من الذى يقيم فى هذا المنزل ؟ »

ـ أحد النبلاء الانجليز ياسيدى .. اللورد ارمينيجل .. ولكنه ليس هناك الآن !

ـ وما نوع هذا المنزل ؟.. ما اسمه ؟

ـ اسمه « فيللا أندرود » أيها السيد الكريم !

فهتف : « فيللا أندرود ! » .. اذن فهذا هو المكان الذى ذهب اليه ارماين لقضاء شهر العسل مع « بيللا دونا » ! .. وهذه النوافذ تتألق كأنها الجواهر التى أهداها اليها العديد من الرجال ؟!

وأرخى الليل ستره ، وتلاشى غناء الفلاحين ، وبزغت النجوم من خدورها . وكانت « فاطمة » تستقر حيث استقرت « اللولية » يوما من الايام . وتناول ايزاكسون عشاءه منفردا على السطح العلوى ، تحت سماء مرصعة بالنجوم .. لسوف يبدأ فى فجر الغد رحلته الى جنوب النهر .. سيتبع « اللولية » حيثما ذهبت !.. واذ فرغ من تناول عشائه ، صرف حسن لشأنه ، وراح يتمشى فوق سطح الدهبية وهو يدخن سيجاره الطويل .. وكانت أضواء الأقصر تتلألأ خلال الظلمة الرقيقة لهذه الليلة الساحرة ، كما كانت تنبعث من مكان ما أنغام خافتة لموسيقى وطنية بدائية

سوف يتبع « اللولية » غدا الى حيث ذهبت !!

وكانت السيدة المريضة قد أفشت اليه ـ فى ذلك الصباح ـ كل ما كانت تعرف من أسرار وخفايا .. فان الثرثرة كانت احدى مسرالها الرئيسية فى الحياة ، وكان استمتاعها بالثرثرة لا يفوقه سوى استمتاعها بالصحة «المعتلة» !

.. لذلك اطلعت طبيبها المحبوب « على كل ما هنـاك من أنباء » .. وكانت أنباء أسرة ارماين هى ان نيجل ارماين أصيب بضربة شمس فى (طيبة) ، وانه كان « مريضا الى حد لا تستطيع الكلمات وصـفه » ، وان « اللولية » مضت ـ بعد اقامة قصيرة على مقربة من الاقصر ـ جنوبا فى النيل ، والمتوقع أن تكون الآن غير بعيدة عن معبد ادفو .. ولم يستطع اى شخص أن يضع قدمه على ظهر الدهبية الرائعة ، سوى طبيب أمريكى شاب ، شديد التأثر يسحر النساء .. كان هو الوحيد الذى سمح له بالصعود اليها ، وقد شخص المرض على انه « ضربة شمس » ، ووصف لنيجل ارماين الدواء ، ثم عاد وقد انتابه « هذيان » الحمى بمسز ارماين !.. مسكين ذلك « الأحمق المألوف » ! .. وكان ايزاكسون يود لو استطاع أن يبادل هـذا الطبيب بعض الحديث ، ولكنه كان قد رحل الى أسوان !

وعلى سطح الدهبية الأسـفل بدأ الملاحون ينشـدون .. ومضى ايزاكسون يذرع السطح العلوى ذهابا وجيئة .. كانت هذه الحركة الرتيبة الخفيفة ـ التى تصاحبها الآن موسيقى رتيبة ولكنها غير رقيقة ـ تبدو وكأنهـا تساعد على تنظيم أفكاره !.. كان خليقا به ـ عندما فارق مريضته الثرثارة ـ أن يمضى الى مكتب البريد ويبرق الى« اللولية» ، فمن الممكن أن ترسل البرقية الى (ادفو) .. ومادام ينوى مغادرة الاقصر والاتجاه فى النيل الى الجنوب ، فمن المحقق ان الشىء الطبيعى الواجب عمله ، هو أن يخبر صديقه بمقدمه .. فلماذا لم يقدم على هذا التصرف الطبيعى ؟.. الواقع انه قد تنكب الطريق السوى بوحى غريزى دفعه الى ذلك .. لو ان نيجل كان وحده على «اللولية» ، لكانت البرقية قد أرسلت حتما .. كان ايزاكسون يعرف ذلك ويدركه !.. ولكن نيجل لم يكن وحده ، وانما كان معه جاسوس ، هو نفس ذلك الجاسوس الذى سعى الى الاتصال به واستطلاع أنبـائه ، فى ميدان كليفلاند .. وقد يبدو ذلك سخيفا ، ولكن الواقع ان ذكر «بيلا دونا» هو الذى منع ايزاكسون من اعلان نبأ وجـوده على النيل .. بل انه عزم على أن يسعى الى « بيلا دونا » كما سعت هى اليه ذات مرة .. لقد ظهرت فى ميدان كليفلاند وهى تطوى صدرها على باعثها الخفى ، ولسوف يظهر هو فى ظلال معبد « هوراس » .. وباعثه الخفى ؟.. قد لا يكون لديه باعث ما يدرك كنهه ، فقد كان رجلا طالما قادته الغريزة ، وهدى خطاه الالهام !

ولقد كان شديد الثقة فى ريبته الغريزية فى بيلا دونا !

ولم تكن « فاطمة » دهبية رائعة كاللولية ، بل كانت صغيرة ، متواضعـة الأثاث ، خلوا من أسباب الترف ، تكاد لا تتوفر فيها وسائل الراحة الكاملة. ولقد رقد ايزاكسون ـ فى تلك الليلة ـ فوق حشـية بلغت من الرقة حدا

جمله يحس بالواح الفراش تحته • وكانت المياه تغمغم بجوار راسه ، وهى تحتك بجدار المركب ، فتبدو وكان لها اصواتا عديدة ، او كانها تتبادل معا حديثا سريا فى سكون الليل الشامل !•• وظل طويلا يرقد مستيقظا فى الظلام •• شد ما بدت له هذه الظلمة مختلفة عن تلك الظلمة الاخرى فى لندن !•• وراح يفكر فى المعابد العظيمة الدانية منه ، وفى مقابر الملوك ، وفى جميع هذه العجائب التى ينبغى رؤيتها ، والتى يفد من اجلها السياح من اطراف الدنيا القاصية •• ومع ذلك فقد كان ايزاكسون يزمع الرحيل فى الفجر ، دون ان يرى منها شيئا !•• كان ذلك يبدو امرا جنونيا !•• ولم يستطع اصدقاؤه ان يكتموا دهشتهم وذهولهم عندما اضطر لاخبارهم برحيله السريع !•• لقد كان يود ، بل انه كان مشوقا الى رؤية العجائب التى كانت اشد ما تكون قربا منه فى تلك الليلة : الكرنك ببواباته وابهائه وتماثيله ، وبهو الاعمدة بتماثيله الجالسة جنبا الى جنب فى الخلاء والزرع النامى يحيط باقدامها ، وذلك الملك الراقد فى الرامسيوم ، وذلك الملك الحزين الذى يحدق الى الأبد فى الفضاء اللانهائى عند سفح الجبل !•• كان يتوق الى رؤية هذه الاشياء ، والكثير غيرها مما كان دانيا منه فى تلك الليلة •• ولكنه كان اشد شوقا الى ان ينظر لحظة فى عينى امراة معينة •• وان يمسك بيد رجل معين ويتفرس فى وجهه !

وهكذا كان بالغ الاغتباط عندما سمع فى الفجر وقع الاقدام العارية وغمغمة الاصوات فوق راسه ، وعندما اهتزت الدهبية بعد قليل ، وترنحت ، فجعلت مياه النيل تتخاطب بلغة جديدة ، اشد حرارة ، وهى تحتضنها وتضمها الى صدرها !•• كان بالغ الاغتباط لأنه عرف انه ماض فى طريقه نحو (ادفو) !

الفصل الحادى والثلاثون

◆ **كثيرا ما** تحدث الأجازة الفجائية ، غير المتوقعة ، أثرا عكسيا فى الأيام الأولى منها ، على الرجل الدؤوب الذى ألف العمل الشاق واعتاده ، فتصيبه بالكلال والخمول ، بدلا من أن تشيع فيه القوة والنشاط . . وقد تنتج أثرها الطبيعى فيما بعد ، فتبعث فيه الحيوية وتجدد نشاطه وتشحذ همته !.. ويحس مثل هذا الرجل فى بادىء الأمر نوعا غريبا من الأعياء يدب فيه دبيبا ، وكأن شطرا منه قد أخلد الى

الرقاد والسبات ، بينما يستغرق شطره الآخر فى الأحلام والخيال !

وهكذا كان شأن ماير ايزاكسون الآن . . فقد نهض من فراشه الخشن نشيطا متوثبا، وصعد الى سطح الذهبية مليئا بحب الاستطلاع والترقب . ولكن ما ان أخذ اليوم يمضى ـ ذلك اليوم الطويل الملىء بضياء الشمس الذهبى ـ حتى كانت أحلام النيل تضمه الى صدرها فى هدوء وتؤدة . . كانت ساعات الفراغ الطويلة غريبة على هذا الرجل الذى كانت كل ساعاته مليئة مكتظة ، وكانت الوحدة غريبة عليه كذلك ، فقد صرف حسن ، وجلس وحيدا على السطح العلوى . . وحيدا الا من « الريس » الذى كان يقف خلفه جامدا كالتمثال ، ممسكا بعجلة القيادة الضخمة !

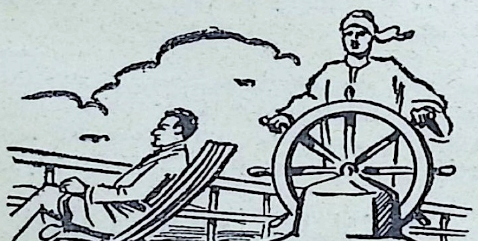

وكانت «فاطمة» ماضية فى رحلتها فى بطء وتمهل ، تزحف على سطح المياه السمراء المخضرة فيما يشبه دأب حشرة مائية هائلة وأناتها . . فقد كانت تبحر ضد التيار، كما كانت الرياح ضعيفة خائرة، وان كانت تهب من الشمال. وكان على الملاحين أن يقوموا بعملهم الشاق تحت أشعة الشمس المحرقة ، وهم يسيرون عراة على الشاطىء وقد تعلقوا بالحبال الغليظة التى

يجرون بها الدهبية فى جهد شديد . وكان ايزاكسون يجلس فى مقعد طويل ويرقب كدهم المضنى .. **لقد ظل أعواما طويلة لايدرك كنه ذلك الشعور الذى يحسه من يرقب – فى بطالة كاملة – جهود الآخرين الشاقة .. كانت هذه الجهود تبرز وتضخم ذلك الجمود الذى يرين عليه، والذى بدأ عقله يشارك جسده فيه .. كان النيل يجرى على وتيرة واحدة ساحرة لذيذة ، حتى لقد بدأ يخضع لسحره ورقيته !** .. كان يسمع من بعيد ومن قريب، من الضفة الشرقية ومن الضفة الغربية، ذلك الصوت الرتيب الأبدى . ذلك الصريف المنغوم المنبعث من السواقى ، تلك الدواليب المائية التى تدور بها الثيران .. كانت أشبه باللحن الأساسى فى مسرحية هذه الحياة الرغدة الكسول ، وكانت أنغامها المتواصلة عتيقة وسنانة، أشبه بأنين النائم ، لاتلبث أن تأسر لب المسافر المنفرد ، رويدا رويدا ، وتستحوذ على مشاعره !.. وكان رجال الشواديف ، فى صفوفهم الطويلة ، يتجهون بأنظارهم نحو الجنوب، وينشدون أغانيهم للسماء الصافية .. وكانت الحرارة القاسية تخيم فوق كل شىء ، وكل انسان !

أكانت هذه مطاردة حقا ؟ .. وأين كانت اللولبية ؟ .. والى أى مكان خفى زحفت ضد هذا التيار القوى الناهض؟.. لقد بدأ يلوح لايزاكسون أنه لايكاد يعنى بأن يعرف، بل انه أوشك أن ينسى سبب حضوره الى مصر ، وان ينسى صديقه .. و عدوه ! كان موشكا على نسيان كل شىء !.. واشتدت وقدة الحر ، وسكتت لهثات الريح وتلاشت . وقبيل الظهر ، أمر «الريس» بارساء الدهبية، حتى يستطيع الملاحون الذين كانوا يتصببون عرقا أن ينالوا قسطا من الراحة .. وأعدت مائدة على السطح ، فتناول ايزاكسون غداءه تحت مظلة من قماش القلوع .. فلما فرغ منه ، ورفع الخادم المصرى المائدة ، جاء حسن ووقف بجوار سيده ليسليه بالحديث . وكان

ايزاكسون فى تلك اللحظة ينظر ناحية الشاطىء ، حيث كانت ثمة ثغرة فى مقابل موقف الدهبية تماما ، يبدو خلالها عدد عظيم من الاشجار ، فسأل حسن : « هل توجد على النيل مزارع كثيرة للبرتقال ؟ »

فراح حسن يتحدث عن محمود بارودى .. ومن جديد عاد ايزاكسون يسمع عنه ، وعن ثرائه الفاحش الخرافى .. وتلا ذلك فيض من الحديث بلغة اختلطت فيها الانجليزية بالصينية أو العبرية أو ما شئت من الكلمات العجيبة . وجاء ذكر حمزة ، فعلم ايزاكسون بذهابه الى مكة لأداء فريضة الحج مع بارودى ، وبتفرغه ـ فى الوقت الحالى ـ لخدمة « السيد ارمينيجل » على «اللولية» .. ولم يقل ايزاكسون انه يعرف « السيد أرمينيجل » ، فقد احتفظ بسره وخططه ، وظل ينصت وينصت حتى نال الكلال أخيرا من بلاغة حسن وذلاقة لسانه !.. وكان الملاحون نائمين ، ومن ثم لم يكن الرحيل يبدو وشيكا . **وأراد حسن أن يهيىء لسيده نوعا من التسلية، فاقترح عليه أن يقوم بنزهة على الأقدام فى بساتين البرتقال ، الى المنزل الذى تضمه بين أحضانها وتنهض على حراسته .. ووافق ايزاكسون فى تراخ ، فما لبث أن عبر الجسر مع دليله ، وسرعان ما اختفيا فى « فيللا ليلة الذهب » !**

وعندما هدأت سورة الحر، وبدأ النهار يولى أدباره، أخذت « فاطمة » تزحف من جديد فى طريقها . . كانت تمضى نحو الجنوب فى دأب وأناة كحشرة مائية ذات هدف معين يقود خطاها فى رحلتها . . واستدارت عند منحن فى النيل ، ثم اختفت عن الانظار !

وعلى طول ضفتى النيل كانت السواقى ترفع عقائرها بغنائها العتيق الحزين . . والصفوف الطويلة من الرجال السمر ينحنون وينشدون ويتجهون بأنظارهم نحو الجنوب !

الفصل الثانى والثلاثون

◆ فى الساعة العاشرة من ذات صباح ، وصلت « فاطمة » الى بقعة تجاه (ادفو) ، فبادر حسن الى مخدومه ينبئه · ولم تكن اللولية قد شوهدت على صفحة النيل حتى ذلك الحين ·· وكانت الدهبيات تمر ـ من آن الى آخر ـ على صفحة النهر المتالقة ، وهى تكاد تطفو بعرض النهر ، يحملها التيار الدافق السريع ، كما كانت بعض السفن التجارية تمر ـ من حين الى آخر ـ فتمخض مياه النيل وتحيلها الى زبد ، ثم تختفى مخلفة وراءها خطوطا بيضاء عريضة · وعاد الحلم من جديد ·· الحلم المغلف بالذهب ·· الحلم الذى كانت اصوات الرجال السمر والسواقى تكسبه انغاما ، والذى كانت اشجار النخيل تسبغ عليه ظلالا ، والنجوم ترمقه احيانا ·· ولكن « فاطمة » لم تمر بدهبية راسية ، وهى تمضى فى بطء ، وفى هدوء تام تقريبا ·· ولو كان لايزاكسون ان يتمنى شيئا ، لما تمنى اسراعها قط ! ·· كان النيل قد فرض سحره على الحساسية التى فطر عليها الطبيب ، فما شعر قط يوما بمثل هذا التاثير العميق لأى مكان زاره او رآه ! ·· كانت مصر قد وضعت عليه يديها ، فكانهما يدا منوم مغناطيسى ! ·· ولقد احتمل ضغطهما الرقيق دون مقاومة او انفعال ·· ودون مقاومة او نضال أيضا اسلم نفسه الى تلك الارادة الجبارة التى راحت تتدفق منهما عليه تدفقا خفيا غامضا ! ·· كانت الارادة الجبارة تهمس اليه ان يدع عقله يسترخى ، كما كان يجعل عضلاته تسترخى ـ فى لندن ـ كل يوم لفترة معينة ·· وكانت تهمس اليه ان يكف عن نشاطه وحميته ، وعزمه وتصميمه ، ورغبته فى الكسب والاقتناء ، وان يكون شديد الاستسلام ، مستغرقا فى الخيال والأحلام !

ولم ينزل الى البر لزيارة (اسنا) ٠٠ ولم يشأ ان يكون له شأن ببلدة (الكاب) ، فتملكت الدهشة حسن ، وهم بأن يراجع ايزاكسون فى هذا الأمر ، ولكنه ما لبث ان احنى رأسه امام مشيئة سيده الخيالى ٠ على أنه ـ حين وصلوا اخيرا الى ادفو ـ بذل جهدا جديدا ليثير الرغبة فى الفرجة والمشاهدة لدى ذلك السيد العجيب فى ركوده وجموده ، وشد ما كانت دهشته حين استجاب ايزاكسون لاقتراحه فى هذه المرة ٠٠ فقد كان شديد الحب للنقاء والجمال والفن ، ولذلك لم يشأ أن تفوته ـ حتى وهو فى غمرة استغراقه فى الخيال ـ زيارة معبد « حورس » فى (ادفو) ٠ ولكنه أبى على حسن أن يصحبه فى هذه الزيارة ، بل عقد العزم على أن يقوم بها منفردا ، غير عابىء بتقاليد النيل ! ٠٠ وهكذا تابط مظلته ، ودس فى جيبه كتاب الدليل ، وغادر « فاطمة » فى تمهل ، بل فيما يشبه الاحجام ٠٠ وكان ثمة حمار ينتظره على ضفة النهر ، ولكنه وقف لحظة ـ قبل أن يمتطيه ـ يجيل أنظاره حواليه ٠وفيما كانت عيناه تتجهان ناحية الجنوب ، لمح على بعد سحيق صاريا مدببا لاحدى الدهبيات ، مشرعا فى ذلك الجو الوضاء ، مستقرا على الصفحة الزرقاء ٠٠ ولم يكن يتصل بالصارى شراع ما ، ومعنى ذلك أن الدهبية اما أن تكون راسية على الشاطىء ، أو انها قد خذلتها الرياح الخامدة واضطرتها الى الوقوف٠ وراح يتساءل فى عجب عما اذا كانت هى اللولية ، وعندئذ عاوده شىء من تحفزه المألوف ، وفكر لحظة فى ان يدعو اليه ذلك الساخط الحانق ـ حسن ـ فقد تستطيع عيناه الثاقبتان أن تتعرفا على الدهبية حتى وهى على هذا البعد السحيق ٠ كما فكر فى أن يعود الى دهبيته ، ويأمر رجاله باخراج مداريهم والمسير جنوبا ليتبين الأمر بنفسه ٠ وعندئذ عاد الحلم يطبق عليه مرة اخرى ـ فى هذا الدفء الذهبى ـ ويرفرف حوله ! ٠٠ فلماذا العجلة ؟ ولماذا يزعج نفسه ؟ ٠٠ وبدا ان التحفز أخذ يخبو ويذوب فى ذهنه ، وعندئذ حول عينيه عن ذلك الصارى البعيد ، وامتطى الحمار فسار به فى رفق الى المعبد ٠٠ وهناك ، لم يجد احدا من السياح ، فصرف المكارى قائلا انه سوف يعود الى النهر ماشيا ٠٠ وكان يعلم ان شعوره بوجود أحد ينتظره ليرافقه فى عودته ، خليق بأن يحد من بلوغه ذروة الاستمتاع ، وقد تبين من فوره أنه على باب واحدة من أعظم المتع التى مرت بحياته ! ٠٠ ورضى الحارس الوطنى ـ بعد منحة جزيلة من المال ـ أن يدعه وشأنه ، بدلا من أن يقتفى خطواته ٠٠ وهكذا وقف للمرة الأولى فى احد المعابد المصرية القديمة !

ولبث بعض الوقت فى الساحة الخارجية ، حيث كانت أشعة الشمس الذهبية تتدفق فياضة ، بينما كانت الظلمة المقدسة ـ داخل المعبد ـ تبدو وكأنها

تدعوه اليها فى صمت ! ولكنه تمهل ريثما يتذوق طعم هذه المتعة على مهل .. فقد كانت امامه فسحة من الساعات الذهبية الفارغة ، فما حاجته الى الاسراع ؟ .. وتقدم فى بطء نحو البهو ذى الأعمدة . وكانت اسراب الطيور تحلق حوله فى اشعة الشمس ، ولكن تغريدها الشجى وشقشقتها العالية كانت تقع على اذنين غير واعيتين كأن بهما صمما ، فان ذلك السكون العظيم الذى لازم الظلمة الممتدة امامه كان يتدفق على ايزاكسون ويطوقه ويلفه فى غياهبه ! .. وبلغ الطبيب المدخل ، فوقف ، ثم استدار ينظر خلفه .. ومن خلال البوابة العالية الضيقة ـ بين الأبراج ـ لمح القرية الوطنية ، فاستقرت انظاره لحظة على قباب احد المساجد .. كان خلفه ـ فى القرية ـ احد اماكن العبادة ، وكان امامه مكان آخر لابد انه كان يحتفظ بين ذراعيه الصخريتين بالمطامح الخفية ، والميول الصامتة ، والرغبات البراقة ، والصلاة الحارة المتواضعة للأقوام التى ولت عن بلاد الشمس هذه ، تاركة شطرا من حقيقتها خلفها لتحرك على مر الدهور نفوس الناس !

واستدار اخيرا ، ثم تقدم فى بطء ـ بل فى حذر ـ منتقلا من ضوء الشمس الى ظلمات المعبد .. وافضت به الظلمة الى ظلمة اشد حلكة . وما شعر ايزاكسون قط من قبل ، فى اى مبنى دخله ، بهاتف يستحثه على التقدم بمثل هذا الالحاح الذى احس به فى هذا المبنى ! .. ومع ذلك فقد تمهل لحظة ، وكان يقسره على التمهل هذا الكمال فى جمال الفن الذى طالعه فى ذلك المعبد .. وما حدث من قبل أن راى شيئا من خلق الانسان يرضى النزعات الخفية لعقله وروحه بمثل هذه القوة الشاملة .. كان قد طغى عليه سلام يحمد ويثنى ، وسكينة تحب وتعبد .. فان هذا المعبد ـ الذى بنى للعبادة ـ خلق فى أعماقه الحاجة الى أن يكون عابدا .. وكان كمال فنه أشبه بصلاة كاملة ، تقدم طواعية الى الخالق الذى اودع فى الانسان مثل هذه القوة على الخلق ! .. ولكن الظلمة كانت تستحثه على التقدم ـ على الرغم من انه كان يحوم متمهلا ، وعلى الرغم من شعوره بالسكينة والسلام الى درجة غريبة ـ كما تدعو الصحراء الجواب الرحالة الذى يسافر فيها منفردا !

كانت تجذبه الظلمة المنبعثة من أعمق اعماق المعبد المقدس .. من قلب هذا البيت الالهى « للواحد المجهول » ، فمضى يتقدم بين الأعمدة وفوق الممرات الحجرية الضيقة . وعلى الرغم من انه كان يوغل باستمرار ساعيا نحو ظلمة أشد حلكة وعمقا ـ والرجل العادى ترده الظلمة وتصده عادة أكثر مما تغريه وتغويه ! ـ فقد احس كما لو كان يقترب من شىء مفرط فى الجمال ، بل شىء الهى ، وشىء كان منذ طويل ينتظره ويتمناه فى غير وعى منه او شعور ! ..

فقد كان سحر المهندس الراحل يجثم فوقه ، كما كان « قدس الأقداس » يقع امامه ٠٠ تلك الحجرة ذات الجدران الضيقة والسقف الأزرق ، التى تحوى مذبحا ومحرابا من الجرانيت ، والتى لا شك فى انها كانت تضم ، ذات يوم ، تمثال « حورس » ، اله الشمس ٠ وكان ايزاكسون يتوقع ان يجد فى هذا المعبد المقدس شيئا يمثل ذلك « الكائن » الذى اقيم من اجله هذا المنزل الرفيع الشان ٠٠ كان يخيل اليه ان الاله نفسه لابد وان يكون ساكنا فى هذا السر الأخير من اسرار الجمال والظلام ٠٠ ومن ثم مضى يدخله فى رفق وسكون ، متاملا فى نظرات هادئة ، وان كانت عيناه منتبهتين يقظتين !

والى جانب الهيكل ، بل امامه تماما ، كان يقف شبح ابيض !

وتحرك الشبح بينما كان ايزاكسون يهم بدخول المعبد المقدس ، وكان دخوله قد ازعج ذلك الشبح ، بل روعه وافزعه ٠٠ وسمع ايزاكسون حفيف الثياب ، فارتد الى الوراء ، وقد سرت القشعريرة فى أعصابه ٠٠ كان من الاستغراق فى التامل ، كما كان ذهنه من البعد عن العالم الحديث ، بحيث اصابته هذه « الرؤيا » لشبح امراة — لا ريب فى انها كانت من السياح مثله — بصدمة من أشد الصدمات المروعة التى لقيها فى حياته على الاطلاق !٠٠ وسرعان ما احس كما لو ان ظهوره المباغت قد اصاب المراة بصدمة بغيضة مماثلة ٠٠ فانها بعد الحركة المباغتة التى ندت عنها فى بادىء الأمر ، وقفت فى مكانها جامدة بلا حراك لحظة ، وهى تبدو فى الظلام مفرطة الطول الى حد خارق ! ٠٠ وما لبثت أن راحت تتقدم نحوه ، فى عزم قوى ٠٠ وكانت مشيتها مالوفة لدى ايزاكسون على نحو عجيب ! ٠٠ وما كادت تبدأ فى السير حتى كان ايزاكسون قد سيطر على ذهنه سيطرة تامة من جديد ٠٠ وذهبت القشعريرة عن اعصابه ، وانبعث الرجل العادى فيه متحفزا ، رصينا ، متسائلا !

ووصلت المراة الى حيث كان يقف فى مدخل المعبد ، وراحت عيناها تتفرسان مليا فى عينيه ، وهى تهم بأن تمر ٠ ولكنها لم تمض ، ولم تتراجع الى الخلف ٠٠ كل ما فعلته هو انها وقفت حيث كانت وراحت تنظر اليه ٠٠ راحت تنظر اليه وكانها ترى شيئا يقول لها عقلها — فى قوة وضراوة — انها لا يمكن أن تراه ، وانها لم تكن تراه حقا ! ٠٠ وبعد لحظة من هذا التامل ، اغمضت عينيها ٠ وقال ايزاكسون : « مسز ارماين ! » ٠٠ واذ تكلم ، فتحت مسز ارماين عينيها من جديد ، فعاد يردد : « مسز ارماين ! » ٠ ثم نزع قبعته ، ومد اليها يده ، وهو يستطرد : « اذن فاللولية هى التى رأيتها ؟! » ٠٠ واعطته يدها ٠ وسرعان ما جذبتها ثانية ، ثم قالت : « اانت فى مصر ؟! »

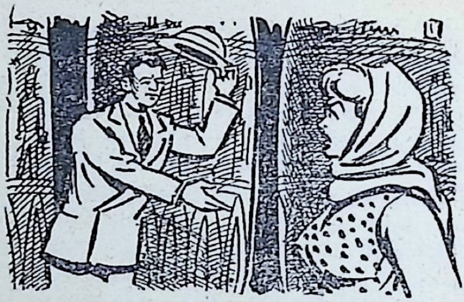

كانت مشيتها ـ رغم الظلام ـ مالوفة لديه ، ومن ثم فانها كانت قد اعدته للقاء « بيللا دونا » ٠٠ ولكن صوتها بدا غير مالوف لديه تماما ! ٠٠ كان قبيحا ، اشبه بالفحيح !٠٠ وذكر انه فى لندن كان يعد صوتها من اعظم مفاتنها ، ومن اشد اسلحتها مضاء ٠٠ أتراه كان مخطئا ؟ ٠٠ أتراه لم يسمعه قط على حقيقته ؟٠٠ ام تراه لا يسمعه الآن على حقيقته ؟ ٠٠ واردفت تقول : « ماذا تفعل فى مصر ؟ » ٠٠ اجل ، كان صوتها قبيحا ، بشعا ، مروعا ٠٠ ولكنه أدرك الآن ان التغير الكامل الذى اصاب رنينه الأصلى ، انما تم تحت تأثير نوع من الانفعال استحوذ عليها وتملكها اذ ذاك !

وعادت تردد فى الحاح : « ماذا تفعل فى مصر ؟! »

وطهر ايزاكسون حنجرته ! ٠٠ وادرك فيما بعد انه انما فعل ذلك بايحاء من تلك الخشونة الفظيعة التى كانت فى صوت مسز ارماين ٠٠ ثم قال : « لقد شعرت بثقل وطاة العمل ، وكنت متعبا ، فظننت ان من الخير ان احصل على اجازة ! » ٠٠ فاخلدت الى الصمت لحظة ، وما لبثت ان قالت : « وهل انبات زوجى باعتزامك الحضور ؟ ٠٠ هل يعلم انك فى مصر ؟ » ٠٠ وكان صوتها وهى تقول ذلك قد غدا اشد قبحا وشناعة ، واقل شبها بما كان عليه اصلا ، كان الانفعال الذى سيطر عليها قد ازداد وتضاعف فى تلك اللحظة ، واصبح اشد حيوية واكثر تعقدا ٠٠ فقال ايزاكسون : « كلا ، فقد غادرت انجلترا على غير توقع ٠٠ بدافع طارىء ! » ٠٠ قال ذلك فيما يشبه الاعتذار ، دون ان يقصده ٠٠ فلما ادرك ذلك ، استعاد رصانته سريعا ، ثم استطرد فى برود ، وبلهجة مغايرة تماما : « اننى لم اخبر احدا بخططى ، وقد ظننت اننى سوف اقدم مفاجأة لنيجل ! » ٠٠ فهتفت : « نيجل ! »

عندئذ أدرك ايزاكسون انه قد دعا صديقه ، لأول مرة ، باسمه الأول .. فقال : « ظننت اننى سوف أقدم لك ولزوجك مفاجاة .. وارجو ان تغفرى لى ! » .. فاجابت بعد لحظة خالها دهرا : « وما الذى يستوجب الصفح والغفران ؟ .. ان كل امرىء يحضر الى النيل .. ولن يدهش المرء قط عندما يرى اى انسان يفد الى هنا ! » .. ولم يعد صوتها - فى هذه المرة - قبيحا مبحوحا .. كان قد بدأ يستعيد بعضا من ذلك الطابع الدافىء المتراخى الذى وجده عليه عند ما لقيها فى لندن ! .. ولكن ذلك السحر كان يبدو متعمدا ، وكأنما ألقت به فى صوتها بفضل جهد قوى من ارادتها ! وعادت تقول : « لقد استخدمت كلمة « يرى » ، ولكن الواقع أن المرء هنا لا يستطيع ان يرى اى شىء او اى انسان بجلاء .. هيا بنا الى الخارج ! » .. وسارت خارجة من الهيكل الى البهو الذى يمتد خارجه ، وكان أقل ظلمة ، فتبعها ايزاكسون !

والقى عليها ، فى ذلك الضوء الخافت ، نظرة سريعة .. كانت وقتئذ ، ترفع يديها الى خمارها الأبيض الكبير ، الذى كانت قد ازاحته فوق حافة قبعتها العريضة البيضاء . وقبل أن تسدله على وجهها - وان لم يخف معالمه تماما - استطاع ايزاكسون أن يرى ان ذلك الوجه كان عاطلا عن اية زينة ، وشاحبا ، كشحوب الأموات ! .. ولكن هذا الشحوب قد يكون طبيعيا ، فقد اعتاد أن يراها فى لندن فى اتم زينة دائما ، وكانت تستخدم المساحيق البيضاء .. ومن المحتمل ان يكون وجهها ، وهو خال من المساحيق والأصباغ ، ناصع البياض ايضا !

★ ★ ★

◆ ووقفت فى البهو ساكنة بلا حراك مرة اخرى ، ثم لم تلبث أن قالت : « انك شخص عجيب يا دكتور ايزاكسون ، فهل تعرف ذلك ؟ .. اننى لا اظن ان اى شخص آخر يمكن ان يظهر فجأة على هذا النحو فى مكان يعلم ان به صديقا له ، دون ان يخبر ذلك الصديق بحضوره ! .. ولو لم تكن انت ، لظن المرء حقا ان فى الأمر سرا غريبا ! » .. واردفت عبارتها بضحكة يسيرة، ثم عادت تقول : « احسب ان نيجل سوف يفاجأ بذلك مفاجأة شديدة ! » . فقال الطبيب : « أرجو ألا تكونى تعنين مفاجأة غير سارة ؟ .. فقد كنت انوى ، كما قلت لك .. » . فقاطعته قائلة : « آه ، أجل .. اعرف ذلك كله . ولكن الواقع أن الأمر يبدو .. حسنا ، يكاد يبدو انه ليس مما يتفق وقواعد الصداقة ان تكون على ضفاف النيل ولا تخبر صديقك بحضورك على الاطلاق ! وفى رايى ... ولكن كم مضى عليك فى مصر ؟ »

– اوه ! •• مدة قصيرة جدا •• ولا تظنى اننى قد تاخرت ، فاننى على العكس ••

– لو انك تاخرت لكان الأمر معقولا تماما •• فانت لم تر مصر قط من قبل ، اليس كذلك ؟

– لم ارها قط ! – وكم قضيت فى الاقصر ؟

–ليلة واحدة ، على الدهبية بالشاطىء المقابل للاقصر

– وماذا رايت هناك اذن ؟ – لا شىء على الاطلاق !

فرفعت يدها وراحت تعبث بخمارها فى رقة ، بينما كان يستطرد : « لقد خطر لى ان ارجىء مشاهداتى الى ان اعود فى النهر شمالا » •• فقالت : « ان معظم الناس يقومون بها وهم متجهون الى الجنوب •• ومع ذلك فقد وجدتك فى أحد المعابد ! » •• فقال : « انه اول معبد أطرقه ، فما كنت لأستطيع ان امر بمعبد ادفو دون ان أدخله ! »••وهنا تساءلت : « ولماذا ؟ » •• فاجاب : « لعلنى احسست باننى سالقاك فيه ! » •• قال ذلك فى رقة الرجل العصرى المهذب ، الذى يجامل امرأة حسناء ، ثم أردف : « وربما كان ملاكى الحارس هو الذى قادنى الى داخل قدس الأقداس لأنك كنت •• هل اقول : كنت مستغرقة فى التامل بداخله ؟ » •• فتململت ، وخطت خطوة الى الأمام ، ثم قالت : « هل مكثت فى القاهرة طويلا ؟ » • فاجاب : « ليلة واحدة ! » •• واذ ذاك توقفت ثانية عن المسير ، وهتفت : « يا له من تعجل عجيب ! »

– نعم •• لقد كنت مسرعا فى الحضور حقا !

– احسب ان الوقت المتاح لك ، كى ترى كل شىء ، محدود ؟ •• ولعلك لم تاخذ الا اسبوعا او اثنين كاجازة ؟

وادارت راسها ناحيته ، فخيل اليه ان عينيها كانتا تتالقان فى انفعال غريب ، وفى لهفة عجيبة ، تحت خمارها •• وعندئذ قال فى غير اكتراث : « لست أدرى •• ربما مكثت طويلا اذا طاب لى ذلك ! •• فالواقع ، يا مسز ارماين ، اننى بعد ان اقدمت على هذه المغامرة ، وهجرت مرضاى ، اصبحت أستمتع بوقتى على وجه مدهش •• فليست لديك اية فكرة عن ••• » • ولكنها قاطعته من جديد ، لتقول : « مرضاك ؟! •• ترى ما الذى سيفعلونه ؟ •• ولكن من المحقق ان عملك كله سوف ينهار ! »

– ما ارق شعورك اذ تشغلى بالك بهذا الأمر !

– اوه ، لست اشغل بالى ، ولكنى اتساءل فحسب ! اننى لا اعرفك حق المعرفة ، ولكنى اعترف باننى ظننت انى قد فهمتك !

وقال يستحثها : « اجل ·· وماذا فهمت ؟ » · فاجابت : « لقد ظننتك رجلا واسع المطامع ·· رجلا لا يتردد فى أن يتسلق الشجرة حتى قمتها ! » ·· فتساءل : « والآن ؟ » ·· فاجابت : « حسنا ·· انك لا تسلك السبيل المؤدى الى هذا الهدف ·· واننى ·· اننى آسفة ! » ·· قالت ذلك بلهجة عادية طبيعية تماما ·· واذا كان ظهوره قد روعها ــ بل انه كان واثقا من انه روعها الى حد الفزع تقريبا ــ فانها كانت الآن تستعيد رباطة جاشها والسيطرة على نفسها ·· واستطردت تقول : « ان النساء يستثرن السخرية احيانا ، فهن دائما يعجبن بالرجل الذى يتقدم فى مدارج النجاح ، ويقتحم طريقه الى مقدمة الصفوف ! »

وراحا يسيران جنبا الى جنب فى بطء وتمهل ، حتى بلغا الساحة الخارجية الفسيحة · ونسى ايزاكسون المعبد الرائع العظيم ·· فقد كانت لهذه المرأة القدرة على أن تستحوذ على انتباهه كله ، وتستأثر به لنفسها ! ·· وقالت : « الا نجلس قليلا ، فاننى متعبة لفرط ما مشيت ! » ·· ومضت فى تثاقل الى صخرة كبيرة يقع عليها الظل ، فجلست فى تراخ وهى ترفع فوق راسها مظلة بيضاء محلاة برسوم خضراء ·· ولأول مرة منذ التقيا ،ذكر ايزاكسون وفاة اللورد هارويتش ، وعجب فى نفسه من الثياب التى كانت ترتديها ·· واذا بها تقول : « آه ، احسبك سمعت طبعا ؟ » ·· وبوغت ايزاكسون لادراكها المفاجىء لما يدور فى خلده ، وقال : « سمعت ماذا يا مسز آرماين ؟ »

– بوفاة شقيق زوجى فجاة ؟

– لقد قرات النبا فى الصحف

– حسنا ·· لقد تصادف اننى لم اكن احمل معى شيئا من ثياب الحداد !

وكان صوتها قد تبدل فى تلك اللحظة ، وغدا ــ وهى تقول ذلك ــ فى مثل صلابة الصخور ! ·· وجلس ايزاكسون بالقرب منها ، ولكن الصخرة التى اتخذها مقعدا كانت تحت اشعة الشمس · واستطردت تتابع كلامها قائلة : « وفضلا عن ذلك فماذا يهم الأمر هنا ؟ ·· ثم اننى لم اعرف هارويتش قط ، الا بمجرد النظر » · ولم يقل ايزاكسون شيئا ، فاردفت تقول بعد هنيهة : « لذلك لم يكن بوسعى أن أكون شديدة الأسف لموته ·· ولكن ذلك ازعج نيجل وروعه كثيرا ! » ·· فسالها : « هل روعه حقا ؟ »

– الى حد فظيع ·· واعتقد انك تعرف شدة حساسيته !

– نعم !

– ولم يكن فى مقدوره ان يسافر لحضور الجنازة ، فان المسافة جد بعيدة ·· وما كان ليصل فى الوقت الملائم !

- اهذا هو السبب فى احجامه عن السفر ؟

ومن جديد ، راى العينين تتفرسان فيه بحدة من تحت الخمار . ثم قالت المرأة : « ان سفره كان عبثا لا طائل وراءه . وقد ابرقت الليدى هارويتش لتقول ذلك ! » . فغمغم : « لقد فهمت »

- لقد كانت دائما ضد نيجل منذ ان تزوجنى .. وانت تعرف احوال النساء !

فاوما براسه موافقا ، بينما كانت تستطرد قائلة : « على ان هذا الأمر قلب كيان نيجل الى درجة مروعة .. وهذا هو السبب فى قدومنا الى هنا . فقد اراد ان يفر بعيدا ، وان ينأى بجانبه عن كل انسان ، ويظل وحده معى !.. بل انه لم يخرج معى هذا الصباح ، وفضل ان يمكث فى الذهبية .. يا للمسكين ! .. انه لن يرى احدا البتة مدة اسبوعين او ثلاثة ! .. فقد هد هذا الحادث قواه ، لوقوعه فجاة ! » .. فقال : « اننى آسف لذلك » . واذ ذاك أدارت راسها ناحيته - وكانت وقتئذ تمسك بالمظلة منخفضة - ثم سالته فى تراخ : « كم من الوقت مكثت فى الاقصر ؟ .. لقد نسيت ! ولكن الم تنزل فى احد الفنادق ؟ وهل ذهبت راسا الى سفينتك ؟ »

- لقد امضيت بضع ساعات فى « ونتر بالاس »

- حقا ؟ .. ثم كرهت الاختلاط بهذا الحشد من الناس ، فيما اظن ؟

- انه لم يرقنى تماما !

- بوسعك اذن ان تتصور فزع نيجل المسكين منه فى هذه الظروف .. كما انه لم يكن فى صحة طيبة تماما فى الآونة الأخيرة .. كلا .. لم يكن مصابا بشىء ذى بال - لا شىء يدخل فى اختصاصك ! - انما اصابته ضربة من الشمس .. وكان ذلك ، بالاضافة الى هذه الوفاة ، مما جعله ينفر من كل انسان . ولكنى مع ذلك ساحاول اقناعه بان يقابلك فيما بعد .. ربما بعد اسبوعين او ثلاثة ، اثناء عودتك الى شمال النيل .. انك ستمكث بعض الوقت طبعا عند الشلال الأول ؟

فقال ايزاكسون : « هذا محتمل ! » . فقالت : « اتفقنا اذن .. اثناء عودتك الى الشمال . وسوف يسهل عليك ان تجدنا ، فان مركبنا تدعى اللولية »

- اذن فقد اصابت زوجك ضربة من الشمس ؟

- نعم ، بينما كان يقوم بحفرياته فى الاقصر . ومن الطبيعى اننى استدعيت طبيبا فى الحال ، وهو رجل لطيف يدعى الدكتور بارنج هارتلى .. انه اخصائى عظيم الحذق ، من بوسطن ، وهو يتولى الاشراف على الحالة !

- اوه !.. اهو يقيم على ظهر الدهبية ؟
- كلا ، فان نيجل ما كان ليرضى بان يقيم احد من اجله .. ولكنه يشرف على الحالة ، وقد ذهب الى اسوان ليقابلنا اذا ما بلغناها ! .. هل تنوى الرحيل حتى الخرطوم ؟

وقال ايزاكسون : « ربما ! » ، فقالت : « لقد غدت هذه الرحلات ميسورة ! » .. فغمغم : «نعم» ، بينما تابعت مسز ارماين حديثها قائلة : « لقد يسرت السكك الحديدية كل شيء ! » .. وغمغم ايزاكسون من جديد : « اجل ! » . فاستطردت السيدة تقول : « اننى اهب كل شيء فى سبيل الذهاب الى الخرطوم .. فان الناس يقولون انها اشد روعة من اى شيء آخر حتى الشلال الأول » .. وهنا سالها : « ولم لا تذهبين اذن ؟ ». .. فقالت : « قد نفعل يوما ، ولكن فى غير هذا الوقت ، فان نيجل ليس فى حالة معنوية تمكنه من القيام بشيء من هذا القبيل .. وفضلا عن ذلك ، الا يبدو هذا امرا غير لائق ؟ .. اعنى قيامنا برحلة للمتعة والمشاهدة بعد وفاة اخيه بوقت قصير ؟ .. ان ذلك يبعث السأم الى نفسى ، طبعا ، ولكنى اظن ان نيجل على حق فى ان يخلد الى السكون ولا يقابل احدا مدة اسبوعين او ثلاثة » .. وقطع عليها استرسالها قائلا : « هل تسمحين لى بان اشعل سيجارا ؟ » ، فاجابت : « بالتاكيد ! » .

وعندئذ اخرج الدكتور ايزاكسون علبة سيجاراته فى بطء شديد ، وتناول منها سيجارا كبيرا ، ثم راح يتلمس علبة الثقاب حتى وجدها ، فاشعله . وكان انهماكه فيما يفعل – وهو امر كان يبدو طبيعيا وعاديا تماما – قد انقذه لحظة من الاضطرار الى الكلام .. فلما اشتعل السيجار وتوهج ، شرع يتكلم ، فقال فى بطء وتراخ ، كانما كان من الرضى بحاله بحيث لا يهمه مصير شيء تحت السماء او تحت الأرض : « الا تظنين ان زوجك قد يحب ان يرانى ، ما دمت قريبا منه الى هذا الحد ؟ .. لقد عرف كل منا الآخر معرفة وثيقة طويلة الأمد .. كما انكّ كنت الآن تتصورين انه سوف يضايقه حضورى الى مصر دون ان اخبره » .. فاجابته فى فتور كانما تبادله لهجته : « بالضبط ! .. ان الأمر كما تقول تماما ، فلو انه كان يتوقع حضورك لكان من المحتمل الا تضره زيارتك فى شيء ! .. ولكن الدكتور بارنج هارتلى الح بصفة خاصة فى ضرورة المحافظة على هدوئه وسكينته ، وان نتحاشى اية صدمة له ، ولو كانت صدمة فرح وسرور ! »

- حقا ؟.. اخشى ، والامر كذلك ، ان يكون فى حالة سيئة !
- اوه ، كلا .. لا شيء من ذلك . انه يبدو اسوا فى الظاهر مما هو

عليه فى الحقيقة ، فقد بدل المرض لونه تبديلا اليما ، كما يحل به التعب سريعا ولأبسط مجهود .. ولكنه كان اسوأ من ذلك بكثير منذ اسبوع . أما الآن فانه يستعيد قواه يوما بعد يوم !

— هذا حسن !

— لقد أصر على القيام بحفرياته فى (طيبة) فى وقدة الحر ظهرا ، وقد رجوته الا يفعل ، بل توسلت اليه ، ولكن نيجل عنيد قليلا .. وكانت النتيجة اننى اضطررت لتمريضه !

— اظن ذلك قد افسد رحلتك !؟

— أوه ، ليس هذا بأمر ذى بال ، ما دمت أرى نيجل فى تحسن !

فقال ايزاكسون ، وهو لايزال محتفظا بلهجته الفاترة ومسلكه المتراخى : « سيبدو مسلكى عجيبا حقا اذا انا مررت به دون ان اقوم بزيارته .. فاننى أظن اننى سوف آمر بدهبيتكما . ولكن الا تزمعان الرحيل سريعا ؟ » .. فقالت : « ربما .. الحق اننى لا أدرى .. اذا اراد أن نرحل ، فسوف نرحل .. اننى سافعل كل ما يريده ! » . فقال : « اذا رحلتما ، فسامضى فى اثركما » .. وتمتمت وهى شاردة الذهن : « حسنا ! » . ثم اخذت تحرك مظلتها فى رفق — يمنة ويسرة — وهى تقول : « الواقع اننى اود لو كان فى استطاعتك أن تقوم بزيارة نيجل ! » .. ثم اضافت فى نبرات تفيض بالود : « اصغ الى يا دكتور ايزاكسون ، دعنا نصل الى اتفاق ! .. ساعود الى الدهبية فارى كيف حاله ، وبماذا يحس .. ساقوم بجس نبضه فى الواقع ، فاذا رايت كل شىء على ما يرام ، فسابعث اليك برقعة لتحضر الى ظهر الدهبية .. اما اذا وجدته متعبا ، او غير ميال الى صحبة أحد — حتى ولو كنت انت — فسوف اطلب اليك أن تدع هذه الفكرة وان تؤجل زيارتك بضعة ايام قليلة ، وتحضر لزيارتنا فى اسوان .. ومع ذلك فان نيجل قد يرغب فى أن يراك ، بل قد تفيده هذه الزيارة .. لعلنى كنت مغالية فى اللهفة على اطاعة أوامر الدكتور هارتلى ، مفرطة فى الحرص والحذر .. هل اتفقنا على ذلك ؟ » . فكان جوابه : « شكرا جزيلا »

ونهضت عن مجلسها — كما نهض هو — ثم اردفت قائلة : « ولو اننى اضطررت الى الرفض ، وما اظننى فاعلة ، ولكن .. لو حدث هذا ، فاننى ادرك انك ستفهم الأمر حق الفهم بطبيعة الحال ، فتمر بدهبيتنا دون ان تزعج زوجى ، فانك كطبيب لن تسىء فهمى » .. فاجاب : « كلا ، بالتاكيد » .. واذ ذاك أرخت خمارها ثانية ، وهى تقول : « حسنا اذن ! » . وبسطت اليه يدها ، ولكنه قال : « آه .. سامضى معك الى حيث يقف حمارك ..

اظنك جئت ممتطية حمارا ، أم تراك جئت فى القارب ؟ » .. فاجابت : « لا ، بل جئت على حمار » ، فقال : « اذن ، دعينى ابحث لك عن غلامك » .. ولكنها ردت عليه قائلة : « لقد ذهب ليزور بعض أصدقائه فى القرية .. ولكنه عاد ولابد .. وسوف اجده بسهولة ! »

بيد انه أصر على مصاحبتها ، فخرجا من الساحة الاولى ، خلال البوابة الضيقة العالية التى كانت لا تزال تحمل اطيافا من تلك الخضرة الزرقاء ، « لون الحب » الجميل الأخاذ ! .. ان هذا اللون يحدث فى النفس تاثيرا شبيها بذلك الذى يمكن أن تحدثه صيحة فرح رقيقة اذا ما ارتفعت فى معبد كئيب ! .. واخذ ايزاكسون ينظر متاملا ، فخيل اليه ان ذلك اللون يوحى بما يجب ان تكون عليه المراة فى حياة الرجل : شىء لذيذ ، رقيق ، سماوى ، ساحر أخاذ ، يحتاج للرعاية والحماية !.. وكان لا يزال يفكر فى « لون الحب » وفى رفيقته ، عندما وقف امامها حمزة ، ساكنا هادئا ، جامدا كتمثال من البرونز فى ضوء الصباح الوضاء .. وكانت احدى يديه النحيلتين الرقيقتين موضوعة على العنان (اللجام) الاحمر لحمار قوى فخم المنظر ، بينما راح يتطلع اليهما بعينيه الشرقيتين المعبرتين الرائعتين ، اللتين كانتا — مع ذلك — لا تفضيان بشىء من أسراره وخفاياه جميعا .. فقال ايزاكسون لمسز ارماين بالفرنسية : « يا له من شخص عجيب رائع ! » .. فهتفت : « حمزة ؟ .. اجل ! » .. فسألها : « وهل يدعى حمزة ؟ » .. فاومأت براسها ، ثم قالت : « انه من الاقصر .. والآن وداعا مرة ثانية ، وسوف أرسل لك الرقعة التى وعدتك بها فى وقت ما هذا الصباح ، أو قبيل المساء ! »

وفى حركة سريعة خفيفة — كأنها امراة فى مقتبل الشباب — كانت قد استقرت فوق السرج ، وهى تستند الى يد حمزة .. وسمعها ايزاكسون تتنهد بينما كانت تمضى مبتعدة !

الفصل الثالث والثلاثون

◆ عاد ايزاكسون ثانية الى المعبد وحده ، ولكن سحر النيل كان قد تحطم .. كان الطبيب قد اوقظ من حلمه فى قسوة وعنف . بل لقد بلغ من حدة استيقاظه ان بدا الحلم وكانه لم يحدث قط !.. وعاد ايزاكسون — من جديد — ذلك الرجل الذى كان فى لندن عادة .. رجلا غزير النشاط والتوفز ، يهودى الحس والشعور ، له عقلية الطبيب .. ووراء كل طبيب عظيم ، يكمن شرطى

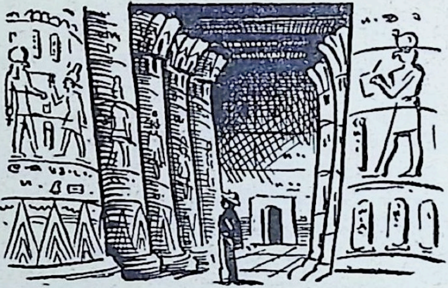

عظيم !٠٠ وكان الشرطى هو الذى اخذ يمشى وحده الآن فى معبد (ادفو) ، والذى راح يسعى مرة أخرى الى الهيكل المظلم ، والذى مكث هناك فترة طويلة واقفا امام المذبح المصنوع من الجرانيت ، ينصت بعقله – فى هذا السكون المطلق – الى نبرات صوت بشع قبيح !٠٠ حتى اذا اقتربت وقدة الحر فى الظهيرة ، عاد ايزاكسون أدراجه الى « فاطمة » ٠ ولم يتبين كم مضى من الوقت منذ أن فارقته مسز ارماين ، ولذلك سال حسن – عندما صعد الى الدهبية – عما اذا كانت قد وصلته اية رسالة او اية رقعة من الدهبية التى كانت ترسو الى الجنوب منهم ، غارقة فى الذهب الرجراج ٠٠ فكان الجواب مشفوعا بنظرة تنم عن الدهشة البالغة : « لا ياسيدى العزيز ! » ٠ فقال ايزاكسون فى صبر نافد وهو يشير ناحية النهر :

– هذه الدهبية هى « اللولية »

– اننى أعرف ذلك طبعا يا سيدى !

وكان صوت حسن يبدو مليئا بالاشفاق والازدراء !٠٠ فقال ايزاكسون : « حسنا ، اننى اعرف الناس الذين عليها ، فانهم ٠٠ اعنى ان واحدا منهم ، صديق لى ، وهذا كل شىء ٠٠ والآن ، لك ان تذهب الى السطح الاسفل ! » ٠٠ وبدأ ايزاكسون يذرع السطح ذهابا وجيئة ، بل انه دفع المقاعد الى الوراء ، فالصقها بالسياج ، حتى يفسح المكان لحركاته ٠٠ وعلى الرغم من أن وطأة الحرارة اخذت تشتد ، واخذ العرق يتصبب من جبهته ووجنتيه ، رغم جفاف الجو ، فانه لم يستطع ان يكف عن المشى ٠ ولقد فكر مرة – فى دهشة وعجب – فى ذلك الجمود الشامل الطويل الذى كان يعتريه منذ أن غادر الاقصر ٠٠ كيف استطاع أن يبقى غارقا فى مقعده ساعات بعد ساعات ، لا يفعل

شيئا الا التحديق فى المياه الجارية حوله ، وفى ضفتى النيل المتشابهتين اللتين تجريان الى جانبيه على وتيرة واحدة ؟٠٠ وكان الى جوار « فاطمة » رجلان يديران الشادوف ، ولا يكفان عن الغناء والانحناء ، فهل كان غناء الشادوف يهدهده ويبعث فيه خدرا لذيذا ؟٠٠ هل كان يدفعه نحو الخيال والاحلام ؟٠٠ كلا ، انه لم يكن ليسمع فى اصوات هذين الأسمرين ـ وهما يغنيان ـ سوى نبرات القسوة والعنف ٠٠ ولم تكن حركاتهما الرتيبة المنغومة تعبر ، فى نظره ، الا عن القسوة والعنف !

واذ حان موعد الغداء ، تناوله فى عجلة ، دون أن يستسيغ شيئا مما كان ياكل ٠٠ وما كاد يفرغ منه ، حتى أحضرت له القهوة ٠٠ ولم يحضرها له « السفرجى » كالعادة ، وانما احضرها حسن الذى لم يعد قادرا على اخفاء فضوله ودهشته ٠٠ فقال وهو يقف متفرسا فى مخدومه : « لم تات اية رسالة لك ياسيدى العزيز ! » ٠٠ فقال ايزاكسون وهو يتظاهر بعدم الاكتراث : « لم تات ؟! » ٠٠ فقال حسن : « لقد كان الرجال جميعا نائمين فاستيقظوا ، و « الريس » على استعداد للرحيل ٠٠ ويمكننا ان نقف بجوار اللولية وناخذ الرسالة بانفسنا » ٠٠ فصاح الطبيب : « كلا ٠٠ لن ارحل فى الوقت الحاضر ، فما زال الحر شديدا ! » ٠٠ فكشر حسن عن نواجذه الطويلة التى كانت تبدو كانياب وحش ٠٠ وادرك ايزاكسون انه سوف يسمع احتجاجا ، فاردف قائلا فى حزم : « سأصدر أمرى عندما أكون مستعدا للرحيل !٠٠ والآن ، اذهب الى حجرتى تجد على المقعد الملاصق للفراش منظارا مكبرا » ٠٠ ورفع يديه الى عينيه مقلدا حركة النظر من خلال منظار مكبر ، ثم استطرد : « فاحضره ! »

واختفى حسن لحظة ثم عاد يحمل المنظار ، فقال له ايزاكسون : « شكرا٠٠ هذا كل ما اريد ! » ٠٠ ولكن حسن ظل واقفا ينتظر ، فعاد الطبيب يقول : « لك الآن أن تنصرف ! » ٠٠ فمضى حسن فى تثاقل ، وكان جسمه كله ـ لا وجهه فحسب ـ يفيض بالعبوس والتجهم ، كأنه فريسة غضب مرير !٠٠ وتناول ايزاكسون المنظار فرفعه الى عينيه محدقا ناحية الجنوب فى النهر ، ولكنه لم ير الا منظرا مختلط المعالم لا يبين منه شىء ٠٠ فقد عبث حسن بالمنظار وبدل بؤرة عدساته !٠٠ وعصف الغضب بايزاكسون فجاة ، فكشف بذلك عن مبلغ ما كان يعتمل فى نفسه ٠ وبينما كانت اصابعه تعمل بسرعة لضبط بؤرة العدسات لتلائم نظره ، كان فى دهشة مما بدا من تهود فكره واندفاعه ٠٠ غير أن هذه الدهشة لم تلبث ان تلاشت ، ولم يعد ايزاكسون سوى ذلك المراقب الذى تركزت حواسه كلها فى المراقبة وانهمك بكليته فى الاستطلاع !

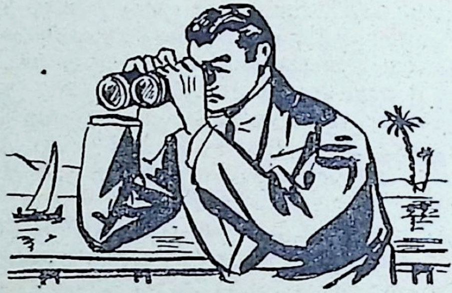

كان المنظار من نوع قوى جدا ، وكان ايزاكسون يعرف ذلك بطبيعة الحال .. ومع ذلك فقد تملكته الدهشة للقرب الذى بدت عليه « اللولية » خلال ذلك المنظار ، اذ اصبح بوسعه ان يتبين جمال معالمها ، وان يميز لونها.. ذلك اللون الأبيض المماثل للون الحليب ، والمموه بالذهب ! واستطاع ان يرى علمين يرفرفان عليها ، احدهما فوق قمة الصارى ، والثانى فى المؤخرة .. كما راى تلك المظلة التى كانت تخفى السطح العلوى !.. اجل ، استطاع ان يرى ذلك كله !.. وخفض المنظار قليلا ، فاصبح ينظر مباشرة الى الشرفة التى تتفرع من حجرة « الفسقية » ، وكانت تغطيها مظلة كبيرة ، ولكن جوانبها كانت مكشوفة كلها .. ثم تبين شبحا ، اشبه بالدمية ، يتحرك فى تلك الشرفة الى جوار السياج .. اتراها مسز ارماين ، ام انه صديقه المريض ؟.. وراح يحدق فى امعان شديد ، حتى لقد احس بما يحس به من يبذل جهدا بدنيا قاسيا ، وبدأت عيناه تؤلمانه ، وشعر بوخز فى جفونه ، فاخذ يفرك عينيه قليلا .. وما لبث ان رفع المنظار ثانية وراح ينظر من جديد !.. وفى هذه المرة ، راى قاربا صغيرا ينفصل عن اللولية ويزحف على النهر زحفا غير محسوس .. وكانت الدمية لا تزال تتحرك بجوار سياج الشرفة ، ولكن ماكاد القارب يتقدم فى النهر شمالا ، متجها ناحية ايزاكسون ، حتى كف عن الحراك !

ووضع ايزاكسون المنظار جانبا ، وعندئذ حانت منه لفتة فراى عينى حسن الخبيثتين ترقبانه من السطح الأسفل .. ولكم تمنى وقتئذ ان يلطم حسن لطمة تصرعه ارضا ! ولكنه تظاهر بانه لم يره ، وجلس على احد المقاعد الطويلة ، بعيدا عن متناول عينى حسن، وراح ينتظر قدوم رسول « بيللا دونا »

.. ومع ان عقله البوليسى قد انباه بما لابد ان تكون عليه هذه الرسالة ، الا ان شيئا ما فى اعماقه ، وشطرا آخر من كيانه ، راحا يناضلان فى سبيل تكذيب نبأ رجل البوليس ، ويحتجان بانه لا يستطيع ان يبت فى الامر قبل ان تصير الرسالة بين يديه فعلا .. وكان هذا الشىء المكذب المحتج هو ذلك الجزء من الرجل ، الذى تسوقه الى النشاط رغبته القوية المستترة .. الرغبة التى كان حبه الغريزى للحقائق المجردة للاشياء يعلن عدم جدواها ، ولكنها كانت تابى رغم ذلك ان تظل خاملة !.. كان ايزاكسون يتوق – فى قرارة نفسه – الى ان تكون الرسالة على النحو الذى كان يعلم عن يقين انها لن تكون عليه !

واخيرا سمع خفق المجاديف على الماء بجوار « فاطمة » ، واصوات الملاحين العميقة وهم يهمهمون بانشودة رتيبة تضبط الايقاع للمجدفين .. ومع ان هذه الاصوات كانت ترتفع اليه من عالم ذهبى ، الا انها كانت اشبه بانشودة القضاء والمصير !.. ولم يتحرك من مكانه ، كما انه لم يحاول النظر من فوق السياج .. وسكت الغناء ، وانقطع صوت المجاديف ، واحس بارتطام خفيف ، تلته اصوات خشنة تتبادل الحديث .. وان هى الا دقيقة حتى كان حسن يصعد الدرج المؤدى الى السطح ، وهو يحمل خطابا بين اصابعه المقوسة السوداء ، قائلا : « ها قد وصلت الرسالة ! » . فتناولها ايزاكسون وقال : « لا حاجة بك الى البقاء » .. ولكن حسن لم يتحرك من مكانه ، وغمغم يقول : « اننى فى انتظار الـ .. » ، ولم يمهله ايزاكسون ، بل صاح : « امش من هنا ! »

وما حدث قط من قبل ان استخدم ايزاكسون مثل هذه اللهجة الجافة ، القاسية ، مع احد من اتباعه !.. فلما ذهب حسن ، فض ايزاكسون الخطاب بيد مرتعدة .. ولم يكن خطابا طويلا ، فاستطاعت عيناه ان تلما بكل كلمة فيه فى لمحة واحدة .. استطاعتا ان تلما بكل كلمة ، وان تحملا الى عقله ذلك المعنى غير المرغوب ، الذى يؤكد صواب غريزة الشرطى !

اللولية – النيل
يوم الاربعاء ...

« عزيزى الدكتور : لقد وجدت من الأفضل الا تحضر ، فعندما رجعت الى الذهبية ثانية الفيت نيجل منكبا على قراءة بعض ما نشر عن وفاة هارويتش ، فتوسلت اليه ان يدع ذلك جانبا ، والا يطيل التفكير فيما لا حيلة لأحد فى دفعه (فاننا لم نتلق الصحف التى تحدثت عن هارويتش الا بالأمس فقط) .. ولكنى اعتقد انه بسبب مرضه – يا للصبى المسكين ! – كان يميل الى

الاشياء التى تزيد من انقباضه واكتئابه !٠٠ وما كان ينبغى لى ان اتركه ، ولكنه كان قد الح على الحاحا شديدا فى ان اذهب لزيارة المعبد ، الذى لم اكن قد زرته من قبل ٠٠ وقد اقنعته بان ينحى الصحف جانبا ، وهاندا اكرس نفسى للتسرية عنه ، وادخال السرور على نفسه ٠٠ ونحن الآن نلعب الورق معا ، او اعزف له بعض الموسيقى ، او اقرا له بصوت عال ٠٠ واهم مايجب عمله الآن - الآن وقد بدا يميل الى التحسن - هو الا نعرضه للانفعال والاثارة بأى شكل ٠٠ وانك ياعزيزى الدكتور - ومعذرة لهذا القول - لشخص مثير ! ٠٠ فان لك عقلية جبارة تثير عقل كل امرىء ، وقد كنت دائما الاحظ منك ذلك ٠٠ ولما كان نيجل مولعا بك - كما هو شانه دائما - فاننى اخشى فى هذه الآونة ان تسبب له ارهاقا شديدا ، وتنهك قواه ، لانه سريع التاثر والانفعال الى حد بعيد منذ ان اصيب بضربة الشمس ٠٠ وعلى ذلك ارجو ان تتجاوز عن زيارتنا ، وان تتفضل بانتظارنا فى اسوان ٠٠ وسوف يكون فى وسعنا ان نستقبلك بعد ايام قليلة ، وعندئذ ، عندما يكون نيجل قد ازداد قوة ، فمن المحتمل ان تكون ذا عون عظيم له ، لا كطبيب - فانت ترى ان لدينا طبيبا لا ينبغى ان نتركه ، وهى تقاليد المهنة كما تعلم - وانما كصديق ! ٠٠ وان شعورنا بانك ستكون فى (اسوان) ليبعث فينا السرور والغبطة ٠٠ اما اذا كنت على شىء من القلق من ناحية صديقك ، فيمكنك عندما تذهب الى اسوان ان تسال عن الدكتور بارنج هارتلى - اذا شئت - فى فندق «كتاراكت» ٠٠ وسوف يطمئنك ويريح بالك ، كما اراح بالى٠٠ فالمسالة كلها الآن لاتعدو الحاجة الى الراحة والهدوء الكاملين حتى يستعيد قواه - المخلصة : روبى ارماين »

« ملحوظة : لا تدع رجالك يثيرون ضجة كبيرة اثنـاء مروركم بنا ، فان نيجل ينام فى اوقات غريبة غير مالوفة ٠٠ ولعل من الأصوب ان تجعلهم يدفعون الدهبية على طول الضفة المقابلة »

* * *

◆ نعم ٠٠ لقد كان الشرطى على صواب ، طبعا !

وعاد ايزاكسون يقرأ الخطاب من جديد ، ولكنه كان يقراه متمهلا فى هذه المرة ٠٠ كان الخط كبيرا واسعا ، واضحا ، ثابتا ، ولكنه كان يبدو مرتعشا هنا وهناك ، كما كانت به كلمة مقلوبة ٠٠ وعندئذ خيل اليه انه قد اكتشف علامات تدل على ٠٠٠!

وقرأ الملحوظة اربع مرات ٠٠ واذا كان الخط قد ارتعش فى صلب الخطاب قليلا ، فانه استعاد ثباته فى سطور الملحوظة ٠ وكان ايزاكسون وهو يحدق النظر اليها يشعر كما لو كان ينظر الى انذار !٠٠ وسمع وقع اقدام خفيفة

خلفه ، كأنها وقع خطوات حيوان أملس القدمين يدب نحوه ٠٠ ثم سمع : « سيدى ، ان النوبيين ينتظرون ما تريد ان تقوله للسيدة الحسناء ! » ٠٠ فنهض ايزاكسون من مقعده وراح ينظر من فوق السياج ، فرأى تحته زورقا ابيض ضم اثنين من الملاحين ـ من الرجال السود ذوى الطلعة البهية والقوام الرشيق ـ وقد جلسا القرفصاء يدخنان ٠٠ وفى مؤخرة القارب ، كان حمزة يصلى ، خلف مقعد مريح ذى ظهر مرتفع ٠٠ فلما اطل ايزاكسون من اعلى الدهبية ، حياه الملاحان النوبيان ، ولكن حمزة لم يره ، فقد كان منحنيا يضع جبهته فوق الخشب ، ثم نهض جالسا وهو يضع يديه على فخذيه ، وما لبث ان عاد الى السجود ثانية ٠٠ وظل ايزاكسون لحظة يرقبه فى استغراق وانهماك !

ـ حمزه مكارى طيب جدا ٠٠ دائما يصلى !

كان ذلك صوت حسن !٠٠ فارتد ايزاكسون عن السياج قائلا : « سلهم عما اذا كانت السيدة تنتظر ردا ٠٠ انهم لا يتكلمون الانجليزية ، فيما اظن ؟ » ٠٠ فاجابه حسن : « كلا ياسيدى » ٠٠ ثم تحدث بالعربية ، فرد عليه احد الملاحين ٠٠ ولكن حمزة لم ينقطع عن الصلاة !٠٠ وعاد حسن يقول : « لقد ذكرت السيدة انك ربما كتبت لها شيئا » ٠٠ فقال ايزاكسون : « لا باس ! » ٠٠ ثم جلس واخرج قلما وورقة ٠٠ ولكن ماذا ينبغى أن يكون جوابه ؟٠٠ وراح يقرأ خطاب مسز ارماين ثانية ٠٠ لقد كانت زوجة نيجل ، وسيدة دهبية نيجل ٠٠ ومن ثم فقد كان من المستحيل عليه أن يلح فى الذهاب الى تلك الدهبية ، بغير دعوة ٠٠ ليس هذا فحسب ، بل لقد طلبت اليه عدم الحضور !٠٠ ومع ذلك ، ترى هل أخبرت السيدة زوجها بأن صديقه فى مصر ؟٠٠ الظاهر انها لم تفعل ٠ انها لم تقل ان كانت قد اخبرته ام لم تخبره ، ولكن الشرطى ـ فى أعماق الطبيب ـ كان موقنا بأنها قد أمسكت لسانها عن ذكره ! حسنا ، لقد كان الملاحان ينتظران الرد ، وحتى هذا « التمثال البرونزى » حمزة لن يظل يصلى الى الأبد !

عندئذ غمس ايزاكسون القلم فى المداد ، واخذ فى الكتابة ٠٠ وما لبث ان قال لحسن وهو يعطيه الرقعة : « هذه للسيدة » ٠ فلما مضى يهبط الدرج ـ وهو يرفع أطراف « جلابيته » ـ نهض ايزاكسون وراح يطل من فوق السياج ثانية ٠٠ والتقت عيناه بعينى حمزة ، ولكن حمزة لم يحيه ! بل ان ايزاكسون لم يكن واثقا من ان حمزة قد رآه !٠٠ والقى الملاحان بقايا لفافتيهما فى الماء ، ثم انحنيا فوق المجاديف ، وعندئذ اندفع القارب موغلا فى الذهب الرجراج٠٠ وعاد ايزاكسون يسمع تلك الهمهمة الخافتة للأنشودة التى توحى بنذير مشئوم ٠٠ وظل الصوت يخفت ، ثم يتضاءل ، حتى تلاشى اخيرا ٠٠ وبقى

ايزاكسون متكئا على السياج يرقب « الفلوكة » الزاحفة ، ويتمنى لو انه كان فيها ، ذاهبا لرؤية صديقه !٠٠ ترى ماذا هو فاعل الآن ؟

وبدا يذرع السطح من جديد ٠٠ ان المسافة الى اسوان ليست بعيدة جدا٠٠ جبل (سلسيل) ، ثم (كوم امبو) ، ثم (اسوان) ٠٠ انها حوالى مائة وعشرة من الكيلو مترات ، تقطعها السفن البخارية عادة فى ثلاث عشرة ساعة ٠٠ ولكن « فاطمة » وهى تزحف ضد التيار ، ستستغرق وقتا اطول من ذلك بكثير ٠٠ وفى وسعه – عندما يصل الى أسوان – أن يبحث عن ذلك الرجل ، « بارنج هارتلى » ٠٠ ولكنها هى التى اقترحت ذلك ! ٠٠ وكم يشك فى هذه المراة ولا يثق فيها البتة !٠٠ لقد كان ومسز ارماين يرتبطان بكراهية متبادلة، وقد أدرك عندما التقى بها فى لندن انهما قد يكونان كذلك ، اما اليوم فقد اصبح يعلم انهما كذلك حقا !٠٠ لقد خيل اليه انه قرأ دخيلتها فى يسر ويقين غير عاديين ، وكان يعلم انها قد استشفت دخيلته فى يسر ويقين مماثلين ٠٠ كانت كراهيتهما اشبه بلوح من الزجاج الشفاف ، وقد راح كل منهما يتطلع الى الآخر من خلاله !

وتناول منظاره ثانية ورفعه الى عينيه ٠٠ كانت « الفلوكة » قد شارفت اللولية الآن ، وعادت الدمية على الشرفة تتحرك بجوار السياج من جديد ٠٠ وكان واثقا من أن تلك الدمية لم تكن سوى مسز ارماين ، وانها كانت قلقة لا يقر لها قرار فى انتظار رده ٠٠ وما لبث القارب الصغير ان التقى بالدهبية حتى بدا كأنه قطعة منها ٠٠ وتحركت الدمية ثم اختفت عن الانظار ، وعندئذ أنزل ايزاكسون المنظار عن عينيه ، ووضعه جانبا !

لقد قبل – فى رقعته الى مسز ارماين ، وهى الرقعة التى كانت تقرأها الآن – قرارها فى لهجة مؤدبة ، وأعرب عن عزمه على لقائهما فى أسوان ، ولكنه لم يكتب شيئا عن الدكتور هارتلى ، ولم يجب بشىء على ملحوظتها ٠٠ كان خطابه اقصر من خطابها ، ويحمل طابع قلة الاكتراث والفتور ٠٠ فقد عنى ، وهو يكتبه ، بان يوحى اليها بالشعور بان الأمر كله كان طفيفا ، وانه لم يكن ينظر اليه باهتمام ٠٠ ولكنه ، هو أيضا ، كتب ملحوظة فى ختام خطابه، وكان نصها :

« ملحوظة : اننى اتطلع فى سرور الى تعارف حقيقى بينك وبينى فى أسوان»

والآن ، لو انه أصدر امره للريس بفك رباط الدهبية ، ودفعها بعيدا عن الشاطىء ، واخراج المجاديف الكبيرة ، والعبور الى ضفة النهر الغربية ، فلن يلبثوا حتى يكونوا فى موازاة اللولية ٠٠ وبعد قليل تصبح اللولية وراءهم٠٠ ولا تلبث بعد قليل أن تختفى عن أنظارهم !

« والله وحده يعلم متى سيكونون فى أسوان ! » ٠٠ والفى ايزاكسون لسانه ينطق بهذه العبارة دون وعى ٠٠ كان يشعر بانه ما ان تستدير « فاطمة » عند منحنى النيل وتنساب مختفية عن الانظار - فى رحلتها البطيئة صوب الجنوب - حتى ترفع اللولية مراسيها وتنطلق صوب الشمال !٠ ولكن هل كان ذلك مجرد شعور فقط ؟٠٠ كلا ، بل كان ايزاكسون يدركه عن يقين ، وكانه كان يراه اثناء حدوثه ٠٠ لذلك لم يلبث ان هتف : « حسن ! » ٠ فلما لبى حسن النداء ، امره بأن يخبر « الريس » انه ورجاله يستطيعون ان ينعموا براحة طيلة ما بعد الظهيرة ٠ واستطرد يقول : « لسوف اذهب الى ادفو ثانية ، وربما قضيت بضع ساعات فى المعبد ! » ٠٠ فقال الرجل : « انه معبد جميل جدا » ٠٠ وكان جواب ايزاكسون : « نعم ٠٠ وسوف اذهب وحدى ، سيرا على الاقدام ! »

وبعد دقائق كان ينطلق فى طريقه نحو المعبد ، حيث مكث وقتا طويلا ٠٠ وعندما عاد الى « فاطمة » ، كان العصر يولى الادبار ٠٠ وفى الفضاء الاثيرى الممتد امامه ، كانت اللولية لا تزال قابعة بلا حراك ٠٠ وساله حسن : « انرحل الآن » ، فهز ايزاكسون راسه نفيا ٠ واذ ذاك ، عاد حسن يتساءل: « انرحل فى المساء ؟ » ، فاجابه : « سوف اخبرك عندما اريد الرحيل ٠٠ ولا داعى للاستمرار فى القاء هذه الاسئلة على ! »

كان الترجمان قد بدا يثير اعصاب ايزاكسون ، حتى لقد فكر فى ان يطرده على الفور ، بعد ان يجزل له العطاء ، وينزله الى الشاطىء فى تلك اللحظة بالذات ٠٠ وكان الدافع قويا ، ولكنه قاومه ، فقد يكون الرجل ذا نفع له وقتا ما ٠٠ وعندئذ راح ايزاكسون ينظر اليه متفحصا وهو يمعن فى التدبر والتفكير ٠ وعاد حسن يساله : « وما الذى استطيع ان اؤديه للسيد ؟ » ٠٠ فاجابه : « لا شىء ، سوى ان تمسك لسانك ! »

وفيما كان ينظر الى حسن ، خطر لايزاكسون امر ثم ما لبث ان نبذه ٠٠ كان قد فكر فى ان يرسل الترجمان برسالة الى « اللولية » ٠٠ وسيكون من اليسير ان ينتحل عذرا لهذه الرسالة ، وربما راى حسن نيجل ، بل انه سيسعى الى رؤيته اذا ما اوحى اليه تلميحا بان يفعل ٠٠ ولكنه سوف يرى ايضا مسز ارماين ، واذا لم تكن غريزة ايزاكسون والهامه قد ضلا السبيل فى برية من الخطا والسخف ، فان المراة كانت خليقة بان تفيد من حسن اكثر مما كان يستطيع هو ، فقد كان الترجمان يحمل طابع الخيانة والغدر موسوما عليه !٠٠ وكانت مسز ارماين اشد براعة واوفر قدرة على استعمال سلاح الغدر من ايزاكسون ٠٠ وانه ليقدر ذكاءها ومهارتها حق قدرهما !

وبينما كان فى المعبد ، وصل الى قرار حاسم فيما بينه وبين نفسه ٠٠ اذ

انه بانفراده فى عزلة تامة ـ وفى تلك الظلمة التى سيطرت على اجمل واهدا صرح وجه فى حياته ـ قد عرف سكينة نفسه وهدوءها ، وتبين ما توحى به اليه غريزته فى هذه السكينة .. ولو لم يكن قد انفق هذه الساعات الطويلة فى معبد (ادفو) لكان من المحتمل أن ينكر ذلك الهاتف الملح المنبعث من غريزته ، أما الآن فقد اعتزم ان يصغى الى ذلك الهاتف ، موقنا من انه يسمع اذنا واعية ذات رأى سديد !.. ورأى صارى اللولية المدبب على صفحة الذهب السحرى الرقيق ، فى ساعة الغروب .. ورآه كذلك على صفحة أشد سحرا ، من الالوان المتعاقبة بين البرتقالى والأخضر الفاقع والاحمر الهادىء ، فى ساعة الشفق .. ثم رآه أسود كالمداد على صفحة ذلك الضوء الرمادى الداكن الذى يعتصره مقدم الليل من النهر ومن الارض ومن السماء .. ثم لم يعد يراه اطلاقا ، اذ أطبق ظلام الليل على البطاح

وبدأ ملاحو « فاطمة » ينشدون أنشودة النيل ، وهم يجلسون فى حلقة حول وعاء كان قد تنقل من يد الى يد .. وتناول ايزاكسون عشاءه فى عجلة. وما لبث أن اقبل حسن يستأذنه فى النزول الى الشاطىء ، قائلا ان له اصدقاء فى القرية يود أن يراهم ، فاذن له ايزاكسون بالذهاب .. ولم تمض لحظة حتى كان شبحه الطويل يهرول فى ثيابه الفضفاضة ، ويختفى فوق المعبر صاعدا الى الشاطىء !.. ومضى الملاحون فى انشادهم ، وهم يطوحون برؤوسهم الى الخلف ، ويهزونها يمنة ويسرة ، بينما كانوا يتمايلون فى رفق الى الامام والى الوراء ، ومن جانب الى جانب .. كانوا سعداء ، مستغرقين فى انشادهم ونشوتهم !

وصبر ايزاكسون خمس دقائق ، ثم حذا حذو حسن ، فاجتاز المعبر وانساب

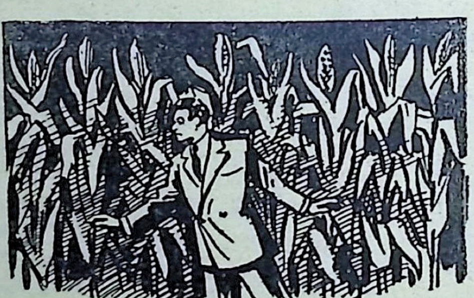

الى الشاطىء حيث وقف ساكنا على الارض المستوية التى تشرف على النهر ٠٠ وكان الليل دافئا – دفئا لذيذا – وساكنا سكونا مطبقا ٠٠ وكانت السماء صافية تماما ، خلوا من القمر ، وقد خيمت ظلمة رقيقة على النهر والسهول والجبال التى تحمى النيل من الجانبين ٠٠ وكان ايزاكسون يرى من موقفه اضواء دهبيته وهى تتألق فى الظلام ، ويسمع غناء رجاله العاصف الحزين ، ونباح الكلاب فى المنازل المختفية عن الانظار وهى تقوم بالحراسة ضد دخلاء وهميين ٠٠ وعندما نظر الى « فاطمة » تبين كيف كانت هذه الدهبية سكنه ووطنه ، وشعر بالوحشة فى مغادرته اياها للقيام بمغامرة فى ظلمة الليل !

ولكنه استدار نحو الجنوب وراح ينظر صوب النهر ، فرأى على مبعدة – أو هكذا خيل اليه بعد أن هبط الليل – وفى عزلة بين الظلمات ، وشيا من الاضواء تتوجه ، على ارتفاع مديد ، جوهرة زرقاء تبدو كأنها معلقة فى الهواء ٠٠ فادرك ايزاكسون انها مصباح مثبت على صارى اللولية ، وعندئذ وضع يده على جيبه الخلفى ٠٠ نعم ، كان مسدسه فى مكانه هناك !٠٠ واشعل سيجارا ، ولكنه ما لبث أن ألقى به بعيدا – وقد واتته فكرة طارئة – فانبعث من طرفه المتقد أزيز خافت اذ انغمس فى النهر ٠٠ وعاد ايزاكسون ينظر الى الجوهرة الزرقاء ، والى الوشى الأصفر تحتها ، وما لبث ان انطلق فى طريقه الى رحلته الليلية !

* * *

◆ كان يمشى – بادىء ذى بدء – فى بطء وحذر ، ولكن عينيه الثاقبتين الحديدتى البصر ، سرعان ما اعتادتا الظلمة ، فاستطاع ان يرى طريقه فى يسر وسهولة ٠٠ وكان بين حين وآخر يتلفت خلفه ، كما يفعل الرجل الذى يسير فى داخل نفق مظلم عندما ينظر خلفه الى المدخل الذى يظهر له ضوء النهار !٠٠ كان ينظر خلفه الى « بيته » ، فيخيل اليه فى كل مرة انه يتراجع القهقرى مبتعدا عنه ٠ واحس أخيرا بانه شريد لا بيت له ، فلم يعد ينظر وراءه ، وانما مضى يتطلع الى الامام ، نحو ذلك الوشى المضىء الذى يعين موضع اللولية ٠٠ وكان كلما امعن فى المسير ازداد احساسا – دون أن يعلم السبب – بانه قد غدا شريدا لا بيت له ، ولعله كان فى ذلك فريسة وعيه بانه يمضى نحو عدو له ٠ ان احساس الناس يختلف كل الاختلاف فى الظلام عنه فى الضوء ، كما أن تفكيرهم فى شخص معين – فى الظلام – يتخذ اشكالا غريبة غير مالوفة !٠٠ ولقد استيقظ خيال ايزاكسون الآن واخذ يهبط بتفكيره الى سراديب معتمة رهيبة ٠٠ كانت الجوهرة الزرقاء المعلقة فى الهواء تلوح له وكأنها عين قاسية لامرأة جميلة تراقبه أثناء سيره ، بل احس كأن « بيللا دونا »

قد ارتقت برجا عاليا وراحت تتجسس عليه وهو يتقدم فى ظلمة الليل !٠٠ كان وهذا الوهم الغريب يتباريان فى لعبة مروعة ، حتى نما فى اعماق ذهنه الاعتقاد بأن مسز ارماين قد تكهنت فعلا ـ على نحو او آخر ـ بدنوه منها !٠٠ ولكن كيف ؟٠٠ ان للنساء اشد انواع الالهام غرابة ، فهن يعرفن اشياء ـ اذا استخدمنا تعبيرا مهذبا ـ لا يمكن أن يدركن ماتاها !

من المحقق أن « بيللا دونا » كانت فوق برجها !

وعندئذ وقف عند حافة حقل من الذرة ٠٠ اذ ما جدوى التقدم الى الأمام ابعد من ذلك ؟٠٠ ونظر نحو الشمال ، ثم استدار وعاد ينظر نحو الجنوب ، وهو يقارن المسافة التى تفصله عن دهبيته ، بتلك التى تفصله عن اللولية ! ٠٠ وكان عقله يقول : « اذا كنت اقرب الى « فاطمة » فسوف اعود ادراجى٠٠ اما اذا كنت ادنى الى اللولية فسوف امضى قدما » ٠٠ وانباته عيناه ـ وهما تقيسان المسافتين فى امعان ـ انه كان اقرب الى اللولية منه الى دهبيته !٠٠ لقد القى النرد ، واستخبر طالعه ٠٠ فليمض فى سبيله قدما !٠٠ ومن المحقق ان « بيللا دونا » كانت تعرف بمقدمه ، وكانت تتجسس عليه من قمة برجها !

وعندئذ بلغت مسامعه جلبة عنيفة ، لم يعرف مصدرها ، انبعثت عن عدد من الفلاحين كانوا يتكلمون ـ على ما بدا ـ فى غضب شديد ، تحت جنح الظلام ٠٠ وكانت الجلبة توحى بأن جمعا من الناس كانوا فى انفعال شديد٠٠ كانت قريبة منه ، ولكنها لم تكن دانية ٠ وسمر فى مكانه ، وراح يصغى مرهفا سمعه ، محاولا ان يتبين المكان الذى كانت الجلبة تنبعث منه ، ولكنه لم يستطع !٠٠ كانت الاصوات قد ارتفعت بين اطواء الليل ، ومضت فى حدتها وضراوتها ، كأنها اصوات رجال اصابهم الجنون ٠٠ ولكنها ما لبثت ان تلاشت وسكنت فجاة ، كانما ضجر الليل من قحتها فاطبق على المتكلمين واخمد انفاسهم !٠٠ وخيم الصمت والسكون بعد ذلك ، لا يخرقه سوى حفيف اعواد الذرة الخافت ٠٠ كان صمتا رهيبا يثير الذعر والهلع !

واخذ ايزاكسون يغذ السير وقد تعلقت عيناه بهذه الأضواء البادية فى الجنوب ٠ وفيما كان يدنو منها ، احس بنوع من الانفعال البارد ٠٠ بارد لأن التوجس كان فى قرارته ٠٠ وعندما ازداد قربا من اصحاب الضوضاء ، واستطاع ان يميز اشباحهم خلال الظلمات المدلهمة ، بدا يبطىء فى سيره ، وما لبث ان وقف ساكنا ٠ وفى تلك اللحظة بالذات بدا الملاحون النوبيون على ظهر اللولية ينشدون اغنيتهم التى يذكرون الله فيها ، والتى سمعتها مسز ارماين من حديقة « فيللا اندرود » فى اولى لياليهما بمصر العليا !٠٠ وبدا « الذكر » بصوت منفرد ملء بالحرارة ، غريب الوقع على الآذان الغربية ، غزير التعبير ، اشبه بصوت مؤذن يدعو المؤمنين الى الصلاة ٠٠ كان يصيح

عاليا : « ال ٠٠ له ! ال ٠٠ له ٠٠ الله » !٠٠ وكانت تصاحب هذا الصوت همهمة عميقة رتيبة ، ودقات مكتومة على « الدربكة » ٠٠ وما لبثت ان انضمت الى ذلك الصوت اصوات باقى الرجال من فرقة المنشدين !

وفيما كان ايزاكسون ينتحى جانبا على ضفة النيل المقفرة ، فى هذا الموضع المهجور ـ اذ كانت اللولية راسية بعيدا عن اية قرية ، وفى بقعة موحشة من النهر ـ اخذ يفكر فى انه لم يسمع قط قبل الآن اية موسيقى مثل هذه ٠٠ فبينما هى صاخبة عنيفة ، اذا بها فى الوقت ذاته حزينة اليمة ٠٠ وبينما هى قاسية صارمة ، اذا بها تفيض باللوعة والحنين البدائى الساذج ٠٠ كانت تبدو مثقلة باحمال القضاء والقدر ، وذلك الذى لا مفر للانسان منه ولا نجاة ، مهما يكافح بكل قواه ، أو يصرخ من أعمق أعماق قلبه !٠٠ وخيم الشرق على ايزاكسون أشبه بسحابة عظيمة قاتمة ، وهو يسمع أنشودة الرجال السود ، ولكن شيئا فى اعماقه كان يستجيب الى هذه الاصوات ـ وهو واقف وسط السحابة ـ ويستجيب الى الارواح التى كانت خلفها ! ٠٠ وتذكر ما حدث ذات صباح فى لندن ، اذ أضجرته الحياة الرتيبة التى كانت تحيط به ، فراح يتوق الى احداث عظيمة ، فظيعة ، بل رهيبة مروعة فى مجانبتها للمالوف والعادى ، وفى ايغالها فى العنف بحيث ترفعه الى ذروة نشاطه ومقدرته ٠٠ فهل تحققت هذه الأمنية ٠٠ الآن ؟

ومد يدا نحيلة سمراء فجذب عودا من أعواد الذرة ـ المحملة بالكيزان المليئة بالحب ـ من قمته ، بينما كانت الاصوات تمضى فى انشادها ، وتمضى ، ثم تمعن فى المضى ٠ وفجاة ، انقطع الانشاد فى بتر مباغت ، حاد ٠٠ « الـ ٠٠ » ، ثم الصمت المطبق ٠٠ كانما كان اسم رب الرجال السود قد أعدم على شفاههم !٠٠ وترك ايزاكسون عود الذرة ، وانتظر قليلا ٠٠ فلما استمر الصمت المطبق مخيما على المكان ، اخذ يتقدم الى الامام حتى غدا الهيكل الخارجى للسفينة الكبيرة واضحا امام عينيه ، وحتى راى ان الضوء الازرق كان ينبعث من مصباح معلق فوق صار ضخم طويل مدبب ٠٠ كان يرى ذلك كله ، ومع ذلك كان يخيل اليه انه لا يزال يرى « بيللا دونا » فوق برجها٠٠ « بيللا دونا » الجاسوسة الأبدية ، التى كانت عيناها الجميلتان تنقبان عن أسراره بين جدران عيادته !

وراح يسير فى حذر بالغ ٠٠ وتطلع حواليه فى حيطة وحرص ، ولكنه لم ير أحدا على ضفة النهر التى لم تكن مرتفعة فى هذه البقعة ، فكان فى وسع ايزاكسون ـ دون اضطرار للهبوط ـ أن يرى ما بداخل قمرات اللولية ، ما لم تكن مصاريعها موصدة فى وجه الليل ٠ وكان من الغريب حقا ان يكون قريبا من نيجل الى هذا الحد ، بينما كان نيجل يظنه فى ميدان كليفلاند ،

ما لم تكن مسز ارماين قد صارحته بالحقيقة . وفى تلك اللحظة ، راى شيئا يتحرك على الضفة ، متسللا نحو الانوار ، كأنه لا يقوى على مقاومة اجتذابها اياه ، رغم انه كان خائفا موجسا .. ولم يكن ذلك المتسلل سوى كلب طريد بائس ، يكاد يموت جوعا بينما كانت عيناه ترمقان المكان الذى يحوى طعاما .. كلب كذلك الذى سبق أن زحف بقرب مسز ارماين حين كانت تجلس فى حديقة « الفيللا » ، بينما كان نيجل يرقب النجوم فوقها !.. فلما دنا ايزاكسون منه ، تحول جانبا وهو يرتعد فرقا - دون أن يبتعد كثيرا - ثم رقد فى مكانه ، وجسده لا يكف عن الارتعاد ..وكانت أضلاعه بارزة واضحة ، أشبه بأضلاع سفينة محطمة !

* * *

◆ كان ايزاكسون قريبا من اللولية الآن .. كان يستطيع أن يرى الشرفة التى فى المؤخرة ، والتى كانت الدمية تتحرك فيها بجوار السياج ، وكان يضيئها مصباح كهربائى صغير ، كما لم تكن جوانبها مقفلة بالقماش ، ولو انه كان يعلوها سقف من قماش القلوع .. وكان ايزاكسون يستطيع أن يرى وراءها - من خلال فتحتين واسعتين - ضوءا أشد سطوعا ، يتالق فى الحجرة المؤدية اليها .. ووقف ساكنا فى مكانه مرة أخرى ، فقد رأى على الشرفة هيكلا طويلا .. هيكل مقعد طويل من مقاعد السفن ، كما راى شبحا ممددا فوقه .. وفيما كان يمعن النظر فيما يراه ، مزق السكون صوت الموسيقى من جديد ، ولكنها انبعثت فى هذه المرة من الحجرة المضاءة .. انغام البيانو العصرية الباردة !.. لقد نزلت « بيللا دونا » اذن من فوق برجها !.. أم تراها لم تصعد اليه قط ؟

وراح ايزاكسون يصغى وهو يحدق النظر فى الهيكل الطويل .. كان عقله مليئا بتلك الموسيقى الاخرى ، صيحات الاسلام فى ليالى افريقيا . اما هذه الموسيقى الأوربية فكانت تبدو فى غير موضعها هنا .. تبدو « نشازا » متنكرا تحت النجوم !.. ولكنه ما لبث أن راح ينصت فى انتباه شديد . وتقدم خطوة الى الامام .. كان ينقب فى ذاكرته ، وكان يتساءل عما تعبر عنه هذه الموسيقى ، وعن المعنى الذى تنقله اليه .. انها لم تعد تافهة ، رخيصة ، مبتذلة .. وانما كان فيها - حتى وهى تؤدى على المعزف - حتى وهى تسمع فى هذا الليل وفى هذا المكان الموحش بين صحراوين ، نبرة توحى بعناصر الطبيعة !.. كانت « بيللا دونا » تعزف ذلك الجزء من اوبرا « حلم جيرونتيوس » الذى تصرف فيه روح الانسان الى خالقها !.. « امضى فى رحلتك أيتها الروح التقية .. اذهبى من هذا العالم ! »

كانت تعزف هذه القطعة ، وكان الشبح الممدد فى المقعد الطويل يصغى اليها .. وفى تلك اللحظة شعر ايزاكسون بالسرور يغمره لمجيئه الى مصر .. ولكنه سرور من نوع جديد : « امضى .. ايتها الروح .. اذهبى من هذا العالم » ! .. وما كاد ايزاكسون يتمثل صوت الكاهن العميق القاطع – فى الأوبرا – حتى بدا فى الموسيقى التفكك والانحلال .. كانت الذرات فيها تنفصل وتتفكك ، وكان المعبد يتهاوى ليدع ساكنه ينطلق خارجا !.. وما لبثت الموسيقى ان توقفت ، وبلغت آذنى ايزاكسون غمغمة خافتة .. واحتجب احد المستطيلين المضيئين وراء الشرفة ، بقطعة من الظلام ، ثم خرجت هذه القطعة من الظلام الى الشرفة فانحنت فوق الشبح الممدد فوق المقعد .. وبعد لحظة اطفىء المصباح الكهربائى الذى كان يضىء الشرفة ، وبقى نيجل وزوجته معا فى الشرفة المعتمة بينما كانت الحجرة التى خلفهما مضاءة

وعندما اطفىء النور ، نهض الكلب الطريد خلسة وزحف مقتربا من اللولبية .. ولمح ايزاكسون هذه الحركة الخفية ، فاحدثت فيه اثرا غير سار.. لقد راح يوازن بينه وبين هذا الحيوان الصغير ، فاحس بانه هو نفسه شخص طريد منبوذ ، بسبب هذا الذى يفعله .. ولكن شيئا ما فى قرارة نفسه – شيئا اقوى بكثير من حكمته وتعقله ، ومن « الشىء الصواب » الخليق بالرجل المهذب المحترم أن يفعله – هو الذى ساقه الى هذا المكان فى ظلمة الليل ، وابقاه هناك ، بل واستحثه على ان يحذو حذو الكلب الجائع ، وان يقترب شيئا فشيئا من هذين الاثنين اللذين كانا يحسبان نفسيهما منفردين فى الظلام !.. واستقر عزمه على سماع صوت الشبح الممدد فى المقعد الطويل . وكان النور المنبعث من حجرة الفسقية يلقى ضوءا خافتا على قسم من الشرفة .. وسمع ايزاكسون غمغمة صوت مسز ارماين من جديد . وما لبث احد المستطيلين المضيئين ان احتجب من جديد بقطعة من الظلام ، ثم اذا بالحجرة بعد ذلك تسبح فجاة فى الظلام .. فلما عادت مسز ارماين ، تسلل ايزاكسون فوق الضفة المنحدرة حتى اتخذ مكانا ملاصقا للنافذة الاخيرة فى تلك الحجرة.. وكان الخدم والملاحون جميعا على السطح الاسفل – فى مقدمة السفينة – وكان كله محاطا بالقماش السميك .. اما السطح العلوى للسفينة فكان خاليا من كل انسان ، ولو ان مسز ارماين اطلت من النافذة بعد ان اطفات النور لكان من المحتمل ان ترى شبح رجل .. ولكنها لم تطل من النافذة ، واحس ايزاكسون بانها لن تفعل . وكان فى موضعه هذا بمنجى عن عينى اى احد فى الشرفة ، على الرغم من انه كان من القرب منها بحيث يكاد يكون واقفا فوقها .. وكان النيل يجرى بالقرب من قدميه ، فى غمغمة خافتة ، وكانه يلعق الضفة فى ظلمة الليل ، ولم يكن ثمة اى صوت آخر ليحول بينه وبين

الصوتين الآخرين

وسمع حفيف ثوب ، فتذكر الهيكل الداخلى فى معبد (ادفو) .. وبعد ذلك سمع صوتا غريبا خلوا من الحياة ، لم يستطع ان يعرف صاحبه ، يقول: « آه !.. هذا افضل بكثير ، فانى أكره هذا الضوء القوى حقا » .. فقال ايزاكسون لنفسه فى دهشة : « ولكن من يكون هذا الجالس فى المقعد اذن ؟ .. أتراهما قد اصطحبا احدا معهما على الذهبية ؟ » .. وانبعث صوت خافت يقول : « ان الضوء الكهربائى يضايق كثيرا من الناس ! » .. وعرف ايزاكسون الصوت الذى نطق بهذه العبارة .. كان صوت مسز ارماين الرقيق ، الرخيم ، الملىء بالاغراء .. وعندئذ تذكر ذلك الصوت الأجش البشع الذى سمعه فى المعبد هذا الصباح !

وقال الصوت الآخر : « تعالى فاجلسى بجانبى ! » .. ايمكن ان يكون هذا صوت نيجل حقا ؟.. لقد كان الصوت ـ فى هذه المرة ـ يحوى نبرة مالوفة الى حد ما لايزاكسون .. نبرة كان يسمعها بنفس الايحاء الذى يداخل المرء حين ينظر الى خيال ويسائل نفسه : « اهذا خيال صديقى ؟ » .. وسمع حفيف ثوب ، تلاه صرير مقعد من الخيزران .. ثم قالت مسز ارماين : « ألا تظن انك أحسن قليلا الليلة ؟ » .. فتأوه الآخر قائلا : « كلا »

– لقد قال الدكتور بارنج هارتلى انك ستشفى سريعا

– روبى ، انه لا يفهم حالتى .. انه لا يستطيع أن يفهمها !

– ولكنه يبدو واثقا منها ، ثم ان له شهرة عظيمة فى أمريكا

– بل انه لا يفهم شيئا .. اننى أشعر الليلة ، وقد شعرت بذلك عندما كنت تعزفين « جيرونتيوس » ، باننى سأمضى سريعا .. « امضى ايتها الروح التقية .. اذهبى من هذا العالم » .. لقد احسست كأنما كان هذا القول موجها الى من مكان ما !

وهتفت المرأة : « نيجل ! » ، ولكنه استطرد قائلا : « من الغريب اننى ـ أنا الذى كنت أحب الشمس دائما ـ تصرعنى الشمس اخيرا .. أليس كذلك ؟.. من الغريب أن ما يحبه المرء قد يكون هو الذى يدمره ! » .. فقالت : « ولكن .. ولكن ذلك ليس صحيحا يا نيجل .. انك فى طريق التحسن ، رغم انك لا تظن ذلك ! » .. فهتف : « روبى ! » .. وكادالصوت ان يكون صارما .. وفى هذه المرة كان أشد شبها بالصوت الذى يعرفه ايزاكسون .. ومضى صاحب الصوت يقول : « روبى ، ان حالتى تزداد سوءا .. فانا اشعر اليوم باننى فى طريقى الى الموت ! » .. واذ ذاك قالت المرأة : « دعنى أبرق الى الدكتور هارتلى .. سأرسل القارب الى ادفو فى فجر الغد ! » .. وتنهد الرجل قائلا : « لو ان ايزاكسون كان هنا ! »

وخيم الصمت لحظة ، ثم قالت مسز ارماين : « وما الذى كان فى وسع الدكتور ايزاكسون أن يفعل أكثر مما فعلناه ؟ » . فاجابها : « انه رجل عجيب .. وهو يرى ما لا يراه الآخرون .. اننى أشعر بانه قادر على أن يكتشف ما بى ! » .. فهتفت : « يكتشف ؟!.. ولكنا نعلم يا نيجل انها الشمس .. انت نفسك .. » . فقاطعها قائلا : « نعم .. نعم ! »

ـ لسوف أبرق غدا الى الدكتور هارتلى ليحضر من اسوان على الفور

ـ ان هذا الأرق الفظيع هو الذى يحطمنى . لقد كنت طول حياتى انام نوما عميقا .. وهناك تلك الآلام الروماتزمية .. كيف يمكن ان تكون الشمس هى .. ؟ روبى .. اننى افكر احيانا فى أنه لا شأن للشمس بما اصابنى !

ـ ولكن ، ماذا يمكن أن يكون اذن ؟. انت تعلم انك كنت تحب ان تعرض نفسك لها ، رغم اننى طالما رجوتك وتوسلت اليك ان ...

ـ ولكن الحرارة ليست شيئا جديدا بالنسبة الى .. لقد ظللت شهورا طويلة فى الفيوم ، اعمل فى وهج الشمس وهى فى عنفوان قوتها ، فلم يصبنى منها أذى قط !

ـ انها الشمس يا نيجل !.. فقد يفعل المرء الشىء تسعا وتسعين مرة ، ولكنه فى المرة المائة يدفع الثمن غاليا !

وسمع ايزاكسون صرير المقعد ، ثم صوت مسز ارماين تقول : « أتريد ان تغير وضعك يا نيجل ؟ .. انتظر ، فسوف اساعدك ! » .. فهتف متضجرا شاكيا : « اليس فظيعا أن يفقد المرء كل قواه بهذا الشكل ؟ » .. فقالت : « انها ستعود اليك ثانية .. مهلا .. انك توشك ان تنزلق عن المقعد .. دعنى اضع ذراعى خلفك » . فقال بصوت واهن : « اجل .. اعطنى يدك ايتها العزيزة » . وبعد ان ساد الصمت لحظة استطرد يقول : « روبى ، ايتها البائسة !.. ما اقسى الزمن عليك !.. انك ما كنت تتصورين قط ان تتزوجى من شقى عليل منهار .. اليس كذلك ؟ »

ـ ولكنك لست كذلك ، فكل انسان معرض لأن يصاب بضربة الشمس.. ولن يمضى اسبوعان او ثلاثة حتى تضحك من هذا كله !.. سوف تنسى كل شىء بمجرد شفائك !

ـ ولكننى احيانا ينتابنى شعور .. اعنى .. انه .. شعور بالموت !

ـ متى كان ذلك ؟.. متى ؟

ـ فى الليلة الماضية .. أثناء الليل . فقد شعرت باننى رجل يحتضر !

ـ لم يكن ينبغى لى قط ان ادع الدكتور هارتلى يذهب الى اسوان ..ولكنك قلت انك تريد ان تكون وحدك معى ، اليس كذلك يا نيجل ؟

ـ بلى ٠٠ كنت أشعر ، على نحو ما ، بأن هارتلى هذا لن يكون ذا نفع لى ، وان اى رجل عادى لن يستطيع ان يفعل شيئا ٠٠ كنت أشعر كما لو ان القضاء حم ، وكأنما يجب ان نكافحه معا ، انت وانا !٠٠ كنت اشعر كأنما٠٠ ربما ٠٠ استطاع حبنا أن ٠٠

ولكن الصوت سكت بغتة دون أن يتم عبارته ٠٠ فشدد ايزاكسون الضغط على قبضتيه وتراجع خطوة الى الوراء ، واذ ذاك أجفل الكلب الشريد المرتعد ، وانسل بعيدا ، وكأنما خشى أن تصيبه لطمة ٠٠ وعندئذ قال نيجل : « ماهذا ؟ » ٠ فسألته زوجته : « هل سمعت شيئا ؟ » ٠٠ واجاب : « أجل ٠٠ وقع أقدام ! » ٠٠ فقالت : « أوه ، انه احد الرجال بلا شك !٠٠ هل أعزف لك المزيد من الموسيقى ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « هل تستطيعين ان تفعلى ، دون اضاءة النور ؟ ٠٠ اننى أخشى الضوء الآن ، و ٠٠ يا لله !٠٠ لكم كنت احبه ! »٠٠ وقالت المرأة : « سأحاول » ، فقال : « ولكنك ستضطرين الى رفع ذراعك عنى !٠٠ انتظرى لحظة ، أواه يا روبى ! هذا مخيف ! اننى الليلة اشعر كما لو كنت رجلا يقف على حافة هوة سحيقة ، وكما لو كنت أوشك أن أتردى فيها ، ما لم تمتد يد فتسندنى !٠٠ اننى ٠٠٠ »

وسمع ايزاكسون حشرجة فظيعة ، ثم لم يلبث الصوت ان استرد طبيعته فى الحال ، وقال : « ما فكرت قط ، مطلقا ، فى اننى سأبلغ هذه الحال يوما ، يا روبى ! » ٠٠ فقالت : « لا بأس يا عزيزى ٠٠ كل انسان ٠٠٠ » ٠ ولكنه قطع حديثها قائلا : « اجل ٠٠ نعم ، اننى أعرف ذلك !٠٠ ولكننى اكره أن٠٠ ان ذلك ليس خليقا بالرجل !٠٠ هيا اذهبى واعزفى لى ثانية » ٠٠ فقالت : « لن أعزف « جيرونتيوس » ، فانها تجعلك تفكر فى أمور كئيبة حزينة مروعة !» ٠٠ ولكنه قال : « بل اعزفيها ثانية ٠٠ لقد كانت « نوتتها » موضوعة فوق معزفك فى ذلك اليوم ٠٠ عندما ذهبت لزيارتك فى لندن ٠٠ اننى سأظل أقرنها دائما بك ! » ٠٠ وانبعث حفيف الثوب من جديد ، وهى تهم بالنهوض !

ولم يتردد ايزاكسون لحظة واحدة ٠٠ فقد اسرع يصعد الصفة ، حتى اذا ما بلغ قمتها ، وقف ساكنا لحظة ٠٠ كانت أنفاسه لاهثة ، وكان المعزف يرسل أنغامه بالقرب منه ٠٠ ان « بيللا دونا » لم تره ، كما انها ـ دون أن تراه ـ لم تحدس وجوده بالقرب منها ، وفى وسعه أن ينصرف الآن ـ وهى مستغرقة فى العزف ـ وبذلك لن يقدر لها قط أن تعرف انه كان هناك يسترق السمع فى ظلمة الليل ٠٠ بل ان احدا لن يعرف ذلك البتة ٠٠ ولسوف يعود ثانية ، علانية ، عند شروق شمس الغد ، متحديا رجاءها ورغبتها ٠٠ سوف يعود فى جرأة ويسأل عن صديقه !

« امضى فى رحلتك أيتها الروح التقية ٠٠ اذهبى من هذا العالم » !

سوف يعود غدا ، ويرى وجه صاحب هذا الصوت المتبدل ٠٠ الصوت الذى لم يعرفه الا بعناء !

« امضى فى رحلتك أيتها الروح التقية ٠٠ اذهبى من هذا العالم » !

وخطا الى الامام ليذهب الى تلك الاضواء البعيدة التى تبين موضع «فاطمة» بجوار ادفو ، والكلمات تتردد فى رأسه : « امضى ٠٠ اذهبى من هذا العالم » ! ٠٠ أكان ذلك صوت الكاهن ؟٠٠ أم تراه كان صوتا حازما لاحدى النساء ؟٠٠ وبغتة ، هدأت أنفاس ايزاكسون المتهدجة ، وأرخى قبضتيه المشدودتين ٠٠ وخيل اليه أن موجة – فقد كانت أشبه بذلك ! – من ضبط النفس القوى قد غمرته !٠٠ لقد كان يقف فى الظلام على ضفة النهر الآن طبيب عظيم ٠٠ وهذا الطبيب لا شأن له بالاضواء البعيدة بجوار (ادفو) ٠٠ لقد كانت مهمته ورسالته فى مكان آخر !

« امضى ٠٠ اذهبى من هذا العالم » !

ومشى على الشاطىء ، ثم انحدر معه الى المعبر الذى يصل الضفة بسطح اللولية ، ونحى جانبا ذلك الستار المسدل على الباب ، وفى اللحظة التالية كان يخطو فوق السطح ٠٠ ومضت عيون سوداء عديدة تنظر اليه فى رصانة، حتى نهض حمزة أخيرا وانفصل عن تلك الجماعة من ذوى العمائم ، ثم تقدم الى حيث كان ايزاكسون واقفا ٠٠ فقال له هذا : « احمل هذه البطاقة الى سيدك وسله ان كنت أستطيع أن أراه ! » ٠٠ فقال حمزة : « نعم » ٠٠ الكلمة الانجليزية الوحيدة التى كان يعرفها !٠٠ ثم مضى بالبطاقة ٠ وانقضت لحظة ٠ ثم سكت صوت المعزف دفعة واحدة !

الفصل الرابع والثلاثون

◆ **بعد** ان انقطع صوت الموسيقى ، مرت فترة خيل الى ايزاكسون انها قد استطالت دهرا ، ولكنه لم يشعر خلالها بأى انفعال ٠٠ فان الانفعال ، مع رجل من طرازه ، انما يتولد عن التردد ، وقد فارقه الآن كل تردد بشأن ما اعتزم أن يفعله.. فانتظر ساكنا عودة رسوله ، فى هدوء ، وعزم ، وثقة بنفسه ، مثلما كان يجلس فى حجرة استشارته ليستقبل عالم المرضى.. وكانت العيون السوداء العديدة تحدجه بانظارها فى تهيب ،

فيبادلها النظر ، وقد أدرك أنها لاتستشف من عينيه أكثر مما كانت عيناه تستشفان منها .. وكان حمزة ـ عندما انصرف بالبطاقة ـ قد أغلق الباب الذى يقع فى نهاية الدرج ، والذى كان يفصل قمرات اللولية عن سطحها .. فراح ايزاكسون ـ عندما لم يجد أحدا يأتى اليه ـ ينظر الى هذا الباب ، واذا به يرى فوقه تلك الكتابة العربية المنقوشة والتى كان بارودى قد ترجم معناها لمسز أرماين ، فأخذ يتساءل عما يمكن ان تعنيه !

كانت عيناه قد تعلقتا بها ، وأحس بأنها ولا بد ذات مغزى، وان الرجل الذى رآه جالسا القرفصاء تحت السقف الأسود ـ فى مقهى مدمنى الحشيش ـ انما وضعها هنا لتكون شعارا لسفينته الجميلة الرائعة .. ولكنه لم يكن يعرف العربية، ولم يكن معه من يترجم له معنى هذه الحروف المذهبة .. فقد كان ابراهيم متوعكا فى تلك الليلة ، وكان نائما متدثرا بعباءته !

وفتح الباب الأبيض فى خفة ورفق ، وظهر حمزة خلاله وهو يشير الى ايزاكسون يدعوه الى التقدم نحوه ، فأحس ايزاكسون بأنه يستجمع قواه عن وعى وعمد ، كما يستجمع المناضل قواه متأهبا للنضال ! ثم سار فوق السطح ، وهبط الدرجات المنخفضة ، حيث قاده حمزة الى حجرة الاستقبال الاولى فى اللولية . . تلك الحجرة التى كان بارودى يدعوها «وكره» ، والتى اتخذتها مسز ارماين كقاعة للاستقبال ملحقة بمخدعها . وكانت الحجرة مضاءة ، وبابها الثانى ـ ذلك الذى يقع خلف المائدة ـ مغلق.. وكانت مسز ارماين واقفة بجوار منضدة الكتابة ، وهى تمسك ببطاقة ايزاكسون فى يدها ، فما كاد ايزاكسون يجتاز عتبة الباب ، حتى خرج حمزة واغلقه خلفه فى هدوء .. كانت مسز ارماين ترتدى ثوبا اسود اللون، كما كانت على وجنتيها بقعتان حمراوان صارختان ، من طلاء صناعى لم تحسن وضعه ، فأيقن ايزاكسون انها أسرعت

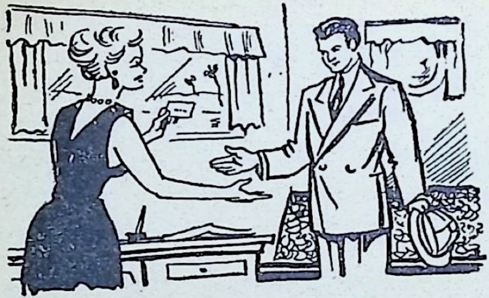

مندفعة من امام المعزف ، لتصلح زينة وجهها ، عندما علمت بمقدمه !.. وكانت تنظر اليه فى تساؤل قاس ، وهى ترفع يدها فى الوقت نفسه وتقول فى صوت منخفض : « صه . أرجوك !.. أنه لايعرف أنك هنا .. وهو نائم الآن ! »

واخذت عيناها تتفحصان وجهه وتتنقلان بين أساريره فى سرعة مروعة ، وهى تستطرد : « لقد كنت أعزف بعض الموسيقى .. كنت أعزف له لينام ! » . وكأنما تذكرت انها لم تحيه ، فمدت يدها الى ايزاكسون ، فمضى نحوها فى رفق ، وتناول يدها فى يده .. وفيما كان يفعل ، ندت عنها حركة غير ارادية ، يكاد يخالطها شىء من العنف ، وكأنما ارادت ان تسحب يدها ثانية . ولكنها سرعان ما ضبطت مشاعرها ، وتركت يدها فى يد ايزاكسون وهى تزم شفتيها بقوة . ولمح فى أحد جفونها عرقا ينبض .. وكان يمسك بيدها فى عزم رقيق حان ، وهو يقول مقلدا طريقتها المتحفظة فى الحديث : « أحسب أن قدومى فى هذه الساعة قد أدهشك كثيراً ! . اننى ارجو المعذرة ، ولكن .. » ، فقاطعته قائلة : « لماذا تجاهلت رسالتى ؟ » . فقال : « هل لى أن أجلس أولا ؟ .. ما أبدع هذه الطنافس ! . وما أروعها من سفينة ، هذه الذهبية ! » . فقالت : « آه ، نعم .. اجلس ! .. هاك الأريكة ! اجل ،

أن الطنافس جميلة .. طبعا ! » . وأسرعت نحو أقرب أريكة اليها .. وكانت تهرول وقد فارقتها رشاقتها المعتادة ، فتبعها ايزاكسون .. وجلست على حافة الأريكة دون أن تسند ظهرها . وكانت بطاقته قد سقطت منها على الارض .. وقالت: « لقد قرأت خطابى .. حسنا ، ماذا اذن ؟ »

* * *

• وخيل الى ايزاكسون أن فى أعماق جليسته — فى تلك اللحظة — نضالا عنيفا ، وان فكرها كان فى حيرة من أمر المسلك الذى ينبغى أن تتخذه الآن ، وفى الحال .. كأنما كان شىء فى اعماقها يصيح بها أن تكافح وتتحدى ، بينما كان شىء آخر يهيب بها أن تخلد الى الملاينة والكياسة .. **كان يحس أن بالقرب منه جمرا يتقد بالعنف والقسوة ، فكان يتساءل عما اذا كانت نيرانه ستذكو ويشتد أوارها .. كان يتساءل فقط ، ولكنه لم يكترث لذلك أو يبالى به ، فقد كان يعلم أن مسلك جليسته — مهما يكن — لن يغير شيئا مما استقر عليه عزمه . وحتى فى هذه اللحظة — التى كانت أشبه بشىء أسود سلطت عليه انوار ثاقبة — كان يستمتع بعقليته الشديدة اليقظة ، كما يستمتع الرياضى بقوته البالغة وهو يتأهب لتوجيه لطمة قاسية حتى ولو رأى منظرا يوقظ فيه الذعر والفزع !**

وعادت تردد وهى تتكلم فى صوت خفيض ، ولكنه لا يصل الى درجة الهمس : « حسنا .. ماذا اذن ؟ » .. وفى تلك اللحظة انبعث صوت الساعة الصداحة ، فوثبت من مكانها وهى تغمغم : « هذه اللعينة ! » .. ومضت الى حيث كانت الساعة ، فانتزعت بابها الصغير ، ودست أصابعها فى الفتحة . وسمع على الاثر صوت تمزيق وتحطيم . وما لبثت ان عادت وعلى اصابعها قطرات صغيرة من الدم ، ثم قالت : «انها تكاد تصيب نيجل بالجنون ! كان يجب أن أسكتها منذ زمن طويل ! ..

انك تلقيت رسالتى ، كما تلقيت أنا اجابتك » . فقال : « وانت ترين ـ بالطبع ـ انه ما كان ينبغى لى أن أحضر الليلة ! »

فنظرت اليه لحظة ثم عادت الى الجلوس ثانية .. ولقد أدرك من الطريقة التى جلست بها انها قد استقرت على راى معين فى المسلك الذى تتخذه . وقالت : « أحسبك شعرت بالقلق فأحببت أن تستفسر منى عن المزيد من المعلومات .. أكان الامر كذلك ؟ » . فقال : « أعترف بأننى شعرت بشىء من القلق » . فتساءلت : «وكيف اتيت الليلة؟» . واذ اجاب : « لقد مشيت » ، هتفت : « مشيت ؟ .. وحدك ؟ » . فأجاب مؤكدا : « وحدى تماما ! » .. فقالت : « كل هذه المسافة ؟ .. **سوف أرجعك فى الفلوكة »** . ولكنه قال : « آه . بل ساعود كما جئت ! » . فردت : « كلا ، كلا . سوف تستقل الفلوكة » . ومست جرسا كهربائيا ، فظهر حمزة للتو . واذ ذاك قالت له : « الفلوكة يا حمزة ! » ، فقال: «نعم» .. ثم انصرف من فوره ، فاستطردت تقول : **« لسوف يعدونها فى الحال ! »**

وراحت تحرك بعض الوسائد ، فلاحظ ايزاكسون امتقاعا شديدا حول صدغيها ، بين ركنى العينين وعظام الخدين .. وكان الشطر الاكبر من وجهها خاليا من الطلاء أو المساحيق ، رغم ظهور بعض آثار قليلة من «البودرة» فضلا عن «الاحمر» .. وعادت تردد : «لسوف يعدونها بعد لحظة » . ثم تحولت نحوه وهى تبتسم بغتة ، قائلة : « اذن فقد شعرت بالقلق ، وأحببت أن تسمع المزيد ، ففضلت أن تحضر ليلا حتى لاتروعه أو تزعجه ! . لقد كان هذا جميلا منك . والواقع أننى لم أخبره بأننى قابلتك اليوم .. لقد كنت أنوى ذلك ، ولكننى عندما عدت الى هنا عدلت عن هذه الفكرة » .. فسألها : « ولماذا ؟ » . فقالت : « لقد قرأ ما كتبته الصحف عن هارويتش ، فسبب له ذلك ازعاجا شديدا ؟ »

وعندئذ لاحظت فجأة قطرات الدم الصغيرة على اصابعها، فشهقت ، ثم مدت يدها الى صدرها وأخرجت منديلا جففت به اصابعها وهى تقول : « يالى من حمقاء ! » . وظهر اذ ذاك حمزة ، فقالت : **« آه ! .. لقد أعدت الفلوكة ! » .. ولكن ايزاكسون اضطجع الى الوراء فى مجلسه ، وأراح نفسه على الأريكة العريضة ، فقالت : « بعد لحظة يا حمزة »**

وانصرف حمزة بينما كان ايزاكسون يقول : « يا له من شخص عجيب ، هذا الذى تستخدمينه ! » .. وعلى الرغم من انه كان يتكلم بصوت خفيض ، فانه تعمد أن يضفى على صوته تلك النبرات الهادئة التى يتسم بها رجل المجتمع المهذب، الذى يروق له المقام والذى يمتد امامه نصف ساعة آخر يقضيه فى هذه الجلسة المريحة .. ثم اردف : « لقد رايته يصلى بعد ظهر اليوم » . فتساءلت : « يصلى ؟ » . وأجاب : « اجل ، عندما أحضر لى رسالتك ! » . فلاحت فى وجهها لمحة من الفزع ، ما لبثت أن تلاشت على الفور ، ثم قالت : « آه ! ان هؤلاء القوم جميعا يصلون ! »

وكانت تجلس على حافة الأريكة ، فازدادت ميلا الى الأمام، كما يفعل الشخص حين يهم بالنهوض. ولكن ايزاكسون وضع ساقا فوق أخرى ، ثم قال وهو يترك عالم الاسلام بغتة : « ان ما أخبرتنى به هذا الصباح قد أثار فى نفسى القلق نحو زوجك » . فأسرعت تقول : « لابد ان اكون قد اسأت التعبير اذن » .. وكانت - طيلة الوقت الذى قضياه فى الحديث - لاتكف عن الحراك والتململ ، ولم تجلس ساكنة قط .. فقال ايزاكسون : « اذن فأنت غير قلقة على حالته البتة ! » . فقالت : « انني .. لم أقل ذلك ! فمن الطبيعى أن تكون الزوجة على شىء من القلق اذا ما كان زوجها مريضا .. ولكنه الآن أحسن كثيرا مما كان عليه ، بحيث أصبح الانزعاج ضربا من الحماقة ! »

ـ ولكنى أعترف بأنك قد أثرت قلقى كطبيب، فى هذا الصباح

ـ اننى فى الواقع لا أرى سببا لذلك !

ـ حسنا .. أنت تعلمين أننا معشر الاطباء نغدو شديدى التيقظ والانتباه ازاء بعض العلامات والأعراض .. وقد ندت عنك اليوم كلمة أو كلمتان جعلتانى أخشى أن يكون زوجك أسوأ حالا مما تظنين !

ـ ان الدكتور بارنج هارتلى يشرف على الحالة

ولكن ايزاكسون ظل فى جداله قائلا : « حسنا ، ولكنه ليس هنا » . فقالت : « انه قادم غدا » .. ولم يثبط ردها من عزيمته ، فقال : « لقد فهمت ايه ينتظركما فى اسوان ، وأرجو ان تغفرى لى جرأتى على التطفل فى هذه المسألة ، ولكنى كصديق قديم لزوجك .. » . فقالت بلهجة حازمة : « ان الدكتور هارتلى فى أسوان ، ولكنه سيحضر فى صباح الغد ليرى مريضه . ويبدو انك لا تعلم ان أسوان قريبة جدا من هنا .. انها بعد منحنى النهر تماما » .. فقال متجاهلا ما كانت ترمى اليه : « اننى اعلم انها لا تبعد عن هنا الا بمائة وعشرة كيلو مترات فحسب !» . فقالت : «وهى مسافة لاتكاد تذكر اذا ما قطعت فى زورق بخارى او بالقطار .. سيكون الدكتور هارتلى هنا فى الصباح »

واتخذ ايزاكسون اتجاها جديدا فى جدله المنطقى ، اذ قال: « اذن ، فلا بد ان زوجك اسوأ حالا من ذى قبل ؟» . فبادرت مكذبة : « كلا .. البتة ! » . فقال : « ولكنك ارسلت فى طلب الدكتور هارتلى » .. ولم ترتبك ، بل قالت : « اننى لم أفعل ذلك الا لاننا قررنا ان نبقى هنا فى الوقت الحاضر ، بدلا من الذهاب الى أسوان كما كنا نعتزم ، اذ أن نيجل يستمتع بالسكون ، وأعتقد أن ذلك خير له .. انك تنسى أنه قد فقد شقيقه الوحيد منذ قريب » .. فقال : « اتعنين ان اللياقة تعوزنى اذ أزج بنفسى فى حزنكما المشترك ؟ » . وكان يتكلم

فى بساطة وهدوء تامين ، وان شابت صوته نبرة تنم عن عزم لا يلين . فأجابت : « لست أرمى الى هذا القول ! » . وكان صوتها أشد صلابة من صوته

— ولكنى أعتقد أنك ترين ذلك .. سأكون صريحا معك يا مسز أرماين : ان صديقى هنا ، يعانى أشد المرض ، بعيدا عن كل عناية طبية !

— فى اللحظة الراهنة فقط !

— ليكن .. انه فى اللحظة الراهنة ، اذا شئت ، بعيد عن كل عناية طبية ، وفى مكان مقفر !

فرفعت حاجبيها وهى تقول : « يا عزيزى الدكتور .. ان من يسمعك تقول ذلك ، يظن اننا فى أقصى مكان من العالم ، فى حين اننا فى وسط المدنية والحضارة وبين حشود من الناس » . فقال : « وها هنا ، بمحض المصادفة .. » ولمح اذ ذاك شفتيها تلتويان فى غضب جعلها تبدو فجأة كامرأة فى أواسط العمر . ولكنه استطرد : **« وها هنا بمحض المصادفة صديق حميم ، له به معرفة قديمة .. ثم اننى — اذا جاز لى ان أقول ذلك عن نفسى — طبيب ذائع الصيت . أفليس من الطبيعى اذن أن أحضر لارى حال المريض ؟ »** .. فقالت : « آه ! تماما .. ولقد أخبرتك الآن عن حاله ! » . فقال : « أليس من الطبيعى أن أطلب رؤية المريض نفسه ؟ »

وارتخى فمها دفعة واحدة ، وراحت تضغط بيدها على احدى الوسائد .. ثم قالت : « كلا ، لا أظن ذلك طالما أن زوجته هى التى تطلب اليك الا تحضر لزيارته ، لأن هذا سيزعجه أشد الازعاج ، ولأنه أخبرها بصفة خاصة بأنه لا يرغب فى ان يرى احدا لمدة اسبوعين أو ثلاثة » . فسألها : « أواثقة انت تماما من أن زوجك لا يريد أن يرانى ؟ » فكان جوابها : « انه لا يريد أن يرى أحدا قط لمدة أيام قلائل » .

فعاد يسألها : « وهل أنت واثقة تماما من انه لن يرغب فى رؤيتى ، اذا علم بوجودى هنا ؟ » . فهتفت : « وكيف يمكن بحق السماء .. أن يثق المرء تماما مما يفكر فيه غيره من الناس او يريده؟» . فقال : «ولماذا لاتتحققين من الامر اذن؟». واذ ذاك تساءلت : « أتحقق من الأمر ؟ ! »

ـ نعم .. بأن تسأليه هو ! .. اننى قطعا لست بالرجل الذى يفرض نفسه على صديق له رغم مشيئته .. ولكنى أكون شاكرا لك اذا تفضلت باخبار زوجك بأننى هنا ، وسؤاله عما اذا كان يود أن يرانى !

ـ معنى ذلك أنك تريدنى على أن أوقظ رجلا مريضا ، فى غمرة الليل ، وفى نفس الوقت الذى ذهب فيه للنوم ، كى يستقبل زائرا ! . حسنا اذن ، اننى أرفض ذلك رفضا قاطعا!

ـ أوه .. هذا اذا كان نائما حقا !

ـ لقد قلت لك اننى قبل أن تحضر كنت أعزف له على البيانو لينام ، وانه استغرق فى النوم .. اننى لا أراك منصفا تماما الليلة يا دكتور ايزاكسون !

ثم نهضت من مجلسها ، وهى تستطرد : « اننى اعتقد ان الطبيب خليق بأن يكون اكثر ادراكا .. » . وكان العرق الذى فى جفنها ينبض بقوة وعنف ، فنهض ايزاكسون بالمثل وهو يقول فى هدوء بالغ : « ان الطبيب فيما أظن يدرك ـ خيرا ممن هو ليس طبيبا ـ كيف يعامل رجلا مريضا .. وان ما قلته لى فى المعبد هذا الصباح ، وما سمعته عندما كنت فى القاهرة ثم فى الاقصر قبل أن أرحل جنوبا ، قد أقلق بالى نحو صديقى ، ولا بد لى من أن اطلب السماح لم برؤيته » .. فتساءلت مأخوذة : « فى القاهرة والاقصر ! .. وما الذى سمعته فى القاهرة والاقصر ؟ »

ـ سمعت فى القاهرة من أحد الرجال أن زوجك كان من شدة المرض بحيث لا يستطيع السفر ، ومن ثم لم يكن

ليستطيع ـ مهما تكن الظروف ـ أن يذهب الى انجلترا عندما سمع بموت أخيه .. وفى الاقصر سمعت من احدى السيدات نفس القصة تماما !

ـ طبعا .. وربما مع الكثير من الوشى والتزويق والمغالاة !

ـ ربما .. ولكن ضربة الشمس يمكن ان تكون شيئا خطيرا !

ـ اننى ما سمعت قط أنك أخصائى فى ضربة الشمس !

ـ وهل الدكتور بارنج هارتلى ، الذى يشرف على الحالة من أسوان ، أخصائى فيها ؟

واخذ كل منهما يحدج الآخر بأنظاره فى صمت .. وما لبثت أن قالت : « ربما كنت جائرة الليلة قليلا ، فقد لقيت قدرا كبيرا من العناء أخيرا ، مما أتلف اعصابى .. اننى أعلم أنك تحب نيجل ، وأنا جد شاكرة لك هذه اللهفة المنبعثة عن الصداقة .. ولكن ، لعلك لا تدرك انك قد عبرت عن هذه اللهفة بطريقة من شأنها .. حسنا .. طريقة تبدو كأنما تلقى اللائمة على شخصى ، وعلى مسلكى . وأية امرأة .. بل أية زوجة ، لابد أن تستنكر ذلك ، وان تستنكره بشدة » . فقال ايزاكسون بلهجة فاترة : « اننى آسف .. كيف تريننى ألقيت اللوم عليك ؟ » .. فقالت : « بكلماتك ، ومسلكك كله .. انها جميعا تبدو كما لو كانت محملة بالشك فى عنايتى بنيجل وقلقى عليه .. وأنا أستنكر ذلك ! » . فعاد يقول ثانية ، فى برود أشد من برودة الثلج : « اننى آسف ! »

وارتعدت شفتاها وهى تقول : « لعلك ـ باعتبارك رجلا ـ لا تستطيع أن تدرك كم تتألم المرأة التى تمر بأزمة عصبية ، عندما تجد بعض الناس يقتحم عليها الباب ، من الخارج وينكر كل ما كانت تفعله ، ويحقر ـ ولو تلميحا ـ من عنايتها وتفانيها وتضحيتها بنفسها ، ويحاول ـ أو يبدو كأنما يريد ان يحاول ـ أن يزج بنفسه فى مكانها الطبيعى » . ولم يغب عن ايزاكسون اتجاهها الجديد ، فقال : « اوه ! انك تغالين كثيرا يا مسز

ارماين ، فلست أريد شيئا من هذا القبيل .. وكل ما أرغبه هو أن يسمح لى باستخدام تلك الموهبة الطبية التى منحها الله لى ، فى خدمة زوجك وصديقى ! » . فكفت شفتاها عن الارتعاد ، وقالت : « لست أقوى على أن أهين الدكتور بارنج هارتلى ، بالموافقة على ادخال طبيب آخر من وراء ظهره »

وكان صوتها عندئذ باردا قاسيا حاسما كصوته! ثم أردفت تقول : « وانى لفى دهشة من عدم اكتراثك الى هذا الحد بتقاليد مهنتك ! » . فأجابها : «سأسوى هذا الامر مع الدكتور هارتلى فى اسوان » .. ولكنها قالت : « لن تكون بك حاجة الى ذلك ! .. » فصاح : « هل تعنين انك سترفضين تماما السماح لى بأن أرى زوجك ؟ » . وكان جوابها : « نعم .. ومهما يكن من امر فانك لن تستطيع ان تراه الليلة ، لانه مستغرق فى النوم »

* * *

◆ **وسكتت** فجأة ، فقد دوى خلال الصمت الذى كان يخيم على السفينة ، ذلك الرنين الحاد الذى ينبعث من جرس كهربائى .. وما لبثت مسز ارماين ان استطردت تتم حديثها فى سرعة وفى صوت غير متزن : « لأنه مستغرق فى النوم ، ولأن الدكتور هارتلى سيكون هنا غدا ، وسأعمل بما يشير به ! . فاذا ما رغب فى استشارة اطباء آخرين .. » وفى تلك اللحظة عاد الجرس يدوى عاليا من جديد، فقطبت حاجبيها .. بينما ظهر حمزة من الباب المؤدى الى الممر، واجتاز الحجرة ـ فى هدوء وبغير جلبة ـ الى الباب الواقع فى طرفها الآخر، ففتحه واختفى خلاله وهو يوصده خلفه فى سرعة وخفة حارقتين ، كأنه طيف لايمت الى البشر بصلة !

ومضت تتم عبارتها قائلة : « فسيختلف الأمر عن وضعه الحالى ، وسيسرنى حقا ان أحصل على رأيك ، فانى أعرف

قيمته ! » . ونظرت نحو الباب الذى اختفى حمزة وراءه ، ثم استطردت : « ولكن الواجب يدعونى الى ان أعامل الدكتور هارتلى بما ينبغى من الاعتبار والمحافظة على شعوره .. أما الآن فانى ارجو لك ليلة سعيدة » .. وكانت تتكلم فى عجلة . كما أسرعت تمد اليه يدها وهى تردف : « ستحملك «الفلوكة» الى مسكنك .. وفى الغد ، بمجرد أن يحضر الدكتور هارتلى وأتحدث اليه وأعرف مايراه ، فانى أبلغك كل شىء ! .. وانه لجميل منك أن تزعج نفسك بهذا الأمر »

ولكن ايزاكسون لم يتناول اليد الممدودة ، بل قال بغتة : « ان زوجك مستيقظ !. فسقطت يدها الى جانبها ، بينما كان يستطرد قائلا : **«وأظن – بل أعتقد – أنه اذا علم بوجودى هنا فسوف يسره أن يرانى .. وأعتقد انك سوف تخبرينه وتتركين له ان يقرر بنفسه مايشاء!».** فقالت ببرود : «ولكنى موقنة من انه نائم .. لقد تركته نائما . . فقال : « وهذا الجرس ..؟ » . فابتسمت قائلة : « أوه ، أنه لم يكن من نيجل . لقد كانت وصيفتى الفرنسية هى التى قرعته ، فهى تلقى هنا الكثير من التبجيل والتمجيد، وتجعل من حمزة تابعا لها يتفانى فى خدمتها » . . وفيما كانت تقول ذلك تذكر ايزاكسون ماجاء بخطاب نيجل من كلمات فى هذا الصدد: «لقد طردت وصيفتها الفرنسية حتى تكون فى حرية تامة». . فقال: « آه .. وصيفتك ! » .. وبدا صوته أشد ما يكون برودة وصلابة .. فقالت : « أجل ! »

– ولكن من المحتمل حقا ان يكون زوجك هو الذى قرع الجرس !

– كلا ، لست أظن ذلك. . بل اننى واثقة تماما من أنه ليس هو ، فان نيجل متى استغرق فى النوم لايستيقظ بسهولة !

– ولكنى ظننت أنه يعانى من الأرق !

وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى أدرك أنه قد ارتكب خطأ

جسيما .. ولم يتسع له الوقت ليصلح هذه الزلة ، اذ أسرعت تقول فى حدة : « لماذا ؟ .. ما الذى يدعوك الى هذا الظن ؟ ». فشرع يقول : « انك . . » ، ولكنها قاطعته قائلة : « اننى لم أقل ذلك قط .. اننى لم أقل كلمة واحدة من شىء كهذا ! »

وذكرت ما قاله لها نيجل من أنه سمع وقع خطوات عندما كانا فى الشرفة معا ، وعندئذ تحول لون وجنتيها رماديا تحت طلائهما الاحمر .. وعادت تقول وهى تحدجه بنظرات ثابتة : «اننى لم أقل قط كلمة واحدة عن ذلك» .. فقال : **« بل قلت انك كنت « تجلبين له النوم » ، وانك « تعزفين له لينام» .. وكان من الطبيعى اذن ان أعتقد انه مضطرب النوم .. والنوم شديد الأهمية بالنسبة اليه .. وهناك أيضا تلك الساعة »** ، وأشار الى اللعبة السويسرية المحطمة، ولكن وجهها ظل مربدا رمادى اللون ، فأدرك ان محاولاته فى تفسير زلة لسانه كانت عقيمة ، وانها أيقنت أنه سمع حديثها مع نيجل . . فليكن ! ان هذه الحقيقة قد تساعده على اجلاء الأمور ، ولكنه لن يظهر انه أدرك شيئا ! .. فاستطرد يقول: **« أن ضيقك بهذه الساعة الصداحة قد أثبت ان المريض ينام نوما سيئا وانه يتأثر لأقل جلبة »**

فانفرجت شفتاها مرتين ، وكأنها تهم بالكلام ، ولكنها كانت تطبقهما دون أن تقول شيئا .. وما لبثت أن قالت فى جهد عنيف ، وبذلك الصوت الأجش البشع الشبيه بما سمعه منها فى المعبد : « ان الوقت متأخر الآن ، كما اننى متعبة حقا ، ولم يعد فى وسعى الاستمرار فى الحديث بعد ذلك .. لقد قلت لك أن نيجل نائم ، واننى أرفض أن أوقظه من أجلك او من اجل اى شخص ! .. كما أن الطبيب الذى يفهم حالته والذى اختاره هو نفسه ليتولى هذه الحالة ، سيأتى فى وقت مبكر غدا » .. واشارت الى الباب القريب وهى تتابع القول : « ان الفلوكة هنا ، وستحملك الى الشمال .. ولا بد لى من أن أطلب اليك

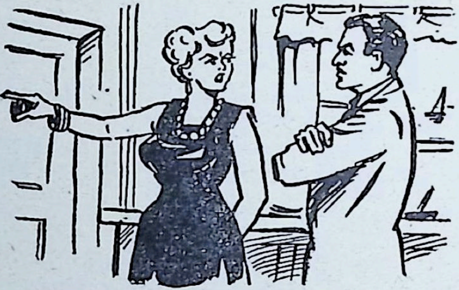

الرحيل ، فانى متعبة! » . وأرخت يدها وهى تضيف : « ان هذه الدهبية منزلى يا دكتور ايزاكسون ، ولا بد لى من أن أطلب اليك بشدة ان تبارحها ! » . فقال : «ولابد لى أيضا من أن ألح ـ كطبيب ـ فى رؤية زوجك »

كانت كل مصانعة بينهما قد زالت، وغدا الأمر نضالا عنيفا وجها لوجه . فقالت : « هذه قحة شديدة ، وانى أرفض ما تطلبه . وقد قلت لك دوافعى ! » . فقال ايزاكسون : **« انى سأبقى هنا حتى أرى زوجك ! »** . ثم جلس على الأريكة مرة ثانية فى هدوء وعزم ، وقال : « واذا احببت فان بوسعى أن أخبرك بدوافعى ! »

ولكنها لم تسأله عن هذه البواعث .. وكان ينظر اليها من خلال الحاجز الزجاجى ، فيخيل اليه انه يرى أرنبا طريدا مذعورا .. وما لبثت أن قالت وهى تبتسم فجأة ، وقد استعاد صوتها نبراته الجميلة : « من السخف ان نمضى فى كل هذا الجدل حول لا شىء ، فمن الواضح انك كنت ضحية بعض الأقاصيص المضحكة فى القاهرة والأقصر ، وما من ريب فى أن بعض الناس « الطيبين » راحدا يتكلمون كما كان يتكلم أناس «طيبون» آخرون فى لندن !.. وهانتذا تصدق كل ما قالوه ،

كما كنت تصدق كل ما كان يقال فى لندن .. وأظنهم قالوا ان نيجل موشك على الموت ، واننى أهمله، أو شيئا من ذلك النوع من الهراء .. وهكذا تقدمت أنت ، أشبه بدون كيشوت من نوع جديد ـ دون كيشوت طبى ! ـ فنحيت مبضعك جانبا ، وهرعت لانقاذ من تحسبه فى حاجة الى النجدة !.. ولكنك لاتعرف نيجل اذا حسبت أنه سوف يشكر لك هذا العمل!.». وغدا صوتها فى هذه العبارة الاخيرة ـ رغم احتفاظه بنبراته المتراخية الجميلة ـ مشوبا بلمحة بشعة مقيتة. ثم استطردت تقول فى هدوء: « ان نيجل يعرفنى كما لايعرفنى العالم كله ، وان الشخص الذى يخطىء فى معاملته لى ، ولا يرعى الاحترام الواجب نحوى كزوجته ، سيجد أنه فقد نيجل كصديق ! »

وأحس ايزاكسون بمثل ما يحس به رجل يجد عدوه يكشف بغتة عن بطارية من المدافع المضادة ، ويجد نفسه فى مواجهة فوهات المدافع الضخمة . بينما اردفت المرأة تقول فى رفق وتدبر ، وهى تؤكد قولها بانحناءة صغيرة من رأسها: « انك لاتعرف نيجل !.. ومن الافضل ان تفعل ما أطلب اليك أن تفعله يادكتور ايزاكسون .. واذا أردت أن تكون ذا نفع لنيجل، فمن الخير ألا تحاول أن تشق طريقك بالقوة فى منزلى ورغم ارادتى ، وفى مثل هذه الساعة من الليل ، فى حين اننى متعبة وقد رجوتك ان تنصرف !.. ومن الافضل ان تدعنى أطلب الى الدكتور هارتلى غدا أن يعقد ندوة استشارية، وأخبر نيجل ، ثم أدعوك الى الحضور . هذه هى الخطة المثلى اذا شئت ان تؤدى صنيعا لنيجل »

وعادت تجلس على الأريكة ـ على مقربة منه ـ الى جوار الباب الذى خرج منه حمزة، ثم اردفت تقول فى هدوء رقيق: « ثم اننا ـ نيجل وأنا ـ قد بحثنا هذا الأمر معا » .. فتساءل: «بحثتما هذا الأمر معا ؟ » .. كان قد تبين ـ بسرعة بديهته المعهودة ـ مدى القوة الحقة لهذا الوضع الاستراتيجى الذى

اتخذته فجأة ، وعلى غير انتظار .. **وكان يريد فى تلك اللحظة أن يكسب الوقت ، ولكن عزمه الأول لم يهن أو يضعف أمام تقديمها لنيجل على أنه الرجل المؤمن بها المصدق لما تقول !.. وكان يقدر ـ بحكم معرفته بصديقه ـ صدق حكمها على نيجل حق قدره ، فان ما قالته كان صحيحا كل الصحة ، وكان صدق قولها يبرز حادا نفاذا ، كأنه رأس الحربة ، وسط الأكاذيب الكثيرة التى تحيط به !**

ـ بحثتما هذا الأمر معا ؟.. كيف يمكن أن يكون ذلك ؟

ـ انه جد بسيط ، فعندما يتحاب شخصان ، فانهما لايدعان شيئا دون ان يناقشاه ويبحثاه معا .. حتى أعداءهما !

ـ يا عزيزتى المسز أرماين ، لا داعى لهذه التمثيليات المثيرة من فضلك

ـ تمثيليات أو غير تمثيليات ، يادكتور ايزاكسون ، فانى أؤكد لك تلك الحقيقة الواقعة ، وهى ان أصدقائى هم أصدقاء نيجل ، وان أعدائى سيجدون فى نيجل عدوا مبينا لهم ، بكلمة صغيرة منى !

ـ اذا كنت تعنيننى ، فان زوجك لن يكون عدوا لى البتة !

ـ هل تعرف لماذا لم يخبرك قط بعزمنا على الزواج ؟

ـ لم يكن ذلك من شأنى !

ـ لقد أنبأته غريزته بأنك لاتثق بى ! ومضى على ذلك وقت طويل حافل بالأحداث . . ثم ان الرجل الذى يحب زوجة ـ أثبتت وفاءها له وتكريسها نفسها من أجله ـ لايعبأ البتة بأولئك الذين لايثقون بها أو يسيئون الحكم عليها ، فان ارتيابهم فيها وسوء حكمهم عليها يبدوان كما لو كانا ينطويان على نقد مرير ، لا لحبه فحسب ، بل لكبريائه كذلك !.. وانى انصح لك ـ اذا ماأتيت الى نيجل كطبيب ـ ان تأتى اليه كصديق لى ، والا فلست أظن أنه ستتاح لك اية فرصة لأن تكون ذا نفع كبير له !

كان ايزاكسون يواجه ندا عنيدا لبراعته ، تلك البراعة التى كان يستمدها من الدماء اليهودية الجارية فى عروقه . وقد تمثل هذا الند فيما أوتيته المرأة من دهاء متحد، لم يخذلها حتى فى تلك الليلة، وهى فى غمرة الشكوك والريب .. فلماذا ـ وهى على هذه القوة ـ تجعل من حياتها مأساة مختلطة المعالم ؟.. ولماذا ، وهى على هذه القوة ، لم تكن قادرة قط على أن تمضى قدما فى الطريق المؤدية الى السعادة؟.. ولكنها أسئلة لاجدوى منها ، اذ لابد من البحث عن جوابها بعيدا فى أغوار الخلق البشرى !.. والآن ؟.. وعادت المرأة ـ فى تلك الاثناء ـ تقول: « اذا أتيت الى نيجل عندما أدعوك للمجىء ، فسوف يكون كل شىء على ما يرام .. أما على غير هذا النحو فصدقنى اذا اكدت لك ان العاقبة لن ترضيك ! »

وكانت تجلس على الأريكة فى استرخاء ، وقد تلاشى اللون الرمادى الداكن من وجهها ، فبدت أوفر ما تكون عليه من الرضى والارتياح . . وذكر ايزاكسون كيف استطاعت هذه المرأة أن تنال منه فى لندن ، وكيف كانت تبدو ، وهى تقف فى حجرتها بفندق سافوى ، بينما كان يودعها لآخر مرة قبل ان تتزوج من صديقه !.. كانت يومئذ ترتدى ثوبا وردى اللون، اما الآن فانها ترتدى السواد ، حدادا على هارويتش .. وكان يبدو أنها قد استحضرت بعض الثياب خصيصا لترتديها فى المساء ، وهى من ثياب « الحداد المخفف » !

فهل يدعها تنال منه مرة ثانية ، وتنتصر عليه ؟

وعندئذ أجابها فى صراحة : « ولكنك لن تستدعينى » . فسألته : « ولم لا ؟.. اننى أثق فيك كطبيب » .. فقال : « ومع ذلك فانك لن توجهى لى هذه الدعوة ! »

ـ اذا كان الدكتور هارتلى يرغب فى المشورة، فأعدك بأننى سأدعوك ، ولكنى أرجو الا تغالى فى تقدير أتعابك بما يبهظ كاهلنا .. فلا بد ان تذكر اننا الآن قوم فقراء !

وكان من النادر ان يتغير لون ايزاكسون ، ولكن هذه الكلمات جعلت وجهه الأسمر يتورد شيئا فشيئا .. وبدأ يقول : «اذا كنت تحسبين انني .. انني أسعى وراء كسب مالى .. » ، ولكنها قاطعته قائلة : « ما أجمل ان يستطيع المرء ، عند ما يحصل على اجازة ، أن يربح ما يفى بمصاريفه!.. ولكنى أعلم انك لن تحمل نيجل اكثر مما يطيق » !

فهب ايزاكسون واقفا .. كانت غريزته قد أوحت اليه بالانصراف، والابتعاد على الفور عن هذه المرأة .. ونسى لحظة ذلك الصوت الذى سمعه فى غمرة الليل ، ونسى الكلمات التى نطق بها ذلك الصوت،فلم يعد يسمع الا صوت أثرته وكبريائه، وهو يهيب به ان ينصرف !

واستطاعت ان تقرأ خواطره ، فنهضت هى الأخرى من مجلسها وسارت مبتعدة عن مكانها بالقرب من الباب، ثم قالت وهى تبتسم راضية قريرة : « أمنصرف أنت ؟ » .. ونظر اليها ، فرأى فى عينيها تلك النظرة التى رآها فيهما عندما كان يودعها فى فندق سافوى بعد مهمته الفاشلة .. وعادت تسأله: « أمنصرف انت ؟ » . فقال: « اجل .. انني ذاهب !.. ذاهب لأرى زوجك ! »

وقبل أن يتسع لها الوقت للكلام أو الحراك ، كان قد بلغ الباب الذى مر منه حمزة ، وفتحه ، ثم اختفى وراءه وهو يغلقه خلفه فى رفق !

الفصل الخامس والثلاثون

◆ كان مسلك ايزاكسون الحاسم من المباغتة والدهاء ، كما كان تنفيذه قراره الفجائى – وهو قرار ربما استوحاه من خبث غريمته وحقدها القاسيين الجامدين – من السرعة والبراعة ، بحيث فقدت مسز ارماين لحظة كل سيطرة على قواها ، بل كان يبدو أنها فقدت كل سيطرة على افكارها وارادتها .. فعندما اغلق

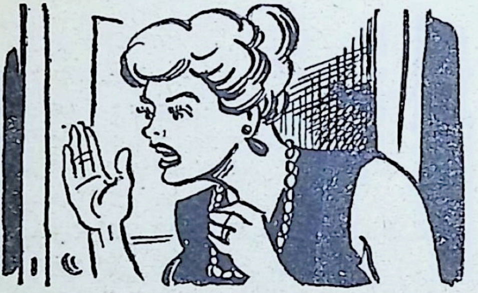

الباب والفت نفسها وحيدة فى الحجرة ، وقفت جامدة حيث كانت ، لا تستطيع ان تحرك أصبعا ٠٠ كانت تحس تبلدا فى الفهم ، وجمودا فى المشاعر ، وكانها وسنانة يداعب النعاس اجفانها !٠٠ وكما يحدث للمرء وهو يحس بذلك الخدر الذى يفصل بين اليقظة والسبات - اذ يستعيد احيانا فكرة معينة لا ترتبط فى الظاهر بأية فكرة اخرى ، ولا تتصل بأية عادة من عادات العقل الواعى - فانها وجدت نفسها تتمثل بعينى خيالها تلك الكتابة العربية المنقوشة فوق باب اللولبية ، واخذت تردد - فى صمت وتبلد - تلك الكلمات التى اختارها بارودى شعارا للسفينة التى وقع فوق ظهرها ذلك الشىء العجيب المداهم - ذهاب ايزاكسون الى نيجل ! - تلك الكلمات التى تقول : « وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه » !

نعم ، انه كذلك ٠٠ بل لابد ان يكون كذلك !٠٠ وفى استجابة بدنية غريبة للمعنى الذى لم تكن تفهمه فى تلك اللحظة الا فى غموض وابهام ، تركت جسمها يلين وينثنى ، فانحنت كتفاها الى الامام كما لو كانت شخصا القى على منكبيه حمل ثقيل ٠٠ او كأنما كان مصيرها وقدرها معلقين حول عنقها !٠٠ ولكن هذه الحركة ، رغم ضآلتها ، اعادت الى الوعى تلك المرأة التى تحدت العالم وادمته ٠٠ التى تحدت عالم النساء ، وادمت عالم الرجال ! وسرعان ما قفزت الى ذهنها فكرة كأنها الكائن الحى : « اننى المرأة الوحيدة على ظهر هذه السفينة ! »

عندئذ شدت من قامتها ، واقامت كتفيها ، وزايلها ذلك الخدر ، بل لعلها طرحته عنها فى غضب وحنق !٠٠ وفتحت الباب ومرقت منه فى سرعة خاطفة الى الممر الطويل المؤدى الى حجرة الفسقية وهى تصيح : « نيجل ! نيجل ! ما قولك فى هذه المفاجاة التى اعددتها لك ؟ » ٠٠ وكان فى صيحتها حماس

وجمال !.. واندفعت الى الحجرة فى خفة رقيقة غزيرة الأنوثة !.. وكان الرجلان هناك .. كان نيجل جالسا فوق الأريكة ، وقد اتكأ على بعض الوسائد ، بجوار المعزف المفتوح الذى نشرت فوقه النوتة الموسيقية للحن « جيرونتيوس » .. وكان ايزاكسون واقفا أمامه ، وقد انحنى فوقه ، وأمسك بيديه فى قوة وعلى نحو يكاد يبدو عنيفا ضاريا .. وكانت النافورة خلفه - فى ذلك المقر الشرقى الذى ابتدعه محمود بارودى - ترسل رشاشها عاليا ، كما كانت الكرة المذهبة تعلو وتهبط متراقصة فى حركات طائشة عابثة !

ولم تكن مسز ارماين تتبع فكرة أو تدبيرا ، وهى تدخل على هذين الرجلين، وانما كانت تعمل عفو الخاطر ، وبوحى من غريزة تمرست بالحياة طويلا .. لم يكن فى اعماقها اى جدل أو نقاش عقلى ، ولم تكن تعرف كم قضت من الوقت واقفة وحدها ، ولا هى ساءلت نفسها عما اذا كان الوقت قد اتسع أمام ايزاكسون ليقول شيئا ، أو - اذا كان الوقت قد اتسع له - ماذا كان خليقا بان يقول .. كل ما فى الأمر أنها قدمت الى الحجرة فى ذلك الاندفاع الهادىء الرقيق ، فمضت الى زوجها وجلست الى جانبه تتلمسه بأناملها ، وتحيط كتفيه بذراعها وهى تداعب عنقه بأصابعها قائلة : « ما رأيك فى مفاجآتى هذه ؟.. لقد جرؤت على اعدادها لك .. افترانى اخطأت ؟ وهل سببت لك ازعاجا ما يا نيجل ؟! » . وفيما كانت تخاطبه ، راحت تنظر الى وجه ايزاكسون ، فتبينت أنه لم يقل شيئا ، واذ ذاك سرت فى وجنتيها حمرة طبيعية ضاعفت حمرة الطلاء .. ثم استطردت تقول : « ينبغى أن تصفح عنى يا نيجل ! » .. فهتف : « أصفح عنك ؟! »

وكان صوته الضعيف ينبعث فى نبرات اقوى مما كانت تبدو فى صوته عندما كان يجلس فى الشرفة ، فترك ايزاكسون يدى صديقه ، وتحرك قليلا وقد اختفت من مسلكه تلك اللهفة العاطفية الحانية التى كانت تهتف بصديقه فى نداء صامت : « سوف أنقذك .. اليك يدا .. اليك يدين قويتين ، لانقاذك من الهاوية ! » . ووقف ساكنا منتصب القامة ، ولكنه ظل يرمق صديقه بنظرات ثابتة متفرسة .. لم يسبق له قط من قبل ان نظر الى احد مرضاه فى عيادته بلندن ، كما اخذ يحملق فى نيجل ارماين بهاتين العينين المتفرستين الثاقبتين .. وكان وجهه يقول للرجل المضطجع امامه : « هلا بحت لى بأسرارك ؟.. اننى اريد معرفتها جميعا ! » .. وعاد نيجل يردد : « أصفح عنك ؟! » . ومد يده الضعيفة المرتعدة يتلمس زوجته .. وكان يبدو مبهورا ذاهلا ، وهو يردف : « والليلة عندما .. عندما كنت اقول « لو ان ايزاكسون كان هنا » ، هل كنت تعرفين اذن ؟ »

- انه قادم الى هنا ؟.. نعم ، كنت اعرف ، وكنت أوشك ان أخبرك ..

كانت الكلمات تكاد تنطلق من شفتى ! .. ولكن ، هانتذا ترى ان المرأة تستطيع ان تحتفظ بالسر !

فسألها : « وكيف عرفت ؟ » ، ونظر الى ايزاكسون ، ولكن ايزاكسون ترك لها تدبير الاجابة ، لأن وجوده مع صديقه هو كل ما كان يعنيه ، فلم يكن يبالى بأى شىء آخر .. كما انه كان الآن يؤدى مهمة الطبيب فحسب .وقالت مسز ارماين : « لقد التقينا هذا الصباح فى معبد ادفو ، فأخبرت الدكتور ايزاكسون باصابتك بضربة الشمس، وطلبت اليه ان يحضر الليلة لزيارتك ! » .. كانت تكذب بتلك الجرأة العجيبة وذلك الاعتداد الهادىء اللذين عرفهما ايزاكسون عنها ذات ليلة فى فندق سافوى بينما كان ثلاثتهم جالسين حول مائدة العشاء .. لقد راحت اذ ذاك تلقى اليه بالاكذوبة تلو الاخرى فى هدوء وسكينة وهو يعلم انها اكاذيب صارخة .. كانت تهدى اليه تلك الاكاذيب.. وكما تقبل هداياها اذ ذاك ، اخذ يتقبلها الليلة ، مع فارق يسير ، هو انه الليلة كان عميق الاهتمام بنيجل ، عميق الانتباه الى حالته !

ما الذى كان يدل عليه هذا اللون الغريب ، وهذا المعصم المرتخى ، وهذا الهزال الفظيع ، وهاتان اليدان المرتعشتان ، وهاتان العينان اللتان تثيران الشجن ، وكأنهما تصيحان فى طلب النجدة ؟.. بل لقد كانت تبدو على نيجل أعراض اخرى ، اشد قوة ووضوحا ، تكاد تتصدى للطبيب وتهاجمه ، وكأنها تصيح لتستجلب انتباهه ، وتناضل فى لهفة لكى تروى له قصتها !

وسأله نيجل : « ولكن ما الذى أتى بك الى هنا ، فى مصر ؟.. انك لم تأت بسبب .. » . وقاطعه الطبيب قائلا : « كلا .. كلا ! » .. فسأله المريض : « اذن .. ؟ » . ولاحت فى وجه المريض ابتسامة اشبه بالبكاء وهو يستطرد: « ولكن ، اذن .. لعلك أتيت لكى ... لكى ترى سعادتنا بنفسك !.. هل تذكرين خطابى يا روبى ؟ » .. فأجابت : « اجل » . وكانت يده ما زالت مستقرة فوق يديها ، فأردف قائلا : « حسنا ، اننى منذ ذلك الحين اجتاز وقتا عصيبا .. ولكن تلك السعادة لم تتخل عنى مطلقا .. لم تنقصنى قط ! » .. فهتفت روبى : « ولن تنقصك يوما من الايام ! »

وفيما كانت تقول ذلك ، رفعت بصرها الى ايزاكسون ثانية ، فقرأ فى عينيها وعيدا قاسيا باردا كالفولاذ .. كانت هاتان العينان ترددان ما قالته صاحبتهما له فى الجانب الآخر من ذلك الباب .. كانتا تقولان : « ان اعدائى لن يجدوا فى زوجى صديقا لهم البتة » .. اما وقد رأى ايزاكسون هذين الشخصين معا ، فقد تبين حقيقة الصلة بينهما بما لم يكن فى وسع الكلمات ان تقنعه به .. وخيم الصمت لحظة لم يكن يقطعه فيها غير همسات الفسقية الخافتة .. وما لبثت مسز ارماين ان قالت فى رفق : « اما وقد تلقيت المفاجأة التى

اعددتها لك يا نيجل ، فينبغى لك أن تنام ٠٠ وسوف يعود الدكتور ايزاكسون غدا ليتبادل المشورة مع الدكتور هارتلى فى الساعة الرابعة » ٠٠ وكانت تتكلم كما لو كان كل شىء قد تم ترتيبه والاتفاق عليه ٠ ولكن نيجل قال : « انام ؟! ٠٠ انك لتعلمين اننى لا أستطيع النوم ٠٠ لم أعد أستطيع النوم الآن » ٠٠ فقال ايزاكسون فى هدوء : « هل الأرق شديد الى هذا الحد ؟ » ٠٠ فقال نيجل : « اننى لا أكاد انام قط ٠٠ والليالى تمر بى رهيبة مروعة ! »

فقالت مسز ارماين : « نعم يا نيجل ، نعم أيها العزيز ٠٠ ولكنى أظن أنك ستنام الليلة ! » ٠٠ فتساءل المريض : « ولماذا الليلة بالذات ؟ » ٠٠ فقالت: « بعد هذه المفاجأة السعيدة التى أعددتها لك ٠٠ ولكنى سآسف على ان اعددتها لك ، اذا كنت ستترك لنفسك العنان فى الانفعال ٠ هل تعلم كم تأخر الوقت الآن ؟٠٠ انها الحادية عشرة والنصف ، ويجب أن تدع الدكتور ايزاكسون يمضى الى الفلوكة ، فقد كان اتفاقنا ألا يحاول الليلة ان يسمع كل شىء عنك او يدخل فى تفاصيل حالتك ، فان ذلك ليس من الانصاف فى شىء بالنسبة للدكتور هارتلى » ٠٠ فغمغم المريض فيما يشبه عناد طفل صغير : « لعنة الله على الدكتور هارتلى ! »

– اعرف ذلك ٠٠ ولكننا لا ينبغى ان نسلك حياله مسلكا غير لائق ! والآن ، كن عاقلا واذهب الى الفراش ٠٠ لقد أخبرت الدكتور ايزاكسون بالكثير عنك ، واعلم انك ستنام الآن وقد شعرت بأنه قريب منك !

– لست أريد أن يكون لى اى شأن بالدكتور هارتلى ٠٠ انه لا يعرف شيئا ٠٠ لست أريد أن يحضر غدا !

وكان يتكلم فى غضب وعناد ، فهتفت مؤنبة : « نيجل ! » ٠ ثم ربتت بيدها على يده ٠٠ فقال : « سامحينى يا عزيزتى !٠٠ آه ! يا لى من وحش قاس ! » ٠٠ واغرورقت عيناه بالدموع وهو يستطرد قائلا لايزاكسون : « اننى اعذبها ٠٠ اجل ، اننى أعرف كم اسبب لها من عذاب ٠٠ ولكنى لا أعتقد انها غلطتى ، فانى أحس بالمرض الى حد رهيب مروع ! » ٠٠ ثم خارت قواه وتدلى رأسه على صدره ، فمد ايزاكسون يده يتحسس نبضه ٠٠ وكان نيجل يحدق الى أسفل بعينين متسعتين جامدتين كأنهما فقدتا الحياة وعلاهما غشاء زجاجى ، فنظرت مسز ارماين الى ايزاكسون ، ولكنه كان مستغرقا فى مراقبة النبض ، بينما كانت ذاكرة الطبيب – مقترنة بذاكرة الرجل الذى حاقت به الهزيمة ذات مرة من قبل – تقارن هذا النبض الهزيل الذى يخفق فى وهن تحت أنامله الحساسة ، بنبض آخر أحس به ذات مرة يخفق قويا عنيفا ٠٠ نبض جعله يدرك مدى انطلاق روح التحدى فى حياة احدى النساء !٠٠ وما لبث أن قال لنيجل وهو يترك معصمه ويرقب فى حدة

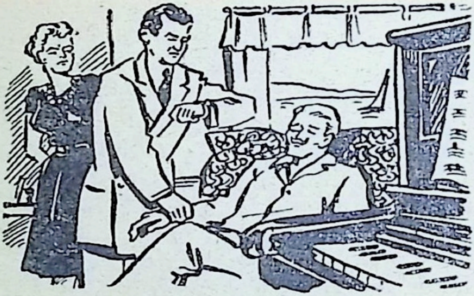

كيف سقطت يده دفعة واحدة على الوسادة : « من الخير لك أن تذهب الى الفراش ، وسوف أعطيك شيئا يساعدك على النوم » .. ففتحت مسز ارماين شفتيها تهم بالكلام ، ولكنه حدجها هذه المرة بنظرة اخرستها وجعلتها تطبقهما دون أن تنبس بكلمة .. بينما استطرد يقول لنيجل : « لست أدرى ما اذا كان من عادتك أن تاخذ شيئا - أعنى هل يعطى لك شىء - فى الليل .. فاذا كان الامر كذلك فانك الليلة ستكف عن تناوله . وعليك الا تمس شيئا سوى ذلك الذى ساعطيه لك .. ساحضر بمجرد ان تاوى الى الفراش » .. فبدا نيجل يقول : « ولكن .. اننا لم .. » . فقاطعه ايزاكسون قائلا : « نتبادل اى حديث ؟.. اعلم ذلك ، وسوف يتسع لنا الوقت لهذا الامر .. اما الآن فان مسز ارماين على حق ، اذ تاخر الوقت ولابد لك من الذهاب الى الفراش فى الحال ! »

وحاول نيجل النهوض ، وعندئذ بادرت اليه مسز ارماين تعاونه ، وتحوطه بذراعها لتسنده وهى تقوده فى بطء الى الممر الطويل الذى يؤدى الى حجرات النوم . وما لبثا أن اختفيا خلال باب صغير الى اليسار .. وعندئذ جلس ايزاكسون منتظرا ، وهو ينظر الى رشاش النافورة المتوثب ، والى تلك اللعبة المذهبة الأسيرة فى شراكه . وما لبثت أنظاره أن تحولت عنها وراحت تجوب انحاء الغرفة متفحصة كل شىء فيها .. ان الرجل الذى رآه يقود الجياد الروسية ويجلس القرفصاء على الارض فى « غرزة الحشيش » ، قد تلائمه الحياة فى هذه الحجرة تماما !.. كذلك هو نفسه - ايزاكسون - ألا يجد الحياة ملائمة مالوفة له هنا ، مع هذه المطرزات الرائعة وسجاجيد الصلاة النفيسة التى نسجت ولا شك مع شىء من لغز الشرق العميق الأبدى ؟.. ولكن صديقه .. وتلك المرأة ؟.. ترى هل يرتاحان الى هذا الجو ؟

وشعر انه الآن يبغض مسز ارماين فعلا ، فهو رجل يستطيع ان يحسن البغض والكراهية ! ولكنه لن يسمح لهذا البغض أن يخرجه عن طوره .. لقد هزمته هذه المرأة مرة فى نضال صامت نشب بينهما ، ولكنه يأبى الآن أن يهزم فى هذا النضال الثانى ، فان سقطة واحدة كانت كافية لهذا الرجل الذى لم يعتد من قبل أن يهزم أو يقهر .. واذا كان خلقه وكبرياؤه عدوين له ، فلابد له من أن يكبلهما بالقيود ولا يسمح لهما بحرية العمل !.. انها قد هاجمت كليهما هجوما قاسيا جريئا الليلة ، ولكن اللطمة لم تحقق هدفها ، وبدلا من أن تسوقه الى الانصراف هاربا ، جعلته يذهب رأسا الى زوجها .. لقد طاشت لطمتها هذه ، ولكن ايزاكسون يعترف بقوتها كخصم عنيد .. ولسوف يتبادل المشورة غدا مع ذلك الطبيب الشاب فى الساعة الرابعة !.. اذن فهذا ما قررته « بيللا دونا » ، وقضى به حكمها !

وسرعان ما جعله اشتغال فكره ونشاط عقله يمل الجلوس ، فاستوى قائما ومضى نحو الشرفة التى كان يراقبها فى ذلك الوقت المتأخر من فوق ضفة النيل .. وفيما كان يخطو اليها لمح شبحا أبيض يقف بجوار السياج ، فذكر ان حمزة كان مع نيجل ولكنه اختفى عند اقترابه . ولم يكن قد فكر فى حمزة قيد أنملة ، فقد كان المريض يستأثر بكل ذرة من انتباهه .. اما الآن – فى هذا السكون – فقد كان لديه الوقت الكافى للتفكير فى حمزة !.. واذ خرج الى الشرفة ، استدار المصرى لينظر اليه .. وكان حمزة يرتدى ثوبا ابيض ، ويجلل رأسه بعمامة بيضاء . وكانت ذراعاه تتدليان الى جانبيه ، فبدت يداه النحيلتان ، بأصابعهما المتباعدة ، كبقعتين سوداوين على ثوبه الفضفاض الطويل ، كما بدا وجهه الأسود فى الليل ، وفى الضوء المنبعث من حجرة الفسقية ، اشبه بحلم شرقى !

وكان يقبع فى عينيه تعصب بارد .. ومع ذلك فقد كانت هاتان العينان تجذبان شيئا ما فى ايزاكسون .. كان يشعر بألفة غريبة فيهما ، دون أن يفهم ما تعنيانه ! وراح يفكر فى مدخن الحشيش ، وفى بساتين البرتقال التى تحيط بالمنزل الصغير المتوارى الذى كان مدخن الحشيش يغشاه أحيانا .. ان هؤلاء الشرقيين يعيشون فى عالم خاص – نعم ، على الرغم من قدوم الانجليز وما يدعونه بـ « يقظة الشرق » – عالم غريب خيالى ملىء بالاحلام ، عالم غزير الاغراء والغواية !.. ترى هل خضعت « بيللا دونا » لسحره ، واستسلمت له ؟.. ومضت عينا ايزاكسون – فى محاولة لاشعورية – توجهان هذا السؤال الى ذلك الشرقى الذى أصبح وصيفا خاصا لتلك المرأة .. ولكن العينين لم تجيبا على تساؤله ، فاقترب من حمزة حتى وقف بجوار السياج ، ثم قدم له سيجارة ، فتقبلها حمزة – رافعا يده بالتحية والشكر فى هدوء – ثم دسها

فى مكان ما من ثوبه !٠٠ ولبثا معا والصمت ثالثهما ٠ وكان ايزاكسون يتساءل عما اذا كان حمزة يتكلم الانجليزية ٠٠ لقد كان يبدو مليئا بالاسرار التى تستقر فى أعماقه ساكنة هادئة ، اشبه بالمياه الراكدة فى بحيرة نائية تحميها الاشجار ، فى مكان خال من الرياح !٠٠ ربما كان فى وسع « ستارنورث » أن يفهمه ، فان ستارنورث يفهم بعض أسرار الشرق وخفاياه ٠٠ وعندئذ تذكر ايزاكسون حديث ستارنورث فى تلك الليلة ، والعبارة التى ختم بها سهرته ، وهو ينصرف لشأنه ، اذ قال : « هذه شريعة تختلف عن شريعتنا ! »

ولكن ٠٠ هل يقبع سر الدهبية ـ سر اللولية الجميلة ـ بين ضلوع هذا « الشرق » كذلك ؟٠٠ وفى ذلك الصمت المخيم ، راح عقل ايزاكسون ينشد الحديث مع عقل حمزة ، ويحاول ان يتصل به اتصالا وثيقا ٠٠ غير انه خال ان عقل الشاب كان يرد على أعقابه ردا رفيقا ، فان حمزة ما كان ليعترف بالشطر الشرقى من ايزاكسون ٠٠ أو لعله أحس بالعنصر اليهودى فيه !٠٠ وهكذا لم يكن هذان الرجلان قد تبادلا كلمة واحدة ، عندما انبعث صوت مسز ارماين عند باب الحجرة المضاءة ٠ ولكن ايزاكسون كان قد أدرك عبث محاولته فى ان يلقى اية معونة من هذا العقل الملىء بالرفض ـ وهذه الروح المشبعة بالصلاة ـ فى اى بحث عن خفايا الماضى ، أو اى جهد فى سبيل اجلاء بعض الأمور الملتوية ، أو اى تنقيب عن البواعث والدوافع البشرية !

وسمع حفيف ثوب ، ثم صوتا ينادى : « دكتور ايزاكسون !٠٠ آه ، أأنت فى الخارج ٠٠ مع حمزة ؟ » ٠٠ وكانت تقف فى مدخل الشرفة ٠ وما لبثت ان اردفت : « هل لك ان تأتى فتعطى زوجى تلك الجرعة المنومة ؟ » ٠٠ وأجاب لفوره : « بالتأكيد ! » ٠ فلما انتقلا الى حجرة الفسقية ، تمهلت ريثما تقول له : « انك تعلم طبعا ان هذا كله خطأ فى خطأ ، واننا لا نتصرف تصرفا سليما ازاء الدكتور هارتلى قط ، ولكنى لا احب معارضة نيجل ٠٠ فالناقهون شديدو العناد دائما ! » ٠٠ فتساءل : « الناقهون ؟! » ٠٠ وأجابت مؤكدة : « أجل ٠٠ الناقهون » ٠٠ فعاد يسألها : « وهل تظنين أن زوجك فى دور النقاهة ؟ »

ـ انه كذلك طبعا ٠٠ فانك لم تره فى الايام الاولى بعد اصابته بضربة الشمس !

ـ هذا صحيح !

ـ أرجو ان تعطيه تلك الجرعة ، أو كيفما كان اسمها ، وبعدئذ ينبغى حقا أن ننشد شيئا من الراحة !

واذ نطقت بهذه العبارة الأخيرة ، لاحظ فى صوتها نبرات امرأة كادت

تبلغ نهاية احتمالها وقدرتها على المقاومة ، فقال : « انها لن تستغرق لحظة .. فاين هو ؟ » . واجابت : « ساقودك الى مكانه » . وسارت امامه الى احدى الحجرات ، حيث وجد نيجل مضطجعا فى فراش انيق ، تحيط به الوسائد والمساند .. وكانت ثمة شمعة مضاءة فوق رف من الخشب الابيض ، ترسل ضوءا خافتا .. ووقفت مسز ارماين عند حافة الفراش تنظر من عل الى ذلك الوجه النحيل ذى اللون الغريب الشبيه بلون الرصاص ، والذى استدار نحوها متطلعا ، فقالت : « سيجلب لك الدكتور ايزاكسون النوم الآن » . فتمتم : « الحمد لله ، فان الروماتيزم يسبب لى آلاما فظيعة الليلة ! » .. وهنا تساءل ايزاكسون : « الروماتيزم ؟! »

وكان قد سكب قليلا من الماء فى الكوب ، واسقط فيه شيئا ، ثم قدم الكوب الى نيجل ، دون أن يقترب منه كثيرا .. وكان من الضرورى أن يمد المريض ذراعه حتى يمكنه أن يتناول الكوب ، فاتى نيجل بحركة ليحاول ذلك ، ولكن ذراعه ما لبثت أن هوت على الفراش ، فقال فى حنق وصبر نافد : « هلا ادنيته منى ؟ » . فتقدم ايزاكسون ورفع الكوب الى فم المريض .. ثم عاد يسأل بعد أن ابتلع نيجل جرعة الدواء : « الروماتيزم ؟! » .. فاجابه نيجل : « اجل ، انه يؤلمنى الما شديدا ، كان عددا من الحيوانات تنهش عظامى ! » .. وتاوه ثم غاص فى الفراش ، بينما كان ايزاكسون يغمغم قائلا : « اننى لا استطيع ان افهم ذلك .. الروماتيزم فى هذا الجو الرائع الجميل ؟ »

عندئذ اتت مسز ارماين بحركة مترفعة ، وكانها تهم بالخروج وتركهما معا ، فقال نيجل : « كلا .. لا تذهبى يا روبى ! » .. ومد يده يتحسس يدها ، وهو يستطرد قائلا : « اننى اريد .. اريدكما – انتما الاثنان – أن تكونا صديقين .. صديقين حقيقيين !.. انك لا تعلم يا ايزاكسون كيف كانت هى بالنسبة لى فى .. فى هذه الأوقات العصيبة كلها .. انك لا تعلم .. » . وما لبث الصوت الضعيف ان انقطع من فرط الاعياء !

وسكت ايزاكسون لحظة ثم قال : « ساحضر غدا » . فقال نيجل : « اجل ، تعال .. يجب ان ترد لى صحتى ! » .. ولم يكن باستطاعة مسز ارماين أن تصحب ايزاكسون الى « الفلوكة » او ان تقول له كلمة على انفراد ، اذ كان نيجل ممسكا بيدها وهو يكاد يتشبث بها .. ولكنها غمغمت تقول ، بينما كان ايزاكسون يهم بالخروج : « يجب ان ابقى معه حتى ينام » .. وكانت منحنية قليلا فوق الفراش .. وربما ظن بعض الناس انها كانت تبدو كالملاك الحارس للمريض ، ولكن ايزاكسون احس بتشاؤم شديد لتركه الذهبية فى تلك الليلة ، فحدج مسز ارماين بنظرة طويلة . واذ رأى انها قد استوعبت تلك النظرة تماما ، مضى لشانه وقد تركها فى هذا الوضع الجميل العطوف !

ومضى الى السطح متمهلا .. وكانت الفلوكة لا تزال فى انتظاره ، فانتقل اليها . ومضى اثنان من الملاحين يجدفان مبتعدين عن الذهبية الى عرض النهر ، وقد شرعا فى الغناء .. واخذت اضواء اللولية تتسلل متوارية ضوءا بعد ضوء .. ضوءا اصفر تلو ضوء اصفر ، بينما ظل الضوء الأزرق يتطلع نحوه من عل ، كانه عين رقيب .. وكانت ظلمة الماء اشبه بالأبنوس المذاب السائل، تحمل الفلوكة بما فيها من نشيد كانه نذير القدر المحتوم ، بينما كان التيار يمد يد العون للمجاديف !

وكانت الاضواء تتضاءل شيئا فشيئا عندما رفع ايزاكسون يده فجاة وهو يهتف بالملاحين : « صه ! » .. فترك الرجلان مجدافيهما فى دهشة ، كما جمد الغناء فى حلقيهما .. فقد انبعثت فوق النيل ، ضحكات خافتة ، ولكنها كانت حادة ذات صرير .. كان ثمة شخص يضحك ثم يضحك ، ويمعن فى الضحك فى هذا الوقت من الليل !.. ومضى كل من النوبيين يحدج زميله بأنظاره ، وقد أدار الرجل الممسك بدفة القارب راسه نحو زميله ! وتبعت تلك الضحكات الرهيبة صيحات خافتة ، ثم .. اليس ذلك صوت امراة تنشج نشيجا حارا فى مكان ما ؟

ولبث ايزاكسون ينصت حتى تلاشى الصوت ، وعندئذ اوما الى الملاحين براسه - وقد علا وجهه العبوس وتوترت عضلاته - فعادا ينحنيان من جديد فوق المجاديف .. وعادت الفلوكة تنزلق فوق صفحة النيل !

الفصل السادس والثلاثون

◆ كانت مسز ارماين - عندما ارسلت رقعتها الى ايزاكسون على ظهر دهبيته « فاطمة » - قد ابرقت سرا الى الدكتور هارتلى تطلب اليه الحضور

الى اللولية باسرع ما فى وسعه .. ولكنها اوحت الى ايزاكسون بأنه سيحضر فى الساعة الرابعة من اليوم التالى .. فلعلها نسيت - او لم تكن تعرف - مواعيد القطارات القادمة من أسوان !.. ومهما يكن من امر ، فان الدكتور هارتلى وصل الى اللولية قبل الموعد الذى حددته مسز ارماين للاستشارة بساعات عديدة . وسرعان ما الم بتطورات حال المريض وتولى أمره ، بينما كان ايزاكسون لا يزال على ظهر دهبيته « فاطمة » !

ولم يكن ايزاكسون قد ذاق للنوم طعما فى ليلته تلك ، كما ان حلم النيل ، وسحره - الذى كان قد غرق فيه حتى اذنيه - غاض وتلاشى حتى لكانه لم يوجد قط .. كان شعوره الداخلى يوحى اليه بالذهاب الى اللولية عند انبثاق النهار ، ولكنه - للمرة الاولى - ابى ان يطيع هذا الشعور .. وعند الفجر ، كان العقل الذى هدات سورته يقول له : « رويدك لا تندفع ولا تتهور ! » ، فاصغى الى صوته ، وكبح جماح نفسه .. وكان لابد من ان يقضى بضع ساعات على انفراد ، وفى هدوء شامل ، بعد تلك الليلة المسهدة المليئة بالافكار المحمومة .. ولم يكن ثمة سبب معين ، فيما كان يعتقد - بعد تلك النظرة الطويلة التى حدج بها مسز ارماين قبل خروجه من حجرة نيجل مباشرة - يستحثه على الذهاب فى الساعات الاولى من هذا اليوم الجديد ، الى المريض الذى كان ينوى أن يعالجه ويشفيه ، فليدع الجرعة المنومة تحدث أثرها كاملا ، وليدع ساعات الصباح النقية تهدىء سورة الحمى فى الكاره هو !

وهكذا جلس فى استرخاء على سطح الدهبية ، بينما كانت الشمس ترتقى فى جلال عرش السماء الصافية ، واخذ يرقب كفاح الكادحين عند الشادوف . وكان ضوء الشمس يسطع لمحة خاطفة على الماء المتدفق من الدلاء ، فيحيله - للحظة عابرة - الى اعجوبة رائعة .. وراحت العجائب تترى ، اذ كان العمل الشاق لا ينقطع ، وكانت الاجسام العارية لا تفتا تنحنى وتستقيم ، والعضلات المفتولة تنفر وتبرز ، ثم لا تلبث ان تبدو كانها تسيل - كما يسيل هذا الماء - على الساعدين ، تحت الجلد الاسمر البرونزى .. ومن الرئات ، التى بدت وكانها صنعت من نحاس ، كانت تنبعث تلك الاناشيد القوية ، التى يحتمل أن تكون ضفاف النيل قد ظلت ترجعها مذ بدأ أبو الهول الخالد يحملق فى الفضاء السرمدى بعينيه اللتين لا تمتان الى هذه الدنيا بصلة ! .. وعلى الرغم من أن ايزاكسون قد تمهل عن عمد - ريثما يستطيع أن يسيطر على نفسه تماما ويملأها بالسكينة والهدوء ، وريثما يطرد من قلبه وفكره أى تحيز او تحامل محتملين - فانه لم يمض فى تمهله حتى الساعة التى حددتها مسز ارماين . فما ان مرت الساعة الواحدة - ورغم وقدة الحر

الشديدة - حتى كان يجلس فى « الفلوكة » الوحيدة التى زودت بها «فاطمة» ، وفى صحبته - عدا المجدفين - حسن .. ولو انك سالت ايزاكسون عن السبب فى اصطحابه ، لما استطاع ان يقدم اجابة شـافية .. كل ما فى الأمر انه خطر له ان ياخذه معه ، ففعل !

وكان ايزاكسون قد عاد الى دهبيته فى الليلة الماضية فى سرعة ويسر مع التيار ، اما الآن - وفى وقدة الحر - فقد كان عليه ان يمضى ضد التيار مصعدا فى النيل . وكان الرجال يعملون فى مشقة بالغة ، وهم يرفعون انفسهم عن مقاعدهم مع كل لطمة من لطمات المجاديف ، ويشددون الضغط باقدامهم ليستجمعوا قواهم .. ولكن تقدم القارب كان بطيئا ، حتى لقد كان ايزاكسون يحس - فى بعض الاحيان - كان قوى بشرية خفية تجهد فى رده عن غايته .. كان يحس بمقاومة عنيدة لابد من مكافحتها فى غير رحمة او شفقة .. وكانت عضلات جسده - بين الحين والحين - تتصلب وتشتد ، وهو يراقب الرجال فى كدهم العنيف .. ولكنهم ، اخيرا ، بداوا يقتربون من اللولية . واخذت عيناه الثاقبتان تجوبان الشرفة بحثا عن اشخاص فيها ، الا انه لم ير احدا ، فقد كانت الشرفة خالية خاوية .. وخيل اليه ان السفينة الكبيرة قد استغرقت فى نوم عميق ، تحت وطاة الحر اللافح ، وفوق المياه التى كانت اشعة الشمس المحرقة تنصب عليها انصبابا .. بل بدت وكانها خلت من اى اثر للحياة فى اى مكان فيها . وكان هذا الشعور - بخلوها من آثار الحياة - يزداد لديه كلما ازداد من السفينة اقترابا .. كان السطح العلوى كله - فيما عدا الناحية المواجهة للضفة والتى لم يكن يستطيع ان يراها من القارب - مغطى بالستائر السميكة ، وكانت المصاريع الخشبية لنوافذ الحجرات مغلقة جميعها . ومع ان بابى حجرة الفسقية كانا مفتوحين ، الا ان الحجرة نفسها كانت ترزح تحت ظلمات لم تستطع عينا ايزاكسون ان تخترقا حجبها من قاربه الصغير .. ولم يسمعوا اى صوت يحييهم وهم يدنون من الدهبية ويجدفون بجوارها ، فبدا ايزاكسون ياسف لقدومه فى ساعة القيلولة .. وكان القارب ينزلق بهم امام نافذة خضراء بعد نافذة خضراء اخرى ، حتى اصبح محاذيا للسطح الامامى المنخفض . وهناك كان ابراهيم يقف بقامته المديدة ، منتبها ، وقد لاحت على وجهه ابتسامة عريضة مرحبة .. واحس ايزاكسون بشىء من المباغتة اذ وجد ان اقترابه من السفينة كان معروفا ، واذ وجد فى انتظاره هذا الترحاب الرقيق !

وخطا الى سطح السفينة ، يتبعه حسن عن كثب .. كان السطح قد تناثرت عليه اجسام رجال لا تسترهم الا ثياب ضئيلة ، وقد استغرقوا فى نوم عميق .. فخاطب ايزاكسون ابراهيم فى صوت خافت ، قائلا : « هل تلهو

الانجليزية ؟ » ٠٠ فاجابه ابراهيم : « اجل ياسيدى ٠٠ هل حضرت لتقابل الطبيب الطبيب الذى يعالج سيدى آرمينيجل؟٠٠ انه هنا منذ زمن طويل ! » ٠٠واذ ذاك تساءل ايزاكسون : « هل حضر حقا ؟! » ٠٠ فابتسم ابراهيم مؤكدا ، وقال : « منذ زمن طويل جدا ياسيدى ٠٠ وقد حضر ليقيم معنا حتى يشفى سيدى ! »

واستدار ابراهيم - وهو يستجمع اطراف ثيابه الذهبية اللون - ومضى يرتقى الدرج الى السطح الملوى ٠٠ وتردد ايزاكسون لحظة ، ثم لم يلبث ان تبعه متمهلا ٠ وفى هذه اللحظة القصيرة من التردد ، كان يقول لنفسه « كان ينبغى ان احضر الى هنا فى وقت مبكر ! » ٠٠وفيما كان يرتقى الدرج - وعندما اصبحت عيناه فى مستوى الدرجة العليا منه - تبين وجود شاب نحيل الجسم انيق الثياب ، يرتدى بنطلونا ابيض من التيل ، وقميصا حريريا ذا ياقة لينة منخفضة ، ورباطا للرقبة ذا لون وردى فاتح ، وسترة أنيقة التفصيل ، رمادية، ذات خطوط رفيعة زرقاء ، وجوارب وردية اللون ، وحذاءين ابيضين من جلد الغزال (شاموا) ، وقد اضطجع فوق مقعد طويل ، تحيط به الوسائد اللينة ، ووضع فوق عينيه قبعة من القش استقرت حافتها فوق انفه القصير المستقيم، الذى يدل على شىء من الصفاقة !٠٠ وكانت تنبعث من سيجارة ثبتها بين شفتيه حلقات متتابعة من الدخان الشاحب

واذ وضع ايزاكسون قدمه فوق السجاجيد الشرقية النفيسة التى كانت تغطى سطح الذهبية ، دفع الشاب قبعته الى أعلى ، ونظر الى القادم ، ثم خفض ساقيه فى بطء ، ونهض قائلا : « دكتور ايزاكسون ؟ » ٠٠ فقال الطبيب وهو يتقدم نحوه : « اجل » ٠ واذ ذاك مد الشاب يده اليه فى غير اكتراث ، وهو يقول : « يسرنى ان ألقاك ٠٠ اننى الدكتور هارتلى ، الذى يتولى علاج حالة ضربة الشمس الموجودة هنا ٠٠ وقد اتيت اليوم من اسوان لأرى كيف تسير حالة مريضى ٠٠ هل لك فى سيجارة ؟ » ٠٠ فاجاب ايزاكسون : « شكرا » ٠ وتناول اللفافة ، بينما كان الطبيب الشاب يردف قائلا : « ان الجو جميل فى اسوان !٠٠ هل هذه اول زيارة لك للنيل ؟ »

وكان الشاب يتكلم فى لهجة لا يكاد يبدو فيها اقل اثر للكنة الأمريكية ، بل انه عندما رفع قبعته ، كشف عن وجه اسمر يعلوه نمش خفيف ، وشعر كثيف اسود مفروق عند وسط الراس ، تتخلله تموجات طبيعية ، وان خيل للرائى انها من اثر صنعة متقنة !٠٠ وكان له شارب صغير منتفش ، يدل على انه ترك لينمو حديثا ٠٠ وكانت ذقنه مستديرة ، تكاد تدل على الشهوة ٠ اما عيناه فكانتا واسعتين مستديرتين ، لهما لون رمادى مشوب بالصفرة ٠٠ وكانت الحلاق الرجل تبدو فى هاتين العينين واضحة كل الوضوح !٠٠ كانتا جيلتين ،

شديدتى الحساسية .. ولكنهما كانتا تنمان عن الأثرة والأنانية المقرونتين بالشهوة وحب الملذات .. وكان يلوح شابا حدثا ، ولكنه كان فى الواقع قد تخطى الثلاثين . وقال ايزاكسون يجيب عن سؤاله : « أجل ، انها زيارتى الأولى » .. فقال الآخر : « هلا جلست ؟ » . وكان يتكلم فى يسر وراحة وكأنه من اهل البيت .. وما لبث ان غاص فى مقعده الطويل ثانية ، وهو يضع قبعته فوق ركبتيه ويمد ساقيه امامه ، بعد أن رفع سرواليه الأبيضين قليلا .. واتخذ ايزاكسون مجلسه فوق مقعد صغير ، ثم مال الى الأمام ، وقال فى صوت رجل الأعمال الذى يتطرق الى الموضوع مباشرة :

- لا شك ان مستر أو مسز ارماين ، او لعلهما كليهما ، قد شرحا لك كيف جاءت صلتى بهذه المسالة ؟.. اننى صديق قديم لمريضك !

فقال الدكتور هارتلى فى صوت جاف الى درجة ملحوظة : « هكذا فهمت ! »

- لقد عرفته منذ عهد بعيد ، قبل أن يتزوج .. منذ عهد بعيد جدا ، قبل أن يكون رجلا عليلا !.. واذ كنت هنا ، وسمعت عن مرضه الفجائى الخطير ، فقد حضرت طبعا لأرى كيف حاله ..

- شىء طبيعى جدا !

- ومن المحتمل ان تكون قد سمعت باسمى كطبيب استشارى فى لندن ؟

- بالتاكيد .. فان نجاحك عظيم طبعا يا دكتور ايزاكسون .. وانى لأعجب حقا كيف استطعت أن تحصل على اجازة ، واعجب كيف سمحت لك سيدات لندن بالرحيل ؟!

وعلت الابتسامة شفتيه ، ومضى يتحسس شاربه فى رفق ، فقال ايزاكسون : « ولماذا السيدات ، خاصة ؟ » .. فأجاب الطبيب الشاب : « لقد فهمت ان عملك ينحصر - فى الغالب - فى علاج سيدات الطبقة الراقية العصبيات فى لندن ! » .. فقال ايزاكسون : « كلا ! » ، وكان صوته فى هذه المرة ينطوى على صدى الخشونة والجفاف اللذين كانا فى لهجة الدكتور هارتلى .. فقال هذا : « اننى آسف ! »

- هل لى ان اسالك عن السبب ؟

- اننا فى الجانب الآخر من المحيط نعدهن .. هل لى ان اقول : خير طراز من المرضى ؟!

فندت عن ايزاكسون آهة خافتة ، وتذكر - فى تلك اللحظة - عبارة مسز ارماين التى جعلته يندفع الى حجرة المريض فى الليلة الماضية .. وخيل اليه انه يستطيع ان يستشف استفزازها القاسى فى هذه الكلمات التى نطق بها الطبيب الشاب .. الكلمات التى بدت مبهمة ، وان كانت واضحة بما فيه الكفاية ! ولكنه استطاع ان يكبت مشاعره ، وان يقول مستبعدا الحديث عن شخصه :

« اعتقد فيما يختص بمستر ارماين ٠٠ » ٠ ولكن الدكتور هارتلى قاطعه فى حزم وهدوء ، وقد بدا انه على قدر وافر غزير من رباطة الجاش وضبط النفس ٠٠ اذ قال وهو يسوى بعض الغضون فى سرواليه : « اعتقد ان الصراحة تمهد الطريق وتيسر الأمور دائما ٠٠ ولذلك أقول لك اننى لست فى حاجة لأية مشورة يا دكتور ايزاكسون ٠٠ اننى لا أعدها من الحالات التى تحتاج الى تبادل المشورة فى الوقت الحاضر ، ولكنى اذا رأيتها كذلك ، فسوف يسرنى عندئذ ان أدعوك الى هنا »

وكان ايزاكسون يرخى بصره متاملا السجادة الممتدة تحت المقعد ، فقال دون ان يرفع نظراته : « هل ترى ان مستر ارماين يتقدم على نحو يدعو الى الاطمئنان ؟ » ٠ فقال هارتلى : « انها ضربة شمس شديدة ، وسوف تحتاج الى مزيد من الوقت والعناية ٠٠ ولذلك قررت أن أمكث بضعة ايام على ظهر السفينة لأكرس نفسى للعناية بهذه الحالة ، والتفرغ لها » ٠٠ فقال ايزاكسون : « هذا جميل منك »

– وليس لدى اية ذرة من الشك فى اننى سوف اعيد الى مريضى صحته الكاملة سريعا جدا !

– ألا ترى اية مضاعفات فى الحالة ؟

فهتف هارتلى : « مضاعفات ؟! » ٠٠ وكانت نبراته عدائية بادية التحفز ، ولكن ايزاكسون عاد يقول فى هدوء : « أجل ، مضاعفات !٠٠ هل انت مقتنع تماما بانها حالة ضربة شمس ؟ » ٠٠ فصاح الآخر متحمسا : « تماما ! » ٠ ولكن ايزاكسون قال فى هدوء بارد : « حسنا ٠٠ ولكنى لا أراها كذلك ! » ٠ فحملق الدكتور هارتلى فيه ، قائلا فى خشونة : « اننى اعلم انك قد حضرت بنية تبادل المشورة ، ولكن مريضى لم يطلب ذلك ٠٠ ولما كنت اعتقد ان هذه المشورة ليست لازمة على الاطلاق ، فانك خليق بأن تعترف باننا لسنا فى حاجة الى متابعة الحديث فى هذا الشان ! »

– هل قلت ان المريض لا يرغب فى اخذ رايى عن الحالة ؟

ولاحت امارات الدهشة على ايزاكسون ، وهو ينطق بهذه الكلمات ٠ بينما اجاب هارتلى : « لقد قلت ذلك حقا ، فهو راض تماما عن ترك حالته بين يدى ، وقد انبانى بذلك عند وصولى فى الصباح ! » ٠٠ وهنا قال ايزاكسون : « لست اشك لحظة فى مقدرتك يا دكتور هارتلى ٠٠ ولكن الحقيقة هى ان ازدواج الرأى فى الحالات المعقدة ٠٠ » ٠ فقاطعه الآخر بحدة : « ومن الذى يقول انها حالة معقدة ؟ » ٠٠ فاجاب ايزاكسون : « أنا ٠٠ ولقد صدمت اشد صدمة لمنظر مستر ارماين ، عندما رايته فى الليلة الماضية ٠٠ ولو انك عرفته وهو فى صحته الكاملة ، لصدمت مثلى ٠٠ لقد كان من اشد الرجال الذين رايتهم فى حياتى

قوة ، واوفرهم صحة ، واتمهم عافية ! »

وكان ايزاكسون وهو يقول هذه العبارة يتخيل ارماين واقفا امامه ، كعهده به من قبل . ثم استطرد يقول مكملا عبارته : « ان التغير الذى اصابه - فى عقله وفى بدنه - يبعث على الفزع والرهبة ! » .. وكانت فى نبراته رنة تنم عن الاخلاص والخوف ، فتململ الدكتور هارتلى فى مجلسه ، واخذ يعبث بقبعته ، ويجذب سرواليه الى اسفل ، ثم اسقط سيجارته على السجادة ، وما لبث ان بادر فى عجلة وارتباك الى اطفائها بقدمه .. وكان قد انزل قدميه بعد ان كانتا مرفوعتين امامه ، وجلس ضاما اياهما فوق السجادة ، وهو يقول : « من الطبيعى ان اصابة كهذه تحدث بالرجل تغييرا جسيما ، فماذا تنتظر غير ذلك ؟.. ماذا تنتظر غير ذلك حقا ؟.. لقد لاحظت ذلك كله ، وهذا هو السبب فى اننى سوف ابقى هنا .. ولعمرى يا دكتور ايزاكسون .. » . وكان وهو يقول ذلك يحاول اصطناع مظاهر الغضب والضيق .. ومضى يقول : « لعمرى ان من يسمعك قد يظن اننى قليل الاكتراث بحالة مريضى ، او اننى انظر اليها باستخفاف » ..

وشعر ايزاكسون بانه يواجه مظاهرة من الحنق المفتعل ، بينما مضى هارتلى يقول : « واحسبك ستتهمنى بعد ذلك بعدم الكفاية الفنية !.. واذا كنت لم اقل لك من قبل ، فانى اقول لك الآن اننى اعتبر ما فعلته من تدخل فى شئون مريضى خرقا صريحا للتقاليد التى تسود مهنتنا » .. فتساءل ايزاكسون : « كيف كان هذا التدخل ؟ » .. فاجاب هارتلى : « لقد سمعت انك اعطيته بالأمس شيئا لا ادرى ما هو .. اعطيته شيئا كى ينام ! » .. فقال ايزاكسون: « لقد فعلت ذلك حقا ! »

- حسنا .. لقد كان لهذا اسوأ الأثر عليه !

- هل ازدادت حالته سوءا اليوم ؟

قال ايزاكسون ذلك فى اهتمام مشبوب ، وهو لا يكاد يعى ما يقول .. الا ان الدكتور هارتلى ضم شفتيه فى قوة ثم قال ببرود : «لسنا فى جلسة استشارية!» .. فقال ايزاكسون : « ولكنى اسأل كصديق للمريض ، لا كطبيب » .. فاجاب هارتلى : « كانت ليلته بالغة السوء » .. ثم عاد يطبق شفتيه فى قوة ، وقد بدا العداء واضحا - وان كان ضعيفا - فى وجهه وفى جسمه الأنيق الثياب .. وما لبث ان اردف : « انه الآن نائم » . فتساءل ايزاكسون : «اهو نائم الآن؟» .. واجاب الآخر : « اجل ، وسينام عدة ساعات اخرى ، فقد عملت - انا - على اجتلاب النوم الى عينيه ! »

واحس ايزاكسون فجاة بجسمه يسترخى ، وكانما لانت عضلاته جميعها .. ان صديقه سوف ينام عدة ساعات !.. وظل لحظة يستمتع بشعور من الارتياح البالغ المستعذب ، ثم ايقظه هذا الشعور على وعى آخر اوفى واتم .. وعى ذكره

بالسبب الذى بعث فيه هذا الارتياح ، وبالسبب الذى سبقه ، فزاده ارتياحا ٠٠ وكان لا بد له من ان يعمد الى الملاينة ، فقال : « اصغ الى يا دكتور هارتلى ٠٠ لست ابغى قط أن أنحيك عن معالجة هذه الحالة ، اذ اننى لست فى الواقع طبيبا جشما متطفلا، وما انا بالذى يقحم نفسه فى حالة ـ ليست من اختصاصه ـ لمجرد ميل شخصى ٠٠ واستطيع ان أؤكد لك ان لدى فى لندن أكثر مما يكفينى من الأمراض والمرضى ، وخليق بى ان أشكر حظى فى الفرار منها الى هنا ٠٠ اننى فى حاجة الى اجازة ! » ٠٠ فقال الدكتور هارتلى فى رصانة : « استمتع باجازتك اذن يا دكتور ايزاكسون ٠٠ استمتع باجازتك و دعنى أقم بعملى !

ـ كلا ! ومهما يكن من امر تقاليد المهنة او غير تقاليد المهنة ، فانى لا استطيع ان استمتع باجازتى فى حين ان صديقى فى مثل هذه الحالة من المرض ٠٠ ليس فى وسعى أن أفعل ذلك !

ـ اننى فى الواقع اخشى ان تضطر الى ذلك ، فيما يختص بهذه الحالة على الأقل ٠٠ فانا امريكى ، ولن ادع نفسى انحى عن الشىء الذى يخصنى والذى وضعت يدى عليه ٠٠ لن ادع نفسى انحى عنه بمثل هذه الفظاظة ، وضد رغبات اولئك الذين دعونى الى هنا ٠٠ لم يحدث لى على الاطلاق ، طوال ممارستى المهنة ، ان اتى طبيب آخر ليقحم نفسه عنوة وغصبا ـ نعم ، فذاك هو التعبير الصحيح لهذا العمل ! ـ ليقحم نفسه عنوة فى عملى ، وبغير « عن اذنك » ٠٠ كما تفعل أنت !٠٠ ان ذلك بكل بساطة شىء لا يمكن احتماله !٠٠ ولست بالرجل الذى يطيق شيئا لا يمكن احتماله ، والواقع ان الذى لا يعرف انك طبيب يحسبك شرطيا سريا ممن يعملون فى الخفاء !٠٠ اذا شئت الصراحة ، فانك الآن اشبه بذلك !

فقال ايزاكسون فى اقتضاب : «واين مسز ارماين ؟ انائمة هى الأخرى؟ » ٠ فاجاب : « انها كذلك فعلا ! » ٠٠ وكانت لهجته من القحة والفتور بحيث وخزت ايزاكسون وآلمته !٠٠ وما حدث له قط من قبل ان شعر بالرغبة فى استخدام القوة البدنية كما شعر بها اذ ذاك ، ولكنه مع ذلك لم يفقد القدرة على كبت هذه الرغبة ، وان راح يحس الما مريرا فى هذا الكبت ! وقال : « الديك اية فكرة عن المدة التى ستقضيها نائمة ؟ » ٠٠ فاجابه الآخر : « بضع ساعات ! »

ـ ماذا ؟٠٠ هل تعنى انك عملت على اجتلاب النوم الى عينيها ، هى الأخرى ؟

ـ لقد اقدمت على ذلك ، اذ انها قضت ليلة سيئة هى الأخرى !

فتذكر ايزاكسون تلك الأصوات التى بلغت مسامعه فوق مياه النيل ، ثم قال : « هل أعطيتها جرعة منومة ؟ » ٠٠ واجابه هارتلى : « اجل ! » ٠٠ وهنا قال ايزاكسون : « ولكنها كانت تتوقع حضورى الى هنا ؟٠٠ كانت تتوقع ان احضر للتشاور فى حالة المريض ؟ » ٠٠ فقال الآخر : « عفوا ٠٠ لقد تفضلت

فاعربت عن نيتك فى الحضور ، من تلقاء نفسك ، بيد ان مسز ارماين كانت على قدر كبير من الرقة والذوق من ناحيتى ـ وهذا ما اوقن منه ـ ولكنك وضعتها فى مركز بالغ الدقة والحرج ٠٠ لقد شرحت لى حقيقة الامر عند حضورى ! »

« لقد شرحت لى حقيقة الأمر » !٠٠ اذن فهذا ما حدث ؟٠٠ واحس ايزاكسون كانه يحارب عدوا بث الألغام فى طريقه ليمنعه عن المضى او ليقضى عليه ، ثم تراجع ووقف على مبعدة يرقب النتيجة ٠٠ وعندئذ قال فى هدوء وبرود : « لقد أعرب مستر ارماين فى الليلة الماضية ، يا دكتور هارتلى ـ وفى حضور مسز ارماين ـ عن رغبته القوية فى ان يضع نفسه بين يدى ٠٠ وعندما اتيت الى هنا اليوم لم تكن لدى اقل نية فى ان أسىء الأدب ازاء اى انسان ٠ اما وقد اخترت أنت أن تثير المصاعب فى وجهى ، فلا بد لى من أن أقول لك كل شىء ٠٠ لقد قال مستر ارماين فى الليلة الماضية : « اننى لا اريد ان يكون لى اى شأن بالدكتور هارتلى ٠ انه لايعرف شيئا ٠٠ اننى لا أريد ان يحضر غدا » ٠٠ وقد كانت مسز ارماين معنا وسمعت هذه الكلمات » ٠٠ فاصطبغ وجه الطبيب الشاب الأسمر بحمرة قانية ، واتسعت عيناه المستديرتان فى دهشة بالغة حتى غدا شكله مضحكا ، وبدأ يتمتم قائلا : « هو ٠٠ هل قال ٠٠؟ » ٠ ولكنه ما لبث فجأة أن راح يتشدق فى كلامه بلهجة امريكية ، مستطردا : « عفوا ٠٠ اننى لا اصدق ذلك » ٠ فقال ايزاكسون : « ولكنها الحقيقة ، مع ذلك ٠٠ » ٠ فصاح الآخر : « لست اصدق ما تقول ، هذه هى الحقيقة ٠٠ فقد رايت مستر ارماين ووجدته يرحب بى فى ابتهاج شديد ٠٠ وقد وضع نفسه بين يدى عن طيب خاطر ، وطلب منى ان انقذه ! »

واذ ذاك انتاب ايزاكسون حزن داهم شديد، وغمغم يقول : «يجب ان اراه !»٠ فهتف الدكتور هارتلى بذلك العداء الصريح المكشوف الذى يبديه الرجل الشديد الغرور عندما يشعر بانه قد اهين : « لن اسمح لأحد بان يزعجه !٠٠ اننى كطبيبه ، امنعك من ان تزعج مريضى »

* * *

◆ ولبث الرجلان لحظة يتبادلان النظر فى صمت ، حتى قال ايزاكسون اخيرا : « اننى بعد الذى حدث فى الليلة الماضية ، وما حدث هنا اليوم ، لا استطيع أن انصرف دون ان ادى مستر ارماين أو مسز ارماين » ٠٠ ترى هل بلغ نيجل من الضعف العقلى ـ وهو النتيجة الأليمة لمرضه الجسمانى ـ الى حد مقاومة صديقه ، والنضال ضد فرصته الوحيدة فى الشفاء ؟٠٠ ان ذلك سيزيد من تعقد الأمور٠٠ بل ان ذلك ـ كما تبين ايزاكسون فى جلاء ـ سيضعه فى مركز بالغ السوء ، بحيث يجعل موقفه عسيرا ٠٠ ترى ما الذى حدث ليلة امس فى اللولية بعد

انصرافه ؟٠٠ وما هو المشهد الذى كان يمثل على مسرح الحوادث فى تلك الآونة ؟٠٠ وكيف كان أثره على المريض ؟٠٠ وخيل اليه أنه يسمع ثانية تلك الضحكات البغيضة ، وتلك الصيحات الرهيبة التى تلتها ٠٠ ثم استطرد يقول : « واذا كنت لن أرى مستر ارماين كطبيب ، فيجب ان أطلب رؤيته كصديق ! » ٠٠ فقال هارتلى: « لن يكون فى وسعى السماح لأى شخص بان يراه - لمدة يوم او يومين - سواى وسوى مسز ارماين ، وخادمه حمزة طبعا ! »

عندئذ حدج ايزاكسون الرجل الذى كان يواجهه بنظرة ثاقبة ٠٠ نظرة كانت اشبه بنصل حاد يمزق كل شىء فى طريقه ، وهو يتوغل الى اعماق النفس ٠٠ فقد تملكته - للحظة من الزمن - ريبة غريبة ٠٠ ريبة مقيتة وسخيفة حتما ، ومع ذلك فانها قد تكون ذات أساس من الحقيقة ٠٠ افليس كل شىء جائزا فى خضم الحياة المتلاطم ؟٠٠ وتململ الطبيب الشاب امام هذه النظرة فى قلق واضح - على الرغم من رباطة جاشه - واخذ يغمغم قائلا : « ماذا ؟٠٠ ما الذى تعنيه ؟٠٠ ما الذى تعنيه ؟ » ٠٠ واخذ يتحسس ربطة عنقه بحركة آلية ، وهو يقول : «اننى لا أفهمك » ٠٠ ولكنه سرعان ما استعاد هدوءه ، بعد ان تلاشى التعبير الغريب المنفعل من هاتين العينين اللتين كانتا قد عرفتا ما ارادتا ان تعرفاه ٠٠ ثم أضاف : « قطعا لن أسمح لك برؤية مستر ارماين ، لأنك سوف تزعجه وتثير انفعاله كثيرا ، بينما هو يحتاج الى اعظم قدر من الهدوء والراحة ٠٠ فان المخ عضو شديد الحساسية ! »

عندئذ شعر ايزاكسون فجأة كما لو كان يخاطب غلاما عنيدا مشاكسا ٠٠ وتلاشى كل أثر للغضب الذى كان قد انتابه من مسلك رفيقه ، بل الواقع انه شعر نحوه باحساس عميق من الرثاء الممزوج بالسخرية ! لقد ظلم الطبيب الشاب بهذه الريبة التى خالجته للحظة، وهو يود الآن أن يصلح خطاه، وليس لايزاكسون ان يحفل بأن الرجل لم يشعر بشىء من شكوكه ٠٠ انه يريد أن يصلح هذا الخطأ بينه وبين نفسه !٠٠ ومن ثم راح يقول متلطفا : « اننى أعتقد يا دكتور هارتلى ان كلا منا لم يفهم الآخر تماما ٠٠ وربما كانت هذه غلطتى ، فما كان ينبغى أن أعيد على مسامعك كلمات مستر ارماين ٠٠ لقد قال هذه الكلمات ، وكان يعنيها ، ولكن المريض يدفعه مرضه الى الكثير من الأقوال ، ونحن الأطباء نعرف ذلك ، ومن ثم فاننا لا نلقى بالا لما يقول ٠٠ اننى واثق من انك هنا ولا رغبة لك الا ان تشفى صديقى المسكين ، وهذه الرغبة نفسها هى التى أتت بى الى هنا ٠٠ ففيم خصامنا وشجارنا اذن ؟ »

- ليست بى أية رغبة فى الشجار ، ولكنى لن اخضع لرجل يقحم نفسه قسرا ويحاول ان يقصينى عن حالة عهد الى بالاشراف عليها رسميا !

- اننى لا أريد أن أقصيك بحال من الأحوال ٠٠ كل ما أريده هو أن يسمح

لى بالتعاون معك ٠٠ كل ما أريده هو أن أسمع رايك عن هذه الحالة بالضبط ، وان يسمح لى بان اكون رايى عنها وبان أطلعك عليه ٠٠ هيا يا دكتور هارتلى ، لا تنظر الى كما لو كنت رجلا فضوليا مجهولا ، فان لدى من العمل فى لندن أكثر مما استطيع ان أزاوله ، ولن تصاب سمعتك الطبية باى مساس اذا ما دعوتنى لتبادل المشورة ٠ اننى أستطيع ان أقول ذلك دون زهو او غرور ٠٠ واذا كانت لديك فكرة معينة عن أننى اسعى الى الكسب أثناء وجودى فى مصر ، فارجو ان تطرد هذه الفكرة عن ذهنك ٠٠ ان هذه الحالة تهمنى لأنها تتصل بشطر من سعادتى الشخصية ، اذ أننى أكن ودا عميقا لهذا الرجل المريض ٠٠ هذه هى حقيقة الأمر !

فنظر اليه الدكتور هارتلى ، ثم أشاح بوجهه جانبا ٠٠ وما لبث ان عاد ينظر اليه ثانية ، وأخيرا قال وهو يشدد الضغط على الكلمة قبل الأخيرة : « اننى لا اشك البتة فى صداقتك لمستر ارماين » ٠٠ فهتف الدكتور ايزاكسون : «اذن فهل لك أن تدعنى ابحث الحالة معك بصفة ودية ؟٠٠ انها ليست استشارة رسمية، بل كل ما فى الأمر أننى ساستمع الى وجهة نظرك كاملة ، واذكر لك ما قد يخطر لى ! » ٠٠ فتساءل هارتلى : « يخطر لك ؟!٠٠ ولكنك لم تفحص المريض ٠٠ انك لم تقم باى فحص شامل أو تتعمق فى تفاصيل ظروف المرض » ٠٠ فأجاب : «كلا ٠٠ ولكننى رايت المريض »

– لدقائق معدودات فحسب كما فهمت ، فكيف استطعت ان تكون رايا محددا ؟

– اننى لم أقل اننى كونت رايا محددا ، ولكن شيئا او اثنين قد أثارا انتباهى

فراح الدكتور هارتلى يحملق فيه بعينيه الجميلتين المستديرتين ، بينما كان يستطرد قائلا : « فمثلا ، لون المريض الشاحب الشديد الاصفرار ، وآلام المريض الروماتزمية ، وتنفس المريض ، ثم – ترى هل لاحظت ذلك ؟ لا شك انك فعلت – معصم المريض المتراخى ! » ٠٠ فبدات علائم الجد والاهتمام تزداد وضوحا على اسارير الطبيب الشاب ، وأصبح اقل اعتزازا بنفسه فى تلك اللحظة وهو يقول : «معصمه المتراخى ؟!» ٠ فاجاب ايزاكسون : « نعم !.» ٠٠ فقال هارتلى : «طبعا، فمن الطبيعى ان تصاب العضلات بالضعف كلما طال المرض ٠٠ كل ما فى الأمر ان الرجل قد اصيب بلطمة ساحقة من ضربة الشمس هذه٠٠ وفى رايى ان السياح يجب ان يكونوا اشد حذرا مما هم عليه هنا ! » ٠٠ واذ ذاك قال ايزاكسون : « احسبك تعلم ان المريض قد عاش فعلا فى مصر وعمل بها عدة شهور من كل سنة ، فان له ارضا فى الفيوم يقوم على زراعتها بنفسه ٠٠ انه ليس حديث العهد بمصر ، كما انه ليس سائحا قليل التجربة !٠٠ لقد كان يمكث الشهر بطوله « منقوعا » فى الشمس ، دون ان تصيبه باى ضرر ! »

– الى هذا الحد ؟

ـ اليس عجيبا اذن أن يصاب فى هذا الوقت المبكر من العام ـ فى شهر فبراير ـ بمثل هذه الضربة من شمس الربيع ؟

فقال الآخر مسلما : « هذا عجيب !.. أجل ، هذا غريب حقا ! » .. ووضع ساقا فوق الاخرى وهو يبدو شارد الذهن .. وبعد لحظة قال ايزاكسون : « أظن ان مستر ارماين نفسه كان يعتقد ان مرضه انما ترتب عن الشمس ؟ » .. فاجاب هارتلى : « حسنا ، أوه !.. لقد كان المفهوم من بادىء الأمر أنه قد أصيب بمس من الشمس .. ولم يكن ثمة أى شك فى ذلك ، فقد خرج فى الظهيرة وراح ينقب عن الآثار فى طيبة دون أن يغطى رأسه .. انه جنون صارخ !.. ولقد رآه الناس يفعل ذلك ! » .. فتساءل ايزاكسون : « وهل حدث كل شىء على أثر ذلك ؟ » . فقال هارتلى : « أجل .. أعنى الأعراض الخطيرة .. وطبيعى أنه لم يكن فى صحة طيبة قبل ذلك ! » . فتساءل ايزاكسون فى دهشة يخالطها الأفكار : « لا ؟! »

ـ لقد كان يشكو من عسر الهضم ، فقد أصيب بالبرد ذات مساء عندما نزل ليستحم فى النيل فى مكان بالقرب من (قوص) .. وقد جعله ذلك أقل مقاومة للمرض عن المعتاد

ـ طبعا .. ومعنى ذلك انه كان مريضا بالفعل ، قبل أن يقدم على هذا العمل الأحمق فى طيبة ؟

ـ كان متوعكا ، ولكنه لم يكن مريضا بمعنى الكلمة

وعندئذ انبعث صوت يقول : « يا له من حديث طويل ذلك الذى تتبادلانه سويا ! » .. فاجفل كلا الرجلين ، بينما لاحت فى وجه الدكتور هارتلى لمحة اليمة من يقظة الضمير ، وكانه شخص يضبط على غير توقع وهو يرتكب عملا لا يغتفر .. وما لبث أن وثب على قدميه .. فقد كانت مسز ارماين واقفة بالقرب من قمة الدرج !

الفصل السابع والثلاثون

◆ وتقدمت مسز ارماين نحوهما قائلة : « لقد غدوتما صديقين دون أن يقدم كل منكما للآخر ؟ » .. وكانت ترتدى قبعة وتسدل على وجهها خمارا ، كما كانت تحمل مروحة فى يدها .. وهتف هارتلى : « كيف استطعت أن تستيقظى وتنهضى الآن ؟.. ان هذا مستحيل ، بعد جرعة الفيرونال التى أعطيتها لك ، وبعد مثل هذه الليلة التى قضيتها !.. ما كان ينبغى لك .. » . وكان الشعور بالذنب لا يزال واضحا على أساريره الى حد مروع ، وهو يقف الى جانبها ..

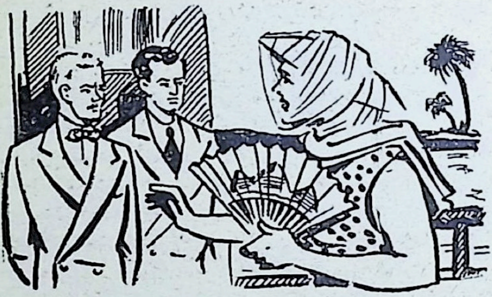

كمـا كان يبدو كالمحموم لفرط قلقـه واضطرابه ! ومضى يغمغم قائلا : « اننى لا أستطيع أن أسمح حقـا .. » . ولكنها نظرت اليه قائلة : « لقد ايقظنى صوتاكما ! »

فاخلد الى الصمت ، وهو يبدو كرجل تلقى لطمة شـديدة .. ومضت مسز ارماين تقـول : « كيف حالك يا دكتور ايزاكسون !.. أرجو ان تصفح عما اقول ، ولكنكما اذا تذكرتما أنكما طبيبان تتناولان بالنقاش حالة مريض ينام تحتكما مباشرة، لأدركتما ان الحرص والحذر قد جانباكما الى حد جعلكما لا تفكران فى خفض صوتيكما .. ولو مرت دقيقة أخرى لاستيقظ زوجى من نومه ، لقد كان يتململ فى فراشه ويهمهم متألما !.. أما انا .. حسنا ، لقد ايقظتمانى - بكل بساطة - ولذلك فكرت فى ان أحضر وانضم اليكما ، عسى ان استطيع اقناعكما بالتزام الهدوء ! » . وكان وجهها يبدو - تحت الخمار - شاحبا ممتقعا .. وعلى الرغم من أنها كانت تتكلم بصوت منخفض ، الا ان المرارة والخشونة والسخرية كانت تلوح فى نبراتها ، كما كان فى هياتها ما ينم عن حقد وضغن دفينين، كانهما السم الناقع !.. واستطردت تقول وهى تقف فى منتصف الطريق بين هارتلى وايزاكسون : « ان المسألة تنحصر الآن فيما اذا كان زوجى المنكود سيحظى بقسط من الراحة أم لا .. فقد كنا نظن - عندما رسونا فى هذا المكان - اننا ملاقون فيه الهدوء والسلام ، ولكن يبدو اننا كنا مخطئين .. ومهما يكن من أمر فانى أرجو أن تكون مشاوراتكما قد قاربت الانتهـاء لأن رأسى يكاد ينشق من الألم ! »

وكان وجه الدكتور هارتلى قد غدا أحمر قانيا .. واخـذ يرمى ايزاكسون بنظرة شريرة ، وهو يقول : « لم تكن هناك مشاورات ما يا مسز ارماين ! » . وكانت عيناه تتوسلان وتنشدان صفحها ، بل كان كيانه كله يبدو مثيرا للشفقة

والرثاء ، وهو يستجدى الصفح ككلب ذليل انتهره سيده !٠٠ وقالت مسز ارماين : « لم تكن ثمة مشاورات ؟ اذن ففيم كانت كل هذه الثرثرة ؟ هل اقلقتما مضجعى ، وأيقظتمانى بضجيجكما فى النقاش عن الجو او المعابد الأثرية ؟٠٠ يا لسوء ما فعلتما حقا ! » ٠٠ وتقلص وجهها لثانية او ثانيتين ٠٠ وكان من اليسير أن يرى المرء انها لا تكاد تستطيع السيطرة على نفسها ٠٠ واستطردت تقول وهى تحرك مروحتها فى عنف : « أظن الأفضل أن ارسل بكما معا لزيارة معبد (ادفو) ، فهناك يمكنكما ان تثرثرا كما تشاءان ، وأن توثقا صداقتكما الى الحد الذى تطيب له نفساكما ، ولن يكون هناك من يسمعكما غير حارس المعبد٠٠ وعندئذ يمكن لنيجل المسكين أن ينام قليلا ، بغض النظر عما يحدث لى » ٠٠ وتثاءبت فجاة ، فرفعت مروحتها لتغطى فمها ، وهى تقول : « آه ! » ٠ وكان صوتها عندئذ أشبه بشىء وسط بين التنهد والأنين ٠٠ وما كادت تنطق بهذه الكلمة حتى راحت تسعل لتطهر حنجرتها ٠٠ ولكن الدكتور هارتلى بدا يقول : « كنت انبىء الدكتور ايزاكسون أن حضوره اليوم كان عبثا ولا فائدة منه ٠٠ اخبرته بانه ليس ثمة ما يدعو لتبادل المشورة معه ، ورجوته ان يترك الحالة بين يدى ٠٠ لقد ظللت اقول ذلك وأكرره مرة بعد اخرى ، ولكن ٠٠٠ »

ـ اوه ! انك لا تعرف الدكتور ايزاكسون اذا حسبت ان الرجاء المهذب يمكن ان يكون له اى أثر عنده ، فهو اذا اراد ان يزج بنفسه فى شىء ، فانه يفعل ذلك دون أن يوقفه شىء فى السماء او الأرض ٠٠ انك تنسى جنسيته !

وتثاءبت مرة ثانية ، وهى تحرك كتفيها ٠٠ فقال ايزاكسون فى صوت خافت : « انك تظلميننى ظلما فاحشا ٠٠ وانك لتعلمين ذلك ! » ٠٠ وكان قد وضع قبعته فوق منضدة صغيرة من القش ، فمد يده وتناولها ، اذ ما جدوى بقائه ؟ ٠٠ وكيف يمكن لرجل محترم ان يبقى بعد هذا ؟ ٠٠ ومع ذلك فقد كان النضال مريرا فى أعماق نفسه ٠٠ لو انه استطاع فقط أن يطمئن الى ذلك الرجل هارتلى ، لما كان لهذا النضال اثر قط ، ولكان فى وسعه ان ينصرف مرتاح الخاطر ٠٠ او لو انه كان واثقا من شىء آخر ـ تمام الثقة ـ لكان فى وسعه ان يبقى وأن يتصرف فى الأمر دون أن يبالى بشىء قط ، فى تحديه لهذه المرأة التى تمقته ٠٠ ولكنه بالرغم من الهامه الذى كان متحفزا ، يوحى اليه باشياء كثيرة لا يفتأ يهمس بها ٠٠ وبالرغم من أن ما لاحظه فى الليلة الماضية من دلائل كانت تظاهر هذا الالهام قائلة له : « نعم ، لا بد انك على حق ٠٠ انك على حق فعلا ! » ٠٠ بالرغم من ذلك كله فانه لم يكن يطمئن ـ عن يقين ـ الى ما كان يعرفه ٠٠ بل لم يكن يعرف سوى ان هذا الشاب ، الذى وضعت حياة نيجل بين يديه ، كان واقعا تحت سحر مسز ارماين !

وكان قد تناول قبعته ، وشد اصابعه عليها فى عنف وهو يفرك حافتها اللينة

٠٠ وظل الدكتور هارتلى يرمقه بذلك العداء السافر الذى يكنه اى انالى مخدوع ٠٠ اذ أدرك ـ فى لحظات ـ أن ايزاكسون كان قد بدأ يستدرجه بطريقة ماكرة الى أن يفعل ما كان يرفض ان يفعله من قبل ٠٠ ولو ان مسز ارماين لم تظهر فجاة ، لكانت حالة نيجل قد درست دراسة وافية بين الطبيبين ! وهتف لنفسه : « ايها الفضولى المخادع ! » ٠٠ كانت عيناه المستديرتان تقولان ذلك بكل ما فى غروره الوضيع من حقد وغل ٠٠ وما لبث ايزاكسون ان عاد يقول ثانية : « انك تظلمينني ! تظلمينني بشكل مزر مخجل ! » ٠٠ وراح يسائل نفسه : هل ينصرف ؟٠٠ نعم ، انه يرى ذلك احرى به !٠٠ ولكنه مع ذلك لم ينصرف ٠٠ بينما قالت مسز ارماين : « انها ليست مسالة ظلم او اساءة لأى احد ٠٠ فالحقائق هى الحقائق ! »

وكانت امارات الألم الجسمانى تنعكس على وجهها فتشوهه ٠٠ كان النضال عنيفا بين الجرعة المنومة التى تناولتها ، وبين ارادتها القوية فى ان تظل يقظى ! ٠٠ وعادت تهز كتفيها ، فى رعدة خفيفة، وهى تستطرد : «ان نيجل لا يريدك !» ٠٠ فهتف : « كيف يمكنك أن تقولى ذلك ؟٠٠ انه غير صحيح » ٠٠ فقالت : «بل صحيح كل الصحة ٠٠ اليس كذلك يا دكتور هارتلى ؟ الم يطلب زوجى ٠٠؟» ، وغلبها التثاؤب ثانية ، فقطع عبارتها ٠٠ وعندئذ وضعت يدها على ظهر احد المقاعد وامسكت به فى تشبث ، ثم اردفت : « الم يطلب اليك ان تبقى فوق السفينة وان تعنى بحالته ؟ » ٠٠ فصاح الشاب فى لهفة ، وهو ينهل من نبع رضاها المسترد : « بالتأكيد ! » ٠ فعادت تساله : « الم يطلب اليك ان «تنقذه» على حد قوله ٠٠ ذلك العزيز المسكين ؟ » ٠٠ فاجاب هارتلى منافقا : « انها كلمته بعينها ! » ٠٠ وهنا قال ايزاكسون وهو يحدجها بنظرة ثابتة : « والليلة الماضية ؟! » ٠٠ فقالت فى قحة : « لقد ازعجته فى الليلة الماضية بدرجة فظيعة ، باندفاعك اليه دون تحذير او تمهيد ٠٠ الم يكن ذلك تصرفا بالغ القسوة ، شديد الخطر فى مثل حالته هذه يا دكتور هارتلى ؟ » ٠٠ فقال هذا : « اننى لا اعرف شيئا اشد قسوة من ذلك !٠٠ انه عمل لا يغتفر ، ولو ان شيئا قد حدث ، لوجب ان تكون مسئولا عنه يا دكتور ايزاكسون ! »

ومضت مسز ارماين تقول : « ومهما يكن من أمر ذلك الشىء الذى اعطيته له ، فانك ارغمته على تناوله !٠٠ وكانت النتيجة انه قضى ليلة فظيعة مروعة » ٠٠ فهتف ايزاكسون : « ما كان ذلك بسبب ما أعطيته انا ! » ٠ فقالت : « بل لا بد انه كذلك » ٠٠ ولكنه عاد يؤكد دفاعه : « بل المحقق انه لم يكن بسبب ذلك » ٠ فقالت : « ولكنه لم يقض مثل هذه الليلة قط من قبل ٠٠ لم يحدث له ذلك على الاطلاق قبل ان تتدخل انت وتعرقل علاج الدكتور هارتلى ! » ٠٠ وهنا صاح الطبيب الشاب : « يا للعار ! ما سمعت قط بمثل هذا المسلك ! ولو

قدر لشىء كهذا أن يعلن للناس لدمر سمعتك الطبية تدميرا ! » .. فقال ايزاكسون : « ما كنت لأبالى لو حدث ذلك ، لهذا السبب ! » .. ولم تعد اصابعه تفرك حافة القبعة ، بل اصبحت تمسك بها فى رفق ، وهو يستطرد : « ما كنت لأبالى لو حدث ذلك .. ولكنى أعتقد انه ما لم يبذل اعظم قدر من العناية لهذا المريض ، فلن تكون سمعتى الطبية هى التى ستدمر بسببها ! » .. فاخذت مسز ارماين تجذب المقعد الذى كانت تمسك به ، فى حركة آلية ، حتى ادنته منها وهى تديره قليلا .. على حين قال الدكتور هارتلى : « ما الذى تعنيه ؟ »

- ان مستر ارماين رجل معروف تماما ، ومعظم السياح الانجليز على ضفاف النيل ، كما ان معظم الرجال الذين لهم خطرهم فى القاهرة ، يعرفون بمرضه .. لقد سمعوا عن اصابته بضربة الشمس المفترضة !

فقاطعه الطبيب الشاب فى حنق : « المفترضة ؟! المفترضة ؟! » .. فاستطرد الآخر : « وسوف يعرف هؤلاء الناس جميعا اسم الطبيب المشرف على هذه الحالة .. الطبيب الذى رفض مشورة عرضت عليه ، واصر على الرفض » .. فهتف هارتلى : « سيعرفون ؟! » .. وبدا أن ثقته بنفسه قد تزعزعت قليلا امام الاتجاه الجديد لهجمات ايزاكسون ، الذى قال : « اننى ساذهب عما قريب الى اسوان والقاهرة » .. فتثاءبت مسز ارماين وجذبت المقعد ثانية .. وكان وجهها قد تقلص فجاة تحت خمارها ، وبدت يقظى متوفزة الى حد رهيب ، وكانما كان عقلها يعانى هياجا عظيما فى تلك اللحظة .. ومع ذلك فقد كان فى هيئتها ايضا ما ينم عن نوع من الخمول والتبلد .. اذ كانت تبدو - رغم هياجها الناشىء عن الحقد العميق - وكانما خيمت عليها سحابة من النعاس !.. وكان اعظم جزاء ظفرت به عينا ايزاكسون الثاقبتان اللتان تحسنان استشفاف الأمور ، هو ان غريمته قد نبذت كل سلطان لفتنتها على الرجال ، اذ وجدت فيها سلاحا مثلوما ! .. وقال هارتلى : « حقا ؟! وما شانى بذلك ؟ هل تزعم اننى اعالج هذه الحالة بطريقة ملتوية ؟ » .. ثم اغتصب ضحكة جوفاء ، فاجاب ايزاكسون : « لا ، وانما ارى ان من المحتمل جدا ان تندم طوال حياتك على انه كانت لك بهذه الحالة صلة ! »

وكان لهذه اللهجة الجديدة من الطبيب الكبير اثر ملحوظ على الطبيب الشاب ، رغما عنه .. كان قد تحرر لحظة من سحر مسز ارماين ، و غدا ذلك الطبيب الناشىء الذى لم يكتمل ارتقاؤه بعد ، لا ذلك الشاب المكتمل الرجولة الذى احب امراة فاتنة !.. وكان ايزاكسون - اذا شاء - يستطيع ان يسيطر على عقل اى انسان تقريبا ، فذلك جزء من سر نجاحه كطبيب .. كان يستطيع ان يجعل نفسه « موضعا للثقة » .. ومن ثم اخذ يضيف فى هدوء : « ان لبعض الأخطاء

دويا فى ارجاء العالم ، ولست بالذى يسعى لأن يكون الطبيب الذى يقترف واحدا منها » •• فادارت مسز ارماين المقعد الذى كانت تمسك به ــ فى حركة حادة مفاجئة ــ وهى تتشبث بطرف ثوبها ، ثم استوت فى جلستها بغتة ، اذ شرع الدكتور هارتلى يقول : « ولكنى فى الواقع •• » ، وقاطعته قائلة : « هذا أطول تشاور حدث فى حالة مرضية ! » • واتكأت بساعديها على مسندى المقعد ، تاركة يديها تتدليان ، ثم استطردت تقول : « هيا يا دكتور هارتلى •• اسلم زوجى الى الدكتور ايزاكسون اذا كنت قد فقدت الثقة بنفسك ، فذلك افضل بكثير •• ولعلنا بعد ذلك ننعم بشىء من الهدوء »

فاستدار الدكتور هارتلى نحوها ، وكأنها اجتذبته بحبل ، وقال : « آه ! •• اننى لم افقد الثقة بنفسى ، فى الواقع •• وقد قلت وكررت القول انه ليس ثمة مضاعفات •• » ، فقال ايزاكسون مقاطعا : « أواثق انت من ذلك حقا ؟ » •• واخذ يوجه الى الشاب نظرات ثابتة قوية، من عينيه السوداوين ، فسرعان ما لاح القلق جليا على الشاب ، وقال : « لا شك فى اننى واثق من ذلك •• فى الوقت الحاضر ! » •• وكأنما لاحت له الكلمات الأخيرة اشبه بطوق من اطواق النجاة ، اذ ما لبث ان تعلق بها متشبثا ، واستطرد يقول : « أجل •• فى الوقت الحاضر •• فما من طبيب ــ مهما بلغت مهارته ــ يستطيع ان يجزم بانه لن تحدث قط فيما بعد مضاعفات فى اية حالة من المرض •• ولكنى فى الوقت الحاضر مقتنع بان كل شىء يسير كما ينبغى أن يسير » • ونطق بالكلمات الختامية لعبارته الأخيرة على نحو أنهاها بغتة ، فقلبتها لهجته الى جملة استفهامية ، مما اظهرت بجلاء حقيقة حالته العقلية !

ولقد امتاز ايزاكسون بصفة عظيمة ، كان انعدامها فى كثير من الرجال يقودهم الى المتاعب ، واحيانا الى المصائب •• اذ كان يعرف تماما الى اى مدى يستطيع الجليد ان يحتمل ثقله ، وعندئذ فقط يمضى فوقه فى ثقة وطمانينة •• ولكنه لم يكن ليطأه بقدميه فى غير ضرورة أو داع ، لمجرد اختبار قوة احتماله •• وهكذا وجد نفسه فجأة ميالا الى الانصراف ، والى ترك هذه السفينة بعض الوقت •• لقد فعل كل ما كان يستطيع أن يفعله ، دون ان يثير شجارا او نقاشا ، بل لعله قد فعل ما فيه الكفاية •• فان الطريقة التى ختم بها هارتلى عبارته الاخيرة ، تكاد تقنعه بانه قد فعل ما فيه الكفاية • وعندئذ قال : « حسنا ! » •• وكان صوته خلوا من اى معنى ، ولكن وجهه ــ وقد اداره نحو الطبيب الشاب ــ كان يروى قصة عنيفة ، عن شك رهيب خطير •• كان يعبر عن هواجس يوجهها الطبيب الكبير الى طبيب اقل منه •• وعاد يكرر ثانية : « هذا حسن ! » •• ثم اردف : « وداعا يا مسز ارماين ! » •• وكانت المراة قد غاصت فى مقعدها وما زال ساعداها متكئين على مسنديه، وان تدلت يداها، فلما خاطبها ايزاكسون،

سقطت المروحة من احدى هاتين اليدين ٠٠ ولكنها لم تحاول التقاطها ٠ وقالت : « هل انت ذاهب حقا ؟ » ٠٠ والتوت شفتاها فى ابتسامة باهتة ، بينما كان يقول : « نعم » ، فعقبت : « وداعا اذن ! »

واشاح بوجهه عنها فى بطء ، وهو يقول : « حسنا ٠٠ وداعا يا دكتور هارتلى ! » ٠ وكان هذا الحديث كله - الذى اعقب حضور مسز ارماين الى سطح الدهبية - يدور فى اصوات خافتة ٠٠ ولكن ايزاكسون كان يتكلم الآن فى صوت اشد خفوتا ، بينما تحولت عيناه لحظة من الدكتور هارتلى الى ذلك الجسد الطويل الذى كان يغوص فى المقعد ، ثم ارتدتا الى الدكتور هارتلى ثانية ٠٠ ولم يمد اليه يده ، ولكن صوته كان مهذبا ، وان خلا من كل معنى تماما ٠٠ فالقى الدكتور هارتلى بدوره نظرة سريعة على المقعد ، ثم قال فى تردد : « وداعا ! » ٠٠ وبدا شبابه واضحا فى تلك اللحظة ، اذ برز للعيان من خلال تردده وحيرته ٠٠ كانت كل ذرة من سخط ايزاكسون عليه قد تلاشت الآن تماما ، فعاد يقول: « وداعا ! »

وحركت مسز ارماين راسها قليلا ، وهى تسنده الى وسادة كبيرة ، ثم تنهدت ٠٠ وسار ايزاكسون متمهلا نحو الدرج ٠ ولما كانت اللولية دهبية كبيرة ، فان سطحها العلوى كان طويلا ، كما كان مؤثثا كانه حجرة استقبال ، اذ امتلأ بالمقاعد والمناضد والأرائك ٠٠ فمضى ايزاكسون يشق طريقه بينها فى حرص وحذر ، وكانه يهتم براحة المريض الذى كان يرقد تحت السطح ٠٠ واخيرا بلغ الدرج وبدأ فى النزول ٠٠ ولكنه ما كاد يبلغ نهايته حتى سمع صوتا يهمس خلفه : « دكتور ايزاكسون ! » ٠٠ فالتفت الى الوراء ، واذا به يرى الدكتور هارتلى عند قمة الدرج ٠٠ واردف الشاب وهو لا يزال يهمس بكلماته : « لحظة واحدة ٠٠ ساهبط اليك ! » ٠ ثم تلفت خلفه وهو ينظر من فوق كتفه ، وما لبث أن راح يهبط الدرج فى سرعة وخفة - كما يفعل الصغار - وهو يضع كلتا يديه فوق السياج الذى يحف بالدرج ٠٠ حتى اذا ما بلغ مكان ايزاكسون ، قال : « اننى ٠٠ اننا ٠٠ اعنى اننى اظن ان بوسعنا ان نتبادل كلمة قبل ذهابك » ٠ وبدا جليا ان رباطة جاشه قد تاثرت الى حد بعيد ٠٠ كان القلق واللهفة يظهران واضحين فى عينيه الرماديتين الصفراوين ، على حين كانت الغضون ترسم خطوطا بارزة على جبينه الضيق ، تحت شعره المجعد ٠٠ ثم مضى يقول وهو ينظر الى ايزاكسون فى امعان : « لقد استغرقت فى النوم ! »

فاجاب ايزاكسون بغير اكتراث : « لك ما تشاء ! » ٠ فعاد هارتلى يقول : « ارى من الأفضل ان نتحدث قليلا، بعد ذلك الذى حدث ! » ٠٠ فنظر ايزاكسون حواليه نحو النوبيين المستلقين على سطح الدهبية مستغرقين فى النوم ، ونحو حسن وابراهيم اللذين كانا ينتحيان احد الأركان - وقد وقفا احتراما ، وان بدا

انهما كانا على قدر كبير من الفضول وحب الاستطلاع – فقال الدكتور هارتلى : « بوسعنا ان ندخل هنا ! » . وقاده الى اسفل صف آخر من الدرج – تحت الكتابة العربية – ثم الى اولى حجرات الاستقبال فى الدهبية .. فلما ولج ايزاكسون الحجرة راح ينظر ، بوحي من غريزته ، الى الباب الموصد الذى كان نيجل يرقد فى مكان ما وراءه ، نائما او مستيقظا .. ولم تفت هذه النظرة الدكتور هارتلى ، فقال : « سيظل نائما بضع ساعات اخرى .. لنجلس هنا ! »

* * *

◆ واسرع يتخذ مجلسه على اقرب الارائك اليه ، وهو يشد اصابعه فى قلق .. وشرع يقول وهو ينظر الى ايزاكسون ثم يغض من بصره الى الارض بين قدميه : « اننى لم افهم تماما .. اعنى اننى لا اظننى قد فهمت المعنى الذى كنت ترمى اليه الآن ! » .. فتساءل ايزاكسون : « المعنى الذى ارمى اليه ؟ » .. واجاب الشاب : « اجل .. بشان هذه الحالة ! » .. وهنا قال ايزاكسون : « ظننتك ترى ان المشورة غير ضرورية ! » .. فاجاب الآخر : « الاستشارة الرسمية .. نعم !.. ومع ذلك لا ينبغى ان تظن اننى لا اقدر الراى الطبى القيم حق قدره .. واننى لأعلم ان لك رأيا يعتد به ! » .. ولم ينبس ايزاكسون ببنت شفة ، ولا اختلجت عضلة فى وجهه .. فاستطرد هارتلى : « الواقع ان الحقيقة هى انك – على نحو ما – قد اثرت حقد مسز ارماين تماما ، فهى تعتقد انك تجحد خدمتها المتفانية ، وتقلل من شانها ! » . فقال ايزاكسون : « ما وددت ذلك ! » . وآمن هارتلى على قوله : « لا .. اننى ادرك ذلك ، ولكن .. » . ثم اخرج منديله وراح يمس به شفتيه وجبينه ، وهو يتابع القول : « لقد كانت رائعة حقا فى عنايتها به من راسه الى قدمه ، دون ان تهب نفسها اية راحة فى الليل او النهار »

– حسنا ، ولكن وصيفتها ؟.. الم تكن قادرة على ان تكون ذات نفع فى خدمته ؟

– وصيفتها ؟.. اية وصيفة ؟ – وصيفتها الفرنسية !

فتلاعبت على شفتى الشاب ابتسامة مشفقة راثية ، وقال : « لاوصيفة لديها الآن ، فقد فصلتها منذ زمن طويل ، لا لشيء سوى ارضائه .. آه ! اننى اؤكد لك ان الحياة مع مستر ارماين ليست كلها عسلا ولبنا ! » .. فاشار ايزاكسون الى القسم الداخلى من السفينة ، قائلا : « ولكن الم تعد ثانية ؟.. الم تعد الوصيفة ثانية ؟ » .. فاجاب هارتلى متحمسا : « كلا ، طبعا .. انك تسيء فهم ارماين الى حد بعيد ! » .. ولم يقل ايزاكسون شيئا .. كان يحس بأن الوقت ملائم تماما لضربة بارعة يكشف فيها كذب مسز ارماين ونفاقها ، ولكن شيئا – كان يبدو خارجا عن ارادته – حال بينه وبين توجيه هذه الضربة .. بينما استطرد

هارتلى قائلا : « وهذا هو سبب كل ما حدث . وما كنت حقا لأعترض على تبادل المشورة معك لو كانت قد اتت بصورة طبيعية ، ولكن ما من طبيب ... لقد كنت تتكلم الآن عن الحالة ، بوصفها خطيرة جدا » .. فقال ايزاكسون : « اننى اعتبرها جد خطيرة ! » .. وعقب الطبيب الشاب قائلا : « كذلك انا ، طبعا ! » .. ثم ضم شفتيه وعاد يقول : « طبعا .. فقد رايت منذ البداية انها ليست شيئا طفيفا ! » .. واذ لم يقل ايزاكسون شيئا ، استطرد هارتلى : « اقول اننى رايت ذلك منذ البداية » . وهنا قال ايزاكسون فى فتور : «ان هذا لا يدهشنى!»

وخيم الصمت لحظة .. واحس الطبيب الكبير بان قلق زميله الشاب كان يزداد لحظة بعد اخرى..واخيرا قال هارتلى : « ارجو ان تغفر لى ما اقول يا دكتور ايزاكسون ، ولكن .. ولكنك لا تفهم النساء ، ولا تعرف كيف تعاملهن ! » .. فقال ايزاكسون فى بساطة واضحة ، كانت تبدو اشبه بالتواضع : « ربما كنت كذلك ! » . وكان الدكتور هارتلى يبدو اكثر استمتاعا براحته ، كما عاوده شىء من شعوره باهميته !.. ثم قال : « اجل ، حقا ! اننى مسوق الى ان اقول هذا ، فهل تغفر لى ؟ » .. فقال الآخر : « بالتاكيد ! »

– اننى كنت ارى دائما ان ذلك نصف المعركة التى نخوضها فى مهنتنا ؟

– ان نعرف كيف نعامل النساء ؟

وهتف هارتلى : « تماما ! » .. فقال ايزاكسون : « لعلك على حق » . ونظر الى الطبيب الشاب ، كانه معجب به ! ثم اردف : « اجل .. اعترف بانك على حق » . فاشرق وجه الدكتور هارتلى ، وقال : « يسرنى ان ترى ذلك . والآن .. ان امراة مثل مسز ارماين ... » . وكانما اعاد اليه ذكر اسمها ، اللهفة والقلق ، فهمس قائلا : « لحظة واحدة ! » .. وانصرف خارجا فى خفة ، ثم ما لبث ان عاد بعد لحظة ، وقال : « كل شىء على ما يرام .. انها ستنام بضع ساعات اخرى . والآن .. ان امراة مثل مسز ارماين امراة جميلة معروفة .. وهى تحتاج الى قدر معين من المجاملة ، ولكنك لاتتلطف معها قط .. ارايت ؟ » .. فتمتم ايزاكسون : « احسبك تدرك السبب ! » .. ولم يذكر شيئا عن ذلك الستار الشفاف الذى كان يفصل بينه وبين مسز ارماين ، والذى كانا يتبادلان النظر خلاله فيرى كل منهما الآخر على حقيقته فى جلاء ووضوح !..واستطرد الشاب يقول : « انها امراة يرضيها اى قدر من المودة .. اى قدر ! لقد ثبت لى ذلك ! »

وتمهل قليلا ، وقد بدا عاطفيا ، ثم اردف قائلا : « لقد ثبت لى ذلك ثبوتا قاطعا .. ولكنها متقلبة الاهواء قليلا ، تحتاج الى معاملة خاصة .. ولذلك فاننى استطيع ان افعل معها اى شىء » .. وراح يتحسس ربطة عنقه الوردية اللون ، ويجذب جوربه الوردى اللون .. فساله ايزاكسون فى لهجة فاترة : « والزوج ؟ هل تجده صعب الارضاء ؟ » .. فقال هارتلى : « اذا شئت الصراحة ، فهو ..

صعب جدا ! » ٠٠ فقال ايزاكسون : « هذا شيء يؤسف له ! » ٠٠ ولكن هارتلى استطرد متحمسا : « انه يتعبها كثيرا ـ فيما اظن ـ ولو انه يزعم طبعا انه يتفانى فى سبيلها٠٠ أما هى فليست الا ملاكا طاهرا معه !» ٠٠ وهتف ايزاكسون متمشيا معه : « ان هذا يكبدها عناء كبيرا » ٠٠ فمضى هارتلى يقول : « اننى أرثى لحالها كثيرا ٠٠ انها لم تخبرنى باى شيء، بالطبع ٠٠فهى اعظم اخلاصا لزوجها من ان تتكلم عنه ٠٠ ولكنى أستطيع ان أقرأ بين السطور !٠٠ ولكن خبرنى ، هل تظنه فى حالة سيئة ؟ » ٠٠ فاجاب ايزاكسون : « جد سيئة ! » ٠ وتعمد ان لا يبدو فى لهجته شيء من مشاعره ، وكانه يبدى رأيا طبيا فحسب ٠٠ فهتف هارتلى مرتبكا : « ولكنك لا ٠٠ آه ٠٠ ولكنك لا تظن حقا انه فى اى خطر ؟ » ٠٠ فهز ايزاكسون كتفيه ، دون أن يقول شيئا ٠ ومضى الآخر يقول : « ولكن ٠٠ اعنى ٠٠ ما رأيك فى ضربة الشمس ؟ اذا لم تكن ضربة شمس ٠٠؟ »

وانتظر هارتلى ان يقاطعه ايزاكسون ، ولكنه لم يفعل ٠٠ فعاد يستانف حديثه : « اذا لم تكن ضربة شمس تماما ، فان المشكلة هى : ما هو مرضه اذن؟ » ٠٠ ولكن ايزاكسون ظل يرمقه فى صمت ٠ واخيرا قال هارتلى وهو يصل الى هدفه المنشود : « هل انتهيت الى راى معين ؟ » ٠٠ واذ ذاك اجاب ايزاكسون قائلا : « يجب ان أراقب الحالة ، ولو يوما أو يومين، قبل ان اتخذ رايا معينا ! » ٠ فقال الطبيب الشاب : « حسنا ٠٠ ولكن ، بصفة غير رسمية ، ما الذى تظنه فيها ؟٠٠ ما الذى كنت تعنيه بقولك ـ عندما كنا على السطح العلوى ـ انه اذا لم يبذل أكبر قسط من العناية ، فان ٠٠ فان ٠٠ سمعة طبية قد ٠٠ آه ! قد تدمر بسببها !٠٠ انك تعلم أن « تدمر » كلمة شديدة ! » ٠٠ وكان الشاب الأنانى يبدو فى أشد حالات القلق والانزعاج ٠٠ ومضى يتابع قوله : « انك قلت بعدئذ ان من المحتمل جدا ان أندم طول حياتى على ان كان لى شان بهذه الحالة٠٠ وهذا شيء آخر ٠٠ »

واطرق ايزاكسون براسه مفكرا ، ولكنه لم يقل شيئا ٠٠ فاستطرد هارتلى قائلا : « اننى لم افهم ـ وما زلت لا افهم ـ المعنى الذى كنت ترمى اليه ! » ٠ فقال ايزاكسون : « اننى لا أستطيع أن أقول الكثير يا دكتور هارتلى ، ولكن الطبيب الذى يحظى باية سمعة ، والذى قد يكون معروفا فى هذا العالم الفسيح، يجب أن يكون حذرا حريصا ٠٠ وهذه الحالة ليست فى يدى ، ولو انها كانت فى يدى لتغير مجرى الأمور ٠٠ وربما كنت قد انتهيت الى راى معين ، اولا ٠٠ ولكنى مهما يكن من أمر لا أستطيع ان أدلى به الآن !٠٠ لقد اكتسبت خبرة عظيمة ، ويسوؤنى كثيرا أن ارى طبيبا شابا ناهضا ، يمتد امامه ـ فيما يبدو ـ مستقبل باهر عظيم ، يقع فى مأزق عصيب » ٠٠ فتساءل هارتلى جزعا : « مأزق عصيب ؟! » ٠ فهز ايزاكسون رأسه فى رصانة ، وقال : « ان مسز ارماين قد

تظن هذا المرض راجعا الى ضربة شمس ، ولـكنها قد تكون مخطئة .. اذ ربما كان المرض ناجما عن شيء آخر يختلف عن ذلك كل الاختلاف .. وهذا ما اعتقده !» .. فتساءل هارتلى : « ولكن ماذا .. ماذا يكون هذا الشيء ؟ »

– هذا ما يجب اكتشافه ، وأنت هنا لتكشف عنه

– اننى .. اننى اعتقد حقا فى ضرورة تبادل المشورة !

وبدا عليه التردد لحظة ، قبل أن يستطرد قائلا فى سذاجة : « ليس يعترضنا سوى تلك الكراهية الشـديدة التى تكنها لك ! » .. فنهض ايزاكسون وهو يقول : « أما اذا ساءت حالة مستر ارماين سريعا » .. فهتف الطبيب الشاب فى اضطراب : « آه !.. لكن .. » . غير ان ايزاكسون مضى فى حديثه : « أو اذا مات ، ثم تبين فيما بعد أن طبيبه لم يكشف قط عن سبب مرضه ، وان المشورة مع رجل – ومعذرة فى هذا القول – ذائع الصيت مثلى ، قد رفضت رفضا قاطعا ، فان ذلك .. حسنا .. ان ذلك قد يسبب لك ضررا فادحا » .. فوثب الطبيب الشاب مستويا على قدميه ، وهو يهتف : « يا اله السموات !.. لكن .. لكن .. اصغ الى .. هل لديك أية فكرة عن الأمر ؟ » .. فاجاب الآخر : « اننى أرفض أن أقول أى شيء فى هذا الصدد ، ما لم تكن هناك استشارة رسمية » ..

وراح الدكتور هارتلى يجفف جبينه بمنديله ، ثم قال : « شد ما أود لو انك كنت على علاقة طيبة مع مسز ارماين !.. فانه ليسرنى كثيرا ان التقى بك فى استشارة .. ان ذلك قد يكون افضل .. افضل كثيرا ! » .. فأمن ايزاكسون على قوله : « أظنه كذلك ، فالأمر غالبا ما يتطلب اشتراك عقلين فى العمل على اجلاء الغموض عن حالة معقدة عسيرة » .. فقال الطبيب الشاب : « انه كذلك بلا شك .. لا ريب فى انه كذلك ! »

– حسنا .. اننى أقيم على النهر ، شمالا .. وقد أنتقل بالدهبية الى الجنوب

– طبعا .. واذا طلبت رايا الى جانب رايى ؟

– آه !.. ان هذا من حقك !

– وسوف أمارس هذا الحق !

– ان النسـاء ، حتى خيرهن ، لا يمكن أن يفهمن دائما خطورة الموقف ، كما نفعل نحن ..

وامن هارتلى على قوله : « هذا رايى تماما ! » ، فقال ايزاكسون فى رصانة – بل فى أسى – وقد أطلق العنان لمشاعره العميقة المخلصة التى كان اليـاس قد تسلل اليها : « أما اذا ساءت حالته .. » ، وامسك ، فساله هارتلى : « آه !.. لكن .. هل تظن ذلك محتملا ؟ » .. فحدجه ايزاكسون بنظرة ثابتة ، وقال : « أجل ، انه أمر جد جائز ! »

– سوف ادعوك فى الحال ، مهما تكن رغبة تلك السيدة .. ولعلها تشـكر

لنا ذلك ، فيما بعد !

ـ ان النساء يعجبن بالرجل الذى يتخذ موقفا حازما !

فقال هارتلى : « هن كذلك حقا ! » .. وقال ايزاكسون : « ولعلك ستشكرنى انت الآخر فيما بعد ! » ، فهتف الشاب : « اسمع .. لسوف أدعوك الليلة للمشورة ، وسأصر على دعوتك ، بمجرد استيقاظ المريض ورؤيتى اياه ، فلست اريد أن أتحمل المسئولية كلها وحدى .. ان ذلك ليس من الانصاف فى شىء .. ولعلها ـ كما قلت ـ ستسر فيما بعد ، وتعجب بالموقف الحازم الذى .. الذى يتخذه المرء ! »

وهكذا افترق الرجلان على نحو يختلف كل الاختلاف عما التقيا عليه !.. فهل كان مصير نيجل يتوقف على اى الناحيتين فى الأمريكى الشاب ـ نزواته الجسدية ، أو طموحه الى الشهرة ـ التى يقدر لها ان تتغلب على الاخرى فى هذا القلق النفسى الذى يوشك أن يلم به ؟.. لقد دعاه ايزاكسون « قلقا » وليس « نضالا » ، فان الكلمة الأولى تبدو أكثر ملاءمة للنفس التى يوشك هذا النزاع ان يقع فى اعماقها ! .. ولسوف يكون لوجه مسز ارماين ـ الذى شوهه الضنى ـ شأن اى شأن فى هذا النضال .. وكانت براعة ايزاكسون تعتمد على ذلك بعض الشىء ، فى الهام قاس مجرد من الشفقة .. الهام انبعث من الشطر الانثوى فى طبيعته !.. فلقد اخترقت عيناه ذلك القناع الذى كانت مسز ارماين تسدله على وجهها ، ورأى ان نضارتها وسحرها وفتنتها قد ذبلت كلها .. فجأة !

الفصل الثامن والثلاثون

◆ كان ايزاكسون ـ حين عاد الى دهبيته « فاطمة » ـ يحس فى اعماقه بشىء من الانهاك .. كانت قواه فى تلك اللحظة دون مستواها العادى ، كما كان منقبض النفس ، ضيق الصدر نوعا ما .. كان يحس بذلك القلق الداخلى الحاد الذى ينجم عن الحاجة الى الراحة ، وبذلك الضنى الأليم الذى ينشأ عن نقص النوم المريح .. ولم يكد يستقر فى الدهبية حتى طلب الشاى وقال لحسن : «ارجو ان تحضره بنفسك !» .. فلما جاء حسن يحمل الشاى ، اعطاه ايزاكسون سيجارة . وبدلا من ان يقصيه عنه ، بدأ يتحدث اليه ، أو بالاحرى يستدرجه الى الكلام .. فبادره قائلا : « ما اسم ذلك الفتى الطويل الذى استقبلنا على اللولية ؟ » . فاجابه حسن : « اسمه ابراهيم يا سيدى »

ابراهيم ؟! انه الاسم الذى ذكره نيجل فى خطابه على انه المصرى الذى دبر استئجار اللولية لنيجل .. ومن ثم شجع ايزاكسون حسن على الحديث عن

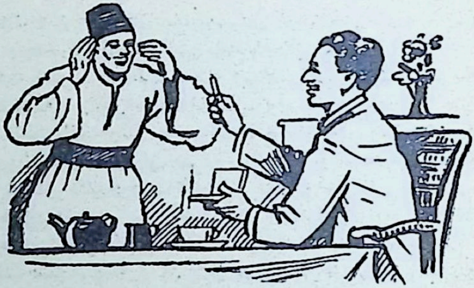

ابراهيم ، بينما ظل هو ساكتا ، يرشف الشاى الممزوج بالليمون ٠٠ ويبدو ان ابراهيم كان صديقا حميما لحسن ٠٠ بل الواقع انه كان اعظم اصدقاء حسن٠٠ كان هو وحسن اشبه بالاخوين٠٠ بل كان حسن يحب ابراهيم كما يحب ابنه ، وكان ابراهيم ينظر الى حسن بعين الاحترام والاعجاب والتقدير التى ينظر بها الى والده !٠٠ وبدا التاثر جليا على ايزاكسون ٠٠ كان يحس فى صدغيه بوخز موجع ، وكان هناك من كان يحاول أن يضغطهما معا ٠٠ ومع ذلك فقد ظل قادرا على أن يصغى الى حسن وان يشجعه على الاستمرار فى الحديث ، وأن يدرك ما كان يدعوه الى فعل الأمرين !

وتدفق حسن فى الحديث ـ بذلاقة لسان ماثورة عن قومه ـ كاشفا عن شئونه الخاصة وشئون ابراهيم ٠٠ وما لبث أن ظهر ان ابراهيم لم يكن فى تلك اللحظة راضيا ، بل لم يكن سعيدا على الاطلاق، على ظهر اللولية!٠٠ فتساءل ايزاكسون: «ولم ذلك؟» ٠٠ وكان السبب انه قد «اقتلع» من مكانه ، وهو الذى كان كفوًا ، متفانيا ، ملهما ، قديرا فوق ما يمكن ان ينتظر من اى خادم آخر ، بل من أى انسان آخر حقا !٠٠ وكانت يدا حسن ترتعشان فى قوة ، وعلى نحو مؤثر ، وهو يتكلم ٠٠ وكان يكشف عن نواجزه ، ويتلظى غضبا وحنقا ٠٠ « ومن الذى فعل هذه الفعلة المنكرة ؟ » ٠٠ القى ايزاكسون هذا السؤال فى غير اهتمام ، فاتاه الجواب على الفور : « انه حمزة ٠٠ ذلك الفتى الكثير الصلاة !٠٠ مع أن حمزة لم يدخل فى خدمة سيدى أرمينيجل الا عن طريق ابراهيم !٠٠ كان كرم ابراهيم المنقطع النظير، ونبله النادر ، هما اللذان أتاحا لحمزة فرصة هذه الخيانة وتلك الخديعة ! » ٠٠ اذن فقد كان ابراهيم هو الأسبق فى خدمة آل ارماين ؟٠٠ وسرعان ما عرف ايزاكسون أن محمد ـ « أحسن مكارى فى الاقصر » ـ قد طرد ليخلى مكانه لحمزة، بينما كان « سيدى ارمينيجل » بعيدا فى الفيوم ، وان حمزة الآن قد اصطلع بعمل ابراهيم ، كتابع خاص لمستر ارماين !

ـ ان حمزة الآن هو الذى يخدم سيدى ارمينيجل ، ويقدم له الشراب ، ويقدم له الطعام ، ويقدم له الدواء ، بل يقدم له كل شىء !

وفى الوقت ذاته ، تضاءلت اهمية ابراهيم حتى تلاشت تقريبا ـ رغم انه ظل يتقاضى اجرا طيبا ، ويلقى معاملة طيبة ـ واصبح فى اعين الرجال « اشبه بالكلب الذى ياكل كيفما اتفق وينام حيثما استطاع » !٠٠ « ومن الذى طرد محمد ؟ ٠٠ كان ايزاكسون مشوقا الى ان يعرف ذلك ٠٠ وقد علم ـ مع الحواشى المعهودة فى الحديث ، لدى الشرقيين ـ ان مسز ارماين هى التى ارادت حمزة ٠٠ « انها تحبه لأنه يصلى دائما ! » ٠٠ وبدت هذه العبارة وكانها تلقى ظلالا من الشك على كل ما سمعه ايزاكسون قبل ذلك ٠٠ ولكنه عندما اضطجع فى مقعده الطويل ، بعد ان صرف حسن ، وحاول ان ينال قسطا من الراحة ، اخذ يتمثل امامه صورة حمزة الجميلة ـ الجميلة لأنها صورة نموذجية رائعة ـ وقد تسربل بروح الشرق التى تغمره ، ووقف جامدا يملؤه التعصب ، ويطل القدر الداهم من عينيه !

وكان حمزة هو الذى يعطى نيجل « الدواء » دائما !٠٠ لقد تبدت فى وجه مسز ارماين لمحة غريبة ، عندما تحدث ايزاكسون اليها عن صلاة حمزة ٠٠ لمحة تنم عن الذعر والهلع ٠٠ ان ايزاكسون ليذكرها جيدا ٠٠ فلماذا تملكها الفزع من صلوات حمزة ؟٠٠ وكان ايزاكسون فى حاجة الى الراحة ، ولكنه لم يعد قادرا على نيل شىء منها ٠٠ فان المرء لا يستطيع ان ينام الا اذا كف عن التفكير ، وعن الانتظار والترقب !٠٠ ومن ثم فقد راح يفكر فى الدكتور هارتلى ٠٠ لقد اعتاد فى حجرة استشارته ان يستشف الخلق والطباع ، وان يمضى فى فحصه الى ابعد من الأعراض البدنية المجردة ٠٠ فهل يتصرف الدكتور هارتلى بدافع من خوفه وخشيته ، او بدافع من خضوعه للنساء ؟٠٠ لقد كان ايزاكسون مطمئنا ـ عند مغادرته اللولية ـ الى انه سوف يتصرف بدافع من خوفه ، ولكن ٠٠ هب ان ايزاكسون قد اخطا تقديره ؟٠٠ هب ان مسز ارماين قد عادت تستخدم نفوذها عليه ، فتخاذل هارتلى وخضع لها ؟

لقد صمم ايزاكسون على ان يتصرف ـ فى تلك الحالة ـ بوحى من الهامه ، فاذا كان هذا الالهام خاطئا ، فان العواقب بالنسبة اليه ستكون غير مرضية ٠٠ بل قد تكون مشئومة حقا !٠٠ فلسوف تعمل مسز ارماين ـ اذا ما ظهر خطؤه ـ على ان يلقى عقابا صارما !٠٠ لقد كانت من التجرد من القلب والمشاعر الانسانية بما يجعلها امراة خطرة حقا ، او امراة يمكن ان تصبح خطرة !٠٠ ولكن لا بد له من المجازفة ٠٠ فعلى الرغم من انه كان رجلا شديد الحذر فيما يختص بشئونه ومصالحه ، الا انه اصبح على استعداد للمخاطرة بها الآن !٠٠ وهو لم يتخذ هذه الخطوة بعد ، لأن الحذر كان يتابط ذراعه ، وينصح له بان يستنفد كل الوسائل الممكنة فى الحصول على ما كان يريده وما كان ينوى الحصول عليه ، بطريقة

معقولة ، ودون ان يثير اية فضيحة !٠٠ لقد احتمل كل شيء ٠٠ احتمل الظلم والافتراء المدبرين ، واحتمل القحة الباردة ، بل لقد احتمل الاهانة ، ولكنه لن يحتمل شيئا واحدا بعد ذلك ٠٠ لن يحتمل ان تقهره مسز ارماين مرة ثانية ٠٠ ولن يحتمل ان تبعده وتنحيه مرة ثانية !٠٠ واذا لم يكن الخوف قد افلح فى السيطرة على هارتلى ، فلا مفر لايزاكسون من ان يتخذ موقفا عنيفا ، ويثير فضيحة مدوية ، بل انه سيتحدى نيجل نفسه فى سبيل مصلحته ٠٠ فهل تراه سيضطر الى هذا المسلك ؟

حسنا ٠٠ لسوف يعرف وشيكا ، بل انه سيعرف فى هذه الليلة بالذات ، فقد وعده هارتلى بأن يدعوه للاستشارة الليلة !٠٠ وفى لهجة الطبيب ، قال لنفسه : « وفى انتظار ذلك لا بد لى من ان ارتاح قليلا » ٠٠ وما لبث ان نزل الى قمرته – اخيرا – فاغلق مصاريع النوافذ الخشبية ، واستلقى على فراشه ، واغمض عينيه ٠٠ وكان قليل الرجاء فى ان يصيب شيئا من النوم ، ولكن النوم ما لبث أن وافاه سريعا ٠ فلما استيقظ سمع أصواتا قريبة منه ، بدت كما لو انها كانت تنبعث من ناحية النهر ٠٠ وظل يرقد ساكنا وهو يصغى فى انتباه ، فسرعان ما تبين انها كانت اصوات لفيف من الوطنيين يتبادلون الحديث فى عنف وقوة ٠٠ وهم بالنهوض ، فما كاد يضع قدمه على الارض حتى سمع طرقا على الباب ، فصاح : « ادخل ! » ٠٠ واذا بحسن يطل براسه خلال الباب قائلا : « ان السيد هنا » ٠٠ فهتف ايزاكسون : « اى سيد ؟٠٠ ما أراك تعنى الدكتور هارتلى ؟ » ٠٠ فقال حسن : « انه السيد المعتل »

نيجل ؟!٠٠ اهذا ممكن ؟٠٠ وقفز ايزاكسون من مكانه مسرعا نحو السطح ، فاذا قارب من اللولية يقف بجوار الدهبية ، بينما كان الدكتور هارتلى يذرع السطح ذهابا وجيئة فى قلق واضح ، حتى اذا سمع خطوات ايزاكسون ، استدار فى حركة مفاجئة ٠٠ فقال ايزاكسون : « هل جئت لتصطحبنى ؟ » ٠٠ وكان وهو يصعد الى السطح قد لاحظ ان الشمس قد غربت ، مما اوحى اليه بانه نام فترة طويلة ٠٠ واجاب هارتلى : « لقد حدثت مشادة صاخبة ٠٠ مشادة محزنة ، اليمة ! » ٠٠ وتساءل ايزاكسون فى هلع : « لماذا ؟ ومع من ؟ » ٠٠ فقال هارتلى محتدا : « معها ٠٠ مسز ارماين !٠٠ ما الذى فعلته بحق السماء حتى أثرتها ضدك الى هذا الحد ؟٠٠ ان شعورها نحوك نابع من كراهية عنيفة حقا ٠٠ هل اسأت اليها اساءة خطيرة يوما ما ؟ » ٠ فقال ايزاكسون : « كلا ، البتة ! »

– اننى ٠٠ اننى أعتقد حقا أنها لا بد أن تكون مصابة بحالة شديدة من الهستيريا ٠ ثم ان ٠٠ ثم ان هناك تغيرا عظيما قد اعتراها !

وتمهل لحظة ، وما لبث أن قال على غير انتظار : « الديك فكرة عن سنها ؟ » ٠ فقال ايزاكسون : « كل ما اعرفه هو أنها ليست فى الثامنة والثلاثين ! » ٠٠

فهتف هارتلى مرتابا : « ليست فى الثامنة والثلاثين ؟! » .. فاجاب ايزاكسون : « انها اكبر من ذلك .. لقد اخبرتنى بذلك ـ ذات مرة ـ بطريقة غير مباشرة ! » .. فحدجه هارتلى فى ارتياب ، ثم قال : « اذن فانت .. اذن فانتما على تعارف وثيق ؟ » .. ولكن ايزاكسون آثر الانكار قائلا : « ابدا ! » .. فعاد الطبيب الشاب يقول : «لقد كنت حتى الآن احسبها فى الثلاثين.. او فى الثانية والثلاثين .. او شيئا من هذا القبيل ! » .. فتساءل ايزاكسون : « حتى الآن ؟ » . فاجاب الآخر : « اجل ، ولكنها .. انها تبدو اليوم فجاة وكانها .. كانها .. حسنا .. كانها امراة فى سن الكهولة !.. اننى لم ار مثل هذا التغير قط من قبل ! »

ويبدو ان الشاب كان شديد الانزعاج والاضطراب حقا لهذا التحول الذى راح يتحدث عنه ، فقال ايزاكسون : « هلا جلست ؟ » . ولكن الشاب قال : « كلا ، شكرا .. اننى .. » . ولم يتم عبارته ، بل سار الى السياج ، يتبعه ايزاكسون .. ثم استطرد يقول : « ان الحديث الذى تبادلناه سويا جعلنى اصر على دعوتك الليلة .. فقد شعرت بان ذلك كان ضروريا ولازما .. وشعرت كذلك بانه واجب ادين به لنفسى كطبيب ـ اذا كان لى ان اقول ذلك ـ ناهض يطمح الى مستقبل باهر » .. فقال ايزاكسون يشجعه : « اعتقد ان هذا حق ! »

ـ فلما استيقظت مسز ارماين ، اخبرتها بذلك .. ولكن يؤسفنى ان اقول انها لم تسلم بوجهة نظرى .. لقد تحدثنا طويلا ، وكانت فى الواقع مناقشة مضنية مثيرة الى حد بعيد ، ولكنها لم تكن فى وعيها .. وكانت تعرف ذلك .. قالت انها كانت غلطتى ، وانه ما كان ينبغى لى ان اعطيها ذلك « الفيرونال » المخدر .. والحقيقة انها كانت تبدو مخيفة مروعة .. هل تعلم ..؟

ثم استدار فجاة ليواجه ايزاكسون ، وقد بدت فى اساريره لمحة تنم عن الفزع والرهبة ، واستطرد يقول : « لقد كان ذلك حقا اشبه برؤية امراة تتحول فجاة امام عينى المرء الى عجوز طاعنة !.. وانا .. انا الذى كنت احسبها شابة تماما ... » . ولكن ايزاكسون قاطعه متسائلا : « وماذا كانت نتيجة مناقشتكما ؟ » .. فقال : « لم يبلغ النقاش فى البداية هذا الحد من السوء .. فقد وافقت ـ اذ وجدت الأمر معقولا ـ على ان ننتظر حتى يستيقظ مستر ارماين ، فنرى كيف تكون حاله وقتئذ .. ولقد ظل مستغرقا فى النوم مدة طويلة ، قضيناها جالسين فى الانتظار .. انها .. لا مناص من ان اقول ان لها سحرا طاغيا ! » . ولم يستطع ايزاكسون ان يتمالك نفسه من الابتسام ، حتى وهو فى غمرة لهفته وتوتر اعصابه ، وكانه كان يرى « بيللا دونا » وهى تحارب ذلك العزم الوليد لدى الطبيب الشاب ، بكل سلاح تملكه .. ثم قال موافقا ، دون ان تبدو فى نبراته اية لمحة من السخرية : « انها كذلك حقا ! »

ـ آه ! ان اى رجل لا بد ان يحس بذلك !٠٠ ولكنها مع ذلك ، اصبحت حطاما الآن ؟

اذن فان الهام ايزاكسون ـ المنبعث عن الغريزة النسوية فى نفسه ـ لم يخنه البتة ٠٠ فقد كان لذلك الوجه المتبدل أعمق الأثر فى قرار الدكتور هارتلى النهائى بأن يدعو ايزاكسون للاستشارة ٠٠ ومضى الطبيب الشاب يقول : « يا للمسكينة !٠٠ والله اننى لا أملك نفسى من الرثاء لها ٠٠ وانها لتعلم ذلك ايضا ٠٠ ولكنى أعتقد أنهن جميعا يعرفن ذلك ! » ٠٠ فقال ايزاكسون وقد عاوده التلهف : «ربما ٠٠ ولكن ، هل أتيت لتاخذنى الى اللولية ؟» ٠٠ فاجاب الشاب : « لقد اخبرتها بانه لا بد لى من الاصرار على ذلك حقا ! »

ـ وكيف وجدت المريض عندما استيقظ ؟

ـ حسنا ٠٠ لا بد لى من القول بأن حاله لم ترق لى على الاطلاق

ـ كلا ؟!٠٠ هل كان أسوأ حالا ؟

ـ اننى حقا ٠٠ لست أعرف تماما ٠٠ ولكنى قلت لها انه اسوأ حالا بكثير !

وساله ايزاكسون : « ولماذا ؟ » ٠ فهتف هارتلى : « لماذا ؟٠٠ لأننى كنت قد صممت على عدم الاستمرار فى رعاية هذه الحالة بمفردى ، خشية ان يحدث شىء ما ٠٠ ولكنها ابت ان تقرنى على انه اسوأ حالا ، واعلنت انه قد تحسن كثيرا ، وغدا اوفر عافية !٠٠ واصارحك بان نيجل قد وافقها على ما تقول ، وذكر انه يزداد احساسا بنفسه ، وما الى ذلك ! ولكن ٠٠ ولكن كان يبدو لى انها تلقنه هذه الأقوال وتضع الكلمات على شفتيه !٠٠ ربما كنت مخطئا ، ولكن الحقيقة ، مع ذلك ، هى اننى شديد الانزعاج لكل ما حدث » ٠٠ وامسك بالسياج بكلتا يديه فى قوة وعنف ٠٠ فقد كان من الواضح انه انما استطاع ان يستميت فى المقاومة ضد « بيللا دونا » على حساب جهازه العصبى !٠٠ ثم استطرد يقول : « فلما غادرنا حجرته ، اخبرتها بانه لا بد لى من ان ادعوك للحضور ٠٠ ولكنها كانت ثائرة شديدة الهياج ، فقالت انها لن تسمح لك بالحضور قط ، وانك كنت ضدها دائما ، وكنت على وشك أن تحول دون زواجها بمستر ارماين ، بل كنت تشوه سمعتها وتسىء اليها فى لندن كلها ! »

ـ هل قالت شيئا من ذلك امام زوجها ؟

ـ لم تقل ذلك كله ٠٠ كلا ، فقد كنا فى حجرة الاستقبال الأولى ٠٠ الا اننى اعتقد أن الرجال كانوا يسمعون ما تقول ٠٠ لقد طاش صوابها حقا ، وكانت فى حالة شديدة من الهستيريا ٠٠ وكان ذلك اثقل المواقف التى مرت بى ، واشدها حرجا ٠ ولكن ٠٠ ولكنى كنت مصمما على ان اتغلب عليها !

وهنا ساله ايزاكسون : « وهل استطعت ؟ » ٠ « فاجاب : « حسنا ! لقد ٠٠ لقد تشبثت بوجهة نظرى ، وقلت اننى لا بد أن احصل على راى آخر ٠ واننى

ساحصل عليه بالفعل ! » .. فتساءل الطبيب الكبير : « رأى آخر ؟! » .. فبادر هارتلى قائلا : « رأيك انت ، طبعا ! فليس هناك من يمكن الحصول على عونه فورا سواك .. ثم انني ـ بعد ذلك الذى كنت تقوله .. الذى كنا نقوله ونفكر فيه معا بعد الظهر ـ لا اريد ان انتظر حتى يتمكنون من احضار طبيب آخر من مسافة بعيدة ! » . فقال ايزاكسون بلهجة عملية : « سوف نذهب على الفور » . وامن هارتلى على قوله : « نعم » .. ولكن هذه الموافقة كانت مشوبة بتردد شديد الوضوح ، كما ان هارتلى لم يتحرك من مكانه ، فرمقه ايزاكسون بعينين حادتين متسائلتين .. وعندئذ قال الشاب فى تخاذل : « انني .. شد ما اود لو انني كنت بعيدا عن هذه الحالة كل البعد ، فانى أخال ـ بعد تلك المشادة العنيفة التى وقعت بعد الظهر ـ انني لا القى سوى الجحود والنكران لكل ما فعلته .. ولم يسبق ان صادفنى مثل هذا الموقف الكريه مع اية امرأة من قبل ، مما يجعل مركزى حرجا ، صعبا لا يطاق .. ولست أدرى كيف تستقبلنا ، لست أدرى حقا .. فانها لم توافق قط على اقتراحى، وكانت عندما تركتها فى حالة مروعة!»

ـ ان مسز ارماين تبغضنى كثيرا ، وهذا امر يؤسف له .. ولكن ينبغى لى ان افكر فى المريض نفسه .. وكذلك ينبغى لك . اصغ الى يا دكتور هارتلى.. لقد استطعنا ، انت وانا ، ان نتغلب على خلافنا البسيط فى هذا الصباح ، وارجو ان نصبح زميلين !

فقال الشاب فى لهفة : « ليس احب الى نفسى من هذا ! » .. فاستطرد ايزاكسون : «سنعود الى اللولية.. وسنفحص المريض ، ثم نتشاور معا .. وعندئذ، اذا ظللت على رغبتك فى التخلص من هذه الحالة .. » . ولم يدعه الشاب يتم عبارته ، اذ هتف : « أحسبنى أريد ذلك حقا ، فان لدى اصدقاء ينتظروننى فى اسوان » .. فقال ايزاكسون : « اما انا فليس لدى من ينتظرنى .. وعلى ذلك فاذا رضى المريض ، وظللت انت على هذا الرأى ، فانى على استعداد لاعفائك من كل مسئولية ، واخذ الأمر كله على عاتقى .. واذا صادف انك اتيت الى لندن ، فانى ... » . وهنا قال هارتلى : « قد أرحل اليها فى الصيف » . فاستطرد ايزاكسون قائلا : « حسنا .. اظن ان فى وسعى ان اكون ذا نفع لك هناك . هل نذهب الآن ؟ »

* * *

◆ وتحرك الدكتور هارتلى سريعا فى هذه المرة .. كان يبدو كان حملا ثقيلا قد ازيح عن كاهله ، فمضى يسير نحو القارب فى خفة ونشاط .. حتى اذا ما بلغاه قال : « ثم انك اكبر منى مركزا بكثير .. وفضلا عن ذلك فانك صديق قديم للمريض ، لذلك لست أظن ان الامر سيبدو غير طبيعى فى نظر احد ! » .. فقال

ايزاكسون بهدوء : « بل انه أكثر الامور تمشيا مع المعقول » ٠ ثم اردف يقول لخادمه : « نعم يا حسن ، لك أن تأتى معنا ٠٠ تعال فى القارب الآخر ، فقد احتاج اليك لتقوم باداء مهمة لى فيما بعد ! »

ولم يتبادل الطبيبان الكثير من الحديث ، بينما كانت المجاديف تعمل فى قوة لتحملهما الى اللولية ٠٠ كان كلاهما مشغول البال ، موزع الفكر ٠٠ ومع ذلك فما ان اشرفا عليها ، حتى بدأ الدكتور هارتلى يتململ فى مجلسه ٠ وكان هذا القلق البدنى يفضح شدة قلقه العقلى ٠٠ وما لبث ان قال اخيرا : « لكم أرجو ان تكون عاقلة ! » ٠ فقال ايزاكسون : « اظنها ستكون كذلك ! » ٠٠ فساله : « وما الذى يدعوك الى هذا الظن ؟ » ٠٠ واجاب ايزاكسون : « انها امرأة أريبة ذكية ، ما فى ذلك شك » ٠ فقال الآخر : « ذكية ٠٠ آه ! نعم ، انها كذلك حقا ٠٠ الم تكن ذائعة الصيت يوما ما ، على نحو معين ؟ » ٠٠ وكان الجواب : « نعم ٠٠ كغادة جميلة ! »

وكانت نبرات ايزاكسون لا تشجع على الاستمرار فى الحديث ، فاخلد الآخر الى الصمت دون أن يكف عن التململ فى مجلسه ٠٠ ولكنهما ما ان أصبحا ملاصقين للولية ـ تحت ذلك الضوء الأزرق المعلق على قمة صاريها ـ حتى قال هارتلى فى صوت خافت خفى : « أرى من الأنسب أن تتقدمنى ، باعتبارك أكبر منى مركزا ! ٠٠ ان ذلك سوف يبدو أكثر مطابقة للوضع الطبيعى ! » ٠٠ فقال ايزاكسون : « لا باس ٠٠ ولكنى لا أريد أن أبدو كأننى ٠٠ » فقاطعه الآخر : « كلا ، كلا ! لا تهتم بى ! ٠٠ لسوف أقدر الأمر تماما ٠ ولقد آثرت أن ادعوك للحضور ، وهذا يدل على أننى لست راضيا عن سير الحالة ! »

ومست « الفلوكة » جانب اللولية ، ثم ظهر ابراهيم ، فابتسم لمرآهما ٠ واتسعت ابتسامته عندما لمح وراءهما القارب الثانى وبه حسن ٠٠ وخطا ايزاكسون الى سطح الدهبية أولا ، فتبعه هارتلى فى تثاقل ، وقد فارقه نشاطه ٠٠ فقال ايزاكسون لابراهيم : « أريد أن أقابل مسز ارماين » ٠٠ فمضى ابراهيم نحو الدرج ، وسار الطبيبان خلفه ٠ حتى اذا ما اوشكا على المرور تحت شعار اللولية ، سال ايزاكسون هارتلى : « هل قدر لك ان تعرف معنى هذه الكتابة العربية ؟ » ٠ فقال هارتلى : « هذه ؟ ٠٠ نعم ، لقد سالت عنها ٠٠ انها من القرآن » ٠٠ فهتف ايزاكسون : « أحقا ؟! » ٠٠ فاستطرد الآخر : « وهى تعنى : « وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه » ٠٠ فقال ايزاكسون : « آه ! ٠٠ انها توحى بنظرية القضاء والقدر الى حد ما ٠٠ ترى هل تروق لك ؟ » ٠٠ وكان الجواب : « لست أدرى ، فاننى لم أفكر فيها ٠٠ اننى لأتساءل كيف ستقابلنا مسز ارماين ؟ » ٠٠ فاجاب ايزاكسون فى مرح الواثق المطمئن : « سيكون كل شىء على ما يرام! » ولكنه كان فى الحقيقة يتساءل بدوره ! ٠٠ وكانت حجرة الاستقبال الأولى

خالية ، فتركهما ابراهيم فيها ، ومضى خلال الباب الذى كان يفصل بينها وبين القسم الخلفى للسفينة ٠٠ وجلس ايزاكسون على الأريكة ، ولكن هارتلى لم يكف عن الحركة والتململ ٠٠ كانت لهفته الحالية تعادل تماما اعجابه السابق بمسز ارماين ٠٠ وبالقدر الذى كان يعبدها به فيما مضى ، أصبح يخشاها ويرهبها الآن !٠٠ وما لبث ان قال : « اننى ٠٠ أرجو ألا تثير الشقاق مرة اخرى » ٠ فقال ايزاكسون وهو شارد البال : «آه ، كلا» ٠ واستطرد الشاب قائلا : « أجل ٠٠ انك لم تر كيف كانت بعد ظهر اليوم » ٠ فقال ايزاكسون يسرى عنه : «لقد كانت مضطربة ، فان بعض الناس لا يحتملون النوم بالنهار ٠٠ أما الآن فقد اتسع لها الوقت لتسترد قواها وتهدىء من اضطرابها ! »

ولكن هارتلى لم يبد متفائلا مطمئنا ، فظل يختلس النظر الى الباب الذى اختفى ابراهيم وراءه ٠٠ وما ان مضت خمس دقائق حتى فتح ابراهيم الباب ثانية ، ثم تنحى جانبا وهو ينحنى قليلا ويغض بصره الى الارض ، بينما دخلت مسز ارماين ترتدى ثوبا للشاى متقن الصنع ، بادى الأناقة ، رمادى اللون مطرزا بالفضة ٠٠ وكانت قد اصلحت زينتها ، ولكنها لم تستخدم ذلك الطلاء الناصع البياض الذى كان يضفى على وجهها شحوبا باهتا ٠ وكانت شفتاها حمراوين ، وشعرها لامعا مرجلا بحيث يظهر جمال رأسها فى أبهى مظهر ، ويدع عنقها الجميل عاريا مكشوفا ٠٠ كانت يدها قد فعلت كل ما يبرز فتنتها ويجعلها تبدو ساحرة جذابة، فى براعة وحذق !٠٠ ومع ذلك ٠٠ فحتى ايزاكسون نفسه ـ الذى كان قد رأى التغير الذى ألم بها بعد الظهر ، والذى كانت أقوال هارتلى قد أوحت اليه بأن يتوقع المزيد من التغير فيها ـ أصيب بدهشة بالغة من ذلك التبدل الذى طرأ على هيئتها خلال ساعات قليلة !

كانت مظاهر السن ـ بما فيها من دلائل مبهمة توحى بما سوف تكون عليه الشيخوخة ـ قد سيطرت على مسز ارماين ، وامسكت بها فجاة فى قوة وعنف٠٠ واذا كانت قد لاحت لمعظم الناس من قبل ـ منذ وجودها فى مصر ـ وكانها اصغر بكثير من حقيقتها ، فانها أصبحت تبدو الآن أكبر كثيرا من حقيقتها فعلا ٠٠ لقد خطر ببال ايزاكسون ، عندما نظر اليها فى حجرة استشارته بلندن ، انها ليست شابة ، ولا عجوزا ، بل وليس ثمة ما يقطع بأنها فى اوسط العمر ٠٠ أما الآن، فقد تبين تماما ما سوف تكون عليه يوما ، عندما تغدو عجوزا وتكثر من الأصباغ والمساحيق ، وتسعى جاهدة ـ بالمشدات الخداعة، والشعر المستعار المتقن الصنع، واجادة تزييف لون بشرتها ـ الى التظاهر باقل شىء يمكن اصطناعه فى الدنيا ، الا وهو الشباب !٠٠ كانت تقاطيع وجهها أشد حدة وأقل لطفا مما كانت عليه من قبل ٠٠ وكان انفها وذقنها يبدوان مدببين ، وعظام وجنتيها اشد بروزا من ذى قبل ٠٠ اما الفم فكان يبدو انه قد استسلم فجاة لذلك الشىء الذى كان

يناضله حتى الآن بنجاح !.. والعينان ؟!.. لقد كانتا تشتعلان بنار توحى بما سيكون عليه ذلك الليل المظلم الذى يوشك ان يطبق على هذه المرأة فى بطء وعزم دائبين ، فيخفى جمالها بين ثنيات سواده الحالك !

وفكر ايزاكسون فى نفسه : « كيف يمكن أن تكون حالة هذا العقل الذى استطاع ان ينتصر فجاة ـ بهذا الشكل ـ على جسد طالما كان هو الفائز المنتصر؟» .. وأحس كانه رجل يطل على هوة سحيقة ، فلا يرى شيئا ، وانما يسمع حركات واصوات تنم عن الفزع والياس !

وتقدمت مسز ارماين من ايزاكسون راسا ، وهى تحدجه بنظرات ثابتة ، وقد بدا كانما كانت عيناها تتحديانه ان يكشف ما ألم بها من تغير . ثم ابتسمت قائلة : « اذن فقد عدت ؟! هذا جميل منك !.. ان نيجل مستيقظ الآن ! » .. ثم تحولت الى الدكتور هارتلى قائلة : « أرجو أن يستطيع الدكتور ايزاكسون أن يطمئنك .. لقد افزعتنى وروعتنى اليوم !.. ولا أظنك تستطيع أن تدرك تماما كيف تكون الحال بالنسبة لامراة تلقى عليها فجاة انباء مقلقة عن حالة مريضها » .. فبدأ الطبيب الشاب يقول متلعثما ، وقد بدا عليه الاضطراب : « ولكننى لم اقصد قط ان .. » . ولكنها قاطعته قائلة : « اننى لا اعلم ما الذى كنت تقصده، ولكنك افزعتنى الى حد رهيب ! حسنا ، هل تودان ان تريا زوجى معا ؟ » . فقال ايزاكسون : « أجل ، لا بد من ذلك ! »

ودهش ايزاكسون ـ الى حد ما ـ لانعدام كل معارضة منها لاستشارته ، رغم انه كان قد تنبأ بهذا الانعدام فى حديثه مع الدكتور هارتلى .. ولعله كان قد لجأ الى هذا التنبؤ ليطمئن نفسه ، فلما تحققت النبوءة ، احس بقلق مبهم ، كذلك الذى ينتاب رجلا كان موقنا من وجود كمين مدبر له ، فهو يتساءل عما اذا لم يكن قريبا من هذا الكمين !.. وما لبثت مسز ارماين ان قالت : « احسبكما تفضلان ان لا احضر تشاوركما ! » .. فاجاب ايزاكسون : « ليس من المعتاد أن يحضر مثل هذه المشاورات سوى الأطباء المشتركين فيها » .. فقالت : « ولكن المشاورات ستكون بعد زيارة المريض وفحصه ، وسوف أترككما طبعا منفردين لهذا الغرض .. وكنت أفضل أن أترككما وحدكما أثناء فحصكما لزوجى كذلك ، ولكن يؤسفنى أن أقول انه يصر على وجودى هناك » . واذ ذاك لم تعد تخامر ايزاكسون ذرة من الشك فى وجود الكمين .. لقد أعدته فى الوقت الذى مكثت فيه وحدها مع المريض .. فهى لم تكد ترى هارتلى يفر بغتة ـ وعلى غير انتظار ـ من الحلقة السحرية لنفوذها وسيطرتها ، حتى جعلت كل همها أن تحكم هذه الحلقة حول زوجها !

ولكن ايزاكسون كان مصرا على تحطيم هذه الحلقة ، بأى ثمن .. فقال : « اننا لا نريد أن نعارض المريض او نضايقه على اى وجه » .. ورمق الدكتور هارتلى ،

فبادر هذا قائلا : « كلا ، كلا •• بكل تاكيد ! » •• فقالت مسز ارماين : « هذا بديع ! » •• وقطبت حاجبيها وزمت فمها لحظة ، ثم لم تلبث ان راحت تبلل شفتيها المصبوغتين بطرف لسانها ، واستدارت نحو الباب ، وهى تقول : « ساسبقكما لأخبره بانكما قادمان » •• وانفلتت الى الردهة

الفصل التاسع والثلاثون

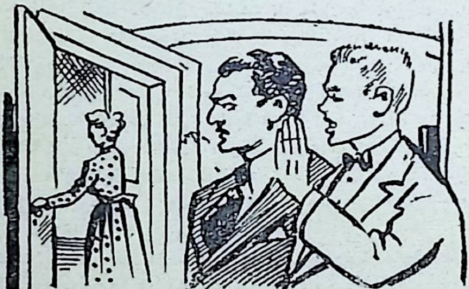

• **رمق** ايزاكسون الدكتور هارتلى بنظرة خاطفة ، قبل ان يتبع مسز ارماين الى الخارج، فغمغم الشاب فى صوت هامس: « اننى .. الا يبدو منظرها غريبا؟ هل رأيت مثل هذا التبدل قط ؟ » . ولكن ايزاكسون لم يجبه ، بل سار الى الردهة . وكانت مسز ارماين قدسبقته وأخذت تسرع فى سيرها نوعاما، ولكنها التفتت وراءها فجأة .. وكان الضوء يتدفق عليها من أعلى ، فيظهر وجهها المتوتر المنهوك ، ويبرز أساريرها الحادة المريبة ــ على نحو عجيب ــ ويكشف عن الغضون المتجمعة حول زوايا عينيها . وكانت تبدو ، تحت السقف المنخفض ، مفرطة الطول اكثر مما ينبغى ، وهى ترفل فى ثوبها الرمادى الطويل ، فخيل لايزاكسون ان فى طولها الفارع شيئا بغيضا

مروعا ، هذا المساء ! . . ورفعت يدها ، وكأنها تنذر الرجلين بالتمهل لحظة ، ثم مضت فى سيرها حتى اختفت خلال الباب المواجه لهما فى نهاية الممر الذى كان يفصل بين صفين من حجرات النوم الصغيرة . . فقال ايزاكسون : « يبدو ان علينا ان ننتظر . لقد غادر المريض فراشه اذن ؟ » فغمغم هارتلى قائلا : « انه لم يكن قد نهض عند ما تركت الدهبية ! » . . فسأله ايزاكسون : « وهل نصحته بأن يلزم الفراش ؟ »

ـ آه ! كلا ، فلست أرى سببا يحول دون مغادرته الفراش ، سوى ضعفه ووهنه . . بل انه ما كان ينبغى ان يلزم الفراش قط !

وفى تلك اللحظة ظهرت مسز أرماين ثانية وأشارت اليهما ان يتقدما ، فأطاعا اشارتها ، ومضيا الى حجرة الاستقبال البعيدة . وما كاد ايزاكسون يجتاز بابها ، حتى رأى نيجل جالسا على الأريكة ـ بالقرب من الباب الأيسر المؤدى الى الشرفة ـ وخلفه عدد من الوسائد . وكان يضع قبعة على رأسه ، فكأنه دخل من الشرفة للتو ، وقد نشر احدى الصحف على ركبتيه . . وكانت الحجرة خافتة الضوء ، اذ لم يكن مضاءا بها سوى مصباح واحد ، حجبت نوره ظلالة . وكان يجلس مستقيم الظهر ، بمساعدة الوسائد ، وكأنه بذل لتوه جهدا عنيفا ، فهو يحاول أن يشد قامته ليريح جسده . . وكانت مسز أرماين تقف ملاصقة له ! . . وتحولت عيناه نحو الطبيبين ، حتى اذا ما اقترب ايزاكسون منه ، قال فى صوت كالح خلو من اية عاطفة ، وان كانت نبراته مع ذلك تحمل مسحة من التذمر : « اذن فقد عدت يا ايزاكسون ؟ » . فأجاب هذا : « نعم . . ان كل شىء على ما يرام ياروبى ، ولكن . . » ، ثم

ـ هذا جميل منك ، ولكنى لا أدرى لماذا ينبغى ان تثار كل هذه الضجة بشأنى . . انك تعرف ان هذا أمر شاق مضن لى ، بلى اعتقد انه يحول دون شفائى !

وهكذا عرف ايزاكسون ما كان ينبغى له أن يواجهه ، وما كان يجب عليه أن يكافحه . واستطرد نيجل يقول : « اننى اكره أن تثار اية ضجة حولى .. اكره ذلك تماما ، ويجب أن تعرف هذا ! » .. **وكان ايزاكسون قد تقدم حتى دنا منه ، وهو يمد يده ليحييه ، ولكن نيجل لم يبد ما ينم عن أكتراث بها ، سواء أكان ذلك عن ضعف لم يمكنه من ان يمد يده ، أو كان عن تظاهر بعدم رؤيتها لسبب آخر ..** فلم يلبث ايزاكسون ان ارخي يده ، وهو يقول : « ما أحسب ان هناك ما يدعو الى اثارة اية ضجة .. كل ما فى الأمر هو اننى انتهزت فرصة وجودى قريبا منك ، واتيت لأرى كيف حالك الآن بعد أن قضيت فترة فى النوم » . فقال نيجل : « اننى لم انم البته فى الليل ، فان ما اعطيتنيه لم يجدنى اى خير » .. فتمتم ايزاكسون : « اننى آسف لذلك ! »

وكان نيجل لايزال جالسا منتصب الظهر ، ولكن جسمه كان قد مال قليلا الى اليسار حيث كانت تقف مسز أرماين، وهي تنظر اليه فى قلق هادىء !.. وعاد يقول : « لقد قضيت ليلة سيئة .. بالغة السوء ! » . فشرع ايزاكسون يقول: « أخشى اذن ان تكون .. » . ولكن نيجل قاطعه قائلا : « لقد فهمت ان الدكتور هارتلى هو الذى ذهب لاستدعائك » .. وكانت فى صوته رنة من الشك .. فقال هارتلى وهو يتكلم فى عصبية لأول مرة : « نعم ، لقد .. لقد قلت لنفسى : ان رأسين خير من واحد ! » .. واغتصب ضحكة أشبه بالعويل، بينما تململ نيجل فجأة فى مجلسه فوق الأريكة ، كشخص يعانى قدرا عظيما من الهياج ، ثم أخذ يقلب بصره بين الطبيبين، وقد أخذ هياجه ينصب عليهما معا من عينيه ، وهو يقول : « رأسان ؟ لماذا ؟ ماذا تعنى ؟ »

وما كاد يفرغ من سؤاله حتى تأوه تأوها عميقا ، ولكنه مع ذلك لم ينتظر حتى يسمع الأجابة ، وانما انثنى يقول لزوجه :

« ليتنى أستطيع ان احظى بقسط من الهدوء ! » .. **وكان فى صوته اعياء فظيع .. كانت فيه نبرة اوحت لايزاكسون بصوت طفل يلقى ألوانا من العذاب والقسوة الرهيبة !** .. وانحنت مسز أرماين فوقه تتحسس يده المستقرة على الصحيفة التى كانت لاتزال منشورة فوق ركبتيه، ثم ابتسمت له ، وغمغمت وهى ترفع حاجبيها : « قليلا من الصبر ياعزيزى ! » .. فقال: « نعم .. ان كل شىء على ما يرام ياروبى ، ولكن .. » ، ثم نظر ثانية الى ايزاكسون ، فى عداء واضح ـ وان لم يكن قويا عنيفا ـ وقال : «اننى أعلم انك تريد ان تعالجنى يا ايزاكسون، كما انها طلبت منى الليلة ان ألقاك .. لقد كان الأمر جد مختلف فى الليلة الماضية .. أما الليلة فانى لا أريد هذا العلاج، ودعني أصارحك ... » . ثم تأوه ثانية بألم ، ومضى يتابع قوله : **« ما قبلت أن أرى أحدا الا لارضائها .. كل ما أبغيه هو الهدوء .. فقد حضرنا الى هنا لننشد الهدوء ، ولكن يبدو اننا لن ننال شيئا منه »**

ثم تحول ثانية نحو زوجته ، قائلا : « حتى انت بدا عليك الاعياء .. اننى أرى ذلك واضحا ! » . فقطبت مسز ارماين جبينها، ثم أسرعت تقول: « آه .. اننى على مايرام يانيجل!» .. ثم استطردت ضاحكة : « ولكنى لن أسمح لهما بأن يتوليا علاجى ! » .. وعاد نيجل يتابع كلامه ـ وهو ينظر الى الرجلين ـ ويقول فى لهجة المدافع : « ان روبى كانت تمرضنى كالجارية !.. ما وجد قط مثل هذا الوفاء من قبل ، وبودى ان يعرف كل انسان ذلك » .. واغرورقت عيناه بالدموع فجاة وهو يستطرد : **« على ان خير الأشياء وأفضل الناس فى هذه الدنيا لايلقون الا الجحود ، ولا يحظون بالثقة ! . »** .. فقالت مسز ارماين وهى تحاول أن تهدىء روعه: « لا باس يانيجل .. لا تحفل بهذا ! »

وكان ايزاكسون ـ وكذلك هارتلى ـ قد ظل واقفا ، اذ

كانت مسز ارماين واقفة . ولكنه ما لبث أن جلس بجوار المريض ، وراح يقول فى هدوء وثبات : **« اننى أعتقد أن الوفاء الحق لا يلبث أن ينال جزاءه .. وكل ما نريده الآن هو أن نفيدك ، وأن نرجع اليك عافيتك السابقة بسرعة »** . فقال المريض : « هذا شعور طيب منك طبعا ، ولكنك لم تفدنى فى الليلة الماضية .. لقد كانت أسوأ ليلة مرت بى فى حياتى » .. فتذكر ايزاكسون ذلك الصوت الذى سمعه عندما كان الملاحون النوبيون يطرقون بمجاديفهم صفحة النهر المظلم ، ولكنه قال : « فلنحاول ان ننفعك الليلة .. ألست تود ذلك ؟ » . فأجاب نيجل فى اعياء : « كل ما اريده هو الراحة .. لقد قلت لها ذلك ، وهانذا أكرره لك ! » فعاد ايزاكسون يسأله : « هل تود أن أبقى الليلة على ظهر السفينة ، حتى أفحصك فى الصباح ، بعد أن تكون قد نلت قسطا من الراحة أثناء الليل ؟ » .. فتطلع نيجل الى زوجته ، ثم قال لايزاكسون بعد لحظة : « ألست قريبا منا ؟ » . فأجابه : « لست بعيدا جدا ، ولكن .. »

— اذن فلست أرى ما يدعو لازعاجك بالبقاء هنا .. فلدينا الدكتور هارتلى

فقال الطبيب الشاب ، الذى كان لايفتأ يختلس النظر — فى نوع من الذعر والرهبة — الى وجه مسز ارماين المتداعى : « اننى .. أخشى ان أكون مضطرا الى الرحيل غدا ، فهناك من ينتظرنى فى أسوان. والواقع اننى أتيت الى مصر فى صحبة مسز « كرافن باجلى » ، لأتولى الاشراف على صحتها المعتلة ، ولو انها أوفر قوة ... » . فقاطعه نيجل قائلا : « أجل ، أجل .. طبعا . . اذهب ، فاننى أريد الهدوء . . وأريد الراحة ! » . ثم تراخى جسمه ومال على زوجته ، فجلست فجاة الى جانبه وهى تمسك بيده ، ثم قالت : «هل تفضل الا يقوما بفحصك الليلة ؟ » . . فقال فى صوت نم عن انزعاج : « فحصى ؟! » .. واذ ذاك قالت : « حسنا ياعزيزى .. ان

هذين الطبيبين .. » . فبذل نيجل جهدا خارقا حتى جلس منتصب الظهر كما كان من قبل ، وقال بذلك الصوت الواهن الفضوب الذى كان ينبعث من رجل منهوك القوى : « لست اريد أن يضايقنى أحد الليلة .. لم .. لم أعد استطيع احتمال شيء آخر ! . . لم . . اعد .. استطيع » ، وتلاشى صوته فجاة ، فهمس هارتلى : « يحسن بنا ان ننصرف ، ولنرجىء الفحص الى صباح باكر ! »

ثم نظر الى مسز ارماين ، وأسرع نحو الباب . وعندئذ نهض ايزاكسون من مجلسه ، وقال لمسز ارماين فى صوت لايعبر عن شيء : « سندع المريض الليلة » . فقالت متسائلة : « نعم ؟ . » . ولكنه تجاهل سؤالها وقال: « ولكن، أتسمحين لى بكلمة أقولها لك فى الحجرة الأخرى ؟ » .. ثم تبع هارتلى الى الخارج ، فلما لحق به فى الردهة ، قال الشاب : « لم تكن ثمة فائدة ترجى الليلة ، بل ان فحصه كان خليقا بأن يزيد الأمور سوءا ، فانه ليس فى حالة عقلية مناسبة لمثل هذا الفحص فى هذا الوقت المتأخر » . فقال ايزاكسون : « اظن ان من الأفضل ان ننتظر الى الغد »

– وعندئذ ، لا بد لى بمجرد انتهاء الفحص والتشاور من الرحيل .. هذا ، اذا كنت راغبا فى ..

– يمكنك ان تدع كل شيء بين يدى !

فقال الشاب فى صوت شاك : « انها أصبحت تمقتنى .. هل رأيت من قبل مثل هذا التحول ؟ » . فقال ايزاكسون : « سأتحدث اليها فى حجرة الاستقبال الأولى، ولذلك فسأتركك الآن ! . » . وكان هارتلى يضع يده على أكرة أحد الأبواب فى الردهة ، فقال : « أما أنا فسأدخل هنا .. اننى أنام هنا » .. فقال ايزاكسون: «طابت ليلتك!» .. وتساءل الشاب: «آه !.. الا تريدنى ثانية؟» . وكان جواب ايزاكسون: « ليس الليلة!» . فهتف الآخر : « طابت ليلتك اذن ! » .. وفتح باب الحجرة

ثم اختفى بداخلها ، بينما سار ايزاكسون الى حجرة الاستقبال الأولى . وهناك ظل ينتظر زهاء عشر دقائق ، قبل أن يسمع وقع خطوات مسز ارماين قادمة .. **ولكنه ما كان ليبالى لو طال انتظاره ساعة كاملة ، فقد كان يحس فى أعماقه بذلك العزم الصادر عن ارادة حديدية استقرت على أمر معين .. والمرء القوى لا يضيره الانتظار !** وما لبثت مسز أرماين ان دخلت ، فأغلقت الباب خلفها فى رفق وهى تقول : « اننى آسفة اذ أبقيتك فى الانتظار برهة ، ولكنى كنت أقود زوجى الى حجرته ، فانه يريد أن يأوى الى الفراش.. اين الدكتور هارتلى ؟ » .. فأجاب : « لقد ذهب الى حجرته ! »

وكان فى نبرات ايزاكسون شىء يبدو أنه أثار دهشتها فجأة، اذ راحت تحدجه بنظرة حادة متسائلة .. وأردف قائلا :«هلا جلست لحظة ؟ » . فبادرت الى الجلوس ، وهى لاتزال ترمقه بنظرات ثابتة .. وما لبث أن جلس بالقرب منها ، وقال : «ان الدكتور هارتلى سيرحل فى صباح الغد » .. فقالت : «ولكنه وعد بأن يمكث معنا بضعة أيام أخرى ليشرف على نقاهة زوجى » .. فقال ايزاكسون : « بل انه سيرحل غدا .. كما أن الحديث عن النقاهة سابق لأوانه ». فقالت : «لست افهم شيئا مما تقول ! » .. فأجاب « **سازيدك ايضاحا .. ان زوجك ليس فى دور النقاهة ، وانما هو فى اسوا حالات المرض !** » .

— لا عجب فى ذلك ، ما دام يلقى هذه المضايقات القاتلة ، وما دام لا يحظى بالراحة والهدوء ، لا فى الليل ولا فى النهار ، وما دام يعطى عقارا فوق عقار !

— هل لى أن أسألك عما تعنينه بهذا القول ؟

— ألم تحضر فى الليلة الماضية وترغمه على تناول الجرعة المنومة ؟

فقال ايزاكسون : « لقد أعطيته شيئا يجلب النوم حقا »..

فقالت :« ولكن هذا الشىء لم يجلب له النوم قط ! » .. واذ ذاك قال ايزاكسون فى هدوء : **« لأن زوجك تلقى صدمة شديدة قبل أن يتسع الوقت لكى يحدث الدواء أثره المنوم ! »** .. فتململت مسز ارماين فى مجلسها ، وقالت وهى تتفرس فيه: « صدمة شديدة ؟ ! » .. فقال الطبيب : « ان الأصوات تسرى فى الليل ــ وفوق الماء ــ الى مسافة طويلة .. ألم تلاحظى ذلك قط ؟ » .. وكانت لا تزال تحملق فيه ، فلما نظر اليها خيل اليه أن عظام وجهها قد ازدادت بروزا .. واستطرد يقول اذ وجدها لا تجيب : **« لقد خيل الى ــ فى الليلة الماضية ــ أننى سمعت شيئا غريبا .. فأمرت رجالى بالكف عن التجذيف لحظة ، ورحت أنصت .. ولا يدهشنى أن الجرعة المنومة التى أعطيتها لزوجك لم تحدث أثرا ، فانها فى مثل هذه الظروف كانت خليقة بأن تحدث مفعولا عكسيا ، ضارا .. وما من طبيب يمكن أن يتكهن بشىء من ذلك ! »**

وأخذت تتحرك فى مجلسها بقلق ، فنهض ايزاكسون ووقف أمامها ثم أردف قائلا : « اننى سأكلمك بصراحة ووضوح .. لقد أخبرتنى منذ بعض الوقت فى عيادتى بلندن ، بالكثير عن حقيقة نفسك » . فقالت : « انك تظن .. » ، ولكنه قطع عليها الحديث قائلا : « بل اننى موقن تماما .. لقد اخبرتنى أن كل رغبتك فى الحياة هى ان تستمتعى بما بقى من عمرك ، فالى متى تنتوين ان تحتملى حياتك الحالية ؟» .. فهتفت : « احتملها ؟ ! .. انك لاتفهم شيئا . لقد كان نيجل بالغ الطيبة معى ، كما انى سعيدة كل السعادة معه » .. فسألها : « اذا كان بالغ الطيبة معك ، فهلا تريدين أن تريه يبرأ ويستعيد صحته ؟ » .. وكان جوابها : « اننى اريد ذلك طبعا ، وقد قمت بالعناية به دون أن ادخر فى ذلك جهدا » .. فقال :«اجل .. لا سيما وانك بلا وصيفة تعينك .. مع انها كانت تقرع الجرس لحمزة أمس عندما كنا هنا ! » .. وكانت السخرية

تمتزج بالتقريع فى عبارته الاخيرة ، فغضت بصرها وراحت تعبث بالوشى المطرز القاتم الذى كان يكسو الأريكة ، ثم قالت : «لقد توليت تمريضه حتى كاد المرض يحل بى أنا الاخرى » .. فقال : « سأريحك من هذه المهمة » . واذ ذاك أدارت وجهها نحوه ، وقالت : « لا ، لن تفعل ذلك .. اننى زوجة نيجل وهذا هو واجبى الطبيعى » .. فقال : « ولكننى مع ذلك سأعفيك من المهمة ! »

وكان لنبراته الثابتة ، الجامدة ، أثر بالغ الوضوح عليها ، بينما مضى يقول : « لسوف اتولى الحالة بنفسى منذ الليلة ! » .. فهبت مسز ارماين واقفة وراحت تنظر الى ايزاكسون من عل ، وهى تقول : « لن يرضى نيجل بوجودك ! » .. فقال بحزم : « بل يجب ان يرضى ! » .. وعادت تقول : « انه لن يفعل .. الا اذا رغبت أنا فى ذلك » . فقال : « وانت لن ترغبى فى ذلك قط ! » . فقالت : « كلا ! » . واذ ذاك قال : « ولكنك ستتظاهرين بالموافقة ! » .. فظلت تنظر اليه فى صمت . واخيرا قالت لاهثة : « ولماذا » .. فأجاب : **« لأنك اذا لم تفعلى ، فلن ابعث فى طلب طبيب آخر ، وانما سأبعث فى طلب رجال البوليس ! »**

وتهالكت على الأريكة دفعة واحدة ، ولكن تعبيرات وجهها لم تتغير قط .. فأدرك ايزاكسون أنها قد افلحت فى ان تجعل من وجهها قناعا يخفى تفكيرها السريع الثائر .. واخيرا قالت : « لعلك لا تعنى أن تقول انك تظن فى الأمر شيئا ما .. ان احدا من الخدم .. ابراهيم ، او حمزه .. اننى لا اصدق ذلك .. لن استطيع ان اصدق شيئا من ذلك قط » . فسألها : « هل تريدين منى ان أشفى زوجك ؟ » .. فأجابت : « اريد ان يشفى طبعا ! » . فقال : « اذن فأرجو أن تذهبى اليه الآن ، وتخبريه بأنك قد طلبت منى أن أقضى الليل هنا .. اننى لا اريد ان يرانى الليلة ثانية ، ولكن سأراه بمجرد أن يستيقظ من

النوم فى الصباح » . فقالت مراوغة : « ولكن .. انه لن.. » . ولكنه قاطعها قائلا : «كما تشاءين ! .. فاما أن ابقى هنا وأتولى العناية بهذه الحالة ، واما أن أعود الى سفينتى فى ادفو ، ثم اقوم فى الصباح بالاتصال بالسلطات المختصة » .. فعادت الى النهوض فى بطء ، وهى تقول : « حسنا .. مادمت تعتقد حقا ان فى وسعك أن تشفى نيجل سريعا ! »

وسارت نحو الباب ، ثم غمغمت قائلة : «سأرى مايقوله !» . وفتحت الباب وانفلتت خارجة. **وفى تلك الليلة أوفد ايزاكسون تابعه حسن الى « فاطمة » ، ليحضر له الضرورى من المتاع ، فقد نجحت مسز أرماين فى اقناع زوجها بقبول زيارة الطبيب له وفحصه فى صباح اليوم التالى ..**

لم يهزم ايزاكسون فى هذه المرة ! .. ولكنه اذ مضى الى احدى هذه القمرات الصغيرة الأنيقة ، ليحاول النوم قليلا ، كان يحس بانقباض شديد ، رهيب، لم يكد يقوى على احتماله .. اذ ما معنى هذا الانتصار .. او ماذا ينبغى ان يعنى ؟ !

الفصل الاربعون

◆ ظل ايزاكسون يسائل نفسه ـ اثناء الليل ـ عن معنى انتصاره ، ولكنه كف عن التساؤل عندما بزغ الفجر ، وصار عليه ان يخف مرة أخرى الى عمله .. ذلك العمل الذى كان قوام حياته ، على الرغم من انه كان يميل احيانا الى السخط عليه ـ فى اعماق سريرته ـ كلما استبد به التعب . كانت مهمته واضحة امامه ، وهى مهمة كان يستطيع أن يهبها شطرا من قلبه . وعلى الرغم من انه لم يكن بليد الحس والشعور ـ حتى يستسيغ الضيم والاهانة ـ الا أنه كان رجلا ينطوى على طبيعة كريمة سمحة ، وقد اعتاد أن يغض النظر فى تسامح ، عن تلك المضايقات الطفيفة ، والاساءات الصغيرة التى تعرض للمرء فى حياته ، والتى يتشدد الكثيرون من ذوى العقليات التافهة فى امرها ، ولا ينسونها فى سهولة ! .. وهذا الرجل المريض الغضوب الذى كان مستعدا ـ بسبب ضعفه الجسمانى وحبه الذى أساء توجيهه ـ لأن يقلل من شأن

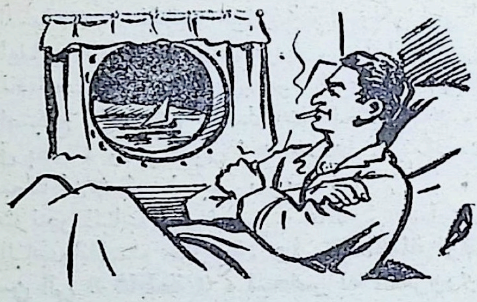

صداقته ، وأن يضرب عرض الحائط بما عرضه عليه من معونة .. هذا المريض لم يشأ ايزاكسون أن ينظر اليه الآن كرجل ، وانما كان ينظر اليه « كشىء » أصابته يد الدمار ، فمن واجبه أن يصلحه وأن يعيده الى حالته الصحيحة السابقة ! .. كان يعرف طبيعة الرجل على حقيقتها ، ويعرف نفسه على حقيقتها ، وقد فهم حق الفهم ما أصاب هذه النفس وتلك الطبيعة فحاد بهما عن السبيل السوى .. ولذلك فقد نحى شخصه جانبا ، ووضع كبرياءه فى جيبه الذى كان يعده خير مكان لها فى تلك الآونة ! .. ومع انه استطاع أن يصل الى هدفه — عن طريق تلميحه الجرىء الى ما كان الهامه قد همس اليه به — الا انه ما لبث أن أدرك انه اذا شاء النجاح فى انقاذ نيجل ، فلابد له من أن يعمل فى حزم ، بل فى دهاء لم تكن القطرات الشرقية فى دمه لتجعله غريبا بالنسبة له ، كما يمكن ان يكون بالنسبة لمعظم الدين يعيشون مثله !

وكانت مسز أرماين قد خضعت واستكانت مؤقتا .. فانصاعت لما امرها به ، وفعلت الشىء الذى كانت تكره أن تفعله .. ولكنها لم تكن بالمراة التى تنطلق قدما فى اى طريق يقودها بعيدا عن رغباتها ونزواتها ! كانت الآن تمقت ماير ايزاكسون بقدر ما كانت تخافه ، كما كان لها فى الوقت نفسه نفوذ شديد قاس على زوجها .. على ان اى خوف دفين ما كان ليمنع حقدها على الرجل — الذى فهمها على حقيقتها — من ان يعمل فى الخفاء .. فهى، كالخلد(١) لابد لها من ان تعمل فى الظلام .. وهى لا تستطيع البتة ان تمنع نفسها

---

(١) حيوان صغير ضيق العينين ذو فراء ثمين ، يأوى الى الجحور الدفينة ولا يخرج منها الا ليلا .

من ذلك ! .. ولم يدر ايزاكسون ما قالته عنه لنيجل - بين زيارته الاولى للولية وزيارته الثانية - ولكنه فى الواقع لم يكن ليهتم بأن يعرف ذلك .. ولم يكن من العسير عليه أن يحدس كيف استخدمت نفوذها وتاثيرها ، بل انه ليكاد يسمعها تسرد قائمة اساءاته اليها ، ويكاد يرى عينيها وهما تهمسان للمريض بما تريد ان توعز اليه به ، وهى أشياء لم يكن ثمة شك فى ان نيجل قد صدقها ، لأنه فى حالته هذه كان خليقا بأن يصدق اى شىء تقوله له ، ولا تفتا تردده على مسامعه .. وهكذا وافق بكلمة منها على قبول خدمات صديقه .. الخدمات التى كان - بكلمة أخرى منها - شديد الرغبة فى رفضها !

والحقيقة ان نيجل كان فى قرارة نفسه يصيح مستنجدا بتلك اليد القوية كى تنتشله من الهاوية التى تردى فيها ، فقد كان شديد الايمان بايزاكسون كطبيب ، بقدر ما كان يكره من ايزاكسون الآن ريبته - التى لم تعد خافية - فى المراة التى رفعتها شهامته الى العرش !

وهكذا استقبل نيجل ايزاكسون فى مزيج عجيب من الشكر والتحفظ معا ، فوضع نفسه بين يدى « الطبيب » فيما يشبه استسلام غلام صغير وثقته .. ولكنه كان يرد نفسه - فى عزم يبعث على الرثاء والشفقة فى هذه الظروف - عن يدى « الصديق » المبسوطتين .. وسرعان ما احس ايزاكسون بانه وان كان قد حسم النزاع الأول - وحسمه على الوجه الذى يرضيه - الا ان نزاعا آخر كان فى بدايته .. فقد بدات معركة النفوذ الصامتة التى كانت رحاها تدور خفية حول هذا الرجل الطيب ، الذى ادت به فضائله نفسها الى هذا المصير التعس ! .. ولكن ايزاكسون آثر أن يقدم صفته كطبيب على صفته كصديق ، فانه كطبيب قد يوفق الى تمهيد الطريق أمام الصديق ، ومن ثم فانه قابل هذا التحفظ الجديد من نيجل بتحفظ آخر لم يكن يبدو مقصودا فى الظاهر ، وانما هو تحفظ عملى ، رسمى - وفوق كل شىء - تحفظ ساكن هادىء

كان ايزاكسون يشع هدوءا وسكينة ! .. وقد وجد مريضه فى هذا الصباح الأول منهوك القوى بعد ليلة سيئة أخرى ، كان احد أسباب سوئها تلك الجرعة المنومة التى جعلته ينام نهارا .. وادت هذه الحالة الجسدية التعسة الملموسة ، بما لها من تاثير على العقل ، الى اطلاق يدى الطبيب فى الفحص .. فتمكن - فى غير مشقة - من ان يقوم بفحص دقيق شامل للحالة .. اما المريض ، فعلى الرغم من انه كان بادىء ذى بدء متحفظا فى مسلكه ، وقد اقام حاجزا بينه وبين ايزاكسون ، الا انه ما لبث أن اطلق للسانه العنان على نحو مثير للشجن ، بمجرد أن أصبح الحديث طبيا محضا .. ولكنه سرعان ما عاد الى الاستغراق فى تحفظه الجامد السابق - بمجرد انتهاء الفحص - ذلك

التحفظ الذى كان يبدو غريبا عن طبيعته الحقيقية ، بحيث احس ايزاكسون كان الرجل الذى يعرفه ويميل اليه قد نهض وغادر الحجرة ، وخلفه مع رجل غريب عنه ! ٠٠ وكانت مسز ارماين تنتظر نتيجة هذه المقابلة ، اما الدكتور هارتلى فكان قد رحل ـ بل لعل « هرب » هى الكلمة الصحيحة ! ـ فى ساعة مبكرة ! ٠٠ وكان وجهها فى ضوء النهار يبدو اشد انهيارا مما كان عليه فى الليلة الماضية ، ولكن مسلكها كان هادئا شديد البرود ٠٠ وقالت : « علام استقر رأيك ؟ »

ـ لست أظننى على استعداد لأن أصدر قرارا معينا ٠٠ وكل ما استطيع قوله هو ان زوجك فى اشد حالات الضعف والانحطاط ، ولو تركت هذه الحالة لتستمر على ما هى عليه ، لغدا الضرر مما لا يمكن اصلاحه !

فقالت : « ولكنك تستطيع ان تشفيه » ٠٠ وكان جوابه : « ارجو ذلك ! » ٠٠ وكانت تقف وكانها تنتظر أن تسمع مزيدا من المعلومات المفصلة ، ولكنها لم تتلق شيئا من ذلك ٠٠ فقد قال ايزاكسون بعد لحظة من الصمت : « ان اول ما ينبغى عمله هو أن نقصيه عن هنا » ٠٠ فتساءلت : « نقصيه عن هنا ؟ ولكن الى اين ؟ » ٠ فاجاب : « ان تلك الفيللا القائمة فى الاقصر لا تزال تحت امركم ، فيما اظن ! » ٠٠ فقالت : « آه ! نعم » ، فعاد يتساءل : « واحسبها مريحة ، حسنة الاعداد ؟ » ٠٠ فقالت : « تماما » ٠٠ وتابع اسئلته : « كما اننى أعلم انها فى بقعة هادئة ، ولها حديقة » ٠٠ فسألته بدورها : « اتراك رايتها ؟ » ٠٠ واجاب : « نعم ، فقد كانت دهبيتى راسية امامها تماما فى الليلة السابقة على رحلتى الى الجنوب ٠٠ فلعلك تتفضلين اذن باصدار الأمر الى « الريس » للعودة الى الاقصر فى أقرب وقت » ٠٠ فقالت فى غير اكتراث : « حسنا ! »

كان مسلكها وهيئتها قد أصبحا ينمان عن الاستسلام وعدم الاكتراث الى حد عجيب ٠٠ كانت من قبل مليئة بالحيوية الثائرة الضارية ، اما اليوم فقد لاحت وكانما سلبت منها تلك الحيوية !٠٠ واستطردت تقول : « ساطلب اليه ذلك الآن » ٠ ومضت نحو سطح الدهبية دون أن تلقى مزيدا من الأسئلة ٠ وان هى الا لحظة حتى دبت الحركة فى السفينة ، وسمعت صيحات الملاحين ، وبدأت اللولية تتحرك سابحة صوب الشمال مع التيار ٠ فلما سال نيجل عن السبب ، قال له ايزاكسون : « ان هذا المكان شديد العزلة ، بحيث لا يصلح لشخص مريض ، فان المرء لا يستطيع الحصول على شىء هنا٠٠ ولسوف تكون أكثر راحة واوفر دعة وامنا فى منزلك ، كما سيكون فى وسعى أن أبذل لك عناية افضل »٠٠ فتساءل : « أو نحن عائدون الى الفيللا ؟ » ٠٠ وما أن أجابه : « نعم » ، حتى قال نيجل فى بطء : « اننى مسرور لذلك ٠٠

اننى لم اخبرها ، ولكننى كنت قد بدات امقت هذه السفينة ، فى الواقع ٠٠ فان كل هذه المتاعب قد حلت بى هنا ٠٠ بل اننى احيانا ٠٠ اكاد اشعر كما لو كان ٠٠ »

ثم توقف عن المضى فى الحديث ، فقال ايزاكسون فى هدوء : « نعم ؟ » ٠٠ فاردف قائلا : « كما لو كان هناك شىء مشئوم بالنسبة لى على ظهر اللولية ! » ٠٠ واذ ذاك قال الطبيب : « اننى فى الفيللا ساعيد اليك صحتك وقوتك الأصليتين » ٠٠ فمال الوجه النحيل ـ الذى كان فى لون الرصاص ـ الى الأمام ، وتوهجت العينان ـ اللتان كانتا مليئتين بالعلة المروعة ـ بنيران الأمل لحظة ، وهتف : « أتظن حقا اننى قد أشفى يوما من الأيام ؟ » ٠ فمكث ايزاكسون برهة لا يحير جوابا ، ثم قال : « هل تبذل لى وعدا ؟ » ٠ فساله نيجل بدوره : « وما هو ؟ » ٠ واذ ذاك قال الطبيب : « هل تعدنى بان تطيعنى طاعة مطلقة فى كل شىء آمرك بعمله ؟ » ٠٠ وعاد نيجل يساله : « هل تعنى ٠٠ بصفتك طبيبا ؟ » ٠٠ فلما قال له : « نعم » ، عاهده على ما أراد ، فقال الطبيب : « حسنا جدا ٠٠ اعتقد ان بوسعى ـ اذا انت وفيت بوعدك ـ ان آخذ على عاتقى ان اعالجك واشفيك ٠٠ واظننى استطيع ان آخذ على عاتقى ان تغدو ثانية ، فى يوم من الأيام ، ذلك الرجل القوى الذى كان يستمتع بكل صحته وقوته »

وانهمرت الدموع من عينى نيجل وراح يغمغم : « ليت ذلك يتحقق ٠٠ ليته ! » ٠ فقال الطبيب برصانة : « ولكن اذكر اننى اتوقع منك طاعة عمياء لأوامرى كطبيب ، واول هذه الأوامر هو هذا : انك لن تتناول اى شىء ما لم اعطك اياه بنفسى وبيدى » ٠٠ فتساءل المريض : « اتعنى ٠٠ اى دواء ؟ » فاجاب : « اننى اعنى ما قلت ٠٠ لن تتناول شيئا ٠٠ لا لقمة من طعام ،

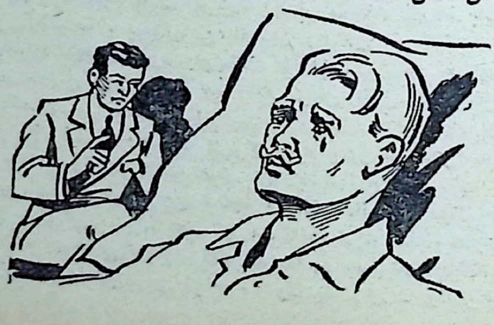

ولا رشفة من شراب » .. فهتف نيجل : « اذن فان زوجتى وحمزة .. » ، فقاطعه ايزاكسون فى صرامة : « هل تطيعنى ؟ » . فقال نيجل بصوت واهن : « نعم » . فعاد الطبيب يقول : « ما عليك الآن الا أن ترقد ساكنا ، وان تذكر اننا ذاهبون الى منزلك ، حيث اعتزم أن اعيد اليك صحتك كاملة »

وهكذا مضت اللولية تنحدر مع التيار ، فى بطء وتثاقل ، وهى تتقدم فى وسط النهر ، اذ كانت الريح ساكنة تماما ، وكان الجو حارا اشبه بالاتون .. ورفعت « فاطمة » مراسيها وتبعت اللولية الى الشمال . وأتى الليل ، وهما لا تزالان تسبحان والنجوم ترقبهما من عل .. ونام نيجل ، اما ايزاكسون فقد ظل ساهرا متيقظا . وفى مقصورة مجاورة ، اخذت امراة تحدق النظر الى وجهها فى مرآة صغيرة مثبتة الى غطاء صندوق مذهب .. وكانت نظراتها تنفذ الى قلبها فى ياس فظيع .. لقد قال هارتلى انه كان « يظن » انها قد ادركت ما أصاب جمالها من انهيار مباغت .. يظن ؟! .. الواقع انها كانت قد تبينت الكارثة – قبل أن يفطن اليها – بفزع بارد كالجليد ، ظل يقوى ويشتد حتى انتهى بها الى يأس مرير .. ومع هذا اليأس ، حلت الكراهية ، الكراهية للرجل الذى ادى بها الى هذا الانهيار ، اذ وقف حائلا بينها وبين السعادة .. هذا الرجل هو نيجل ! .. لقد ظن انه قد انقذها من نفسها الشريرة ، ولكنه فى الحقيقة انما أيقظ هذه النفس الشريرة من هجعتها وسباتها ! .. لقد كانت فى لندن اقرب الى ان تكون امراة فضلى بالمقارنة الى ما أصبحت عليه الآن ، فان بحثه الفاشل المتعثر عن سمو الروح ونبلها ، انما أثار الشيطان الكامن فى أعماقها ! ولقد كانت تتوق الى ان تجعله يعرف ما كانت عليه حقا .. وكم من مرة أوشكت فيها – بينما كانا منفردين معا على ظهر اللولية – أن تخبره بشىء من الحقيقة على الأقل .. بل لقد كادت اعصابها تخونها ، عندما كانت الذهبية تستقر ساعات طويلة بلا حراك فوق صفحة النهر البللورية ، بمعزل عن العمران والناس .. كانت المراة اذ ذاك تضطر – وقد أسقمها السام ، وأوشكت على الجنون من حياتها الراكدة الكئيبة – الى تمثيل دور الحبيبة مع ذلك الرجل الذى كانت قوته وجماله الماضيان يتناقصان يوما بعد يوم !

الا ينتهى ذلك قط ؟ .. لقد كان كل يوم يبدو لها دهرا ، وكل ساعة تبدو لها عاما !.. ولكنها كانت تعرف ان لابد لها من ان تتشبث بالصبر ، ولو ان الصبر لم يكن شطرا من طباعها .. لقد كانت طوال حياتها امراة جشعة عجولا ، تقبض بيديها على كل ما كانت تريد فتتشبث به فى اصرار ونهم .. ولقد كانت تخفى تعجلها ونفاد صبرها وراء ستار من فتنتها ، وهكذا استطاعت أن تلقى ما لقيته من نجاح .. ولكنها الآن – ولم يبق امامها الا

القليل من الزمن لأية متعة يمكن ان تنالها ـ الآن وقد راحت الرغبة والغيرة تنهشانها وتنخران فى جسدها ، فانها اصبحت تجد ترددا واحجاما من قواها وهى تستحثها وتستعين بها .. لقد كانت فيما مضى تستخدم تاثيرها وسلطانها دون مشقة أو عناء ، اما الآن فلابد لها من العناد والاصرار فى محاولاتها .. وكانت تعلم ـ فى ذلك اليقين المخيف الذى يواتى المراة المكتهلة ـ ان الاجهاد القاسى الذى يعانيه عقلها لابد له من ان ينتج أثره الواضح فى جسدها !

وكان مبعث فزعها ـ ذلك الفزع الرهيب الذى لم يفارقها قط خلال تلك الأيام والليالى على ظهر الدهبية ـ ان جمالها قد يذبل ويخبو قبل ان تغدو حرة فى الذهاب الى بارودى ! .. وكانت قد اصبحت تعلم كيف كان سحرها قويا عليه ، رغم تظاهره القاسى بالرزانة والرصانة .. وكانت قد استطاعت ، عن طريق احط ما لديها من قوى ـ تلك القوى التى كان نيجل ينكرها ويخال انه يمقتها ، ولو انه ربما انصاع لها وخضع بكيفية ما ـ ان تدرك طبيعة المصرى الشهوانية .. فقد كان بارودى كما قال «ستارنورث» لايزاكسون ، ذا شغف جنونى بالنساء ، وكان ذا ولع جنونى ببيللا دونا ! .. ولكنه كان يعرف كيف يصبر وينتظر فى سبيل ما يريده ويرغب فيه .. وقد كان الآن فى الانتظار ! .. ولكن المشكلة التى ما فتئت تلوح امام عينى مسز آرماين ـ أثناء وجودها فى هذا « المنفى » مع نيجل ! ـ هى : « هل يمكن ان ينتظر طويلا ؟ » .. كانت تعلم أن نضارة النساء وحسنهن قصير الأمد . وكانت تعلم ـ على الرغم من انها كانت تنكر ذلك على نفسها ـ انها اذا اقبلت على بارودى ، فى خريف سحرها الباهت ، لا فى ربيعه المشرق ، فانها قد تتعرض للمخاطرة بأن تواجه بتلك القسوة الصريحة التى غالبا ما تكون وليدة النظرية الشرقية عن النساء ! .. على انها ـ فى غمرة فزعها ـ لم تكن تكف عن التعلق بالآمال الوثابة الضارية حتى .. حتى وجدت نفسها ذات يوم ، فى قدس الأقداس بمعبد حورس ، أمام ايزاكسون وجها لوجه !.. والآن ؟ انها تجلس الآن وحيدة فى حجرتها ، تحدق فى المرآة الصغيرة ـ التى أهداها اياها بارودى فى بساتين البرتقال ـ بينما كان ايزاكسون يجلس الى جوار زوجها ساهرا ، حارسا !

« وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه » !

كانما كانت هذه الحروف العربية المذهبة ، تضغط عليها فى قوة ، وتسحق جسدها وروحها ! .. وما لبثت ان القت بالصندوق من يدها ، وهى ترد الغطاء فوقه فى شدة وعنف .. واذ لم تعد ترى نفسها ، خيل اليها انها ترى حمزة يصلى ، كما كان يصلى فى ذلك اليوم ببساتين البرتقال ، بينما كانت تطل من النافذة .. لقد شعرت اذ ذاك بأن ايدى الشرق قد اطبقت

عليها ، وانها لن تتخلى عنها قط ، أو تدع لها سبيلا للفكاك ٠٠ وكان شئ ما فى قرارة نفسها قد نكص على أعقابه نافرا ، بيد أن ثمة شيئا آخر لم يكن يشتهى الا أن تطبق عليها يدا محمود بارودى ! ٠٠ كانت الصلاة تملأ قلبها رهبة ، ولكنها ـ مع ذلك ـ لم تكن تؤمن بأى اله ! ٠٠ آه ، لو أن هناك الها ، حقيقة ! ٠٠ ليته ينظر اليها الآن ويرعاها !!

وعندئذ قفزت من مكانها ، واطفات النور !

* * *

◆ ورست اللولية فى اليوم التالى امام حديقة « فيللا اندرود » ، وراء ذلك الحاجز الحجرى الذى اقيم ليخفف من اندفاع تيار النهر القوى ٠ وكان نيجل من الضعف بحيث لم يستطع السير من الضفة حتى المنزل ، فحمله النوبيون فى عناية بالغة ، واسرع خدم الفيللا المندهشون ـ اذ انهم لم يتلقوا اى نبا عن مقدم سيدهم ـ يفتحون النوافذ ويدفعون المصاريع الخشبية ليملأوا المنزل بالضياء والهواء ٠ وبدا ابراهيم يتولى ـ من جديد ـ زمام السلطة فى يده ، اذ كان يبدو ان عهد حمزة قد ولى وانقضى ! ٠٠ ومن الآن فصاعدا تقرر ان يكون « ماير ايزاكسون » وحده هو الذى يقدم الطعام والشراب « لسيدى ارمينيجل » ٠٠ والظاهر ان الانتقال من حياة الذهبية الى حياة البيت ـ فى البر ـ قد احدث تبدلا سريعا فى حالة المريض ، فانه ما كاد يوضع فى عناية ورفق فى حجرة الجلوس ـ ذات اللونين الأصفر والابيض ـ ويتطلع الى الخارج من خلال باب الشرفة فيرى الورود تتمايل فى الحديقة الرملية ، حتى انبعثت من صدره زفرة طويلة عميقة نمت عن الراحة والارتياح٠ ثم قال لزوجته التى كانت تجلس الى جوار الأريكة ، حيث اضطجع هادئا : « لكم انا مغتبط لمغادرتى اللولية يا روبى ! » ٠٠ فسالته : « احقا أنت كذلك يا نيجل ؟ ولماذا ؟ » ٠٠ فكان جوابه : « لست ادرى ٠٠ كانما كانت الذهبية تسبب لى انقباضا شديدا ! ثم هل تعرفين تلك الكتابة ؟ » ٠ فتساءلت : « اية كتابة ؟ »

ـ تلك التى فوق الباب الذى تدخلين منه ٠ لقد اعتدت ان افكر فيها أثناء الليل ، بينما كنت فى تلك الحالة الفظيعة ، فكانت آشبه بثقل عظيم ينقض على ليسحقنى تحته !

ـ انه وهم منك يا عزيزى !

ولكنها رمقته بنظرة غريبة تنم عن التوجس المشوب بالفزع ، بيد انه لم يرها ، اذ كان يتطلع الى الحديقة ٠٠ وكانت تنبعث من النيل اصوات الملاحين

وهم يتغنون بانشودتهم المعهودة ، فظل ينصت لحظة ، ثم قال : « يا لها من فترة عجيبة تلك التى انقضت منذ ان سمعنا هذه الأنشودة معا للمرة الأولى يا روبى ! » ٠ فتمتمت : « اجل » ٠ وعاد يستطرد مع الذكريات : « عندما سمعناها للمرة الأولى ، كنت قويا سعيدا الى ابعد حد ـ قويا بحيث اتولى حمايتك ، سعيدا بانك لى حتى احميك ـ و ٠٠ وها قد انتهى الأمر الى قيامك انت بحمايتى ، والعناية بى ! » ٠٠ فتململت فى جلستها ، وقالت بصوت اجش : « نعم ! »

وعاد يقول : « اظننى ٠٠ اظننى سعيدا باننا لا نستطيع ان نخترق حجب المستقبل ٠٠ ان المرء فى حاجة الى قدر كبير من الشجاعة فى الحياة ! » ٠٠ ولم تجب بشىء ، فمضى يتابع القول : « على اننى اشعر الآن بشىء من الشجاعة ٠٠ولست اذكر اننى اخبرتك قط عما كانت عليه حالتى على اللولبية ، ولكنى لو مكثت عليها مدة اخرى ـ كما كنا سنفعل ـ لانتهيت الى الموت !٠٠ بل كان لابد ان اموت سريعا » ٠٠ فهتفت : « كلا يا نيجل ٠٠ كلا ! » ٠ ولكنه قال فى اصرار : « بلى ! ٠٠ كان لابد ان اموت ٠٠ ولكننى هنا ٠٠ » ، وبسط يديه متنهدا ثم قال: « ولكنى هنا اشعر باننى ساتحسن ٠٠ بل ربما تحسنت كثيرا جدا ٠٠ آه ! ما اجمل ان يتحقق ذلك ! » ٠ فقالت : « حسنا ٠٠ لا بد لى من ان اغادرك الآن لأشرف على شئون البيت ! » ٠ فقال : « انك متعبة ٠٠ الست كذلك؟ » ٠ ولكنها اجابت : « لا ٠٠ لماذا تظن ذلك ؟ » ٠ فقال : « ان صوتك يبدو متعبا »

ـ ليس الأمر كذلك ! ـ وما هو اذن ؟

ـ انك تعلم اننى من اجل خاطرك ارغم نفسى على احتمال صحبة بغيضة لى !

وفى تلك اللحظة دخل ايزاكسون الى الحجرة ، وهو يقول بصوته الهادىء القوى: « يجب ان ننقل المريض الى فراشه فى اسرع وقت » ٠ فقالت مسز ارماين : « ساذهب لأشرف على اعداد حجرته » ، واسرعت بمغادرة الحجرة ٠ وما ان بلغت الطابق العلوى ، حتى كانت تتناثر على شفتها السفلى قطرات من الدماء ، لفرط ما عضت عليها !

الفصل الحادى والاربعون

◆ كان نيجل قد كره اللولية نهائيا !٠٠ واذ لم تعد بهم حاجة اليها ، فقد طلب الى زوجته ان تبرق الى بارودى ـ باسمه ـ اخطارا باستغنائهم عنها ليستردها حالما يشاء ٠٠ ثم اضاف : « ان ابراهيم لديه عنوانه ، فيما اعتقد » ٠٠ وارسلت البرقية ، فرد بارودى باخرى قائلا انه سيستعيد اللولية ٠ وفى اليوم نفسه حضر « الريس » الى « الفيللا » ليتلقى « البقشيش » ويودع مخدوميه السابقين ٠ ولم يشر قط الى مصيره ومصير ملاحيه القريب ، ولكنه لم يكد ينصرف حتى رفعت اللولية مراسيها وعبرت النيل الى الضفة الغربية ، حيث القت مرساها ثانية ، فى بقعة تكاد تواجه حديقة الفيللا ٠٠ وفى المساء ، كانت اصوات الملاحين تسمع من بعد وهم يقيمون حفلة الطرب المعتادة !

وسمعتهم مسز ارماين وهى تتمشى وحدها فى الحديقة ، بجوار حاجز الأمواج، ورات الضوء الأزرق على قمة الصارى٠٠ اما نوافذ القمرات فكانت حالكة الظلام٠ اذن فهذه نهاية رحلتهما الى الجنوب !٠٠ ووقفت على مقربة من السور الحجرى الذى كان يفصل الحديقة عن الأرض الفضاء الممتدة وراءها ، والتى كان بعضها قفرا وبعضها حقولا مزروعة !٠٠ ما خطر لمسز ارماين قط انهما سوف يعودان من رحلتهما ٠٠ ثلاثة !٠٠ فما كانت تحلم بتدخل ايزاكسون !

لقد كانت هذه نهاية رحلتهما ٠٠ ولكن كيف ينتهى الأمر كله ؟٠٠ ان بارودى لم يبد اية اشارة ٠ فهو لم يكتب اليها كلمة واحدة قط ، كما انها لم تجرؤ قط على الكتابة اليه ٠٠ ولم يكن قد طلب اليها ان تكتب له ، وذلك يعنى انه لم يكن

يريدها على ان تكتب . لقد كانت تخافه كل الخوف ، وكان خوفها منه جزءا من تلك الفتنة المروعة التى كان يستغلها فى السيطرة عليها !.. انها وهى التى طالما كان لها الكثير من العبيد - عندما كانت فى عنفوان شبابها - قد انتهت الى هذه النهاية .. الى ان تصبح أمة من الرقيق !

وجلست على أحجار حاجز الأمواج ، بجوار السور . ولم تكن الليلة مقمرة ، ولكن الرؤى تبدو دانية واضحة ، فى ليالى مصر الصافية ، حتى عندما تخلو من القمر !.. وكان الساحل الأسمر ينحدر - الى يمين مسز ارماين - فى ميل شديد الى ضفة أشبه بشاطىء رملى زحفت المياه على شطر كبير منه .. وكانت تنمو حوله - فيما يشبه حوضا كبيرا من الرمل والطين الرخو - عدد من الشجيرات التى تؤلف دغلة غير كثيفة .. ولم تكن مسز ارماين قد هبطت لتتمشى على هذا الشاطىء الرملى من قبل ، ولو انها كانت تنزل اليه لتستقل « الفلوكة » .. ولكنها فى هذه الليلة لم تلبث ان نزلت الى الشاطىء - بعد ان جلست وقتا بلا حراك - وراحت تتمشى فوق الرمال القريبة من حافة الماء . ولم يكن بوسعها ، فى هذا المكان ، ان ترى المنزل بنوافذه المضيئة التى كانت تتحدث اليها عن الحياة التى ورطت نفسها فيها .. لم يكن بوسعها ان ترى شيئا سوى ظلمة النهر العظيم ، والخطوط الخارجية القاتمة لحاجز الأمواج ، وقمة الضفة - حيث تبدأ الحديقة - ثم أشباح الشجيرات المعتمة المتشابكة .. وعند قدميها كانت المياه تستقر فى سكون ، أشبه بمياه بحيرة ساكنة ، فى حين كان التيار قويا فى داخل النهر !

وظلت تقول لنفسها وهى تذرع الشاطىء ذهابا وجيئة فى هذه الوحدة : «ماذا ترانى فاعلة ؟ ماذا ترانى فاعلة ؟ » . وقد يكون من الغريب حقا ، ان ذلك الرجل البعيد عنها - بارودى - كان يخيفها ، حتى فى تلك اللحظة ، أكثر مما كان يخيفها ايزاكسون ، القريب منها .. انها لم تكن تدرى ما يعتزم كل منهما ان يفعل .. كانت فريسة قلق مزدوج ذى شعبتين .. كانت تعتقد ان ايزاكسون سيعيد لزوجها صحته ، ما لم تجد - حتى فى هذه الظروف - وسيلة للتخلص منه !.. وبارودى ؟ ما الذى يزمع عمله ؟.. وكانت تنظر عبر النهر فترى ذلك الضوء الأزرق .. لماذا رست اللولية هناك ؟ هل كان بارودى قادما ليلحق بها ؟ .. ليته يأتى حقا !

وأسرعت فى سيرها ، دون أن تعى تماما أنها قد أوسعت خطاها .. ليته يأتى حقا ، فقد أصبحت تشعر بأنها لن ترضخ له اذا جاء ، وانما ستعمل على رؤيته ، وترغمه على الخروج من خفايا عقله الشرقى العميقة ، ليدرك ما كانت تحس به ! .. لقد سيطرت أنانيته العظيمة على أنانيتها ، ولكن اليأس بدأ يتملكها ، وأخذ تفكيرها فى جمالها الآفل يقض مضجعها باستمرار ، بالرغم من أنها كانت لا تفتأ تبعد هذا التفكير عنها ، اذ صممت على أن تفكر دائما فى أن التغير الذى ألم

بهيئتها كان تغيرا طفيفا ، وان مثل هذا التغير سوف يكون وقتيا ٠٠ ان القليل ـ القليل فقط ـ مما كانت تريده ، كفيل بان يعيد اليها نضارتها وربيع جمالها حتما !٠٠ وانقلبت تفكر فى ماير ايزاكسون ـ الذى أصبح يقيم فى المنزل قريبا منها ـ بعينيه الثاقبتين المروعتين ، اللتين تنمان عن عقل ثاقب رهيب !٠٠ ان هذا الرجل يستطيع ان يتجرد من كل رحمة او شفقة ، ولكن ليس مع نيجل ٠٠وهل يمكن قط أن يكون قاسيا مجردا من الرحمة معها ، دون أن يكون قاسيا مجردا من الرحمة مع نيجل فى الوقت نفسه ؟!

وراحت تتطلع الى النهر ، وقد وقفت جامدة بلا حراك ٠٠ لو ان بارودى كان على ظهر اللولية الليلة ، لاستقلت قاربا وذهبت اليه ـ ألم تكن خليقة بان تفعل؟ ـ ولقالت له انها لم تعد تطيق حياتها ، وان لا بد لها من أن تكون معه ٠٠ ولتركته يعاملها كيفما يشاء !٠٠ وكانت وهى تفكر فى شفقة نيجل و رقته ، تشتهى أن تتذوق القسوة من بارودى ! ولكن هذا يستلزم ان تكون معه ٠٠ انها لو استطاعت فقط، أن تكون مع بارودى ـ فى اى مكان ، وعلى اية صورة ـ لطرحت عنها ذكرى هذه الحياة البغيضة مع نيجل الى الأبد ٠٠ انها لن تفكر فى نيجل بعد ذلك قط ، فلن يكون ثمة وقت تضيعه فى ذلك !

« ولكن ماذا ترانى فاعلة ؟ ماذا ترانى فاعلة ؟ » ٠ لقد عادت هذه العبارة الى ذهنها ثانية ٠٠ كما أن شطحات الخيال عقيمة لا طائل وراءها ، وليس ثمة اى جدوى من اطلاق العنان للخيال ٠٠ لا بد من حضور بارودى ٠٠ بل لا بد من انه قادم حقا ، والا ما رست اللولية على الضفة الغربية ٠ ولكن لعلها كانت هناك لقضاء الليل فحسب ، وقد تبحر فى الغد !٠٠ واحست مسز ارماين بانها لن تستطيع البقاء فى الاقصر ـ اذا أبحرت اللولية فى الصباح ـ بل ستستقل القطار وتذهب بعيدا ٠٠ الى أين ؟ الى اى مكان ٠٠ الى القاهرة !٠٠ سيكون بوسعها أن تنتحل بعض الأعذار ، كان تقول انها يجب ان تحصل على بعض الثياب ٠٠ثياب الحداد على هارويتش !٠٠ وسيكون ذلك عذرا كافيا ٠٠ ستقول انها ذاهبة لقضاء يومين فقط ، وسوف يسمح لها نيجل بالذهاب ٠ وماير ايزاكسون ؟٠٠ لم تكن مسز ارماين تعرف رغباته ونواياه بالنسبة اليها ، ولكنها فى هذه اللحظة بالذات لم تعد تبالى بذلك ، فان العودة الى الفيللا وذهاب اللولية لاحا وكانهما نفخا فى النار المتأججة فى أعماقها فزاداها اشتعالا !٠٠ كانت قد نجحت وهى على ظهر اللولية ـ فى ذلك المكان المغلق ، الشبيه بسجن جميل ـ فى تركيز حواسها الى حد معين ، على الامور التى كانت تقوم بادائها !٠٠ ولقد قضت ساعات فظيعة من السأم ، بل من اليأس ، ولكنها مع ذلك استطاعت ان تجتازها بسلام ٠٠ ثم انها كانت وقتئذ هى الآمرة الناهية !٠٠ أما الآن ، فقد انتزع نيجل من بين يديها قسرا ، ولم يعد السجن الجميل ملكا لهما !

ثم ان هذه العودة الى المنزل الذى شهد بداية حياتها فى مصر كانت تثير مشاعرها على نحو غريب .. فها هى ذى اللولية ترسو مرة ثانية حيث كانت ترسو عندما كان بارودى على ظهرها .. وها هى ذى مسز ارماين تسمع مرة ثانية ـ من ضفة النيل القصية ـ أنشودة الله (الذكر) ، كما كان الشأن فى تلك الليلة التى سمعتها فيها للمرة الأولى .. ولكن ما أكثر ما حدث بين ذلك الحين والآن !.. لقد اصبح المنزل القائم خلفها يضم رجلين .. الرجل الذى لم يكن يعرفها ولكنه يحبها .. والرجل الذى كان يعرفها حق المعرفة ويبغضها !.. ولكن الرجل الذى كان يحبها ويريدها كما هى ، لم يكن موجودا !.. وكانت تحس بانها يجب أن تراه ثانية وسريعا ، وانها يجب أن تطلعه على ما حدث منذ ان ابحرت على اللولية .. ومع ذلك فهل تستطيع ، أو هل تجرؤ ، على أن تترك نيجل وحده مع ماير ايزاكسون ؟

* * *

◆ وعادت تتمشى ثانية فوق الرمال، وهى تروح وتغدو امام خمائل الشجيرات المظلمة .. لقد مرت بها ـ عندما وقف ايزاكسون امامها بغتة فى معبد ادفو ـ لحظة من الذعر الشامل .. لحظة لا يمكن ان تمر بحياة المرء الا مرة واحدة .. وتبعت ذلك فترة خوف ونضال ، بل الم وعذاب !.. ومع ذلك فلم تكن فى هذه الفترة لحظة تدانى تلك اللحظة من الفزع ، لأنها كانت تواجه المعلوم ـ لا المجهول غير المتوقع بالمرة ـ وكانت تناضله وما زال من واجبها ان تناضله !.. ولكن لا بد لها من أن تحصل على كلمة من بارودى ، وأن تنال نظرة من بارودى ، فبغير هاتين ، كانت تحس بأنها قد تقدم ـ بل لا بد من ان تقدم ـ على خطوة طائشة او يائسة .. فقد كانت على وشك ان تستنفد كل وسائلها أو لعلها على وشك أن تفقد قواها !.. ولقد كانت اعنف لطمة تلقتها حتى الآن هى فرار الدكتور هارتلى من دائرة نفوذها ، فان ذلك الفرار قد اضعف ثقتها بنفسها ، وكان كارثة تنبىء فى آسى بكوارث اخرى مقبلة .. بل لقد أثار فى ذهنها شكا لا ريب فى انه كان سخيفا !

هب ان نيجل استطاع ان يتحرر من عبوديته لها ؟! لو انه ذهب من حياتها نهائيا لما اكترثت البتة ، فما كانت تود ان ياسى من اجلها اذا تركته وهو على قيد الحياة .. على انه لن يلبث ان يغدو ـ بالنسبة لها ـ فى عداد الأموات ، اذا ما فارقته .. انه لم يكن لها اكثر من حمل ثقيل يجثم على صدرها ، ويحول بينها وبين كل ما خلقت من اجله ، وكل ما كانت تشتهيه !.. على انها يجب ان تنفرد بالنفوذ والسلطان طالما بقيت معه ، فان اية ثغرة فى سلطانها كانت كفيلة بان تمكن ايزاكسون منها بعد ان غدا يعيش عن كثب .. وكانت موقنة من

ان ايزاكسون لن يشفق عليها اذا وفق الى استمالة نيجل الى صفه !٠٠ فماذا تراها فاعلة ؟ أجل ، ماذا تراها فاعلة ؟٠٠ انها لتلعن فى قرارة نفسها ـ وبكل ما فى قلبها من قوة ـ تلك الناحية العملية الجامدة ، ذات الأنانية الصارخة ، فى خلق بارودى وطبيعته ! ولكنها كانت تخشى أن تتحداها ، فهى تذكر كلماته جيدا : « ان علينا أن نفعل كل ما نريده فى هذه الدنيا دون ان يفقدنا ذلك شيئا ! » ٠٠ وكانت تتمثله ـ بل طالما تراءى لها ـ وهو يذهب الى باب الخيمة لينضم الى تلك الجارية المخضبة بالألوان والدهون الزاهية !

كانت على وشك ان تبلغ آخر حدود الاحتمال ، وقد أحست اليوم بذلك بصورة قوية ٠٠ وكان حمزة قد تركهم خفية ، يوم عودتهم الى الفيللا ، دون كلمة واحدة !٠٠ ولقد سأل عنه نيجل مرة او اثنتين ، فقالت له فى بادىء الأمر انه ذهب ليزور عائلته ، ثم قالت بعد ذلك انه ذهب ليقيم خارج الدار بعد أن اسىء اليه ، اذ لم يعد يسمح له بخدمة سيده والعناية به ٠٠ « وهى أوامر الدكتور ايزاكسون كما تعلم ! » ٠٠ ولكن نيجل لم يقل شيئا ، فاين ذهب حمزة ؟٠٠ لقد سألت مسز ارماين ابراهيم عنه ، ولكن ابراهيم أجاب ـ دون أن يبتسم كعادته ـ بانه لا يعرف شيئا عنه ٠٠ ولقد راح الأمل ينمو فى قلب مسز ارماين ـ فى الوقت ذاته ـ فى أن حمزة قد ذهب ليبحث عن بارودى ، وانه قد لا يلبث أن يعود برسالة منه !٠٠ ومع ذلك ، فهل يمكن ان ينالها اى خير ، او توافيها أية سعادة ، عن طريق المكارى المصلى ؟٠٠ لقد كانت دائما ـ وبوحى من غريزتها ـ تقرن بينه وبين القضاء والقدر ، وتربط بينه وبين الشر الذى تتلوه الأحزان والآلام ٠٠ وكانت النظرة التى تلوح فى عينيه ، عندما كان يسدد بصره اليها ، تبدو أشبه بوعيد صامت هادىء ٠٠ كانت فى قرارة نفسها مقتنعة كل الاقتناع بانه يمقتها !

ووقفت مرة أخرى جامدة بلا حراك على حافة النهر ٠٠ كانت تسمع الملاحين وهم ما يزالون ينشدون على ظهر اللولبية ، وتسمع نباح الكلاب الخافت ، ولعله آت من قرية الاقصر ٠ ورفعت وجهها تتطلع الى النجوم فى حركة آلية ، فذكرت كيف كان نيجل يحدق فى هذه النجوم فى استغراق ، بينما كانت تريد أن ينصرف اليها بكليته !٠٠ ثم عادت تنظر طويلا ـ مرة اخرى ـ الى ذلك الضوء الأزرق الذى كان يتالق فوق قمة الصارى الأكبر للولبية ٠٠ وفجاة ، سمعت حفيفا خلفها بين الشجيرات ، فاستدارت لتوها ، واذا بها ترى ابراهيم مقبلا نحوها من بين الظلمات المتكاثفة ٠٠ فقالت تساله فى حدة : « ما الذى تفعله هنا ؟ » ٠٠ وكانت لهجتها خشنة ، اذ افزعتها الضجة التى أثارها مقدمه ٠٠ فقال ابراهيم : « يحسن أن تعودى يا سيدتى ، فان هذا المكان منعزل تماما ، ولا ياتى أحد قط اليه ! »

ومشت نحو الضفة ، فوضع يده فى رفق تحت مرفقها ليسندها ٠٠ فلما ارتقيا الضفة قالت له : « اين حمزة يا ابراهيم ؟ » ٠ فتجهم وجهه الشبيه بوجوه الصبية ، وقال : «لست ادرى يا سيدتى ٠٠ اننى لا اعرف أى شىء عن حمزة» ٠ وللمرة الاولى ، خطر لمسز ارماين ان ابراهيم وحمزة لم يعودا صديقين حميمين ٠٠ وفتحت شفتيها وهى تهم بأن تستفسر عن علاقتهما ، ولكنها اطبقتهما ثانية دون ان تقول شيئا ٠ ومضيا معا الى المنزل فى صمت !

وعندما اطلت مسز ارماين من نافذتها فى صباح اليوم التالى ، كانت اللولية لا تزال راسية فى مكانها على الضفة المقابلة ، فتناولت منظارا مقربا وراحت تنظر خلاله لترى ان كانت هناك اية حركة بين الملاحين توحى بالاستعداد للرحيل العاجل ٠٠ ولكن كل شىء كان هادئا على ظهر الدهبية ، وكان الملاحون يجلسون متربعين على السطح الأسفل فى هناءة الكسالى ٠٠ لا بد اذن ان يكون بارودى قادما عما قريب !

وعزمت على أن تتذرع بالصبر قليلا ، والا تلتمس الأعذار للسفر الى القاهرة، فقد شعرت ـ مع حلول الصباح ، ودون أن تعرف لذلك سببا ـ بأن فى وسعها ان تكون اكثر احتمالا للظروف الحاضرة ٠ ولكن ، ما ان توالت الأيام واحدا بعد الآخر ، دون ان تبدو اية اشارة من بارودى ـ بينما ظلت اللولية قابعة عند الضفة الغربية ، والمصاريع الخشبية مغلقة على نوافذ القمرات بها ـ حتى عاود مسز ارماين قلقها الشديد وازداد اضطراب اعصابها ، ثم اخذ يستفحل ويتفاقم ساعة بعد أخرى ٠٠ ولم يكن ايزاكسون قد ذهب للاقامة باحد الفنادق ، وانما اتخذ مقامه فى الفيللا ، كما لو كان هذا التصرف امرا طبيعيا ، واستمر يعيش معهما فيها ٠ ومن ثم فقد كانت مضطرة الى رؤيته دواما ، والى أن تسلك نحوه مسلكا مهذبا ، وتظهر له الرقة والدماثة ٠٠ وكان اشرافه على نيجل ورقابته له مستمرين فى غير كلال او تعب ، كما أن القاعدة التى قررها ـ منذ ان بدا اقامته معهما ـ ظلت متبعة فى تشدد بالغ ، لا تلين ولا تسترخى ، فلم يكن يسمح لنيجل على الاطلاق بأن يتناول اى شىء من اية يد غير يد الطبيب !

ولقد ظلت العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة مثيرة للعجب ، مشوبة بالحرج ٠٠ فعلى الرغم من ان ثقة نيجل بالطبيب كانت مطلقة ، الا أنه لم يعد قط الى ألفته السابقة الوثيقة مع صديقه !٠٠ وكان ايزاكسون ـ بادىء ذى بدء ـ يتوقع فى قرارة نفسه نموا متزايدا فى الثقة الشخصية بينهما ، فقد ظن انه كلما خفت حدة الضعف الجسمانى ، وبدات القوة تدب شيئا فشيئا فى ذلك الجسد المعذب المتداعى ، فان نيجل سيتحول ـ وربما ٠٠ دون ان يفطن ـ فيغدو أوفر سعادة وصداقة ٠ ولكن ، بالرغم من ان الطبيب قد تلقى شكر المريض وعرفانه بالجميل، الا ان الصديق لم يتلق قط مودة الصديق والفته !٠٠ كان نفوذ « بيللا دونا »

راسخا قوى الشكيمة .. كانت المرأة تقف دواما بين هذين الرجلين ، وتفرق بينهما ، حتى فى هذه الأيام التى اخذ احدهما يخدم الآخر ويرعاه ، ويعيد اليه حياته ، بل ويضحى بكل شىء فى سبيله !.. فليس من شك فى ان اقامة ايزاكسون الطويلة فى مصر كانت خليقة بأن تضر بمصالحه، اذ انه لم يكن يضيع على نفسه بسببها مالا كثيرا فى الحاضر فحسب ، وانما كان من المحتمل ـ ان لم يكن من المحقق ـ ان تمتد الخسارة الى المستقبل .. ولقد مرت به لحظات كان فيها يمعن التفكير فى هذا الأمر ، فيجزع له فى قرارة نفسه .. ولكن هذه اللحظات مرت سريعا ، وكان يجد جزاءه فيما أخذ المريض يكتسبه من قوة متزايدة .. ومع ذلك فقد كان من العسير احيانا ان يطيق هذا التحفظ الصخرى الذى كان يجعل الحياة فى « فيللا اندرود » كئيبة قاتمة .. ولكنها كانت خليقة بأن تغدو أشد عسرا وصعوبة لو لم يلجأ هو الآخر ، مثل بيلا دونا ، الى العمل فى الظلام .. فقد أخذ ـ منذ وصولهم الى الاقصر ـ يبحث وينقب عن الدافع لهذا العمل الذى ارشده اليه الهامه وعلمه !.. وقد حانت اخيرا اللحظة التى توصل فيها اليه !.. فقد راح حسن ـ بتحريض من ايزاكسون ـ يستغل سخط ابراهيم وحنقه من الطريقة التى عومل بها واحلال حمزة محله كل هذه المدة الطويلة ، فاستدرجه الى الافضاء له بحقيقة ما كانت تفعله مسز ارماين فى الأيام التى قضاها نيجل بعيدا عنها فى (الفيوم) !

ولقد أصاب علاج ايزاكسون لنيجل نجاحا باهرا ، فما ان بدأت الحرارة تشتد فى الوجه القبلى ، حتى كانت صحة المريض تتقدم يوما بعد يوم . ورأت مسز ارماين الحياة تعود الى العينين اللتين كانتا من قبل تفيضان بالاعياء وبالملل من حياة ظللتها فجأة سحب الألم الكثيفة .. وبدأت أطراف المريض تتحرك فى مزيد من السهولة واليسر ، بعد أن ازداد تدفق الحيوية فى البدن السقيم .. ولم تعد الليالى تبدو طويلة مضنية بسبب عذاب الآلام الروماتزمية الحادة ، كما لم يعد الفم والحلق اللذان اضناهما الجفاف يتهافتان باستمرار على السوائل المبردة التى لم تكن تخفف من تحرقهما .. وصار فى استطاعة المريض ان يحتمل الضوء دون عناء أو ضيق ، وسكنت تماما آلام البطن الفظيعة التى كانت تجعله يتلوى ويكاد يشتهى الموت .. كذلك اختفى من الوجه تقريبا ذلك اللون البشع الذى كان يروع كل من يرى نيجل ، حتى أولئك الذين لم يروه الا عرضا .. ومع انه كان لا يزال شديد النحول والشحوب ، الا ان ذلك لم يبد غريبا .. كان وجهه لا يزال يوحى بأنه قاسى مرضا خطيرا ، ولكنه لم يكن يوحى بالموت !.. وهكذا أخذ نيجل يسير نحو الشفاء بخطى واسعة .. وكان من المحتمل ان يظل فترة طويلة قبل أن يستعيد قواه كاملة ، ولكنه كان قد تجاوز نطاق الخطر .. وقد تبين ذلك ذات يوم ، فقال لنفسه ، فى نوع من العجب الممزوج بالسرور .. وهو

سرور تقاسمته الرزانة والخفة ، خفة النفس التى تحس ثانية بلمسات الشباب !

وكان اليوم الذى تبين فيه ذلك ، هو اليوم الذى اهتدى فيه ايزاكسون الى الدافع الذى كان يبحث عنه فى الظلام ·· وكان هو ايضا اليوم الذى قالت فيه مسز ارماين لنفسها انها لم تعد تطيق المضى فى الاحتمال ، فلا بد لها من الذهاب الى القاهرة ، ولو ليومين او ثلاثة ·· واذا لم يكن بارودى هناك ، فيجب أن تذهب الى الاسكندرية للبحث عنه ، فان الرغبة المكبوتة ، والصبر الاضطرارى ، ووجود ماير ايزاكسون باستمرار ، واضطرارها الى التظاهر بالرقة واللياقة ، بل وبالشكر والعرفان ، ثم تلك الغيرة التى كانت تنمو كنمو العشب الغزير ، فى تربة من الجهل بالحقائق ·· كل هذه جعلتها اخيرا لا تطيق الصبر ، وحثتها على أن تتعجل الأمور !·· وكانت على يقين من انها لو بقيت فى الفيللا اكثر من ذلك ، فانها قد تشى بنفسها وتفشى سرها فى انفجار فجائى !·· وقد لزم ايزاكسون الصمت كل هذه المدة ، ازاء أسباب مرض زوجها ، حتى انها كانت احيانا تخادع نفسها وتوحى اليها بانه لم يعرف حقيقة الأمر ، وبانها كانت حمقاء فى افراطها فى الخوف منه الى هذا الحد !·· ولقد جاهدت فى اقناع نفسها بهذه الفكرة حتى نجحت فى ذلك !

* * *

◆ وكانت اللولية لا تزال مستقرة عند الشاطىء الغربى للنيل ، ولكن مسز ارماين كانت ، حين تتاملها من الحديقة فى كل ليلة ، تجد نوافذها مظلمة ·· وقد حاولت أن تتحرى الأمر من ابراهيم ، غير ان ابراهيم لم يعد ذلك الغلام الدائم الابتسام الذى كان عبدا لها ·· كان يؤدى واجباته فى عناية ، وكان دائما جم الأدب كعهدها به ، ولكنه اكتسى طابعا من الغموض والجمود والقلق ، بل ومن الحزن والأسى ·· فلما ذكرت بارودى ، قال لها : « لست اعرف شيئا يا سيدتى ! » ·· ولكنها مضت تقول فى الحاح : « حسنا ، ولكن الذين على ظهر اللولية ·· الريس ، والملاحون ؟ » ·· فقال : « ولا هم يعرفون شيئا ·· ما من أحد هنا يعرف شيئا على الاطلاق ! » ·· واذ ذاك وطدت عزمها على الا تنتظر بعد ذلك ، وعلى ان تذهب لتكشف الحقيقة بنفسها ·· وربما كانت اللمحة التى بدت فى عينى زوجها ، والتى نمت عن عودة الحياة اليه ، هى التى عجلت اخيرا بهذا القرار !

وخرجت الى الشرفة حيث كان مستلقيا فوق مقعد طويل ، تحت مظلة كبيرة ·· وكان على احد مسندى المقعد كتاب مفتوح ، ولكنه لم يكن يقرأ فيه ، وانما كان مضطجعا يتطلع نحو الحديقة ونحو التلال التى كانت تحف بصحراء ليبيا ·· ولم يكن ايزاكسون معه ، اذ كان قد خرج من المنزل ، ولعله ذهب ليتمشى على

شاطىء النيل . واقتربت مسز ارماين تمشى على استحياء ، وفى تراخ وتكاسل .. وما لبثت ان جلست بالقرب من زوجها ، ثم قالت فى أرق أصواتها واحلاها : « أتراك تحلم ؟ » . فهز راسه واجاب : « بل اننى استيقظ .. استيقظ عائدا الى الحياة ! » .. فقالت : « انك تبدو اليوم أوفر قوة بالفعل ! » .. فقال فى لهفة : « اقوى من الأمس ؟ اتظنين ذلك ؟ هل تلاحظين ذلك يا روبى ؟ » .. واجابت : « اجل » ، فقال : «هذا غريب حقا ! اننى .. اننى اليوم اعرف ان كل شىء سينتهى على ما يرام بالنسبة لى .. اننى اليوم اعرف اننى لن البث حتى اعود ذلك الرجل الذى كنته يوما من الأيام .. تصورى ذلك يا روبى ! » .. فقالت : « وانا اليوم أوقن من ذلك يا نيجل .. وهذا هو السبب فى اننى قد شعرت اخيرا بان فى وسعى أن أسالك شيئا »

- سلينى أى شىء .. اى شىء !.. اننى اود أن افعل اى شىء يدخل السرور على نفسك بعد كل هذا الوقت الذى قضيته فى شقاء وعناء !

- انه رجاء صغير عادى ذلك الذى اتقدم به اليك .. كل ما اريد هو ان تسمح لى بأن استقل قطار المساء واذهب الى القاهرة

فاربد وجهه ، ومد يده ليتحسس يدها ، وهو يقول فى صوت يبدو فيه التردد والاحجام : « تريدين الذهاب .. تريدين الذهاب الى القاهرة ! » .. فأجابت فى اصرار رقيق : « اجل يا نيجل .. لقد كنت اتفقد ثيابى فى الأيام الأخيرة فوجدتها قد غدت اسمالا » .. فقال : « ولكن أثوابك .. » ، ولم تمهله حتى يتم عبارته ، بل قالت : « انها ليست الأثواب فحسب ، بل ان كل ملابسى غدت أسمالا ! الا تسمح لى بالذهاب ليومين اثنين ، حتى احضر بعض اشياء قليلة أرانى فى حاجة اليها حقا ؟.. اننى لن أنفق كثيرا من النقود » .. فهتف : « كان هذا هو كل ما فى الأمر ! » .. وضغط يدها ، فكانت هذه الضغطة دليلا على عودة قواه . واستطرد قائلا : « انما الذى يهمنى هو اننى سأحرم منك ! »

- يومين فقط !.. ثم ان معك الدكتور ايزاكسون . والواقع اننى اردت الذهاب أثناء وجوده معنا ، حتى لا اتركك وحدك . وبهذه المناسبة يا نيجل ، الا تستطيع أثناء غيابى أن تحاول معرفة ما ندين به اليه ؟.. لا بد ان يكون مبلغا طائلا !

فشرد بال نيجل فجاة ، ثم قال فى بطء : « ما فكرت فى ذلك البتة ! » .. فقالت : « لأنك كنت مريضا .. ولكنى طالما فكرت فيه ، وقد آن ان تفكر فيه أنت ! » .. فقال : « نعم .. انه أنقذ حياتى ، ولن استطيع ما حييت ان افيه حقه ! » .. ولكنها قالت تهون عليه : « آه ! بل انك تستطيع ذلك حقا ، فالأطباء انما يفعلون ذلك لقاء مبالغ معلومة ، كما تعرف » .. فتململ فى مقعده ، والقى عليها نظرة قلقة وهو يقول اخيرا : « اننى اود .. بل كم وددت ان تكونى

وايزاكسون خير صديقين » . فهتفت فى مرارة : « أبعد كل ما أخبرتك به ؟! » . فقال : « اننى اقدر ذلك .. ولكنه أنقذ حياتى ! » .. وكان جوابها : « هناك أشياء لا تستطيع المرأة أن تنساها قط يا نيجل .. واننى ـ بطبيعة الحال ـ احس بشكر عميق لماير ايزاكسون الطبيب .. اما ماير ايزاكسون الرجل ، فلا استطيع قط ان أكون له صديقة .. اننى مضطرة الى أن أقول لك الحقيقة دائما ، حتى ولو آلمتك ! » . فتمتم : « أجل .. اجل ! »

ـ حاول أن تعرف أثناء غيابى بالقاهرة بكم ندين له ، فانى أعتقد أنه لن يبقى معنا الى الأبد ، لا سيما بعد أن أصبحت تشعر بتحسن كبير !

ـ كلا .. لا بد أنه يريد الرحيل ، طبعا !

وكان يتكلم فى تردد ، فانه ـ بتلك الأثرة البريئة التى تنتاب المريض ـ كان قد اعتبر وجود ايزاكسون أمرا مفروغا منه الى حد بعيد .. وها هى ذى تجعله يشعر بخطل حدسه ، فلا بد له من أن يفهم الموقف كله على حقيقته الآن . كم كان يعتمد على ايزاكسون !.. ونظر الى زوجته .. وكم كان يعتمد عليها ، هى الأخرى !.. انه ليعاوده ذلك الشعور بالضعف ، وكأنه طفل صغير .. ولكن هذين الانسانين اللذين كان يتوكأ عليهما ، كانا يتبادلان عداء مستحكما .. لم يكن عداء سافرا صريحا ، وانما كان عداء كامنا خفيا !.. ولم يكن يدرى على التحقيق كيف نشأ هذا العداء ، ولا الى أى حد بلغ ، ولكن روبى طالما اخبرته بأشياء كثيرة عن ماير ايزاكسون .. وكان يعلم ان ايزاكسون يسىء الظن بها ، وتملؤه الشكوك والريب نحوها .. بل انه ليحس بأنه لا يزال يضمر لها هذا الشعور . وقالت : « هل استطيع الذهاب ، اذن ؟ » .. ولم يستطع ان يجد سببا لمنعها من السفر ، فقد كان يفكر فى خدمتها الطويلة له ..

ـ طبعا يا عزيزتى ، اذهبى !.. ولكنك لن تسافرى الليلة طبعا ؟

ـ بل الليلة اذا سمحت لى .. ولن آخذ سوى حقيبة واحدة .. وكلما عجلت بالسفر ، أسرعت فى العودة !

فتساءل : « بعد يومين ؟ » .. وكان جوابها : « بعد يومين » . وعاد يسألها : « وأين ستنزلين ؟ » . فقالت : « فى شبرد » .. فقال : « اننى لا ارتاح الى ذهابك منفردة .. وشد ما وددت ان تكون لديك وصيفة ! » .. واذ ذاك قالت : « هانتذا قد حدست » .. وأجفل قائلا : « ماذا ؟ » .. فاجابت : « ما وددت من قبل أن اقوله لك ، ولكنى سأفعل الآن : هل تسمح لى بأن تكون لى وصيفة ، مرة ثانية ؟ » .. فهتف : « أهذا ما تريدينه ، أن تحضرى وصيفة ؟ » .. فابتسمت ، وبدا عليها الخجل والحياء وهى تقول : « لقد استطعت ان ادبر كل شىء بلا وصيفة ، ولكن .. » . ومنذ تلك اللحظة ، اصبح هو الذى يلح عليها ، ويرجوها ، لكى تسافر !

وعاد ايزاكسون من الخارج ليجد كل شيء مرتبا ، متفقا عليه ٠٠ فلما أخبر بذلك ، كان كل ما قاله : « أظنه أمرا رائعا حقا أن تستطيع مسز ارماين البقاء بغير وصيفة ، طوال هذه المدة ! » ٠٠ ثم أوى الى حجرته واعتكف بداخلها فترة طويلة ، قائلا ان لديه خطابات يريد ان يكتبها ٠٠ ومع ذلك فانه لم يرسل الى مكتب البريد اى خطاب فى ذلك اليوم !٠٠ وكانت مسز ارماين - فى تلك الأثناء - عاكفة على اعداد حقيبتها بمساعدة أحد الخدم النوبيين ، مع انها لم تضع فيها سوى بضعة اشياء قليلة ٠٠ وكانت - وهى مقدمة أخيرا على عمل حاسم محدد - تعجب من استطاعتها احتمال الانتظار كل هذه المدة الطويلة ٠٠ كما ان الحركة المتصلة فى اعداد التدابير الخاصة بهذه الرحلة ، أثارت فيها انفعالا شديدا خفيا كاد يكون محموما !٠٠ وراحت تقول لنفسها ، وهى تروح وتغدو فى حجرةالزينة الخاصة بها : « ليتنى اذهب بغير رجعة ! ليتنى املك ألا أرى زوجى وايزاكسون ثانية ! » ٠٠ واذ خطرت لها هذه الفكرة ، تمهلت قليلا ، ثم وقفت فى مكانها بلا حراك !

هب ان الأمر كان كذلك حقا !٠٠ هب انها وجدت بارودى ، وأخبرته بكل ما حدث ، وحدثته عن شقائها وآلامها ، وتوسلت اليه ان يسمح لها بالبقاء معه ! ٠٠ انه قد يكون رحيما شفوقا ، وقد يخضع مرة واحدة لرغباتها ، بدلا من أن يفرض عليها أوامره !٠٠ قد تثور من جراء ذلك فضيحة مدوية ، ولكن ماذا يهمها ؟٠٠ انها لم تعد تكترث بالرأى العام ، ولم تعد تريد الآن الا ان تفر من كل ما يذكرها بأوروبا ، وبحياتها الماضية ، وأن تغوص فى أعماق الشرق ، فتضيع فيه الى الأبد !٠٠ لم يكن المستقبل البعيد ليهمها فى شيء ، بل ان كل ما أصبحت تفكر فيه - وكل ما أصبحت معنية به - هو أن تعمد الى الفرار فى الحال ، وأن تنال ذلك الشيء الواحد الذى كانت تريده ٠٠ الشيء الذى كان كل كيانها يهتف فى طلبه بغير انقطاع !٠٠ لقد أصبحت تتسلط عليها فكرة واحدة، أشبه بالوسواس ٠٠ فكرة لا يمكن أن تتسلط الا على امراة فى مثل طباعها ، وفى هذه السن الحرجة ٠٠ انها قد لا تعود ثانية على الاطلاق !٠٠ قد يكون هذا آخر أيامها مع نيجل !

وفى حجرته القريبة من حجرتها ، كان ايزاكسون يجلس فى الشرفة ، ويدخن النرجيلة ، وهو يفكر فى ذلك أيضا !٠٠ ولم يكن واثقا كل الثقة ، ولكنه كان ميالا الى الاعتقاد بأن سفر « بيللا دونا » هذا قد يكون قرارا نهائيا ، فهل ينبغى أن يسمح لها بالرحيل ؟٠٠ وراح يفكر فى ذلك ويقلب الأمر على شتى الوجوه ، بدلا من كتابة تلك الخطابات التى زعمها ٠٠ لقد كان يرى من واجبه ألا يسمح لها بالذهاب ٠٠ اذ انه لو قدر لكل شيء أن يعلن ويعرف ، فسوف يقول الناس والعالم ، ان الواجب كان يقتضيه ان يبادر الى العمل بمجرد اكتشافه ذلك الشيء

.. كان من واجبه ان يعمل ولا يفلت الفرصة !.. ولكن الواقع انه لم يكن ليهتم بالعالم ، وانما كان يفكر فى صديقه ، وكيف يعمل لخيره ومصلحته . وما ان رفع اصابعه عن النرجيلة ، حتى كان قد قرر أن يسمح لبيللا دونا بالرحيل !

وفى ذلك المساء - قبيل الغروب - وقفت مسز ارماين تقبل زوجها وتودعه ، وهى تسائل نفسها عما اذا كانت ستراه ثانية يوما ما .. ثم مدت يدها الى ماير ايزاكسون ، وهى تقول فى مرح : « وداعا يا دكتور .. ارجو أن تعنى به عناية عظيمة ! » .. فتناول ايزاكسون يدها . وبالرغم من القرار الذى اتخذه بعد الظهر ، فانه عاد - فى تلك اللحظة الدقيقة - يسائل نفسه : « هل اسمح لها بالرحيل ؟ » .. بل انه ساءل نفسه : « هل أدعها تذهب ؟ » . وكان أثر هذا السؤال الأخير فى نفسه من القوة بحيث راح يشدد الضغط على يدها - عن غير وعى - وكأنه ينتوى أن يحتجزها ويمنعها عن الرحيل . وسرعان ما لاحت فى عينيها تلك النظرة التى رآها فيهما عندما وجدت نفسها أمامه وجها لوجه فى هيكل معبد ادفو .. نظرة تنم عن الفزع الهائل !

- هل تعدين بالبقاء يومين فقط فى القاهرة يا روبى ؟

كان صوت نيجل قد انبعث بهذه العبارة .. ثم عاد يردد : « هل تعدين ؟ » . فاجابت ، وقد استقرت عيناها على ايزاكسون : « أعدك صادقة يا نيجل ! » .. تخلى ايزاكسون عن يدها ..وعندئذ تنهدت ثم انطلقت خارجة لا تلوى على شىء !

الفصل الثانى والاربعون

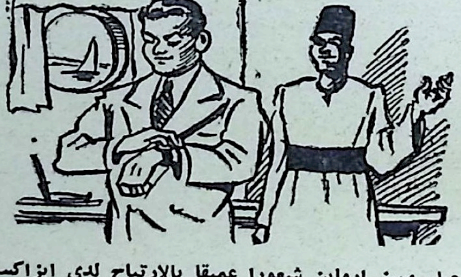

◆ جلب رحيل مسز ارماين شعورا عميقا بالارتياح لدى ايزاكسون .. فما أن تامل ساعته وأدرك ان القطار قد غادر محطة الأقصر ، ثم جاء ابراهيم فاخبر

نيجل بأن « سيدتى » قد حظيت بمكان مريح فى القطار ، حتى أحس ايزاكسون بسرور كذلك الذى يداخل المرء حين يطرح عن عاتقيه حمل ثقيل ، او حين يطلق سراحه ـ على غير توقع ـ من سجن قاس ، كان حبيسا به لفترة طويلة .. فلقد فطن اذ ذاك الى مدى ما كان يعانيه من ضيق وعناء لاضطراره الى صحبة مسز ارماين . ولقد آلمه ان يشهد أسى نيجل الواضح لسفر زوجته ، وشوقه الجلى الى عودتها .. وزاده ألما ان شعر بالعطف على نيجل ، وعلى مشاعره هذه !

ولم يكن نيجل ينشد هذا العطف من ايزاكسون ، فان ذلك التحفظ القوى القائم بين الرجلين كان يتدخل بينهما .. كان ايزاكسون يجهد فى اخفاء سروره ، بينما كان نيجل يجهد فى اخفاء شعوره بالوحدة المفاجئة !.. ولكن الظاهر ان ايزاكسون مثل دوره على نحو أفضل من رفيقه ، أو لعل قوة ملاحظته كانت أكثر حدة من قوة ملاحظة نيجل .. فبينما كان يرى بوضوح مؤلم حالة صديقه العقلية ـ فى تلك الليلة الاولى من وحدتهما الثنائية ـ كان نيجل لايكاد يحدس حالة صديقه العقلية الا قليلا . وكان عشاؤهما مشوبا بالوحشة والكآبة ، اذ ان رحيل مسز ارماين ضاعف من شدة التحفظ الذى كان يقف بينهما ، بدلا من أن يحطمه !.. ولكن سرور ايزاكسون الداخلى ـ على الرغم من حرصه على اخفائه ـ ما لبث أن بدا محسوسا ، كما لابد للسرور أن يفعل.. وما لبث نيجل أن بدأ يلين قليلا ، دون أن يعرف سبب ذلك تماما . وحول ايزاكسون مجرى الحديث ، الذى كان يتعثر حينا ويتوقف حينا آخر ، الى حالة نيجل الصحية ، وعندئذ قال نيجل ، كما سبق ان قال لزوجته : « اننى اليوم أشعر كما لو كنت استيقظ عائدا الى الحياة » . فقال الطبيب : « اليوم فقط ؟ » . وكان جواب نيجل : « آه .. لقد كنت أشعر بالتحسن يوما بعد يوم .. أما اليوم فاننى أشبه بباب عسير الحركة ، قدر له ان يندفع مفتوحا مرة واحدة » . فقال ايزاكسون : « ان هذا لا يدهشنى ، بل ان هذه الطفرات المفاجئة غالبا ما تكون من علامات النقاهة » .. وهنا قال نيجل ، وقد بدا عليه القلق فجاة : « ولكن .. ولكن ، الا تتلوها نكسات ؟ »

ـ احيانا ، وعلى الأخص فى حالات الحمى .. ولكننا فى حالة مثل حالتك لا ينبغى أن نتوقع شيئا من هذا القبيل !

وكأنما اوحت هذه الكلمات الاخيرة الى نيجل بمجرى جديد للتفكير .. فبعد أن جلس صامتا لدقيقتين او ثلاث ـ وهو يلوح رصينا او بالأحرى مشغول البال ـ قال : « وبهذه المناسبة ، ما الذى كان قد اصابنى تماما ؟ ما الذى كان لدى حقا من أنواع المرض ؟.. لقد كنت طوال هذه المدة مشغولا بمرضى ، فلم اسالك عن ذلك قط ؟ » . وحاول ان يتظاهر بالمرح وهو ينطق بهذه الكلمات الاخيرة .. ثم اضاف : « أم ترانى قد سالتك ؟ » .. فقال ايزاكسون

فى صوت يوحى بان طبيعته كانت فى تلك اللحظة لا تميل الى الافاضة فى الحديث : « كلا .. لا اظنك سالتنى ! »

- هل كان ذلك كله من أثر ضربة الشمس ؟.. ولكنى .. ولكنى واثق من انه لم يكن كذلك !

- كلا .. اننى لا أعزو ذلك كله الى ضربة شمس ، واظن ان هارتلى لم يكن مصيبا تماما فى هذه الناحية

فتساءل نيجل وقد وجد موضوعا للحديث مأمون العواقب: « اذن ، فماذا ؟ » .. وكان من الواضح انه اصبح يشعر بالمزيد من الحرية ، أو لعله أراد ان يكفر عن جموده السابق وقلة اهتمامه بأسباب مرضه ، بأن يبدى اهتماما حقيقيا شديدا بها الآن .. وساله ايزاكسون : « لقد كنت متوعكا قبل ان تذهب للحفر والتنقيب بغير قبعة ، اليس كذلك ؟ » . فاجاب : « بلى .. منذ تلك المرة التى سبحت فيها فى النيل بالقرب من قوص .. اذ يبدو ان كل شىء قد بدأ حوالى ذلك الوقت .. ولكن هل تعلم - ولو اننى لم اقل ذلك لأحد قط - اننى لم اكن على ما يرام تماما عندما نزلت الى النيل .. واعتقد ان ذلك كان سببا فى ان اصبت بالبرد ؟ » .. فقال ايزاكسون : « هذا جد محتمل ! » .. ومضى نيجل فى حديثه : « لقد كنت فى اكمل صحة عندما بدأنا رحلتنا .. أعنى عندما انتقلنا الى اللولية . وكانما كان فى الامر شىء يرتبط بهذه السفينة ، فاننى اعتقد الآن ان حالتى بدأت فى الانحدار السريع بمجرد أن صعدنا فوقها .. غير ان الامر جاء تدريجيا بحيث اننى لم الاحظ شيئا فى البداية . وقد زاد استحمامى فى النيل من توعكى ، ثم جاء التنقيب عن الآثار فاجهز على تماما »

وأحضر الخادم آخر اصناف العشاء الخفيف ، فوضعه على المائدة . وصب ايزاكسون قليلا من ماء فيشى فى كوبه ، ثم بدأ يعصر فوقه نصف ليمونة ، فراح نيجل يرقب هذه العملية التى كانت تجرى امامه فى عناية واهتمام بالغين . واخيرا قال : « هلا اخبرتنى عما كان بى ؟ » . فقال الطبيب : « كانت لديك مجموعة من الاعراض المعقدة ! » .. فعاد الآخر يساله : « اتعنى ان من المستحيل ان تذكر اسما يشملها كلها ؟ » . واخذ ايزاكسون يعصر آخر قطرة من الليمون فى الكوب ، ثم تناول منشفته ، وراح يجفف أصابعه الطويلة السمراء فى تمهل وعناية .. ثم قال اخيرا - مستشهدا بقول معروف : « وما قيمة الاسم ؟ » . وراح ينظر عبر المائدة الى نيجل ، بينما كانت الأسئلة تكاد تضىء فى عينيه . وقال نيجل : « هل تعنى انك لا تريد ان تخبرنى بذلك الاسم ؟ » .. وبدا ان فضوله بلغ درجة الاصرار والالحاح ، وكانما اوقظ بغتة ، او كانما داخله شعور خفى !

ـ لست أقول ذلك ، ولكننا معشر الاطباء نلجا الى الحرص غالبا .. اننا لا نحب ان نتورط فى شىء !

ـ قد يجوز هذا بالنسبة لهارتلى ، ولكنه غير صحيح بالنسبة اليك !

وتمهل لحظة قبل أن يستطرد قائلا فى صراحة : « انك تراوغنى ! » . فتناول ايزاكسون قدح الماء والليمون وجرع ما به ، ثم وضعه على المائدة .. فعاد نيجل يقول : « انك تراوغنى .. فلماذا ؟ » .. فتساءل الطبيب : « أليس يكفيك انك تتقدم نحو الشفاء ؟ وأى خير يعود عليك من معرفة ماكنت تشكو منه ؟ » . فاجاب : « جميل ! ولكن أليس من الطبيعى ان ارغب فى معرفته ؟ لماذا ينبغى أن يكون هناك اى سر غامض بشأنه ؟ » . وتوقف عن الكلام ، ثم مال الى الأمام قليلا وهو يستند بذراعه الى المائدة ، وقال : « هل عرفت زوجتى ما هو ؟ » . فاجاب ايزاكسون : « اننى لم اخبرها به قط ! ». فعاد يسأله : « ولكن هل تراها تعرفه ؟ » .. وكان الصوت الذى ألقى هذا السؤال يكاد ينضح بالشك والارتياب ، كما ان العينين اللتين نظرتا الى ايزاكسون كانتا مليئتين بالشك والارتياب كذلك !

ـ وكيف يمكن لى أن أعلم ؟ لقد اخبرتنى بانها تظنها ضربة شمس !

ـ هذا هو الهراء الذى كان هارتلى يهذى به ، فهو قد بث هذه الفكرة فى رأسها .. ولكنها منذ حضورك ، قد تبينت دون شك ان الامر أكثر من ذلك

فقال الطبيب : « اظن ذلك » .. وانتظر نيجل عسى أن يسمع المزيد ، ولكن ايزاكسون أخلد الى الصمت . وانتهى العشاء ، فنهض نيجل وسار نحو حجرة الجلوس وهو يمشى بخطى ثابتة ، وان كانت مشيته قد خلت من تلك الخفة الوثابة التى تنم عن اكتمال القوة والنشاط .. وكان يقول : « هل نجلس فى الشرفة ؟ » .. فقال ايزاكسون : « اذا أنت أحببت ، وعلى ان ترتدى معطفا .. وساحضره لك ! » .. فهتف نيجل : « أوه ، لا تكلف نفسك ! ». ولكن الطبيب كان قد مضى . وما لبث ان عاد بعد لحظة يحمل المعطف وبطانية خفيفة .. وبعد ان ساعد نيجل على ارتداء المعطف ، امسك بذراعه يقوده الى المقعد ، حتى اذا ما جلس فوقه نشر البطانية على ركبتيه .. فقال نيجل فى عذوبة : « ما أعظم طيبتك معى يا ايزاكسون ! انك شديد الرفق بى ، واننى لأشكر لك هذا الصنيع » .. فهتف الطبيب : « عفوا ! » . ولكن نيجل استطرد قائلا : « لقد كنا اليوم بالذات نتكلم فى هذا الأمر ، انا وروبى .. كانت تقول انه لا ينبغى لنا أن نستغل لطفك ، وانه لا ينبغى لنا أن نحتجزك هنا الآن بعد اجتيازى مرحلة الخطر ! »

« انها تريد أن تتخلص منى ! اذن فهى راجعة لا محالة ! » .. أومضت هذه الفكرة فى ذهن ايزاكسون ، فقلبت اقتناعه السابق رأسا على عقب ، ذلك

الاقتناع الذى كان يسيطر على مسلكه اثناء العشاء الى حد ما .. ولكنه قال فى تراخ : « آه !.. اننى لست فى عجلة من أمرى .. كما انى أريد ان اعيد لك قواك كاملة ! » ، فهتف نيجل : « حسنا ، ولكن مرضاك فى لندن ؟ انك تعلم اننى كنت من الشعور بشدة المرض بحيث انقلبت أنانيا فظيعا ، لا افكر الا فى نفسى فحسب !.. لقد جعلت من زوجتى جارية مستعبدة ، وهاندا امعن فى ابقائك بعيدا عن لندن كل هذه المدة » .. وكان صوته يزداد حرارة كلما مضى فى كلامه .. كان تحفظه يوشك ان يذوب ، وقد أوشك الصديق ان يتحرك فى قلب المريض !.. كان غياب زوجته قد بدل شعوره نحو ايزاكسون، ولو انه ـ قطعا ـ لم يتبين هذه الحقيقة ، فان عداوتها الصامتة الدائمة كانت اشبه بغاز يتسرب خفية فيؤثر فى زوجها دون ان يشعر ! اما الآن وقد بعدت عنه ، فانه كان يرتد تدريجيا بوحي من فطرته الى تلك الصلة القديمة التى كانت تربطه بصديقه ، وان لم يصل اليها بعد !.. كان يتوق الى الخلاص من اية عوائق تقف بينهما ، ولا سبيل الى بلوغ ذلك الا بان يجعل ايزاكسون يفهم روبى على حقيقتها ، كما فهمها هو !.. ولو استطاع فقط أن يتم هذه الخطوة قبل عودتها !.. واتته هذه الفكرة ، فاشاعت الدفء فى صوته ، والحرارة فى مسلكه .. وفتح ايزاكسون فمه لينطق ببعض عبارات المجاملة والاحتجاج ، ولكن نيجل استطرد يقول : « ثم هل تعلم من الذى جعلنى افتح عينى على هذه الأنانية من جانبى ، واتبين مبلغ ايثارك العظيم لى ببقائك معى كل هذه المدة ؟ »

ولم يجب ايزاكسون بكلمة .. بينما استانف نيجل حديثه : « انها زوجتى ! لقد فتحت عينى على هذه الحقائق ، ولولاها لما فكرت البتة فى فداحة الخسائر التى حاقت بك .. لا الخسائر المادية فحسب ، ولكن ... » . واحس ايزاكسون كانما لدغه شيء سام ، فقال : « ارجو ان لا تتكلم عن اى شيء من هذا القبيل ! » . فقال نيجل : « اننى لأعلم انى لا استطيع البتة مكافاتك على كل ما اسديته لنا » . فهتف ايزاكسون : « بل فى وسعك ان تفعل ».. وكان صوت الطبيب حادا قاطعا ، حتى لقد اجفل منه نيجل وهتف يقول : « فى وسعنا ان نفعل ؟ وكيف ؟ » .. فقال ايزاكسون ، وهو يشدد الضغط على الكلمة الاخيرة : « فى وسعك انت ! » .. فتساءل نيجل : « وكيف ؟ »

ـ أولا ، بعدم التحدث معى فى شأن تلك .. تلك « الأتعاب » المعتادة التى يقدمها المرضى للأطباء !

ـ ولكن كيف تنتظر منى ان اقبل كل هذه الخدمة المتفانية دون ان اقدم لك اى جزاء لقاءها ؟

ـ ربما كان فى وسعك ان تقدم لى هذا الجزء ‥ وهو الجزء الوحيد الذى اريده !

فتساءل نيجل : « ولكن ما هو ؟ » . واجاب الطبيب : « اننى ‥ لن اخبرك به الليلة ! » ‥ فتساءل نيجل : « ومتى تخبرنى به اذن ؟ » ‥ فتردد ايزاكسون . كان وجهه يتاجج بتعبيرات شتى ‥ وكان أشبه برجل اثيرت اشجانه فى عنف وقوة ‥ رجل يوشك ان ينفجر !‥ وعاد يقول : « لن اخبرك به الليلة ! » ‥ فقال نيجل : « ولكن يجب ان تخبرنى » . وهنا قال ايزاكسون : « فى الوقت المناسب !‥ لقد سالتنى على العشاء عما كان بك ، واى مرض كنت تعانى ‥ ولعلك لاحظت اننى لم اعن باخبارك وقتئذ . حسنا ، سوف اخبرك عنه قبل ان تتخلص منى ! » . فتساءل نيجل : « اتتخلص منك ؟! » ‥ فاجاب الطبيب : « اجل ‥ اجل ، لا تحسبنى غفلت عن فهم ما كنت تحاول ان تقوله لى الليلة ‥ لقد اردت ان توحى الى بلباقة ، بان موعد رحيلى قد حان ، بعد ان اتممت مهمتى ! »

واحس نيجل بالم موجع من هذه الكلمات ، فقال : « ما قصدت شيئا من هذا القبيل ‥ كل ما فى الامر ان زوجتى نبهتنى الى الخسائر الفادحة التى تلحق بك من جراء بقائك هنا فى مثل هذا الوقت ! » ‥ فقال ايزاكسون : « هناك شىء لابد لى من ان اجعلك تفهمه يا ارماين قبل ان اتركك ‥ وعندما اقوله لك ، فسوف يكون فى وسعك ان تمنحنى الجزء الوحيد الذى اريده منك ، والذى احتاج اليه بكل قواى ! » ‥ فقال نيجل : « ولكن ، الا تريد ان تخبرنى به الآن ؟ » ‥ غير ان الطبيب اجاب : « ليس الليلة ‥ فلا داعى هناك للعجلة » ‥ ثم نهض واقفا وهو يستطرد : « متى تتوقع عودة مسز ارماين ؟ » ‥ فاجاب نيجل : « بعد اربع ليال ، فانها تحتاج الى يومين كاملين فى القاهرة ، ثم انها تقضى ليلتين فى السفر ! » . فقال ايزاكسون : « ساخبرك قبل ان تعود ! » ‥ واستدار ايزاكسون على اثر هذه الكلمات ، ثم مضى يسير بخطى واسعة نحو الحديقة ، حتى اختفى فى ظلماتها

وما ان غدا وحده هناك ، حتى راح يلوم نفسه على حدة طبعه واندفاعه ، ومع ذلك فما من ريب فى انهما كانا يقودانه الى الطريق الصحيحة ‥ فلقد ايقظته كلمات نيجل هذه على الحقيقة البسيطة ، وهى أن هذه الرابطة يجب ان تفصم عراها ‥ وان تفصم فورا !‥ لقد راى الآن أنه كان يتردد من يوم لآخر ، ويرجىء اتخاذ اى قرار نهائى ، ولكن مسز ارماين كانت أقوى منه‥ لقد كانت هى السبب ـ بما اوحته الى نيجل ـ فى ان عزمه قد استقر اخيرا على ما ينبغى عمله ، وكان ذلك فى الواقع مستمدا من حزمها هى !‥ فلما ادرك ذلك ، راح يعجب فى قرارة نفسه بتلك المراة التى كان يبغضها حقا !‥

فان عملها فى الظلام هو الذى يدفعه الآن الى العمل فى الضوء ، اذ بات هذا امرا لا مفر منه ولا سبيل الى اتقائه .. ذلك لأنه كان يجد ما يبرر تردده ، عندما كان يعتقد ان رحيل مسز ارماين الى القاهرة قد يكون فرارا من زوجها .. فما كان ثمة داع لأن يزيد من عذاب نيجل ، مادامت « بيللا دونا » ستختفى نهائيا من حياته .. بل قد يكون من الخير لنيجل ان يفقدها دون ان يشعر بانه فقد معها كل المثل العليا .. اما وهى راجعة ، واما وقد صار حتما على ايزاكسون - ولا مفر من رحيله قريبا على اية حال - فلابد له من أن يكشف الحقيقة لصديقه ، مهما يكن الثمن !

وفيما كان يذرع الحديقة بخطاه الواسعة ، اخذ يحاول ان يحشد قواه جميعا لمواجهة أصعب الواجبات التى فرضتها عليه الحياة حتى الآن ، وأشدها قسوة وهولا . فلما عاد الى الشرفة لم يجد نيجل فيها ، اذ كان قد أوى الى فراشه !

* * *

◆ ومر اليوم التالى دون أن يتبادل الرجلان كلمة واحدة فى موضوع الليلة الماضية ، وانما راحا يطرقان شتى الأحاديث العادية الفارغة .. ولكن تلك السحابة من التحفظ المتبادل عادت مرة اخرى تظللهما وتجعل صلتهما قلقة لا تستقر على حال

وبزغ فجر يوم جديد . وكانت مسز ارماين قد غابت ليلتين حتى الآن ، فاذا هى نفذت الخطة التى أعلنتها لهما ، فسوف تبرح القاهرة راجعة الى الأقصر فى مساء اليوم التالى . ولم يكن قد وصل منها اى خطاب .. وكان السؤال الذى لا يفتأ يتردد فى ذهن ايزاكسون : « هل تعود حقا ؟ » .. ذلك لأنه اذا تكلم - ثم لم تعد قط - فانما يكون قد طعن صديقه فى قلبه على غير جدوى .. اما اذا عادت دون ان يكون قد تكلم ؟.. وهكذا أصبح ايزاكسون فريسة للشكوك ونهبا للخواطر المتضاربة !.. ولم يعد يعرف ماذا يفعل ، ولكن ألم يكن ينبعث من أعماقه صوت ملح متصل الهمسات لا يفتأ يردد شيئا واحدا ، أشبه بأمواج المحيط الطويلة المتتابعة ؟

لقد كان يشعر - فى بعض الأحيان - بهذا الصوت ، فيحاول جاهدا الا ينصت اليه ، والا يكترث له .. هذا الصوت الذى ينبعث من أعماق رجل ليخبره بأن فى المجاهرة بالحقيقة قوة وصلابة ، وبأن الضعف لم ينتج الخير يوما من الايام ، ولن ينتجه قط حتى نهاية كل شىء !.. ولكن هناك حقائق معينة تبدو المجاهرة بها ضربا من القسوة المفرطة .. وكيف يمكن للمرء ان يقسو على رجل يعود الى الحياة بخطوات تكاد تكون مترددة ؟.. الا ليت شىء يحدث فيحسم الأمر .. اى شىء .. اى حادث خارجى !.. ولكن ايزاكسون

لم يستطع أن يحدد لنفسه ما عسى أن يكون هذا الشيء ٠٠ لقد كان من الامور الصبيانية فى الواقع أن يعلل المرء نفسه بالأمل فى « اى شيء » بغير تحديد ، وانه ليعرف ذلك ٠٠ ومع ذلك ـ وعلى نحو غير معقول ـ مضى ايزاكسون يرجو ويؤمل

وكان من الغريب حقا أن يقع هذا الحادث ٠٠ وفى اليوم نفسه !٠٠ فقد تلقى نيجل بعد الظهر برقية حملها اليه ابراهيم فى الشرفة ، حيث كان الرجلان يجلسان معا ، ففضها نيجل فى لهفة لم يحاول اخفاءها ٠٠ وما لبث أن قال : « انها منها ٠٠ سترحل الليلة ، فتكون هنا فى ساعة مبكرة من صباح الغد ٠ لقد كانت تتعجل العودة ، فهى لم تقض فى القاهرة الا تلك الليلة الواحدة فقط ! » ٠٠ وكان ينظر الى ايزاكسون ، فرأى البغتة تبدو فى وجهه ، فسأله : « هل تعانى شيئا ؟ » ٠ فاجاب الطبيب : « كلا ٠٠ لماذا ؟ » ٠٠ فقال نيجل : « انك لا تبدو فى حالتك الطبيعية تماما » ٠٠ولكن ايزاكسون قال : « بل اننى على خير ما يرام ! » ٠٠ فتمتم نيجل : « آه ! »

وعلى أثر ذلك تعلل ايزاكسون ببعض الأعذار ، وغادر الشرفة ٠٠ كان قد اتخذ قراره النهائى ، ولم يعد ثمة صراع فى قرارة نفسه ٠٠ ولكنه كان منقبض القلب ، محزونا ، يشعر باضطراب لاذع رهيب ، وهو يتمثل صديقه وكانه رجل حكم عليه بالاعدام ولم يخطر بموعد تنفيذ هذا الحكم !٠٠ كان التوجس يتساقط فوقه كما ينهمر المطر المثلج فى الطقس الراكد الثقيل ! وسار فى خطوات آلية نحو ضفة النهر ، فاذا الماء يبدو كصفحة بللورية تعلوها هنا وهناك فقاعات تتلاقى عندها التيارات المتقابلة ٠ وكان النهر يلوح أضيق من المعتاد ، ولعل ذلك من أثر بعض الظواهر الجوية ، فكانما كانت الضفة المقابلة اقل بعدا من عهده بها ٠٠ ولم يحدث قط من قبل ان اخذ ايزاكسون بصفاء مصر السحرى الى هذا الحد ، بل انه فى غمار شقائه هذا ـ وهو شقاء كان يؤثر عليه جسمانيا ـ لم يملك الا أن يقف ساكنا ذاهلا مشدوها ، وقد استبد به العجب والاعجاب !٠٠ الا كم يبدو كل شيء قريبا ! وكم تبدو دقائق كل شيء واضحة مروعة فى هذه الأمسية الفاتنة !

وما لبثت عيناه أن تحولتا ناحية اللولية ٠٠ كانت هى الاخرى تبدو قريبة الى حد غريب ، واضحة جلية الى حد غريب ايضا !٠٠ ولقد راح يرقبها فى بادىء الامر لهذا السبب وحده ، ولكنه سرعان ما لاحظ ضوضاء غير عادية فوق ظهرها ٠٠ كان الرجال يتحركون بسرعة فوقها ـ على السطح الأسفل والسطح الأعلى معا ـ ويروحون ويغدون بغير انقطاع ٠ وكان ثمة رجل يتسلق الصارى الطويل ، بينما كان آخر يهبط من فوق سياج الشرفة الى المؤخرة٠٠ فماذا كانت تعنيه هذه الحركة الدائبة ؟٠٠ لا ريب ان سيد اللولية كان على

وشك الحضور .. ذلك الرجل الذى رآه ايزاكسون يسوق الجياد الروسية ، ثم رآه فى أسمال بالية ، يجلس متربعا فى ظلمات « غرزة » الحشيش فى أحشاء القاهرة .. وها هى ذى « بيللا دونا » تعود مهرعة بعد ليلة واحدة فقط فى القاهرة !

ونسى ايزاكسون ذلك الجمال الأخاذ الذى يصحب انحدار الشمس نحو المغيب ، فلم تمض دقائق حتى عاد الى المنزل .. ولكنه لم يكد يفرغ من تناول العشاء حتى ترك نيجل جالسا فى الشرفة وعاد الى ضفة النهر ثانية .. واذا اللولية تتالق بالاضواء من مقدمتها حتى المؤخرة .. كانت الانوار تسطع من كل نافذة فى قمراتها ، بينما كان الملاحون يمعنون فى صخبهم ولهوهم وقد ضموا الى دقات « الدربكة » أنغام المزامير . وكان بعضهم يرقص ايضا ، فقد رأى ايزاكسون ـ على صفحة من الضوء القوى المنعكس على السطح الأسفل ـ أشباحا سوداء اخذت تتكشف له احيانا وهى تتحرك حركات غريبة وحشية ، كانها ظلال المجانين !.. ولبث ايزاكسون بضع دقائق ينصت ويشاهد هذه المناظر ، ولكنه ما لبث ان فكر فى قطار كان ينهب الطريق قادما الى الأقصر .. وعندئذ أسرع يجتاز الحديقة عائدا الى الشرفة ، والى نيجل ! .. كان لابد له من ان ينصت الى الصوت العميق ـ الذى كان يهمس فى اعماقه ـ وان يطيعه ، فلم يعد يستطيع المقاومة أكثر من ذلك !

* * *

◆ وقال نيجل وهو يراه قادما : « لقد دبت الحياة فى اللولية الليلة ! » . فأجاب الطبيب : « نعم » .. وظل واقفا ريثما اشعل سيجارا ، ثم جلس بالقرب من صديقه . وكان الضوء المنبعث من حجرة الجلوس يغمرهما من فتحة الباب خلفهما ، كما كانت أنغام المزامير الحادة ودقات « الدربكة » المكتومة تصل اليهما عبر النهر . وما لبث ان أضاف : « ان الانوار تتالق فى السفينة كلها » . فقال نيجل : « اهى كذلك ؟.. ربما كان بارودى قد حضر الى الجنوب » .. واذ ذاك قال ايزاكسون : « يبدو أن الامر كذلك »

ووضع ساقا فوق الأخرى ، ثم ما لبث أن أنزلها .. انه لم يشعر بنفسه قط من قبل فى مثل هذا الجبن والاستخذاء .. كان يعرف ما ينبغى عليه عمله ، وكان يعرف انه لابد أن يفعله قبل ان يعود ونيجل الى الحجرة التى كانا يجلسان فى شرفتها .. ومع ذلك فانه لم يستطع أن يقسر نفسه على البدء بالحديث .. كان يقول لنفسه : « عندما أفرغ من تدخين هذا السيجار ! »

وقال نيجل : « انك لم تر بارودى قط .. فهو من اظرف الاشخاص الذين وقع عليهم بصرى يوما من الايام .. انه قوى كالثور ، فيما اعتقد ! وهو

واسع الثراء ، كما انه فى رايى شخص على جانب كبير من الطيبة ! ولكنى لا اظن زوجتى تميل اليه ، فهو ليس بالرجل الخليق باعجاب النساء ! » ٠٠ فساله ايزاكسون : « وما الذى يجعلك تظن ذلك ؟ » ٠٠ واجاب نيجل : « لست أدرى ٠٠ ربما كان مسلكه ! ثم انه لا يبدو معنيا بهن على الاطلاق ، ولكنا لم نره سوى مرتين ، بعد ان زاملنا على الباخرة عند قدومنا الى مصر٠٠ فقد تناول العشاء هنا مرة ، وفى اليوم التالى زرنا اللولية معه ، ثم لم تقع عليه أنظارنا منذ ذلك الحين ٠٠ فقد ذهب جنوبا ، بينما ذهبنا نحن الى الشمال ٠٠ الى الفيوم ! »

ـ ولكن ٠٠ ولكنك ذهبت الى الفيوم وحدك ، اليس كذلك ؟٠٠ اعنى فى بادىء الأمر

ـ آه ، نعم !٠٠ فى صباح اليوم التالى لابحار بارودى الى (أرمنت)

ـ وهل مكثت مسز ارماين وحدها هنا بعض الوقت ؟

ـ نعم ٠٠ ولكن لفترة قصيرة ، كنت أعد لها خلالها شيئا من وسائل الراحة هناك ٠٠ ولكننا مع ذلك لم نكن نعيش فى ترف ٠ ومهما يكن من امر فانها لم تهتم لذلك !

ـ ألم تكن ٠٠ ألا تعتقد ان مسز ارماين ربما كانت قد عانت شيئا من الملل والسأم خلال هذا الوقت ؟

ـ اى وقت ؟٠٠ هل تعنى فى الفيوم ؟

ـ بل اعنى بينما كنت أنت بعيدا فى الفيوم

ـ أظن ذلك ٠٠ لابد أن يكون كذلك !٠٠ ولكن لماذا ؟

فقال الطبيب : « حسنا » ، وطوح بسيجاره بعيدا ، فقال نيجل : « لم لم تكمل تدخين سيجارك ؟ » ٠٠ وكان من الواضح أنه بدأ يدهش لكلمات صديقه ومسلكه ٠ وقال ايزاكسون : « كلا ، لا اريد أن ادخن الليلة ، وانما أريد أن أتحدث ٠٠ بل لا بد لى من ان أتحدث اليك ٠ هل تذكر حديثنا ليلة ان سافرت مسز ارماين ؟ » ٠ فساله نيجل : « عن مرضى ؟ » ٠ واذ قال الطبيب : « نعم » ٠٠ اردف نيجل : « اننى أذكره طبعا ! » ٠ وهنا قال ايزاكسون : « لقد قلت لك اذ ذاك اننى لن اقبل منك ذلك الجزاء النقدى المعتاد ، لقاء اى شىء استطعت ان افعله من اجلك ٠٠ وقلت لك ان فى وسعك ان تكافئنى بطريقة اخرى » ٠٠ فقاطعه نيجل متسائلا : « وما هذه الطريقة ؟ » ٠٠ فاجاب : « هذا ما ساحاول ان اخبرك به ، ولكن ٠٠ ولكنه ليس أمرا يسيرا ٠٠ اننى أريد منك ان تفهم ٠٠ اريد منك أن تفهم ٠٠ »

وخيم الصمت لحظة ، ثم قال نيجل : « ولكن ، ماذا ؟٠٠ ما الذى تريد منى ان افهمه ؟ » ٠٠ فساله الطبيب : « ارماين ٠٠ هل تثق تماما فى صداقتى لك ؟ » ٠

وكان جواب الآخر : « نعم » · فعاد يسأله : « وهل تثق فى انها صداقة خالية من الغرض تماما ؟ » ·· فهتف نيجل : « اننى موقن من ذلك » ·· وهنا قال ايزاكسون : « ومع ذلك فقد عاملتنى طوال هذا الوقت فى كثير من التحفظ كما لو انك كنت تعرفنى مجرد معرفة سطحية » ·· فبدا الارتباك على نيجل وهو يقول : « اننى لم أقصد ·· بل اننى أشعر نحوك بشكر عميق ·· شكر عميق ·· لقد أنقذت حياتى ! » ·· فقال ايزاكسون فى جد وخطورة : « لقد فعلت ذلك حقا ·· ولو لم أتبعك فى النهر جنوبا ، لانتهى بك الأمر الى الموت حتما ! »

- انك ·· لقد قلت انك سوف تخبرنى عما كان بى

- وسوف أفعل ! - وماذا كان ذلك ؟

- لم يكن للسباحة التى قمت بها فى (قوص) علاقة بما أصابك ·· أما عن ضربة الشمس ، فانك لم تصب بها على الاطلاق ! لقد بدأت تشعر بالتوعك بعد بدء رحلتك النيلية مباشرة ، أليس كذلك ؟

فقال نيجل : « بلى ! ·· هذا حق ! » · واذ ذاك قال ايزاكسون : « أفلم يخطر لك البتة ان من المستغرب جدا ان شابا مثلك فى عنفوان صحته - اعتاد العيش فى الخلاء فى جو من أجمل أجواء العالم - يصاب فجاة بمثل هذا المرض الخفى ؟ » · فتساءل نيجل : « الخفى ؟! » ·· فتساءل الطبيب بدوره : «أو لم يكن كذلك ؟» · فقال نيجل : « لقد كان عجيبا ·· وكنت أفكر فى ذلك دائما ! » ·· ثم مال فى مقعده قليلا الى الأمام ، وراح يتفرس فى ايزاكسون قائلا : « ماذا كانت حقيقة مرضى ؟ » ·· فقال ايزاكسون ببطء ، وهو يبذل جهدا شديدا : « لقد كنت تعانى من تسمم بالرصاص ! »

فازداد نيجل ميلا الى الامام ، وراح يحرك يديه فوق مسندى مقعده الطويل ، وهو يهتف : « رصاص ؟·· تسمم بالرصاص ؟! » ·· فأجاب الطبيب : « نعم » ·· وعاد نيجل يتساءل : «هل كنت·· هل تقول اننى كنت مصابا بالتسمم ؟» · فأجاب الطبيب : « بل كنت تسمم يوما بعد يوم ·· كنت تسمم ببطء شديد خلال فترة طويلة من الزمن ! » ·· فهتف نيجل : « كنت أتلقى سما ؟! » ·· وأخذ نيجل يردد العبارة فى تثاقل ، وفيما يشبه البلاهة ·· وظل لحظة مشدوها مبهور الأنفاس ، بينما قال ايزاكسون : « ولو لم أصل فى الوقت المناسب لكنت قد قتلت بغير شك ! » ·· فهتف صديقه : « قتلت ؟! ولكن ·· ولكن من الذى يحتمل ان يرغب فى قتلى بحق السماء ؟ »

وظل ايزاكسون صامتا ·· ولكن نيجل عاد يردد : « من الذى يحتمل ان يرغب فى قتلى ؟ » ·· وكان صوته فى هذه المرة مليئا بالعنف، فقال ايزاكسون : « لقد كان على ظهر اللولبية شخص أراد موتك ولا بد ! » · فهتف : «ولكن من ؟ من ؟ النوبيون ؟ ابراهيم ؟ حمزة ؟ » · ولم يجب ايزاكسون ، بل ما كان بوسعه

ان يجيب فى تلك اللحظة ·· فاستطرد نيجل : « لقد كنت أعاملهم معاملة طيبة ، وكنت أدفع لهم أجورا طيبة · كان لديهم كل ما يمكن أن يرغبوا فيه ، وكانوا يعيشون فى ميسرة · انهم كانوا يظهرون تعلقا بنا ، بل لقد كانوا يتعلقون بنا حقا ! اننى أعلم انهم كانوا كذلك ! » ·· فقال ايزاكسون : « اننى لم أقل انهم لم يكونوا كذلك »

– ما الذى تعنيه اذن ؟ لم يكن يوجد معى على اللولية شخص آخر !

– بلى ·· كان يوجد !

– كان يوجد شخص آخر ؟·· اذن فانا لم اره قط !·· هل تريد ان تقول انه كان هناك شخص آخر مختفيا فى مكان ما على اللولية ؟·· ما هذا الذى تقوله يا ايزاكسون ؟

وكان انفعاله قد ازداد اشتعالا ، كما اشتد غضبه ·· فقال الطبيب : « اسمع يا ارماين ، هاك الجزء الذى اريده منك ·· اننى لا أريد أن أرحل وأدعك هنا فى مصر ·· أريد أن آخذك معى بعيدا ! » · فتساءل الآخر فى عجب : « تأخذنى بعيدا ؟ الى أين ؟ » · وكان جواب ايزاكسون : « الى أى مكان ·· الى انجلترا ! » فقال : « اننا ذاهبان الى انجلترا بمجرد ان تعود لى قواى تماما ·· ولكنك لم تخبرنى ·· انت تقول اننى كنت مسموما ، وأنا أريد أن أعرف من الذى كان يدس لى السم ! » ·· ولم يتلق جوابا قط ، فعاد يقول : « لعلك لا تعرف ! أو هل تعرف ؟ » · فقام ايزاكسون من مجلسه ، اذ شعر بانه لن يستطيع الاستمرار فى الكلام وهو جالس ·· ثم قال : « اذا كنت تريد ان تكافئنى ، فدعنى آخذك معى فى هدوء ·· اننى طبيب ، ولن تساور احد اية ظنون حول ذلك ·· ولا حاجة لأن أقول شيئا آخر ! »

– تأخذنى بعيدا ؟ ولكننى قد شفيت الآن تقريبا ، ولا يمكن ان يكون ثمة خطر بعد ذلك !

– اذا أتيت معى ، فلن يكون !

– ولكنك تنسى اننى لست وحدى ·· ولا بد من ان أستشير زوجتى !

فقال ايزاكسون : « هذا ما لا اريد منك أن تفعله ! » ·· وهتف نيجل فى دهشة : « لا تريد ؟·· أتعنى أن أذهب معك بدون ··؟ » · فقال ايزاكسون مؤكدا : « أعنى·· بدون مسز ارماين » ·· فعاد نيجل يتساءل مأخوذا : « أأترك زوجتى ؟·· أأترك روبى ؟·· أأهجرها بعد كل الذى فعلته من أجلى ؟ » ·· فأجاب الطبيب فى اصرار : « نعم ! » · واذ ذاك تساءل نيجل : « ولماذا ؟ » · ولم يحر ايزاكسون جوابا ، فراح نيجل يحدق فيه – فى صمت – مدة خيل الى ايزاكسون انها دقائق طويلة · وما لبث ان تورد وجهه ، ثم احتقن بالدماء المتصاعدة حتى جبهته ·· كان وجها يبدو منتفخا ، وكان شيئا يندفع من داخله

محاولا الخروج من مسامه .. ثم غاضت الدماء ، تاركة خلفها شحوبا قاتما ، كما غاصت العينان فى محجريهما .. وبدأ يقول متلعثما : « هل .. هل تجرؤ على .. ان تظن .. هل تجرأ على .. ان تقول ..؟ »

- اننى أقول ان عليك أن تأتى معى بعيدا عن مسز ارماين .. ولا تسألنى السبب !

- انت .. انت ايها الكاذب !.. ايها الكاذب اللعين !

وكان يتكلم فى بطء ، وفى صوت خافت متهدج أجش .. ومضى يقول : « أما انك تبغضها ، فهذا ما اعرفه !.. لقد أخبرتنى‌هى به !..ولكن ان تجرؤ على .. على .. » . وانقطع صوته ، فكف عن الكلام . وما لبث ان مال فى مقعده الى الأمام ، واشار بيده وهو يقول : « اذهب !.. اخرج من هنا !.. لو اننى .. لو اننى كنت بصحتى .. لأخرجتك قسرا ! » .. ولكن ايزاكسون لم يتحرك ، ولا هو أحس بالغضب .. بل انه لم يشعر الا بشفقة بالغة نحو ذلك الرجل الذى لم يكن يستطيع أن يرى ، ولم يكن يستطيع ان يفهم حقيقة تلك النفس التى ظل يعاشرها طويلا وفى ألفة ومودة كاملتين كما كان يصور له عمى بصيرته !.. وكان ايزاكسون يرى فى مثل هذا العمى وفى مثل هذا الجهل ، أمرا مفجعا مروعا .. ولكنه كان يرى فى ذلك جمالا ، وتدميرا لجمال شىء بغيض مروع !.. الا انه ما لبث ان قال فى هدوء : « اذا لم يكن بد من ذهابى ، فينبغى أن تسمعنى اولا » .. فصاح‌نيجل : «لن أسمعك.. لن أسمع منك كلمةواحدة!»

وارتفعت يده ثانية تشير نحو الباب، فقال ايزاكسون : « اننى انقذت حياتك، فلا بد من ان تسمعنى » .. ودون ان ينتظر اذنا من نيجل ، مضى يقول فى هدوء بالغ ، وفى بساطة عظيمة ، كل ما كان ينبغى ان يقوله !.. ولكنه ، حتى فى هذه اللحظة الدقيقة ، لم يخبره بكل شىء ، بل كتم عنه زيارة مسز تشبستو له فى عيادته ، وكشفها عن دخيلتها هناك .. ولم يذكر له شيئا عن بارودى .. ففى تلك اللحظة الحرجة ، راحت تتصارع فى نفسه شخصيتان : الرجل ذو التربية الانجليزية ، واليهودى الشرقى . ولم يلبث الأخير ان هزم وولى الأدبار ، فتغلب الخلق الانجليزى فى نفس ايزاكسون !.. على انه وصف زيارتيه لفندق سافوى ، وكيف ذهب فى المرة الأخيرة وقد عقد عزمه على أن يرجو مسز تشبستو بالا تذهب الى مصر ، والا تربط نفسها بصديقه .. كيف بدأ حديثه ، وكيف أقنعته سخريتها الباردة الصلبة المجردة من كل لين ، بعبث وساطته .. ثم انثنى الى هذه الأيام الأخيرة ، بعد ان تم زواجهما ورحيلهما ، فذكر ما خالجه عندما تلقى خطاب صديقه الذى وصف فيه سعادته وصحته الرائعة ، وعندما تلقى - بعد ذلك بقليل - الخطاب الآخر من السيدة المريضة التى ذكرت عن نيجل « لونه الغريب غير المألوف » .. وروى ايزاكسون كيف وضع هذين الخطابين

جنبا الى جنب فى لندن ، وراح يقارن بينهما ، وكيف جاء الى مصر – رغم ارادته – تحت دفع الهام قوى أوحى اليه بأن صديقه معرض للخطر والمتاعب ٠٠ وكيف حمله هذا الالهام نفسه الى تكتم وصوله ٠٠ ثم كيف ازدادت مخاوفه لما سمعه عرضا من أحد معارفه ، عند التقائه به على شرفة فندق شبرد !

وهكذا مضى فى حكايته السريعة الموجزة ، حتى وصل الى اللقاء فى معبد ادفو ٠٠ ولكنه – وقد بلغ هذه النقطة فى قصته – لم يعد يكتم عن نيجل شيئا من التفاصيل الدقيقة ، فوصف له فزع مسز ارماين الواضح عند ظهوره امامها ، وأكاذيبها ، واغفالها ذكر أى شىء عن مرض زوجها ، الى ان تبينت أنه – أى ايزاكسون – قد سمع بذلك فى الاقصر ٠٠ ثم ما كان من ادعائها ان مرضه الخطير لم يكن الا توعكا بسيطا نشأ عن الحزن لوفاة اللورد هارويتش ٠٠ومحاولتها منع ايزاكسون من الحضور الى اللولية ، والرقعة التى أرسلتها له ، وسيره على ضفة النهر فى ظلمة الليل حتى وصل الى اللولية ، ثم استراقه السمع على حديثهما ، وكيف دفعته الكلمات التى سمعها الى الالحاح فى طلب رؤية نيجل ٠٠ وحديثه الطويل مع مسز ارماين فى حجرة الاستقبال ، وكيف استطاع ان يقتحم طريقه بالحيلة الى الجناح الخلفى للدهبية ٠٠ وتحدث – بعد ذلك – عن النزاع الذى نشب بينه وبين الدكتور هارتلى ، الذى كان واقعا تحت تأثير مسز ارماين ٠٠ وأخيرا حدثه عن النصر النهائى الذى فاز به ٠٠ كيف ؟٠٠ بالتهديد ٠٠ التهديد الذى لا يمكن أن يخيف الا امرأة مذنبة !٠٠ وختم حديثه قائلا : « لقد قلت لمسز ارماين اننى اما أن أتولى العناية بحالتك ، واما أن اتصل بسلطات البوليس ، وعندئذ – عندئذ فقط – استسلمت ، وتركتنى احضر الى الدهبية لأعالجك ، وأعيدك الى الحياة ! »

وساد الصمت لحظة ٠ ثم هتف نيجل يساله فى تحد قوى يفيض بالمرارة : « ولكن كيف تسنى لك أن تعرف ؟٠٠ حتى لو كان ذلك صحيحا ، فكيف كان يمكن أن تعرفه ؟ » ٠٠ فقال ايزاكسون : « لم أكن أعرف عن يقين ٠٠ انما هى شكوك ساورتنى ، ولكنى فى سبيل انقاذك جازفت باطلاق السهم فأصاب المرمى ! لقد كان مرضك بسبب تناولك – خلال فترة طويلة من الوقت – جرعات صغيرة من احد مركبات الرصاص ، وهو مسحوق ناعم لا تكاد تحس به اذا لمسته ، ولا يمكن تمييزه عن ذرات الرمل الدقيقة التى يحملها الهواء من الصحراء !٠٠ وقد كانت مسز ارماين تقوم – أو تجعل غيرها يقوم – بدس هذا السم لك ! »

– كذبت ! كذبت ! يا لك من كاذب !

– هل كانت تقدم لك الطعام بنفسها ؟٠٠ هل كانت تعد لك القهوة ؟

فهم نيجل بالنهوض من مقعده ، وقد تقلص جسمه فى قوة ضارية ٠٠ وراح يهتف فى نوع من الصراخ والعويل المكتوم : « انصرف !٠٠ اخرج ! » ٠ و غدا

وجهه ناصع البياض فى اصفرار ·· كما كان فمه لا يكف عن التقلص ، ثم أردف : « والله لأخرجنك بنفسى ! » ·· واعتمد على مسندى المقعد ، ثم هب واقفا ، وتقدم من ايزاكسون ، فقال هذا : « سأخرج ، ولكنى سأترك لك هذا » ·· وأخرج من جيبه الخطاب الذى أرسلته له مسز ارماين فى الليلة الأولى ، فوضعه على المنضدة ، ثم استدار فى عجلة ، وانطلق الى ظلمات الحديقة ·· وقبل أن يغيب المنزل عن ناظريه ، تلفت خلفه ، فرأى نيجل وقد غاص فى مقعده ، فى وضع يدل على الانهيار التام !

وكانت تنبعث ، من ضفة النيل الغربية ، أنغام المزمار الحادة الخافتة ، ودقات « الدربكة » المكتومة ، وغناء النوبيين الأخن ·· بينما بدت أضواء اللولية كصف من العيون النارية المتقدة ، تحدق فى الفضاء ، عبر النيل !

الفصل الثالث والاربعون

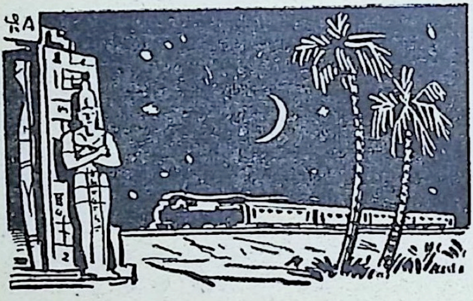

◆

استقلت مسز ارماين قطار الليل فى الأقصر ، وسمعت صفير القاطرة ، ثم أحست بالمركبة تتحرك فى بطء – اولا – ثم تزداد سرعة باطراد ٠ ورات منازل القرى تختفى واحدا اثر الآخر ، حتى لم تعد ترى سوى الحقول الطويلة وسلاسل الجبال ، ذات اليمين وذات اليسار ، وقد بدت واضحة ، ظاهرة رغم المساء ٠٠ واذ ذاك تملكتها نوبة من الفرح الطاغى الجامح ، كشخص احدق به خطر عظيم ثم وجد نفسه فجاة وعلى غير انتظار ، ينجو بنفسه ويفر الى شاطىء الأمان !٠٠ لقد غدت وحدها أخيرا ، لا تراقبها عيون الحب والحنان ، ولا عيون الشك والوعيد أو – بالأحرى – البغض والكراهية ٠٠ كيف استطاعت أن تحتمل ذلك العناء كل هذه المدة الطويلة ؟٠٠ انها لتعجب من ذلك حقا ، ولا تكاد تدرى كيف وجدت الجلد على ذلك !٠٠ وبالرغم من أنها أحست بفرح وابتهاج ، الا أنها أحست أيضا بعنف الجهد الهائل الذى كانت تكابده !٠٠ كانت تعرف أن أعصابها قد تهدمت ، وان السعادة وحدها هى الكفيلة بشفائها ، فلابد لها من أن تنال الحياة التى تريدها ، بل ولابد من أن تنالها الآن ، والا قضى عليها نهائيا ٠٠ فهل تراها فى طريق بلوغ هذه الحياة ؟٠٠ وهنا اختفت الفرحة ، وعاد الخوف يضيق الخناق عليها !٠٠ فحتى لو أنها وجدت بارودى فى القاهرة ، فأى نوع من الاستقبال سوف تلقاه على يديه ؟

واخرجت من حقيبتها – بأصابع قلقة ملهوفة – ذلك الصندوق المذهب الذى اهداها اياه ، ثم فتحت غطاءه ٠٠ ولكنها بعد أن فتحته ، لم تجرؤ على النظر

الى صورتها فى المرآة ، فردت الغطاء فى حدة وأعادت الصندوق الى الحقيبة ، ثم اضطجعت فى ركن مقصورتها ٠٠ وراحت تقول لنفسها : « لن أستسلم للقلق الليلة ، ولن أزعج نفسى بالتفكير فى شيء ٠٠ لابد لى الليلة من ان أنام ٠٠ لابد لى من أن أبدو فى خير صورة غدا ، فقد يتوقف كل شيء الآن على الحالة التى أبدو فيها عندما أصل الى القاهرة ! » ٠٠ واغمضت عينيها وهى عازمة على الاستسلام للهدوء والسكينة ٠٠ وما لبثت أن مضت الى فراشها ، وفى عزمها أن تنام !

ولكنها لم تنم طبعا ، رغم انها راحت تجاهد ، فى هدوء ـ ثم فى حنق ـ فى سبيل اقتناص النوم ٠٠ فقد أبى ان يواتيها طواعية !٠٠ ومضت ساعات الظلام الطويلة شيئا فشيئا ، وبدأ ضوء اليوم الجديد ـ الشاحب ـ يزحف الى داخل المركبة المتارجحة ، فجلست المرأة المجهدة الكليلة التى قضت ليلتها تتقلب من جنب الى جنب فى حركات مهتاجة كانت تحاول ان تخففها ما استطاعت ٠ واسندت ظهرها الى الوسادة « المهروسة » ، وقد ادركت ان من المحتمل ان يكون وجهها قد اتخذ الآن سمة جديدة ، فازداد بروز عظام وجنتيها ، وتهدلت زوايا فمها بشكل يدعو للرثاء ٠٠ وفيما كانت تجلس فى فراشها ، وقد رفعت ركبتها وارخت يديها ، احست بانها اليوم اشد قبحا مما كانت فى اليوم السابق ٠ فلما وصل القطار الى القاهرة ، أسدلت الخمار على وجهها ثم هبطت ، فاستقلت مركبة الى فندق « شبرد » ٠٠ وكانت تعرف عنوانا تستطيع ان تجد بارودى فيه ـ اذا ما كان فى القاهرة ـ فما كادت تدخل الى حجرتها ، حتى جلست وكتبت اليه بالفرنسية تقول :

« فندق شبرد ـ صباح الثلاثاء

« حضرت الى القاهرة لقضاء يوم اتسوق فيه ٠٠ فهل استطيع ان أراك ؟٠٠ اذا كان الأمر كذلك ، فارجو ان تخبرنى اين وفى اية ساعة ـ روبى ارماين »

ثم اغلقت الخطاب ، وطلبت الى الخادم ان يبعث به رسولا لتسليمه فى الحال٠٠ كما أمرت ان ترسل اليها القهوة وبعض الشطائر بعد نصف ساعة ،واسرعت تأخذ حماما ساخنا ٠٠ وكم تمنت وقتئذ لو كانت معها وصيفة بارعة !٠٠ كان مما يبعث على الجنون الا تجد مساعدة من احد ، الا من وصيفة سويسرية بدينة ، تابعة للفندق ٠٠ وتبينت فى فزع مروع ، انها كانت شاحبة اللون ، بادية الاعياء والارهاق ٠٠ بل انها كادت ان لا تعرف وجهها فى المرآة ، فبدلا من أن تبدو اصغر سنا من حقيقتها ، خيل اليها انها اصبحت تبدو أكبر سنا مما هى ٠٠ بل اكبر بكثير !٠٠ كان منظرها صدمة عنيفة لها !٠٠ولكنها كانت قد قضت ليلتها فى السفر ، ولم تستطع النوم ٠٠ وكل امراة لابد من

ان تبدو اكبر سنا بعد مثل هذا السفر الليلى !.. ولسوف تغدو على مايرام بعد ان تنال قسطا من الراحة . وكانت عند وصولها قد حجزت حجرة للجلوس ملحقة بمخدعها ، فمضت اليها وتناولت افطارها ، وطلبت بعض الصحف ، ثم اضطجعت على الأريكة لتقرأها .. وكانت تتوقع عودة الرسول الذى اوفدته الى بارودى فى كل لحظة . وعندما حضر اخيرا ، قفزت من مضجعها فوق الأريكة تسأله : « هل أحضرت رسالة ؟ » . فقال الرسول انه لم يحضر شيئا ، اذ لم يكن السيد موجودا !

وسألته : « وهل تركت الرسالة ؟ » . فأجاب : « نعم يا سيدتى » . واذ ذاك قالت له : « تستطيع ان تعود اليه ثانية بعد قليل .. اذهب ثانية فى الساعة الثانية عشرة ، لترى ان كان السيد قد حضر ، اذ أنه قد يعود لتناول الغداء .. وعليك أن تنتظر حتى موعد الغداء ، فانى أريد ردا على رسالتى ! » . وذهب الرجل . ومضى الصباح بطيئا متثاقلا ، ثم جاءت الساعة الثانية عشرة ، ولكن الرسول لم يعد. فطلبت مسز ارماين الغداء فى حجرتها، ولكنها لم تستطع ان تأكل شيئا يذكر ، فطلبت قهوة ثقيلة . وبينما كانت ترشف قدحها الثانى ، سمعت طرقا على الباب ، فصاحت : « ادخل » .. وظهر الرسول ثانية ! .. فهتفت به : « حسنا ؟.. حسنا ؟ » .. فتطلع الرجل نحوها وكأنما افزعه صوتها ، ثم قال : « ان السيد لم يحضر الى منزله ياسيدتى »

ـ ومتى يحضر اليه ؟

ـ لست أدرى يا سيدتى

ـ اهو فى القاهرة ؟

ـ لا اعرف يا سيدتى

ـ وما الذى تعرفه ؟.. ما الفائدة منك ، وما الغرض من وجودك هنا ؟!.. اذهب ثانية فى الحال ، وابحث عما اذا كان السيد فى القاهرة أم لا ؟

فمضى الرسول مسرعا وهو يتلفت خلفه !.. وكانت مسز ارماين تهتز غضبا ، وقد شعرت بميل جارف الى ان تهجم على الرجل وتضربه جزاء غبائه، كما يضرب العبيد احيانا من سادتهم حين يرتكبون خطأ .. فلما انفردت بنفسها ، اطلقت صيحتين او ثلاثا تفرج بها عن الألم المكبوت . وكان جسدها يتلظى بنوع من الحرارة الجافة القاسية .. كانت تحس بالنيران تلفحها من كل جانب !.. و مضت ساعة ، واخيرا سمعت طرقا على الباب من جديد .. ودخل الرسول فقال متجهما : « لقد كان السيد فى القاهرة امس ياسيدتى » .. فصاحت مغضبة : « ان ما أريد ان اعرفه هو : هل السيد موجود فى القاهرة الآن ؟ » .. فقال : « انهم لا يعرفون يا سيدتى ! » .. فصاحت :

« لا يعرفون ؟! لابد أن يعرفوا ! » . فقال : « انهم لا يعرفون يا سيدتى » ، ولكنها صاحت : « ولكنى أقول لك انهم لابد أن يعرفوا ! » .. فعاد يقول : « انهم لا يعرفون يا سيدتى »

فقفزت من فوق الأريكة وهى تحس بالدماء تتصاعد الى راسها .. ولم تكن تعرف ما الذى كانت توشك أن تفعله ، ولكن النظرة التى بدت فى عينى الرجل – عندما واجهته – أعادتها الى الصواب ، وذكرتها بآداب السلوك ، فلم تنبس بكلمة أخرى ، ومنحته بعض النقود ، ثم اولته ظهرها .. فلما سمعت الباب يغلق ، لم تعد تستطيع السيطرة على قواها ، وضبط اعصابها ، حتى ذكرت فجأة – ومرة ثانية – وجهها الذى أصبح حطاما ، فمضت الى حجرة النوم لتخرج منها بعد نصف ساعة وقد ارتدت ثياب الخروج .. فقد صممت على أن تذهب بنفسها الى منزل بارودى .. لقد انبعث فى أعماقها – بعد كل هذه الشهور من عبودية الطاعة والخوف – شىء تعدى حدود الطاعة وحدود الخوف ، واستقر به العزم فى ضراوة ، فلم يعد يقيم للعواقب وزنا !

واستقلت مركبة الى منزل بارودى ، وكان فى ضواحى القاهرة – فى الجزيرة ، على مقربة من النيل – وقد أحاطت به حديقة كبيرة ، وسترته عن العيان اسوار مرتفعة .. وكانت ثمة بوابة عالية ، من الحديد المتقن الصنع ، تفضى اليه . وقد كانت مغلقة عندما جذب الحوذى أعنة الجوادين ، كما كان وراءها – الى اليسار – مسكن صغير خرج منه رجل وطنى طويل القامة ، فغادرت مسز ارماين العربة فى عجلة ، ووقفت تتطلع خلال البوابة ، ثم قالت بالفرنسية : « هل محمود بارودى فى القاهرة ؟ » .. فقال الوطنى شيئا بالعربية . وعندئذ عادت تسأله بالانجليزية : « هل بارودى افندى فى القاهرة ؟ » . فاجاب الرجل فى انجليزية حرص على اجادتها ، وهو يتكلم متمهلا : « نعم ، اظن ذلك ! »

– أهو فى المدينة ؟

– اظن ذلك

فاخرجت كيس نقودها ، وفتحته ، ثم منحت الرجل شيئا من المال ، قائلة: « وأين هو الآن ؟ » .. فقال : « لا ادرى » .. فسالته من جديد : « ومتى يعود الى هنا ؟ » .. ومرة اخرى قال الرجل : « لا ادرى » .. فشعرت بميل جارف الى الصراخ ، ولكنها قاومت هذا الميل وقالت : « هل تظن انه سيعود الليلة ؟ » .. وكان جوابه : « لا أدرى .. انه احيانا يقضى الليل بطوله فى القاهرة » .. وعادت تسأله فى لهفة : « ولكن ، الم يذهب بعيدا ؟ الم يرحل عن القاهرة ؟ أهو فى القاهرة ؟ » .. فقال : « اظن ذلك ! »

ووقفا لحظة وكل منهما يحدق النظر فى الآخر من خلال البوابة .. وكانت

عينا الرجل لا تعبران عن شيء على الاطلاق ، فكأنه شبه نائم ٠٠ وما لبثت مسز ارماين ان استدارت وصعدت الى المركبة وهى تصيح بالحوذى : « عد ثانية الى شبرد ! » ٠ فلوح الرجل بسوطه فى الهواء ، وانطلقت الجياد خببا ٠ حتى اذا بلغت مسز ارماين الفندق ، عزمت على ان تقضى فترة العصر بطولها على الشرفة ، فقد يحضر بارودى اليها مصادفة ٠٠ ليس ذلك بعيد الاحتمال ، فقد سمعت ان كل ذى شخصية فى القاهرة اما ان يحضر الى شبرد أو يرى مارا به فى ساعات العصر !٠٠ وهكذا جلست فى مقعد كبير مريح بجوار السياج ، أمام منضدة صغيرة ٠ وابتاعت بعض الصحف ، واحدى المجلات ، وجلست تتظاهر احيانا بالقراءة ، دون ان تكف لحظة عن التطلع ٠٠ التطلع الى الرجال الذين كانوا يصعدون ويهبطون الدرج العريض ، والى الرجال الذين كانوا يروحون ويغدون أمامه ، راجلين او راكبين ، فى الشارع المزدحم٠ وحان وقت الشاى ، فأمرت باحضاره ، وراحت ترشفه فى بطء ٠ كان راسها يؤلمها ، وكانت عيناها متعبتين لفرط التحديق فى وجوه الكثير من الرجال ، ولكنها مع ذلك ظلت ترقب الوجوه حتى بدأ المساء يهبط ، وحتى سمعت الجرس يدوى من داخل الفندق معلنا حلول موعد العشاء بعد نصف ساعة ٠٠ ما الذى بوسعها ان تفعله اكثر من ذلك ؟

وبدات تجمع الصحف فى حركة آلية ٠٠ فقد ادركت ان لابد لها من الدخول الى الفندق ، اذ اصبحت الشرفة مقفرة تقريبا ٠٠ وكانت على وشك ان تهم بالنهوض ، عندما قدم رجلان ـ أحدهما انجليزى والآخر أمريكى ـ فصعدا الدرج ثم جلسا الى منضدة قريبة منها ٠٠ وكان أحد الرجلين هو «ستارنورث» ـ الذى رأيناه مع ايزاكسون يوم وصوله ـ والذى لم تكن تعرفه ، ولم يسبق لها ان سمعت عنه ٠٠ وطلب ستارنورث شرابا ، ثم انهمك فى الحديث مع رفيقه ٠٠ كانا يتكلمان عن القاهرة ، بينما جلست مسز ارماين ساكنة تصغى الى حديثهما ٠٠ وبدأ ستارنورث يصف الأحياء الوطنية ، وما لبث ان جاء ذكر « غرزة » الحشيش التى كان قد صحب ايزاكسون اليها ، فاخبر صديقه عن موضعها بينما كان يصفها له ، فسمعت مسز ارماين اسم الشارع: « باب المطيرة » ! ٠٠ ثم راح يتحدث عن المصريين الاغنياء الذين يرتادون هذا المقهى ، فذكر اسم « بارودى » بين اسمائهم ٠٠ وما لبث ان نهض بعد ذلك مع رفيقه ومضيا الى داخل الفندق !

وفى تلك الليلة ارتدت مسز ارماين ثيابا بسيطة ، واسدلت خمارها ، ثم صحبت دليلا من الوطنيين ، وانطلقت تحج الى الأماكن الغريبة فى المدينة ٠٠ ومكثت طويلا ـ وطويلا جدا ـ تحت ذلك السقف الأسود للمقهى الذى يدخن فيه الحشيش ٠٠ وكانت منهوكة القوى ، ومع ذلك فقد احست بنشاط جنونى،

وكانما اصابتها الحمى ٠ وراحت تجرع قدحا بعد الآخر من القهوة الثقيلة ، وترقب المدخنين المستغرقين فى الخيال ، والراقصات الحالمات ، حتى خيل اليها انها تعيش فى كابوس فظيع ، وانها قد انتزعت من الارض ومن كل الاشياء التى عرفتها حتى الآن ٠٠ على أن بارودى لم يحضر !

* * *

◆ وعادت اخيرا الى الفندق مارة بتلك الاحياء الصاخبة الراقصة ، وقد ازداد شعورها بالضيق الطاغى ٠٠ ولم يطرق النوم جفنيها فى تلك الليلة ايضا ٠٠ فلما اقبل النهار التالى ، احست بأنها مريضة حقا ٠٠ ومع ذلك فقد ظل جسدها يختلج ، وعقلها ينبض ، فى حرارة اشبه بسورة الحمى ٠٠ وما كادت تتناول طعام الافطار – وان لم تمس منه الا قليلا – حتى استقلت المركبة ثانية ، ومضت الى منزل بارودى ٠ وهناك ، قابلها الوطنى النائم عند السياج ، فراحت تساله فى صوت متهدج ٠٠وجاءها الجواب : « لقد رحل ! » ٠٠ فهتفت جزعة : « رحل ؟٠٠ الى اين ؟ » ٠ وجاءها الجواب : « لقد ذهب الى الأقصر ٠ فان له دهبية فى الأقصر ! » ٠٠ فصاحت : « اذهب الى الأقصر ؟٠٠ متى ؟ » ٠٠فقال الرجل : « لقد علمنا ذلك فىالليلة الماضية ! »٠ وعادت تساله : « وهل اخذ الرسالة التى بعثت بها صباح الأمس ؟ » ٠٠ فهز راسه نفيا ، وقال : « انه لم يعد الى هنا ! »

وهكذا ابرقت مسز ارماين الى الفيللا ، ثم استقلت قطار الليل عائدة الى الأقصر !٠٠ ووصلت فى حوالى الساعة التاسعة من الصباح ، بعد ليلة اخرى من السهاد الأليم ٠ وبينما كانت تمر – فى عربتها – امام فندق « ونتر بالاس » ، شاهدت رجلا يتمشى وحيدا فوق الشرفة ٠ وشد ما ذهلت عندما تبينت انه ماير ايزاكسون ٠٠ ولقد رآها – فهى واثقة من ذلك تماما – ولكنه اشاح بوجهه للتو ، ولم يرفع قبعته تحية لها !٠٠ ترى هل احنت له راسها محيية ام انها لم تفعل ؟٠٠ انها لا تعلم على وجه التحقيق ، ولكن مهما يكن من امر فان مسلكه بدا غريبا شاذا !٠٠ ثم انها لا تستطيع ان تفهم لماذا كان فى الفندق ٠٠ فهل حدث شىء فى الفيللا ؟٠٠ وقبل ان يتسع لها الوقت للتساؤل ، كانت العربة تقف امام الباب ٠٠ وكانت تتوقع أن تجد ابراهيم فى انتظارها بالمحطة ، ولكنه لم يحضر ٠ كما انه لم يستقبلها عند الباب الذى فتحه البستانى ، فاومات براسها ردا على تحيته ، واسرعت تجتاز الحديقة ، وتدخل المنزل ، وهى تهتف منادية : « نيجل ! نيجل ! »

وسمعت على الفور وقع خطوات بطيئة ، ثم رات زوجها قادما نحوها من حجرة الجلوس ، فخيل اليها انه يبدو جد مريض ٠٠ وكان يقول : « اهلا

يا روبى ٠٠ ها قد عدت ! » ٠ ومد اليها يده ، بينما لاحت فى عينيه ـ وكانتا غائرتين الى حد قريب ـ نظرة تحوى قدرا كبيرا من الشوق والحنان وهما تحدقان فى عينيها ٠٠ فقالت : « اجل ٠٠ لقد عجلت بالحضور ، اذ لم أكن لأحتمل القاهرة ، فهى شديدة الحر ، فظيعة ٠٠ ثم اننى كنت احس بأننى تعسة هناك ! » ٠٠ وكانا يقفان فى الردهة الصغيرة ، فقال : « شد ما تبدين متعبة ٠٠ الى حد فظيع حقا ! » ٠٠ وكان لا يزال يمسك بيدها ، فلوت شفتيها قائلة : « أأبدو كذلك ؟٠٠ انهما ليلتا السفر ٠٠ لم أنم فيهما قط ! »

ـ والوصيفة ؟٠٠ هل احضرت واحدة ؟

ـ كلا ٠٠ ماذا يهم ذلك ؟

وكان مثل هذا السؤال يبدو لها ـ الآن ـ تافها سخيفا ، فأضافت : « يجب ان اجلس ٠٠ اننى أكاد اموت ! » ٠٠ وكانت تحس حقا بأن قواها الجسدية توشك ان تخونها وان ساقيها تهتزان تحتها ، فقال نيجل : « تعالى الى حجرة الجلوس ٠٠ ثم انه يجب ان تتناولى فطورا » ٠٠ وخلى عن يدها ، فمضت الى حجرة الجلوس وارتمت على احد المقاعد وهى تتاوه ٠ ولحق بها بعد لحظة ، فوجدها تستند بظهرها الى الوسائد ، وقد مدت ذراعيها واغمضت عينيها ٠٠ ولكنها كانت فى هذا الوقت كله تقول لنفسها « بارودى هنا !٠٠ بارودى هنا ٠٠ وانا لا استطيع الذهاب اليه ! لا أستطيع الذهاب ! لا استطيع الذهاب ! » ٠٠ كان يخيل اليها انها ترى عنقه القوى الغليظ ، وحاجبيه المائلين الى اعلى ، فوق عينيه الواسعتين الجريئتين ، ويديه الكبيرتين اللتين تنمان عن رجولة دافقة ، ثم صدره الرياضى العريض

واحست بنيجل يجلس بجوارها ، ففتحت عينيها وقالت فى جهد : « لماذا لم يحضر ابراهيم الى المحطة ؟ » ٠ فاجاب : « آه !٠٠ اظنه كان مشغولا ! » ٠٠ وبدا

التوجس والحذر فى صوتها وهى تقول : « مشغول ؟! » . فقال نيجل : « أجل .. وهو يعد لك الافطار الآن ، فقد أمرته بذلك » .. اذن فقد كان فى المنزل .. وعندئذ شعرت بنوع من الارتياح وهى لا تكاد تعرف السبب . وفتح الباب ودخل ابراهيم فى خفة وهدوء يحمل الصينية بين يديه ، فقال لها : « صباح الخير يا سيدتى » . فقالت : « طاب صباحك يا ابراهيم » . ووضع الصينية فى سكون ، ووقف لحظة يتاملها . وما لبث ان تسلل خارجا .. وقال نيجل: « لسوف تجدين نفسك احسن حالا ، بعد أن تتناولى افطارك » .. فقالت : « كان ينبغى ان آخذ حماما اولا .. ولكنى لن أستطيع الانتظار ! »

وجلست أمام المنضدة الصغيرة ، وصبت لنفسها قدحا من الشاى الثقيل.. وفيما كانت تفعل ذلك ، راحت تنظر الى زوجها من جديد ، فخيل اليها ـ مرة أخرى ـ انه كان يلوح شديد المرض ، ولكنها لم تشر الى ذلك باية اشارة.. ورشفت جرعة من الشاى وقضمت قطعة من الخبز المحمر ، ثم قالت فجاة : « آه !.. لقد رايت الدكتور ايزاكسون فى شرفة ونتر بالاس عندما مررت امام الفندق الآن » . فقال فى غير اكتراث : « احقا ؟ » .. فقالت : « نعم ! ما الذى ذهب يفعله هناك هذا الصباح ؟ » . فاجابها : « اظنه يقيم هناك » .. فوضعت مسز ارماين القدح الذى كانت ترفعه وقتئذ الى فمها ، وراحت تحملق فى زوجها وهى تقول : « يقيم هناك ؟.. الدكتور ايزاكسون ! » .. فقال : « أظن ذلك »

– ولكن .. هل تعنى أنه غادر هذه الفيللا ؟

– نعم .. لقد انصرف فى الليلة الماضية

واذ ذاك تساءلت : « لماذا ؟.. لماذا ؟ » . فقال : « لماذا ؟.. حسنا .. حسنا .. لقد نشب بيننا بعض النقاش ، وانتهينا على خلاف ، فغادر المنزل !» .. فهتفت : « هل تشاجرتما ؟ » .. وكان جواب نيجل : « اجل .. اظن ان لنا نسميه كذلك ! » .. وفى غمرة ما كانت تحسه من اجهاد ، ومن الم جسدى وتشتت فكرى ، شعرت مسز ارماين بوخزة حادة ـ فقد كانت اشبه بذلك حقا ـ من الفرح والغبطة . وقالت : « وهل غادر الدكتور ايزاكسون المنزل نهائيا ؟ » . فاجاب : « نعم .. ولن يعود الى هنا ثانية ! » . فتناولت مزيدا من الشاى ، وازدادت قابليتها للطعام .. بل انها للمرة الاولى ـ منذ ايام كثيرة ـ شعرت برغبة فى الاكل !.. وكانت صدمة الخوف التى اعترتها قد ذهبت وانقضت ، وتذكرت ما داخلها حين امسك نيجل بيدها فى قوة وهما فى الردهة .. واخيرا قالت : « ولماذا تشاجرتما ؟ » . فقال : « آه .. لقد قامت بيننا مناقشة ! »

ثم كف عن الحديث فجاة ، فاسرعت قائلة : « فهمت .. فهمت !.. لعلك

فعلت ما طلبت اليك ان تفعله ، فاخبرته بانك الآن من القوة بحيث يستطيع العودة الى لندن » ٠٠ فقال نيجل : « اجل ٠٠ قلت ذلك بالفعل ! » ٠ فتساءلت : « وحدثته عما ندين به له ؟ » ٠٠ فقال : « اجل » ٠٠ وعادت تساله : « وهل غضب من ذلك ؟ »٠٠فقال : « لقد تحدثت عن ذلك ، و٠٠ » ، وتحول فجاة قائلا : « روبى ، بكم تريننا مدينين له ؟٠٠ لابد ان أرسل له اذنا مصرفيا بالمبلغ ٠ نعم ٠٠ لابد أن أرسله له الليلة ! » ٠٠ فهزت كتفيها وقالت : « لست أدرى ، ولكن ٠٠ لابد انه سيفتح فمه بالحديث عنا ، بعد ان تشاجرتما ! » ٠ فقال نيجل فى بطء : « أظنك ٠٠ اعتقد انك تظلمينه من هذه الناحية ! »

- هل تظن ذلك ؟٠٠ حسنا ، ينبغى أن اصعد وأستحم الآن أولا ٠٠ وربما تاخرت قليلا !

- دعينى احضر وأجلس معك ٠٠ هل تسمحين لى ؟٠٠ اعنى بعد بضع دقائق ؟

- ليس الآن٠٠والأفضل أن تحاول ان تحسب ديونك للدكتور ايزاكسون!

ثم غادرت الحجرة على عجل ، فما كادت تصل الى غرفتها حتى اوصدت الباب وهرعت الى الشرفة حيث راحت تنظر الى اللولبية ، فرات العلم المصرى مرفوعا ٠٠ ترى هل بارودى عليها الآن ؟٠٠ يجب أن تعرف ، وفى الحال !٠٠ واسرعت تقرع الجرس ، ثم فتحت الباب وقالت للنوبى الذى لبى النداء : « اريد ابراهيم » ٠٠ فانسحب النوبى ٠ وان هى الا لحظة حتى كان ابراهيم يصعد الدرج فى مشيته الهادئة ٠ فهتفت تقول فى همس : « ابراهيم ٠٠ ابراهيم ، هل بارودى على ظهر اللولبية ؟ » ٠٠ فاجابها : « نعم يا سيدتى ! » ٠٠ ولم تستطع كتمان صيحة الفرح - التى أوشكت ان تنبعث من صدرها - الا فى صعوبة بالغة ، ثم قالت : « أهو هنا ؟ »

وفى غمرة الانفعال الذى استبد بها ، وضعت يدها على كتفه وشددت الضغط عليها دون أن تشعر ، وارفت قائلة : « ابراهيم ٠٠ ابراهيم ، اننى اريد ان تعد لى الفلوكة الليلة - بمجرد الفراغ من العشاء - عند نهاية الحديقة ٠ أفهمت ؟ » ٠٠ فتطلع اليها فى رصانة وجد ، بينما كانت تستطرد : « هل تستطيع ان تجذف بى الى ضفة النيل الأخرى وحدك دون معونة ؟ » ٠٠ فهتف : « سيدتى ٠٠ اننى قوى كرمسيس الثانى ! » ٠٠ واذ ذاك قالت : « حسنا اذن ٠٠ عليك أن تعد قاربا صغيرا ، خفيفا ، ليكون اكثر سرعة فى انطلاقه ٠ وكم سيمكث بارودى هنا ؟ » ٠٠ فاجاب : « لا أدرى » ٠٠ ولكنها قالت : « حاول ان تعرف ! ٠٠ هل حمزة معه ؟ » ٠ وبدا الشر فى عينى ابراهيم ، ثم قال : « حمزة ؟٠٠ انه هناك ، ولكن حمزة ولد شرير ٠٠ اننى لم اعد اكلم حمزة الآن » ٠٠ فهتفت :

« لا تنس !٠٠ لا تنس ٠٠ بعد العشاء مباشرة ! » ٠٠ ثم اغلقت الباب واوصدته ثانية !

واخذت حماما ساخنا ، ثم تركت شعرها مرسلا ، والتفت بمعطف منزلى ، واستلقت على الفراش وهى تحاول ان تنال شيئا من الراحة ٠٠ ولكن جسدها كان ينبض بالرغبة فى الحركة الدائبة ، على الرغم مما كانت تحس به من اعياء وكلال ٠ وكانت تخرج الى الشرفة – مرة بعد اخرى – فتنظر الى اللولية ٠٠ بل لقد احضرت منظارا مقربا ، وراحت تحاول ان تتبين « بارودى » على السطح العلوى ٠٠ الا أنها لم تستطع رؤيته ٠ وما لبثت ان أخرجت الى الشرفة مقعدا طويلا ، ولكنها اذ همت بالاستلقاء فوقه ، سمعت طرقا على الباب وصوتا يهتف : « روبى ! » ٠٠ وكان نيجل هو القادم !٠٠ وأحست فى تلك اللحظة بميل شديد الى أن تندفع الى الحجرة ، وتفتح الباب ، ثم تمسك به من كتفيه فتطوح به الى خارج المنزل ٠٠ بل خارج حياتها كلها !

وعاد يهتف : « روبى ! » ٠ فصاحت : « ها أنذى قادمة ! » ٠٠ وتمهلت لحظة، محاولة ان تسيطر على مشاعرها ٠٠ كانت تحس بكل عصب من اعصابها يرتعد ويهتز ٠ وعاد نيجل يهتف : « ان الباب موصد يا روبى ! » ٠ فقالت: « اجل ٠٠ اننى أعرف ذلك ٠٠ ها أنذى قادمة ٠٠ قادمة ! » ٠ وصرفت بأسنانها ، ثم مضت الى الباب ففتحته قائلة : « تعال ، ادخل ! ادخل أيها الرجل اللجوج ! »

– لجوج ؟٠٠ ولكنى لم أرك منذ ثلاث ليال !٠٠ ثم اننى لا أستطيع العيش بدونك يا روبى !٠٠ شكرا لله ، فلسوف نكون معا وحدنا الليلة ٠٠ وبودى أن تعزفى لى قليلا بعد العشاء !

فتقلص وجهها ، وقالت : « هذا ما لم اكن متعبة الى درجة لا استطيع معها العزف ! » ٠ فقال : « سناوى الى الفراش مبكرين ! » ٠٠ ثم اغلق الباب ، واردف قائلا : « سأجلس معك هنا ، فاننى اريد ان آخذ رايك فى هذا الاذن المصرفى الخاص بايزاكسون ٠٠ وارسل زفرة عميقة ٠٠ وكان يمسك فى يده بقلم من الرصاص وبعض الأوراق ٠ ثم جلس بجانب احدى المناضد واستطرد يقول : « اريد ان أزيح هذا الموضوع عن تفكيرى ٠٠ فبعد ذلك الذى حدث ، لا بد أن ادفع لايزاكسون، ولو أننى أعتقد اننا اذا لم نفعل فسوف ٠٠ » ٠ وتنهد ثانية ، ثم أردف قائلا : « لنر الآن ؟٠٠ متى حضر الى الذهبية – لأول مرة – كى يعنى بى ! »

* * *

◆ مضى ذلك اليوم بطيئا متثاقلا وكأنه يمشى على قدمين من الرصاص ٠٠ ولم تدر مسز ارماين ان كانت ستقوى على الاحتمال حتى نهاية اليوم ، دون أن

تنفجر فى نوبة عصبية هوجاء !٠٠ فقد خيل اليها انها كانت تتشبث فى جنون بآخر ما بقى لديها من وشائج ضبط النفس والتماسك ٠٠ لقد لبثت طويلا تمثل دورها بحيث كان انهيارها وتخاذلها الآن ـ وهى على وشك بلوغ نهاية المأساة ـ امرا محزنا مخزيا ٠٠ أجل ، لسوف ترى نهاية المأساة اليوم حتما ، فقد استبد الاعياء والارهاق بقوى مسز ارماين جميعا ، وكانت مصرة على أن تقول لبارودى ذلك ٠٠ يجب ان ياخذها بعيدا ، او يدعها تلحق به فى اى مكان آخر ٠٠ لا بد لها ـ على اية حال ـ من أن تتخلص من حياتها مع نيجل ، فهى لم تعد تستطيع المضى فى تمثيل دور المخلصة المتفانية ، التى وجدت الأمن والدعة أخيرا ـ بعد الكثير من التجارب ـ بين ذراعى الكرامة والاعتبار !

ولم تستطع قضاء اليوم دون أن تثير شكوك نيجل وريبته ، الا بعد أن بذلت فى سبيل ذلك جهدا قاسيا مضنيا ، لا سيما وانه بدا فى ذلك اليوم شديد الانتباه اليها على نحو غريب !٠٠ كانت عيناه تستقران عليها دائما ، وترقبانها فى نظرات لم تكن تفهمها تماما ٠٠ ولم يتركها وحدها لحظة قط ، حتى لقد خالجها شعور عجيب بانه كان اليوم ، مثلها ، على وشك ال ٠٠ ـ ماذا ؟ ـ هل هو الافضاء بشىء ما والاعتراف بشىء ما ، أو ـ ربما ـ الكشف عن دخيلة قلبه على نحو ما ؟٠٠ انها لا تدرى ٠٠ كل الذى تدريه انه لم يكن فى حالة طبيعية ، وقد تساءلت مرة أو اثنتين، عما يمكن أن تكون الحقيقة الكاملة لأسباب شجاره مع ايزاكسون ٠٠ ولكن ـ مهما يكن من أمر ـ فان هذه الأسباب لم تكن تعنيها فى شىء ، لا سيما وقد كانت من الاهتمام المفرط بنفسها ـ فى ذلك اليوم ـ بحيث لم يعد يهمها شىء قط ، حتى علاقة ايزاكسون بزوجها !٠٠ لقد ذهب ايزاكسون ٠٠ ذهب دون أن يعمد الى تدميرها !٠٠ وهذا كاف كل الكفاية ، فلا داعى لأن تزعج نفسها اليوم بالتفكير فى أشياء تافهة !

واقترب المساء أخيرا ، ينساب فوق طرقات الذهب الرائعة ، فلما رات مسز ارماين بداية ذلك التبدل الذى حل بالسماء ، ازداد فى كيانها تاجج نيران الانفعال والقلق ونفاد الصبر ٠٠ فقد اصبحت تحس ـ اذ اقتربت ساعة لقائها ببارودى ـ بانها لن تستطيع احتمال لحظة اخرى من التاخير ٠ اما كيف تستطيع الفرار من زوجها ، فذلك ما لم تكن تعرفه ٠٠ ولكنها لم تهتم لذلك ولم تشغل نفسها به ، فما كانت لتستطيع ان تسوس نيجل على نحو ما ، ولن يكون فشلها الليلة فى ذلك أول فشل من نوعه !٠٠ على ان اللحظة الحاسمة لا بد ان تواليها وهى على استعداد !٠٠ انها واثقة من ذلك كل الثقة !

وفى تلك الليلة اتقنت زينة وجهها كما لم تفعل من قبل ، فطلت وجنتيها بطلاء وردى رقيق ، وسودت حاجبيها أكثر من المعتاد ، وزادت من الحمرة القانية فى

شفتيها ٠٠ ولقد وجدت عناء مضنيا فى ان تكسب وجهها مظهر الشباب ، وكانت عيناها تتقدان كالجمر من خلال ظلال الأصباغ المحيطة بهما ، كما كان شعرها منسقا فى اتقان على خير وضع يلائمها ٠ ثم ارتدت ثوبا من ثياب السهرة العارية ، كان يكشف عن أكبر قدر من قوامها الذى كان محتفظا بجماله ٠٠ ومضت تقنع نفسها بانها لم تكن تبدو الليلة أكبر سنا مما رآها بارودى آخر مرة ٠٠ وكانت المرآة قد خيبت ظنها فى قسوة ضارية ، ولكنها كانت عازمة على الا تصدق ما تقوله المرآة !٠٠ فلما أتمت استعدادها أخيرا ، هبطت الى الطابق الأسفل لتجتاز - للمرة الأخيرة - تلك المحنة من العذاب ٠٠ فهكذا كانت تسميها فيما بينها وبين نفسها ٠٠ عذاب العشاء على انفراد مع نيجل !٠٠ ولم يكن نيجل قد هبط بعد ، فلما همت بالخروج الى الشرفة ، اذا به يحضر الى حجرة الجلوس مرتديا ثوب العشاء ٠٠ وكانت هذه هى الليلة الأولى - منذ مرضه - التى ارتدى فيها هذا الثوب ، الذى بدا فى نظرها دليلا على أن نيجل يوشك ان يرتد سريعا الى حياته العادية النشيطة ٠ وكان مظهر المرض - الذى خيل اليها انها طالعته على وجهه هذا الصباح - قد تحول الى مظهر من الجد والرصانة ، لا بد انه كان دليلا على انفعال داخلى !

وعندما دخل الى الحجرة ، قالت لنفسها انها لم تر نيجل قط يبدو من قبل على هذا النحو من الغموض الحافل بالمعانى الخفية ، ولم تتصور قط من قبل ان فى وسعه أن يكون كذلك يوما من الأيام ٠٠ فقد كان فى وجهه شىء روعها وانقبض له قلبها !٠٠ وراح هو الآخر - وهو يدنو منها - يحدق فيها وكانه يراها بعينين جديدتين ، وقد بدا حازما ثابت العزم ، كما لو كان قد اتخذ قرارا خطيرا ، فى الفترة التى اعقبت لقاءهما الأخير ، منذ ساعة !٠٠ لقد كان طوال اليوم يرقبها بنظرات غريبة ، وهو بادى القلق والتفكير ٠٠ متخاذلا أحيانا ، ونشيطا متوفزا احيانا اخرى !٠٠ أما الآن ، فعلى الرغم من انه يبدو جادا منفعلا ، الا انه لاح - كذلك - حازما قوى العزم ٠٠ وكان هذا الحزم دليلا جديدا على الصحة !٠٠ وجالت عيناه فوق كتفيها العاريتين ، ثم قال : « أمن أجلى هذا ؟! » ٠٠ وكان صوته متهدجا ٠ ولكن اللمحة التى كانت فى عينيه تبدلت وهو ينظر الى وجهها ٠٠ فقالت فى فتور : « لقد اضطررت الى ذلك الليلة يا نيجل ٠٠ كنت اعلم اننى لا بد ان ابدو مخيفة بعد كل هذا السفر الشاق ٠٠ وينبغى أن تصفح عنى الليلة ! » ٠٠ فقال : « اننى لأصفح بلا ريب ، فقد كان جميلا منك أن تكبدى نفسك هذه المشقة من أجلى ، حتى ولو كنت ٠٠٠ تعالى !٠ لقد أعد العشاء ! »

وجذب ذراعها فتأبطه ، ومضى يقودها الى حجرة المائدة ٠ وبينما كانا يتخذان مجلسهما ، قالت فى غير اكتراث : « أين ابراهيم الليلة ؟ » ٠٠ وكانت تعلم اين

هو ، ولكنها تساءلت ذرا للرماد فى عينى نيجل ، الذى قال فى سذاجة : « لقد سألنى الاذن له بالذهاب الى القرية ليرى والدته ، فأذنت له » .. وتنهدت فى ارتياح وهى تتمثل ابراهيم وقد ذهب لاحضار الفلوكة التى ستقلها الى الضفة الأخرى من النيل !.. وسرى فى بدنها انفعال حار .. لسوف ترى بارودى بعد ساعتين ، وربما اقل من ذلك ! سوف تكون وحدها مع بارودى !.. ما اطول ما انتظرت ، وما أقسى ما احتملت من عذاب ، وما أشد ما كابدت من اخطار ، ومن فشل !.. ولكنها سرعان ما نسيت كل شىء فى غمرة تلك الفكرة التى اندفعت الى راسها اندفاع النبيذ المسكر : « سوف أكون الليلة مع بارودى » .. على انها لم تذهب الى أبعد من هذه الفكرة ، فلم تسأل نفسها عن اى نوع من الاستقبال ستجده منه .. كانت خمر عقلها قد بعثت فيها نوعا من الاستخفاف ، ومن الطيش ، حال دون التفكير العميق ، واكتسح كل المخاوف .. وبدا كان نوبة من الشباب - اتراها كانت آخر نوباته ؟! - قد وثبت فى اعماقها ، كما يسطع اللهب من كومة من الرماد !.. وقد جعلت اللهب يندفع ناحية نيجل !

وما لبث ان راح يقول من جديد : « اهذا من اجلى ؟! » .. كان يعيد تلك العبارة ليقنع نفسه ، ولكنه كان يردد فى نفسه أيضا تلك الكلمات المروعة التى لطم بها الرجل الذى انقذه من الموت : « أنت أيها الكاذب !.. أيها الكاذب اللعين ! » .. ولم يكن العشاء « عذابا » كما كانت تتوقع مسز ارماين ، فقد راحت تتكلم وتضحك كثيرا .. كانت مرحة طروبا ، رقيقة ، لطيفة .. تماما كما كانت فى تلك الأيام الخالية التى اعتادت فيها ان تسحر الرجال بمفاتنها العقلية مثلما تسحرهم بمفاتنها الجسدية المجردة !.. وكان نيجل يستجيب لحالتها هذه فى لهفة تكاد تكون صبيانية .. ولم يكن مرحها وطربها يبهجانه فحسب ، وانما بدا انهما كانا يطمئنان شيئا معينا فيه .. وقد لاحظت ذلك ، وادركت - اذ لاحظته - مع هذا الحزم الظاهرى ، وتحته ، ان هناك شيئا آخر .. كانت ثمة صفة مختلفة كل الاختلاف ، صفة غريبة عليها ، وان احست بها بما يشبه التخمين المبهم .. أحست بها ، بذلك الالهام الدائم اليقظة ، الذى يكمن فى نفوس بعض النساء . فقد كان مرحها الظاهر يمد يد المعونة الى شىء فى قرارة نيجل ، ويقوده الى الأمام قدما .. ولكن الى اين ؟.. كان من المحتوم ان تعرف الليلة .. او هذا هو المفروض !

وفرغا من العشاء أخيرا ، فنهضا ليذهبا الى حجرة الجلوس ، وعندئذ بدأ يتملك مسز ارماين حنين جنونى الى الفرار .. كانت واثقة من ان « الفلوكة » تنتظرها الآن فوق المياه الساكنة ، عند حاجز الأمواج ، وتحت الحديقة مباشرة .. ولو ان نيجل بقي في حجرة المائدة لحظة ليتم تدخين سيجارته ، لاستطاعت

هى ان تتسلل الى الخارج لتراها !٠٠ ومن الطبيعى انها لن تقدم على الرحيل الا بعد ان تطمئن الىصعود نيجل الى الطابق العلوى ، ولكنها كانت تتوق الى التحقق من وجود القارب فى الموضع المتفق عليه ٠٠ ومن ثم قالت فى تراخ ، وهو يهم باتباعها نحو الباب : « هلا دخنت سيجارتك هنا ؟ » ٠٠ فهتف : « هنا ؟!٠٠ وحدى ؟ » ٠٠ وكان صوته ينبض بالدهشة ، فغمغمتوهى تصطنع عدم الاكتراث بينما كانت تتقدم فى سيرها نحو باب الحجرة : « ظننت انك ربما اردت ان تشرب كاسا اخرى من النبيذ ! »

– كلا ٠٠ بل اننى قادم الى الشرفة معك !

– لفترة وجيزة فقط ، اذ ينبغى أن تأوى الى الفراش سريعا ٠٠ لا بد لى الآن – وقد ذهب الدكتور ايزاكسون – من أن أعود الى أداء دور الممرضة الصارمة ، حتى لا يعاودك المرض !٠٠ فانى موقنة من أنه سوف ينحى على باللائمة لو حدث هذا

– من أين لك هذا اليقين ؟!

فافزعتها نبرات صوته ٠٠ وكانت قد بلغت باب حجرة الجلوس ، فوقفت جامدة بلا حراك وهى تتلفت نحوه ٠٠ ثم قالت : « من أين ؟٠٠ عجبا ! لأن الدكتور ايزاكسون لا يثق بى على اى وجه من الوجوه ! » ٠٠ فقال : « ولكنى اثق بك » ٠٠ ومرة اخرى ، رأت تلك اللمحة الغامضة ترتسم على أساريره ٠٠ فقالت : « نعم ، أعلم ذلك ٠٠ فانك تختلف عنه ! » ٠٠ ثم فتحت الباب ،ودلفت الى الشرفة ٠٠ وما كادت تلجها ، حتى سمعت الملاحين النوبيين على ظهر اللولية وهم يبدأون انشودتهم العاطفية – كما اختارت أن تسميها فيما بينها وبين نفسها الليلة ! – وكان غناؤهم يشق قلبها ، ويخرق كل خلية من جسمها !٠٠ وودت لو تندفع نحوه ٠٠ الآن ٠٠ فى الحال ٠٠ دون دقيقة اخرى من الانتظار !٠٠ كان جسمها لا يطيق السكون ، وما أجبرته على الهدوء – وهى تجتاز الحجرة نحو الشرفة – الا بصعوبة بالغة ٠ وجاء نيجل فوقف ملاصقا لها ، فقالت : « آه ، لا بد لى من دثار هنا ! » ٠٠ فبادر قائلا : « ساحضره لك ! » ٠٠ وهتفتمتظاهرة بالمعارضة : « كلا ، كلا ٠٠ لا ينبغى أن تصعد الدرج ، فان هذا يتعبك ! » ٠٠ ولكنه قال : « لن يحدث هذا ٠٠ الليلة ! »

ثم خلفها ومضى ٠٠ وما كاد الباب يغلق وراءه ، حتى اندفعت كالسهم نحو الحديقة ، وهتفت : «ابراهيم !٠٠ ابراهيم، هل أنت هناك ؟» ٠٠فواتاها صوته : « أجل يا سيدتى ! » ٠٠ وما لبث ان تقدم نحوها من حافة الماء ، حتى وقف الى جانبها ٠٠ وقالت : « اننى لم أستطع بعد ان آتى ، ولكننى ساحضر بأسرع ما فى وسعى ! » ٠٠ فغمغم الفتى : « أجل ! » ٠ وراح ينظر اليها لحظة ، وما لبث ان قال : « لست ادري ما الذي سيقوله محمود بارودي لنا ٠٠ فان لديه فتاة على

السطح ! » ٠٠ فتساءلت : « على السطح ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « أجل ، على سطح اللولبية ! » ٠٠ وفى تلك اللحظة انبعث صوت نيجل : « روبى !٠٠ روبى ! اين أنت؟ » ٠٠ فصاحت بابراهيم : «ارجع ٠٠ ارجع ٠٠ انتظرنى ٠٠ انتظر !» ٠

وعاد نيجل ينادى : « روبى ! » ٠ فهتفت : « اننى هنا ٠٠ هانذى قادمة يا نيجل ! »

الفصل الرابع والاربعون

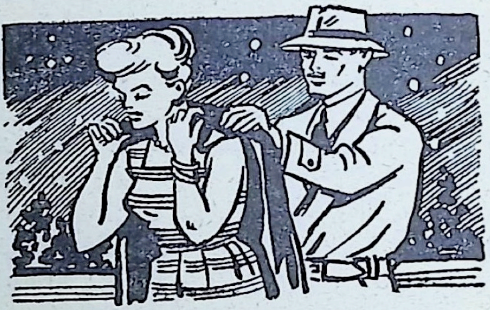

◆ **التقت** به فى الحديقة ـ على مسافة قصيرة من الشرفة ـ فاذا به قد ارتدى معطفا وقبعة رخوة ، كما حمل اليها معطفها .. وبادرها قائلا اذ رآها : « ماكان ينبغى ان تخرجى لتتمشى فى هواء الليل وذراعاك وكتفاك عارية ! » . ورفع معطفها الى محاذاة كتفيها ليساعدها على ارتدائه ، فأدارت ظهرها ، ورفعت ذراعيها ، وأخذت ترتديه وهى تقول : « ان الجو دافىء الليلة ! »

ـ ومع ذلك فلم يكن تصرفك من الحكمة فى شىء !

فقالت متظاهرة بمداعبته : « أو تريد ان تقوم ـ انت الآخر ـ بمهمة الممرضة ؟ » .. ولكن صوتها كان خلوا من كل أثر للمرح ، كما كانت أساريرها خلوا من كل أثر للسرور والحيوية . وما لبث نيجل ان قال :

ـ هل تحبين أن نتمشى قليلا ؟.. اتودين ان نذهب حتى ضفة النهر ؟

فبادرت قائلة فى عجلة : « كلا ، كلا .. ما ينبغى لك ان تتعب نفسك ! .. فلنجلس هنا ، وسأسلمك الى الفراش عما قريب !

— لم يحن الوقت بعد !

فقالت : « اننى . . » ، ولكنه قطع عليها حديثها قائلا : « لست أمانع فى النوم اصرارا على ان تعزفى لى .. كما ان الضوضاء المنبعثة من جانب النهر ستطغى على العزف وتزعجنا **.. لا ، ولكنى أحب ان أتحدث اليك .. بل لا بد لى من ان أتحدث اليك الليلة ! »**

فارتخى أحد جانبى فمها ، ولكنها أدارت وجهها فى عجلة فلم ينتبه الى اضطرابها .. وما لبثا ان ارتقيا الشرفة ، وبلغا بقعة تقع عليها اضواء الحجرة، فقال : «اجلسى هنا يا روبى،.. بجانبى ! » .. فجلست فى المكان الذى أشار اليه . وعلى الرغم من ان الرغبة فى الحركة استولت — مسعورة — على بدنها الكليل المحموم واخذت تنهشه ، فقد اضطرت الى ان تجلس ساكنة . وجلس نيجل ملاصقا لها .. وخيم الصمت لحظة، ثم قالت يائسة وهى تحاول ان تحطم هذا الصمت : « آه .. اننا لم نتناول القهوة بعد العشاء الليلة .. هل .. هل تحب ان أعد لك القهوة مرة أخرى ! »

قالت ذلك اعتباطا ، وهى تتخبط على غير هدى .. **كان كل مناها أن تتحرك، وان تفعل شيئا .. أى شىء ! .. كانت تحس بانه لا بد لها من ان تشغل نفسها بأية وسيلة ، والا انفجرت صارخة ، ثائرة** .. وعادت تهم بالنهوض، وهى تردد:

— هل أقوم ؟.. هل اذهب لاعدادها ؟

فرمقها نيجل بنظرة ثابتة ، وهو يقول : « لا يا روبى . . ليس الليلة ! » . فغاصت فى مقعدها ثانية، وقالت : « لا بأس .. ولكنى كنت أظن انك أحببت قهوتى ! » . فقال : « لقد أحببتها .. وسأحبها من جديد بعد اذ شفيت! » ..ومد يده

فتحسس يدها وهو يقول : « ولكن .. ليس الليلة ! » .. فتمتمت مستسلمة : « كما تشاء ! »

— ان لدينا .. هناك امور أخرى الليلة !

وظل يرمقها بعينين لا تطرفان ولا تتحولان . . فقالت : « امور أخرى ؟! .. اجل .. النوم ! .. يجب ان تنعم الليلة براحة موفورة .. وكذلك أنا ! »

ولقد اندفعت فى صوتها — رغما عنها — رنة من السخرية الضارية ، وهى تنطق بالكلمتين الاخيرتين .. فخشيت مما قد يحدث نتيجة لذلك ، وانفجرت فى نوبة من السعال المفتعل ، وهى تجذب المعطف حول صدرها وعنقها العاريين . . وكان لا بد لها من ان تجذب يدها من يد نيجل حتى تفعل ذلك ، فشعرت بأنها سعيدة راضية اذ أتيحت لها هذه الفرصة للخلاص من قبضته . وما لبثت ان قالت : «لقد ابتلعت كثيرا من الغبار والرمل فى القطار ! »

ومد يده ليمسك بيدها ثانية ، فاضطرت لأن تدعها له ، وعندئذ مضى يقول : « لسوف أنعم بالراحة الليلة ياروبى ، لأننى انتهيت الى قرار ! .. ولو اننى لم أصل الى هذا القرار .. لو .. لو اننى تبعت فكرتى الأولى ، وظللت على قرارى الأول ، لما استطعت ان أشعر براحة قط ! »

وراحت تحملق فى صمت وهو يستأنف الحديث قائلا : « روبى .. هل تذكرين ليلتنا الأولى هنا ؟ »

فقسرت نفسها على ان تقول : «نعم » !.. ولكن الا ينتهى قط ؟.. الا يدع يدها من يده ؟.. أفلن يدعها قط تفر الى النيل ، والى تلك الموسيقى الهمجية ؟ !

وعاد نيجل يقول : « أظن اننا كنا متقاربين — كل من الآخر — اذ ذاك . ولكن .. ولكنى أعتقد اننا الآن أشد تدانيا وأوثق تقاربا .. اليس كذلك ؟.. الا تشعرين بذلك ؟ » . فجهدت مسز أرماين حتى استطاعت أن تقول : « بلى ! »

ـ اننا الآن أشد تدانيا وأوثق تقاربا ، لأننى قد جربتك.. جربتك طيلة هذا المرض الفظيع !

واشتدت قبضة يده على يدها ، وهو يستطرد قائلا : « ولكن .. لعلك لم تجربينى ، كما جربتك ! » . فهتفت فى رياء وهى واجفة القلب : « أوه ! .. اننى لا أشك البتة فى.. » . ولم تتم عبارتها ، اذ قاطعها نيجل قائلا : « كلا .. ولكنى اريد أن تعرفينى وان تفهمينى ، كما أعتقد اننى قد فهمتك.. **وهذا هو السبب فى اننى سأقول لك شيئا .. شيئا رهيبا.. شيئا مروعا ! »**

فقالت فيما يشبه الهمس : « رهيبا ؟ ! .. مروعا ؟ ! »

ـ نعم ! .. ولم يكن فى نيتى أن أخبرك به قط .. ولكنى عندما رأيتك تعودين اليوم ، وتعودين لى مسرعة ، دون أن تتمى مهمتك التى ذهبت من اجلها ، بدأت أشعر على نحو ما بأن من واجبى أن أخبرك .. اننى أكون شخصا وضيعا لو اننى اخفيت عنك ، فمن حقك ان تعلمى ..

ولم تقل شيئا ، اذ لم يكن لديها أية فكرة عما هو مقبل على الافضاء به ! .. وراح يُؤكد القول ثانية : « نعم ، ان من حقك أن تعلمى .. » . وتمهل لحظة .. ولم يعد ينظر اليها اذ ذاك ، وانما راح يحدق فى الظلمات أمامه . ثم اردف قائلا : « لقد كنا هنا فى الليلة الماضية ، أنا وايزاكسون .. »

فتحركت فى مقعدها حين سمعت اسم الطبيب ، بينما تابع زوجها كلامه : « وكنت قبل ذلك قد سألته عما كنت مريضا به ، وعما أصابنى .. وكان قد وعدنى بأن يخبرنى فيما بعد ! » . وعاد ـ اذ ذاك ـ ينظر اليها ، فرسمت بشفتيها كلمة « نعم » دون أن تنطق بها .. بينما استأنف نيجل الحديث قائلا : « فلما جئنا الى هنا بعد العشاء ، سألته مرة أخرى ان يخبرنى .. وكنت قد تلقيت برقيتك »

فأومأت برأسها .. وتمهل نيجل لحظة ، ثم استطرد قائلا :

«وكان ايزاكسون قد عرف انك ستبكرين بالحضور قبل الموعد الذى كنا نرتقبك فيه بيوم » .. فأومأت برأسها ثانية ، واذ ذاك قال وكأنه يبذل جهدا : **« وعندئذ أخبرنى .. وسأخبرك بما قاله .. قال اننى كنت مسموما ! »**

وهنا تقلصت يدها بغتة تحت يده .. بينما كان يستطرد : **« كنت مسمما بنوع من مستحضرات الرصاص كنت اتناوله فى جرعات صغيرة جدا ، خلال فترة طويلة من الزمن ! » ..** فهتفت : « مسمما ؟ ! » .. فقال : « أجل ! »

– وهل .. وهل تصدق شيئا كهذا ؟

– نعم .. لأن ايزاكسون فى هذه الشئون ، عالم خبير !

فعادت تردد : « مسمما ؟! » .. ولكنها كانت تنطق بالكلمة بغير ذلك الفزع الذى كان يتوقع ان تستشعره .. كانت تنطق بها فى حركة آلية ، وتبلد عجيب ، فظن أن الدهشة ربما أذهلتها وعقلت لسانها .. ومن ثم فانه أردف وهو لا يزال يمسك بيدها فى قوة : « وليس هذا كل شىء .. فقد سألته عمن يمكن أن يرغب فى موتى ، على ظهر اللولية .. »

وامسك لحظة ، فبذلت جهدا خارقا حتى استطاعت ان تقول : « هذا .. هذا عين ما كنت أفكر فيه ! » .. وعاد نيجل يقول : «واذ ذاك .. قال لى شيئا فظيعا !» .. فهتفت : « ما هو ؟ »

– قال انك أنت التى فعلت ذلك !

فانتزعت يدها من يده فى حدة ، واعتدلت فى جلستها ، وهى تسند ظهرها الى المقعد .. وظلت جامدة بلا حراك ، بينما راحا يتبادلان النظرات .. ولم يقطع صمتهما سوى ذلك الغناء الذى لم يكن انبعاثه ينقطع من اللولية !

اذن فقد قيل كل شىء !

اذن فقد استطاع ايزاكسون أن يكتشف الحقيقة كاملة ، واخبر نيجل بها !

وعندئذ أحست بارتياح ، فكأنما انزاح عن كاهلها حمل ثقيل .. وكان يخيل اليها انها ــ فى جلستها تلك ــ لم تكن تحملق فى نيجل ، وانما كانت تحملق فى نفسها ! .. وكانت وهى تحملق فى نفسها تعجب لهذا الموقف. وعاد نيجل يقول : « قال انك انت التى فعلتها ! . . أو على الاقل كنت تعلمين ان السم يدس لى ، وكنت تقصدين ذلك عن عمد ! » .

فلبثت ساكنة لا تنطق ولا تتحرك .. وبينما كانت تفكر فى هذه الحقيقة التى انكشفت لزوجها ، راحت تفكر كذلك فى حقيقة اخرى ، هى : تلك الفتاة التى ذكر ابراهيم انها ترافق بارودى على ظهر اللولية ! .. وكان نيجل يقول اذ ذاك : « وعند ذاك طلبت اليه ان يذهب ، والا اخرجته بالقوة ! » . فهتفت : « آه ! » .

وكان فى صيحتها هذه نوع من الدهشة المصحوبة بالمرارة .. وخيل الى نيجل انه يرى فى هاتين العينين اللتين كانتا تنظران اليه ، لمحة تنم عن العجب والاستغراب .. ولكنه استمر فى حديثه قائلا : « وعندئذ انصرف بعد أن أخبرنى ببعض .. ببعض أشياء أخرى ! » .

وكان ثمة شىء فيها ــ فى وجهها ، أو مسلكها ، أو صمتها القاتل الذى لم تقطعه غير هذه الصيحة التى كادت تبدو هازلة ساخرة ــ قد بدأ يؤثر فى زوجها تأثيرا واضحا .. فعاد يردد : « بعض أشياء أخرى ! » .. فتساءلت : « وما هى ؟ »

ــ قال انه حضر من انجلترا لان بعض الشكوك قد ساورته فى أن شيئا ما لم يكن على ما يرام .. وأخبرنى بأنه التقى بك مصادفة فى معبد ادفو ، وانك قد ابديت شيئا من الذعر والهلع لرؤيته ، وانك لم تكونى أنت التى طلبت اليه ان يحضر الى اللولية ليرانى ، وانما كان الامر على العكس .. فهو الذى طلب اليك أن يحضر ولكنك رفضت السماح له بالحضور .. وقال انك لم تكتفى بذلك بل ارسلت اليه خطابا تطلبين اليه فيه الا

يحضر .. وقد أعطانى ذلك الخطاب ، وها هو ذا .. ولكنى لم أقرأه !

ثم دس يده فى جيب معطفه ، وأخرج الخطاب .. ولكنه اخرج معه شيئا آخر .. أخرج ذلك الصندوق المذهب الذى أهداه اليها بارودى فى بساتين البرتقال .. وقال: « ها هو ذا الخطاب ! » . ثم وضعه على المنضدة وأردف قائلا وهو يشير الى الصندوق المذهب : « وقد وجدت هذا فى حجرتك عندما ذهبت لأحضر لك المعطف .. انه ملىء بالمواد الشرقية التى تستعمل لزينة النساء ! »

وكانت فى عينيه نظرة مليئة بالتساؤل ، فقالت : « لقد اشتريته من القاهرة أمس ! » .. فوضع الصندوق على المنضدة ، ثم مضى يقول : « ولقد قال ايزاكسون كذلك أنه على الرغم من ذلك الخطاب ، فقد حضر فى تلك الليلة ،وسمعنا ونحن نتحدث فى الشرفة ، وسمعنى أقول أننى اتمنى لو أنه كان موجودا فى مصر ! »

* * *

• وتمهل نيجل ثانية .. اذ كانت القصة التى يرويها قد أيقظت شيئا فى ذهنه ثم قال : « لماذا لم تخبرينى وقتئذ بأنك كنت تعلمين بوجوده فى مصر ؟ »

فلم تفعل أكثر من أن ترفع حاجبيها الى أعلى .. كان الاستخفاف قد بدأ يطغى فى اعماقها شيئا فشيئا . . وكان يمتزج به احساس غريب قوى بالقضاء والقدر !

ـ هل كان ذلك لانك كنت تكرهين ايزاكسون كرها شديدا؟

ـ هكذا كان الامر !

ـ ولكن .. ولكنك قلت بعد ذلك ، عندما كان معى ، انك انت التى احضرته !.. قلت انك التقيت به فى المعبد فرجوته ان يحضر ليرانى .. اننى اذكر ذلك تماما !

ـ حقا ؟!

وكان يخيل اليها ان القدر هو الذى يحرك شفتيها ، وانه هو الذى كان يلقنها كل كلمة تقولها !

ـ نعم .. فلماذا حدث ذلك ؟.. لماذا قلت ذلك ؟

ـ اننى لا أذكر !

ـ أنت لا تذكرين ؟!

وعندئذ نهض من مقعده فى بطء ، ثم قال: « على ان اعجب شىء قاله ايزاكسون هو هذا » ، ووضع يده على ظهر مقعدها ثم مال قليلا الى الامام نحوها ، وقال مستطردا : « لقد ذكر انه ارغمك اخيرا على السماح له بالعناية بى كطبيب عن طريق .. عن طريق تهديده اياك ! » .. فهتفت : « آه ! »

ـ لقد هددك بأنه سيدعو البوليس ، اذا انت اصررت على الرفض !

فلم تنبس ببنت شفة .. كان كل ما يقوله يتدفق أمامها اشبه بالمياه الجارية .. لم يكن يعنى بالنسبة اليها أكثر من مجرد مياه جارية .. ولقد كان من الواضح انها قد كافحت وناضلت طويلا .. وكان انتقام الطبيعة منها ممثلا فى هذا الاستخفاف المروع الذى تملكها بعد كل ما مر بها من فزع ، ومن كفاح ، ومن صبر مكظوم يائس !

ـ روبى !

ـ ...

ـ روبى !

واذ ذاك تطلعت اليه قائلة : « نعم .. ماذا هناك ؟ »

ـ انك لا تقولين شيئا !

ـ ولماذا ينبغى أن أقول اى شىء .. ما الذى تريد منى أن اقوله ؟

ـ اريد ؟.. اننى .. ولكن ..

ثم انحنى فوقها ، واستطرد : « ما أراك تظنين .. ان الظنون

لا تراودك بأننى ..؟ »

وامسك عن الكلام ، فهتفت وكأنها تستحثه : « ماذا ؟ »

ـ لقد اخبرتك بكل هذا لاثبت لك ثقتى الكاملة بك .. لم اخبرك به الا لكى لا يكون بيننا أى شىء !.. حتى لا يقف بيننا أى ظل من الظلال ، كما يحتمل ان يحدث اذا اخفيت هذا الامر عنك !

ـ آه !

ـ واذا كانت هناك أمور لا أفهمها ، وهى امور تافهة بالنسبة لعلاقتنا ، فانى اعلم انك سوف توضحينها لى . اليس كذلك؟

ـ ليس الليلة !.. اننى لا استطيع ان اوضح شيئا الليلة !

ـ كلا .. فأنت متعبة .. غدا .. غدا !

فعادت تغمغم : « آه ! »

وعندئذ مال فوقها ثم أمسك بيديها ، وهتف قائلا : « تعالى معى الى الطابق العلوى.. تعالى! » فنهضت من مقعدها، بينما كان ماضيا فى تضرعه: « تعالى.. سأثبت لك !.. سأثبت لك! »

وكان فى هيئته ومسلكه نوع من القنوط ، والالم الحاد اللاذع .. كان يحاول أن يجذبها نحو المنزل .. ولكنها كانت تقاومه !.. وهتف بها: « روبى ! » .. فصاحت : « لن آتى معك ! »

فوقف ساكنا ،ثم عاد يقول وقد تبدلت نبراته: «روبى!» .. فعادت بدورها تصيح : «لن آتى معك! » .. واذ ذاك اشتدت برودة يديه وهما فوق يديها .. وما لبث أن تركهما ، فسقطتا الى جانبيها ..

وعندئذ قالت : «اذن فأنت لم تصدق ماقاله لك ايزاكسون؟»

كانت الفكرة الوحيدة التى تملكتها تقول لها : « لسوف اجعله يهبنى حريتى !.. لسوف أجعله يهبنى حريتى، وبذلك يضطر بارودى الى الاحتفاظ بى ! ». وصاح نيجل: « ماذا ؟» فعادت تقول : « اذن فأنت لم تصدق ما قاله لك ايزاكسون؟! »

ـ أصدقه ؟.. لقد طردته !

ـ أيها الغبى الابله !

ثم خطت مقتربة منه ، وعادت تقول : **« أيها الغبى الابله !.. ان ذلك صحيح كل الصحة ! »**

ثم اختطفت الصندوق المذهب من فوق المنضدة ، ولكنه انتزعه من بين يديها .. وراح يهمس وقد غدت شفتاه فى مثل بياض الثلج :

ـ من ؟.. من ؟

ـ محمود بارودى !

فسقط الصندوق من يده فوق أرض الشرفة ، وتناثرت منه معدات زينتها التى كان يبغضها دائما !

* * *

• **واستدارت** فى عجلة، وهى تحكم وضع المعطف حولها ،ثم انطلقت تعدو نحو ضفة النيل.. وهتفت: «ابراهيم !ابراهيم».

فواتاها صوته : « سيدتى ! »

وأقبل عليها ابراهيم فى خطوات واسعة ، فصاحت: «هيا.. خذ بيدى !. ساعدنى !.. اسرع ! »

وكانت تكاد تلقى بنفسها من فوق ضفة النهر ، وهى تهتف: « أين القارب ؟.. آه ! »

فقد تعثرت وهى تخطو الى القارب ، حتى كادت تسقط بداخله ، وصاحت فى لهفة : « هيا .. ادفعه بعيدا ! »

ثم جلست منتصبة الظهر فوق المقعد الضيق الصلب وراحت تحدق فى اضواء اللولبية ، وما لبثت ان قالت لاهثة بعد دقيقة: « هناك فتاة على السطح ! »

ـ نعم يا سيدتى .. فتاة واحدة !.. ولست ادرى ما اذا كان محمود بارودى سيسر لذهابنا الآن ..

ـ ابراهيم ؟

ـ سيدتى !

ـ عليك أن تنصرف بمجرد أن أصعد الى ظهر اللولية .. خذ القارب وعد به الى الاقصر !

ـ وهل اتركك ؟

ولكنه كان يبدو مرتاحا الى ذلك !.. اما هى فقد اجابت :

« نعم .. اننى .. سأعود فى « فلوكة بارودى ! »

ـ اننى على استعداد لانتظارك حتى .. حتى تستعدى للعودة

ـ كلا ، كلا .. لست اريد ذلك .. عدنى بأنك ستعود بالقارب الى الاقصر على الفور

فغمغم يقول : « ان كل ما تريدينه سيكون لك ! »

ـ ما أشد ارتفاع صوت الملاحين فى غنائهم !

وكانا قد أصبحا قريبين من اللولية ، فراحت مسز أرماين تحملق بعينين ضاريتين الى نوافذ القمرات المضيئة ، والى السطح العلوى ، والى الشرفة التى كانت فى المؤخرة ، حيث طالما جلست مع نيجل .. **كانت تتلظى بنيران اللهفة والاشتياق، وكانت فريسة انفعال عظيم جعلها تنسى تعبها الجسمانى ، وتنسى كل شىء الا أنها قد أصبحت ـ أخيرا ـ دانية من بارودى !.. كان زوجها قد اختفى من الوجود بالنسبة اليها.. لقد ذهب الى الأبد ، ذهب مع الماضى كله !.. لم يعد يفرق بينهما النهر فحسب ، وانما أصبح يفرق بينهما خليج عظيم لا يمكن ان يعلوه جسر قط ، ولا سبيل الى اجتيازه فى يوم من الأيام !**

« بارودى !.. بارودى !.. بارودى ! »

لقد غدا بوسعها اخيرا ان تكون لبارودى ، جهرة ! . . ونسيت فى تلك اللحظة كل شىء ، حتى نفسها !.. نسيت ان تفكر حتى فى هيئتها !.. كانت فى اعماقها امرأة تستطيع أن تجيد تحسس طريقها ، وكانت هذه المرأة تفرض نفسها عليها الآن !

ولمس القارب جانب اللولية ، فظهر أحد النوبيين ، وتوقف الغناء على ظهر الدهبية بغتة .. وبادرت مسز ارماين الى الوقوف فى القارب، وقالت: «أذهب الى الاقصر يا ابراهيم» !.. اذهب فى الحال ! »

ـ سأذهب سريعا يا سيدتى !

وقفزت الى سطح الدهبية، ثم وقفت ترقبه وهو ينصرف.. وظلت كذلك حتى تضاءل القارب فوق المياه المعتمة، فاستدارت على عقبيها .. وعندئذ وجدت نفسها أمام حمزة وجها لوجه!..

فهتفت مرتاعة : « حمزة ! »

كانت عيناه الشبيهتان بثمرة اللوز ترمقانها ، فخيل اليها انها ترى فيهما نوعا من الوعيد !.. وأحست فى تلك اللحظة ـ حتى وهى فى غمرة انفعالها المتأجج ـ كأنما مسها شىء شديد البرودة .. شىء فى برودة الخوف !

وما لبث حمزة ان قال : « نعم ؟! »

ـ يجب أن أرى محمود بارودى !

ولكنه لم يتحرك . . ولم يتبدل شىء من تعبيرات وجهه وعينيه .. وكان النوبيون يجلسون القرفصاء فى حلقة لاتبعد عنهما كثيرا ، وهم ينظرون اليها فى هدوء، كما تنظر الحيوانات الى شىء طالما رأته من قبل !

وعادت تقول : « أين هو ؟.. أين هو ؟ »

وما لبثت أن اندفعت بغتة تهبط الدرج، مارة تحت الحروف العربية المذهبة، ثم مضت قدما نحو حجرة الاستقبال الأولى.. وكانت الغرفة مضاءة ، ولكن أحدا لم يكن بها ، فانطلقت تعدو فى الدهليز ، وهى تجذب الستار البرتقالية اللون، ثم اندفعت الى حجرة « الفسقية » !

وكان بارودى جالسا القرفصاء فوق الأريكة ، مرتديا ثيابا وطنية: الجلابية والطاقية.. وقد ثنى ساقيه تحته، واستغرق فى تدخين الحشيش، محملقا فى الكرة المذهبة وهى تعلو وتهبط

فوق الماء !.. وعلى مقربة منه كانت تضطجع فتاة شرقية ، وقد أحاطت بها الوسائد تسندها !.. كانت تبدو فى مقتبل العمر ، ولعلها كانت فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة .. وكان وجهها مليئا بالطلاء ، وعيناها مظللتين بالكحل، على حين كانت أظافر يديها وقدميها مصبوغتين بالحناء .. وكانت ترتدى«الشنتيان» وقميصا من طراز خاص ــ يدعى«التوب»ــ وقد صنعا من حرير رقيق شفاف ، ذى ألوان صارخة، مموه ب« الترتر » ! .. وكان حول ذراعيها السمراوين الشاحبين عدد من الأساور الضيقة .. وكانت ــ هى الأخرى ــ تدخن غليونا صغيرا ذا مبسم من المرجان !

ووقفت مسز أرماين على باب الحجرة جامدة بلا حراك ، وراحت تنظر الى الفتاة .. وعندئذ .. عندئذ فقط ، تذكرت ــ فى جزع وذعر ــ هيئتها هى !

وهتفت قائلة : « بارودى !.. بارودى ! »

ولم يجب بارودى ، وانما راح يحملق فيها .. واذ رأت ذلك ، بادرت الى معطفها تفك أزراره بأصابع مرتعدة، ثم تركته يسقط على الأرض !.. وعادت تهتف من جديد : «بارودى!»

ولكن بارودى ظل يحملق فيها .. وكان يمسك بقصبة غليونه باحدى يديه ، وان كان قد كف عن التدخين. واذ ذاك شعرت باليأس يتملكها دفعة واحدة .. بيد أنها سارت الى وسط الحجرة ، وهى تنظر الى الفتاة وتردد : « أطردها خارجا !.. اطردها خارجا ! »

وكانت تتكلم بالفرنسية .. فأجابها بالفرنسية أيضا : « ولماذا ؟ »

ــ لقد تركت زوجى.. وتركت الفيللا.. ولم يعد فى وسعى أن أعود اليهما قط !

فقال وهو لايزال يحملق فيها : « ولم لا ؟ »

ودفع رأسه الى الوراء ، فبدا عنقه الضخم من بين ثنيات

الوشاح الحريرى الذى كان يتدلى فوق صدره القوى . . وهتفت المرأة : « انه يعلم ! »

ـ يعلم ؟! . . ومن الذى أخبره ؟

ـ أنا التى أخبرته !

فلما نظر اليها شعرت بالبرودة تسرى فى بدنها كأنما غمرت فى ماء مثلج . . وسألها : « هل أخبرته عنى ؟ »

ـ لم أقل له كل شىء عنك . . ولكنه يعلم اننى . . اننى قد تسببت فى . . مرضه ! . . واننى كنت راغبة فى موته ! . . لقد أخبرته بذلك لأننى كنت أريد ان أتخلص منه . . كان ينبغى ان أتخلص منه حتى اكون معك !

وانبعث رنين الأساور على ذراعى الفتاة الشرقية عندما تحركت فى مجلسها خلف مسز ارماين . . فعادت هذه تصيح: « أطردها الى الخارج . . اطردها الى الخارج ! »

ـ حمزة !

وكان بارودى قد نطق بهذا النداء ، دون ان يرفع صوته ، ومع ذلك فان حمزة ظهر عند الباب للتو ! . . فأخذ بارودى يخاطبه بالعربية فى سرعة . . وكانت الكلمات تتدفق من حلقه فى قوة تشبه الغضب ، كما تبدو اللهجة العربية عادة لأولئك القادمين من العالم الغربى ! . . ترى ماذا كانت تعنى هذه الكلمات ؟ . . لم يكن بوسع مسز أرماين ان تدرى . . ولكنها ادركت عن يقين أن مصيرها كان معلقاً بها !

ولم يقل حمزة شيئاً ، الا انه أشار اليها أن تتبعه . . ولكنها وقفت جامدة بلا حراك . . ثم قالت : «بارودى!» . . فقال لها بالفرنسية : « اذهبى مع حمزة ! » . . فمضت دون أن تضيف كلمة أخرى ، وسارت على مشهد من الفتاة ، حتى خرجت من الحجرة !

وطلب اليها حمزة ـ باشارة من يده ـ ان تتقدم أمامه ، فراحت تسير فى الدهليز فى بطء وتمهل ، حتى بلغت حجرة

الاستقبال الأولى .. وعندئذ ترددت قليلا ثم التفتت خلفها ، فأشار اليها حمزة أن تستمر .. ومرت من تحت شعار اللولية، للمرة الأخيرة !.. فلما بلغت سطح الدهبية وقفت تنتظر !

وكانت « الفلوكة » الصغيرة مربوطة الى جانب اللولية ، فأمسك حمزة بذراع مسز ارماين .. **وعلى الرغم من أن يده كانت صغيرة لينة ، الا أنها بدت لها — اذ ذاك — وكأنها قبضة من حديد لاتستطيع منها فكاكا !.. ونزلت الى القارب .. ترى الى أين يأخذونها ؟.. وخطر لها عندئذ ان بارودى قد دبر خطة معينة ، وانه لم يشأ ابقاءها فى الدهبية ، وقد يكون له منزل آخر فى الاقصر .. أو .. أو لعلها ذاهبة الى فيللا « ليلة الذهب » ؟.. أيكون حمزة ذاهبا بها الى هناك فى ظلام الليل ؟**

وجلس حمزة ، ثم امسك بالمجدافين ، ودفع القارب بعيدا نعم .. لقد كان يجذف نحو الجنوب ، ضد التيار !.. وعندئذ انبثق فى أعماقها أمل وحشى !

وتضاءلت أضواء اللولية.. وكان حمزة ماضيا فى التجذيف ضد التيار،ولكنها لاحظت ان «الفلوكة» كانت تتجه الى وسط النيل .. وكان التيار شديدا قويا ، فلم تكن «الفلوكة» تتقدم الا قليلا ، أو لعلها لم تكن تتقدم على الاطلاق .. وتاقت مسز ارماين الى ان تتناول مجدافا وأن تساعد القارب فى رحلته الى الجنوب !.. ولكن الشاطىء الشرقى للنهر كان يزداد وضوحا، وهو ينبلج وسط الظلمات!.. **كان يبدو كما لو أنه كان يقترب نحوهما ، ويسترق الخطى دانيا منهما !.. وما لبثت أن رأت أنوار « فيللا أندرود » الى جوارها !**

وغمغمت قائلة : « حمزة !.. حمزة ! »

ولكنه ظل يجذف فى صمت ، وقد وهنت قواه وبدا عليه الاعياء .. انهما ما كانا ليستطيعان المضى ضد التيار الا اذا هو ضاعف من قوته فى التجذيف . لماذا لم يصحبا اثنين من

النوبيين معهما ؟

وتلاشت انوار الفيللا . . . كانت قد اختفت وراء الضفة العالية المنحدرة . . فصاحت مسز ارماين: «حمزة !. . حمزة!»

ولكنها أحست بصدمة خفيفة ، اذ مست « الفلوكة » قاع المياه الضحلة القريبة من الشاطىء . . وخطا حمزة الى الشاطىء فى هدوء ، وبتلك الرصانة والدقة اللتين كان يتميز بهما ، ثم أشار اليها أن تصعد وراءه !

وكانت موقنة ، من انها غير راغبة فى الصعود ، ولكنها مع ذلك - صعدت على التو . .

وما كادت تقف فوق الرمال - بالقرب من دغلة الشجيرات المنخفضة - حتى دفع حمزة الفلوكة الى النهر ، وهو يقفز الى داخلها فى الوقت نفسه ، ومضى يجذف متوغلا فى المياه المظلمة! .

وراحت تنادى : « حمزة ! » . .

ثم اندفعت تصرخ كالمجنونة : « حمزة ! . . حمزة ! »

وكان القارب يشق طريقه فى النهر ثابتا ، سريعا ، حتى اختفى !

* * *

◆ **بعد** زهاء ساعة ، ظهرت عند حافة حديقة « فيللا اندرود » امرأة تمشى مترنحة ، فى بطء شديد كالمأخوذة . . وراحت تشق طريقها خلال الحديقة ، وتدنو من الشرفة حيث كانت الأنوار تنبعث من حجرة الجلوس خلفها ، خلال الباب الطويل المفتوح . . فلما حاذت الشرفة ، وقفت جامدة مكانها وراحت تتطلع الى داخل الحجرة !

ورأت نيجل يجلس القرفصاء على احدى الأرائك ، وقد وضع مرفقيه فوق ركبتيه واخفى وجهه بين يديه . . كان وحده ، وكان يجلس ساكنا بلا حراك !

فوقفت لحظة تحدق فيه . . وما لبثت أخيرا ان تحركت ،

وصعدت الى الشرفة ، وكأنما استقر رأيها على امر معين !

وفى اللحظة التى كانت تخطو فيها الى الشرفة ، فتح باب حجرة الجلوس ، ودخل ابراهيم وهو يبدو مبهور الانفاس مرتاعا !

وكان خلفه .. ماير ايزاكسون !

ووقفت المرأة على الشرفة جامدة لاتتحرك .

ولبث ابراهيم واقفا بجوار الباب . . ولم يتحرك نيجل قط، فتقدم ماير ايزاكسون مسرعا الى داخل الحجرة، وكأنما كان ذاهبا الى نيجل .. ولكنه عندما بلغ وسط الحجرة ، بدا وكأنما روعه شىء ما ، فوقف فى مكانه دفعة واحدة ، ثم تلفت نحو الباب المفتوح فى تساؤل ، وما لبث ان سار نحو الشرفة .. ولكنه وقف ثانية فى مدخلها .. فقد رأى المرأة !

وظل ينظر اليها لحظة ، كما كانت تنظر اليه بدورها !

وعندئذ تقدم الى الأمام وأعمل يديه فى سرعة ، فأمسك بمصراعى الباب اللذين كانا مرتكزين على جدار المنزل ، ثم جذبهما نحوه الى الداخل .. فالتقيا فى ارتطام حاد ، وحجبا الغرفة عن عينى المرأة المحملقتين !

ولم تنتظر المرأة بعد ذلك شيئا ، اذ أدركت ان هذه اشارة النهاية .. نهاية المأساة ! .. فأسرعت تشق طريقها الى بوابة الحديقة، وتندفع منها الى الطريق المهجورة وراءها، ثم تختفى بين أطواء الظلام .. وانطلقت على غير هدى ، متجهة نحو التلال البعيدة التى تحمى صحراء العرب !

« تمت القصة »

هذه الأسماء الضخمة من روائع القصص
والكتب العالمية ، هى بعض ما صدر من أعداد سلسلة

مطبوعات كتابى

التى تؤدى رسالة مكملة لرسالة كتابى

فرسالة « كتابى » الذى يصدر فى أول كل شهر ، هى نشر ملخصات ٨ أو أكثر من الكتب العالمية – الحديثة والقديمة – فى كل عدد ، لاعطاء فكرة كافية عنها لمن لا يتسع وقته لقراءة نصها الكامل .

أما رسالة « مطبوعات كتابى » ، التى تصدر فى منتصف كل شهر ، فهى نشر الترجمة الكاملة الامينة لكتاب واحد فى كل عدد ، من شوامخ الكتب العالمية التى لا غنى لأى مثقف عن قراءتها واقتنائها

فاستكمل مجموعتك منها من الإدارة (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) وترقب اعدادها الجديدة فى منتصف كل شهر

مطبوعات كتابى
جين اير
مطبوعات كتابى
الخطيئة الأولى
حياة امرأة
مطبوعات كتابى
أوديب

قصة مدينتين
مطبوعات كتابى
مدام بوفارى

يصدرها : حلمى مراد

مطبوعات كتابى
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

مطبوعات
كتابى
يصدرها : حلمى مراد
تولستوى
هيجو
ديستويفسكى
روسو
جميله

المفاجأة المنتظرة لمطبوعات كتابى !

أيها القارئ العزيز.. منذ صدرت سلسلة "مطبوعات كتابى" وهى تحاول تذليل العقبات التى تقف بينها وبين إصدار عدد من الشوامخ الكبرى فى الأدب العالمى ، التى تحلم بقراءتها بنصها الكامل منذ زمن بعيد.. ويسر "مطبوعات كتابى" أن تزف إليك اليوم بشرى تذليل الكثير من تلك العقبات ، بحيث سيكون فى مقدورها - فى القريب العاجل - أن تقدم لك النص الكامل لسلسلة من الأعمال الأدبية الضخمة التى ينتظرها قراء العربية منذ أمد طويل !

ترقب التفصيلات فى العدد القادم

ملحوظة : إذا كان قد فاتك الحصول على نسختك من الجزءين السابقين من قصة "بيلاّ دونا" أو أحدهما ، فلا تهمل فى اقتناء هذا الجزء الأخير ، واطلب ما فاتك من إدارة كتابى (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) قبل نفاده